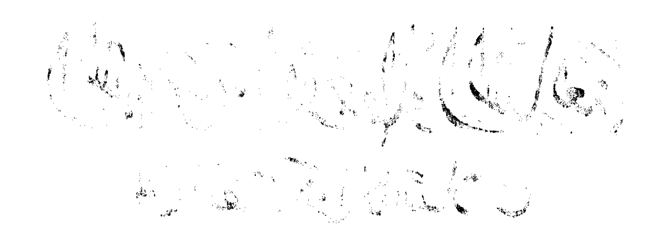
الشبهات والأخطاء الشائعة
في الفكر الإسلامي

موسوعة شاملة لشبهات الأدب والثقافة والتاريخ
والسياسة والاجتماع وتراجم الأعلام والمؤلفات
تضم أكثر من مائتى مصطلح

أنور الجندي

دار الاعتصام





بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل الى البحث

في طريق مسيرة الفكر الاسلامي والثقافة العربية الطويلة عبر القرون الطويلة وبالاحتكاك مع الثقافات المختلفة ، فانه قد صادف عديدا من المذاهب والدعوات التي حاولت أن تنحرف به عن مذاهبه وقيمه ، وقد عادت هذه الشبهات والأخطاء فتجمعت مرة أخرى في السنوات المائة الأخيرة مجددة كل التحديات والافتراءات التي بثتها الباطنية والمجوسية والفلسفات الوثنية ودعوات التحلل والانحراف والزندقة والاباحة التي عرفت في عصور ما قبل الاسلام وجمعها الاستعمار والصهيونية العالمية تحت اسم (التغريب والغزو الثقافي) وجند لها قوى متعددة منها التبشير والاستشراق والشعوبية ومعاهد الارساليات وكثير من الصحف والدعاة والأسماء اللامعة .

ولقد استثمرت في السنوات الأخيرة هذه الشبهات والأخطاء وأصبحت نتيجة لترديدها المتصل ولتسربها الى مناهج الدراسة والى أصول الثقافة والى مصادر التاريخ خاصة تلك النظريات الوافدة التي فرضها التغريب في مجال الأدب والأجناس ومقارنة الأديان وعلم النفس وفلسفات الاجتماع والاقتصاد والتربية والقانون — كل هذا جعل كثيراً من هذه الشبهات تبدو وكأنها حقائق ، أو يجرى التسليم بها دون مراجعة أو تعمق في ظل من الغفلة عن الأهداف الماكرة التي تختفي وراءها .

بل ان كثيرا من هذه الشبهات قد أغرت كثيرا من أصحاب الأقلام المخلصة من غير قصد ، نتيجة لاستشراء الخطأ المتداول مثل مايسمى باستبداد السلطان عبد الحميد أو ما يسمى بالاستعمار العثماني ، وكلاهما من الكلمات التي نسقتها يد التآمر في محاولة تمزيق وحدة العالم الاسلامي واثارة الشبهات حول حقائق تاريخية أريد لها أن تدفن وتختفي .

والحق اننا في أشد الحاجة اليوم الى العمل المتصل لتحرير الفكر الاسلامي والثقافة العربية من دخائل التبشير والتغريب والشعوبية والكشف

عن الأخطاء الشائعة وتصحح المفاهيم وتطبيق قانون الجرح والتعديل على الـكتاب الذين عرفوا بالخصومة لفكر العرب والمسلمين ، والذين لايتركون فرصة تمر دون النيل من قيم فكرنا وذاتية امتنا وكياننا ، وليست هذه المحاولة بدعا فى تاريخ الفكر الاسلامى والثقافة العربية ولـكنها تبدو متواضعة ازاء محاولات مخلصة من أهمها :

رد ابن تيمية على المناطقة ، ورد الغزالى على الباطنية ، ورد ابن حزم على الفرق ، وكتاب تلبيس ابليس لابن الجوزى ، وكتاب العواصم من القواصم للقاضى ابن العربى ، وكتب أخرى فى العصر الحديث منها الرد على الدهريين لجمال الدين الأفغانى ، والاسلام والنصرانية بين العلم والمدنية للشيخ محمد عبده وشبهات النصارى وحجج الاسلام للسيد رشيد رضا .

ومن الحق أن يقال أنه قد أصبحت هناك ضرورة لقيام علم يطلق عليه .

(علم المواجهة وكشف الشبهات وتصحيح المفاهيم) .

يقوم على اساس تحرير قضايا الفكر ، ودراسة المصطلحات المختلفة السارية المتداولة ، وكشف وجهة نظر الفكر الاسلامى فيها ، وابراز مفهوم الاسلام للقيم المختلفة ، وهو مفهوم يختلف قطعا عن مفاهيم الفكر الغربى والفكر الشرقى جميعا لهذه القيم .

ولا شك أن الدعوة الى تصحيح المفاهيم عمل كبير الاهمية فى هذه المرحلة من حياة امتنا وحياة الفكر الاسلامى والثقافة العربية ، اذ يتطلب القاء نظرة واسعة على الأخطاء الكثيرة التى ترددت فى العصر الحديث وتضمنتها الأبحاث والمؤلفات والكتب الدراسية المقررة والمفاهيم التعليمية المختلفة التى حاول النفوذ الأجنبى والاستعمار الفكرى فرضها ودعمها وتعميقها وصقلها وتجديدها كلما بليت واعطاءها صورة الحقائق الأساسية التى لا تقبل الشك بينما هى زائفة ليس لها أصل علمى تعتمد عليه أو سند تاريخى يضمن الثقة بها ، وقد شجع على ذيوعها سقوط فكرنا فيما يسمونه غفلة التقليد والترديد الببغائى دون وعى حصيف او تقليب واع او محاذرة يقظة لكل مايقوله خصوم هذه الأمة وهذا الفكر .

ونحن لا ندعو الى الخصومة ازاء كل ما يقال ولكن نطالب بالحذر واليقظة حتى لا نخدع ولا يدلس علينا بالزائف من القول الذى ينقض حقنا وحقائقنا .

ولقد ظهرت فى السنوات الاخيرة مجموعات متعـددة من الشبهات والأخطـاء :

منها شبهات التبشير ، وشبهات الاستشراق ، وشبهات بروتوكولات صهيون ، والاسرائيليات الجديدة ، وشبهات المذاهب والدعوات المـادية والاباحية الوثنية التى صيغت فى قوالب علميـة براقة خادعة لا تستطيع أن تصمد أمام ضوء الحقائق الكاشف الذى يعريها ويفضح خبيئتها .

ولقد كان الفكر الاسلامى ولا يزال — استمدادا من مصادره الاسلامية القرآنية — على المحجة البيضـاء ، ولـكنه أصيب بالانحراف والاضطراب حين انصرف أهله عن أصوله القائمة على التوحيد والحق والعدل وترابط المادى والمعنوى معا .

ولقد واجه الفكر الاسلامى عملية الغزو الفكرى والثقافى منذ قديم ، واستطاع فى معركته الأولى أن يقصر من كل هذه الزيوف ، وأن يستعيد طابعـه وذاتيتـه بعد حرب عنيفة مع الوثنيـات اليونانيـة والمجوسية والهندية القديمة .

وهو اليوم قادر أيضا على أداء هذه الرسالة ، يقظ لكل مايراد به ، متفتح الآفاق لكل الثقافات والمفـاهيم ، يأخذ منها ويرفض على قاعـدته الأساسية العميقة الجذور ، وهو بقوته الذاتية المستمدة من القرآن قادر على كشف الزيف ورفض الخطأ ودحض الشبهة .

ولقد كان على طلائع اليقظة العربية الاسلامية فى العصر الحديث أن تعرف هدف حركة التغريب من بث هذه الشبهات والأخطاء ، وهو هدف واضح يرمى الى توهين القيم الإسلامية وتفتيت وحـدة الفكر الاسـلامى والثقافة العربية واثارة الخلاف بين الشعوب الاسلامية والعربية ، ووضع اسفين ضخم بين العرب والأمم الاسلامية كالترك والفرس وغيرهم ، وكذلك بعثرة القوى الوطنية .

ولقد كانت حركة اليقظة العربية الاسلامية منذ جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده على علم تام بأن هنـاك محالة دائمة مستمرة لتحريف الفكر الاسلامى (أصوله وتعاليمه وأحكامه) تارة بالانتقاص منها أو بالزيادة فيها وثالثة بتأويلها على غير وجهها .

وكان هدف التبشير والإستشراق أساسا هو العمل على الحط من شأن العرب والمسلمين فى نفوسهم وتشجيع العمليات جريا وراء تفكيـك عروة وحدة الفكر .

ولقد جرت محاولات كثيرة لفصل الأدب العربى المعاصر والفكر العربى المعاصر عن أصولهما الاسلامية ومصادرهما الأصلية ، ثم تبين أن هــذا العمل كان عسيرا ومستحيلا .

كما جرت المحاولات لتدمير الشخصيات النابغة فى تاريخنا وفكرنا ، وخاصة تدمير الغزالى والمتنبى وابن خلدون ، كما جرت لاعلاء شــأن أبى نواس وبشار والحلاج ، وعمدت الشبهات الى اتهــام الفكر الاســلامى بانتقاص الحرية ، وعرضت حياة ابن رشد والسهروردى أمثلة على ذلك ، واتصلت الشبهات بمختلف ميادين الفكر سياسية واجتماعية ، كما ظهرت عشرات من الكتب تحاول أن تفرض مفهوما زائفا أو خاطئا فى سبيل خدمة هدف التبشير والاستشراق لحساب الغزو الثقافى والاستعمار والصهيونية ، وجرى البحث لاعلاء شأن كتب المحاضرات والنوادر والأساطير التى يرددها الرواة ، وجرت المحاولات على أن تكون هذه الكتب مصادر علمية يعتمد عليها فى استخراج صورة زائفة للمجتمع الاسلامى .

وقد نسقت هذه الشبهات فى موسوعات ودوائر معارف أنيقة أصبحت فى أيدى الباحثين يلجأون اليها فى كل وقت ، دون معــاناة ، غير آبهين بمدى الخطر الذى يحيط بها والهدف البعيد المدى الذى يراد من وراء نشر هذه الشبهات الزائفة ووضعها فى قالب علمى براق .

ولقد تبين بما لا يدع مجالا للشك أن هذه الشبهات والأخطاء انما يراد بها القضاء على ذاتية العرب والمسلمين واخراجهم من قيمهم ومزاجهم النفسى واثارة اليأس فى نفوسهم وتشكيكهم فى مقدرتهم وتشويه معالم فــكرهم وأدبهم ، وما تزال هذه الحملات مستمرة لم تتوقف ، بصــورها المتعــددة ومصادرها الــكثيرة ، وهى تدور حول جزئيات منفصلة ، من هنــا ومن هناك ، ترتفع وتخفت ، تغير أثوابها بين حين وآخر ، وتلون أساليبها ، دون أن تغير أهدافها وغايتها الــكبرى ، وذلك فى محاولة للتــأثير على النفس العربية الاسلامية وافساد ثقتها بقيمها ودفعها الى طريق اليأس والشك والنظر بعين الانتقاص الى مقوماتها التى هى مصدر قوتها ، التى هى الطريق الوحيد الذى يجب عليها أن تسلكه فى سبيل دحر عدوها ، ورد عدوانه فى مختلف مجالات الفكر والسياسة والحرب ، ومن الحق أن يقال أن المنطلق الوحيد للقوة والنصر والحرية ، هو تصــحيح المفــاهيم وتحريرها من الزيوف والشبهات والتماس المنابع الأولى والمصادر الأصيلة ، وهذه نفسها هى القوى التى اتخذها المسلمون والعرب كلما ادلهمت أمامهم الأحداث ووقعوا فى الأزمات والأخطار .

ومن أبرز التحوطات ضد الشبهات والأخطاء العمل على تصنيف الكتاب ، وأخطر الكتاب هم أصحاب الولاء الأجنبى ، هؤلاء الذين لا يؤمنون بقيمنا ولا بأمتنا والذين يكشفون أنفسهم دائما عند ما يعادون التراث والقيم والدين ، وحيث لايجرءون على مهاجمة القيم العربية الاسلامية صراحة فانهم يتحدثون عن العقل والنقل ، والسلفية والتراث والماضى والقديم ، وينسون أنهم بذلك يكشفون دخيلتهم ، فهم يقصدون الاسلام ويعجزون عن اعلان اسمه ، ولعلهم يعلمون جيدا أن هناك فوارق بعيدة بين حملة الغرب على الدين باسم القديم والتراث وبين موقفنا من الاسلام الذى ليس تراثا ولكنه قيم حية متجددة نابضة بالقوة ، تختلف اختلافا كبيرا عن الأساطير التى يريدون تجديدها . ونظريات الاباحة والمادية والوثنية التى يروجون لها .

ولقد عرضنا فى هذا البحث ابرز هذه الشبهات واقربها الى المثقف العربى فى المجال العام على نحو مختصر موجز يمكن من النظرة الخاطفة فالاحاطة السريعة .

ولا ريب أن الباحث المتطلع الى التوسع فى البحث والافاضة فى تقصى عناصره وأبعاده يحتاج الى مصادر تفصيلية فى كل مادة من المواد الموجزة وقد أشرنا هنالك الى بعض المراجع لمن أراد استقصاء والاستزادة

وان كنا قد تناولنا هذه الموضوعات جميعا فى مؤلفاتنا وخاصة فى هذه الدراسات :

١ — القيم الأساسية للفكر الاسلامى والثقافة العربية .

٢ — أصول الثقافة العربية .

٣ — خصائص الأدب العربى .

٤ — العروبة والاسلام .

٥ — الاسلام وحركة التاريخ .

كما يستطيع الباحث علىّ وجه الاجمال أن يجد جذور هذه النظريات فى كتابات فريد وجدى ومحب الدين الخطيب والدكتور محمد البهى ومالك ابن نبى والدكتور محمد حسين ومحمد أحمد الغمراوى وعمر فروخ وعلى سامى النشار ومحمد المبارك ودكتورة بنت الشاطىء وكثيرون غيرهم .

هذا وبالله التوفيق ،،،

(٢)

مدرسة النظر الى ماوراء النصوص والمصطلحات

طرح الفكر الغربي فى أفق الفكر الاسلامي عشرات من المصطلحات التى اصبح العرب والمسلمون يرددونها دون وعي فى مناسبات متماثلة ولكنها مختلفة تماما ، ذلك لأن مصطلحات الغرب وكلماته لايمكن فصلها عن ملابساتها الفكرية التى ترمى اليها ، ولا يمكن عزلها عن ظروفها وأوضاعها ولا يمكن أن تنقل كما تنقل مصطلحات الاختراعات والعلوم ، ولذلك فلابد أن يكون للمسلمين فى مطالع القرن الخامس عشر الهجرى موقف ازاء هذه المصطلحات ونظرة اليها تكشف عن مدى الفوارق العميقة بين الديمقراطية والشورى وبين الاشتراكية والعدل الاجتماعى وبين مفهوم القومية الغربى وبين مفهوم العلاقة بين العروبةوالاسلام فضلا عن عشرات منالمصطلحات الغربية التي تنبثق من فلسفة لها اساس مادي صرف ولها وجه واحد . بينما تقوم المفاهيم الاسلامية على اساس تكامل بينالمفاهيم الماديةوالروحية والظاهرة والباطنية ، وبين الدنيـا والآخرة ، فالمسلمون حين يعرضـون المصطلحات لا يقصرونها على جانبها المـادى حتى ولو كانت مصـطلحات اقتصادية او مالية فالطهارة مادية وروحية ، والتجارة هى تجارة البضائع وتجارة الايمان ، والمسلم يجد دائما جانبا آخر لكل نظرة ينظرها غير الجانب المادى ، فالله تبارك وتعالى لاينظر الى صورنا ولكن الى اعمالنـا وحين يحسن وجه المرء يسأل الله أن يحسن خلقه ، وهنـاك نور العين ونور البصيرة وهناك عمى العين وعمى القلب .

وفى كل أمر من الأمور لا يفاصل المسلم بين جانب وجانب بل يكمل جانبا الى جانب . فالغنى ليس غنى المال ولكنه غنى النفس ايضا والفكر ليس الا مادة وروحا والكيان ليس الا عاطفة وعقلا والأدب أسلوبومضمون فالاسلام يقوم على التكامل بين شطرين لـكل قيمـة وجهين وفى مفهوم الاسلام ان لـكل شيء جانبين ، والثنائية طبيعة الحياة والله فوق الخلق وفوق الأزواج جميعا .

(ثانيا) هناك مصطلحات خاطئة منقولة من الفكر الوافـد كقولهم الضمير أو السعادة أو النرفانا أو المهندس الأعظم فكل هذه الفاظ لايقرها الفكر الاسلامى على النحو الذى تقدمه مفـاهيم الفكر الغربى ، ونظرية

الضمير نظرية غربية أما فى الاسلام فان هناك « التقوى » ذلك الديدبان اليقظ الذى يحرس الانسان المسلم من الانحراف .

ولا ريب أن كلمة الضمير هى مصطلح يراد به احلال مفهوم اخلاقى منفصل عن مفهوم الأديان المنزلة فحيث يدعو الاسلام الى بنـاء الانسان بالتقوى ويجعل منه قوة فعالة تحول بينه وبين الشر ، يدعو كتاب الغرب الى مايسمى بالضمير ، والضمير بهذا المفهوم لايتشكل الا من خلال مفاهيم البيئة والثقافة والعقيدة فاذا تشكل على معنى التحرر من قيم الأخلاق أو اعتبارها نسبية لا ترتبط بالانسان ولا بالمثل الثابتة فانما يجرى الضـمير معها هذا المجرى ، وحينئذ لايستطيع ذلك ان يحقق شيئا على هذا النحو الذي يشكله مفهوم الضمير المرتبط بالأخلاق والعقيدة .

كذلك فان فلسفة السعادة هذه من مفاهيم الفلسفة اليونانية أما فى الاسلام فان هناك مفهوم التقوى والعمل الصالح وكلمة السعادة لم ترد فى القرآن الـكريم الا وصفا لأهل الجنة .

كذلك فان كلمة النرفانا تصور الانسان وقد وصل الى مرحلة التشبع وعدم الحاجة الى شيء من الدنيا وهو مفهوم ضال مضل ، لا يقره الاسلام الذى ينهى عن الرهبانية والوثنية جميعا .

أما كلمة المهندس الأعظم فهى من التسميات الباطلة التى فرضـتها « الماسونية » كصفة لله تبـارك وتعالى ، الحقيقـة كما يفهمها المسلمون تقرر بأن الله تبارك وتعالى هو خالق كل شيء من العدم ، ومالك كل شيء ، والمتصرف فى كل شيء ، وله الخلق والأمر ، ولذلك فان وصـفه بكلمـة المهندس الأعظم لا تمثل حقيقته ، ونحن مأمورون بالا نسمى الحق تبـارك وتعالى الا بأسمائه الحسنى ، كذلك فاننا كمسلمين لاينبغى لنا أن نستعمل كلمات الخطيئة أو الفـداء أو الصلب أو الخلاص وهى ليست كلمات عربية ولـكنها كلمات يونانية دخيلة ولنا كمسلمين فى تقـديرها مفهوم خاص ، فالمسلم لايؤمن بما يسمى الخطيئة الأصلية أو الفـداء أو الصلب ذلك لأن السيد المسيح عليه السلام لم يصلب **(وما قتلوه وما صلبوه ولـكن شبه لهم)** وأن فكرة أنه افتدى البشر بسبب خطيئـة آدم ليس الا من الافـكار الواغلة فى الوثنية التى نقلها شراح المسيحية من عقائد قديمة ولم تكن من رسالة السيد المسيح المنزلة .

(ثالثا) بجوار أن لكل مصطلح فى اللغة العربية وكل قيمة فى الفكر الاسلامى مفهوما ماديا وروحيا جامعا فان لكل قيمة فى الفكر الاسـلامى ضابطا واحدا محدودا لايجعلها تمثل اعتداء على قيمة أخرى .

فالحرية لها ضابط هو المسئولية

والعلم له ضابط هو الأخلاقية

فالحرية لا تكون منطلقة الى غير ماحدود ولكن تضبطها المسئولية والتبعة فالى أى حد تقف الحرية والى أى هدف تهدف . ان الحريةمسئولية ولا تكون هذه الحرية عاملا من عوامل الهدم للمجتمع أو الاعتداء علىحريات الآخرين . ان المسئولية هى التى تجعل الكاتب يدافع عن الحرية فاذا انطلقت الحرية بغير ضابط قضت على التبعة والمسئولية ، وهناك حرية البناء لا حرية الهدم والحرية المنضبطة المسئولة .

(رابعا) هناك كلمات فى حاجة الى تعريف بمدى ماتحمل من معنى أو تقصد من هدف ، ذلك انها تستعمل الآن استعمالا مضببا يكاد يحجب عنها الضوء ، ومن هذه الكلمات : العقائد الموروثة والمسلمات والقديم والحداثة والعصرانية ، وهى كلمات تستهدف الغض من شأن الفكر الاسلامى وتصويره بصورة التراث المحفوظ فى المتاحف أو اعتباره من المسلمات التى قيلت بغير دليل ولا برهان وسلم بها بدون تمحيص أو اقتناع ، والواقع انه ليس فى الاسلام شىء على الاطلاق يمكن أن تطلق عليه كلمة (المسلمات) هذه الكلمة التى تطلق فى الغرب على أشياء يفرض قبولها والتسليم بها دون أن يقرها العقل أو تكون موضع البحث أو المناقشة أو المعارضة ، ومن هنا أطلقوا عليها كلمة (المسلمات) أما فى الفكر الاسلامى فان الأمور كلها تتحرك فى دائرة الضوء ، والمسائل كلها توضع على طاولة البحث والمناقشة ، وليس غير نبى الله محمد صلى الله عليه وسلم المؤيد بالوحى والمعصوم ، ومع ذلك فقد قال للناس «اسألونى» ولم يدع شيئا موضع سر ، أو جعل أمرا يقبل بدون اقناع .

« تركتكم على المحجة البيضاء : ليلها كنهارها لايزيغ عنها الا هالك »

والعقائد الموروثة صنفان : أصيل وزائف . أما الأصيل فهو ماصدق عنه الوحى وبان فيه وجه الحق وأيدته الوقائع الصحاح ، وهذا ما لا شك فى سلامته ، أما الزائف فهو مادخل الى الفكر من شبهات وزيف ، من خلال خداع الألفاظ والتأويلات ومفاهيم الباطنية أو الوثنية أو المجوسية ، من خلال فلسفات ومذاهبملحدة كوحدة الوجود والحلول والاتحاد وغيرها ، وذلك ماتتعقبه الأقلام المؤمنة على مدى الأزمان تطارده وتكشف زيفه وتفضح ضلاله .

(خامسا) هناك مصطلحات تتعلق بالفكر الغربى والديانة المسيحية لا يجب أن يخضع لها الفكر الاسلامى ، من ذلك (تطور الدين) والدين

الذى يتطور هو الدين البشرى الذىلايستطيع أن يعايش البيئاتوالعصور فهو فى حاجة الى تعديل بالاضافة والحذف ، وهذا لا ينطبق على الاسلام ذلك لأن الاسلام منهج ربانى متكامل ، جامع ، له أطره الواسعة القادرة على الحياة والحركة مع مختلف المجتمعات والعصور ، ولذلك فهو لايحتاج الى تطور ، وهو قادر على العطاء فى كل وقت وله قيمه الثابتة وقيمه المتغيرة ، كذلك فان كلمة « الاصلاح » لاتستعمل فى الفكر الاسلامى وانما هى كلمة عرفتها دعوات البرتستانتية والكاثوليكية على أساس تغيير الأوضاع الجامدة وهذا مايتفق مع مفاهيم الاسلام .

كذلك فان كلمة (ريليجون) عن الدين باللغة اللاتينية لا تمثل مفهوم الاسلام عن الدين ، فالدين فى الغرب هو العلاقة اللاهوتية بين الانسان والخالق ، اما مفهوم الاسلام فالدين علاقة كاملة جامعة بين الله تبارك وتعالى والانسان وبين الانسان والمجتمع ، وهو نظام مجتمع ومنهج حياة شامل لكل أعمال الانسان فى حياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وليس قاصرا على العبادات فحسب . والمسلمونلايقولون الطبيعة ويعنون بها أن تحل محل كلمة « الخلق » وهم يعتقدون خطأ هذه النظرة المادية حين أله الغربيون الطبيعة وأنكروا وجود الله .

كذلك فان الاسلام لا يقر تأليه مفاهيم الوطنية والقومية والدعوات الاقليمية واعلاء العناصر والدماء ولكنه يؤمن بالاخاء الانسانى .

(سادسا) قد يبحث الغربيون عن ايدلوجيات بشرية يتخذونها نظاما لمجتمعاتهم ، ذلك لأن المسيحية حين انفصلت عن اليهودية لم يكن لها نظام اجتماعى خاص ، أما المسلمون فكيف يبحثون عن نظام اجتماعى لهمولديهم عقيدتهم الجامعة بين التوحيد ومنهج الحياة .

والمعروف أن الغربيين اتخذوا من كلمة (الايدلوجية) بديلا لكلمة (الدين) بل انها اتخذت كسلاح لمحاربة المعتقدات الدينية فى الغرب .

والمعروف أن فلاسفة القرن التاسع عشر عمدوا الى بناء مايسمونه المثل العليا للحضارة الغربية على اساس دنيوى وقد أسموه انسانيا أو علمانيا أى معارضا للدين .

(سابعا) ان ابرز مفاهيم الفكر الاسلامى الى النظر الى ماوراء النصوص والكلمات ومعرفة الدوافع والخلفيات حرصا وحذرا وحفظا على القيم الاسلامية من الانحراف فنحن لانقبل كل مايعرض علينا قضية مسلما بها ، ولا نقبل وجهات نظر الآخرين أو تجاربهم الا فى احتياط وحيدة وتحرز شديد لأننا نعرف ان لكل امة ظروفها وتحدياتها وان المصطلحات تظهر من خلال التحديات ولذلك فان كل امة تختلف عن الأخرى فى تقبل هذه الأوضاع وما ينفع احداها قد يضر بالأخرى وان البذور لاتنبت فى كل تربة فلكل تربة بذورها .

ومن هنا فان الاسلام يقيم مدرسة للنظر الى ماوراء النصوص والكلمات .

الباب الأول

فى المناهج والعلوم

الفصل الأول

القيم الاسلامية والمصطلحات المعاصرة

١ ــ الثقافة
٢ ــ الدين
٣ ــ التوحيد
٤ ــ الأخلاق
٥ ــ التربية
٦ ــ التصوف
٧ ــ التراث
٨ ــ الفلسفة
٩ ــ الاقتصاد
١٠ــ التعليم
١١ــ العلم
١٢ــ الفن



(١)

الثقافــــة

« الثقافة » كلمة مستحدثة فى فكرنا الاسلامي العربى الحديث وهى مشتقة من مادة (ثقف) القرآنية (وان اى ادعاء بأن واحداً من الكتاب قد تمثلها من خارج اللغة العربية هو وهم باطل) وهى فى أبرز مفاهيمها « الفكر القومى للأمم » وتقوم القومية على اللغــة والوطن والعنصر ، ويمكن القول تفسيرا لهذا : ان الفكر الاسلامى يمثل العالم الاسلامى كله، ينقسم الى ثقافات عربية وفارسية وهندية وتركية واندونيسية وهكذا . فهذه الثقافات منبثقة أساسا من الفكر الاسلامى ولــكنها مرتبطة أيضــا باللغات والأمم والأجناس والأوطان فلها أصول عامة مشــتركة تتصــل بالاسلام ، ولها طوابع خاصة قومية تتصل بالأمم ، هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى أن الثقافة العربية مثلا تختلف عن الثقــافة الغربيــة فى أن مقوماتهما ليست واحدة فكل يستمد مقوماته من عناصر اساسية مختلفة، فالثقافة العربية تستمد كيانها من الاسلام واللغة العربية والعروبةبتراثها، بينا نجد الثقافة الغربية (أيا كان نوعها فرنسية أم المــانية أم أمريكية) انما تستمد مصادرها من الفكر اليونانى والقــانون الرومانى والمسيحيــة واللغة اللاتينية ، وهكذا يبدو الفارق واضحا فى مصادر الثقافة ، ومن هنــا فان القول بوحدة الثقافة العالمية قول يحتوى على قــدر كبير من الخطأ والخطر ، فالثقافات لا تنصهر ولا تذوب فى وحدة واحدة ولــكنها تتلاقى وتتعارف وتتفتح فيأخذ كل من الآخر مايزيده قوة ، أو يرفض مايضاد وجوده أو كيانه أو ذاتيته .

وهناك ارتباطات واختلافات بين (الثقافة والعلم) وبين الثقافــة والمعرفة وبين الثقافة والتعليم وبين الثقافة والحضارة .

(بين الثقافة والعلم) العلم عالمى بطبيعتــه يلتقى مع كل مجتمع ، ولــكن الثقافة قومية ووطنيــة ، ويمكن تلقيح الثقافة بالعلم دون أنتفقد ذاتيتها ، والعلم يرمى الى تنمية الملــكات وهو فى نهاية المطــاف وسيلة واداة وقد يستعمل للخير كما يستعمل للشر على السواء .

(بين الثقافة والمعرفة) : المعرفة هى المعلومات العــامة المنوعة المختلفة المتعارف عليها فى كل الثقافات ، أما الثقافة فليست معارف فقط

ولكنها موقف واتجاه وعواطف وعادات فى الحياة وممارسة ، أما المعارف فهى المادة الخامة للثقافة .

(الثقافة والتعليم) : الثقافة هى الدرجة الأعلى من التعليم ،فالتعليم قاصر على الاعداد الدراسى لتكوين العقلية المؤهلة للثقافة ، أما الثقافة فهى الدرجة الأعلى التى تكون الفرد تكوينا يجعله ممتازا .

(الثقافة والحضارة) : وهناك علاقة بين الثقافة والحضارة ، فالثقافة فى كل أمة هى مقدمة الحضارة ، مرتبطة بها فى فكرها وفى محيطها ، ولكنها بالنسبة للأمم الأخرى ليست مرتبطة ومن حق الأمم أن تقتبس الحضارة لأنها عالمية ولا تقتبس الثقافة لأنها قومية .

الحضارة ملك للانسانية كلها . وهى نتاج الحضارات البشرية المتعددة ، كل منها تتم حلقة وتسلمها الى الأخرى وللمسلمين والعرب دور هام فى بنائها وانمائها أى دور ، فقد قدمت المذهب العلمى التجريبى الذى قامت عليه النهضة العلمية .

أما الثقافة الغربية المرتبطة بالحضارة فان للأمم المختلفة أن تقف منها موقفا مختلفا ، وأن تنظر اليها فى ضوء قيمها ومفاهيمها ، ومن حقها أن تنقل الماديات (أى الحضارة) ولا تنقل المعنويات (أى الثقافة والمذاهب الاجتماعية) فان لكل أمة مقوماتها وقيمها الأساسية التى لا تتخلى عنها، ولها أيضا مفاهيمها للقيم الانسنية العامة بما يختلف مع الأمم الأخرى .

وهذا المفهوم أمر مقرر بين جميع الباحثين والمفكرين والعلماء والمصلحين لا سبيل الى نقضه أو معارضته ، وكل الدعوات التى تقول بأن على الأمم أن تتقبل الثقافة والحضارة معا ، هى دعوات مضللة هدامة يقف من ورائها الاستعمار والتغريب والتبشير ، وتستهدف تحطيم معنويات الأمم وتدمير مقوماتها والقضاء على شخصياتها وهدم ذاتياتها واسلامها الى أن تذوب فى بوتقة الأممية والعالمية فتفقد وجودها وتصبح غير قادرة على مقاومة الغزو الاستعمارى .

(٢)

الــــدين

الدين فى مفهومه العــام هو الصــلة الأكيدة بين الانسان والخالق الأعظم ايمانا من الانسان بوحدانية الله الخالق واقرارا له بالعبودية .

والأديان السماوية كلها ترتبط بمفهوم واحد ، لأنها من مصدر واحد، والاسلام هو خاتمها ، وفيه جماعها وجوهرها الصادق .

وقوام (الدين) فى الاسلام التوحيد وسيادة الانسان تحت حكم الله ، والتقاء القيم الروحية مع القيم المادية ، وترابط القلب والعقل والدنيا والآخرة ، فالدين واحد على لسان جميع الأنبياء والرسل ، والأديان عقيدة وعمل ، ومعرفة وطاعة ، ولقد قامت البشرية على أصل راسخ من غريزة التدين ، بحسبان ان العالم مجموعة متناسقة تقودها قوة مدبرة حكيمة عادلة . وقد رافق (الدين) الجماعة البشرية منذ نشأتها ، ولم تخل جماعة بشرية من دين يلائم طباعها ويوافق بيئتها ،فهو ظاهرة اجتماعية وضرورة وحاجة روحية وعقلية ، ولقد تغير هذا المفوهم بالنسبة لأديان مختلفة ، ولكنه ظل هو مفهوم الدين فى الاسلام ، وقد عمدت أوربا فى الوصول الى نظرية عن مفهوم الدين تصفه بأنه (لاهوت) يصور العلاقة بين الله والانسان ، وبذلك تنكر العلاقة بين الدين والمجتمع ، ومن هنا وقع الخلاف بين الفكر الاسلامى والفكر الغربى من أجل هذا الخلاف الجوهرى ، حيث قام الاسلام على الترابط بين الدين والمجتمع معا بينما رأت أوربا أن الدين ليس الا علاقة بين الانسان والله والغت علاقة الدين بالمجتمع .

وقد ظهرت نظريات مختلفة تنكر الدين جملة وتدعو الى (الوجود المادى الخالص) وعلت أصوات تقول بأنه لا يوجد خالق ، وحاول كثير القول بأن البشرية تستطيع أن تعيش بغير دين .

* * *

وطبيعة الاسلام تنافى وجود الانفصال بين أمور الدين والدنيا ، والاسلام بطبيعته دين اجتماعى لا دين عبادى محض .

وليس فى الاسلام هيئة كهنوتية ، ذات سلطة فعلية ، يخشى من سيطرتها على الحكم ولم يكن لعلماء الاسلام أى نفوذ سياسى ما ، أو سيطرة على الحكم . والاسلام حركة اجتماعية شاملة والدين جانب من جوانبها، فقد جاء الاسلام عقيدة وعبادة واصلاحا اجتماعيا ، وليس الاسلام دين محتكر فى يد طائفة تتحكم فى أصوله وفروعه كما تشاء ، وانما هو دين اصلاح عام لسائر الأديان ، شرعة الله عندما تبدلت الأديان تصحيحا لها وخاتما .

* * *

والفكر الاسلامي فكر شامل والدين جزء منه لاينفصل ، وقد كانت صيحة التغريب هي صاحبة دعوى التفرقة بين الديني والدنيوى ، والقول بأن هناك علوما دينية وأخرى دنيوية ، فأخذوا يطلقون كلمة (ديني) على كل مايتصل بالاسلام وهو اطلاق غير صحيح ، ذلك ان كل شيء من الفكر والحياة في مفهوم الاسلام متصل به ولا سبيل لانفصاله . ومن هذا التحريف الخطير الذى حاوله التغريب محاولة في الفصل بين السياسة والأخلاق وبين الاجتماع والأخلاق وهدف المحاولة فصل الاسلام عن المجتمع وفصل الأخلاق عن الدين والسياسة ، ولا شك أن وصف الفكر الاسلامي (بالفكر الديني) خطأ محض ، فان الاسلام ليس دينا بمفهوم) اللاهوت الغربى) ولكنه دين عالمي انسانى جامع .

ويخطىء الغربيون في دراسة الاسلام قصدا أو نقصا في الفهم حين يقدرون أنه (دين فقط) محاولين المقارنة بينه وبين أديانهم . ذلك أن الاسلام حركة اجتماعية ومنهج حياة والدين جانب من جوانبه ، فقد جاء الاسلام عقيدة وعبادة واصلاحا اجتماعيا ، والاسلام ليس دين العرب وحدهم ولكنه دين الانسانية جميعا .

والمسلمون يعتقدون ان جميع الديانات السماوية جزء من تراثهم الفكرى بل جزء من التراث الاجتماعي للبشرية جميعا .

وليس من شك أن الرابطة بين الدين وبين مقومات المجمع الاسلامى والفكر الاسلامى هى رابطة عضوية ، فالدين هو أول ركائز الاجتماع والثقافة ، ومن هنا يتأكد باطل مايقوله الغربيون من أن سبب انحطاط الشرق هو تركه روح الدين .

ويرى ابن خلدون أن العرب لا يحصل لهم الملك الا بصيغة دينية .

والاسلام يكرم السيد المسيح ويعترف بالأديان المنزلة لأنها من أصل واحد ، وقد كانت علاقة الاسلام بالحضارات والنهضات مخالفة للعلاقة بين الغرب والمسيحية والنهضة الأوربية ، يقول العلامة سمر : ان تقدم العلوم في الغرب حصل رغما عن الدين المسيحى ، أما الاسلام فهو لايبقى على قيد الحياة الا بانتشار العلوم وتقدمها ، فان بين الاسلام والعلوم رابطة كلية ، وان الغربى اذا صار عالما يترك دينه بخلاف المسلم فانه لا يترك دينه الا اذا صار جاهلا ، وقال أنه لا يمكن نسبة التمدن الحالى الى الدين النصرانى « لأنه ما جاء الا بعد خمسة عشر قرنا من ظهوره ، ولا يمكن نسبة الانحطاط الى الاسلام لأنه جاء بعد انحراف المسلمين عنه »

ويقول : لم تتقدم أوربا فكرا وثقافة وعلما واقتصادا الا بعد أن ثارت على سلطان الكنيسة وتحررت تحررا تاما .

ومن هنـــا يبـــدو الخلاف واضحا بين علاقة الدين المسيحى بالغرب وعلاقة الاسلام بالحضارة التى اقامها العرب والمسلمين .

ولا ريب أن الدين عنصر أساسي من عناصر الثقافة لاتقوم الا به كما انه ميزان العمل فى الحياة الاجتماعية كلها وفى تشكيل وجهة الانسان فى الحياة .

(٣)

التوحيـــــد

اذا قيل ان لكل دين طابعا فان طابع الاسلام هو : « التوحيد » فهو لبابه ومنهجه وقوامه ، والقائم المشترك على قيمه المختلفـــة ، والعـــامل الأساسى الذى يفصل بين الاسلام وعديد من المذاهب والفلسفات والعقائد التى تقوم على أساس الوثنية والالحاد او تعدد الالهة أو انكار الله الحق.

« والتوحيد » هو دين الله الحق المنزل على جميع الأنبياء والرسل، والذى بدأت به البشرية مسيرتها منذ (آدم) ابى الأنبياء والبشر جميعا ، وهى الدعوة الحق التى حملهاجميع الأنبياء الى أممهم حتى انتهت الى صورتها النهائية التى يمثلها الاسلام خاتم الديانات والرسالات الى العالمين جميعا، ولقد حاول كثير من الفلاسفة وأصحاب المذاهب والدراسات الادعاء بأن البشرية كانت وثنية ثم امتدت الى التوحيد من بعد غير أن هذه النظرية ظهر بطلانها بأكثر من دليل من دلائل العلوم والحفريات والبحث العلمى الخالص، فالحقيقة التى لاشك فيها أن الناس كانوا أمة واحدة ، وكانوا على التوحيد جميعا ثم ضلوا وعبدوا عددا من الآلهة وتحولوا بعد التوحيد الى الوثنية ، ولقد كان التوحيد رسالة السماء الى الناس كافة منذ خلق الانسان الى اليوم وكان النـــاس على التوحيد أساسا ثم تحولوا تحت تأثير أخطاء وانحرافات عن التمسك بالحق ، وجرى هذا حين اتخذ الناس الصور والرموز لتذكرهم بالاله الواحد ، ثم لم يلبثوا مع الزمن أن تحولت هذه الصور الى أصنام وأوثان ، وتحولوا هم الى عبادة هذه الأصنام أو عبادة أبطالهم ورؤسائهم ومن ثم تعددت الآلهة فكانت الأديان فى موالاتها وتتابعها دينا بعد دين ترد الناس عن هذا الخطأ والانحراف ، ثم لا يلبث الناس حتى يعودوا للوقوع مرة أخرى فى الخطأ . ولقد كانت الأديان فى جوهرها دعوة الى الله :

الاله الواحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد . والى هدم الاصنام ونبذ فكرة الشرك ، ودحض الوثنية .

ولقد واجهت البشرية انحرافا خطيرا فى الفترة السابقة لظهور الاسلام ، حيث ظهرت الوثنية اليونانية الفلسفية التى قامت على مفاهيم خطيرة اساسها : الاباحية والتعدد ، وقد نبتت هذه المفاهيم نتيجةلتقديس الأفراد ثم تحولت الى (عبادة الأبطال) واتخاذهم آلهة وأنصاف آلهة ، ثم أصبح لكل ظاهرة من الظواهر الكونية والاجتماعية اله : فاله الخمر واله الحصاد واله الحب ثم كانت وثنية فارس التى اقامت اله النور واله الظلام ، وكانت الوثنية العربية اقل هذه الوثنيات انحرافا واضطرابا وفلسفة ، فقد اعتمدت على عبادة الأصنام والأوثان لتقربهم الى الله زلفى.

وكانت الجزيرة العربية قد عرفت (التوحيد) منذ دعوة ابراهيم عليه السلام وبناء الكعبة ، غير أن الأمم التى هاجرت كانت تحمل معها أحجارا تذكارا لأرضها وبلادها ، ثم ما لبثت بعد قليل أن عبدت هذه الأحجار ، ولكنها كانت فى مجموعها وثنية ساذجة . على اى حال لم تقم لهما فلسفة عميقة ، كفلسفة الوثنية اليونانية والفارسية التى هاجرت الى الحضارة الأوربية الحديثة واصبحت جذرا من جذورها .

وقد أشار (أرنست رينان) الى هذا المعنى حين قال : ان العرب موحدون بطبعهم وان دياناتهم هى ديانات التوحيد ، ولقد كانت الأديان السماوية جميعا على التوحيد ، فانحرف بعضها ودخلها من فلسفات اليونان والهنود والفرس ماحولها عن طبيعتها » .

ومن هنا كانت دعوة الاسلام الحارة المتجددة الى انكار الرموز أو تقديس الموتى أو عبادة الأبطال والعظماء أو اقامة القبور الضخمة أو التماثيل أو غيرها من الدواعى التى انحرفت بالبشرية من قبل التوحيد وذلك حرصا على بقاء المفهوم الأصيل الذى نزل به القرآن .

ولقد كان التوحيد ولا يزال فيصلا ضخما وخطيرا بين الاسلام وبين مفاهيم الفلسفات والمذاهب والأديان المختلفة ، على نحو يحرر النفس الانسانية من كل وثنية وعبودية .

(٤)

الأخلاق

يشكل الاسلام منهجا انسانيا متكاملا للفرد والجماعة قوامه : « العقيدة والشريعة والأخلاق » والأخلاق فى مفهوم الاسلام قاسم مشترك على مختلف القيم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية .

ومفهوم (الأخلاق) فى الفكر الاسلامى يختلف اختــلافا واضــحا وجذريا عن مفهومه فى الأديان والفلسفات الأخرى ، فهو يقوم على هــذا النحو المترابط المتكامل الشامل .

وهدف الأخلاق فى مفهوم الاسلام هو « التقوى » وتتمثل التقوى فيه عملا وسلوكا ولا تقف عند الناحية النظرية وحدها ، والأخلاق الاســلامية أخلاق تقوى بكل ما تحمل التقوى من معان سلبية وايجابية ، بتجنب الحرام والاقبال على الحلال وتعنى التقوى الوقاية ومدافعة الخطر واليقظة الدائمة للمحافظة على الأصول ومنعها من الانحراف .

وآيات القرآن فى منهج الأخلاق تحث على الايثار دون الأثرة ، وتجعل الفرد فى خدمة المجتمع فاذا تعارضت مصلحته مع مصلحة المجتمع ضحى الفرد مصلحته فى سبيل المجتمع — الايثار والتقوى هما لحمــة الأخلاق الاسلامية وسداها على حد قول القائل « تقوى الاله مدار كل فضيلة » .

ومن هنا يخطىء الذين يعتبرون (الأخــلاق) فى الفكر الاســلامى امتدادا للاخلاق فى الفكر والفلسفات الســابقة له أو الفــكر اليونانى خاصة . وما كتبه ابن مسكوية فى كتابه (تهــذيب الأخلاق) وما أخــذه (ابن سينا) انما هذا كله من مفاهيم الاغريق التى تختلف اختلافا واضحا مع مفوهم الاســلام للاخلاق . وكذلك ماكتبه ابن المقفع وحاجى خليفــة من مفاهيم الفرس قبل الاسلام عن الأخلاق ويتصل بهــذا كتاب الأخلاق الذى الفه أرسطو ، وكل ماجمعه اخوان الصــفا وغــيرهم لا يمثل مفهوم الاسلام فى الأخلاق تمثيلا صحيحا .

وقــد نشــأ مفهوم الأخلاق فى الاســلام نشــأة متميزة خالصــة حولت مفــاهيم العــرب للقيم الأخلاقيــة عن انحرافها الوثنى وردتهــا الى الوجهة الصحيحة الصادقة الخالصة لله وحده .

وقد أخطأ المستشرقون الذين الفوا فى الأخلاق وعجزوا عن فهم هذه الفروق الواضحة بين الأخلاق الاسلامية والأخلاق اليونانية وغيرها ، ولذلك لم يوفقوا فيما ذهبوا اليه وفى مقدمتهم (دونالدســون) صــاحب كتاب (دراسات فى الأخلاق الاسلامية) وقد انتقده الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى وكشف عن هذا النقص فى نظرته الى مفهوم الأخلاق فى الاسلام ، ويقول الدكتور الأهوانى فى هذا :

« ظهرت فى تاريخ الحضارة الاسلامية كتب تبحث عن الأخلاق على الطريقة اليونانية ولكنها لم تؤثر فى حياة المسلمين اذ حجبها كتاب الله ،

ولم تستطع ان تبلغ الى مقامه ، ومنها كتاب ابن مسكوية المسمى (تهذيب الأخلاق) فانه يناقش الأخلاق الموروثة عن اليونانيين وعن افلاطون وعن أرسطو بخاصة وعن مدرسة الاسكندرية » .

ويقول : ان الأساس الذى تعتمد عليه الأخلاق الأفلاطونية يختلف عن أساس الأخلاق الاسلامية وقد ظل هذا الكتاب بعيداً عن الشعبية والتداول ولم تعرفه الا طائفة قليلة من المثقفين الذين كانوا يقرؤونه للذة العلميـة فقط . ومن الطبيعى أن يطل به جماعة المستشرقين ، ويقول : « ان الأخلاق الاسلامية ليست أخلاق سعادة وهى لغة اليونان ، ولكنها أخلاق تقوى لأنها أخلاق دينية » .

واشار الدكتور الأهوانى رحمه الله الى ماكتبه الغزالى عن الأخلاق فقال : انه كتب فى (ميزان العمل) على الطريقة اليونانية ، وكتب مـرة أخرى عن الأخلاق فى كتاب (احياء علوم الدين) ونحا فيه نحو الزهد والتصوف وهو الطريق الذى اختاره الغزالى « وهذا النوع من الأخلاق لا يمثل الاتجاه العام للأخلاق الاسلامية ذلك لأن الاسلام لم ينه عن الدنيا ولم يطالب الناس بالابتعاد عنها والزهد فيها ولم يحرم زينة الله » .

وجملة القول : ان الأخلاق الاسلامية المستمدة من الكتاب والسنة هى أخلاق ايجابية تقوم على رقابة الله وتقواه فى مختلف التصرفات وتدخل كعنصر أساسى فى المجتمع والاقتصاد والسياسة والتربية ولا تنفصل عنها، وتستمد كيانها من التوحيد أساسا فلا تنعزل عن الاسلام بل ترتبط به ، وهى أخلاق تقوى اجتماعية تحمل طابع الايثار والتضحية بمصلحـة الفرد لمصلحة المجتمع ، وهى أخلاق قوة وعمل مع المحافظة على رقابة الله واعلاء الخير والبر والوفاء .

(٥)

التربيـة

فى مفاهيم الفكر الاسلامى يأخذ اصطلاح (التربية) مفهوما مخالفا ومنفصلا من مفهوم (التعليم) وفى رأى الكثير من الباحثين : ان التعليم هو اعطاء الذهن الانسانى حاجته من أصـول الأشياء ومفاهيم العلوم ، وتنمية القوى العقلية والروحية وتدريبها على معرفـة أسـاليب الفكر والثقافة ، أما مفهوم (التربية) فهو عنصر موجـه ومضىء لطريق الحق والخير فى اتجاهات التعليم والثقافة نفسها ، ذلك أن التعليم حين ينفصل عن التربية قد يؤدى الى الخير أو يؤدى الى الشر ، أما التربية فهى مؤشر الخير والحق فيه ، والضوء الأخضر له حتى يكون وسيلة تحقيق التقـدم

للمجتمع ، ويكون فى نفس الوقت خالصا لله موجها لخير الأمة والانسانية جميعا ، بعيدا عن اى انحراف .

فالتربية فى مفهوم الإسلام : هى التى تسمو بمقاييس الفرد فى الحياة وتعلى من أهدافه وتقربه الى الخير وتبعده عن الشر ، وهى التى تتجه الى تقوية الشخصية وغرس روح المسئولية والشعور بالواجب والاخلاص فى العمل والحياة .

وهى فى جوهرها : تهذيب النفس وترقية الذوق ، وبناء القدوة الحسنة والمثل الأعلى من خلال البطولات والنماذج العظيمة التى يزخر بها تاريخ الأمة وفكرها ومن خلال القدوة الحسنة فى البيت والمدرسة والمجتمع .

والتربية فى مفهوم الفكر الاسلامى العربى وسيلة لبناء « الانسان » بوصفه فردا وبوصفه جزءا من المجتمع الذى يعيش فيه مع اعداده بالقدوة وبالكلمة وبالعادة وبالمواقف المختلفة والأحداث . وهى تأخذ الفرد كبناء متكامل : قوامه الروح والعقل والجسم وتعنى به وفق فهم شامل أساسه الايمان بالله والعمل فى الأرض من أجل النماء والبناء والانشاء . وتقوم التربية الاسلامية على بناء الفرد فى البيت قبل المدرسة واول من يطلب منهم القيام بهذه الوظيفة هم الذين يعاشرون الطفل منذ نشأته معاشرة مستمرة . والذين يؤثرون فيه بأعمالهم واقوالهم وسلوكهم .

يقول العلامة الزرنوجى المربى الاسلامى : ان من الضرورى قيام علاقة وطيدة بين البيت والمدرسة ، وان التعليم يحتاج الى ثلاثة عناصر : المتعلم والأستاذ والأب كما اكد علماء التربية الاسلامية ضرورة تلقى العلم من الأساتذة لا من الكتب وحدها . وقد ربطت التربية الاسلامية بين التعليم والتربية على أساس أن العلم وحده لا يكفى مالم تصحبه تربية الذوق والعقل والروح ، والعلم فى مفهوم الفكر الاسلامى هو العلم والعمل . وقوام التربية الاسلامية أساسا : « الأخلاق » .

ولذلك فان الفكر العربى الاسلامى لا يقر مفاهيم الفكر الغربى التى تفصل بين التعليم والتربية أو التى تفصل بين التربية والأخلاق .

وفى مفهوم الاسلام : أن العلم لابد أن تحميه وتظاهره قيمة اخلاقية واضحة حتى لاينحرف أو يفسد أو يتجه وجهة ضارة بالمجتمع الانسانى .

ويعارض الفكر العربى الاسلامى نظرية « ديوى » فى التربية معارضة صريحة وهى نظرية وجدت معارضة ونقدا فى بيئتها الأساسية

التى أعلنت فيها، كما يرفض مفاهيم (فرويد ودوركليم) فى الاباحية والتحلل ورفع التوجيه عن الشباب فى مرحلة التربية والتعليم ، وذلك ايمانا من الفكر الاسلامى بأن الشباب فى هذه المرحلة فى حاجة الى البناء والتكوين والتوجيه الذى لايتم الا من خلال الانتفاع بتجربة المربين والمعلمين ، الذين يجد فيهم الشباب القدوة ويجد عندهم الخبرة الطويلة . وليس فى توجيه الشباب فى الاسلام مايحول دون استقلالهم الذاتى أو دون اتاحة الفرصة لهم ليأخذوا مناهج جديدة تتفق مع أجيالهم وأذواقهم . فذلك كله يعترف به منهج التربية الاسلامية ويقره ويعمل على ايجاده ان لم يكن موجودا .

ولـــكن الخطر كل الخطر هو فى المتابعة للأمم المختلفة فى مناهجها الفكرية والثقافية والتربوية مع اختلاف العصور والبيئات والأديان فهـــذا هو من أخطر مايحتاج الى التنبيه اليه .

(٦)

التصـــوف

التصوف فى مفهوم الفكر الاسلامى « بدعة » حسنة ، تهـــدف الى انشـــاء دائرة من دوائر تربيـــة النفس والخلق من خلال التماس مفهوم الاستغناء عن المطامع والغـــايات الفردية والأنانيـــة ، والعمل من أجل الانصراف عن الأهواء .

وقد استمد المتصوفة المسلمون مفاهيمهم من صور الزهد التى عرف بها رسول الله وصحابته ، ثم توسعوا فى ذلك ، وكان لتحديات الحضارة والثراء والترف أثرها فى تعميق هذا الاتجاه وبروزه كعامل توازن طبيعى ازاء الانحراف الاجتماعى الذى أصاب المجتمعات الاسلامية بعد انصرافها عن طوابع العصر الأول ومفاهيمه .

غير أن التصوف فى الاسلام لم يلبث أن اتصل بالفلسفة اليونانيـــة ومفاهيم التصوف الهندى ونتـــاج الوثنية الفارسية والهلينية ، فأصـــابه اضطراب كبير ، ودخلت اليه مفاهيم كثيرة ليست من مفاهيم الاسلام أصلا ، وبذا انحرف انحرافا خطيرا عن أصول الفكر الاسلامى وطوابعه الأصيلة ، اضطرب معه مفهوم « التوحيد » الذى هو أعلى قيم الاسلام نفسه وخاصة حين دخلت الى التصوف مفاهيم غريبة عنه معارضة لأصوله : تلك هى مفاهيم وحدة الوجود والحلول والاتحاد .

وهذا القطاع من التصوف الفلسفى لايعد اسلاميا ، ولكنه يعد دخيلا ومنحرفا وتجب التفرقة بينه وبين طابع التصوف المستمد من الاسلام أصلا

ومن حياة الرسول وصحابته ، على ذلك النحو البسيط اليسير من الزهد، القائم على أصول الشريعة .

ولقد عنى أعلام الصوفية الأول بأن يؤكدوا ارتباطهمبالقرآن والسنة، وأعلنوا أنهم يتحركون من دائرة الشريعة الاسلامية والعقائد والأخلاق الاسلامية وقالوا فى ذلك : أن أى ارتقاء فى مجال التصوف لا يصرف صاحبه عن أداء فرائض الاسلام كاملة، وان تطبيق حياة الرسولوتصرفاته هى المصدر الأول. أنه لاعبرة أبدا بما يقال منرفع التكليف عن بعض الذين وصلوا الى درجات معينة فى العبادة أو الكشف وأن مثل هذا القول مناقض تماما لمفاهيم الاسلام .

ويرى الباحثون أن هنالك فارقا كبيرا بين التصوف والفلسفة . أو بين الصوفى والفيلسوف : ذلك أن الصوفى انما يعتمد فى منهج المعرفة وعلى أسلوب العقل ومقاييس المنطق ، بينما يعتمد (العلم) على أسلوب التجربة ونتائج الأنابيق وتركيبات المواد .

وفى الفكر الاسلامى يقوم « منهج المعرفة » على هذه الأصولالثلاثة مجتمعة فلا يفصل بينها ولا يعلى أحدها ، وفى تاريخ الفكر الاسلامى محاولتان احداهما : اعلاء العقل عند المعتزلة والأخرى اعلاء الوجدان عند الصوفية . وفى الغربمحاولة جديدة هى اعلاء العلم والعقلوالتجربة على الوجدان والبصيرة .

وكل هذ ه التجارب لا تمثل « المعرفة » فى أصلها الجامع الشامل الحقيقى القائم على ترابط العقل والوجدان ، والتجربة والغيب ، والعلم الروحى .

ومن هنا فقد كان استعلاء التصوف فى المرحلة السابقة لليقظة الفكرية العربية الاسلامية الحديثة عاملا هاما وخطيرا فيما أصاب المسلمين والفكر الاسلامى من اضطراب وتأخر وضعف وجمود ، فقد برزت ظاهرة « الجبرية » التى أصابت المسلمين من سيطرة النفوذ الاستعمارى الغربى .

غير أنه اذا ذكر ذلك فلابد أن يذكر : أن التصوف قد فتح للاسلام آفاقا واسعة فى عديد من الأقطار ، وضم الى المسلمين ، عددا كبيرا من الوثنيين فى جنوب شرق آسيا وافريقيا ، وان الطرق الصوفية التى كانت تحمل مفاهيم التوحيد والايمان والخلق الاسلامى قد جذبت الى صفوف الاسلام الكثيرين ، الذين آمنوا بالله وحده ، وأصبحوا فى حاجة الى

عمل كبير من اجل تنقية اسلامهم من طوابع الوثنيات القديمة وتحرير فكرهم حتى يصبح اسلاميا وتوحيدا خالصا .

(٧)

التراث

كان من أبرز أهداف مخططات الاستعمار والتغريب : الحملة على التراث الاسلامى والعربى واثارة الشبهات حوله ورميه بالانتقاص ،بهدف واضح معروف هو العمل على قطع حاضر هذه الأمة عن ماضيها . ويقول اصحاب الدعوى ان سبيل النهضة هو تجاهل هذا الماضى الذى ذهب ومات ، والذى يوصف بأن بقاءه قد يعوق الحركة . وهدف هذه الحملة الشعوبية التغريبية يتركز فى محاولة الفصل بين الماضى والحاضر فى مجال الثقافة العربية المستمدة من الفكر الاسلامى والتى لا سبيل لها أن تنفصل عن جذورها التى تشكل مختلف مظاهرها وقيمها الأساسية .

وحين يثير دعاة التبشير والتغريب والاستشراق هذه الدعوى انما يتعارضون مع أنفسهم ومع واقع التاريخ نفسه ومع منطلق النهضة الغربية الأوربية التى استمدت وجودها أساسا من الاتصال بالتراث الهلينى والفكر الاغريقى والأدب اليونانى والرومانى القديم بعد ان انفصلت عنه أكثر من الف عام ، وقد اكدت جميع مصادر الفكر والأدب والتاريخ ، أن النهضة الأوربية فى مجال الفن والأدب والحضارة انما ارتبط وجودها بهذا الماضى واعتبرته أصلا من اصولها واساسا للبناء ولم تعتد بأى مظهر من مظاهر الفكر اذا قام منفصلا عن هذه القاعدة المستمدة من التراث ، هذا هو الموقف بالنسبة للفكر الغربى مع تراث قديم بائد ، مضى وانقضى وتم الانفصال عنه أكثر من الف عام فى لغة ميتة متحفية هى اللغة اللاتينية التى انبثقت عنها لغات جديدة عصرية ، فكيف بتراث مازال متصلا لم ينفصل ماضيه عن حاضره لحظة ، وعن طريق نفس اللغة التى يستطيع القارىء العربى فى القرن العشرين أن يقرأ ماكتب بها قبل أربعة عشر قرنا ويتذوقه ويفهمه ، حيث لا يوجد مثيل لذلك فى الفكر الغربى كله ، ولكن هى الدعوة التغريبية الهادفة الى عزل المسلمين والعرب عن ماضيهم وتراثهم ومقوماتهم ، تقود هذه الحملة الضارية على التراث وتحاول أن تصوره بصورة التأخر والتخلف ، وترميه باتهامات متعددة من قصور وتعارض واضطراب فى محاولة لهدمه وخلق الكراهية والاحتقار له فى نفوس الأجيال الجديدة .

وقد عرف الفكر الغربى قيمة التراث وحقيقته حتى ليقول «بسكال» : (كل نسل لابد أن يستفيد أولا من الفكر الذى تركه من سبقوه ثم يزيده

ان كان عنده استعداد لذلك ، ولا تستطيع امة ما ان تحيد عن هذا القانون) ، ويقول جاك برك : (ان مستقبل العرب يتمثل فى احياءالماضى لأن المستقبل هو فى كثير من الحالات : الماضى الحى أو الماضى الذى وقع احياؤه وعيشته من جديد) .

ويجمع الباحثون المنصفون على انه لم تقم نهضة جادة فى امة ما الا سبقتها دعوة لاستحياء الماضى والانتفاع به والبناء عليه وخاصة اذا كان ذلك التراث على مثل عظمة التراث الاسلامى استمدادا من القرآن الكريم والاسلام .

ويقول سيمون رايل فى مقاله (الحاجة الى الجذور) : ان لتراث الماضى فى عنق الحاضر مسئولية قدسية فاذا انهدم الماضى فان عودته ضرب من المحال ، وان اعظم الجرائم قسوة ان يهدم الناس ماورثوه عن اسلافهم من تراث فما علينا الا أن نجعل همنا الأكبر الاحتفاظ بالذى تبقى لنا من تراث الماضى ، هذه الجذور ليست نزعة عاطفية معناها الرجعية والجمود ، وانما هى غريزة روحية تكمن فى نفوسنا جميعا ، وقد اشار الى اهمية التراث فلاسفة ومصلحون وقادة كثيرون ، وهم يرون انه لا تعارض مطلقا بين الاتجاه الى المستقبل والمحافظة على التراث ، بل ان التركيز على التراث كقاعدة انما يجعل النظرة الى المستقبل اكثر قوة ووضوحا ، يقول (نهرو) : ان علينا أن نتطلع الى المستقبل وان نعمل له جاهدين وان نحتفظ فى الوقت نفسه بتراثنا الماضى ماثلا امامنا لكىنستمد منه القوة والعزيمة ، وخير مستقبل هو ماكان قائما على الحاضر والماضى على السواء ، أما أن نتنكر للماضى أو ننتزع أنفسنا منه فمعناه اقتلاع انفسنا من تربتنا فنخرج منها وقد يبس عودنا وجف مافيه من عصارة الحياة الحقة » .

وقد وجدت هذه الصيحة التغريبية معارضة متيقظة وتفهما بهدفها الضار وبأنها تقصد الى غير مصلحة العرب والمسلمين ، كما تأكد لكثير من المستشرقين ذلك حتى أشار (هاملتون جب) الى انه ، ليس فى وسع العرب أن يتحرروا من ماضيهم الحافل كما تجرد الاتراك ، وسيظل الاسلام اهم صفحة فىهذا السجلالحافل الى درجة لا يمكن انيغفل عنها الساعون الى انشاء مثل عربية عليا » وقد وجه كثير من المثقفين الدعوة الى العرب والمسلمين للاحتفاظ بتراثهم الأصيل ، وقد أشار قسطنطين رزيق الىاهمية التراث حيث قال : ان لهذا التراثالعربى عنصرا هاما منعناصر شخصيتنا ومميزا من مميزاتها ودليلا واضحا على فاعليتنا الحضارية . وفيه من الانجازات والابداعات ماهو خليق بالكشف والابانة لنا ولسوانا ، وما

يجب أن يدفعنا الى استعادة كسبه وتمثل جوهره فى حياتنا الحاضرة ، ويرد على اعداء التراث فيقول : (الغريب أن هؤلاء الداعين الى نبذ التراث العربى او اهماله انما يرددون ذلك فى عصر ترى الأمم النازعة الى حياة جديدة تعمد الى ثقافتها القديمة فتحييها وتجعلها عنوان مجدها ، وقبلة آمالها ، ففى الوقت الذى تسعى فيه كل أمة نشطة من أمم الشرق والغرب الى تقديس تقاليدها وتمجيد حضارتها لايسع الأمة العربية الا أن تعمل على بعث تراثها القديم وروحها التى ولدت تمدنها التالد ، فكل من لا ماضى له لامستقبل له ، والأمة التى لاتعنى بروحها لا يمكنها أن تؤدى رسالتها فى التمدن البشرى) .

ومن الحق أن يقال ان تراثنا يتصل بواقعنا ، وانه فكر حى متجدد ومتحرك فى مجال الحياة والمجتمع ، لم ينفصل ولم يتوقف ، وفضلا عن ذلك فهو ليس الا واحدا من الأسس الرئيسية للحضارة العصرية والفكر البشرى القائم اليوم فقد أعطاهما عديدا من النظريات والأفكار التقدمية البناءة واهمها (المنهج العلمى التجريبى) ومذاهب الاجتماع والسياسة والاقتصاد والنفس والأخلاق والتربية .

والمعروف أن الغرب اليوم يحجب التراث الاسلامى عن اهله :

١ — حتى لا يعرفوا مصادر علم الغرب التى أخذوها من الاسلام .

٢ — حتى لا ينتفعوا بتراثهم فى تحديد حياتهم ووصل ما انقطع .

٣ — حتى يظهروهم على المتشابه والمختلط والمضطرب وحده ثم يستخلصوا منه مايروقهم ويعلنوه فى نظريات لهم ينتحلونها وبحوث يفخرون بها ويتباهون على الناس ، ثم يعرضون علينا تراثنا ناظرين اليه بعين السخط فيتطفل أبناؤنا على فتات موائدهم لقد وضعوا أيديهم على تركتنا التى هى أثمن تركات البشر وظهرنا نحن بمظهر الذى يستعير منهم ويلتمس

(٨)

الفلسفة

لكى نفهم تيارات الفكر العالمى يجب أن نفرق تفرقة واضحة بين العلم والفلسفة ، « هذه التفرقة واضحة دوما فى الفكر الاسلامى والثقافة العربية ، وقد عرفها الإمام الغزالى حين هاجم الفلسفة الالهية الوثنية وكرم الفلسفة العلمية فى مجال الرياضيات والطبيعيات ، لأن هذه الأخيرة

قــد اقيمت على منطق واضح محسوس لتعلقها بموجودات واضحة بينما لم تقم فلسفة الالهية الوثنية على منطق وان قامت على الوهم والافتراض لبعد مجالها عن المحسوس . نحن اليوم فى حاجة الى مثل هذه النظرة فى التفريق بين العلم والفلسفة فالعــلم هو مايجرى داخل المعــامل ، اما الفلسفة فهى مايقوله اصحاب الأيدلوجيات ، العلم واقع قائم على حساب وتجربة ، أما الفلسفة فهى نظرية عقل ناقد ، قد تخطىء وقد تصيب ، لأنها قائمة اساسا على الفرضيات ، هناك فرق بين نظريات العلم فى مجال الفلك أو الذرة أو غــيرها وبين نظريات الســيكولوجية الفرويدية والوجودية والماركسية والبراجماتزمية ، وغيرها من النظريات الفلسفيــة التى وضعها فيلسوف ما من خلال تحديات عصره وبيئته وحياته الخاصة وتجربته وتغرضاته ، ان العلم حقائق أما الفلسفات فهى نظرات اصلاحية معرضة للخطأ والصواب ، صــالحة لبيئة دون بيئــة ، وعصر دون عصر ، أما العلم فهو تراث انسانى مشترك بين سائر البشر يقوم على قواعــد عامة ، أما الفلسفات فهى ليست كذلك ، انها غير صــالحة للاســتيراد والتصدير ، فلــكل فكر فلاسفته ولــكل أمة نظرياتها المنبثقة من قيمها الأساسية ودينها وتاريخها وتشكيلها النفسى وذاتياتها الخاصــة وروحها ووجدانها ومزاجها . انها تتعلق بالأنظمة الاجتماعية والأخلاقية ومنــاهج الحكم والقضــاء والعلاقات الانسانية وهى تنبع أساسا من تاريخ الأمة نفسها ، فللغرب تاريخه وقيمه وفلسفاته ، وللعرب والمسلمين فلسفاتهم ومفاهيمهم التى تترجم نظرتهم الى الحياة واسلوبهم فيها وهى ليست دائما قابلة للتصدير أو الاستعارة والنقل .

فالوجودية والمــاركسية والبراجماتزمية والسيكولوجية ليست علوما لها قوة المنهج التجريبى : وانما هى فلســفات لهــا اتصــالها بالنفس الانسانية والعقل والروح ، وكلها قوى لاتقاس بمقاييس المحسوس ، ومن هنــا كانت الفلسفات وهى قائمة على النظرة الخاصــة المحدودة بحدود البيئــة والزمن معرضــة للخطأ ومعرضــة للسقوط مع تغــير الأزمنــة والأمكنة . أما العلوم فهى تراث انسانى مشترك بين ســائر البشر يقوم على قواعد عامة تجريبية .

ومن هنا كان خطأ قول القائلين حين يتكلمون عن نظرية من نظريات علم النفس أو الاقتصاد أو الاجتماع « العلم يقول » ذلك أن كلمة (العلم يقول) انما توحى الى السامعين أن مايورد لهم هو حقائق معملية غير قابلة للنقض أو التغيير بينما نظريات النفس والاجتماع والاقتصاد على عمومها هى وجهات نظر لفلاسفة وعلماء حاولوا أن يصلحوا مجتمعاتهم فى ظروف محددة ، ومن هنــا فهى لا تصلح للنقل أو التطبيق فى بيئات اخرى لهــا

ظروف تختلف وبيئــات تتباين ، فضلا عن أن هذه النظريات جميعا قــد استوحيت الحضارة الغربية والبيئة الأوربية وتحدياتها الخاصـــة بالتراث اليوناني والروماني والمسيحي ، ومن هنـــا فهي تختلف اختلافا واضحا عن البيئـــة العربيـــة الاسلامية بأديانها وتحدياتها وتراثها الفكرى ومزاجهـــا النفسى وذاتيـــاتها الخاصـــة ، ومشاكلها المختلفـــة فى النوع والدرجـــة والتشكل .

ولذلك فإن القول الحق هو أن الفلسفة وجهة نظر فلسفي صـــالح للنظر فيـــه ليؤخذ منه مايتفق مع البيئات والثقافات ويرفض مالا يصلح منه ، ولا عبرة بما يقال من أن الفكر عالمى فذلك قول يصدق بالنسبة للعلوم التجريبية وحدها ، أما الفلسفة الانسانية كالأخلاق والاجتماع والاقتصـــاد وغيرها فهى لا تخضع أبدا لقوانين العلم لانها تتصل بالنفس الانسانية التى لا تخضع لقيود المقررات المعملية المحدودة .

(٩)

الاقتصـــاد

للاسلام مفهومه الخاص وطابعه المفرد للاقتصاد ، هـــذا الطـــابع المختلف عن المنهجين البشريين العالميين القائمين اليوم ، وهما الرأسمالية والشيوعية ، وتختلف الدعائم الأساسية للاقتصاد الاسلامى عن الرأسمالية فى أمور الملكية والبيع والربا . فالملكية الفردية فى النظـــام الرأســـمالي تختلف اختلافا كليا عنها فى الاسلام ، حيث يضع الاسلام للملكية الفردية من الضوابط مايجعلها مجرد وظيفة اجتماعية . وقد جاء الاســـلام بأروع عقيدة توازن موازنة سوية بين الفرد والجماعة ، اذ أقام التكافل الاجتماعى على أساس الأخوة الاسلامية ، وهو طراز فذ فى التعاطف الانسانى جب العنصرية وتجنى على التفرقة الطبيعية وحرر العقيدة من التعصب المقيت وكفل للمرأة حقوقها الاجتماعية والاقتصـــادية وعالج ســـوء توزيع الثروة معالجة عادلة ، تحول دون تكديسها فى يد فرد أو افراد قـــلائل دون أن يقضى على نشاط الفرد وميله الغريزى للمبادرة والابداع . وأقام التنافس على أساس (القدرة والعدالة) معا واستطاعت تجربة الحكم الاســـلامى فى صدر الاســـلام أن تثبت نجاحها الباهر فى خلق مجتمع متوازن تتكيف فيه ارادة الفرد مع صالح الجماعة وتكفل الجماعة للفرد حقوقه وتفرض عليهما معا واجبا يقوم فى الدرجة الأولى على الحافز الأخلاقى .

ولـــما كان للاسلام منهجه الخاص فى الاقتصاد فانه يختلف بـــذلك اختلافا واسعا وعميقا مع الرأسمالية والاشتراكية ، فحيث أباح الاســـلام

البيع حرم الربا ، ووضع على الملكية قيودا تشمل فرائض على الانفاق لا على التملك تهدف الى الحيلولة دون تضخم الثروات ودون تركيز المال فى أيدى طائفة خاصة من الناس كما فرض الزكاة التى هى ركيزة التكامل الاجتماعى ، ولم يجعل الزكاة صدقة للفقراء ولكنه جعلها حقا من مال الغنى لمستحقيها من غير القادرين .

ولقد فرض على المجتمعات الاسلامية فى فترة سقوطها تحت السيطرة الاستعمارية نظام الاقتصاد الراسمالى او الاشتراكى وقد ثبت فشل كليهما فى تحقيق سعادة المجتمع وأمنه ، وقد كشف الباحثون فى الغرب عن فساد الاقتصاد الراسمالى وعجزه بالنسبة لمشكلة التضخم المالى وما نتج عنه من تضاءل القدرة الشرائية ، وبالنسبة للمشكلات الناتجة عن ازدياد عدد العاطلين عن العمل وقد ثبت أن الاقتصاد الراسمالى قد تخلى عن كونه علما وحصر نفسه ضمن اطار نظرى ضيق ينطوى على كثير من التبسط فى فروضه وقد وجهت ضربات شديدة الى الاقتصاد الذى ركز على الاتجاه المادى وتجاهل بذلك ابسط قواعد الأخلاق وأوضح معايير الخير والشر التى فرضتها جميع الأديان السماوية فأصبحت التصرفات الاقتصادية مباحة مادامت تؤتى نفعا ماديا ومادامت لا تصل اليها يد القانون الوضعى مهما اختفى فى ثناياها من غش فى المعاملات واضرار بالغير وسلب لماله . وقد احيطت النظرية الاقتصادية بأقنعة كثيفة حجبت كل اعتبار خلقى أو انسانى أن ينفذ الى هيكلها المادى .

وقد قام الاقتصاد الراسمالى فى الغرب على أساس الاستغلال والاحتكار والمعاملة الربوية ، وكلها أمور نهى الاسلام عنها ، فالاسلام يحرم الربا والاستغلال والغش والاحتكار كما أنه لا يطلق المنافسة لتنشط من مصدر الغرائز وانما يبيحها فى نطاق مثالياته وأخلاقياته .

أما الماركسية فقد عارضت الفطرة الانسانية بدعوتها الى الغاء الدين والايمان بالله واعتبار الأخلاق ومقاييس الحلال والحرام مقاييس متغيرة غير ثابتة ، وهى تعتمد على المادة وترى أنها أصل جميع الأشياء ، وتفسر الأحداث تفسيرا ماديا خالصا ، وتعتمد الماركسية على قاعدة باطلة ضالة هى الصراع بين الطبقات وقد دعت النظرية الى رفع مستوى العمال فلم تستطع أن تحقق لهم شيئا ذا بال بينما استطاعت الراسمالية الغربية أن ترفع شأن الطبقة العاملة وتحقق لها كثيرا من الانجازات . وأسوأ معطيات الماركسية احتقار الفرد ومتهان كرامته والنظر اليه كأنه عجلة فى ماكينة ، وهى تعمد على تغذية العمال بالحقد ليثوروا على أصحاب رءوس الأموال .

وبينما تنطلق الماركسية من نقطة الحقد لاراقة الدماء فان الاسـلام ينطلق من نقطة الوفاق داعيا الى التقارب والاخاء والتعاون ، وحيث تدعو الماركسية الى عداء الانسان للانسان يدعو الاسلام الى اعلان وحدة الأصل الانسانى ووحدة المجتمع ، وان الناس جميعا مدعوون الى التعـارف ، ويعطى الاسـلام الناس حق التملك والـكسب المشروع حقا مشروعا ، بل شرطا أساسيا لتحميل الانسان المسئولية المفروضة عليه للعمـل فى هذه الحياة حتى يسأل يوم القيامة عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وهل أدى فيـه حق الله ام لا ، وقد أثبت وقائع التاريخ زيف النبوءات التى قدمتها الماركسية بعد أن قدمت ملايين الضحايا الذين ضـاعوا قتلا ونفيا وتعذيبا ، واثبتت الدراسات أن الماركسية ليست مذهب الطبقـة المحرومة أو الفقيرة ولـكنها دعوة الحقد على البشرية والأسرة وكراهية الانسانية ، وقد أثبتت كل التجارب التى تمت فى بلدان كثيرة فشلها ، وبرهنت على أنها ضـد الفطرة وضد العلم نفسه ، ودلت على أنهادعوة الى تخريب المجتمعات لاقامة نظامها المدمر .

وقد كشفت الأبحاث أنه لا سبيل الى المقارنة بين النظـام الربانى المصدر الانسانى الطابع وبين الأنظمة البشرية الوضعية ، وابرز ذلك فى مجالات ستة :

أولا : تضـييق نظـام الملـكية الفـردية لخير الجماعة وفى سبيل الصالح العام .

ثانيا : تحريم الملكية الفردية للاشياء الضرورية لجميع الأفراد وادخالها فى نطاق الملـكية الجماعية .

ثالثا : تحريم الـكسب غير المشروع واعتبـار الربا والفـائدة من الأموال الحرام .

رابعا : القضاء على استغلال النفوذ والسلطان للحصول على المال .

خامسا : تحريم جميع المعاملات التى تنطوى على الغش والرشوة أو أكل أموال الناس بالباطل .

سادسا : من أجل جعل الملكية الفردية فى وضع لا تطغى فيـه ولا تتكدس أوجد الاسلام (نظام الميراث) والوصية ، يتكفـل النظـام الأول بتوزيع الثروات بين الناس توزيعا عادلا يحول دون تضخم الأموال وتجميعها فى أيد قليلة ، ويعمل على تذويب الفوارق بين الطبقات ، كذلك الشـأن بالنسبة للوصية حيث يقسم بين أقرباء المتوفى فيوسع بذلك دائرة الانتفاع

من الملك الذى كان فرديا فأصبح جماعيا ، كذلك الشأن بالنسبة للوصية حيث يمكن لصاحب المال ان يوصى بجزء من ماله لأحد ، كذلك امرالاسلام بالزكاة والصدقة حتى يأخذ الفقير نصيبه من مال الغنى وفى هـذا حـد لتصاعد الملكية .

(١٠)

التعليم

استهدف الاسلام من التعليم تكوين النفس المسلمـة والعقل المسلم وتحرير هذه النفس وهذا العقل من كل العوائق التى تحول بين المسلمين وبين السعادة والتمكن فى الأرض ، ولذلك فان خطر معاهـد الارساليات والمنـاهج الغربية الوافدة مازال يحول دون تحقيق هذه الغاية ، فقـد عمد الاستعمار الى اتخاذ التعليم وسيلة الى استعباد الأمم والأفراد وخلق عقلية مليئـة بالاعجاب بالغرب موالية له ، بينمـا هى فى نفس الوقت تحتقر مقومات أمتها وقيمها وتتخذ من مرحلة الضعف التى تمر بها البـلاد الاسلامية وسيلة للتشكيك فى مدى أثر القيم الاسـلامية ، ومن الحق أن مرجع الضعف يعود الى تهاون المسلمين فى تطبيق منهج التربية الاسلامية فى بيوتهم وأسرهم .

وركز منهج التعليم الاسـلامى على أن يجعل أساس العلم مراعاة ميول الأطفال واستعداداتهم حتى لا يرهق الأطفال بأعمـال يصعب عليهم اداؤها لأنها لاتجرى مع رغباتهم ، وعلى المعلم أن يحترم الميول مهما كانت متواضعة ، وعلى المعلم أن يتجنب كل مايثير الشك فى نفوس الضعفاء، وأن يقتصر على المتـداول المعروف ، والا يلقى على التلميذ مالا يحتمـله عقله ولا يلقى اليـه مالا يبلغه عقله وأن يلقى القدر الـكافى المناسب مع العقول ، وقـد أعلن الاسلام أن التعـليم حق لكل صـبى وواجب على الدولة وهى مكلفة به اذا لم يكن أهله قادرين على الانفاق عليه ودفع أجر معلم الـكتاب فينفق عليه من بيت مال المسلمين ، كما أشـار المنهج الى تعليم البنات لأن دين الاسلام عام لجميع الناس وان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .

وقد رسم الاسـلام أسلوبا عمليا لمنهج التعليم قرر فيه عددا من الحقائق التى ماتزال تمثل الأساس الصحيح لكل نهضة تعليمية ، ومن ذلك أسلوب التدرج فلا يخوض المعلم فى فن حتى يستوفى الفن الذى قبله فان العلوم مرتبة ترتيبا ضروريا وبعضها طريق الى بعض ، وأن يأخذ من كل شىء أحسنه وأن يكون التوجه أولا الى أشرف العلوم وهو العلم بالله عز

وجل وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل الى هذه العلوم ، والا يدع المعلم من نصح المتعلم شيئا وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها أو التشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من الجلى مع التنبيه على الغرض من درس العلوم وعلى المتكفل ببعض العلوم ان لايقبح فى نفس المتعلم العلوم الأخرى ، فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ، بل المتكفل بعلم واحد ينبغى أن يوسع على المتعلم طريق المتعلم مع غيره وان يراعى التدريج فى ترقية المتعلم من رتبة الى رتبة ، وعلى المعلم أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى اليه مالا يبلغه عقله ، وذلك وفقا لقول النبى صلى الله عليه وسلم (مامن أحد يحدث قوما بحديث لا يبلغه عقولهم الا كان فتنة على بعضهم) وعلى المتعلم ان يعلم نسبة العلوم الى المقصد كما يؤثر الرفيع القريب عن البعيد والمهم على غيره وعلى الطالب الا يدع فنا من العلوم المحمودة ولا نوعا من انواعه الا وينظر فيه نظرا يطلع به على مقصده وغايته طالبا التبحر لان العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض ، وعليه أن يراعى الترتيب ويبدأ بالمهم فان العمر اذا كان لايتسع لجميع العلوم غالبا فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه ويصرف جمام قوته من الميسور من علمه الى استكمال العلم الذى هو أشرف العلوم .

(١١)

العلم

دعا الاسلام الى العلم فبدأت آيات القرآن بالدعوة الى القراءة ثم اقسم بالقلم وجعلت القراءة باسم الله خالصة ونسبت التعليم الى الله الذى علم بالقلم . وورد لفظ العلم ومشتقاته فى القرآن فى (٨٧٠ آية) والعلم الذى دعا الاسلام الى تحصيله هو العلم على اطلاقه وليس علم الدين فحسب ، وكانت دعوة الاسلام الى العلم مرتبطة بالنظر الى آفاق السماء والأرض والتأمل والتدبر والتفكر ، والى النظر فى مبادىء الخلق وفى أحوال الأمم التى اندثرت وما تزال بقايا حضاراتها ومدنياتها فنظرة الاسلام الى العلم نظرة جامعة قد حاطها منهج كامل للمعرفة والفهم له مقوماته وضوابطه ، فقد دعا الى البرهان والحجة والتجربة وحث على الاجتهاد وجعل له أجرين وحرم التقليد . ولم تكن هذه الدعوة بغير هدف، ولكنها كانت ترمى الى أن يمتلك الانسان ارادته ومسئوليته فيحقق أمانة وجوده ورسالة استخلافه .

فقد دعا الاسلام الى السيطرة على الحياة والى تملك مواردها ومقدراتها والى انمائها وتسخير مواردها وتشكيلها ودعا الى الكشف

والابتكار وجعل للمبتكرين الثواب وأمر بتعمير الأرض والتنافس فى الصنائع والفنون النافعة وأعلن أن العلم يزكو بالانفاق وقد اخذ الله الميثاق على الذين يعلمون أن يبنوه للناس ولا يكتمونه .

ودعا الاسلام المسلمين الى استعمال حواسهم الظاهرة فى النظر والتأمل كما حرضهم على طلب العلم والمعرفة والنظر فى الكون والتأمل فى الكائنات والتنقيب عن أسرار الوجود ، وحث حثا متواصلا على العناية بتنمية العقل الانسانى وترقية الشخصية الانسانية بالضرب فى الأرض وتعرف احوال الأمم وطبائعها ودراسة ماهىعليه من نظم وعادات. وهكذا فتح الاسلام الباب أمام البشرية لتتقدم الى مجالات البحث العلمى والمدنية وكان ظهور الاسلام هو منطلق التحول الصناعى فى العالم كله . ولقد كان من آثار ذلك أن اقام الاسلام للعلم منهجه ومنطلقه من حرية البحث وصراحة الفكر وسلامة النظرة بعد ان حرر العقل البشرى من الوثنيات والمادة ، وعلم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين واستطاع المسلمون أن يحققوا خطوات واسعة فى هذا المجال فى نفس الوقت الذى ظل مجرى عقولهم سليمان قائما على الايمان بالله مصدر العلم ومعلم الانسان اسرار الكون وقوانينه ، ومن اجل هذا المنطلق فرق الاسلام بين العلم النافع والعلم الذى لا حاجة اليه ودعا المسلمين الى أن يأخذوا من كل علم بما هو احسنه وفى عهد النبى وضعت فكرة القياس ووضعت قواعد القياس وشرائط العلوم ، وتكلم الصحابة فى عهد النبى فى العلل ، وأن كثيرا من الواقعات لم تندرج فى النصوص الثابتة فقاسها الصحابة بما ثبت والحقوها بما نص عليه بشروط ، منذلكالالحاق، وقد تميز العلم الاسلامى بأنه حى واقعى تجريبى خال من عنصر الخيال والقصة ومقيد بالملاحظة والتجربة ، فقد كان الفكر الاسلامى ثمرة عملية نقد كبيرة وعملية للفكر السابق وتجديد وبناء استغرق قرونا زاهرة فى حياة العقل فى الاسلام فقد اعتمد العلماء المسلمون على العقل والحس مطالبين انفسهم وغيرهم بالدليل والبرهان واستطاعوا بعد الاطلاع على معارف الأمم أنيصححوها ويسيروا بالمعرفة خطواتهائلة ، وكانتجديدهم للعلوم الطبيعية والكونية من طرق شتى مع الاعتماد على الملاحظة والتجربة فصحح المسلمون معارف القدماء وابتكروا علوما خاصة بهم ، وضع جابر بن حيان علم الكيمياء ، ووضع الحسن بن الهيثم علم الضوء بمعناه الحديث ، وجدد البتانى علم الفلك . اقاموا العلوم على التجربة وانشأ المسلمون المنهج التجريبى الاسلامى. مخالفين المنهجاليونانى ونقدوا المنطق الأرسطى ، ووصل المسلمون الى فكرة الخواص اللازمة لكل ذات، وهى الفكرة التى صبغت المنهج الاستقرائى الحديث بصبغتها الخاصة ،

وكان المنهج التجريبى الاسلامى هو أساس الحضارة المعاصرة وهو الذى دفع أوربا الى العمل وأخرجها من جحور الوثنية والرهبانيـــة ، وصحح المسلمون أغلاط أرســـطو وجالينوس وأفلاطون ، وأبطل صـــناعة التنجيم وأبطل القول بأن الـــكواكب تجلب السعادة أو أن بعضها يجلب النحس، وقال ان اليونان أخذوه من غير برهان ولا قياس وقد أقام المسلمون المنهج العلمى التجريبى على قواعد رئيسية لاتخضع للاهواء ولا للغايات الخاصة ولا للمطامع وبذلك قرر الاسلام دستور العلم .

(١٢)

الفــن

يقوم المفهوم الاسلامى للفن على استحالة التنـــاقض مع الفطرة فاذا كانت الفنون من روح الفطرة وجب الا تخالف أو تنـــاقض دين الفطرة : دين الاســـــلام فى شىء فاذا خالفت الفنون الدين فى أصوله ودعتصراحة، أو ضمنا الى رذيلة من أمهات الرذائل التى جاء الدين لمحاربتها ، وعاقت الانسان عن أن يعمل بالفضائل التى جاء الدين لايجابها على الانسان حتى يبلغ ماقدر له من الرقى فى النفس والروح ، واذا خالفت الفنون الدين فى شىء من هذا أو فى شىء غير هذا فهى بالصورة التى تخالف بها الدين فنون باطلة ، فنون جانبت الحق وأخطأت الفطرة التى فطر الله عليهـــا الناس والخلق (محمد أحمد الغمراوى) .

ومفهوم الفن فى الاســـلام يقوم على أساس أنه عنصر من عنـــاصر الفكر يتكامل مع الأدب والاجتماع والأخلاق والدين والحضارة ، وهو فى الاســـلام له طابعه الأصيل الواضح المبـــاين لمفهوم الفن فى الثقـــافات والحضارات الأخرى ، وقوامه الأخلاق وطابعـــه التوحيد يتسامى بالغرائز ويرتفع بالنفس بالانسانية الى الكمال دون أن يبعد عن الواقع .

والفن فى نظر الاسلام أداة تجميل الحيـــاة ووسيلة الاسعاد الروحى والنفسى بتحرير الانسان من عالم الأهواء والغرائز واطلاقه فى نظرة حرة الى الكون والوجود ، يعرف فيها قدرة الله وعظمته ويزداد بها ايمانا .

وقد كان الفن اليونانى بطابعه المادى والوثنى يجعل الأولوية للتماثيل المجسمة اعجابا بالأجساد وعبادة لصور الجمال ومظاهر القوة ، ولـــكن الفن الاسلامى مستمدا من مقوماته الأساسية يجعل البيان والشعر والأدب فى مقدمة قائمة الفنون : الكلمة البليغة والفكرة الموحية وذلك انتقـــالا من عالم المادة الى عالم الفكر ، فالتأمل أوسع العوالم والتفكر فى خلق الله

أعظم معطيات العقل والروح : (نون والقلم وما يسطرون) وبذلك أصبح رائد الفن : البيـــان الذى يتمثل فى أسمى صوره بالقرآن الـــكريم وبذلك دفع الاسلام الفن البشرى الى الأمام انتقالا من مفهوم الماديات فى الفن الى مفهوم المعنويات وسلك المعنويات والماديات فى اطار جامع متكامل وبذلك فقد حرر البشرية من مفهوم المادية الخالصة التى تقدس الجسد والشهوات والغرائز والوثنيات وتقيم لها المهرجانات والطقوس ، ودفع البشرية الى الانتقال من تجسيد البطولة فى صورة مادية الى تـــكريم عمل الانســـان نفسه .

وأبرز سمات الفن فى الفكر الغربى لا تجد فى مجال الفكر الاسلامى مجالا لها . فالاسلام لايقر عبادة الجسد الجميل عبـــادة وثنية بحيث يقدم له القرابين وكل مايتصل بذلك من أساطير الحب والجمال عند الاغريق وهى حافلة بالمباذل لاتجد فى افق المجتمع الاسلامى قبولا .

كما أن الاسلام لايقر فكرة الصراع بين الآلهة والانسان أو بين القدر والانسان على النحو الذى يقوم عليه الفن الغربى ، ولا يؤمن المسلم بأن الانسان يثبت ذاته بمصارعة القدر ولا بأن البطل الصالح يتحطم على يد القدر ، وكل هذه المعانى مستمدة من فكرة الخطيئة الأصلية والمسلم لايؤمن بتعدد الآلهة ولا تجسيد الاله فى صورة وثن حسى ملموس كالتماثيل العديدة فى العقائد الغربية فى ذلك الخلط العجيب بين المسيحية والهلينية . كما أن المسلم لايؤمن بعبـــادة الطبيعـــة أو المحسوسات ومن هنا فان مفهوم الفن فى الاسلام محرر من كثير من هذه القيم التى يقوم عليها الفن الغربى والتى تتعارض أساسا مع الايمان بالله الواحد .

كذلك فان الاسلام لايقر تجسيد البطولة فى صورة مادية ، ليس فقط حفاظا على مفهوم التوحيد من خطر الاتصال بالتماثيل والأصنام التى كانت تمثل عبادات ماقبل الاســـلام ، ولـــكنه ارتفاعا بالنفس الانسانية من أن تتمثل فى مفهوم مادى ، بينما جاء الاسلام محررا للبشرية من التجزئة بين الماديات والمعنويات والفنان المسلم له طابعه المبـــدع متحررا من الخضوع للمذاهب الوثنيـــة التى تقول بتقليد الطبيعة أو التفوق عليها ، ولذلك فهو قـــد طرق آفاقا أخرى غير هذه الآفاق هى التعبير عن المعانى فأوجد أنواعا من الخطوط والدوائر والزخارف والوحدات المتشابكة والمتداخلة .

وهكذا حقق الفن الاسلامى مذهبا جديدا مستمدا من حقائق الاســـلام فكان فنا منطلقا وتجريديا معبرا وليس جامدا .

الفصل الثانى

الفكر الاسلامى والشبهات المثارة

(١) الثقافة والحضارة
(٢) مصطلح الضمير
(٣) الفتح الاسلامى
(٤) التصوف
(٥) النبـــوة
(٦) الأمة الأمية
(٧) العلمانيـــة
(٨) العقلانية
(٩) الأرقام
(١٠) الثـــورة
(١١) طوالع البخت
(١٢) القرآن الـــكريم
(١٣) وحدة الأديان
(١٤) تأويل المعجزات
(١٥) السلفية
(١٦) كتابات الأطفال
(١٧) الفكر الفلسفى
(١٨) الفلسفة المادية
(١٩) علم النفس الحديث
(٢٠) أخلاق الاسلام
(٢١) تفسير التاريخ الاسلامى
(٢٢) الحكومة الثيوقراطية
(٢٣) الحكومة الاسلامية
(٢٤) الماسونية
(٢٥) اليونسكو
(٢٦) الوحى
(٢٧) الفرعونيـــة
(٢٨) التفوق البشرى
(٢٩) تجارة الرقيق
(٣٠) موسيقى القرآن
(٣١) اللغة العربية
(٣٢) مهمة الجامعة
(٣٣) تمثيل الصحابة
(٣٤) القوميات والأقليميات
(٣٥) المسرح
(٣٦) الأساطير
(٣٧) القرامطة
(٣٨) اخوان الصفا
(٣٩) الزنج والقرامطة
(٤٠) الحرف اللاتينى
(٤١) الفاظ القرآن
(٤٢) نظرية دارون
(٤٣) الجهـــاد
(٤٤) التوراة
(٤٥) الانسان
(٤٦) المنهج العـــلمى الغـــربى والاسلامى
(٤٧) التفسير المادى للتاريخ .
(٤٨) اهل السنة والجماعة
(٤٩) الوثنيـــة
(٥٠) الرقيـــق
(٥١) السنة والشيعة



(١)

شبهات حول الثقافة والحضارة

من الشبهات المثـــارة والتى كثر ترددها القـــول بترابط الثقافـــة والحضارة وأن على الأمم التى تأخذ الحضارة الغربية ان تأخذ الثقافة ايضا ذلك لأنه لا سبيل الى التفرقة بينهما .

ومن الحق أن يقال فى هذا المجال أن الأمم حين تقتبس من امماخرى لاتنقل الثقافة ، ولكنها تنقل الحضارة الممثلة فى الوسائل المادية فىالحياة الاجتماعية ، أما الفكر فلا سبيل الى نقله ، لأن لكل أمة فكرها . وتجربة أوربا مع الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامى قد سـبقت على الطريق فقد نقل الغربيونالحضارة الاسلامية وترجموا العلوم ونقلوا المعاملوأدوات التجارب ولكنهم لم يقبلوا الفكر الاسلامى المستمد من القرآن والتوحيد ، واقاموا فكرهم وثقافتهم على اساسها القديم المستمد من الفلسفةاليونانية الاغريقية ، وجاءت استمداداتهم من الفكر الاسلامى خالية من طابع هذا الفكر فقد جردوها وصـــهروها فى ثقافتهم وكيانهم فلم يتحولوا بها فلماذا لا يقف المسلمون مثل هذا الموقف ويقلدون الغرب فى هذه الخلة .

ذلك هو الأمر الطبيعى للامم والثقافات والاتجاه الصحيح لعـــلاقات الحضارات بين الشعوب .

فالقول بأن على العـــرب والمسلمين ان ينقلوا الحضـــارة وثقافتها (وما يحمد منها وما يعاب) هو قول باطل مغرض وهو صـــوت التغريب والغزو الثقافى وهو ليس خالصا لوجه الحق ولا وجه العلم ولا خالصا فى نصح هذه الأمة ، ولـــكنه زيف وغش يراد به صهر هذه الأمة فى اتون الفكر الغربى ، وتحويل الفكر الاسلامى الى فكر تابع ذليل قـــد سقطت عنه مقوماته وذاتيته وذاب فى الأممية والشعوبية العالميـــة وهو أمر لن يحدث فى الاســـلام وجذوره العميقة التي لا يمكن ازالتها ، ولأن المسلمين والعرب قد بلغوا مرحلة الرشد الفكرى فلم يعودوا يخدعون عنرأى مضلل مزخرف فضـــلا عن الثقة الـــكاملة باشارة القرآن الـــكريم : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) .

ولقد فرضت على مجتمعنا وفكرنا الاسلامى صراع الثقافات : الثقافة الفرنسية والثقافة الانجليزية والثقافة الأمريكية والثقافة الماركسية وكل منها له وجهته وان كانت وجهة الثقافة الماركسية تختلف من ناحية الخلاف بين الراسمالية والشيوعية .

(٣)

شبهات حول مصطلح الضمير

مصطلح الضمير : من التعبيرات التى استحدثتها كتب الأخلاق الغربية وهو مصطلح اريد به احلال مفهوم اخلاقى منفصل عن مفهوم الأديان المنزلة فحيث يدعو الاسلام الى بناء الانسان بالتقوى ويجعل منه قوة فعالة تحول بين الانسان وبين الشر دعا كتاب الغرب الى مايسمى بالضمير ، والضمير بهذا المفهوم لا يتشكل الا فى مفاهيم البيئة والثقافة والعقيدة. فاذا تشكل على معنى التحرر من قيم الأخلاق أو اعتبارها نسبية لا ترتبط بالانسان ولا بالمثل الاعلى فانما يجرى الضمير معها هذا المجرى ، وحينئذ لايستطيع ان يحقق شيئا بمفهوم الضمير الذى يشكله مفهوم الأخلاق المرتبطة بالعقيدة المؤمنة بالجزاء الآخر .

هذا المعنى الذى لفت اليه الدكتور عبد الحليم محمود وهو يجليه بقوله ان خرافة الضمير هى من اوهام العصر الحاضر حيث لانجد فى معاجم اللغة ذلك المعنى الأخلاقى الذى نفهمه من هذه الكلمة فى الوقت الحاضر ، ولقد استعمله الغرب كثيرا واشاد به حينما اراد أن يضع للاخلاق أساسا ومقياسا منفصلين عن الدين ، حين أراد الغرب أن يتخلص من سيطرة الكنيسة وأن يخرج من سلطانها ، وكان الدين اذ ذاك أساسا ومقياسا للاخلاق ، فلما أريد التخلص من الدين جرى البحث عن الدين بوحى الضمير ، وأن يتخذوا من وحى الضمير الأساس الذى لايخطىء ، ان الناس فى كل العصور يستشيرون ضمائرهم ولكنها لاتسمعهم جميعا لحنا واحدا ، وقال اندريه كرسون ، اذ أن ما يظهر عدلا لبعض النفوس لا يظهر عدلا ولا خيرا لنفوس اخرى فانه حين توازن بين احوال الضمير فى العصر الواحد فى اقطار مختلفة فاننا نجد فروقا لاتكاد تحصى وحيث يختلف الضمير بحسب اختلاف الزمن أو اختلاف المبادىء ، أو اختلاف البيئة أو اختلاف الثقافات فى البيئة الواحدة ، ولذلك فان اتخاذ الضمير كأساس للأخلاق أو كمقياس لها انما هو مجرد حماقة وعبث

ومن الشبه التى جعلت الناس يؤمنون بمنزلة كبرى للضمير

ويرفعونه انه قد شاع بين بعض الطوائف أن الضمير قوة فطرية معصومة بطبيعتها ، الضمير قوة فطرية الا انها تتلون بحسب ماتتغذى به من ثقافة وبيئـــة ووراثة ، وهي تختلف فى الفرد الواحد بحسب اختلاف سنهوتنتله من بيئـــة الى بيئة وبحسب الـــكتب التى تمده بالثقافة العقلية أو التهذيب الروحى وبحسب أخلاق الأصدقاء الذين يلازمهم الانسان فى حياته .

ومن هنا فان الضمير ليس قوة معصومة بطبيعتها بل هوة متـــأرجح متقلب لايستقر له قرار .

أما الأساس فى الأخلاق والمقيـــاس الذى يلجأ اليـــه الدين يستمد منه الهداية والارشاد فانه هو وحده المعصوم ، والاســـلام قـــد اتى فى الجانب الأخلاقى بكل ماتتطلبه النفوس المرهقـــة والأفئـــدة المتعطشـــة للاستقامة والانابة .

أما صلة الدين بالضمير فانها صلة هيمنة وتوجيه وارشاد وسيطرة، هيمنة تستمر مدى الحياة فاذا زالت اختل الضمير .

(٣)

شبهات حول الفتح الاسلامى

حاولت بعض الشبهات الغربية المثارة الطعن فى الفتح الاســـلامى وتزييف مفهوم انتشار الاسلام بتفسيرات مادية مضللة والحقيقة ان الفتوح الاسلامية لم تكن حركة توسعية ولا حربا صليبية ضد المسيحية وانما كانت رسالة تمدنية لاتدهف الى أى لون من الوان الادماج .

وفى هذا المعنى يقول سامى اليافى فى كتاب (الحضارة الانسانية بين الشرق والغرب) : ان انتصار العرب المذهل ليس مرده ضعفالدولة البيزنطية بعد أن استغرقت الحروب الفارسية مواردها ، هـــذه مغالطة صارخة لأن الامبراطور هرقل قـــد أنهى حرب الفرس بالنصر الباهر عام ٨ هـ (٦٢٩ م) ثم تمتع خمس سنوات من السلم الشامل قبل أن يفـــاجأ بالغزو العربى ، وقد أعد العدة بنفسه وعين أخاه ستودور لقيادة الجيش الذى دحره المسلمون فى أجنادين . ولا ريب أن انتشار الاسلام فى هذه المرحلة القليلة التى لم تزد عن ثمانين عاما قـــد أدهش المؤرخين ، ولأنهم جروا عن فهم الأثر المعنوى والروحى والنفسى للاسلام فى البـــلاد التى دخلها فقد ذهبوا مذاهب مختلفة فى التعليل .

والواقع أن النصر الاسلامى للاسلام هو وحده القادر على طرح المفهوم الأصيل لهذه الظاهرة ولقد أجمع المؤرخون على ان سرعة انتشار الاسلام أمر فريد عجيب على مدى التاريخ ، ذلك لأن المسلمين لم يكونوا من الكثرة العددية ولا من قوة العدد والسلاح ولا من حيث استيعاب الفنون العسكرية ولا من حيث حضارة العلم والمدنية ، غير أن التفسير الصحيح والسليم أن سرعة انتشار الاسلام آنما ترجع الى انه كان افضل نظام اجتماعى وسياسى تمخضت عنه العصور ، وأن سعادته ترجع الى انه وجد فى كل مكان ذهب اليه امما استولى عليها الخمول وفشا فيها النهب والعسف ، فلما جاءها الاسلام لم يجد الا حكومات مستعبده مستأثرة متقطعة الروابط بينها وبين رعاياها ، وكان نظام رأس المال فى الامبراطورية الرومانية مبنيا على الاسترقاق ، وكانت الآداب والثقافة الاجتماعية آخذة فى الانحلال ، ومن ثم وجدت جماهير الأمم فى الاسلام منقذا ومخلصا ، ذلك لأنه أقام العدل ، ولكنه لم يفرض عقيدته وترك الناس يدخلون فيها باختيارهم وقد دخلوا فى هذا الدين حين تبين لهم صدق الداعين اليه .

أما تلك التفسيرات التى تقول بأن قسوة الحياة المادية والاقتصادية هى التى دفعتهم الى التطلع الى مافى البلاد التى فتحوها من موارد اقتصادية فانه باطل لأنه لو صح لاقتصر المسلمون على فتح البلاد الخصبة الغنية ولما ذهبت جيوشهم وقبائلهم الزاحفة الى البلاد الفقيرة الشحيحة النائية عن مواطنهم ، ولكن الحقيقة هى أنهم كانوا يهدفون أساسا الى نشر كلمة الله ورسالته الى الناس كافة وفى كل مكان مهما احتملوا فى ذلك من العسر والمشقة ، ولو كان لهذا التفسير المادى أى ظل من الحقيقة لأسرع الخلفاء الراشدون الأولون الموجهون لتلك الفتوح الى نقل مقار سلطانهم وحكمهم من مكة والمدينة وصحراء الجزيرة العربية الى غيرها من البلاد المفتوحة .

(٤)

شبهات حول التصوف

من المحاذير التى توجه الى التصوف قيامه على مفهوم الذوق ودعوته للوصول الى الحقيقة عن غير طريق العقل ، قائلين بأن القلب أو البصيرة الداخلية قادرة على اكتناه الحقيقة .

وهذا القول من شأنه أن يعمل على اسقاط الجانب العقلى فىالاسلام وما يتصل بالعلوم المكتسبة ، وقد كان مفهوم الاسلام فى منابعه

الأصيلة قائما على العقل والقلب معا دون تفرقة بينهما أو اعلاء لجـــانب دون الآخر .

ومن طريق انفصال الجانبين المتكاملين دخلت الى التصـــوف مفاهيم الحلول والاتحاد ووحدة الوجود وغيرها من نظريات عرفتها مذاهب الروخية القديمة ، ولقد كان من أخطر ما وصل اليه الفكر الصوفى ذلك الجـــانب الذى يتصل بالـــكرامات واسقاط التدبير ونبذ العقل والتواكل واســـقاط التكليف من صـــلاة أو صـــوم أو حج أو غير ذلك من فرائض ، بدعوى الترقى عن العـــامة ، ومن ذلك مسألة التفرقة بين الظاهر والبـــاطن ، والايغال فى تفسيرات باطنية للمصطلحات والـــكلمات تختلف عن مفهوم السنة الجامعة .

هذا اللون من التصوف الفلسفى المنحرف هو الذى أوصل المسلمين الى مرحلة الجبرية الذى جعل المتصوفة أولياء للمستعمر بعد أن كانوا فى ايمانهم بالجهاد حربا عليه ، وكان لهم دورهم الواضح الضخم فى مقاومة نفوذ الحملات الصليبية والاداله منها ، ثم تحول الصوفية فى ابان الاحتلال الفرنسى والبريطانى فأصبحوا أوليـــاء للنفوذ الأجنبى ، وهذا هو التصوف الذى انتقده جمال الدين ومحمد عبده واقبال وابن باديس .

وقد حمل الباطنية الآيات مالا تحتمله بدعوى النفاذ الى عالم الأسرار والأنوار . كذلك فقد ذهب بعض الصـــوفية فى الزهد والتقشف مبلغـــا من المغالاة حتى يصـــل الى قريب من مفهوم الرهبانية المسيحية ، وليس هذا مفهوم الاســـلام فى الزهـــد والتقشف ، ولم يرسم الاسلام لأتبـــاعه حيـــاة الزهد والنسك ولا حياة الاستغراق فى الترف والنعيم ، وهـــو يرفض العزلة والانقطاع كما يرفض الانكباب على الدنيا ، فالاسلام دعوة وسطية من الجمع بين الروح والمـــادة فى اطار الحدود التى أقامها الله تبـــارك وتعالى ، وقد فهم أن تكون الدنيا فى أيدى المسلمين وليست فى قلوبهم وأن تكون موجهة الى الله تبـــارك وتعالى ، وكذلك جعل الاسلام الـــكرامة خالصة لصاحبها بحيث لا تكون مفروضة على أحد ولا حائلة دون القيام بأى فريضة من فرائض الله تبارك وتعالى .

(٥)

شبهات حول النبوة

طرحت المخططات التغريبية من خلال مفاهيم الفلسفة المادية شبهات جديدة حول النبوة والوحى ، تحاول أن تلقى ظلال الشك بالقول بأن النبوة تجربة ذهنيــة فــكرية ، وان النبى قــد أدرك ما أدرك من النبوة نتيجة قــدرته على التركيز واستدامته على مستوى تجريدى لا يطيقه غيره ، ولا ريب أن هــذه من الدعاوى البــاطلة التى فنــدها مفكرو الاســلام المعاصرون على أساس واضح صريح ، ان اى انسان مهما بلغ من التركيز لا يستطيع أن يكون نبيا ، لأن النبوة ليست تجربة ، ولمــاكان ابرز ظواهر النبوة هى الوحى ، ولمــا كان هــذا الوحى يهبط فجأة فى لحظة مجهولة للنبى كأنه ومضة خاطفــة لم يسع اليها ولم يتوقعها ، كان من الاستحالة القول بأن النبوة مما يمكن أن يتحصــل اليه اى انسان مهمــا بلغ من النبوغ أو الذكاء .

ولا ريب أن أبرز صفات الوحى أنه من خارج الذات ، فهو ليس نتيجة فيضــان نفسى أو كبت لمجموعة من التأملات احتشدت وتفجرت فى نفس النبى على نفســه . والقائلون بهذا هم من المنكرين للنبوة الخائضــين بالبــاطل فى وصفها . ولا ريب أن النبوة هى من الاصطفاء الربانى العلوى المسبوق ببعض الارهاصات ، ولــكنه لا يعرف مايسمى بالتــدرج المؤدى الى النضج فى النهاية ، والنبوة تكليف فجــائى ينفى الارادة فلا خيــار لنبى فى أن يقبل أو يرفض ما يأتى به الوحى (ما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى) .

ان محاولة الفكر المــادى محاولة باطلة وخاصة فى محاولة تجريد النبى صلى الله عليه وسلم من كل ماهو سماوى غيبى ، ولا شك أنهم مخطئون فى تصورهم أنه صلى الله عليه وسلم « اختفى » فى غار حراء ليفكر فى أحوال قريش وكيف يستنقذهم من مظالم السادة ، أو قولهم أن الاسلام ثورة اجتماعية فالاســلام ليس ثورة ، ولــكنه دين سماوى اختار الحق تبــارك وتعــالى توقيتــه ومكانه ورسوله دون تقيد بأى تفسيرات مادية مما يحكم به الماديون على الثورات والحركات الاجتماعية ، وللنبى صلى الله عليه وسلم عصمة وقداسة وهو ليس بشرا فحسب ، ولــكنه « بشر يوحى اليه » : (قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى) انه ليس بشرا مثلنا لأنه يوحى اليــه ، ونحن لا يوحى الينــا بشىء ، هــذا الفرق الدقيق هو سر النبوة والنبى معصوم يتلقى من ربه التشريع والتكليف وهو لا ينطق عن الهــوى .

(٦)

شبهات حول الأمة الأميـــة

« هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم »

كان العرب أمة أمية وعند أهل الـكتاب من اليهود والمسيحيين ان الأميين هم غير بنى اسرائيل ، وكان اليهود يعتبرون أن كل ماعداهم اميون وبالمعنى العصرى « جوييم » وذلك بعد ان دخلت عليهم مفـاهيم الغرور والاستعلاء والادعاء بأنهم شعب الله المختار ، فقـد اعتبروا أن كل من عداهم أميون ، ووصف الأميون بأنهم لم ينزل عليهم كتاب سماوى ، فكان العالم قبل الاسلام أهل كتاب واميون ، فأرسل الله تبارك وتعـالى فى الأميين رسولا منهم ، وأنهم كانوا قبل نزول الـكتاب فى ضلال مبين ، فالعرب كانوا أميين — قبل الاسلام — بمعنى أنهم غير ذوى كتاب سماوى ثم أصبحوا بعد أمة مسلمة ، وامة وسطا وخير امة اخرجت للناس .
« وكذلك جعلناكم أمة وسطا » و « كنتم خير أمة اخرجت للناس »

ومعنى هذا أن الاسـلام ليس الا الرجوع الى الدين الأصلى : الى الحنيفية السمحاء التى جاء بها ابراهيم الخليل : **(ماكان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولـكن كان حنيفا مسلما) (ثم اوصـينا اليـك ان اتبـع ملة ابراهيم حنيفا)** .

ولـكن ليس معنى الأمية أن كان العـرب قبل الاسـلام يجهلون القراءة والـكتابة كمـا يشيع بعض المسـتشرقين ، ذلك أن كلمة الأمى والأميون ليس معناها الذى يجهل القراءة والـكتابة ، بل ان معناها أن الأميين غير العبرانيين ، وأن كلمة الأمى التى يوصف بها النبى ليس معناها الذى لا يقرأ وانما معناها النبى غير اليهودى ، فقـد كانوا يقولون النبى منهم وحدهم وان الرسول لايبعث الا منهم ، وقد نقل الله النبوة منهم الى العرب بعد أن عجزوا عن حمل الأمانة وخالفوا وغيروا وبدلوا ، فالأمية نسبة الى الجماعة العربية فى الجزيرة العربية التى لم تعتنق اليهودية أو النصرانية دينـا ، فصارت أمة تختلف فى عقيـدتها عن أصحاب تلـكم العقيدة ، هذه الأمة هى اكثرية العرب الـكاثرة التى لم تقبل اليهودية أو النصرانية دينا الى أن اظهر الله تبارك وتعالى من بين ظهرانيها رسولا من انفسهم .

والأمية بالنسبة للنبى صلى الله عليه وسلم بمعنى انه لم يكن يكتب أو يقرأ انما كانت الأمية احدى معجزاته، لتنفى عنه سوء الظن فى تعلمه مادعا اليه من الكتب التى قراها او الحكم التى تلاها **(وما كنت تتلو قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون)** .

هذه الخلة من الأدلة القاطعة على ان القرآن من عند الله ، فهم لم يستطيعوا أن ينكروا اميته ، ولكن ادعو انه طلب من آخرين ان يكتبوا له اساطير الأولين **(وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه واعانه عليه قوم آخرون) فقد جاءوا ظلما وزورا ، وقالوا ، وقالوا اساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة واصيلا)** .

ويقول الباحثون : ان كلمة أمى فى الآيتين الواردتين فى القرآن :

— الذين يتبعون النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل (الأعراف)

— فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون (الأعراف)

معناها : الرسول الذى لاينتمى الى بنى اسرائيل ، اذ كان اليهود يزعمون أن الرسالة مقصورة عليهم وليس من حق رجل غير اسرائيلى ان يبعثه الله فكذبهم الله فى زعمهم هذا بأن ابتعث من العرب رسولا جعله خاتم انبيائه ورسله ، وجعل رسالته عامة للبشر جميعا وخالدة الى يوم القيامة ، وبذلك ينفى الله زعمهم بأن الرسالة لاتكون الا فى بنى اسرائيل، لأن نوحا وهودا وصالحا وابراهيم ولوطا واسماعيل واسحق وكثيرا من الأنبياء لم يكونوا من نسل اسرائيل **(انا اوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم)** الآية (سورة النساء ١٦٣) .

وفى الحديث : انا أمة أمية لاتكتب ولاتحسب، الشهر هكذا وهكذا . . وجاء فى شرح ابن حجر القسطلانى للحديث أن المراد بالأمية النسب الى أمة العرب لأنها لا تكتب أو النسب الى الأم اى أنهم على أصل ولادة أمهم أو لأن المراة هذه صفتها غالبا ، أو النسب الى أم القرى .

وقال الزمخشرى : ان النبى أمى نسبة الى أمة العرب حين كانوا لايحسنون الخط ويخط غيرهم عن سائر الأمم ثم بقى الاسم وان استفادوا الكتابة فيما بعد ، وقيل نسب الى الأم اى كما ولدته امه ، ذلك ان العرب كانوا كتابا وقراء منذ العصر الجاهلى ، فى اقاليم شتى فلم يكونوا يجعلون

الـكتابة والقراءة ، تلك الجهالة التى رددتها الألسنة والأقلام وما تزال تردوها (احمد الحوفى) وقال الألوسى أن النبى صلى الله عليه وسلم مامات حتى قرأ وكتب (روح المعانى) وقال الذهبى انه لايمنع أن يتعلم النبى كتابة بعض الجمل من كثرة ما أملى وليس هذا بمخرج له من الأمية، أما كلمة اقرأ فتعنى قوله : ناد ، ادع ، أعلن الاسلام فى النـاس باسم ربك ، فالفعل اقرأ لا يعنى القراءة المعروفة لدينا ، وقال بعض الباحثين ان صفة أمى وأميين التى جاءت فى القرآن تعنى الذين لايزالون على أصلهم وتكون عربية وعربية فقط ، وأم الشىء أصله فالقرآن عندما وصف هؤلاء العرب كان يعنى أنهم على أصل خلقتهم ، ناس بدون كتاب وبدون دين ، والدين اخراج للفرد من حالة الغريزية بمجموع القوانين المكتوبة والمخطوطة فى الديانات السماوية .

وكان خطأ المستشرقين راجعا الى أنهم لم يستطيعوا ابعاد مفاهيمهم الدينية اليهودية والمسيحية لكلمة أمى ، وفهموا اللفظة العربية بذهنيـة جبرية كهنوتية كما أنهم لم يستطيعوا فهم اللغة العربية على حقيقتها مهما درسوها لأن اللغة احساس وشعور وتربية وكيان يتكون وينمو مع عقل المفكر وقد افتقدوا هـذه الميزات فجـاء فهمهم لها ناقصا ، وادعوا أنهم يستخدمون المقاييس العلمية للبحث . كذلك فانهم عندما درسوا الحضارة والفكر الاسلاميين كانوا يدرسون بفكر مسبق وذهنية كانت توجه الأحداث وأباحوا لأنفسهم — وعقدة الاستعلاء تغلف ذهنهم — أن يتصرفوا فىمعانى العربية وأن يجعلوا لها معانى من لغات أخرى .

(٧)

شبهات حول العلمانيـة

مصطلح العلمانية مصـطلح ماكر خبيث أريد به تخفيف وقع كلمـة « لا دينية » على الأسماع برده الى الاشتقاق من العلم وتعنى العلمانيـة (سيكولر) أن النفوذ الدينى يجب أن ينحسر والعلمية تعنى مسألة علاقة بالدنيـا وليس بالدين . وقد شاعت وذاعت هذه الكلمة فىمرحلة الخصومة الشديدة فى أوربا بين العلم والدين ، واستتبعت ابعاد الدين كعنصر تكوين قومى ، كما عنيت بحياد الدولة تجاه الدين ، كل دين .

والعلمانية فى محيط العرب والاسلام دعوة لا ضرورة لها ولا نتيجة فليس فى هذا المحيط هيئـة تقوم مقام الكنيسة ، وليس علماء الاسـلام هم رجال دين وليس فى الاسـلام حكومة ثيوقراطيـة قامت أو نص على ظل لهـا .

ولما كان الاسلام دينا ونظام مجتمع ، وقد امتزج للاسلام بالمجتمع الاسلامى امتزاجا كاملا عقديا وعضويا لا سبيل الى نزعه فقد شكلت هذه الأمة على هذا النحو ولن يستطيع أحد أن يغير فطرتها .

والاسلام دين ودولة وحضارة فلا يمكن فصله عن الدولة من حيث انه يعطيها المبادىء الانسانية العامة .

أما المسيحية فانها كدين عبادى فانها لا تتعارض مع العلمانية .

أما الاسلام فانه يتعارض كليا وجذريا مع هذا المفهوم ، ولذلك فان الدعوة الى العلمانية تعنى تعطيل الاسلام عن التطبيق واقصاءه عن التأثير فى حياة المسلم . ولقد حاولت قوى الاستعمار والتغريب تدمير المجتمع الاسلامى باقصائه عن شريعته وفرض القوانين الوضعية عليه وتحويله الى نظام الربا فى الاقتصاد والى مناهج التعلم الوضعية فى مجال التربية، وذلك كله بهدف خلق أجيال تابعة تبعية كاملة للفكر الغربى ، تمتلك مقاليد الأمور فى مختلف مجالات القيادة الفكرية والسياسية وكانت عملية اسقاط الخلافة وتحويل الدولة العلمانية الى دولة اقليمية علمانية أبعد الأثر فى العالم الاسلامى كله وفى البلاد العربية وايران وغيرها ، وصار للعلمانية بعد ظهور الاقليمات والقوميات دعاة فى البلاد الاسلامية يدافعون عنها ويروجون لها ، ولما كان دعاة العلمانية قد احتلوا مراكز قيادية فى مجالات التربية والتعليم والثقافة والصحافة فقد كان لهذا أثره الكبير فى الحيلولة دون العودة الى الأصالة الاسلامية .

(٨)

شبهات حول العقلانيـــة

سرت فى محيط الدعوات التغريبية فكرة القول بأن الاسلام دين العقلانية ، وذلك بهدف طمس مفهومه الأصيل الجامع بين الروحية والعقلانية فى كيان جامع متكامل واعلاء لشأن المنهج الغربى وللادعاء بأن الاسلام كان ثمرة النحلة المعتزلة التى استمدت بعض مفاهيمها من الفكر الغربى الوافد .

والعقلانيــة مذهب انشطارى يحاول الزعم بأنه يمكن عن طريقه الوصول الى فهم الأشياء والأمور ، وهو واحد من عدة مذاهب ظهرت فى الغرب منها المذهب التجريبى الذى يعتمد على العمليات المعملية ، والواقع

أن كلا المذهبين جزئى وقاصر ولا يستطيع أن يصل الى الحقيقة التى يقوم جانب كبير منها على مفاهيم الروح والمعنويات والقلب والغيب والوحى ، وهذه كلها يسقطها الفكر الغربى العقلانى ، بل انه بالرغم من الدعوة العريضة الى العقلانية فى الغرب فان العقل الغربى عقل قاصر لأنه لايستطيع أن يؤمن بالتكامل بين العناصر التى تشكل الانسان نفسه وانه لايتحرك الا فى الجزئية التى تحجب عنه باقى الأجزاء .

ويتبين الفرق العميق واضحا بينه وبين المفهوم الاسلامى حين يرفض الاسلام الانشطارية وجزئية النظرة ويؤكد الواقعية والصدق وتكامل الروح والمادة والعقل والنفس والدنيا والآخرة .

فالعقل وحده لايستطيع أن يستبين النافع والضار من الأعمال والأقوال والأخلاق والعقائد الا بهدى من وحى ، ولكن اذا عرف فهم وصدق فالعقل خادم للحقيقة ولايمكن للعقل بدون توجيه صادق أن يصل الى الحقيقة فاذا وضع بين مقولات ضالة مضلة كالفكر البشرى فانه يعجز أن يصل الى الحق ، ولقد تبين ان عقل الانسان غير كاف فى الوصول الى فهم علاقته بالله ومهمته فى الحياة ومسئوليته وأمانته والتزامه الأخلاقى ،ولابد من أن يحتاج الى نور وهدى من النبوة والوحى ، هذا النبى يعاضد العقل ويؤكد حكمه ويجعله موثوقا فيما يستقل العقل بمعرفته فيكونان دليلين على مدلول واحد يرشد العقل ويهديه فيما لايستقل بمعرفته مثل البعث والنشور كما يكشف عن وجوه الأشياء التى لايدرك العقل حسنها وقيمها ، ومن هذا تجىء ضرورة النبوة ، وقد التقى الوحى والعقل لأول مرة فى القرآن الكريم ومعنى هذا أن العقل لن يكون المصدر الوحيد للمعرفة الصحيحة ولا يمكن أن يصل وحده الى الحقيقة .

(٩)

شبهات حول الأرقام

يحاول بعض الباحثين أن يضع محاولات لاعطاء الأرقام فى الاسلام وضعا شبيها بالاعجاز أو القداسة ، والواقع أنه ليس فى الاسلام تقديس للارقام ، وما ورد فى القرآن من أعداد كثيرة فانها لا تحمل أى طابع من طوابع القداسة ، كما لم يخصص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة عددا معينا بذاته يحمل أسرارا خاصة كذلك الأمر بالنسبة للحروف هى الأخرى فانها لا تحمل دلالات غير دلالاتها اللفظية واللغوية أما وراء ذلك فليس من الاسلام فى شىء ، ويقول الأستاذ ادريس عبد الحميد الكلاك :

ان القرآن لم يشر الى سر معين فى عدد معين كما لم تشر السنة الصحيحة الى ذلك ، ولم يرد فى كتب الفقه وغيرها من الكتب العلمية الاسـلامية المعتمدة مايشير الى ذلك .

ان غير المسلمين يتفاءلون ويتشـاءمون ويقدسـون اعدادا وأرقاما معينة ، وجعلوا فى عقائدهم جزءا خاصا بالأرقام يستجلون بهـا مغاليق الغيب حيث يتفاءل اليهود بالرقم ٧ ويتشاءم النصـارى من الرقم ١٣ ، والبابيون والبهائيون يقدسون العدد ١٩ ، أما فى الاسلام فليس هنـاك سر معين لأى رقم أو ارتبـاط بين رقم ما وسر من أسرار الشريعـة أو الطبيعة اذ لم يرد نص صريح أو غير صريح عن تقديس ذلك من تفاؤل أو تشاؤم أو تنبؤ بالغيب .

أما كيف دخل هذا الى ساحة الفكر الاسلامى فانه من الأسرائيليات التى زاولها اليهود بهدف التخريب الفكرى ، فقد حاولوا عن هذا الطريق ادخال الكثير من آرائهم فى العقيدة الاسلامية وتفسير القرآن الـكريم .

والمعروف أن تقديس الأرقام هو أحد مكونات الدين اليهودى فقـد ورد تقديس الرقم ٧ فى التوراة ، لذلك فهم يتفاءلون به وليس اليهـود وحـدهم هم الذين ينفردون بهذا التقـديس بل يشاركهم فيه السومريون والبابليون ، وعنهم اخذ المسلمون حساب الجمل .

أما النصارى فانهم يتشاءمون من الرقم ١٣ وسبب تشاؤمهم من هذا الرقم يرجع الى كونه رقم يهوذا الاسخريوطى الذى وشى بالمسيح ، وكان ثالث عشر الحواريين الذين حضروا العشاء الربانى الآخر .

ثم دخلت هذه الفكرة عن طريق الفلسفة والفـاطميين واليهود أما الفلسفة فلأنها مستوردة من اليونان وقد ذكر ابن خلدون فى مقدمته أن الحساب الذى يسمونه النيم مذكور فى آخر كتاب السياسة المنسوب الى أرسطو يعرف به الغالب من المغلوب وهـو قائم على حسـاب الحروف واعدادها وأشار ابن خلدون الى هذه الأمور التى تحاول استكناه الغيب عن طريق التنجيم أو الرمل أو الأعداد أو الحروف ثم سخر منها واعتبرها من المغاليط التى تجعل كالمصايد لأهل العقول المستضعفة ، وهـذا متفق مع مفهوم الاستلهام الأصيل أما ابن سينا فلأنه من دعاة الفكر الفلسفى الباطنى فانه يجاوز مفهوم الاسـلام الأصيل فيقرر فى كتابه الرسـالة الفيروزية أن الحروف الهجائية كلها تتضمن اغراضا خاصة ، وله تفسير فى معـانى الحروف الهجائية التى هى فواتح السور القرآنية ، ثم أعطى كل حرف من حروف أوائل السور القرآنية معنى افترضه من عنـده ، وكل هـذه

فروض خضع لها الفلاسفة المشاءون الذين تابعوا الفكر اليونانى الوثنى المادى ، ومنها الحديث عما اسموه اسرار الأرقام والحروف .

وقد اشار الباحثون المعاصرون أن هذه الدعوة من الغلو الذى وقع فيه الباطنية ودعاة المهدى المنتظر الذين يرون أن ظهور المهدى يتوقف على حركات النجوم مقلدين فى ذلك اليهود فى قولهم أن موعد ظهور المسيح يتبع القيمة العددية لكلمتى هستير استير ، وقد شاع بين الباطنية وغيرهم ارتباط حركات الأرض وأحداث الكون بأحداث النجوم ، ووضعوا كذلك علم اليـــازرجة وعند الفاطميـــة ماسموه كتاب الجفر ، ويربطون الجفر بعلوم الـــكيمياء وحساب الجمل ، وهو معادلة حـــروف أبجـــدية بأعداد حسابية ، وكل هذا وهم باطل .

ونجد قدسية العدد ٧ لدى طائفة النصيرية ايضا ، أما الاسرائيليات فهى القصص التى دسها اهل الـــكتاب (اليهود والنصارى) فى الفكر الاسلامى فقد امتلأت بها كتب التفسير والسنة والرقائق (المواعظ) .

ومن ذلك محاولتهم القول بأن دين الاســـلام سينتهى بعد عـــدد من السنين ، وهدفهم انه اذا سرت هذه النزعة فى مشاعر المسلمين فستموت فى نفوسهم روح المقاومة ويعتقدون أن هذا قدر الله الذى لايرد ويستسلمون للأمر الواقع .

وهذا كله جزء من الحرب النفسية التى كان يشـــنها اهل الـــكتاب ضد المسلمين كما فيـــه دلالة على أن حســـاب الأرقام والحروف يهودى الأصـــل .

وهناك حديث موضوع عن حيى بن اخطب اليهودى مع النبى وقـــد رفضه ابن كثير والحافظ بن حجر الذى قال انه باطل لايعتمد عليه .

وكل هذا داخل فى أحاديث السحر التى عرف بها اليهود .

وقد دفع الحافظ بن حجر شبهة الزعم بأن الحروف المتقطعـــة فى فواتح السور دالة على معرفة العدد وانه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم ، وهو قول باطل وان من قال هذا أولى ماليس له وطار فى غير مطاره .

ومن هذا يظهر أن موضوع الأرقام والحروف واسرارها وما فيهـــا من اخبار بالغيب او الاختصاص بقدسية خاصة لا أصل له فى الاســـلام وانما هو دخيل على العقيدة الاسلامية .

هذا ويستثنى من ذلك مايتصل بخصائص الآدب والشعر فقد جعلوا للحروف الأبجدية أرقاما تعرض التاريخ ، (ابجد هوز) واصطلحوا على عدد معين وهو ٢٨ حرفا ، كما اصطلحوا على اعطاء كل رقم من الحروف الأبجدية رقما خاصا بحيث يصل عدد هذه الحروف الـ ٢٨ الى الألف فاذا أراد الشاعر أن يؤرخ حادثة من الحوادث أورد بيتا أو شطر بيت يكون مجموع حروفه بالأرقام هو التاريخ بالسنين ليسهل حفظه .

(١٠)

شبهات حول الثورة

يتردد فى الكتابات التغريبية القول بأن الاسلام ثورة ، والحقيقة أن الاسلام ليس ثورة ولكنه دعوة ، وقد حاول بعض التغريبيين أن يصف الاسلام بما وصفت به المذاهب الوافدة ، فقالوا الاسلام ديمقراطية واشتراكية وثورة ، وكل هذا ادعاء باطل فالاسلام منهج ربانى يختلف اختلافا كبيرا عن النظريات البشرية ، والايدلوجيات التى أقامها الفلاسفة والمصلحون ، ذلك لأنه من عند الله تبارك وتعالى وقد جاء منهجا شاملا جامعا خالدا على الدهور ، لايحتاج بطبيعته الى تعبير أو تعديل أو اضافة أو حذف لأنه من صنع الله العلى القدير الذى وضعه فى منهج محكم قادر على مطاولة العصور والبيئات والالتقاء بها واستيعاب مشكلاتها وأحداثها مهما بلغت .

لقد جاء مصطلح (الثورة) مصاحبا لكل حركة ضد الاستعمار أو النفوذ الأجنبى ثم توسع أصحابه فى استعماله بعد ذلك ليعبر عن كل تغيير داخلى يتم فجأة سواء كان مصحوبا بالعنف أو غير مصحوب . ثم وصف كل دعوة الى تطبيق الاسلام بأنها ثورة اسلامية بمعنى أن المسلمين قاموا بالتعبير على طريق الأصالة فى الخروج من مأزق العلمانية والتغريب والعودة الى منابع الاسلام وتطبيق نظامه على حياتهم الإجتماعية .

والكلمة فى استعمالها ودلالاتها هذه تحمل معنى التقليد والتبعية وهى تتفق كثيرا مع معطيات الاسلام الحضارية ومضمونه ، ذلك لأن الثورة تعنى حالة مرحلية فى مجتمع متخلف لاخراجه من وضعه الى وضع آخر وهى بعد أن تؤدى هذا الدور تنتهى مهمتها ، وليس كذلك الاسلام الذى هو منهج اجتماعى شامل خالد متصل بحياة الانسان فى كل فروعها وأيامها وحياة المجتمع فى كل مراحله وأدواره . ولذلك فانه من الظلم أن يعبر عن الاسلام بأنه ثورة لأن لما تحمله هذه الكلمة من دلالات التحول

عن المبادىء والمعتقدات والتضحية بالعلم والأخلاق بدعوى أن منطق الثورة يقتضى ذلك ، بينما نجد حكم الاسلام واضحا محددا وصريحا حتى فى ميدان القتال والحرب فلا تمثيل ولا تقتيل وان فعل الأعداء ذلك .

فالاسلام يعطى المسلم حق الدفاع عن نفسه وعرضه وحاله وقبل كل ذلك عن دينه ، ولـكنه لا يريد أن يذهب المسلم بعيدا عن ذلك كذلك فانه من الخطأ القول بأن النبى صلى الله عليه وسلم كان ثائرا بل الحقيقة أنه كان رسولا وداعيا الى الله يتجلى هـذا بوضوح فى موقف لم يعرفه التاريخ الا له وهو حين وقف بين يديه زعماء الشرك بعد فتح مكة ، وبعد ذلك الدور الخطير الذى قاموا به فى مهاجمة الاسـلام واهله فقـال لهم قولته المشهورة :

« اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ومعنى هذا بين الفارق العميق والبعيـد بين مفهوم الثورة البشرية والدعوة الربانية التى لا يمكن أن توصف بأنها ثورة ، والتى ترتفع ارتفاعا كثيرا عن هذه المسميات ، لأنها فى انتصارها للحق وانتصافها من الباطل كانت تحمل صورة ارقى وأكرم واسمى وابعد اثرا فى الحاضر والمستقبل من كل الثورات ، ولقد كشفت صـفحات التـاريخ أن كثيرا من الثورات الحديثة بل وأبرزها كانت بأيدى رجال الصهيونية كالثورة الفرنسية والثورة التركية والثورة الروسية ، وان هذه الثورات عرفت بالعنف والتقتيل وحب الدماء والانتقام واستهدفت تحقيق غايات ومطامع لليهودية العالمية ولتمكين اليهودى من السيطرة على المجتمع الأوربى كما فى الثورة الفرنسية أو القضاء على الكنيسة الأرثوذكسية فى الثورة الروسية ، أو الخلافة فى الاسلام كما فى الثورة التركية ، وكان ذلك كله لحساب الصهيونية العالمية وتمكينها من الوصول الى فلسطين والسيطرة على بيت المقدس .

ولقد كانت الثورات المختلفة بمثابة عمليات جزئية اما للقضـاء على نفوذ أجنبى أو تغيير حكومة داخلية ، أو تغيير نظام سياسى من ملكى الى جمهورى ولـكن أى ثورة لم تتمكن من أن تحمل لواء دعوة اجتماعية عامة بحيث يمكن أن تعقد المقارنة بينها وبين الدعوة الاسلامية ، كذلك فانه من العبث القول بأن ظهور الدعوة الاسلامية كان مرتبطا بفساد وتدهور فى الدولتين الرومانية والفارسية ، أو محاولة لتحقيـق هـدف اجتماعى أو اقتصادى كما تحاول ذلك التفسيرات المادية للتـاريخ ، وانما التفسـير الصحيح هو أن البشرية استأهلت أن يرسل الله لها الرسالة الخاتمة بعد أن استعدت لها وأصبحت مؤهلة للنضج والرشد الفكرى ، وبعد أن زالت

عنها طفولة البشرية وتدجاعت هذه الرسالة للقضاء على الوثنية والعبودية والمادية واقرار مفهوم التوحيد الخالص فى امة تحمل لوأء الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

(١١)
شـــبهات حول طوالع البخت

تجرى الصـــحف فى العصر الحاضر على وضع ماتسميه حظـــك أو بختك هذا اليوم ، وهى كتابات غامضة رديئة لاتقوم على اى اساس علمى صحيح فضـــلا عن أنها لا تطابق الوجهة الاسلامية الصحيحة التى ترفض التطلع الى مثل هذا النوع من الطوالع ، ويرفض الاسلام أساسا الاعتقاد فى تأثير الأفلاك على حياة الناس وسلوكهم وطبائعهم وتصرفاتهم ، وقـــد كان المصريون فى عصر الوثنية والجاهلية المـــادية أبرع الأمم فى هـــذا الباطل ، وقد راج عند العرب حتى جاء الاسلام فأنكره ، واثبتانه لاعلاقة بين الأفلاك وبين أعمال الناس ، وانه لا تأثير للكواكب على الكرة الأرضية أو الخليقة البشرية .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : من قصد عرافا فصدقه لم تقبل صلاته اربعين يوما ، وقد كانت هذه عادات وثنية ارتبطت بالجاهلية لا اساس لها ، تقوم على تفاؤل وتشاؤم أو تنبؤ بالغيب لا اساس له .

ولا ريب ان القول بارتباط حركات الأرض واحداث الـــكون وحركات النجوم هو من أقوال اليهودالتلموديين ومما شاع بين أهل الوثنياتوالمجوس والباطنية فى العصر الحديث .

(١٢)
شبهات حول القرآن الـــكريم

لقد توالت الشبهات التى طرحها أعداء الاسلام ولم تتوقف وتركزت هذه الشبهات تركيزا شديدا حول القـــرآن الـــكريم . من تلك الدعاوى شبهة ترتيب القرآن حسب نزوله وقـــد جهلوا ان ذلك لو كان امرامطلوبا لـــا فات النبى صلى الله عليه وسلم ، ذلك أن آى القرآن وان كانت قد نزلت منجمة آيات آيات وسورا سورا بحسب الوقائع والحوادث وعلى مقتضى الحكمة التى أرادها الله تبارك وتعالى وهو الشارع لدينه ، قـــد نزلت بمكة والمدينة واستمر نزولها مدى ثلاث وعشرين سنة الا أن النبى

صلى الله عليـــه وسلم كان يأمر اصـــحابه حين تنزل الآية ويقراها عليهم ويحفظونها عن ظهر قلب ان يضعوها فى مكانها بعد آية كذا من ســـورة كذا . .

ولذلك فقد خابت مفترياتهم فى هذه الوجهة ولم تجد من يستمع اليها

وقـــد حاول القس البروتستانتى المبشر فلش الدنمركى فى كتـــابه (أصدق الأقاويل على صحة التوراة والأناجيل) أن يزعم انه كان لعلى ابن ابى طالب مصحف جمعه على حسب النزول وعلى غير ترتيب مصحف عثمان سماه مصحف فاطمة .

وقد رد عليه الشيخ ســـعدى ياسين فى كتاب تحت عنوان مختصر البرهان على سلامة القرآن من الزيادة والنقصان فقال : ان القرآن نزل منجما للتيسير على الرسول والتدرج فى تربية الصحابة ، ومنها ان الله تبارك وتعالى يتعهد رسوله عند اشتداد الخصام . وقال ان النبى صلى الله عليه وسلم يتحمل آيات القرآن من الملك حفظا ثم يبلغها الناس ويكتبها كتابة الذين كان عددهم يتراوح بين ٢٦ و٤٢ كاتبا وبعد موقعة اليمامة أمر أبو بكر زيد بن ثابت فى جمع القرآن فقام بمهمته خير قيام ، وبقيت الصحف عند أبى بكر ثم عمر ثم حفصه حتى جاء عثمان رضى الله عنهم فأمر عددا من الصحابة بنسخ الصحف فى المصاحف ثم ارسل الى كل مصر بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق . وبعد انتهائه من جمع القرآن الـــكريم تم توحيد عثمان للقرآن ورد المؤلف فرية نلسن وجولد زيهر فى ادعائهما أن القرآن من كلام محمد فى اثنى عشر دليلا منها الفرق الواسع فى الاعجاز مابين القرآن والسنة واخبار القرآن عن أمور غيبية وقعت كما أخبر .

ثم قال : فلتعمل الصهيونية العالمية والصليبية العالمية ما شاءتا أن تعملا فان القرآن سيبقى الشمس المشرقة والآية الخارقة يدعو الى الحق والعدل والخير والرحمة والوحدة العالمية ، وسيأتى اليوم الذى تبصر فيه أوربا الرشد فتمد يدها برفق الى هذا الكتاب فتقلده ملتزمة بما فيـــه من الحكمة والفطرة السمحة كما قال برنارد شو انه لا يمضى مائة عام حتى تكون أوربا ولا سيما انجلترا قد أيقنت ملاءمة الاسلام للحضارة الصحيحة والله تعالى قال :

((سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد)) .

(١٣)

شبهات حول وحدة الأديان

ان القول بأن الأديان الثلاثة هى بمثابة دين الله الواحـــد أو أنهـــا جميعها من عند الله قول يحتاج الى تدقيق فالحقيقة ان دين الله فى أصله واحد ولـــكنه بعد أن جاءت رسالة موسى بالتوراة ورسالة عيسى بالانجيل حدث تغيير وتبديل حال دون الالتقاء بالرسالة الخاتمة ، ففى كل من الكتابين اشارة الى الرسالة الخاتمة ، والى النبى الخاتم أما فى التوراة الموضوعة بأيدى الأحبـــار والأناجيل الموضـــوعة بأيدى كتابها فان هذه الاشارة لم تعد موجودة ولذلك فان القول بأن دين الله واحد يستتبع الترتيب الذى جاءت به رسالة موسى مسلمة الى رسالة عيسى ، وكلاهما لليهود ومن حيث انهما يسلمان الى الرسالة العالمية التى جاءت للبشر جميعا ومن حيث القول بأن دين الله واحد فقد جاء الانجيل — كما يقول الدكتور محمد عبد الله دراز بتعديل أحكام التوراة اذ أعلن عيسى انه جاء ليحل لبنى اسرائيل بعض الذى حرم عيلهم ، وكذلك جاء القرآن بتعديل بعض أحكام الانجيل والتوراة، اذ أعلن أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء ليحل للناس كل الطيبـــات ويحرم عليهم كل الخبائث، ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم . ولم يكن ذلك كله من المتأخر نقضا للمتقدم ولا انكارا لحكم من أحكامه فى ابانها ، وانما كان وقوفا عند وقتها المناسب وأجلها المقدر . مثل ذلك مثل ثلاثة من الأطباء جاء أحدهم الى الطفل فى الطور الأول من حيـــاته فقرر اقتصار طعامه على اللبن وجاء الثانى فقرر له طعاما ولبنا ، طعاما نشويا خفيفا ، وجاء الطبيب الثالث فى المرحلة التى بعدها فأذن له بغذاء قوى . كل واحد منهم كان موفقا كل التوفيق فى علاج الحال التى عرضت عليه مع الاعتراف بقواعـــد عامة فى النظـــافة والتدفئـــة والتهوية لا تختلف باختلاف العمر .

وعلاقة الاسلام بالديانات السماوية فى صورتها الأولى علاقة تصديق وتأييد كلى ، وان علاقته بها فى صورتها المتطورة علاقة تصديق لـــا بقى من أجزائها الأصلية وتصحيح لـــا طرأ عيلها من البدع والاضافات .

ومن الخطأ القول بأن البشرية قد انتقلت من اله الى اله حتى اهتدت الى التوحيد بعد فرق يتجاوز آلاف السنين ، وقد نسى هؤلاء أن آدم عليه السلام هو والد البشرية الأولى كان موحدا ، ثم مضت الأعوام فانتكست الطبائع لدى من خلفه فألهوا المخلوقات من أصنام وحيوان وانسان ، وجاء الأنبياء ليردوا البشرية الى دين الفطرة : التوحيد .

فلقد جاء كل رسول بعد جاهلية فاشية ليخرج الناس من الظلمات الى النور فجوهر الدعوة الربانية على السنة الرسل متفق غير مختلف، متوحد الهدف ،، وان ما جاء به نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد يصدر عن مشكاة واحدة ، **((شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى اوحينا اليك وما وصينا به ابرهيم وموسى وعيسى))** .

ذلك أن التقدم الاجتماعى يقتضى تغييراً فى بعض الأحكام الفرعية للعبادات والمعاملات ، أما أصول العقيدة فى دين الله من لدن آدم الى محمد فثابتة على سنن الفطرة ، قائمة على منطق العقل لا تتغير ولا تتبدل. وكان القرآن آخر تشريع الهى ينهض بحاجات البشرية جميعاً ، اذ ورث الاسلام خيرات الأجيال ومواهب الأمم .

وما يزال القرآن مهيمنا على كل من سبقه من كتب تطرق اليها التحريف وان الكمال النهائى فى التشريع قد تم فى القرآن .

أما الوحدانية فقد قطعت بها كتب السماء دون لبس وجاء الأنبياء كلهم برسالة الاسلام ، ولذلك فان من الخطأ عقد مقارنات بين الاسلام واليهودية والمسيحية ، ولقد جاء الانجيل مصدقا لما بين يديه من التوراة وجاء القرآن مصدقا لما بين ديه من التوراة والانجيل ، ولكل كتب الله التى سبقت .

(١٤)

شبهات حول تأويل المعجزات

ترددت فى كتابات المحدثين هفوات أرادوا بها مضاهاة المذاهب المادية وارضاء أهلها وذلك بتأويل المعجزات ، وقد سار فى هذا الطريق محمد عبده وفريد وجدى والدكتور محمد حسين هيكل وقد أراد الشيخ محمد عبده أن يثبت أن للعقل مكانة كبيرة فى الاسلام وأن الخوارق والمعجزات باستثناء القرآن لا أصل لها فى الاسلام جريا وراء الموجة الطاغية فى عصره فى الدعوة الى العقلانية .

يقول الأستاذ محمد النايف : لقد حاولوا بناء الخوارق والمعجزات على الأدلة السمعية لا على الأدلة العقلية التى يدركها الانسان ، والذين ينكرون المعجزات ينكرونها على ظن أنها غير ممكنة ، وهم يقيسون الامكان والاستحالة بمقياس الانسان وينسون قدرة الله تبارك وتعالى التى ليس يبعد عنها أن تهدم السموات والأرض وتنشئها من جديد .

ان الايمان بالخوارق وكافة الأمور الغيبية لا يتعارض مع الحقـــائق العلميـــة .

وهم من أجل ذلك قد أولوا المعجزات وأنكروها ليجعلوا حياة الأنبياء عادية لا تختلف عن حياة الحكماء والعظماء والمصلحين ، وهم من أجل ذلك يعملون على :

— اعلاء قيمة العقل وتقديمه على ظاهر الشرع عند التعارض .

— تأويل المعجزات وتوصل أحدهم الى انكارها مع الاعتقاد بمعجزة القرآن وحدها .

— تأويل المعجـــزات قادهم الى العبث فى تفســـير آيات القرآن والتشكيك فى الأحاديث .

وقد جرى الشيخ محمد عبده على القول بأن الاســـلام فى الدعوة بالايمان بالله لا يعتمد على شىء سوى الدليل العقلى فلا يدهشك بخارق العـــادة .

وقد قصد الشيخ عبده بهذا وبما فسره من القرآن تأويل كل معجزة للأنبيـــاء يمر عليها مع مافى هذا التأويل من تمحل ومخالفـــات أصوليـــة ومجانبة للحقائق العلمية .

وقد استغل هذا المنهج الذى جرى عليه الشـــيخ محمد عبـــده فى القصص أمين الخولى ومحمد خلف الله احمد فى كتابه (القصص الفنى فى القرآن) .

كذلك فان الشيخ الخضرى لم يتجاوز خطوة شيخه محمد عبده وقد أورد فى كتابه نور اليقين معجزات الرسول كشق الصدر وقصـــة بحيرا الراهب والاسراء والمعراج كما ورد فى صحيح البخارى ومسلم وتجـــاوز معجزات الغار وشاة أم معبد ومعجزات غزوات الرسول .

فلما بدأ محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية وقد أصبح استاذا للتاريخ فى الجامعة المصرية وتوثقت صلته بالمدرسة الاصلاحية ، فقد تجاوز فى محاضراته عن أكثر المعجزات فلم يتحدث عن حادث الفيل ومعجزة هجرة الرسول وكيف خرج من بيته وماذا حدث فى الغار ، ولم يتعرض لشيطان العقبة ولا للشيطان الذى حضر دار الندوة ولم يذكر شاة أم معبد ومضى على استبعاد المعجزات فى جميع غزوات الرسول وشكك كثيرا فى قصة

بحيرا الراهب وقال : نقبنـــا عن اســـم الراهب فى كتب من عنوا بذكر أســـاقفة الشام وبصرى والمشـــهورين فلم نجـــده ، مع أنه وارد فى حديث صحيح .

وعند حديثه عن الاسراء والمعراج تمسكبالرواية المنسوبة الىعائشة ومعـــاوية رضى الله عنهما ورجح أن الاسراء والمعراج كانا بالروح دون الجسد لأن رؤيا الأنبياء حق تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم .

وفى (حياة محمد) جرى الدكتور هيكل فى المعجزات علىهذا المجرى فقـــد رجح آراء محمد عبـــده فى الخوارق التى أوردها فى كتاب الاسلام والنصرانية وقدم الشيخ المراغى الـــكتاب ودافع عن طريقة هيكل وأيده فى انكار كل معجزة سوى القرآن قال (ولم تكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم القاهرة الا فى القرآن وهى معجزة عقلية) وأيده رشيد رضا فى المنار (٣ مايو ١٩٣٥) .

فقال انه حرر مسألة المعجزات ومطاويها فى الوحى المحمـــدى بما اثبت به أن القرآن وحده هو حجة الله القطعية على ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالذات ونبوة غيره من الأنبياء وآياتهم بشهادته ، ولا يمكن فى عصرنا اثبات آية الا بها وأن الخوارق الـــكونية شبهة عنـــد علمائه لا حجـــة .

وأراد (هيكل) أن يجعل من حيـــاة محمد : حياة عادية كحياة أى بطل أو زعيم مجردة من اية خارقة قال :

« فحياة محمد حيـــاة انسانيـــة بلغت أسمى مايســـتطيع انسان أن يبلغ ، ولقد كان (صلى الله عليه وسلم) حريصا على أن يقدر المسلمون أنه بشر مثلهم يوحى اليه ، حتى كان لا يرضى أن تنسب اليه معجزة غير القرآن ويصارح أصحابه بذلك » .

ويقول : ولقد أضافت كتب السيرة الى حيـــاة النبى مالا يصـــدقه العقل ولا حاجة اليه فى ثبوت الرسالة .

وعن حادث الفيل يردد ما قاله محمد عبده من وباء الجدرى ، وفى حادث شق الصـــدر لا ينـــاقش الخبر من حيث صحته أو عدم صحته ،مع أنه ثبت بأحاديث صحيحة منها مايرويه مسلم ، ينـــاقشه بعقل وليم موير ودرمنجم ويؤيدهما فى انكار الحادث ورفضه .

وقد حاول أن يصور حادث سراقة بأنه اجهاد حدث لجواده وفي الأسراء والمعراج شارك درمنجم في موقفه ، وعن شيطان العقبـــة يأبى هيكل الا أن يسميه رجلا خرج لبعض شأنه .

وكذلك جاء كتاب (حيـــاة محمد) خاويا من المعجزات ينكر بعضها ويؤول بعضها ويتغافل عن ذكر الباقي .

لقد خطا هيكل خطوة في طريق محمد عبده ، واتم محمد فريد وجدى طريق محمد عبده عنـــدما زعم أن شق الصـــدر وتظليل الغمامة وانشقاق القمر لا يمكن اثباته بدليل محسوس (مجلة الأزهر ح٣ المجلد ١١م) .

وقد رد الشيخ مصطفى صبرى في كتابه (القول الفصل) على مقال فريد وجدى .

هذا وقد شن الدكتور هيكل هجوما على أحاديث الرسول في كتابه (حياة محمد) فزعم أنها كتبت بعد وفاة النبي بقرنين من الزمان حين تفشت الاسرائيليات ولهذا الغرض ألف طه حسين كتاب الشيخان .

ويرى في قصة الغرانيق مجالا يسدد فيه قذيفة فيصيب أكثر من هدف كالطعن في صحيح البخاري والانتصار لمذهبه الجديد وزعزعة ثقة المسلمين بالحديث النبوى اجمالا .

(١٥)

شبهات حول السلفية

حاولت كتابات المستشرقين والتغريبين والماركسيين اضفاء صـــورة قاتمة على مفهوم السلفية ، اذ نسبت اليه كل تأخر وجمود وتخلف ووصفته بأنه القديم البالي ، والواقع أن مصطلح السلفية انها يعنى غير هـــذا ، انه يعنى التمـــاس المنـــابع والعودة الى الأصـــالة ، وهو كما يقول الدكتور مصطفى حلمى : علم على أصـــحاب منهج الاقتـــداء بالسلف من الصحابة والتابعين من أهل القرون الثـــلاثة الأولى ، وكل من تبعهم من الأئمة ، كالأئمة الأربعـــة وسفيان الثورى وسفيان بن عيينه والليث بن سعد وعبد الله بن المبارك والبخارى ومسلم وسائر أصحاب السنن ، كما شمل شيوخ الاسلام المحافظين على طريقة الأوائل مع تباين العصور أمثال ابن تيمية وابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب ، وكذلك أغلب أصحاب السلفية

المعاصرة بالجزيرة العربية والقارة الهندية ومصر وشمال افريقيا وسوريا .

وقد كانت هذه الحركة ذات أثر واضح فى تنقية مفاهيم الاسلام ودفعه الى الأمام لمواجهة الحضارة والتطور والكشف عن جوهر الثقافة العربية الاسلامية الأصيلة القادرة على الحياة فى كل جيل وفى كل بيئة .

أما من حيث المضمون فان السلفية فى الاسلام هى التعبير عن منهج المحافظين على مضمونه فى ذروته الشامخة وقمته الحضارية ، كما توجهنا الى النموذج المحقق فى القرون الأولى المفضلة ، وقد استمدت حضارة المسلمين أصولها ومقوماتها ممثلة فى العقيدة خضوعا للتوحيد وبيانا دلور الانسان فى هذه الحياة . وتنفيذ القواعد الشرعية الالهية بجوانبها المتعددة فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة والأسرة والأخلاق .

فالسفة كمصطلح تعنى الاقتداء بارلسول صلى الله عليه وسلم ، فان أمتنا تنفرد بمزية لا تشاركها فيها أمة أخرى فى الماضى او الحاضر او المستقبل : تلك هى تحقيق القدوة فى شخصه صلوات الله عليه اذ حفظت سيرته كاملة محققة بكافة تفاصيلها . وهكذا فان السيرة النبوية حية فى كياننا ونحن نعيشها كل يوم . وتطبيق الشريعة الاسلايمة ممتد على طول الزمن لا يتعلق بعصر دون آخر ، بل ان كل جيل من اجيال المسلمين مطالب بتنفيذ أصولها النقية مع الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص عند مواجهة احوال الحياة المتغيرة كما هو معروف فى اصول الفقه .

وقد أصبح اسم السلفية علما فى العصر الحديث عىلا اهل التوحيد منذ حركة محمد بن عبد الوهاب وعندما اشتدت المقاومة ضد الاستعمار الغربى بهدف المحافظة على أصالة الأمة الاسلامية فى عقيدتها وشريعتها وأخلاقها حتى لا تتميع أو تهتز تحت ضربات الغزو الأجنبى .

وقد ظهر السلفيون ابان الهجوم المكتسح عندما نقل الفكر الغربى اليونانى واللاتينى حيث اخذوا فى دراسته وتحليله ومناقشته ورد اباطيله ثم قيس ذلك بمقياس العلم الاسلامى فما وافقه قبله البعض وما خالفه رفض ، وكان الرفض من علماء السلف محافظة على شخصية الأمة وأصالتها .

ولما جاء المستشرقون اخذوا يقلبون صفحات تاريخنا لاستخراج كل ما يسىء الى الاسلام فأعلوا شأن الفرق المنشقة كالخوارج والشيعة والمعتزلة والصوفية المنحرفين والفلاسفة وعملوا على احياء وتحبيذ ومدح نحل ومذاهب مختلفة اما بأسمائها المعروفة كالاسماعيلية او الباطنية او

تحت أسماء جديدة كالبهائية والقاديانيـــة . وبعث الالحاد من جديد تحت ستار العلمانية والماركسية والدارونية مع نشر فـــكرة وحدة الأديان أو التقريب بينها وازالة الحواجز بين الحق بصورته الوحيدة والباطل بصورته المتعددة المتضاربة .

ولقد كانت طريقة السلف هى المحك الذى يكشف زيف هذه العقائد والنحل مهما تغيرت الأزمنة والأعصـــار ، لأنها طريقـــة موضـــوعية ذات أسس علمية منهجية تعتمد على النصوص الشرعية الموثقة .

وقد كشفت هذه الطريقة حقائق كثيرة من أن هناك مسائل ثابتـــة لا تتغير كفطرة التوحيد ومخاطبة العقول البشرية للبرهنة على النبوات بعامة ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم بخاصة ، والرد على أهل الكتاب من اليهود والنصارى فى كل ما انحرفوا به عن الشرع المنزل مع دحض شبهات الملحدين والمشركين ، هـــذا فضـــلا عن ثبات الفضائل الأخلاقية وقواعد التحليل والتحريم فى المـــآكل والمشرب والملبس وتنظيم العـــلاقات الاجتماعية فى الأسرة والمجتمع واقامة العلاقات الدولية مع ســـائر الأمم وفقا لأصول الشرع .

ولا ريب أن الحركة السلفيـــة هى الحركة الـــكبرى التى جـــددت الدعوة الاســـلامية ولولاها لهان على الغرب أن يستعبد الشرق روحيـــا وفـــكريا الى أمد بعيد .

وقد حاول الاستشراق افساد مفهوم السلفية الأصيل . وكان ارنولد توينبى هو أحد الذين صوروه بأنه ارتداد من محاكاة الشخصيات المبدعة المعاصرة الى محاكاة أسلاف النبيلة حيث قال :

تعد الحركة السلفية سقوطا من الحركة الديناميكية للحضـــارة الى الحالة الاستاتيكية التى يشاهد عليها الانسان البدائى فى الوقت الحاضر، بهدف تثبيت مجتمع منهار ومحاولة تبذل عن حدوث توقف اضطرارى وانما تظهر فى شكل منظم متكلفة ، وآراء تتشبث بالمصطلحات الفارغة وتعبر عن نفسها بمنهج يتسم بالسفسطـــة . وعيب توينبى والمستشرقون أنهم ينظرون الى الحركة السلفية الاســـلامية فى ضـــوء الحركة الانجلـــيزية الـــكاثوليكية والاصـــلاح الدينى خلال القرن السادس عشر ، والتى كانت ترمى الى استعادة استخدام طقوس كانت شائعة خلال القرون الوسطى، ثم هجرت والغيت منذ أربعمائة سنة.والواقع أنه فى العالم الاسلامى قامت حركة حقيقية بين المحافظين على دينهم ولغتهم وتقاليدهم ، وبين الـــذين

عادوا من أوربا وقد فتنهم بريقها فاســتخفوا بكل تراثهم وراحوا ينفرون الناس منه ثم فشت العصبية تحت دعوى التجــديد لــكل أصيل فى الدين واللغة والأدب ونظم المجتمع والاقتصــاد والسياسة بدعوى نبذ القــديم البالى والأخذ بالجديد والحالى وظهرت دعــوات تطور الدين وهى كلمات منقولة من الفكر الغربى والتفسيرات والتأويل . وأصبح الاسلام هــدفا لحملات تحمل اسم القديم والماضى والتراث والرجعيــة للنيل من مقوماته الراسخة المحددة للحلال والحرام والخــير والشر والرذائل والفضــائل بدعوات ضالة منها :

النسبية والتطور : نسبية الأخلاق والتطور وعدم الثبات والثورية والتجديد والتقدمية والعصرانية .

وجرى تجديد المذاهب الكلامية والفرق الصوفية والمدارس الفلسفية وبقيت الطائفة الظاهرة على الحق التى ظلت تعض بالنواجز على الكتاب والسنة بالطريقة التى كان عليها رسول الله وأصحابه .

وقد وقف علماء السلف جيلا بعد جيل بصلابة أمام محاولات التجزئة والبتر والتأويلات الــكلامية والتمزيقات الفلسفية والتفســيرات الرمزية الباطنية فلم يهنوا ولم تقعد لهم همة .

ووقف علماء السنة والسلف بالمرصاد مبينين الانحرافات عن الأصول الاسلامية وظل الاســلام محفوظا فى الأصلين العامين : الــكتاب والسنة وان تلقينه وتطبيقه بمنهج السلف هو الذى حفظه حتى الآن ، وقد حارب علماء السنة والسلفة نزعة الجبرية التى ســاهمت فى ركود الهمم . واضعاف الارادة الانسانية وتغليب سلبيتها على جانبها الايجابى البسيط وعملوا على المحافظة على الاسلام فى مصادره وعقيدته وعباداته ومعاملاته وانظمته وفقا لطريقة السلف : الحسن البصرى ، سعيد بن المسيب وسعيد ابن جبير ، الى أمثال ابن حنبل وابن تيمية والدارمى والشــافعى ومالك وابن جزيمه والشاطبى وابن تيميــة وابن القيم والشــوكانى وابن الوزير اليمانى وغيرهم ومحمد بن عبد الوهاب فى العصر الحديث للإطاحة بمظاهر الشرك والوثنية لتخليص عقيدة التوحيد من جديد .

ويقر أرنولد توينبى : أن الحضارة الاســلامية لم تمت عضويا كمــا ماتت الحضــارة الاغريقية ويرجع الفضــل فى بقائها الى نقاء العقيدة، وظل دور السلفيين باقيا فى احيــاء عقيدة التوحيد ، وفهم الأوائل للاسلام لأن الاســلام كما يقول توينبى قــد أعاد توكيد وحدانية الله فى مقــابل

الضعف البادى فى تمسك المسيحية بهذه الحقيقة الجوهرية واستمرت السلفية فى المحافظة على التوحيد فى جوهره النقى ، فمنعت تردى العقيدة الدينية الى صورة من صور الوثنية . وكان الذين وجهوا الضربات القاصمة اناسا ينتسبون الى طائفة من المتفلسفة والقرامطة الباطنية والاسماعيلية كابن سينا وامثاله واصحاب رسائل اخوان الصفا والعبيدين (الدولة الفاطمية) الذين كانوا يتظاهرون بالتشيع وهم فى الباطن ملاحدة.

وهكذا تمثل السلفية تلك الجهود المبذولة والمحافظة على طريقة الاتباع لا التقليد ومقوماتها الراسخة الجامعة بين اخلاص التوحيد لله تعالى وحده والايمان بالوحى طريقا لمعرفة عالم الغيب مع استسلام الانسان فى شئون حياته لما أمر به الله بواسطة خاتم الرسل وتحرير العقول من الوثنيات واطر الشرك ليتفرغ فيما يعود على الانسان بالنفع فى ميادين العلوم .

ووسيلتها النظر والتجربة مع ثبات الفضائل الأخلاقية والقيم الانسانية .

(١٦)

شبهات حول كتابات الأطفال

ومن أخطر التحديات التى تواجه الفكر الاسلامى فى العصر الحديث كتابات الأطفال الوافدة وخاصة حكايات السوبرمان وجيمس بوند وزعيم العصابة وما تقدمه هذه الخرافات من سموم تدخل الى أخيلة الصغار بتصعيد أعلاء شأن البطولات الوهمية والأجنبية فصياغة مغامرات طرزان الرجل الأوربى القوى الذى يعيش فى مجاهل وغابات افريقيا ويكتشفها ويساعد ضعيفها ويشفى مريضها . انما تهدف الى تقديم لون من البطولة الأجنبية الخادعة لابنائنا ، وقد أصبح طرزان بطل آلاف القصص والأفلام التى تخدم الاستعمار ، ونفس الشىء ماتورده القصص عن غزو الرجل الأبيض لأمريكا ، وقتل سكانها الأصليين من الهنود الحمر وابتداع ذلك اللون من القصص الذى يحمل القسوة والتدمير، وكذلك جيمس بوند يخلق عالما زائفا يبعد الناس عن واقعهم الفعلى ويزيف حقيقة ما حولهم مثل السوبر مان الذى يضع على الورق أحلامهم .

ولقد عمد صـناع فـكرة سوبرمان الى خلق شخصية تتمتع بقـوى عضلية جبـارة يستطيع بها تحريك واحد من الـكواكب الكونية فضلا عن ان جسده مما لا يخترقه الرصاص وبصره يخترق كل شىء وهـو يخترق حواجز الزمان الى الماضى والى المستقبل .

وهو رجل لا يتحلى بأى مثاليـات بل هو رجل متالب لأن الغـاية عنـده تبرر الوسيلة ، وهـو يعتز بغرور القوة وغرور الثراء وهو يهين والديه ويلقنهما درسا قاسيا .

ولا ريب ان هذه الصور القاسية العنيفة التى لا تمثل مجتمعنا هى من أشـد مايكون خطورة على ابنـائنا وفى انتشـارها افساد لأذواقهم وعقلياتهم .

(١٧)

شبهات حول الفكر الفلسفى

طرحت المذاهب الفلسفية الغربية فى أفق الفكر الاسلامى مفـاهيم وافدة وسموما كثيرة استهدفت بعث الفلسفات القديمة التى قضى عليهـا الاسـلام ، فلما جاء النفوذ الأجنبى عمد الى ابتعاثها من جـديد لخلق جو من القلق والشك والريبـة والفساد الخلقى والاجتماعى ، ولقد جاء الاسلام كاشفا عن جوهر المفهوم الانسانى الأصيل الجامع ، سواءبالنسبة لمنهج الحياة الاجتماعية والعلاقات بين الانسان والله تبـارك وتعالى أو بين الانسان والانسان أو بالنسبة للمتافيزيقيا وعالم الغيب ، وبذلك اغنى المفهوم الاسـلامى المسلم عن فروض الفلسفة وتقولاتها ، ومن هنا فان الفلسفة لا تمثل أى عنصر ايجابى فى الفكر الاسلامى ، والمعبرون عن الفكر الاسلامى فى تكامله الجامع هم الفقهاء واهل الحديث فهم وحدهم الـذين ارتبطوا بالنفس ارتبـاطا ونظروا الى المجتمع من خلال نظرة نقية حفظت له محتواه عقائديا وتشريعيا واخلاقيا وسـياسيا واقتصـاديا واجتماعيا وتاريخيا .

وقد وقف الاسـلام موقفا واضحا فى التفرقة بين العلوم والفلسفات وبنى لها منهجها التجريبى ، وقبل العلوم القديمة لعدم مناقضتها للتوحيد ، ورفض الفلسفة لمنـاقضتها للتوحيد وعدم نفعها . وقد بلغ عدد المشتغلين بالعلوم عددا كبيرا يفوق عدد المشتغلين بالفلسفات مما يؤكد انتشار العلوم

وقاوم العلماء وثنيات الفلسفة واضطرابها وماديتها وانحرافها ودورها وحطموا وجهتها ، وقد تكشف ان الذين اشتغلوا بها لم يعدوا من العلماء وانما وصفوا بأنهم حلقة جديدة من المشائين اليونان ، وهكذا كانت الفلسفة دخيلة على الفكر الاسلامى لأنها قامت على استيراد الفلسفة اليونانية والهندية والفارسية المجوسية ، والتى كانت كلها من هشيم الفكر البشرى والتى كانت مناقضة لمفهوم التوحيد .

ولقد أكد العلماء أن الكلام والاعتزال والفلسفة والتصوف الفلسفى تفسيرات بشرية غير منزهة عن الخطأ وقابلة للتجاوز .

وقد كان علم الكلام عملية دفاع وحجاج للملل الأخرى اعتمد على المنطق اليونانى خلال مرحلة من المراحل وانتهى دوره . وقد اختلطت الفلسفة بالكلام الى الحد الذى ابتلع معه هذا العلم الفلسفة ابتلاعا واحتواها فى كتبه حتى أصبحت كتب التوحيد تبدأ بمقدمة فى منطق أرسطو فضلا عن بسط الآراء الطبيعية والرياضية فى الزمان والمكان والحركة وغير ذلك .

واختلطت الطريقتان عند هؤلاء المتأخرين والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لايتميز أحد الفنين عن الآخر .

لقد كان الهدف المبيت من وراء حركة الترجمة فى تقدير أعداء الاسلام هو طرح الفكر الغنوصى الشرقى والفكر اليونانى الوثنى فى دائرة الاسلام للقضاء على مفهوم التوحيد الخالص على النحو الذى فعلته الفلسفة بالفكر اليهودى والمسيحى من قبل .

ولقد كان الامام الغزالى والامام بن تيمية هما أقوى خصوم الفلسفة والمهاجمين لها ، وبعد الغزالى رفض علماء الكلام الفلسفة رفضا قاطعا أدى الى موتها ، وليس معنى هذا موت الاتجاه العقلى ، ولقد انتقد الغزالى الفلاسفة فى مسائل القدم والعلم الالهى والبعث وهذه ذات صيغة غيبية متنافيزيقية وما ذهب اليه الفلاسفة فيها مناقض للقرآن .

ذلك ان الفلاسفة تنكبوا التصور الاسلامى الذى يفرق بين عالم الغيب وعالم الشهادة وكان الغزالى مقدمة لدور ابن تيمية القوى الحاسم ، ولم يرفض الغزالى الفكر الاسلامى فى مجال المنطق والطبيعيات والرياضيات والفلك ، وانما رفض الفلسفة الوثنية التى كانت تسمى عند اليونان : علم الأصنام ، رفضها كتصور ايدلوجى يونانى من حيث الخلط بين عالمى الغيب والشهادة .

وقد كان الغزالى ومن كان قبله ومن جاء بعده تأكيدا للرفض والاهمال الذى لاقتــه الفلسفة فى العهــدين الأموى والعبــاسى من اهل الســنة (معتزلة وأشاعرة) وتأكيدا لطموح الفكر الاســلامى فى تبنى كل فــكرة لا تناقض تصوره ومنهجه باعتبارها كلمة قابلة للأخذ ولا ريب أن ســبب تدهور الفكر الاســلامى وانحطاطــه نتج عن انتشــار الفلسفة ومنطقها و (الأفلاطونية المحدثة) قد اثرت بسلبية على الفكر الاســلامى وطبعته بطابع الاشراقية ، كما أن النزعة التوفيقية أدت الى الروحانية المفرضــة التى انحرفت وصــارت مضمونا يتميز بالــكسل والخمول والخدر فغرق المسلمون فى انحطاط طويل سلب الحضــارة الاســلامية رونقها بعد أن ارتفعت كالسهم .

ولقد كان لبعض الشعوبيين أثر كبير فى اغراء الناس بالفلسفة وكان نصر الدين الطوسى يفرض لــكل من يشتغل بالفلسفة ثلاثة دراهم والأطباء درهمين والفقهاء درهما واحدا والمحدثين نصف درهم .

ولذلك اقبل الناس على معاهد الفلسفة والطب ، وكان هذا ماالستتب به الأمر بعد غزوهم لبلاد المسلمين .

وقد أكد الباحثون أن انتشار الفلسفة وسيطرتها هو العامل الوحيد فى انحطاط الفكر الاســلامى الى جوار عوامل اخــرى منها الآثار التى أحدثهــا الشعوبيون فى المجتمع الاسـلامى بالاضــافة الى الحــروب الخارجية مع التتار والصلبيين والطامعين فى الحكم والسيطرة . وقــد استطاع الاســلام أن يحافظ على نفســه بما يسمونه تحجرا وجمــودا وتوقفــا وانحطاطــا بوقف باب الاجتهــاد وكان ذلك افضل حل للحفاظ على الاســلام فى لحظة حرجة منهارة تكاتفت فيهــا كل العوامل لضرب الاسلام فــكريا واسلاميا .

ومن الخطأ وصف تلك الفترة باسم فترة الانحطاط ، ذلك أنها فى الحقيقة كانت فترة الصمود والثبــات : ظهر فيها ابن خلدون وابن الأزرق .

والمعروف أن أول من اهتم بالفلسفة الاســلامية المستشرقون وكان لعملهم وجهان : وجه يزيفون به فــكر المسلمين عامة ووجــه يحيــون به الحديث عن الفلسفة ويفسحون لها المجــال من جديد . وقــد بدأت تلك الحملة بتشويه الفكر الاســلامى عامة وذلك بادعاء المستشرقين أن الفضل يرجع الى عبقرية اليونان ومجهودات السريانية .

وكان ذلك اخطر مايقال فى هذا الصدد وهو القول بتبعية المسلمين للفكر اليونانى .

ولقد رفعوا من شــأن الفلاســفة المسلمين الذين هم فى الواقع لم يكونوا الا اتباعا للفلسفة المشائية اليونانية ، وقد اعتبرت فلسفتهم لا تعبر عن الفلسفة الاســلامية الحقــة وانما يعبر عنها علم الكلام ، واصــول الفقه والمنهج التجريبى الذى قدمه العلماء المسلمون وهو المعبر الحقيقى عن الفلسفة الاسلامية ، وقد بدأ هذه الفكرة الشيخ مصطفى عبد الرازق وبلغ بها مداها الدكتور على سامى النشار والواقع أن هناك هوة واسعة بين منهج الفلسفة ومنهج العقدية وبين اسلوب الفلسفة واسلوب العقيدة

(١٨)

شبهات حول الفلسفة المادية

حاول دعاة الفلسفة المادية تقديم مفهوم زائف تحت اسم فلسفةالعلم اعتمادا على خيوط علمية واهية بحجة القول بأن الفلسفة المــادية تعتمد على مفهوم العلوم الطبيعية ، والواقع ان استعمال اسلوب العلم التجريبى والطبيعى فى الدراسات الانسانيــة باطل وكاذب ولا يمكن أن يؤدى الى تقديم نتائج صحيحة .

والواقع أن الاسلام يستطيع أن يقدم اجابات محددة ومقنعــة على جميع الأسئلة التى تدور حول الحيــاة الانسانية ، وهذا الفهم اشمل واعم فإن العلم مهما تقدم وتطور فهو نسبى فى المعرفة مشروط بعطــاء عصره وبيئتــه ، فالعلم خاضــع للتحفــظ والتغــير فى المــوقف بــل التخطى والتراجع ، وكل مايكون معمولا به فى عصر كحقائق علمية قــد يأتى فى المرحلة التالية فيفندها ويكشف ما بها من أخطاء ، فالمعرفة نسبية ، أما الدين الحق فانه يتجاوز كل الفلسفات الأساسية للانسان ومن ثم فهــو أسمى من أن يقارن بفلسفة ما .

وبفضل توجيهات القرآن اشتغل فلاسفة الاسلام الذين كانوا أيضا علماء بالعلوم بمعناها الخاص فجددوا المعرفة العملية ومناهجها وانشأوا علوما جديدة .

والواقع أن نظرة الاســلام الى الوجود والــكون والانسان بمفهومه الجامع الربانى المصدر الانسانى الوجهة يختلف اختلافا عميقا بين مايقدمه الغرب من نظريات مصدرها الفكر البشرى بأهوائه ونقصه وتطرفه وماديته وبلا مراعاة للتكامل الذى يقوم عليه الانسان ويطابقه الاســلام وهو الروح والمــادة ، كل هــذا كشف زيف الفلسفة المــادية وتصورها وعجزها عن

العطاء ، وما كان لها من آثار خطيرة على أزمة الحضارة المعاصرة ، ولا ريب ان فلسفة المادية هى فلسفة أزمات ظهرت فى أعقاب الحروب المدمرة فهى لا تستطيع أن تعطى عطاء حقيقيا ايجابيا وانما هى محاولات مرحلية ولذلك فهى لا تتناول الانسان ككل ولا تهتم اهتماما جادا بمكانه فى الكون ورسالته على الأرض ، بل تعبر عن الجانب المادى فى الانسان وهو على كل حال ليس بالجانب الحقيقى فى طبيعته .

وهكذا نجد ان المذاهب الفلسفية القائمة الآن : سواء الفلسفة التحليلية فى انجلترا او البرجماتية فى امريكا او الوجودية فى غرب وجنوب اوربا ، او المادية الجديدة فى شرق اوربا كلها فلسفات مادية لا تتناول الانسان الا على أنه حيوان خاضع لمطامع الطعام أو الجنس .

وهى تفرض وجهات نظر متنوعة دون عناية بتربية الانسان كانسان بل هى فى مجملها تبرير للواقع الفاسد المنحرف الذى يتمثل فى الاتجاه الى القوة من ناحية والترف من ناحية أخرى ، ومن هنا قصرت النظم التربوية العالمية عن تكوين النموذج الانسانى المتزن من الناحيتين الفكرية والخلقية، وقد احتجب عن الغرب أثر الدين الحق بروحانياته وأخلاقياته وتصوره للكون الانسان ومقدرته على تنظيم امور الحياة . ذلك أن الدين الحق دائما الى جانب نور العقل أكبر عامل يرشد الانسان ويساعده فى حياته

ويقول الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريدة : انه لا سبيل الى الوصول الى الغاية المثلى للمجتمع الحق الا بمفهوم جديد يقوم على أساس معرفة الانسان فى حقيقته واستعداداته ومعنى حياته ورسالته على الأرض ، وبتوجيه حياته حسب المعرفة الصحيحة ، ولابد من بناء المعرفة على أسس طبيعية ، من ملكات الانسان الحسية والعقلية فللانسان حواس يدرك بها ماحوله وهو يتصورها بعقله ، ويصحح تصوره لها ان هو أخطأ ، ويجب عليه أن يتقيد بمنهج البحث فلا يحاول معرفة المحسوس الا بالحواس ووسائلها ولا يسير فى تصوراته للاشياء الا بحسب قوانين الفكر ، ومعنى هذا هو الالتزام بالمنهج العلمى فى دراسة الأشياء ولكن دراسة الأشياء فى خواصها وعلاقة بعضها ببعض لا تكفى الانسان لأن عقله أوسع من مجال الحواس بل أوسع من الكون مهما كان كبيرا وهو يسأل عن مصدر الأشياء سواء فى أمور الكون أو فى أمور الحياة ، ويمكن بلا شك أن يستدل على نحو يقينى من وجود هذا العالم ونظامه ، وقوانينه على وجود صانعه الحكيم القادر جل جلاله ، ومن ارتباط الأشياء بعضها ببعض وملاءمتها لحياة الانسان على عناية المبدع ورحمته .

وعلى الانسان فى هذا الاستدلال ان يبتعد عن التصورات المأخوذة من هذه الأشياء التى يراها الانسان حوله .

ولما كانت معارف الانسان الحسية قاصرة ومعارفه العقلية متأثرة بالتجربة فى عالمه فان كثيرا من المعارف عبارة عن اجتهادات فى حدود طاقة الانسان ، وكثيرا من المذاهب الفلسفية ظنون ، وأحكام المفكرين على قيم الأشياء والأفعال وتحديدهم للغايات كلها اجتهادات ، وهذا يدل على أن الانسان على الرغم مما له من ملكات المعرفة والتقدير للقيم فى حاجة الى مايكمل له نظام المعرفة ويبين له معنى هذا العالم ومعنى حياة الانسان وقانونها وغايتها على أن يكون ذلك من مصدر فوق الانسان ، هو خالق الكون والانسان ، وذلك مانجده فى الدين الحق المنزل بمفهوماته وأدلته الواضحة التى لا يجد العقل السليم والضمير المستقيم أى صعوبة فى فهمها والعمل بأحكامها .

أتصور التفلسف : استعمال للحواس والعقل فى دراسة هذا العالم على أوثق المناهج وبكل الوسائل لتكوين تصور علمى للكون وللانتفاع بقوى الطبيعة التى يرشد الله تبارك وتعالى أنه سخرها للانسان وخصوصا بمعرفة الله وتوحيده وتنزيهه وتعظيمه وشكره ومحبته وعبادته بفضل آيات صنعه الرائع فى السموات والأرض .

أتصور الفلسفة تفكيرا أو تدبيرا لما تضمنه التعليم الالهى فى القرآن من أصول المعرفة ومبادىء تنظيم الحياة وجعل ذلك خيرا بالمعرفة الحق والخير فى هذه الحياة وبذلك يضاف الى نور العقل نور من خالق العقل »

وفى هذا المجال يصدق قول العلماء من أن العلم المعاصر قد أفلس فى علاج المشاكل الاجتماعية والنفسية والانسانية بوجه عام ، لأنه لم يخضع لمنهج واضح فى تطوره وفى أغراضه وأهدافه ، وقد تبين أن العلم لا يمكن أن يصل الى الحقيقة المطلقة التى لا يمكن أن تظهر الا بالايمان الذى هو قوة أخرى أشمل وأقوى من العلم .

وقد رفع العلماء فى الغرب أصواتهم بالشكوى من طغيان الجانب المادى فى حياة الانسان على الجانب الروحى وطغيان الميول الى الترف، وما له من أضرار على الميول الى الحياة البسيطة السليمة وقد ارتفعت الأصوات بالشكوى من الضياع والحيرة والتشكيك الذى وقع فيه الانسان بسبب قصور نظم التربية والتعليم فى العالم كله عن تكوين النموذج السليم فى هذا العصر الخطير .

ومن اخطاء العلم الحديث الذى عنى بدراسة الأشياء أن جرى فى دراسة الانسان وأموره كشىء لا كذات تعقل وتشعر بقيم عقلية وبأحاسيس خلقية وله حاجات روحية .

وقــد قل فى العصور الحديثة اشتغال العلماء بالتفكير فى حقائق الأمور الانسانية ، وفيما وراء أو فوق هــذا العالم المحسوس ولــكنهم عندما تعرضوا للانسان بنوا تصوراتهم على الخيالات الميثافيزيقة التقليدية البعيدة عن الواقع ، وحكموا فى ذلك الأمزجة الشخصية واتبــاع الأهواء والأفــكار المشكوك فيها والمحوا بالآراء اللامعة كالسراب الــذى يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاء له يجده شيئا .

ومعنى هذا كله أن الفكر الفلسفى فى العــالم الاســلامى يجب أن يتحرر من الفلسفة المادية وأن يشهد مفاهيم من تلك الأصول الأساسية التى جاء بها الاســلام : وأن يكون الايمان بالله تبارك وتعالى مالكا وخالقا ومسيرا للأمور كلها أساسا وأن تفهم مهمة الانسان فهما صحيحا باعتباره مستخلف فى الأرض وأن تكون العناية بالانسان فى جوانبه كلها الروحى والعقلى والبدنى مقدمة على كل شىء وأن يحاذر العلماء النظر فى جزئيات الأشياء ويتجهوا الى النظرة الجامعة الكلية ، والا يقفوا عند مسائل العقل أو مسائل الروح وانما يجمعوا بين معطيات الانسان روحا ومادة ارتفاعا عن المحرمات واقامة لحدود الله وتطلعا الى ماهو أسمى من الحياة المادية، وأن يستمدوا من الدين الحق تصوره المحكم للكون والحيــاة وبذلك يقوم نظام جامع فى المعرفة الانسانية .

(١٩)

شبهات فى علم النفس الحديث

حاول دعاة الفلسفة المادية فى العصر الحديث اعلاء مفاهيم التحليل النفسى التى جاء بهــا فرويد والتى لم تكن الا نوعا من التحــدى للفطرة الانسانية الصحيحة وقد جرت المحاولة لاذاعتها فى مختلف مجالات الثقافة والفكر وفرضها فى الجامعات والمعاهد لخلق روح من الانحراف والتحطيم والتدمير للشخصية الانسانيــة ، وقد اخذت هــذه المفــاهيم تهز النفوس البشرية هزا عنيفا ، وكان لها اثرها البعيد فى أزمة الانسان الحديث ، ولــكن العلماء لم يدعوها دون أن يفندوا اكاذيبها واضاليها ويكشفوا عن

زيوفها وعن غاياتها البعيدة التى قام بها رجل يهودى يحمل لواء الصهيونية التلمودية .

وقد حاول الدكتور فؤاد ابو حطب أن يستوعب اخطاء هذه الفلسفة فى اصول عامة : يقول .

ان علم النفس ليس علما بالمعنى المتعارف عليه للعلم ، بل لاتنطبق عليه شروط العلم الواجبة واهمها اليقين والموضوعية ، وهى شروط العلوم الطبيعية وهذا ينطبق على العلوم الاجتماعية جميعا ودمغها جميعا بأنها علوم زائفة ، وأبرز المحاذير :

(١) هى غلبة الاتجاه المادى فى علم النفس بحيث جعله يتصور النفس الانسانية تصورا ماديا فهى مجموعة غرائز تتطلب الاشباع المادى المباشر ، والانسان فى اطار هذه النظرة المادية مدفوع دائما بقوى لا معقولة ومغلوب على أمره تصدر عنه افعال قهرية وكل مايملكه العقل من « حيل » هى تدبير هذه الأفعال او البحث عن وسائل مقبولة لاشباعها او التسامى بها ليزاولها بصورة أجمل .

(٢) معظم النتائج التى توصل اليها بعض أصحاب الاهتمامات النظرية فى علم النفس وعلى رأسهم فرويد استخلصت من الحالات المرضية ثم عممت على حالات الأسوياء وتبنت نماذج نظرية كاملة فى هذا الأطار الزائف .

(٣) علم النفس التجريبى كذبة كبرى ، لأن النفس (ذات كلية) ولا يمكن تحويلها الى موضوع ، أو تشريحها تحت المجهر ولا يوجد فرع من فروع العلم التجريبى — ومنه العلوم الفيزيائية — يؤدى الى المعرفة اليقينية ولا توجد ملاحظة بشرية معصومة من الخطأ .

والواضح هو غلبة « المادية » على علم النفس ، والمادية فلسفة حياة وجراثيمها مضمرة فى العلوم الطبيعية واهمها الصراع بين الدين والعلم .

ولا ريب ان أحد مصادر التحدى الحضارى الذى يتعرض له المسلمون وما يحمله تيار العلم الوافد الينا من الغرب ومن الشرق خلفية الحادية واضحة فى طياته ، جعلت من الكفر بكل ماهو غير مادى سمة هذا العصر بل ان الأمر قد بلغ الى حد خطير بسيطرة المادية على العلوم الطبيعية بمضمونها الالحادى مثل مبدأ « ازلية

المادة » والطاقة ونسبة كل شيء فى الكون الى الطبيعة وقوانينها ومحاولة تفسير التدرج فى عمران الأرض على أنها عملية مادية تلقائية بحتة .

والمعروف الآن ان آراء فرويد واصحاب مدرسة التحليل النفسى عامة تواجه بالنقد العنيف داخل الاطار السيكوولجى ذاته ، وتتسع دائرة هذا النقد ابتداء من فرويد شخصيا وشخصيته حتى التحليل النفسى مدرسة ومنهجا وفلسفة وحياة .

وقد تبين أنه لابد من استخدام منهج دراسة الكون فى دراسة النفس ، لأن دراسة الكون والانسان واكتشاف سنن الله وتأمل آياته فيهما من أعظم الادلة على ابداعه سبحانه وتعالى وقدرته فى خلقه .

ان الملاحظة باعتبارها جوهر العلم التجريبى الذى يحض عليه الاسلام هى عملية تحليلية ، فالأشخاص كالاشياء لا تعرف الا بخصائصها وسماتها ، كما أنها لا تتميز الا بأضدادها فنحن نصف الشيء بأنه مستدير أو حاد أو ثقيل أو بهذه الصفات جميعا ، وبالمثل فاننا نصف الشخص بأنه يستجيب بسرعة أو بعنف أو بدقة أو بغير ذلك من الطرق .

والخصائص هى تجريدات نصل اليها بتحيلل الكليات وتجريد احدى السمات من كلية معينة لا تؤثر فيها لأنها تظل ثابتة محتفظة بكيانها الكلى الذى هى عليه قبل التحليل .

يجب أن يتبع الباحث منهجه التحليلى بنظرة تركيبة بنائية تكاملية برسم (البروفيل) النفسى الذى يربط بين مختلف الخصائص والسمات حتى يحدد النمط الكلى الفريد لهذه السمات والذى يميز الشخص أو الشخصية وليعرف الشباب المثقف ان علم النفس الذى يدرس الآن ليس هو علم النفس الاسلامى ولكن علم النفس المسيحى واليهودى .

فقد بدأ علم النفس الدينى المسيحى فى أوربا والولايات المتحدة ابتداء من الكتابات المسيحية والعصر المدرسى فى العصور الوسطى وعصر الاصلاح الدينى فى أوربا ثم طرح الفكر اليهودى التملودى عن طريق فرويد مفاهيم جديدة ارتبطت بالمفاهيم المسيحية ، وهناك مفهوم لعلم نفسى وماركسى ويهودى ونصرانى كل منها يستمد خصائصه من العقائد التى يدين بها كل من هذه الجماعات ولذلك ، فانه لابد من بناء علم نفسى دينى اسلامى يستمد مقوماته من أصول الاسلام ، قوامه تكامل الاسلام بين

الروح والمادة والدين والدنيا ووفق مفهوم الاســـلام لرسالة الانسان فى الحياة والتزامه الأخلاقى ومسئوليته فى الجزاء بعد البعث .

(٢٠)

شبهات حول أخلاق الاســـلام

ترددت كتابات كثيرة عن الأخلاق فى الاســـلام ، مما كتبه الــكندى والفارابى واخوان الصفا وابن مسكويه وابن سينا وابن باجه وابن طفيل وابن عربى .

وقد تبين مع الأسف أن مذاهب هؤلاء الفلاسفة لا تمثل مفهوم الاسلام الصحيح فى تقدير مضمون الأخلاق في ضوء القرآن والسنة .

وقد تبين أن هؤلاء الفلاسفة قــد اقاموا مذاهبهم فى الأخلاق على أساس من الفلسفة التى تلقفوها عن اليونان معلنين غير مستخفين . هذا الأساس الأجنبى هو الذى حجب أنظار المسلمين عن فهم القرآن كما يقول (اقبال) ولذلك لم يبرز مفهوم القرآن للاخلاق فى هذه الدراسات ، لمــا جاء الصوفية وعرضوا للأخلاق كان مفهومهم غير كامل وان كان اقرب الى مفهوم الاسلام .

وقد افلت المحاسبى والقشيرى من تأثير الفلسفة اليونانية وسطوتها واقتربا من روح الأخلاق الاسلامية ، ويبدو أن تأثيرات رهبانية تسربت الى مفاهيم الزهد والاخلاص والصمت عنــدهما فكانت لها آثار ضارة تمثلت فى تشددهما البعيد الذى يتنافى مع يسر الاســـلام واعتبــاره لطــاقات الانسان المحدودة . كما يقول الاستاذ أحمد عبد الرحيم ابراهيم ، فالغزالى فى ابرز مؤلفاته فى علم الأخلاق كتاب (ميزان العمل) وفى الأحياء أيضا يبدو أخطر مناقص الغزالى اعتماده لنظرية النفس لدى افلاطون وتقسيماته لقواها والفضائل تبعا لذلك ، ثم تبوله المطلق لنظرية الوســط الأرسطية فــكلام الغزالى حسب تعبير ابن تيمية برزخ بين المسلمين وبين الفلاسفة ففيه فلسفة مشوبة بالاســـلام واسلام مشوب بالفلسفة ، وذلك فى محاولة الغزالى التوفيق بين افلاطون ونظريته فى النفس والفضائل وبين فضــائل القرآن . كما اعتقد فى نظرية ارسطو القــائلة بالوسط الأرسطى ، وهو المبدأ القائل بأن الفضيلة وســط بين رذيلتين (ميزان العمل ص ٢٣٤) تعسف فى تأويل آيات القرآن الــكريم لكى يحملها على التوافق معــه (فاستقم كما أمرت) تفسر عنده بمعنى طلب الوسط بين الأطراف . وعلى

الرغم من ادراك الغزالى للتعدد الواسع للفضائل الاسلامية وتجاوز عددها للتقسيم الرباعى الأفلاطونى الضيق فانه تمسك بذلك التقسيم بشدة

ويقول زكى مبارك وبعض مفكرى المسيحية أن الغزالى تأثر بالنصرانية وانه تأثر بالآداب السلبية التى دعا اليها الانجيل . ويقول الدكتور محمد يوسف موسى ان الامام الغزالى حاول أن يطبع ما أخذه عن اليونان والمسيحية بطابع اسلامى صوفى وان تلك المحاولة كانت أقرب الى روح الاسلام من الفلاسفة العرب (النشار) وهو فى مفهوم الأخلاق متأثر بالفلسفة اليونانية يردد نظريات أفلاطون وارسطو .

أما تراث الحديث النبوى فقد بقى طوال القرون دون أن يجد من يدرسه ويستخلص منه المبادىء العامة لنظام الآخلاق الاسلامى بدلا من الأخذ من اليونان ، أو التوفيق بين اخلاق الاسلام وتلك المذاهب الأجنبية ويرجع ذلك النقص الى الفلسفة الأخلاقية اليونانية التى نقلت جاهزة الى المحيط الثقافى الاسلامى العربى قبل تبلور علم أخلاقى اسلامى أصيل، فجمدت أنظار المفكرين المسلمين وخاصة الفلاسفة عن النظر الى المضامين الأخلاقية للقرآن والسنة ، كما أشار اقبال الى ذلك وبالنسبة لفكرة الوسط يقول أن القرآن لم يحدد حدودا عليا للفضيلة بحيث يعتبر كل من يتجاوزها مسرفا وعلى العكس كان النبى لايتحرى وسطا فى كرمه وانفاقه فالمال كله لله عز وجل وبذله جميعا هو الأحب عند الله سبحانه وانما لم يأمر به عنده لأنه يشق عليه بسبب بخله وهو ينهى عن الواجبات والفضائل الأشد وجوبا فى سبيل الاستزادة بالأقل وجوبا واعمالا بمبدأ لاتقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة ، وليس هذا وسطا وانما هو توازن خلقى أو تناسق خلقى .

وفيما يعلق بكتابات المعاصرين يتحدث أحمد أمين عن الأخلاق فيبذر بذور الريبة فى عقل القارىء حول عدم وجود نظام أخلاقى متميز للدين الاسلامى أما العقاد فيرى أن الأخلاق الدينية الشرقية هى سيطرة خارجية عن الانسان تملى عليه مايفعل وما يترك وتجيز له وتحرم عليه ولا شأن له هو فى جميع ذلك الا الطاعة والاذعان (مراجعات) وكتاب الدكتور عبدالرحمن بيصار عن العقيدة والأخلاق مستمد من فكر أفلاطون وارسطو ومسكويه فى معظم الأبواب والواقع أن هذا كله لا يمثل وجهة نظر اسلامية حقيقية، هذه النظرة التى تتكشف فى وضوح فى رسالة المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز .

فقد استطاع الدكتور دراز رحمه الله وجزاه خيرا أن يقدم المفهوم الأخلاقى القرآنى وأن يقارنه ببعض النظريات الغربية ، ولقد كانت جولاته

بين الفلسفات اليونانية واليهودية والمسيحية من أكبر أسباب اقتناعه بأن مفهوم الأخلاق فى القرآن — ولا نقول نظرية الاسلام — تفوق كل النظريات والمفاهيم فى غيره ويقوم مفهوم الاسلام على :

(أولا) الالزام : فالالزام هو أصل كل مذهب أو نظرية فى الأخلاق فلا مسئولية بلا الزام ، واذا عدمت المسئولية فلا يمكن أن تسود العدالة وحينئذ تتفشى الفوضى ويفسد النظام وتعم الهمجية لا فى مجال الواقع فحسب بل فى مجال القانون أيضا .

(ثانيا) المسئولية : والمسئولية متولدة من الالزام فلا معنى للالزام الا أن الانسان مكلف بأن يقوم بأشياء وان يقدم حسابا عنها ، وهذا فى حدود فكرة المسئولية الانسانية ، لا يسأل الانسان عن عمل غيره ، ولا عما يعلم انه مكلف به ، ولا عن أعماله غير الارادية ولا عما اكره عليه .

(ثالثا) الجزاء : وهو الرابطة بين الالزام والمسئولية وللجزاء ثلاثة ميادين : اخلاقى وقانونى والهى .

(رابعا) النية والدوافع : والانسان مكلف وهو كائن ناقص لكنه فى الوقت نفسه قابل للكمال فلابد من العمل وهو مسئول عن عمله وهو فى صراع دائم ضد كل الشرور ، ولكن الى جانب الجهد الطبيعى الذى تفرضه الغريزة جهد آخر يقتضيه العقل من اجل مثل اعلى .

(٢١)

شبهات حول تفسير التاريخ الاسلامى

حاول كتاب الماركسية تفسير التاريخ الاسلامى بمفهوم صراع الطبقات وفشلوا فى ذلك لأنهم — كما يقول الأستاذ طه محمد كسبه — لم يستوعبوا مضمون الرسالة الاسلامية ، أن الصراع الذى ثار بين المسلمين وبعضهم البعض والذى اتخذه الماركسيون دليلا على صحة دعواهم انما كان صراعا ذا طابع سياسى ولم يكن صراعا طبقيا تغلبت بموجبه طبقة على اخرى أو فئة على اختها . والخطأ الذى وقع فيه الشيوعيون انهم قد نظروا الى التاريخ الاسلامى بنصف عين ، ذلك أنهم لم يقرأوا التاريخ الاسلامى كله كما أنهم لم يقرأوا التاريخ البشرى وكل الذى نعلمه انهم ساروا على نهج امامهم ماركس حين تخير الحداثة بعينها من تاريخ البشر واطلقها على التاريخ كله ، فقد كانوا يقرأون ماكان يعنيهم ويتفق مع أصول نظريتهم الأولى فى استخراج افكارهم

وأحكامهم وآرائهم ، فكان مايثير انتباهم ويلفت انظاهم منظر تلك الدماء التى تسيل على صفحات التاريخ ، ولم يكن ينفذ الى أنوفهم سوى رائحة الدم يسيرون وراءها ويدللون عليها ويتبعون خيوطها ويستخرجون منها أحكاما ومبادىء وأفكارا واستنتاجات يطلقونها على التاريخ كله مثلما فعل ماركس حين اعتمد فى استنباط نظريةعن التاريخ على بعض مراحل التاريخ دون الأخرى . وهنا سقطت دعوى اختلاق الصراع الطبيعى وحتميته على المجتمع الاسلامى ، ذلك ان الاسلام لم يكن أساسا من افراز النظام الطبقى فى قريش ولم يكن الاسلام دينا رجعيا يحفظ للظالمين والمستغلين أموالهم وامتيازاتهم كما أنه لم يكن مخدرا للفقراء والمحتاجين والمقدمين يجعلهم فى حالة تبدل ورضى بفقرهم وعجزهم كما دعا الى العمل والحركة والسعى على الرزق ومجاهدة النفس والمشركين والمستغلين .

وكان بحق حركة عدل ضد أعداء السماء والانسان .

كذلك فان الاسلام ما جاء نتيجة انقلاب عسكرى أو سياسى قام به مجموعة من الأفراد الذين يطلقون على أنفسهم ثوارا ، أو مجموعة من العسكر ، كما أنه ما جاء نتيجة انقلاب مناظر فى توزيع الانتاج وعلاقاته المتشابكة فى قريش وانما جاء كظاهرة فوقية مستقلة عن البيئة ، وجاء الاسلام من البداية مقررا للمساواة فى الفرض وضمان حق الكفاية لكل المواطنين وتحقق التوازن الاقتصادى بين الفرد والمجتمع ، وجاء بمبدأ الملكية الخاصة والملكية العامة ومبدأ الاقتصاد الحر الموجه ، جاء بكل ذلك فى الجزرة العربية فى وقت لم تكن ظروف الانتاج وعلاقاته تدعو اليه بحيث يمكن أن يقال أن ماحدث كان انبثاقا من واقع اقتصادى ، وتحدى بذلك كله منطق الماركسيين التاريخى وحسابات المادية التى تحتم انبثاق كل انقلاب سياسى من انقلاب مناظر فى نظام الانتاج وعلاقاته .

وعليه فان الصراع الذى ثار بين المسلمين والذى يتخذه الماركسيون حجة ودليلا على صحة نظريتهم ، انما كان من أجل الحكم ، وكان صراعا سياسيا لا طبقيا ولا يقره الاسلام بحال من الأحوال ، فهو خارج عن منهج الاسلام وبعيد عن روحه السمحة ، ويبقى الاسلام بجوهره الاساسى الذى يشع رياح الأخوة والمصالحة بين المسلمين والذى يقرر فى صراحة:

« اذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار »

ويقرر : « انما المسلمون اخوة فأصلحوا بين أخويكم »

ومن هنا فان دعوى صراع الطبقات التى يحاول دعاة الماركسية اليوم وأصحاب التفكير الالحادى الصاقة بالاسلام وصولا الى تفريغ الدين الاسلامى من محتواه الروحى ومضمونه العقائدى انما هى محاولة لن تجدى .

هذا من ناحية ومن ناحية القول بأثر العامل الاقتصادى فى توجيه التاريخ الاسلامى يقول الدكتور حسن شحاته سعفان : ان عوامل التقدم فى مصر والشرق الأوسط اذا درست فى تطورها منذ العصور الاسلامية نجد أن العامل الاقتصادى فى هذا التأثير وفى تطورها لم يكن بأكثر أهمية من غيره بل على العكس كانت المثاليات الدينية والأخلاقية المستقاة من الاسلام ، أولا ومن المسيحية ثانيا هى العامل الأول فى تشكيل النظم وتطويرها ثم يأتى العامل الاقتصادى كعامل ثانوى فى معظم الأحيان .

ويقول : ان نظرية ماركس فى المادية التاريخية خطأ محض — فقد استنتج نظريته من استقراء بعض وقائع الاقتصاد الاجتماعى للدول الغربية ويقول انه ينكر الدين والعوامل الروحية بينما كانت هى المحرك الأكبر لهذا التطور ومن خطأه الزعم بأن العوامل المادية هى العوامل التى تؤثر الأثر الأكبر فى تشكيل النظم الاجتماعية الأخرى من دينية وسياسية وأخلاقية وتربوية .

ويقول : ان نظرية ماركس لا تنطبق على دول الشرق الأوسط وأن الدول الغربية ان صح انها تطورت بحيث وصلت فى العصور الحديثة الى دول تقدس المادة أولا فان ثمة دولا بالعكس لم يطرأ عليها تطور يجعلها تضحى بالمثاليات الأخلاقية والدينية تحت تأثير العوامل المادية .

(٢)

ومن أخطر الشبهات التى طرحها الماركسيون محاولة تصوير عهد الرسول والخلفاء الراشدين بصورة الصراع بين اليمين واليسار فى الاسلام ، والاهتمام بالعامل الاقتصادى وتقديمه فى النظر الى احداث التاريخ وعجزهم عن تعمق مفهوم التفسير الجامع للتاريخ الذى تؤثر فيه عوامل عديدة ، الاقتصاد واحد منها ولكنه ليس أهمها على التحقيق .

والاسلام له تفسيره التاريخى الذى يختلف عن التفسير المادى للتاريخ الذى قدمه ماركس واخذت به الشيوعية والتفسير الدينى للتاريخ الذى قدمه توينبى والذى يقوم على استعلاء الحضارة الغربية بالمسيحية وتفسير الأحداث وسير الأجيال فى ضوء هذه التبعية ومن هنا فقد

وقف التفسيران من الاســلام موقفا ظالما ، ومن اخطاء تفســير توينبي انه يرى المجتمع الاســلامى حصيلة اندماج مجتمعين متمايزين فى الأصل هما الايرانى والعــربى ولو أنه قال ان الاســلام صــهر كل من آمن به فى مجتمع جديد وأنه استصفى خير مافى الحضــارات القديمة مما يتفق مع مفهوم التوحيد لكان قوله قريبــا من الحق ولا شك أن ابرز مفاهيم التفسير الاسلامى للتاريخ هو التوحيد والعدل والاخاء الانسانى وقيام المجتمع على اساس الأخلاق دون تفرقة بين العنــاصر والدماء والقضاء على صراعها والتفاخر بها . ولقد كان من اخطاء التفسير الماركسى هــذه التفرقة بين اليمين واليسار وهى تفرقة لم يعرفها الاسلام .

ومن اخطاء التفسير المادى للتاريخ تصور الاســلام على انه ثورة اجتماعية أو اقتصادية ، بينما كان الاسلام دعوة ربانية وليست بشرية لها صفة المنهج الجامع الانسانى الطابع ، ولذلك كان من اخطاء عبد الرحمن الشرقاوى ، تصــور النبى صلى الله عليه وسلم على أنه رسول الحرية، أو أن الاســلام حركة اجتماعية كما حاول طه حســين فى كتاب الفتنــة الــكبرى ، لقد أغفل عبد الرحمن الشرقاوى حادثة خروج النبى من بيته ليلة تأمرت به قريش وحادثة ايوائه الى غار حراء ووضع الآية القرآنية مبتورة على ظاهر كتابه (قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى) وقصرها على كلمة مثلكم انكارا للوحى .. ولا شك أن تجريد ســيرة النبى من الوقائع المتواترة هو عمل من أعمال الغش التى يراد بها ايجاد فرصــة للتشكيك والارتياب فضلا عن أنه لم يورد عبارة (الوحى) اطلاقا ولم يذكر أن سر انتصار دعوة الاسلام هى أن قوة عليا تؤيدها وتساندها .

(٣)

عندما قامت بعض الجهات الاقليمية ذات الهوى والغرض بكتــابة تاريخ الاســلام وقعت فى مجموعة من الأخطاء التى يجب التنبه لها وقد جمعها أحد باحثين على هذا نحو :

أولا : خطر التوسع فى الصغائر ذات الصفة الشخصية بينما يختصر الأعمال الــكبرى العامة .

ثانيا :سيطرة الروح القومية على مفهوم التاريخ الاسلامى الجامع.

ثالثا : التحدث عن الرسول كالتحدث عن نابليون واخناتون .

رابعا : وضع كلمة العرب بدلا من كلمة الاسلام والمسلمين ، وهى توحى بتكرارها أن رسول الله انما بعث للعرب وحدهم وتجريد النبى من

طبيعته حتى يبدو وكأنه ليس اكثر من داعية او مصلح سياسى او اجتماعى وأن رسالة الاسلام لاتعدو ان تكون حركة اصلاحية .

ولا ريب أن روح العنصرية فى كتابة التـاريخ اسلامى تتنـاقض تناقضا تاما مع الحقائق الأساسية ، لأن تاريخ الاسلام فى عصر الراشدين والأمويين كان تاريخا للمسلمين كلهم ولم يكن تاريخ العرب وحدهم .

وكان من صناع بطولته : البربر والأتراك والفرس .

خامسا : تجريد الدعوة الاسلامية من اساسها الفكرى ورسـالتها الأساسية واعنى بها العقيدة .

سادسا : اخفاء الروح الاسلامى التى لها اثرها التربوى فى النشء المسلم .

سابعا : تجريد المعارك الاسلامية من نفحات النبى ومن تأييـد الله تبارك وتعالى وقياسها بمقاييس مادية بحته .

ثامنا : فى الهجرة اغفل المؤلفون جوانب رعاية الله وركـزوا على عنصر الاختفاء وغفلة قريش وعدم رؤية احد للنبى .

تاسعا : فى موقعة عين جالوت تجـاهل المؤلفون نداء «واسلاماه»

عاشرا : عند الحديث عن غزوة احد لم يذكر المؤلفون عدد الجيش الاسلامى .

حادى عشر : فى الحديث عن معارضـة قريش للاسـلام ذكر أن السبب فى ذلك هو خوف قريش على مركزها التجارى وهذا تحليل ماركسى فان قريشا قد عرضت على الرسول التنازل عن كل شىء له ولكنه رفض. لقد كان الصراع صراع عقيدة ولم يكن الأمر اقتصادا .

ثانى عشر : التركيز على المعـارك واهمـال الجوانب الأخلاقيـة والحضارية الاسلامية فبدا تاريخ الاسلام وكأنه تاريخ غزوات وحروب .

ثالث عشر : حشد كثير من الخلافات وتكثيفها وبخاصة تلك الخلافات التى جرت بين على ومعاوية وقد نتج عند هذا سب بعض الصحابة دون تمحيص علم ودون معرفة بالظروف كلها .

رابع عشر : تناول الحركات الانفصاليـة كحركة ابن طولون وابن طغج الأخشيد على أنها حركات استقلالية والأولى تناول هذه الحركات على أنها حركات انفصالية ، يقف وراءها أشخاص مغامرون .

خامس عشر : يقولون التوسع العربى وكأن الفتوحات الاسـلامية توسعات استعمارية ، مع أن هناك فروقا كثيرة بين هذه وتلك .

سادس عشر : يقولون ان عمر بن الخطاب ولى عمرو بن العاص مصر مكافأة له ، فهل هكذا كان يسوس عمر الأمور أم أن عمرو بن العاص كان جديرا بحكم مصر .

(٤)

شبهة الفتنة الـكبرى

ومن الشبهات المثارة قصة الخدعة المشهورة : عندما خلع أبا موسى عليا ويثبت عمرو معاوية التى يرددها الـكثيرون مع أنها غير صحيحة .

والصحيح هو أن عبد الله بن سبأ ورجاله غيروا واقع الأمر ليلا . هذه الفتنة المشهورة التى رددها طـه حسين والكثيرون فقد حدث شرخ هائل فى خلافة المسلمين وظهرت الفرقة .

كذلك فقـد نسب الى السيدة عائشـة رضى الله عنها موقفها فى معركة الجمل وقد جلى الدكتور ابرهيم شعوط هذه القصة حين قال :

ان أم المؤمنين كانت قد خرجت للصلح بعد ان شرح لها طلحة والزبير ضرورة معالجة الموقف وانه لا علاج إلا بوجودها فى الصورة تأمر بالقبض على قتلة عثمان ليصفو الأمر لعلى بن ابى طالب ولتنزل على رغبة معاوية ابن أبى سفيان فتجمع بهذا الأمر بين الطرفين المتنازعين . كان هذا هو الهدف ولـكن المجرمين الذين تلوثت أيديهم بدم عثمان خافوا على أنفسهم واتفقوا على مؤامرة فى الظلام هى السطو على المعسكرين فى وقت واحد بعدما أعلن الجميع قبولهم الصلح ، واستراحت قلوبهم اليه فاختلط الحابل بالنابل واشتبهت الأمور حتى ظن كل من الفريقين بصاحبه شرا وخرج الأمر عن يد الحكمة وفشل الصلح وفوجئت أم المؤمنين بمجىء كعب بن الأسود وهو يقول : أدركى فقد أبى القوم الا القتال لعل الله يصلح لك الأمور ، فركبت والبسوا هودجها الأدراع .

ولـكن هيهات ان يوجـد العقل فى الثورات وان تتبين الرؤية فى الظلام ، ان التى استنجد بها النـاس لفض النزاع ولتقضى على أسباب الفرقة وجدت نفسها — فجأة — دون ان تدرى طرفا فى القتال وانتشر بين الناس أن أم المؤمنين وقفت تقاتل عليا وحزبه .

ومن الغريب أن الذين التفوا حولها هم الذين خ جت للقبض عليهم،

وتنفيذ القصاص فيهم ، واستطاعوا ان يجعلوا من أنفسهم مدافعين عن ام المؤمنين .

هكذا صورت المعركة : صورها تتابع الحوادث وغموض الموقف واستغلال قتلة عثمان وجود أم المؤمنين فى المعركة ولذلك استشعرت أم المؤمنين ان اسمها استغل فى اشغال الناس وتأجيج الخصومة فقالت هذه العبارة :

والله لوددت انى مت قبل هذا بعشرين عاما .

وهذا تصوير لحقيقة موقف السيدة عائشة منوحى روايات المؤرخين المنصفين (ابن الأثير : الكامل حـ٣ ص ١٢٣) .

وقد نجحت سفارة القعقاع بن عمرو واقتنع الطرفان بوجوب الصلح واستبشر المسلمون ببوادر الاتفاق وآمن طلحة والزبير والسيدة عائشة أن الله قد نجى المسلمين من شرور حرب طاحنة وبات المسلمون ليلة لم يبيتوا مثلها لما احسوا به من نجاح الصلح وتطهير صفوفهم من الشياطين .

وقد كان المحور الذى يدور حوله الخلاف بين على رضى الله عنه وكل المخالفين عليه هو أمر قتلة عثمان فكل المسلمين كانوا مجمعين على وجوب اقامة الحد وتنفيذ القصاص فى قتلة عثمان ، وان الذى تولى الحديث عن المقتول هو معاوية باعتباره ولى الدين ، ولما طلب اليه أن يبايع عليا لم يمانع فى البيعة ولكن اشترط اولا تسليم قتلة عثمان أو اقامة الحد عليهم .

ومعاوية وان قاتل عليا فانه لا ينكر امامته ولا يدعيها لنفسه وانما كان يطلب قتلة عثمان رضى الله عنه ظانا أنه مصيب وان كان مخطئا ولم يسبق الى ذهن أحد من المسلمين فى المدينة . ان هذا الطلب اتخذ ستارا للوصول بمعاوية الى الخلافة .

وكان على يرى هذا الراى ولا ينكره وانما حصل سبب التأجيل حتى يتم له الأمر وتبايع الأمصار .

وكان لكل رايه واختلفا ورأى طلحة والزبير أن أم المؤمنين تستطيع ان تتدخل فاذا نادت بهذا فستجد من المسلمين جوابا واحدا هو القبض فورا على كل المتهمين بقتل عثمان : (لمع الأدلة لامام الحرمين عبد الملك الجوينى) .

هذا الهدف الذى دفع أم المؤمنين أن تشد رحالها من مكة الى البصرة وقد بعث اميرالمؤمنين على بن أبىطالب القعقاع بن عمر الى ابصرة وقابل أم المؤمنين واتفق الجميع على محاكمة قتلة عثمان ونجحت سفارة القعقاع واتفقا على الصلح ولـكن المتهمين بقتل عثمان والمشركين فى الفتنـــة أصابهم الغم وادركهم الحزن من اتفاق الكلمة وأيقنوا أن الصلح سيكشف أمرهم وتسلم رقابهم الى سيف الحق وقصـاص الخليفة فبـاتوا يدبرون أمرهم فلم يجد سبيلا لنجاتهم الا أن يعملوا على افساد الصلح .

(ابن الأثير : الـكامل حـ ٣ ص ١٢٣)

باتوا يتشاورون فاجتمعوا على الحرب فى السر فغدوا مع الغلس مايشعر بهم احد فخرجوا متسللين وعليهم ظلمة بعض ، مضرهم الىمضرهم وربيعهم الى ربيعهم فوضعوا السلاح بغتـة فثـار اهل البصرة وثار كل قوم فى وجوه أصحابهم الذين أتوهم وبلغ طلحة والزبير ما وقع من الاعتداء على اهل البصرة فقالوا ماهذا ؟

قالوا طرقتنـا اهل الـكوفة ليلا فقال طلحة والزبير قـد علمنا أن عليا غير منته حتى يسفك الدماء وأنه لن يطاوعنا .

وفى هـذا الوقت ذهبت فرقة اخرى تحت جنح الظـلام ففـاجأت معسكر على بالـكوفة فلما بلغ على قال ما هذا :

قال أصحابه ماشعرنا الا وقوم من اهل البصرة قد بيتونا .

فقال على نفس عبارة طلحة والزبير :

لقد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء وان لم يطاوعانا .

وخفيت حقيقة المؤامرة على كلا الفريقينوظن كل منهما الشر بصاحبه ونجح العـاملون فى الظلام ونجحت خطتهم فىافساد الصلح واراقة الدماء وطاشت عقول القوم واختلطت عليهم الأمور .

هـذا هو السر الحقيقى للاحداث ولـكن الدكتور طه (فى كتاب على وبنوه ص ٤٣) يخالف فى تصـديق هذه الرواية ويدعى أنها تخالف طبيعـة الأشـياء التى يعرفهـا هـو ويقول ولا يسيغها الا اصـحاب السذاجة .

ومن هذه قصص ما يروى باطلا عن تكالب معاوية على الملك وقصة الاختلاف بين ميراث الخلافة وبين البيعة المختارة .

(٥)

جرت محاولات خطيرة الى اضفاء صورة قاتمة على تاريخ الاسلام حملتها الكتب المقررة التى تدرس فى المدارس والمعاهد .

أولا : حاول الكثيرون أن يصموا تاريخنا بكثرة الحروب والفتن والمكايد والاضطرابات . والنظرة الصحيحة تعطى البيان الواضح عن ان هذه الوصمات لها أصل صحيح — كما يقول الأستاذ يوسف العش — وكل مافى الأمر أن هناك تفاعلات فى المجتمع الاسلامى العربى كانت تأخذ طريقها ولابد ان تأخذ طريقها فى ذلك المجتمع وان هذهالتفاعلات سنة من سنن الله ولن تجد لسنة الله تبديلا . وهى تفاعلات تحدث فى كل امة بل ان الأمم الأخرى كانت تتلقاها بعنف أكثر مما تلقاها به المسلمون والعرب . وتاريخ الأمم الأخرى ممزوج بالحروب والفتن والاضطرابات أكثر من التاريخ العربى ، فهذا تاريخ فرنسا والمانيا منذ الثورة الفرنسية (وهما من أعظم الأمم التى ساهمت فى تاريخ العالم) ان تاريخهما ملىء بالحروب : حروب الثورة الفرنسية وحروب نابليون وحرب ١٨٧٠ وحرب ١٩١٤ وحرب ١٩٣٩ ، كل ذلك فى مدى لا يتجاوز قرنا ونصف القرن والضحايا التى وقعت فى هذه الحروب يتجاوز أضعافا مضاعفة ضحايا الحروب فى تاريخنا بأجمعه .

ثانيا : جرت المحاولات لحشد مجموعة من الأكاذيب والشبهات والروايات الضعيفة مثل تعاطى الخمر وتمزيق أحد الخلفاء للقرآن ومؤامراتهم وقتلهم للمسلمين الأبرياء ولا ريب أن هذه الحوادث لا أساس لها وانما أخذت من كتب القصاصين والشعراء وان الشعوبيين هم الذين حاولوا استخدامها للاساءة بها الى تاريخنا .

ومن ذلك قولهم إن أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص تآمرا على على بن أبى طالب تحت عنوان التحكيم بينما المرجع الأساسى (العواصم من القواصم) يقرر انالاتفاق تم بين الاثنين على تثبيت كل فىمكانه وايقاف القتال حتى يجتمع اهل الحل والعقد .

وتقول كتب التاريخ أن عائشة رضى الله عنها خرجت لتحارب أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى موقعة الجمل بينما يقول كتاب العواصم من القواصم أن أم المؤمنين خرجت لتصلح بين المتحاربين .

وتقول كتب التاريخ : إن الخلفاء خافوا من الصراع بين المسلمين فى الجزيرة الصغيرة فدفعوهم الى الفتوحات والغزوات فى الخارج ،

بينما تقول الحقيقة ان من القى بثمرة من يده ليسرع الى دخول المعركة ضد المشركين سعيا للقاء الله شهيدا لم يكن ليسعى الى مغانم الدنيا وأموالها طلبا وهمة وان من فهموا معنى الاخاء والحب والايثار جادوا بالروح قبل شربة ماء بعد أن آثروا بها أخوة لهم لم يعرفوا طريق الصراع الا ضد الباطل وأعوانه .

كما يقول التاريخ الصحيح ان الفرس اعتدوا على حدود الدولة الاسلامية وساهموا فى دفع المرتدين وارسلوا الى عمالهم على الحدود يطلبون ارسال الرسول اليهم حيا ، كما أن الرومان حثوا قبائل الشمال على شن الغاراتوالهجمات ضد المسلمين. ثم ان المسلمين كانوا وما زالوا أصحاب دعوة يسعون لنشرها بالكلمة الطيبة فان اعترض الطريق معترض فالجهاد سبيلهم .

ثالثا : كان للاسلام موقفه الواضح من عصر الصحابة وهى عدم الخوض فى الخلافات التى حدثت اذ الصحابة كلهم أسوة فى طريق الهدى كما يقول ابن خلدون .

قال عمر بن عبد العزيز : تلك دماء طهر الله أيدينا منها فلا نلوث ألسنتنا بها .

يقول السيد محب الدين الخطيب وقد أوصى الكثيرون بأن نكف عما شجر بين أصحاب رسول الله فقد شهدوا المشاهد معه ، وسبقوا الناس بالفضل فقد غفر الله لهم وأمرنا بالاستغفار لهم ، والتقرب اليه بمحبتهم، وانما فضلوا على سائر الخلق لأن الخطأ والعمد قد وضع عنهم وكل ماشجر بينهم مغفور لهم ولا ينظر فى كتاب صفين والجمل وواقعة الدار وسائر المنازعات التى جرت بينهم . والصحابة هم أفضل المسلمين بعد الرسول وتوجد بهم أيضا درجات فى الفضل تعتمد فى الغالب على السبق فى الاسلام ، وما قدمه أولئك الصحابة من مجهودات فى سبيل نصرة هذا الدين منهم الخلفاء الراشدين وأصحاب الشورى الستة والعشرة المبشرين بالجنة وأصحاب بدر وأصحاب أحد والمبايعين تحت الشجرة ويتلو الصحابة فى الفضل التابعون وتابعو التابعين .

وينبغى أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل لمن كان قبلنا فينا ، على أنا وقد وجدنا فى العبرة اكثر مما وجدوا كما أن من بعدنا يجد من العبرة اكثر مما وجدنا فما ينتظر العالم من اظهار ماعنده وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه وقد أمكن الحق ؛ مصلح الدهر

وخوى نجم التقيه وهب ريح العلماء وكسد الفى والجهل وقامت سوق البيان والقلم .

رابعا : كذلك فان اخطر ما يواجه المثقفين المسلمين هو الأسلوب الوطنى فى كتاب التاريخ الاسلامى ، والأسلوب القومى ومدى اختلافهما عن المنهج الاسلامى ، فان أصحاب هذه الكتابات وقفوا فى الحدود الطبيعية التى تحدها الأوطان والأرض ، أو الأقوام والدماء والعناصر ، وكل هذا لايستطيع أن يعطى مفهوما صحيحا فان الاسلام هو المجرى الواسع الكبير الجامع لهذه الأمم والأوطان جميعا .

وقد شهد كثير من الباحثين بأن النضالات الوطنية الأولى قد انطلقت من تحت راية الجهاد فى سبيل الله . كان الاسلام فى أغلب هذه النضالات ولا يزال رمزا للمقاومة الروحيةوالثقافية ضد الاحتلال والاستعباد الاستعمارى وكان هو الضمان الوحيد لاستمرار وحدة اللغةوالثقافة وكانت تتجسد فيه القيم النقية .

وقد استهدف الأسلوب الوطنى فى كتابة التاريخ سلخ الشعوب عن وحدتها وقيمها وتحطيم شخصيتها وامتصاصها داخل الاطار الأقليمى بما يستتبعه من عاديات وفلكور واعتماد على مفهوم مسموم هو الأرض والتراث بينما لم يعرف المسلم فى تاريخه كله الا الأمة الاسلامية فى وحدتها الجغرافية والعقائدية .

خامسا : يؤكد الباحثون المنصفون أن تاريخنا الاسلامى يتميز بسرعة الحركة على سطحه وبطئها فى عمقه . أى انك تقراه فتجد الحوادث متدافعة متلاطمة وكلها حوادث سطحية : نزاع على السلطان وحطام الدنيا ، فاذا نظرت فى العمق لترى حركة المجتمع وجدت ثباتا على قيم الاسلام . وتحركا نحو البناء والتقدم . ان لب التاريخ الاسلامى فى الحقيقة ليس الحكم والسلطان ولكنه الحضارة والعمران .

وقد روجت هذه المدارس الاقليمية لفكرة الصفات الطبيعية التى يتصف بها شعب من الشعوب بينما جاء الاسلام لينشىء « شخصية » جامعة موحدة لكل المؤمنين بالقرآن والاسلام ، برغم هذه الفوارق القليلة التى تتصل بالأقليم أو الوطن .

(٢٢)

شبهات حول الحكومة الثيوقراطية واختيـــار الامام

ليس من المسلم به أن جائحة القوميات والاقليميـــات قــد نجحت فى القضاء على الفكرة الاســـلامية التى تقوم على الارتبـــاط بين فـــكرة أمة اسلامية واحدة وفكرة رئيس او امام (سياسى دينى) واجب لهذه الأمة .

وقــد تبين فساد دعوى القـــائلين بأن الشـــورى الاســـلامية هى الديمقراطيـــة الغربية أو قريبـــة منها ، أو القول بأن المساواة والبساطة التى كان يتحلى بها النبى واصحابه الأولون هى الديمقراطية .

لقد كان ظهور فـــكرة القومية التركية محاولة للقضاء على الوحـــدة الاســـلامية المتمثلة فى الخـــلافة العثمانية التى كانت تجمع بين العـــرب والترك فى دولة واحـــدة تحت لواء واحـــد ، ثم ظهور القومية العربيـــة وما انطلق بها خصـــوم الاسلام فى محاولة للقضاء على الوحدة الاسلامية كل هذا لم يحل دون بروز مفهوم الاســـلام كمنهج حيـــاة ونظـــام مجتمع وعامل تجميع بين المسلمين على أنه لون من الوان الدعوة الى الجامعـــة الاسلامية أو الوحدة الاســـلامية أو التضامن الاسلامى . ولقـــد حاولت قوى التغريب اثارة شـــبهة القول بأن الحكومة الاســـلامية كانت حكومة ثيوقراطيـــة على النحو الذى عرفته أوربا وقـــد تبين فساد هذه الدعوى وبطلانها ، ذلك أن الاســـلام لم يعرف هذه الحكومة التى تقوم على نفوذ رجال الدين وسلطانهم ذلك لأنه لا يوجد اساسا فى الاسلام ذلك الســـلك الـــكهنوتى الذى عرفه الغرب وانما يعرف علماء الدين وهم لم يكونوا فى يوم من الأيام رجال حكم ولا طلاب حكم .

كذلك فقد كشف علماء اهل السنة بقوةواستفاضة عن مبدأ «الاختيار» فى اقامة أمام المسلمين ازاء دعـــوى بعض النحـــل بأن امام المســـلمين معين بمقتضى النص وقد دافع اهل السنة عن مبدأ الاختيار الذى آمنوا به كسبيل لتولية الامام كما رفضوا دعوى «العصمة» للامام وكان من المبرزين فى ذلك القـــاضى البـــاقلانى (٤٠٣) فى كتابه التمهيد فى الرد على الملحدة والمعطلة والرافضـــة والخوارج والمعتزلة وعبد القاهر البغـــدادى (٤٢٩) فى كتابه أصول الدين والقـــاضى أبى ليلى محمد بن الحسن بن الفـــراء (٤٥٨) فى كتابه المعتمد فى أصـــول الدين وامام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجوينى (٤٧٨) فى كتابه الارشاد الى قواطع الأدلة فى أصول

الاعتقاد وابى حالد الغزالى (٥٠٥) فى كتابه فضائح الباطنية والقاضى أبى بكر بن العربى (٥٤٣) فى كتابه العواصم من القواصم والامام بن تيمية (٧٢٨) فى كتابه منهاج السنة وابن خلدون (٨٠٨) فى مقدمته .

وقد أفرد الباقلانى بابا مسهبا جعل عنوانه (باب الكلام فى ابطال النفى وتصحيح الاختيار) تعقب فيه النصوص التى يحتج بها القائلون بتعيين الامام بالنص سندا ودلالة — ذلك لأن أخبار الآحاد التى تدعيها بعض النحل فى النص على على بن أبى طالب أخبار قد عارضها اجماع المسلمين فى الصدر الأول على ابطالها وترك العمل بها فالأمة كلها انقادت لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ودانت بوجوب طاعتهما وفيهم على والعباس وعمار والمقداد وابو ذر والزبير بن العوام وكل من ادعى له النص وروى له وهذا الظاهر المعلوم من رجال الصحابة رضى الله عنهم لا يمكننا ولا أحدا منهم دفعه .

وبعد ابطال حجج القائلين بتعيين الامام بالنص خلص الباقلانى الى القول بأن الامام انما يصير اماما بعقد من يعقد له الامامة من أفاضل المسلمين الذين هم من أهل الحل والعقد والمؤتمنين على هذا الشأن لأنه ليس لها طريق الا النص أو الاختيار وفى فساد النص دليل على ثبوت الاختيار الذى نذهب اليه .

ويرفض الباقلانى دعوى الشيعة فى القول بعصمة الامام فانما الامام واحد من البشر المسلمين يخطىء ويصيب « وأما مايدل على أنه لا يجب أن يكون معصوما عالما بالغيب ولا تجميع الدين حتى لايشذ عليه شىء . فهو ان الامام انما ينصب لاقامة الأحكام وحدود وأمور قد شرعها الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد تقدم علم الأمة بها وهو فى جميع مايتولاه وكيل للأمة ونائب عنها وهى من ورائه فى تسديده وتقويمه واذكاره وتنبيهه واخذ الحق منه اذا وجب عليه وخلعه والاستبدال به متى اقترف مايوجب خلعه فليس يحتاج مع ذلك الى ان يكون معصوما كما لايحتاج أميره وقاضيه وجابى خراجه وصدقاته ان يكونوا معصومين » .

ويدل على هذا اعتراف الخلفاء الراشدين بأنهم غير معصومين .

وقال الامام بن القيم فى تفسير قوله تبارك وتعالى : (يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) قال : فأمر الله بطاعته وطاعة رسوله واعاد الفعل (وأطيعوا) اعلاما بأن طاعة الرسول تجب استقلالا من غير عرض ما أمر به على الكتاب ولم يأمر

بطاعة أولى الأمر اســـتقلالا بل حذف الفعل (وأطيعوا) وجعل طاعتهم فى ضمن طـــاعة الرســـول ايذانا بأنهم انما يطاعون تبعا لطاعة الرسول (أعلام الموقعين) .

(٢٣)

شبهات حول الخلافة الاسلامية

تثير القوى الأجنبية الشبهات حول الخـــلافة آلاســـلامية والوحـــدة الاســـلامية وتجددها دوما فى محاولة خسيسة من أجل خلق روح اليأس فى الدعاة الى الله بادعاء عدم صلاحية الاسلام للحكم .

وتنطلق الـــكتابات المسمومة من منطلق خاطىء أساسا وهو التفسير المسيحى للدين بالاضافة الى سوء القصد .

ان كلمة الدين فى الاســـلام يختلف عن مفهوم الغرب للمسيحية ، ولذلك فان محاولة تطبيق تجربة البابوية وآثارها على الخلافة الاسلامية غير صحيح . وهو مفهوم يختلف عن مفهوم كلمة دين فى الاســـلام ، ذلك لأن الدين فى ألاســـلام يعنى تصريف كل شـــئون الحيـــاة من عبـــادات ومعاملات وأحكام وقوانين وشرائع وأحلاف ومعاهـــدات وفق ارادة الله المثلة فى شرعه الذى أرسل به رســـوله محمدا صلى الله عليـــه وسلم وتضمنه القرآن الـــكريم والسنة النبوية الطاهرة .

ومن هنـــا يختلف مفهوم الدين فى الاســـلام عن مفهومه فى اليهودية أو المسيحية أو أى دين آخر ، وقـــد أدرك هذه الحقيقة بعض المستشرقين الذين كتبوا عن فلسفة الأديان أو الأديان المقارنة ، يقول هاملتون جب فى كتابه المجتمع الاســـلامى والغرب : « الشريعة الاســـلامية من النـــاحية النظرية تتنـــاول كل شيء فلم تكن كالقانون الـــكنسى فى المسيحية مجرد قانون دينى يقوم الى جانبـــه مستقلا عنه قانون مدنى لتنظيم بعض الشئون الدنيوية . عنـــدئذ صـــار واضحا ان الاسلام لم يكن مجرد عقائد دينية فردية وانما اســـتوجب اقامة مجتمع مستقل له أســـلوبه فى الحكم وله قوانينـــه وأنظمته الخاصـــة . ويقول دكتور شاخت : ان الاسلام يعنى أكثر من دين ، انه يمثل أيضـــا نظريات قانونية وسياسية وجملة القول انه نظام كامل يشمل الدين والدولة معا » .

ويقول أرنولد توينبى : فى الاسلام يتحد العنصران (الدين والدولة) فى كيان وحدة عضوية .

وقال جوزيف هل « ومثلما ايقظ الاسلام فى نفوس اتباعه الحاجة الى الحضارة وبعث فيهم الشعور بحب الخير وشكل حياتهم العامة والخاصة على السواء فان الفن الاسلامى الذى بدأ أصلا فى المسجد احتضن كذلك الحاجات الدنيوية لحياة الناس الخاصة والعامة .

ويكذب خصوم الاسلام حين يقولون ان الدين لم يكن فى جميع الأوقات عامل وحدة بأى شكل من الأشكال ، وهذا القول مخالف للواقع الذى عاشته البشرية ولا تزال تعيشه الى اليوم . ذلك ان الدين عامل من أهم عوامل الوحدة بين الشعوب وفى كثير من الأحيان كان هو العامل الوحيد كما هو الحال فى وحدة الأمة الاسلامية فى مختلف عصورها وكما حدث فى وحدة العالم المسيحى وتجمعه لضرب الاسلام فى الحروب الصليبية وكما يحدث اليوم فى تجمع اليهود من كل أطراف العالم لاقامة دولة اسرائيل .

كذلك فان وجود الفرق المختلفة فى الدين الواحد لا تمنع من التعاون والعمل المشترك للغايات الكبرى بين أبناء الدين الواحد .

فقد تلاشت الفوارق بين الكنيسة الكاثوليكية (ايطاليا وفرنسا) والبروتستانية (بريطانيا) والأرثوذكسية (بروسيا) فى سبيل القضاء على الخلافة الاسلامية واقتسام أسلابها بينهم كما حدث فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وما سبق ذلك من مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ .

ولقد كانت رابطة الوحدة الاسلامية الجامعة اقوى الروابط التى عرفها التاريخ وهى ماتزال أملا قويا تتطلع اليه قلوبهم باستهداف جمع شتات العالم الاسلامى لتقف سدا منيعا فى وجوه المستعمرين الغزاة فى كلا المعسكرين الرأسمالى الغربى والشيوعى السوفيتى .

وحين قامت كانت رابطة متماسكة الفت بين قلوب المسلمين ووحدت أهدافهم وصنعت منهم أمة الاسلام وامتدت أكثر من الف وثلاثمائة وخمسين عاما . وقد أشار الدكتور ولفرد كاتبول سميث ان مركز هذه القوة الموحدة هو الدستور الدينى الذى نظم ضمن تياره القوى المحكم كل شىء من شعائر الصلاة الى حقوق الملكية وقد منح ذلك الدستور الوحدة للمجتمع الاسلامى من قرطبة الى الملتان .

وقد وصف المستشرق الألمانى آدم متز بعد أن ذكر حدود الدولة الاسلامية التى تمتد من كاشغر فى أقصى الشرق الى السوس الأقصى فى الغرب والتى جمعت تحت رايتها بلاد العرب والهنود والصينيين والبلغار والأرمن والترك والصقالبة والسودان قال :

وكان المسلم يستطيع أن يرتحل فى داخل هـذه المملكة فى ظـل دينه وتحت رايتـه وفيها يجد ناس يعبدون الاله الواحد الذى يعبده ويصلون الصلاة التى يصليها وكذلك يجد شريعـة واحدة وعرفا وأحـدا وعادات واحدة . وكان يوجد فى هـذه المملكة الاسلامية قانون عملى يضـمن للمسـلم حق المواطـن بحيث يكون آمنـا على حريتـه الشخصـية أن يمسها أحد » .

وهكذا جمع الاسـلام بين الشعوب والأجناس المختلفة فى المـاضى ووحدهم فى أمة واحدة قوية البنيـان فهل لاتزال له القـدرة على جمع هذه الشعوب مرة أخرى . نعم . بل ان الوحدة الاسـلامية قائمـة فى قلوب المسلمين وجذوتها حيـة لم تخمد أبدا وهم جميعـا يتشوقون الى الوحدة الـكاملة بقيام دولة اسلامية تجمع شملهم وتوحد كلمتهم .

وقد دعا السلطان عبد الحميد الى الجامعة الاسلامية وتجاوبت مع قلوب المسلمين من كل فج مما أفزع الغرب وأوربا وجعلها تعمل على انهاء الخلافة وازالتها من الوجود . قال لوثروب : لقـد مر أكثر من ثلاثة عشر قرنا فمـا أوهن كرور هـذه القرون فى عضد الجامعة الاسلامية جانبـا وما ضعضع لها كيانا بل كلما تقادم عليها العهد وتناسخ الألوان ازدادت الجامعة الاسلامية شدة وقوة وقناعة واعتزازا .

وفى الواقع أنه ليس من دين فى الدنيا جامع لابنـائه بعضهم على بعض موحد لمشاعرهم ودافع بهم نحو الجامعة والاستمساك بعروتها كدين الاسـلام .

ان الغرب لا يفزع من شىء فزعه من الجامعة الاسلامية وقيام الدولة التى تجمع شمل العـالم الاسـلامى وتقوده على أسـاس واضـح من شريعة الاسلام .

ولذلك بذلت الدول الاسـتعمارية كل مافى وسعها لانهاء الخلافـة الاسـلامية وازالة آثارها من الوجود ومحاولة وضع الشعارات البـديلة كالقومية والاشـتراكية والآسـيوية والأفريقيـة وصـناعة القـادة الذين يتبنون هذه الشعارات .

وقد دخل الغرب فى مطلع هذا القرن عنـدما أعلن السلطان عبدالحميد الدعوة الى الجامعة الاسـلامية فأخذ يعمل ليل نهار لقتل الفـكرة فى مهدها قبل أن يستفحل خطرها .

قال توينبى : لفظة الجامعة الاسلامية المؤثرة — تلك التى استعملها اول الأمر السلطان عبد الحميد واصبحت منذ ذلك الحين بعبع الحكام الاستعماريين الغربيين ووصفت خطة السلطان عبد الحميد بأنها ابرز حوادث القرن « هذه الخطة الماهرة التى استطاع أن يظهر بها أمام ثلاثمائة مليون مسلم من المسلمين فى ثوب الخليفة الذى هو الرئيس الروحى فى الدين الاسلامى .

وقال هاملتون حب : ان لهذا النداء (الجامعة الاسلامية والجهاد) آثار نفسية بالغة فى روح الاسلام المجاهدة حتى لو طالت رقدة هذه الروح ، ذلك لأن النداء قد يوقظ فى العالم الاسلامى اصداء عهد بطولى » .

ومن أجل هذا الرعب والهلع من قيام دولة الاسلام الشاملة عملت الدول الأوربية كل مافى وسعها من جهود لاطفاء هذه الشعلة وانهاء الخلافة . وكانت اهم الخطوات التى اتبعت فى ذلك (١) اثارة نعرة القومية التركية بقيادة مصطفى كمال التى قامت بعزل السلطان سنة ١٩٢٤ ، وسلخ تركيا عن الاسلام (٢) اثارة القومية العربية ودفع العرب بقيادة الشريف حسين لحرب الأتراك (٣) تخريب خطة سكة حديد الحجاز بواسطة لورنس (٤) تقسيم البلاد العربية بين بريطانيا وفرنسا بموجب اتفاقية سايكس بيكو ١٩١٦ (٥) وعد بلفور باقامة الوطن اليهودى فى فلسطين وقد تحقق فعلا منذ سنة ١٩٤٨ (٦) عزل الشريف حسين بن على عندما طمع فى أن يكون خليفة عربيا للمسلمين عام ١٩٢٥ (٧) دعم الحكومات والزعماء الذين يناوءون الدعوة الاسلامية (٨) قيام الجامعة العربية التى انبثقت فكرتها فى مجلس العموم البريطانى فى تصريح وزير خارجية ايدن يوم ٢٤ فبراير ١٩٤٣ (٩) ضرب الحركات الاسلامية الجادة (١٠) نشر الالحاد والشيوعية والتحلل الخلقى بين المسلمين (١١) الدعوة الى احياء التراث الفرعونى والفينيقى والوثنى. (١٢) تقسيم أجزاء الوطن الاسلامى وبذر روح العداوة بينهما كتقسيم باكستان والصومال وسوريا ولبنان (١٣) تدعيم الأقليات النصرانية وتشجيع الحركات البهائية والقاديانية .

بهذه المخططات استطاع أعداء الاسلام أن يضعوا العراقيل فى وجه الوحدة الاسلامية الكاملة ولكن وعى الأمة الاسلامية قد ادرك هذه المؤامرات واخذ يعمل لتوحيد صفوفه .

(عطية محمد سعيد)

وقد كان من مؤامرات الاستشراق والغزو الثقافى محاولة الشيخ على عبد الرازق فى دعواه الى أن الخلافة ليست أصلا من أصول الحكم فى الاسلام وقد خالف الشيخ الدين ونصوص القرآن الكريم والسنة والنبوية وإجماع الأمة ، حين أنكر فرض الخلافة وفرض الجهاد وفرض القضاء ، وهذه كلها فروض أساسية من الدين بل انه أنكر شرع الاسلام فيما يتعلق بالمعاملات أى الشئون الاجتماعية وانكر وجوب التنفيذ . ولم يبق بعد ذلك من الاسلام الا أن يكون عقيدة فردية أو روحية دون أن يكون له صلة أو أثر فى الحياة الاجتماعية التى تشمل مصالح المجتمع والأفراد .

قال رشيد رضا : ان هذا القول هدم لحكم الاسلام وشرعه من أساسه وتفريق لجماعته وان الآراء التى احتواها كتاب الشيخ على عبد الرازق هدم لكثير من مقومات الاسلام والمجتمع الاسلامى وانها دعوة ما كان يمكن أن يقول بها مسلم فضلا عن عالم من خريجى الأزهر وقاض يحكم بهذا الشرع ، ويريد أن يشوه طبيعة الاسلام فيبطل جانبه العملى فلا يكون له أثر فى تحقيق مصالح الناس أو فى نظم المجتمع .

(٢٤)

شبهات حول الماسونية

قامت الماسونية بدور خفى طوال فترة طويلة فى البلاد العربية قبل أن ينكشف أمرها وقد اقترن تاريخ الماسونية فى البلاد العربية بتاريخ الاستعمار فيها وبلغت المحافل الماسونية فى مصر قبل الاحتلال ٢٩ محفلا كما انتشرت فى سورية ولبنان وتركزت فى فلسطين بهدف اعادة بناء هيكل سليمان التى هى هدف الماسونية وفى العقد الثانى من القرن العشرين كانت شبكة المحافل الماسونية تضم جميع مدن فلسطين وقصباتها ومنها القدس ويافا وغزة ، وكان رجال هذه المحافل يتولون أعلى المناصب فى فلسطين وممن أنيطت بهم قيادة القضية الفلسطينية وكان أربعة من أعضاء الوفد الفلسطينى الذى انتخب بقرار للسفر الى أوربا لمفاوضة الحكومة البريطانية ١٩٢١ من الماسون وكان عدد أعضاء الوفد ستة وكان المندوبون البريطانيون فى البلاد العربية ماسون وهم الذين يقومون بالعمل ، وكانت الماسونية من أخطر الدوافع وراء نشاط الخديوى عباس الثانى للوصول الى الخلافة .

وكان محفل الأفغانى الوطنى (تابعا للشرق الفرنسى) ٣٠٠ عضو من المفكرين والعلماء والوجهاء تمكن من أن يلعب دورا كبيرا فى تنحية

اسماعيل من منصب الخديوية وتولية توفيق وقد سكت الانجليز عنه طالما كان فى الماسونية الانجليزية وعندما خرج عليها وانشأ المحفل التابع للشرق الفرنسى واخذ يهاجم سياسة بريطانيا أشاروا على توفيق بضرورة التخلص منه .

وكان ولسلى القائد البريطانى الذى فتح مصر وقضى على ثورة عرابى ١٨٨٢ ماسونيا وقد سجل ذلك اثر الماسونية فى نجاح خطته فقال : اننى استسهلت الصعب وسخرت الأهوال فى كل البلاد لأنى حيث توجهت كنت القى اخوانا من الماسون يرحبون بى ويساعدوننى على ما أريد ولست ارتاب فى نجاحى لأنى استاذ فى الماسونية .

وقد كشف الباحثون عن شعار الماسونية الاخاء والمساواة فقالوا انه يعنى اخاء اليهودى ومساواته بغيره من المواطنين واطلاق حرية العمل له . وقد تكشف عن أن كلمة بناء أو البناء الحر انما تعنى العمل لاعادة بناء هيكل سلميان ويتحقق وصول العضو الى الدرجة العليا باندماج العضو فى الماسونية وتخليه عن جنسيته وقوميته ليكون رفيقا لليهود ويضع فى خدمة أهدافهم كل امكانياته .

وقال احمد غلوش : ان الماسونية حركة يهودية عالمية تستهدف اعادة اليهود الى ارض الميعاد فستظله شعارات خلابة مستندة على مادسه اليهود وما كتبوه بأيديهم فى التوراة والمزامير .

وقال بعض الباحثين : أن الماسونية تسعى لاقامة دين عالمى ولمحو الحدود القومية بين البشر واعتبرها البعض من الدوافع الرئيسية فى ثورة أكتوبر الشيوعية .

وقد استطاعت الماسونية ان تسيطر على الكنيسة والمسجد فى السنوات الأخيرة وكان أكبر انتصاراتها اعتراف الكنيسة الكاثوليكية بها. وكانت الكنيسة الكاثوليكية تنبذ كل فرد مسيحى يثبت لديها اشتراكه فى عضوية المحافل الماسونية وتسقط عنه الايمان المسيحى باعتبار أن الماسونية عقيدة صهيونية يهودية والغرض منها محاربة الأديان وتطويع المعتقدات الأخرى للسيطرة اليهودية . ولقد تحقق ذلك بعد عمل متصل فقد استطاع اليهود فى خلال السنوات المائة الأخيرة من السيطرة على العقلية الدينية المسيحية وامكنها تحقيق ما أطلق عليه ظاهرة تهويد المسلمين خصوصا ما يتعلق بطبيعة القضية الفلسطينية من الناحية الدينية ، ولقد كان توزيع الأساقفة الكاثوليك فى روما بيانا بالسماح

للـكاثوليك بالانضمام للمحـافل الماسونية دليـلا على استشراء النفـوذ الصهيونى داخل الـكنيسة ، وكيف بدأ تهويد العقليـة المسيحية ومسخ تقليدها الدينى ، وكانت الماسونية حـركة يهودية هـدفها القضـاء على المسيحية تمهيدا لتسلط اليهود على العالم .

ولقد كان الفلاسفة الملحدون المحاربون للـكنيسة على امتداد التاريخ الأوربى كلهم من المـاسون : ومنـذ انشاء المحفـل البريطـانى ١٧١٧ والماسونية تحـارب التعليم الدينى وتدعو الى تأسيس مدارس علمانيـة تقضى على نفوذ الـكنيسة .

وفى عام ١٨٥٦ بعد أن أصبح الماسون فى مركز القـوة وتبوأ كثير من رجالهم الـكثير من الوزارات والمناصب العليـا فى اوربا أصـدروا نشرة صريحة اعلنوا فيهـا موقفهم من الأديان وكانت بمثابة اعلان حـرب الأديان . ولا يرد ذكر لليهودية فى عداء الماسـونية للاديان يكشـف عن هويتها الحقيقية كحركة يهودية تهدف الى القضاء على المسيحية ثم جاءت وثيقة تبرئة اليهود من دم المسيح مع تأييد اليهود فى فلسطين .

ويرد عجاج نويهض انتشـار الماسونية فى البـلاد العربيـة الى سقوط السلطان عبد الحميد وتولى الاتحاديين الحكم فى الدولة العثمانية، هذه الجمـاعة التى نشأت فى محافل الماسـونية واستطاعت بوسائلها اسقاط السلطان عبد الحميد ، ومنـذ خلع عبد الحميد ١٩٠٩ فصـاعدا أخذت الماسونية مداها فى البلاد العربية . فأخذت تطرح وتعشش وتسرى شرا وتتغلغل فى المجتمع العربى الواقع على شـواطىء البحر المتوسـط يساعـدها ويشـد فى أزرها الانتـدابات الفرنسـية والانجليزية بعـد الحرب الأولى .

ويقول عجاج نويهض انه عندما ترجم بروتوكولات حكماء صهيون هاله ماراى من صلة وثيقـة بين واضـعى البروتوكولات والماسـونية ، حيث اتضح أن هـذه الماسونية العربية تدعى البروتوكولات ماسـونية الجويم وبأفضل تعبير ماسونية غير اليهود واخترعت للتضليل بين الشـعوب هذه الماسونية هى لخـدمة اصـحاب البروتوكولات فى الاتصـالات وصـنع المـكائد والمؤامرات تحت شـعار الأخوة والعـدالة والمساواة ولمـا وقع الانقـلاب العثمانى سنة ١٩٠٨ جعلت جمعية الاتحاد والترقى شـعارها هذا (حرية — اخاء — مساواة) وجعلت الحكومة جميع المدارس فى المملكة العثمانية تحفظ نشيد تركيا مبنيـا على هـذا الشعار وهو شعار ماسونى

ليوهموا الشباب بأن هـــدف الماسونية هو نشر الحرية والعدالة وكل هذا أكاذيب وأباطيل .

وعند أصحاب البروتوكولات لاتوجـــد ماسونيـــة وانما يوجد مجلس السنهدرين الأعلى الخفى المؤلف من عـــدة مئات من اســـاطين الهيود فى المال والاقتصاد والسياسة والعلم والنفوذ ولا يمكن أن تعرف هيئة هـــذا المجلس بوجه الحصر لتعمدهم الخفـــاء والتخفية وبين هؤلاء مقود حـــركة عالمية يحاولون ابدا اجتـــذابها الى ناحيتهم ولا تستطيع اسرائيل الســـير الا على تخطيط مجلس السنهدين ، ولـــكى يوغل الصهيونيون فى ايهـــام غيرهم فانهم يدخلون ماســـونية الجوتيم ليتمكنوا من توجيـــه القـــادة التوجيه الذى يريدون .

ومجلس السنهدرين هـــذا قـــد اتشح الخفاء ولم يزل له الهيمنـــة على يهود العالم قاطبة ولا تخرج اسرائيل من تحت فلـــكه ولا يذكر اسمه فى الصحف .

وقد اشار دزرائيلى اليهودى منـــذ عام ١٨٤٤ ان الذين يديرون دفة السياسة فى العالم ليسوا هم الذين فى دست الحكم ظـــاهرا وانما هم أولئك الذين يكمنون وراء الـــكواليس وقال والتر زنبينانو الوزير الألمـــانى اليهودى واليـــاس تنيوفرسال اسرائيلت اليهوديين ان ثـــلاثمائة رجل من رجال السياسة المتعـــارفين فيما بنهم يديرون الأمور فى أوربا والآن فى العالم كله وتنتخبون خلافهم وقال اسحق بيرم ان الشبكة التى القـــاها بنو اسرائيل تبتلع العالم يوما بعـــد يوم وانها آخذة فى الاتساع وان يوم انتقال ثروة العالم الى بنى اسرائيل ليس ببعيد .

وقـــد كتب بعض الباحثين عن خفـــايا الماســـونية فقال ان الهدف الأول والأساسى للماسونية هو تحقيق الهـــدف الذى نادت به بروتوكولات حكماء صهيون وهو الدســـتور الأساسى لدى الماسونية : ايجاد جمهورية اثوقراطية عالمية .

ذلك ان الماسونية هى الطائفـــة الوحيـــدة فى العالم التى تعمل ضد الأديان وتنـــاهض بحرارة الدعوات التحريرية أو التطلعـــات القومية أو التقاليد التى تتمسك بها الشعوب .

وقد جاء ان تعاليمها استمدت من تعـــاليم البطارقة وأسرار الوثنيين والمصـــدر الذى لا ريب فيـــه هو (الـــكابالا اليهـــودية) وهى مزيج من

الفلسفة والتعاليم الشعوذية التى اتخذت أساسا لانشاء المحفل الأكبر الماسونى بلندن ١٧١٧ واول داعية للماسونية هو اوليفر كرومويل.

وتضع الماسونية مثلها الأعلى (حيرام) عريف البنائين الذين قاموا ببناء هيكل سليمان .

وفى عام ١٨٨٢ عقد المؤتمر الماسونى العام الذى نادى بالتسلط الماسونى على العالم والتحكم فى مؤسساته ليلتف حول الماسونية الدهماء والسوقة .

وقد أكد كثير من الباحثين ان الماسونية هى التى تزيف الأديان الأخرى وتفتح الباب على مصراعيه لاعلاء اليهودية وانتصارها .

(٢٥)
افتراءات اليونسكو

اليونسكو : فرع من فروع هيئة الأمم المتحدة . والمسيطرون عليها يهود وهى تخدم أغراض اليهودية متذرعة باسم العالم والفن والثقافة .

ويحسن الظن بها بعض المسلمين وتتباهى بعض الدول الاسلامية بأن لديها مكاتب تابعة للامم المتحدة .

وقد أشار الى أخطارها كتاب : خطر اليهودية العالمية على الاسلام والمسيحية لعبد الله التل وكتاب (أوقفوا هذا السرطان : حقيقة الماسونية للدكتور سيف الدين البستانى الذى قال ان ٨٠ فى المائة من موظفى الأمم يهود فهناك ٤ آلاف موظف فى الأمم المتحدة يهود من بين ٥٠٠٠ موظف وان السكرتارية العامة للامم المتحدة ٩٠ فى المائة من موظفيها يهود وكذلك منظمة العلوم والفنون والثقافة (اليونسكو) .

وقد أصدرت منظمة اليونسكو كتابا اسمه « تاريخ الشعوب » .

حمل مجموعة من الشبهات التى ترمى الى الاساءة الى الاسلام جماعها ان الاسلام مشبع بالوثنية وانه تلفيق بين متناقضات أخذها من اليهودية والنصرانية . وقد واجه هذه الشبهات عديد من الباحثين وكشف الدكتور مصطفى كمال وصفى فساد هذا الرأى فقال ان الاسلام قد تبرأ من كافة مظاهر الشرك وشبهاته واستمسك بخالص التوحيد بلا شرك ولا تثليث ولا تمثيل ولا تشبيه ، وهذه القضية لا تحتاج الى

برهان فالمسلمون لا يعبدون الكعبة ولكنهم يعتقدون انها الشعار الجامع لاتجاه المسلمين وكل المسلمين فى العالم يتجهون الى القبله وليس هذا عبادة للقبلة ولكنه تنظيم للصفوف .

وليس صحيحا ماقيل من أن الاسلام ملفق من متناقضات الأديان وليس بين الأديان متناقضات لانها كلها من عند الله . وليس بين ما جاء به موسى وما جاء به عيسى وما جاء به محمد صلوات الله عليهم تناقض لأن ذلك كله دين الله . أما الانحراف فهو مافعل اليهود والنصارى فهم الذين اختلفوا بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم فلم يكن موسى يهوديا بل اليهود هم الذين هادوا (مالوا وانحرفوا) من بعده ولم يكن عيسى نصرانيا بل النصارى هم الذين قالوا (انا نصارى) وبدلوا ، بل كان موسى مسلما وعيسى مسلما ونحن — ايها المسلمون — نؤمن بهم لأنهم أنبياء المسلمون ولا يكون أنبياء المسلمين الا مسلمن والقول بأن هناك تناقضات بين ما جاء به موسى وعيسى يدل على ان القائل لذلك لا يؤمن بموسى ولا بعيسى ولا بمحمد صلوات الله عليهم ثم ان شرع من قبلنا شرع لنا مالم ينسخ .

هذا مصدر من المصادر الاسلامية للاحكام ولذلك فاتباعنا لما جاء به موسى وما جاء به عيسى — مالم ينسخ — هو أمر مقرر لا نزاع فيه تقريبا . فنحن لم نقع فى خطأ التناقض بل ان ديننا يعتمد سائر الأديان السماوية — كما أنزلت على الرسل والأنبياء — عن قصد وعن وعى لأنها متكاملة .

(٢٦)
شبهات حول الوحى

يقول حسيب السامرائى :

الوحى هو ما تعارف عليه شرعا بالطريق الذى يخبر الله به رسولا من رسله باصطفائه للرسالة ويبلغه عقائدها وشرائعها وآدابها وما يريد أن يطلعه عليه من انباء الغيب واتصال الله بالرسل عن طريق الوحى ، فاذا هو الدعامة الأولى التى تقوم عليها الرسالة . فالوحى جوهر الرسالة بما يوحى الله فيه من عقيدة الشرائع وما يكلف به النبى من دعوة الناس الى الدين .

لا تجد دينا من الأديان يخلو من فكرة الوحى مهما اختلفت المنازع فى تصويره فالتخلى عن فكرة الوحى تقويض للدين من أساسه لا سيما الأديان السماوية .

وتبدو ضرورة الوحى كاتصال الهى بالرسول يبلغ منها رسالته وتبدو جوهريته فى تحقيق معنى الرسالة بل ضرورته لفهم الوقائع الثانية، لا لأن الرسول لا يمكن أن يعتبر رسولا لله مبلغا عنه الا اذا اتصل الله به مباشرة أو بواسطة ، أى الا اذا أوحى اليه ، بل لأن الوحى كذلك هو التفسير الوحيد للظواهر الفكرية التى ظهرت على أيدى الأنبياء هؤلاء الذين لا تقدم لنا سوابق حياتهم مايكفينا فى عد أمثال هذه الظواهر نموا فى قواهم الفكرية أو ثمرة لجهود علمية أو تأثيرا طبيعية لبيئتهم الثقافية والاجتماعية .

وأوضح مثل لذلك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فبدون ثبوت الوحى يصبح القرآن أمرا متعذرا على الفهم ادراك مصدره وكيفية ظهوره على يده باعتباره ظاهرة فكرية فذة لا يمكن ارجاعها الى الذات المحمدية ولا الى شخصية انسانية اخرى .

وبدون ثبوت الوحى أيضا كأمر ممكن بل كحقيقة واقعة لا يكون لما يأتى ما يثبت للرسالة من الأحقية المطلقة فى التوجيه والارشاد بل فى العمل والحكم ، لأن هذه الأحقية التى تثبيت للرسالة لم تكسبها الا بقدر سننها وان لم تكن لها بمجرد ظهورها على يد الانسان مهما كان هذا الانسان فى أعلى طبقات السمو الانسانى وانما كانت لها كرسالة الهية، ولن تكون الرسالة كذلك الا أوحاها الله الى رسوله بطريقة ما .

فالوحى اساس لكل مايثبته للرسالة الالهية من خصائص ويتوقف عنده الذين اكتفوا فى فهمهم للكون بما تقدم لهم الملاحظة والتجربة الحسبة . والذين لايقبلون أمرا ما لحقيقة علمية مالم تخضع لهذه التجارب مهما قام عليه من الأدلة العقلية الصحيحة .

وقد ذكر اللغويون لكلمة الوحى عدة معان : الاشارة ، والكتابة، والرسالة ، والالهام ، الكلام الخفى ، الأمر والمكتوب وكل ما القيته الى غيرك والتسخير والرؤيا الصادقة .

فالوحى هو القاء المعنى فى النفس فى خفاء :

« وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب » .

وقد استعمل القرآن كلمة وحى ومشتقاتها خمسا وسبعين مرة فى سبعين آية منها مايراد منها عن القاء الله لأنبيائه مايريد تعريفهم به وتبليغهم اياه من الأحكام والأنباء . أو تعبير عما القاه اليهم من هذه الأحكام والأنباء.

وقد استعملت كلمةالوحى فى القران منوحى الله الى غير الأنبياء من الملائكة أو الناس أو الطير أو الأرض أو السماء .

ومن وحى النـــــاس بعضهم الى بعض ومن وحى الشياطين الى أوليائهم وهذا يختلف عن معنى وحى الله لأنبيائه .

لم يعرف القرآن حقيقة الوحى ولم يوضح كيفية الالقـــاء لأنبيـــائه وتبليغهم عنه أحكام الشرع وأسباب الغيب .

وابرز معالم الوحى : الالقاء والسرعة والخفاء

ذلك أن اعلام الله لنبى من الأنبياء بحكم شرعى أو نحوه هو اعلام متميز بالسرعة والخفاء .

وليست النبوة والرسالة من قبيل الملكات النفسية أو القرائن النوعية أو الصفات الحسية التى يفطر عليها صاحبها منذ النشأة الأولى بل لعل حقيقة النبوة فى وحى الله الى النبى مايوحيه الله من أنباء الغيب وحقائق الوجود .

(٢٧)

شبهات حول الفرعونيـــــة

يقول مرقص سميكه : لمـــا تغلبت الديانة المسيحية على مصر أبقى المتنصرون على كثير من هيـــاكل آلهتهم القـــديمة وحولوا معـــابد ايزيس وأوزيريس وهورس الى كنائس رفعوا فوقها الصلبـــان واستعاضوا عن صور الآلهة الدينية بصور الســـيد المسيح ورسله واستخدموا المـــذابح لتقديس العشاء الربانى .

ومن ذلك أصبح هناك المتحف المصرى للفرعونية ومتحف الاسكندرية لليونانية والرومانية والمتحف القبطى للعصر المسيحى وذلك تسجيل لتاريخ ماقبل الاسلام .

ولقد كان بروز الآثار الفرعونية واستمرار بقـــائها عاملا من عوامل الدهشة بتقدم العلوم فى عصر الفراعنة غير أن هـــذا التراث المـــادى الصرف لم يخلف آثارا فكرية أو منهجا ثقافيا يصلح للانتفاع به فى بنـــاء الحاضرة المعاصرة .

وقد قام العصر الفرعونى على أساس الوثنية فى العقيدة والعبودية فى العلاقات الاجتماعية وجاء الاسلام ليقضى على الوثنية والعبودية فى الحضارات الهندية والفارسية والرومانية والفرعونية جميعا وأحل محلها حضارة جديدة هى حضارة التوحيد والرحمة والاخاء الانسانى .

ولقد تبين مدى ((**الانقطاع الحضارى**)) بين مصر الفرعونية ومصر الاسلامية ، أن العصر الفرعونى توقف قبل أكثر من الف سنة قبل الاسلام . .

يقول الأستاذ صفوت منصور ، لقد توقفت علاقة مصر بالفرعونية منذ الف سنة قبل الاسلام . لقد انقطع التاريخ حقبة كبيرة من الزمن طالت لألف سنة أو تزيد انتهى فيها التاريخ الفرعونى وتعرضت مصر خلاله الى غزوات حضارية من الشمال والشرق وسادها الاضمحلال الأخير . منذ أواخر الأسرة السادسة والعشرين الفرعونية التى كانت تمثل صحوة الموت بالنسبة للتاريخ الفرعونى لمصر ، ولكن لم يقدر لمصر أن يحكمها فراعنة آخرون بعد ذلك التاريخ وطال دور الاحتضار الفرعونى لمدة أربعة أسرات تالية تخللها وأعقبها احتلال فارسى ويونانى وبطلمى ورومانى وبعد ذلك جاء الاسلام لمصر بحق لا ادعاء وبأصالة لابهوى وخاصة أن مصر قد حظيت برسالة من الرسائل التى أرسلها النبى صلى الله عليه وسلم الى الملوك والبلدان المجاورة ليدعوهم الى الدخول فى رسالة السماء التى بعث بها وأراد أن يكون خاتم الرسالات قبل انتقاله الى الرفيق الأعلى بسنوات .

ويقرر الباحثون أن دور الاحتضار للتاريخ الفرعونى لمصر أخذ أكثر من الف سنة مما يؤكد توقف الامتداد التاريخى للحضارة الفرعونية .

تقول كتب التاريخ : صارت مصر القديمة فى عصرنا الحاضر تتلقى الضربات من عناصر متباينة أفقدتها استقلالها ومن ذلك أنها تعرضت للغزو الفارسى ٥٢٥ ق.م على يد قمبيز ، وعاثت فى الأرض فسادا وعاملوا أهلها بقسوة ووحشية وجاء بعده دارا ٥١٧ ق.م الذى حاول التودد للمصريين ليمحو من أذهانهم قسوة قمبيز فرعى معابد الآلهة .

ولم تلبث مصر أن تخلصت من الاحتلال الفارسى ٤٩٠ واستعانوا على ذلك باليونان ثم تعرضت لغزوهم مرة أخرى ٣٤٠ ق.م ثم احتلها

الاسكندر الأكبر ٣٣٢ ق.م فدخلت بذلك فى عصور السيطرة الأغريقية ومن بعده البطالمة والرومان وخلد اسمه بتأسيس مدينة الاسكندرية ولكن حكمه لم يدم طويلا ، فقد توفى ٣٢٣ ق.م فتنازع القواد ملكه فدخلت مصر تحت حكم البطالمة ثم حررتهم قوة أجنبية ٣١ ق.م ولكنها وقعت تحت حكم الرومان وظلت فى تبعيتهم سبعة قرون .

ودخلت المسيحية مصر فى عهد الرومان وفى عهد دقلديانوس حدث اضطهاد كثير للمسيحيين حتى سمى عصر الشهداء ، وعاد القبط (أى سكان مصر) يرحبون بمن يفتح مصر غير الرومان ليخلصوهم من ذلك الاذلال والاضطهاد الذى طال واشتدت ضراوته الى أن جاء المنقذ والانقاذ على يد الاسلام وقائده عمرو بن العاص ٦٤١ م فرحبوا بهم وساعدوهم على دخول البلاد ودخلت مصر من ذلك التاريخ فى العهد الاسلامى الذى لم تتوقف مسيرته الى اليوم على حين توقفت مسيرة التاريخ الفرعونى ٥٢٥ ق.م بعد احتلال الفرس لها على يد قمبيز وما تلاه من غزو أجنبى يونانى وبطلمى ورومانى الى ٦٤١ حيث تم الفتح الاسلامى لمصر .

وهكذا يكون الامتداد الفرعونى قد قطع قبل الف سنة من دخول الاسلام .

(٢٨)
شبهات حول التفوق البشرى

تثير بعض القوى ذات النفوذ المالى والاقتصادى العالمى ولا تتوقف تلك الصيحات المتوالية تحت اسم الازدحام السكانى والانفجار السكانى وكلها دعوات مسمومة تستهدف الحفاظ على النفوذ الرأسمالى الذى تقوم عليه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى العالم والذى يمكن الدول الرأسمالية وزعماء الرأسمالية العالمية من البقاء فى مراكزهم الحالية، وقد جندت هذه القوى عشرات الأفلام فى البلاد الغربية وفى بلادنا لترديد هذه الصيحات .

وقد ترجم صاحب نحو النور بيانات عن كتاب هاك هيلان (مشكلة التضخم السكانى) : ترجمه محمد بدر الدين خليل بهدف تركيز هذه

المفاهيم فى نفوس النـــاس وتشير هـــذه البيانات الى الزيادات المطردة فى معدلات نمو السكان فى عالم الاســـلام وجفاف السكان فى العـــالم الغربى مما يثير انزعاجا شديدا للقوى العالمية المسيطرة على الحضـــارة والاقتصـــاد .

ومما يذكر أن القس مالتوس هو أول من أرسل هذه الصيحة منـــذ أوائل القرن الثامن عشر قائلا : انه اذا ماظل تزايد السكان على معـــدله وظلت مواد الغـــذاء والطعـــام على معدلها فان هناك كارثة سوف تحل بالعالم : هى كارثة المجاعة .

غير أن ماحذر منه مالتوس لم يقع بل وقع العكس مما حمل كثير من الاقتصاديين الغربيين وفى مقدمتهم هنرى تشارلس كيرى على أن يسخر منه . قائلا : هاهم السكان قـــد تزايدوا ولـــكن الثروة زادت اضـــعافا مضاعفة .

ولقد غفل مالتوس عن أن هنـــاك ثروات ضخمة مطمورة فى باطن الأرض لم يكن قـــد استوعب علمها ولم تكشف عن حقيقتها الا بعد ذلك بوقت وكان من أخطر ذلك البترول الذى غير منطق الحضارة والصـــناعة والعلم والحرب جميعا .

فضلا عن تدفق الأغذية من العالم الجديد ، وزاد ذلك تقدم الطب والوقاية فزادت نسبة المواليد وانخفضت معدلات الوفاة .

غير أن الظاهرة الخطيرة التى تجلت فى العقود الأخيرة هى انخفاض معدل الاخصاب فى الغرب الى حد كبير بينما زادت نسبة المواليد فى عالم الاسلام الى معدلات عالية جدا مما هز نفـــوس الرأسماليين واصـــحاب الثروات الغربيين بالتصور أن الأيدى العـــاملة الغربية سوف لا تستطيع بعد عقدين أو ثلاثة أن تكون قادرة على استمرارها فى امتلاك تلك الثروات وادارة المصـــانع والسيطرة على الاقتصـــاد بما يوحى أن توزيعا جـــديدا للثروة الاقتصـــادية سوف يقع وهو مايشبه الـــكارثة بالنسبة للحضـــارة الغربية الصناعية الحالية .

(٢٩)

شبهات حول تجارة الرقيق

كشفت الأبحاث التـاريخية المعـاصرة الدور الخطير الذى قام به الغرب فى تجارة الرقيق التى قامت بها الراسمالية الأوربية فى افريقيـا وذلك باختطاف الألوف من أهلها وابتيـاعهم ثم حملهم عبر الأطلنطى للعمل — والموت أيضا — فى مزارع القطن والسكر فى جزر الهنـد الغربية وفى الولايات المتحدة ، وقـد كانت هـذه بدورها تصـدر السكر والقطن الى أوربا الغربيـة .

يقول الدكتور مدثر عبد الـكريم : هذه التجارة الشنيعة لم تؤد لهدم حيـاة الملايين من الزنوج الأفريقيين وانزال أقسى ضروب العـذاب بهم وبذويهم فحسب ، وانما أدت كذلك الى تعـدية روح العنجهية العنصرية عند الأوربيين (وأضرابهم الأمريكيين) كما ادت الى انزال الزنوج من أسفل منزلة من منازل السلم العنصرى الذى صاغته عقلية المستعمرين الأوربيين اذ تصوروا انفسهم قمة الهرم وخلاصـة العالمين ثم رتبوا الأمم والشعوب دونهم مـراتب جعلوا أدناها الزنوج الأفريقيين وليس هـذا فحسب ، بل ذهب الشطط ببعض العنصريين الأوربيين الى حد زعموا فيـه أن الزنوج ليسوا بشرا البتـة وقالوا ان الزنجى ليس له روح فهو اذن على احسن الفروض وحشى ، كما قال الحـاكم العـام للسودان فى تقـريره ١٩٠٥ والا فهو شىء لا يرقى حتى لمرتبـة الوحشية والحيوانية ثم انه شىء شرير بل هـو رمز للشر والقبح بحيث اذا صور الأوربيون الآلهـة والملائـكة والنبيين وما ارتبط بها من معانى الخير والجمـال جعلوها بيضاء براقـة البياض بينما أصبح السواد فى عرفهم رمزا للشر وقبح والاحطاط .

وقد جاء كتاب (جذور) ضربة قوية للغربيين الذين حاولوا الصـاق هـذه التهمة بالعرب والأفارقة وكشف مؤلفة اليكس هيلى عن أن الذين

مارسوا هـذه التجارة على نطاق واسع وبأسـاليب مقنعـة وعلى مدى قرنين أو اكثر من الزمان هم الانجليز لمـا لهم من تخصص فى الذهاب الى أفريقيـا لشراء الرقيق واختيـار الأصناف المطلوبة منهم والمساومة على أثمانهم ومنهم من تخصص فى نقلهم فى باطن السفن الانجليزية عبر المحيط فى رحلات منظمة بالغة القسوة والعنف ومنهم من يتولى بيع الرقيق على الشواطىء الأفريقية لأصحاب مزارع القصب والقطن والذرة .

وقد تحـدث المؤلف عن أحوال أفريقيـا أيام قوتهـا ومجدها أيام امبراطورية غانا الإسلام ثم امبراطورية مالى وملوكها المسلمين الذين كان العالم المتحضر يتحدث عن قصورهم ومدارسهم وجامعـاتهم ورحلاتهم فى الحج الى مكة ثم ضعفت هـذه الدول الاسلامية وتفككت وبدا الأوربيون يتسربون الى أفريقيـا ويمارسون تجـارة الرقيق ابتـداء من منتصـف القرن السادس عشر الى أن بلغت أوجها على أيدى الانجليز فجعلوا منها تجارة رائجة رابحة .

وقال : ان الانجليز الذين استثمروا أموالهم فى تجـارة الرقيق أثروا ثراء ضخما وبدات الأموال تتكـدس فى انجلترا . وكانت أحـد مصـادر الثروة الصناعية .

وقال : ان هنـاك من التقديرات مايذهب الى أنه خرج من أفريقيا عشرون مليونا من الشبان والصبية والفتيـات عصفت الأمراض والأوبئـة بعدد كبير منها ربما وصل نصف هـذا العدد وقد أضعفت تجـارة الرقيق أفريقيا لأنها أخذت منها أقوى عناصرها .

وقال : انه رغم هذه الحقائق التاريخية فقد ظل النـاس يقرءون فى كتب التـاريخ ان تجـارة الرقيق فى أفريقيا كانت تجارة عربية يجد منها التجار العرب الذين يسرقون أو يخطفون الأولاد والبنـات ويصدرونهم الى الجزيرة العربية وما وراءها من بلاد المسلمين ليكونوا رقيق وجوارى غير أن تجارة الرقيق بدأت فى القرن السادس عشر وازدهرت فى القرون الثلاثة التالية أى عندما بدأ النفوذ العربى ينكمش وينحسر فى تلك المطقة فضعفت وتفككت امبراطورية غانا ثم امبراطورية مالا الـكبيرة وانزوى هذا النفوذ.

(٣٠)
شبهة موسيقى القرآن

ترددت شبهات كثيرة تحمل دعوى باطلة هى وضع موسيقى للقرآن الكريم بما يعنى اخضاع القرآن للفنون البشرية التى صنعتها الأهواء المضلة .

يقول الأستاذ أحمد حسن الباقورى: ان للقرآن الكريم موسيقاه الخاصة به التى أخذها أسلافنا عن رسول الله وأصحابه وتقيد بها الأخلاف حتى يوم الناس هذا ، وهى مانعرفه اليوم باسم تجويد القرآن الذى ارتضته الأمة وتلقته بالقبول حريصة عليه أشد الحرص .

وفن التجويد أو موسيقى القرآن يقوم أول مايقوم على كون الكلمات القرآنية خفيفة النطق على اللسان ، جميلة الوقع فى الآذان ، فليس فى الكتاب الكريم كلمة بغير هذه الصفة ، ثم يجىء بعد ذلك نظم الكلمات بعضها مع بعض خاضعا لقواعد مرسومة فى الغنة التى هى صوت يخرج من الخيشوم فيه جمال ولو كان صوت صاحبه غير جميل ثم تجىء بعد الفتنة قاعدة الادغام والاظهار والقلب وهمس الحروف وجهرها وتضخيمها وترقيقها والمد الطبيعى والمد المتصل والمد المنفصل والمد العارض للسكون .

فهذه هذه القواعد التى تتكون منها موسيقى القرآن ثم يجىء بعد ذلك تلوين الصوت وله صورتان الأولى ما أشارت اليه الآية الكريمة « ورتل القرآن ترتيلا » فالترتيل هو التزام التؤدة بغير اسراع فى القرآن والثانية هى ما اشار اليه الحديث الشريف « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » أى من لم يحسن صوته بالقرآن تلك هى موسيقى القرآن ليست الا اتباعا لرسول الله ونزولا على كلمة وليست ابتداعا منحرفا ولا تجديدا هداما ، أما أولئك الذين يحاولون وضع القرآن فى لحون تستصحب الآلات الموسيقية انما يعرضون كتاب الله لأشد محنة تمتحن بها الأمة الاسلامية فى الكتاب الكريم وكل تحريف بحذف كلمة من آية أو تغيير شكلة من حرف من شأنه أن يهيج عواطف المسلمين فى كل مكان وقد رأينا

النـــاس يثورون اشد الثورة على مثل هذه التغييرات ينسبونها الى كيـــد صهيونى يتربص بالاسلام عن هـــذا الطريق وتلحين القرآن مصاحب بآلات اللهو والطرب هجوم على قـــداسة القرآن ولا يشك مسلم ان من ورائه دعوة خبيثـــة وعداوة متربصة تريد أن تلحق القـــرآن بالأغانى التى تميل مع الهوى بغير حدود ولا قيود واخشى مانخشاه أن يكون وراء اصـــحاب الدعوة يد دخيلة تتآمر بالاسلام والمسلمين فى أعز حصن تلوذ به الآمة فى مختلف شئونها الموصولة بالدنيا والدين .

(٣١)
شبهات حول اللغة العربية

تواجه اللغة العربيـــة الفصحى شبهات عـــديدة ومحاولات خطيرة لتغليب العـــامية عليها وأهم تلك المحاولات هى الحيلولة دون تعلم العلوم والطب بها بعـــد أن نجحت تجربة تعلم الطب والعلوم فى جامعة دمشق منذ بضعة عشر سنة .

ولا ريب أن موضوع تعريب العلوم وترجمتها الى اللغـــة العربيـــة ضرورة لا سبيل الى تجاوزها كمقـــدمة لاستيعاب التكنولوجيـــا العصرية واقامة منهج علمى اســـلامى عربى الأصـــول . ولم يعد من الجائز الآن أن يطرح مبدأ : هل تصلح هـــذه اللغـــة لأن تكون لغـــة العلم أو لا فقد انتهت الفترة التـــاريخية التى كانت تطرح فيها هذه القضـــية للمنـــاقشة وقد مرت اللغـــة العربية بهذه التجربة وقد كشفت تجربة دمشق أنه لابد من التعريب من أجل بنـــاء حضارة اسلامية عربية اللغة واصبحت الشعوب تدرك أنه لا يمكنها الوصـــول الى حد الابداع والمشاركة الأصـــيلة الا من خلال لغـــاتها ، وان التعليم باللغـــة الأجنبيـــة دليل الضعف وعدم الثقة وخمول العزيمـــة فى أهلها وممـــا يذكر أن تعليم الطب فى القصر العينى استمر سبعين سنة باللغـــة العربية ثم احتل الانجليز مصر فـــكان من اكبر أعمالهم الحيلولة دون بقـــاء اللغـــة العربية لغـــة لتـــدريس الطب والعلوم .

وقد تبين أنه لابد لتعريبتدريس العلوم والطبأولا ايجاد المصطلحات وقد نجح تعلم الطب باللغة العربية وتبين أن تدريس العلوم باللغة العربية ميسر : الهندسة والطب والعلوم .

وقــد أمكن تخطى العقبــات والمصاعب ووضع المصطلحات العربية وتبين أن السبب فى تهرب البعض من تعليم العلوم باللغــة العربية هو قلة الاقدام وعدم الاعتماد على النفس .

وقــد أمكن التقدم فى هذا الطريق طويلا على جميع جبهات العلوم وليس تعلم العلوم باللغــات الأجنبية هو وحده التحدى ولــكن هنــاك التحدى الذى يواجه اللغــة العربية بالعــاميات ومحاولة كتابة اللغــة بالحروف اللاتينيــة .

يقول العــلامة مالك بن نبى : ان استعمال اللغــة الأجنبيــة فى تدريس العلوم بوجه خاص فى البــلاد العربية هو نفســه علامة الفشل فى استيعاب تلك العلوم وجعلها خارج نطاق حياتنا الفكرية بحيث تبقى الصلة بينها وبيننــا صلة سطحية لا نغير نحن فيها شيئا ولا تغير هى فينا شيئا بينما نرى فى المجتمعات الحيــة أن هاته الصلة تتغير يوميا وتجعل الفرد يهيمن أكثر فأكثر لا على هضم العلوم فحسب ولــكن على تقــدمها والسير بها قــدما . مثل اسرائيل التى أعادت لغــة ماتت منذ ثلاثة آلاف سنة وأعادت لها هيمنتها على استيعاب كل العلوم والفنون والسير بهــا الى الأمام ، وكما يحدث فى اليابان والصين وكما حــدث ذلك فى حظيرة الحضارة الاسلامية عند بزوغها فانها لم تلبث قليلا الا وقد استوعبت فى اللغة العربيــة الفصحى فى لغــة تحطــان كل العلوم اليونانيــة بكل فروعها من هندسة وطب وفلسفة .

(٣٢)

شبهات حول مهمة الجامعة

تكشفت من خلال بعض الدراســات الجامعيــة فى البــلاد العربية مخططات ترمى الى مهاجمة القيم الأساسية وخدمة النفوذ الأجنبى وتحويل هوية الأمة الى تغريب كامل تحت اسم العقل الحر والفكر الحر ، وقــد واجه السيد محب الدين الخطيب هــذه المحاولة فقال : ان كل جامعة فى الدنيا مطالبة فى البيئــة التى نشأت فيها بأمرين اثنين : أولهما أن يتنزه القائمون بها عن كل موجدة نحو دين البلاد ومقدساتها وحقوقها فلا يتخذوا من البحث العلمى وحرية الرأى وسائل لتوهين رابطة النشء المثقف بدينه

وقوميته ومقدساته ولا سيما اذا كان دينهم صـديقا للعلم وداعيا الى الحق وآخذا بيد المعرفة ينشطها ويرفع مقامها ، وفى مصر أناس تعرفهم بأعيانهم وتعرف أتباعهم بسيماهم لايفتأون يعملون على توهين رابطة النشء بالدين وتهوين أمره عليهم وتشكيكهم فيـه وما فتئوا يحاولون اقناعهم بأن الحقائق تخالفه وانه واقف حجر عثرة فى طريقها .

والواقع أنهم لم يتحرروا من مؤثرات بيئتهم الا ليتدثروا بمؤثرات بيئة أجنبية عنهم ولم تتحرر أفكارهم من قيود التقاليد الاسلامية الا ليصفدوها بأغلال تقاليد أخرى غريبـة عنهم ، فسدنة هيكل الجامعة يجب أن يحرصوا على أن يعرفوا فى أمتهم بأنهم محررون من الضـغن لمقدساتها ويجب أن يتنزهوا عن أن تحفظ عنهم كلمة أو حركة تدل على أن لهم هوى يميل بهم الى جهة معينـة ويصبغهم بلون يعرفون به . أما الذى يقنع أمته فى كل أدوار حياته بأنه منغمس فى هـذا الهوى الى أذنيـه ، مصطبغ باللون الخاص الذى يجافى به الانصـاف والاعتـدال ولا يغسل وجهه منـه ، فليعذر الناس اذا اعتبروه من أعداء الحقيقة لا من سدنتها وأنصارها .

والأمر الذى نطالب به الجامعة أن تقوم بمهمة البعث لناصر هـذه البيئـة وأن تجدد حياتها المعنوية فالجامعات الايطالية تنحو اليوم بالفعل احيـاء مجد الرومانيين واقتنـاع الطلبة الجامعيين بأن من واجبهم اكمال سلسلة التاريخ التى ابتدأها قيـاصرة روما ، والجامعات الألمانية تعلم أن لها وظيفة روحية لاتنافى وطبيعتها نحو حقائق العلم .

أن لمصر مكانة فى المجتمع الاسلامى والبلاد العربية .

ومن مقتضى ذلك أن يكون الجيل القائم الآن فى مصر والأجيال التى ستلحقه حلقات فى سلسلة التاريخ الاسلامى .

وهى لا تكون كذلك عن جدارة واستحقاق الا اذا اعترفت الجامعـة المصرية بأنها الهيكل العلمى والثقافى لبلاد اسلامية عربية ، وان من واجبها للاسلام الذى هو دين المصريين وللعربيـة التى هى لغة المصريين ان تحمل لواء محاسنهما وأمجادهما كما تحمل لواء العلم المجرد والعقل الحر والفكر المطلق ، وان هـذا لا ينـافى هذا ، ومن زعم أنه ينافيه فهو غشاش ،

وكما أن الاسلام لا يقف فى طريق العلم فى مصر ولا فى غير مصر فيجب على هيكل العلم فى مصر وفى غير مصر الا يقف عن طريق الاسلام . نريد نشأ مثقفا عالمـا ولـكنا نريده نشئا مسلما عربيا وكلما أبطأ القائمون على أمر الجامعة فى فهمهذه الحقيقة تأخروا بمصر عنأخذ مكانتها التى تستحقها وكانوا بذلك مسيئين الى وطنهم .

***

وتقول الدكتورة بنت الشاطىء : لقد كانت محنة الجامعة بالحزبيـة التى سمحت وجودها العلمى لاتقل عن محنتها بتغلغل النفوذ الاستعمارى الذى اتخذ من مناطق معينـة منها قاعدة لتدمير معنويات الأمة ومجال غزو فـكرى يظاهر ما اجتـاح وجودنا العام من غزو مثله عن طريق مؤسسات الثقافة الأجنبية وأجهزة دعايتها المدربة .

انه من الممكن أن نهضم الثقافات الغربية دون أتخاذها أصلا ننسى فيه أصلنا ومن الممكن أن نبنى حياتنا الجديدة فوق أرضنا مع اخصـابها بمستورد من جديد الفكر .

ومن خطأ القول بأن علينـا أن نتمثل الحيـاة الأوربية والاحساس الأوربى هـذا جانب من طبيعتنـا يرفض تمثل الاحساس الأجنبى اذا لم يمت الينا بسبب من الأسباب .

وكان من الممكن أن يتيح لنا وعينا القومى هضم الثقافات الأجنبيـة دون أن يجور ذلك على أصالتنا وان نستصفى منها مايخصب تربتنا ويثرى وجودنا ويوسع آفاقنا .

ان هؤلاء يفقدون فى زهو العصرية ملامح أصالتهم ، عقولهم مشدودة الى الغرب ، مأخوذة بفتنته وهم مع ذلك عاجزون وان جهلوا عجزهم أو تحدوه مكابرين عن التخلص من احتطام الميراث الذى تأصـل فى أعمـاق كيانهم .

ومن هنا كان لابد أن نبدأ بتقديم الثقافات والآداب الأجنبية الى جيل الغد قبل الاطمئنان الى أنهم اتصلوا بثقافتهم وأدبهم القومى اتصالا وثيقا يكفى لأن يصنع أساس تكوينهم العقلى والوجدانى .

ولا يقرأ تاريخ دولة اجنبية قبل أن يكون قد وعى تاريخ امته أو كان يتقن لغة مستعارة قبل أن يفقه لغة قومه .

هل الاتصال بالقديم والكشف عن اعماق وجودنا يوصم بالتخلف بينما اعادة مسرحيات شكسبير يعتبر خطوة تقدمية ، واذا ماعشنا فى اساطير شعوب بادت من زيوس وباخوس وجوبيتر وما لا ادرى من آلهة خرافية فنحن عصريون مجددون ؟ أما أبو العلاء والمتنبى فهو تخلف (١) .

(٣٣)
شبهات حول تمثيل الصحابة

ترددت دعوات باطلة ترمى الى تمثيل اهل البيت وجلة الصحابة وقد عزى هذا الى مخطط صادر عن قوى مضادة للاسلام ، كذلك المخطط الذى استهدف ترجمة نص القرآن قبل ربع قرن أو تزيد يقول الدكتور محمد سعاد جلال :

ان امتناع تمثيل آل البيت الكرام وصحابته الاعلام شرعا فذلك ثابت بالأدلة الآتية :

أولا : قوله تعالى : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا » ولا ريب أن تمثيل شخصيات هؤلاء العظماء ممتنع عقلا ويؤدى الى تشويه صور حياتهم فى نفوس الناس واستصغارها على صغر نفوس الممثلين عن اللحاق باستغراق عظمة المعنى والحقيقة فى نفوس أولئك العظماء ، وامكان تقديمها للنظارة فى جلالها التى كانت عليه ولما كان القدر المشترك فى كل أقسام التمثيل هو طلب الفرجة والتسلية على المناظر المعروضة ، مما لا يخلو عن شىء من معانى اللعب النفسى بالمشاهد المعروضة . وتعريض تاريخ آل البيت وصور حياتهم لهاتين النقيصتين . ولا شك هو مناف للطهارة التى حكم النص بثبوتها لآل البيت فهذا بيان جهة الاستدلال بالآية الكريمة ، واذا ثبت وجوب

---

(١) نقل بتصرف .

توقير النبى صلى الله عليه وسلم وتعظيمه (وهو ثابت) بما يحرم تحريما قاطعا الاقـــدام على تمثيل شخصيته المقدسة ثبت بنـــاء على ذلك تحريم تمثيل آل بيته الـــكرام الحاقا به — عليه السلام .

ولمــا كان الحق تبارك وتعالى قـــد حكى عنه « قل لا أسألكم عليه اجرا الا المودة فى القربى » فان مفاد النص ان النبى لا يسأل الأمة اجرا على نعمة الرسالة وكرامة الهـــداية التى جاءهم بها من لدن الله ، الا ان يوادوه فى قرابته من أهل بيتـــه بتعظيمهم وتوقيرهم له والامتناع عن الحاق الأذى بهم ولا شك ان وضع صور حيـــاة آل البيت وأشخاصهم فى موضع الفرجة واحتمال الغلط والتشويه والتنقص لشخصياتهم، مناف لحكم الآية ، مضـــاد لوصيته — عليه السلام — للأمة بمودة قرابتـــه وخفض الجناح لهم وهى وصية فيها معنى الالزام والايجاب .

ويقول الدكتور سعاد جلال :

ان الدليل على تحريم تمثيل الصحابة — رضى الله عنهم — يجىء من وجهين :

الأول : تعظيم النبى لأصـــحابه ودعـــوة المسلمين لتعظيمهم فمـــن ذلك قوله :

(الله الله فى أصحابى) وقوله (أصحابى كالنجوم بأيهم اقتـــديتم اهتديتم) وهو حـــديث مستشهد به وان كان فيه مقال .

وقوله غيرة على عمار بن ياسر : (من سب عمارا سبه الله ومن اغضب عمارا غضب الله عليه) .

وقوله فى حق سلمان الفارسى (سلمان منا آل البيت) .

فهل هـــذا التعظيم كله لصحابته — عليه السلام — خلا من نكص على عقبيه منهم بعد موته — دليل مانع للمسلمين من الاقـــدام على ابتذال شخصياتهم بتمثيلها واجرائها على اللهو والفرجـــة مجرى مايلعب به من صور الأشياء وأخيلتها .

الثانى : انه تقرر فى القرآن أن اهل الأنبيـــاء هم اهلهم فى الديانة والمذهب ، ليس فى القرابة والدم ، بدليل قوله تعالى : فى قصـــة نوح حين قال : « ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق » .

فرد الله عليه بقوله تعالى : « انه ليس من أهلك انه عمل غـــير صـــالح » .

ومعنى الرد : بما أن ولدك لم يعمل بديانتك ولم يدخل فى عقيـــدتك معك فهو لا يعد من أهلك لأن أهـــل الأنبيـــاء من كانوا اهلهم فى الديانة والمذهب لا فى الدم والنسب .

اذا تقرر هذا المبـــدأ الشرعى الثابت بالقرآن ثبت أن أصحاب النبى عليه الصـــلاة والسلام هم أهله المعتبرون شرعا فيـــأخذون أحكام أهـــل قرابتـــه المؤمنين به من بعض الوجوه وأقربها وأظهرها الحاقهم بقرابتـــه المؤمنين به فيما يجب لهم من الحرية والتعظيم والصون عن الابتـــذال فان هذا مقتضى الدليل مع عدم المانع .

ولقـــد ظن بعض الـــكتاب أن تمثيل احدى الروايات المتضمنة لتمثيل بعض شخصيات آل البيت العظـــام وبعض الصحابة الـــكرام مباح لايجوز حظره بحجة العمل بمبـــدأ حـــرية الفكر . وقد فات ملاحظة هذا الـــكاتب الفرق بين حرية الفكر التى لا تتجاوز الاعلان عن الراى وتنفيذ الموضـــوع أو البنـــاء الذى يتعلق به ابداء الرأى . أما الاعلام بالراى فهو داخل فى نطاق حرية الفكر لا نزاع فى ذلك ، أما تنفيذ المشروع أو البناء الذى تعلق به الراى فليس داخلا فى مفهوم حـــرية الفكر فهو لا يصح ابرازه الى حيز الوجود الا بموافقـــة أغلبية من تتعلق حقوقهم المـــادية أو المعنوية بهذا الموضـــوع » .

والمعروف أن التمثيل سيكون صورة ناقصـــة بآلاف الدرجات لهؤلاء الصحابة وهـــذا يؤدى ان لم يكن يعنى الى وضع السلف فى نقط الخلف فى صورة اقل من مستواهم الحقيقى .

(٣٤)

شبهات حول مفهوم القوميات والاقليميات

ان طرح نظريات القوميات والاقليميات فى محيط وحدة عالم الاسلام وفكره انما تستهدف تمزيق هذه الأمة والقضاء على روح الاخاء الاسلامى والتعارف الجامع للشعوب التى ضمها الاسلام .

وفى راى الفيلسوف المسلم اقبال : ان الانسانية لن تستريح أبدا مادامت تسودها هذه النظرية المشئومة التى تقطعها اربا اربا بحيث لايكاد الصدع يلتئم » .

لقد أخذت نظرية القوميات مفهوم العنصرية وايقاع الخلاف والصراع بين الجيرة المتلاقية ، واثارة العصبيات التى أدت الى الحروب والعداوات

لقد كان رواد اثارة دعاوى القوميات والاقليمات هدف بعيد المدى هو غرس العنصرية الصهيونية على انها قومية تضارع العروبة ، وقد سبقتها الدعوة لاخراج الدولة العثمانية من وحدتها الجامعة بين الترك والعرب بالدعوة الى الطورانية التى حملت لواء العنصرية البغيضة ، ولما كانت تركيا هى صاحبة النفوذ الحاكم فقد تعرضت العروبة لخصومة شديدة من الاتحاديين الذين حملوا لواء الطورانية لتمزيق وحدة المسلمين عربا وتركا وكان ذلك لحساب الصهونية .

لقد كانت فكرة القوميات فى الغرب محاولة للقضاء على الوحدة المسيحية الأوربية من أجل ادخال نفوذ اليهود الذين كانوا محصورين فى الجيتو ، وكان قضاؤهم على الوحدة المسيحية عاملا لاعلاء شأن الاقليمية أو القومية التىيتمكنون من خلالها من الوثوب الىمراكز النفوذ والسلطان. ثم جرت المحاولات للقضاء على الوحدة الاسلامية التى كانت تمثلها دولة الخلافة لفتح الطريق أمام الصهيونية الى فلسطين .

ولقد جرت المحاولات لادخال مفهوم القومية الغربى الى تصوير العلاقة بين العروبة والاسلام مع الاختلاف البعيد ، فالاسلام هو الذى صنع وحدة العرب .

وقد خدعت دعوة القوميةكثيرون وظنوا انها طريقموصل لعزة العرب ولـكن التجربة كشفت عن فساد هذا الخط الوافد حين انحرف عن مفهوم الترابط الجامع بين العروبة والاسلام ، وحين تسلطت قـوى التغـريب ففرغت العروبة من مفهومها الأصيل والتمست مفهوما علمانيا خادعا مفرغا من كل القيم .

وقد كانت دعوى القومية العربيـة كما يقول الأستاذ محمد رشـاد خليل حربا على الأمة العربية الاسلامية ومنها مصر ، وكانت دعوة العروبة هى الشرك المنصوب لاصطياد السذج باسم حقائق التاريخ حين عجزالقوم عن فهم حقيقـة النوايا المستترة وراءها فالعروبية المعـاصرة هذه تعنى ماكانت تعنيـه الشعوبية فى القديم ، والشعوبية مصطلح أطلقه المسلمون الواعون بحقـائق دينهم وأمتهم وتاريخهم ممن حسن مسلامهم من العرب والفـرس والترك على جميع الذين حاربوا الاسـلام تحت ستار عصبية الجنس . فالعروبية الحديثة لاتضرب الاسلام فقط ولـكنها تضرب العرب، وقـد نشأت القومية العربية (العروبية الحديثـة) نشأة مركبة فى حجر المـدارس الارساليـة الفرنسـية والأمريكية ذات الأهـداف التبشيرية والاسـتعمارية وعلى ايدى المسيحيين اللبنـانيين والسـوريين خاصـة والمارونيين اللبنـانيين على الأخص . وكانت الوجهة تنمية الاهتمام ببعث الحضارات القـديمة التى ازدهرت فى البلاد التى يشغلها المسلمون الآن وكان للـكلية السورية الانجيلية دورها فى بعث النعرة العروبيـة التى اصبحت الآن الجامعة الأمريكية فى بيروت فمن هذه المدرسة خرجت كل رءوس الثعـابين التى نفثت سمومها فى الشام ومصر تحت ستار القومية العربية ، وأول جمعيـة سرية كان كل اعضائها من المسيحيين اللبنانيين وكان هدفها الأساسى هو التفرقة بين العرب والترك . وكانت تستهدف احداث انقلاب داخلى ضـد الاسلام والجماعة الاسـلامية تحت سـتار الخدمة التعليمية مجندة لهـذا العمل أبنـاء الطائفـة المسيحية المارونية . وكان الموارنة بحكم انتمائهم المشبوه وعلاقاتهم التاريخية المدموغة بالخيانة مع الصليبيين قـديما هم أصلح العناصر لتنفيذ مخططات الصليبية الجديدة وبذلك كانت أول جمعية عروبية غير عربية . كانت مكونة من أناس ليسوا عربا لا من ناحية الانتماء ولا من ناحية الغايات والأهداف .

ومن سمومهم قولهم بأن الاسلام نفسه هو تراث عربى شأنه شأن الشعر الجاهلى واللغة العربيـــة وظهر البعث العربى الذى يشيد برسول الله باعتباره بطلا عربيا ويشيد برسالة الاسلام باعتبارها رسالة عربيـــة انسانية وهذا هو خط حزب البعث .

وقد صب مفهومهم اللبنانى المسيحى فى قالب الأمة : الدعوة الى أمة عربيـــة تكون منفصلة فى أساسها الدينى الذى قامت عليه وتسوىتسوية كاملة ومطلقـــة بين المسلمين والمسيحيين فى جميع النـــواحى ، على ان يكون الضامن لاستمرار هـــذه المساواة حماية أبدية من قبل أوربا الليبرالية وفرنسا الكاثوليكية . وكان جرجى زيدان ونجيب عازورى من كبار المزيفين لمفهوم العروبة ، فقـــد نادى الأخـــير بأمة عربيـــة واحـــدة للمسيحيين والمسلمين على السواء وجعل حـــدود الأمة العربية مقصورة على الناطقين بالضاد فى آسيا فقط دون مصر وشمال أفريقيا . وفى نطاق هذا التفكير العروبى : دعوة عزيز المصرى للجمعيـــة القحطانية والعربية الفتاة التى شكلها فارس الخورى وشكرى القوتلى وجمعية العهد التى شكلها عزيز المصرى بعد فشل القحطانية .

وقد كانت العروبيـــة حركة علمانية موجهة من المسيحيين اللبنـــانيين والسوريين ومن الغربيين واليهود ضـــد الاسلام والجامعة الاسلامية وقد نشأ جميع الداعين اليها اما فى مدارس تبشيرية خالصة واما فى جامعات غربية خاصة فرنسا ، أو فى مدارس عربيـــة ذات منهـــاج غربى مشبع الى أقصى حد بالعـــداء ضـــد الدين وبفكرة فصل الدين عن السياســـة وبالاعتقـــاد بأن الروابط القومية هى التى توجـــد المجتمع سياسيا على عكس المعتقـــدات الدينيـــة التى تفرق بينهم ، من أجل ذلك عملوا على يكون الحكم الوطنى مستقلا عن الدين . وقـــد دعم هـــذا المبدأ العلمانى فوز كمال أتاتورك ومؤيديه فتشجع العروبيون والقوميون والاقليميون على السير فى الطريق الى نهايته .

ولقد سقط فى مصر قناع العروبة كما سقط قناع الفرعونية .

ويقول الدكتور محمد على الزغبى فى كتابه حقيقة الماسونية :

الدعوة للقومية المدخولة نتاج ماسونى اذ همـا سـكين شق بهـا أتاتورك العرب عن الترك ونفذ لمـا دعاه فصل الدين عن الدولة وفرض العلمانية وجعل الخمسين الف مسجد فى تركيا عديمة الأثر فى الواقع .

(٣٥)

شبهات حول المسرح

لم يكن المسرح فى البلاد العربيـة نتـاجا عربيا اصـيلا ولـكنه أسلوب وافـد لم يعرفه العرب ولا المسلمون وقـد استطاع المسرح الوافد أن يدخل سموما كثيرة الى العقلية المصرية وأن يطرح مفاهيم متعارضة تماما مع مفهوم الفكر الاسلامى القائم على التوحيد .

ولا ريب أن فـكرة المسرح الوافد تقوم على مفاهيم الفلسفة اليونانية فى المأساة وهى مفاهيم تستمد أساسا من فـكرة الخطيئـة الأولى التى لا يعترف بها الفكر الاسلامى ولا يقرها ، كذلك فان المفاهيم المـادية التى يقوم عليها الأدب المسرحى والقصصى يعتمد أساسا على تصور الانسان تصورا ماديا خالصا وفق مفهوم النظرية المادية ونظرية فرويد وعلى أنه محكوم بالجبرية التاريخية فلا ارادة حرة له وكل ذلك مما يرفضه الاسلام.

ولم تكن المسرحية العربية التى عرفت طوال هذا التاريخ الا مسرحية غربية قـد غيرت فيها الأسماء والأماكن وبقيت فى جوهرها الاجتماعى قصة مجتمع غربى بتحدياته ومشاكله ، وهـذه كلها تختلف تماما عن قضـايا المجتمع الاسلامى ومشاكله ومواجهته لهذه المشاكل واسلوب حله لها .

وقد تبين أنه حتى فى نطاق المسلسلات الاسلامية فان الهدف المسموم المبيت واضح فيها من حيث ابراز جانب الجاهلية وحوارها وفكرها أكثر من ابراز جانب الاسلام .

ولقد كان لدى بعض المتفـائلين رغبة فى اقامة المسرح الاسلامى أو تمثيل المسرحية الاسلامية ، ولـكن تبين أن هنـاك قوى خطيرة تحول دون تحقيق ذلك وتعمل على تشويه المسرحية الاسلامية بحجة عدم فنيتها

أو عدم خضوعها للمفهوم الوافد القائم على الدراما والحبكة والتبعية فى مفهوم الصراع بين الاله والانسان الذى هو عقدة المسرحيات الغربية .

ولقد كشف توفيق الحكيم وزكى طليمات فى وضـــوح فساد اتجـــاه المسرح فى البلاد العربية وعدم قابلية الروح العربية الاسلامية لهذا اللون من الفن الوافد .

(٣٦)

شبهات حول الأساطير

الأساطير فى القاموس (لسان العرب) هى الأباطيل وفى تاج العروس (الأكاذيب) كانت شائعة بين العرب وكان المشركون اذا سموا شيئا من القصص الوارد فى القرآن قالوا : ان هذا الا أساطير الأولين . أما كلمة خرافة وجملتها خرافات فقد أطلقها العرب على الحـــديث المستملح من الـــكذب .

وقد نسب العرب بنـــاء تدمر الى الجن بينما لم ينسبوا بناء الأهرام اليهم مع أن الأهرام أحق أن تنسب الى الجن لغرابة بنـــائها وضخامتها ولكن العرب جاءوا الى مصر بعد الاسلام وبعد أن وضح تفكيرهم بالرسالة السامية وغربت عن عقولهم الخرافات .

وكان من حسن حظ الاســـلام أن بدأ تاريخه مكتوبا أو مرويا رواية تقرب من أن تكون مكتوبة ، ثم جاء الاسلام بالعلم والحث على التفكير قبل تسرب الخرافة اليه حتى ان أسلافنا لمـــا رأوا عددا من المبالغات فى ثنايا التـــاريخ الدينى والسياسى والثقافى سموها بالاسرائيليات اذ جزموا أنها من وضع بنى اسرائيل اليهود فى محاولتهم تشويه الاســـلام .

وكان أعظم تحول أحرزه الانسان القـــديم هو التحول من تضحية الحى الى رمز فنى يجسمه : ففى فيضان النيل استبدل القاء فتاة بالقاء تمثال لفتـــاة ثم جاء الاسلام بالغـــاء الخرافة نهائيا ، وذلك بالقاء رسالة عمر بن الخطاب .

اذا كنت تفيض من عندك .

لقد جرت المحولات الضخمة فى العصر الحديث فى ادخال الخرافة والأساطير فى الأدب العربى والفكر الاسلامى بعد أن نقى المسلمون مختلف فنون القول منها وخاصـــة السيرة النبوية ، فكانت محاولة طـه حسين الخطيرة فى كتاب (على هامش السيرة) فى اعادة الأساطير الى السيرة النبوية بعد ان نقاها علماء المسلمون منها وحرروها كما حرروا الحــديث النبوى من الوضع والدخيل والاسرائيليات .

وفى ابان النهضة الاسلامية فى القرن الثالث رفض المسلمون ترجمة اساطير الأمم وقالوا انها أهواء الشعوب وانهم لا حاجة لهم بها اذ لـكل أمة فنونها وللمسلمين فنهم وهو الشعر ، ولـكن العصر الحديث جاء فى اطــار النفوذ الأجنبى ففرض على المسلمين ترجمــات الاليــاذة الاغريقية والشاهنامه الفارسية والرامايان الهندية والأساطير المصرية والأســاطير الهنــدية .

هذه الأساطير التى تمثل ركام الفكر البشرى القــائم على أهــواء النفوس والمشبع بالاباحيــة والمــادية وفساد الذوق وتصورات الطفولة البشرية ، وكلهــا مما جاء الاسلام للقضــاء عليها وهــدمها ، وهى فى مجموعها تختلف على مفهوم الاسلام الجامع ، ومفهوم الدين الحق سواء باشاعة روح الفساد الخلقى ، أو تغليب الوجدان المترف أو المادية المسرفة أو تمجيد القوة أو عبادة الأجساد وكلها تصور الآلهة وهى فى صراع مع الانسان وتجمع الى قــدرة الآلهة حماقات البشر وتجعل قانونها شهواتها وتخبط كيفما قادتها البــداوات والنزوات وتميز أساطير الاغريق بعبــادة الطبيعة والفن والجمال والنشوة بالحركة العنيفة التى لاتقر ولا تهدأ .

وكل هــذا يختلف عن الفطرة الانسانيــة الأصيلة وطبيعة النفس الانسانية الجامعة بين أشواق الوجدان ومطالب المــادة والتى تتطلع الى الايمان بالله الواحد الأحد .

(٣٧)
شبهات حول القرامطه

ان أول بحث عن الحركة الباطنية فى الاسلام هو ماكتبه الطبرى فى تاريخه كما دون المسعودى فى كتابيه التنبيه ومروج الذهب حوادث القرامطه ،

ويعد المقريزى فى طليعة المؤرخين الذين بحثوا الحركة الباطنية القرامطية وكذلك فعل ابن حزم والشهرستانى ويرى الأب انستاس مارى الكرملى أن (قرمطه) لفظة أرامية نبطية من قرمطونا أى المدلى أو الخبيث أو المكار أو المحتال .

يقول محيى الدين عزوز : لقد كان لأصابع ابن سينا دورها فى اذكاء نار الفتنة التى صدعت الخلافة الاسلامية أيام عثمان وعلى ، ولما كان الحزب العلوى يمثل جانب المعارضة فقد آزروه بكل مااستطاعوا من مال ودهاء وسعوا الى تقوية هذا الحزب بكل الفئات الغاضبة فى المجتمع ليجعلوا من غضبتها ثورة عارمة تدك صرح الحكم الاسلامى كما اتضح ذلك من ثورة القرامطة التى هيأ لها اليهود أخلاقيا بالاكثار من الحانات وتشجيع روادها من الخلفاء وقد أفرد ماسبتون بأحد كتبه الدور اللعين الذى قامت به البنوك اليهودية فى الطور الأول والثانى من العصر العباسى فى سعيها لتخريب البيئة التى مكنتها من العيش المريح ، وقد تغلغلوا فى صفوف العمال وهيجوا العبيد وفرقوا بين الأجناس حتى تبرز الأقليات منها واذكوا ماقد يكون لديها من نقمة ولما لاحظوا أن كل محاولاتهم هذه لم تنجح فى القضاء على القوة الاسلامية من الداخل اتصلوا بالدول المسيحية ليصارع عملاق عملاقان . جاء هذا العمل فى وقت انفصلت فيه بعض الأقاليم عن الحكومة المركزية واشتد فيه ساعد الضعفاء والمحررين من الناس الطامعين فى أسباب الخلافة وقد اعترف المسيحيون بالمساعدة التى لقوها من اليهود ، فعد اليهود هذا انتقاما من العباسيين الذين تجاسر أحد حلفائهم وهو القادر بالله (٣٨١ — ٤٢٢) على حل حكومتهم وحدد نشاطهم بشكل ملحوظ .

وقد أخطأ الكاتب الفرنسى جارودى حين ربط بين نحلة القرامطة وبين العدالة الاجتماعية فى الاسلام وقد رد عليه الدكتور محمود قاسم (الهلال — يناير ١٩٧١) .

القرامطة والجلاح والباطنية والماسونية

وقد واجه الدكتور محمود قاسم هذه الأفكار (الهلال يناير ١٩٧١)

لم تكن دعوة القرامطة تسعى الى تحقيق كرامة الانسان تمهيدا

لاحترامها بل كانت حركة انفصالية تمت فى عصر تحلل الدولة العباسية الى دويلات .

كانت حركة القرامطه استمرارا لثورة الزنج التى قامت قبيل منتصف القرن الثالث الهجرى ، وكانت نوعا من الأخذ بالثأر وقد حرص هؤلاء العبيد الذين حرروا أنفسهم على اذلال العرب عن طريق استرقاقهم والتنكيل بهم .

أما حركة القرامطه التى قامت فى الشمال الغربى لبلاد العراق ثم اتخذت مراكز لها فى منطقة الكوفة وفى بعض بلاد الشام وفى سواحل الجزيرة العربية المطلة على الخليج الفارسى ثم استقرت آخر الأمر فى البحرين .

كانت حركة القرامطه على صلة وثيقة بالحركة الاسماعيلية فى دور الستر وان اختلفت معها فى دور الظهور فان الفاطميين رأوا بعد ظهور دولتهم فى الغرب أن يستهلوا بتوجيه السياسة فى ذلك العصر باسقاط الدولة العباسية ومن جانب آخر يمكن القول بأن الجلاج المتصوف المشهور كان من أكبر الدعاة لتحطيم الدولة العباسية اذ كان على صلة بالقرامطه وقد روى عنه أنه أقسم فى أحد أحاديثه القدسية التى يزعمها لنفسه لسنة ٢٩٢ هجرية وهى السنة التى شهدت ثورة القرامطه الكبرى .

ولئد كانت حركة القرامطه حركة طائفية ، فقد اقر القرامطه شيوع المال فى مجتمعهم ولكن طبع العبيد التى يتكون من الأسرى لم تكن تتعامل على قدم المساواة مع الأخرى .

تظاهر أصحاب هذه الحركة بالتشيع والميل الى البيت العلوى ، ولكنهم سلكوا من الناحية الأخرى اذ اعتدوا على الأماكن المقدسة وجرحوا صحابة الرسول بل الرسول نفسه — وقتلوا نحوا من ثلاثين الفا من هؤلاء الحجاج وانتزعوا الحجر الأسود من الكعبة صرفا للناس عن الحج ، وهذه الوقائع تؤكد صلة بين هذه الطائفة وأمثالها وبين الجلاح الذى كان معاصرا لحركة القرامطه ، ومن الطريف أن الجلاج قد أدين وقتل بتهمة صرف الناس عن الحج وقد ورد فى تاريخه أنه كان يستعيض

عن الحج بكعبة مصـــغرة فى بيته يطوف بها اتبـــاعه طوافا يغنيهم عن الذهاب الى مكة وكان يطلب اليهم أن يقدموا بدل الهدى شيئا من المال .

وقد تكشفت الصلات الظاهرة والخفية بين الباطنية وبين الصليبيين فى القرنين الخامس والسادس الهجريين وهى ترسم فى وضـــوح عن بذور انتقلت الى أوربا جنوب ايطاليا ادت الى ظهور الماسونية فى البلاد الأوربية وعن علامات بين الباطنية فى الاسلام وبين الماسونية فى الغرب وان الماسون يصفون الحسن بن الصباح رئيس الاسماعيلية الشرقية فى القرن الخامس الهجرى بأنه من أسلافهم ، ويقولون انه كان الأستاذ الأكبر للماسونيه فى العالم الاسلامى .

(٣٨)

حول اخوان الصفا

وقد كشف البـــاحثون عن العـــلاقة بين اخوان الصفا والاسماعيلية وتشيعهم ودعوتهم الى المهدى المنتظر وقال كازنوفا اننى على أتم الثقة من أن آراء اخوان الصفا هى برمتها آراء الاسماعيلية ومحور هذه الآراء هو الاعتقاد بعودة الأمام الذى سوف يملأ الأرض سعادة .

وهم يؤمنون بوحدة الـــكون (وحدة الوجود) .

ويعتقد جولدزيهر ان رسائل اخوان الصفا كانت الأساس الذى نبتت عليه معتقدات الاسماعيلية . وان هنـــاك اتفاقهما فى مذهب الحلول . وتفسير القرآن تفسيرا غير مايدل على ظاهر اللفظ . وهو الأسلوب الباطن الذى جرى عليه البـــاطنية ويقول اخوان الصفا فى رسائلهم :

« واعلم ان للـــكتب الالهيـــة تنزيلات ظاهرة هى الألفاظ المعهودة المحـــدثة ولـــكن لها تأويـــلات خفيـــة باطنـــة وهى المعـــانى المفهومة والمعقولة » .

وقد افاض الباحثون فى الـــكشف عن وجهة الاسماعيليـــة الملقبون بالحشاشين فقد اتاحوا لتـــابعيهم كل أنواع اللذات وأطلقـــوا لشهواتهم

العنـــان واباحوا لهم زواج الاخـــوات وكل من يحرم الدين الزواج بهن وعكفت على تعـــاطى الحشيش فئة طاغية مجرمة تحلل المحرمات وتحض على المسكرات وترى فى القتل عملا مشروعا يثاب عليه فاعله .

وفى أثناء الحروب الصليبية كان لهم يد سوداء ، قاموا أثناءها بأفظع الأعمال الوحشية فأطلق عليهم الفرنجة اسم (أساسيين) وجعلوه لـــكل قاتل مجرم ، وقـــد قاموا بعديد من فظائع الأعمـــال رسمت بلون الدماء الأحمر ، وقـــد أشـــار المسعودى وابو الفـــداء الى أنه بلغ من جـــراة الحشاشين أنهم كانوا يخطفون النـــاس من الشوارع والحارات بأغرب الطرق وقد توفى الحسن الصباح ٥١٨ وظلت الزعامة قائمة فى قلعـــة الموت حتى ٦٥٤ نحو قرنين ، ولا يزال للاسماعيلية الى وقتنـــا هذا صوت وزعيمهم اغا خان والطائفة موزعة بين الهند وفارس .

(٣٩)

شبهات حول الزنج والقرامطه

استغل دعاة التفســـير المـــادى للتاريخ بعض المواقف الهدامة فى التاريخ الاسلامى لمحاولة وصفها بأنها حركة تقـــدمية أو ثورية ومن ذلك حركة القرامطه وثورة الزنج كما حاولوا اضفاء صفة البطولة على (على ابن محمد) الذى تجمع المصادر على عدم صحة ما ادعاه من نسب علوى ويرون أنه انما ادعى هـــذا النسب خدمة لمآربه وليضفى على حركته طابع الشرعية ، وقـــد بدأ حياته مشعوذا يشتغل بالتنجيم والسحر ، وانتقل من سامرا الى البحرين وجعل منطقة البصرة مركز نشاطه ، فتجمع حوله الزنج فى البصرة فى ثورة عارمة اشعل نارها سنة ٢٥٥ .

وادعى خلال ذلك أنه المهدى المنتظر وادعى النبوة .

وقد اســـتغل بالنسب العلوى مالدى الشيعة من تأييـــد وعطف بين الجماهير فقـــد أصابت دعواه المهـــدى وترا حساسا فى نفوس المعـــذبين فى الأرض فأطاعوه فيما ذهب اليه وأحرقوا البصرة واعملوا السيف فى أهلها واستباحوها ثلاثة أعوام وصعد الزنج فى حركتهم نحو بغداد فدخلوا واسط عام ٢٦٤ والنعمانية فأحرقاها واستمر لفطهم عشر سنوات وهم يحتلون

منطقــة شاسعة تمتد من الأهواز وواسط وتصل الى مشارف بغــداد، وقــد شلت هــذه الحركة الزراعة والتجارة والمواصــلات ولــكن الأمر انتهى بأن سقطت عاصمة الزنج « المختارة » بعد أن دافعوا عنها وبعد أن قتل على بن محمد .

وقد فشلت ثورة الزنج لأنها لم تكن لها منهاج واضح للاصلاح ووقعت في نفس الخطأ الذي ثارت من أجله اذ اقبل الزنج بعد نجاحهم المؤقت على اقتناء القصور واسترقاق النساء واستعباد سادتهم .

وكذلك فعل القرامطه فقد خدعوا النــاس عن طريق الادعاء بأنهم من آل البيت وكانت اكبر أعمالهم الغارة على مكة وقتل الناس وسرقــة الحجر الأسود ، وكانت دعوتهم الى شيوعية الأموال ، فقــد اســقطوا الحدود بين الحلال والحرام وأحلوا زواج الاخوات وتقــديس الخمر وكانت لهم تفسيرات باطنيــة للقرآن والحــديث ، وقــد لعب اليهود وراء هذه الحركات وكانت الاسرائيليات هى مادة فــكرهم . ويذهب بعض المؤرخين الى أن القرامطه وغيرها من الدعوات الباطنية يهودية الأصل والفروع .

(٤٠)

شبهات حول الحرف اللاتينى

كانت أهواء الاستشراق متعلقة بالدعوة الى كتابة اللغــة العربيــة بالحرف اللاتيني وقــد دعوا الى ذلك طويلا وقام من آزر دعوتهم فى مجمع اللغة العربية فى القاهرة بطرح هــذا المشروع المسموم ، وكان عبدالعزيز فهمي من جيل الرواد (سعد زغلول ولطفي اسيد) أتبــاع كرومر ودعاة التغريب وصناع الاقليمية والتبعية الغربية فى مجال السياسة والاجتماع والتربيــة والفكر . ثم جاءت محاولة سعيد عقل تطبيقــا لهذه الدعوة التى اذاعها ماسنيون كجزء من خطة لهــدم اللغــة العربية تقوم على تشجيع العاميات وكتابتها بالحرف اللاتينى وقد أصدر سعيد عقل ديوانه (يارا) جامعا بين عامية لبنــان والحرف اللاتينى وقد استهدف سعيد عقل القضاء على التراث العربى الاسلامى ثم القضاء على كل مايربط لبنــان بالعرب ، وخلف تراثا خاصا بلبنان يبــدأ من حرف سعيد عقل ، يقول الدكتور عمر فروخ ولقــد باءت هذه المحاولة بالفشل لأنها استهدفت تغيير واقع ثابت

خطير ولم يكن ممكنا اعادة الكرة للصورة التى عرفت عن اللاتينية فى القديم وانفصال اللهجات الأوربية عنها وقد تبين أن ماحدث لبعض اللغات القديمة لا يحدث اليوم ، وقد كان الانقطاع بين اللاتينية القديمة وفروعها فيما بعد لأن اللاتينية لم تكن استقرت على أسس نهائية ، كانت جذدرا لا قواعد ثابتة لها وحين تبلورت شخصيات الأقوام والقبائل التى كانت تتعلم اللاتينية فى شعوب ، بدا الانقطاع تدريجيا بين تلك الجذور ، والفروع التى تكاملت قواعدها يوما بعد يوم واستقرت نهائيا . ومن ذلك الحين لم تتبدل تلك الفروع التى اصبحت لغات كاملة كذلك تختلف اللغة العربية عن اللغة الفرنسية فى منبعها الاشتقاقى فهى — اى العربية — ذات بنية متواصلة الأطراف منسجمة الحلقات لا زيادة لمستزيد عليها . ومن هنا كانت منبعا ثرا لاينضب مسايرا أقوى الحركات العلمية ، بل كانت لغة العلم الوحيدة فى العالم قرونا عديدة وكانت اللغة العربية أول تعبير عن امكانات العربى وعمق وعيه لذاته وللوجود . ومن هنا فان كل حرف فى لفظه لم يوضع اعتباطا ولا رمية من غير رام وانما كان ذا صلة مباشرة بالاحساس العربى بما حوله أو بما يعتمل فى داخله .

كذلك فان اللهجات العامية ليست لغات ولا يوجد لها قواعد ولا ضوابط ولا اسس مما يتيح كل يوم خلق لهجة جديدة فهى وليدة التفسخ والشذوذ فى حياة الغرب ووليدة انهيار شخصيتهم ابان عهود مظلمة طويلة .

ولا ريب أن هناك مؤسسات أجنبية تثبت حرف سعيد عقل وانها فى طريق ترجمة امهات الكتب الأجنبية الى العامية وواضح أنه كلما تقدم العرب واقتربوا من استعادة شخصيتهم عادوا شيئا فشيئا الى اللغة الأصيلة . وحرف سعيد عقل وليد المجتمع المتفسح والشخصية التى لم تجد نفسها بعد .

(٤١)

شبهات حول الفاظ القرآن

حاول بعض المستشرقين ارجاع بعض الالفـــاظ القرآنية والاسلامية الى أصول عبرية وآرامية وحبشية وسريانيـــة وكلدانية حتى أن أعـــرق الألفـــاظ العربيـــة والاسلامية من مثل (الله — الصـــلاة — الزكاة — النبى — الرسول — السجود — التجارة) ومصطلحاتها حاولوا التماس اصولها من اللغات السامية وفى العهد القديم .

ذهب الى ذلك فنسنك وشاخت وريناي وهولشر ، وشميدث وهفنج وغيرهم كثير تملأ افتراءاتهم بعض مواد دائرة المعـــارف الاسلامية .

والواقع ان هذا كله ادعاء بالباطل .

قال السيوطى (نقلا عن أبى عبيدة) من زعم أن فى القرآن ماليس بلغـــة العرب فقد اكبر القول . وقد يوافق اللفظ اللفظ ويغايره ومعناهما واحد فأحدهمـــا بالعربية والآخر بالفارسية أو غيرها . فمن ذلك الاستبرق وهو الغليظ من الديباج وهو استيره بالفارسية وغيرها .

وقال السيوطى : وليس فى كتاب الله سبحانه شىء بغير لغة العرب لقوله تعالى : « انا انزلناه قرآنا عربيا » وقوله تعالى : « بلسان عربى مبين » وادعى ناس أن فى القرآن ماليس بلغـــة العرب حتى ذكروا لغـــة الروم والقبط والنبط وترجع أصالة العرب وصفاتها الى نشأتها فى أقـــدم موطن للعرب وبقائها فى منطقة متصلة منعزلة فقلت بذلك فرص احتكاكها باللغات الأخرى .

يقول الأستاذ عبد الجليل عبد الرحيم : ان مزاعم الدخيل من لغـــة القرآن الـــكريم هو مااستغله أعداء اللغة الحاقدون على الاسلام للطعن فى فصاحة القرآن وبلاغته مع فساد المنهج الذى سلـــكوه فى تبرير فقر اللغة العربية باسناد هذه الـــكثرة من الألفاظ التى استعمل القرآن قسما كبيرا منها فقـــد اعتبروا معظم الألفاظ العربيـــة التى توجد بينهـــا وبين

الألفاظ اخوتها من اللغات المسماة بالسامية نوع من الشبه أنها من الدخيل فى العربية من تلك اللغات .

قال جرجى زيدان : اننا نستدل على تكاثر الألفاظ الأجنبيه فى اللغة العربية بخلو اخواتها من أمثال تلك الألفاظ فاذا رأينا فى اللغة العربية لفظا لم نر له شبيها فى العبرانية أو السريانية أو الحبشية ترجح عندنا أنه دخيل فيها (آداب اللغة العربية ج ١ ص ٣٦) وبناء على هذا الدليل الواهى يستدل على عجمة كلمات هى فى الواقع من صميم اللغة العربية. ولم يقتصر الأمر على هذا بل نجد منهم من قد اعتبر الألفاظ المتعلقة بالحضارة كلها من الألفاظ الدخيلة الى العربية من غيرها زاعمين أن الناطقين بهذه اللغة لم يعيشوا حياة حضارية فى جزيرتهم بل ان جميع الألفاظ الدينية عندهم دخيلة الى العربية بحجة أن العرب لم يكونوا أصحاب دين سماوى ، ويرجعون هذه الألفاظ الى اللغة العبرية أو الحبشية لأن اليهود والأحباش من أهل الكتاب . ان اعتبار كل لفظ فى اللغة العربية شبيه بلفظ آخر من لغة من اللغات المسماة بالسامية دخيلا الى العربية من تلك اللغة منهج خاطىء لايقوم على اساس علمى، ذلك أن اللغات السامية كما هو مقرر عند العلماء ترجع جميعها فى الأصل الى لغة واحدة أطلقوا عليها اللغة الأم ثم بمرور الزمن ونزوح الناطقين بها الى مناطق مختلفة ومجاورتهم لأصحاب لغات مختلفة تشعبت هذه اللغة الى لهجات مختلفة اخذت تتباعد فيما بعد حتى استعمل كل منها عن الأخرى واصبح لغة مستعملة .

والنتيجة المترتبة على ذلك هى ترجيح اصالة هذه الألفاظ المتشابهة بين هذه اللغات فى اللغة التى ترجح أصالتها وترجح أنها من الدخيل فى غيرها وقد رجح كثير من الباحثين أن اللغة العربية هى أصل اللغات السامية جميعا ولذلك فان استدلال جرجى زيدان ومن لف لفه باطل وحكم مناف للصواب فقد استطاع الباحثون فى اللغات المسماة بالسامية أن يثبتوا لنا أن اللغة العربية هى أكثرها احتفاظا بالكلمات القديمة التى يرجح انها كانت مستعملة فى اللغة الأم عن طريق جمع الكلمات القديمة والمقارنة بينها . وعلى هذا يكون من الراجح أن هذه الألفاظ العربية التى لا يوجد لها شبه فى اللغات السامية الأخرى مما احتفظت به اللغة العربية من اللغة الأم بينما سقط من تلك اللغات باهمال

الاستعمال أو الاستعاضة عنه بلفظ يدل دلالته . ولذلك فان من خطأ القول بأن اكثر الدخيل من أسماء المصطلحات الدينيـة منقول من العبرانية أو الحبشية لأن اليهود والأحبـاش من أهل اللغات ولا يمكن القول بأسبقية لغة من اللغات على اللغـة العربية التى نبتت فى جزيرة العرب بالقول بأن بعض الـكلمات من هذه اللغـات . وكذلك اخطأ الأب نخلة فى القول بأن الـكلمات العربية المختصة بالزراعة ارامية الأصل فقد كان العرب فى جزيرتهم اهل ديانات سماوية قبل غيرهم من أصحاب الديانات فقـد بعث الله تبـارك وتعالى من يلقنهم رسالة السماء قبل أن يسمع الناس بالديانة اليهودية والمسيحية ، ذلك ان نبى الله هودا ونبى الله صالحا قد بعثهما الله برسالة سماوية الى عاد وثمود قبل بعثـة نبى الله موسى وعيسى بل وقبل بعثة الخليل ابراهيم .

وكذلك خطأ دعواهم بأن اكثر الـكلمات العربية المختصة بالزراعـة ارامية الأصل مع أن المعروف أن الجزيرة العربية كانت جنات غناء ابان نبوة هود وصالح وشهادة القرآن فى هذا واضحة ففى نبى الله هود :

« فاتقوا الله واطيعون واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون » (سورة الشعراء) .

وفى نبى الله صالح : « اتتركون فيما هاهنا آمنين ، فى جات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين » (سورة الشعراء) .

(٤٢)

شبهات حول الدارونيـه

ماتزال فكرة الدارونية القائلة بأن الانسان والقرد من أصل واحـد شائعـة فى دوائر التعليم بالرغم من ظهور نشرات الأبحـاث فى هدمها وتدميرها ومن ذلك كتاب تحت عنوان : (هـذا التقـدم : مأساة مذهب النشوء) للـكابتن الوارت اى مذهب دارون الذى ينكر الخلق الفجـائى ويقول ان أنواع الحيوان والنبـات حتى الآن متسلسل بعضها من بعض وان بيننـا وبين القرود لذلك لحمة نسب وصلة قرابة . ولا يزال مذهب

دارون ناقصا مايسمونه الخلقــة المفقودة التى تثبت قرابة الانسان للقرد وما دامت مفقودة يبقى مذهبا افتراضيا ويبقى لذلك خارج دائرة اليقينات المثبتة اذ يعوزه البرهان. يقول الوارث: أن الدارونية كذبة كانت السبب الأول فى تدهور الحضارة الغربية بانيا حكمه هذا على اكتشاف اكتشفه وبرهن فيه على أن نشوء الطيور خرافة لا كما يقول المذهب الدارونى . ان النشوئيين لم يهتدوا بعد الى الحلقة المفقودة التى تصل الانسان بالقرد كما يزعمون مع أنهم قلبوا باطن الأرض يبحثون عنها ولــكن الجيولوجيا تضحك من بحثهم عن شىء لا وجود له .

وقــد اعترف دارون فى زمانه بأن الجيولوجيــا لا تؤيد وجــود تلك السلسلة الدقيقــة المتدرجة التى يبطلها ناموس النشوء نفسه بل الضد من ذلك ثبت أن الدارونية غير صحيحة لأن وجود بقايا الحيوانات فى الصخور لا يمكن تعليله بأى مذهب من المذاهب .

وقد هدم مندل بناموسه عن الوراثة ناموس الانتخاب الطبيعى الذى هو أساس الدارونية. ان الدارونية زعزعت أسس الدين فلو أمكننا التخلص منها لهدنا الطريق الى احياء الايمان بالخالق . ومن الغرابة بمكان أن يبنى النـــاس تزعزع ايمانهم بالله مدة قرن كامل على مذهب لم يثبت بالبرهان ولا يمكن اثبـــاته .

فالايمان بالله أسهل من الايمان بخدع العلم وأوهامه وهكذا نجد أن العلم ورجاله أخــذوا يدحضـــون هــذه النظرية البــاطلة التى استغلها الفلاسفة الماديون فى هدم العقائد . كما استغلها رجال السياسة فى خلق جو مضطرب من العنصرية ، حين حاولوا تطبيق نظرية الانتقاء الطبيعى فى المحيط الانسانى .

ولا ريب أن نظرية دارون هى مجــرد افتراض وصـــل اليه دارون استنادا على جزئيات مختلفة شاهدها وان لم يكن قد استوعب الا ماسمحت الظروف به فى عصره ، ولقــد مضى العلم والبحث والكشف عن الحفريات الى مراحل كثيرة وخطوات واسعة وتبين انه لم يستوعب كل ماهو بسبيل اليه لتقييم نظريتـــه التى وصفها بأنها ينقصـــها الحلقـــة الأساسية التى تربط دعواه فى القول بأن الانسان والحيوان من أصل واحــد ، وقد جاءت

الحفريات المتوالية مكذبة لدعواه ومثبتة ان كل خلق مستقل عن غيره وان الحيوان مستقل عن الانسان وان الانسان منذ ظهر على وجه الأرض وهو صاحب قامة مستقيمة ، ولكن الخلفيات التى كانت وراء نظرية دارون كثيرة فقد استغلها اليهود الذين كانوا يطرحون نظرية تدمير عالم الجوييم فقد اخذوها لبناء نظرية الانسان الحيوانى الأصل واستغلوها فى الدعوة الى التطور الشامل الذى لا يرتبط بأى قاعدة من قواعد الثبات وقد نقلوا الدعوة من مجال البيولوجيا الى مجال الاجتماع عن طريق هربرت سبنسر الذى حاول تطبيق التطور على الانسانيات والأخلاق وكانت الدعوة الى تحطيم الضعيف والقضاء عليه سلاحا بتارا للمستعمرين فى البلاد التى احتلوها من أجل القضاء على أصحاب الأرض واقامة شريعة الغاب .

ويقول العلماء أن كل ما استند اليه داروين هو مجرد ظنون وافتراضات لايسندها واقع علمى أو تأكيد حسى فى اى عصر من العصور، منذ خلق الله الدنيا الى يومنا هذا ولم يشهد أحد بل لم يسمع بحادثة واحدة من حوادث التطور والارتقاء ولم يثبت قط أن عصفورا قد تحول الى ديك أو أن حمارا قد ارتقى الى حصان ، أو أن قردا قد تحول كما يزعمون الى انسان ، ولو حدث شيء من التطور لبعض الحيوانات فى اى عصر من العصور لظل مدى الدهر خبرا متواترا ، وحديث لأجيال متعاقبة . كما أعلن أن الاعتماد على الحفريات فى اثبات التطور والارتقاء لايجوز الاعتماد عليه لانه ليس فى مقدور أحد أن يدعى انه قد اكمل التنقيب فى جميع طبقات الأرض وتحت الجبال والبحار . كذلك فان عملية التطور التى شرحها دارون التى اخضعها لناموس الحياة مبنية على المصادفة أو العوامل الطبيعية وهى امور باطلة بالأدلة الأكيدة والبراهين القاطعة .

اما بالنسبة للاسلام الحنيف كما يقول الدكتور حامد محمود اسماعيل فانه يرفض نظرية التطور جملة وتفصيلا : ذلك أن القرآن الكريم قد أوضح لنا كيف خلق الله الانسان الأول ومم كان خلقه ، وخلق ذريته من بعده ومم كانوا أو كيف كانوا « ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حما مسنون » هذا بالنسبة لخلق الانسان الأول وهو آدم عليه السلام أبو البشر أما عن خلق ابنائه من بعده فقد قال الله تعالى عنه « يا أيها

النـــاس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » وقال جل شأنه « فلينظر الانسان مم خلق . خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب انه على رجعه لقادر » .

وفى معرض الأطوار التى يمر بها خلق الانسـان يقول الله تعالى :

« يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقـــة ثم من مضغة مخلقـــة وغير مخلقة لنبين لـــكم ونقر فى الأرحام مانشاء الى اجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا اشدكم » هذه الآيات تبين ان الانسـان خلق نوعا مستقلا وليس متطورا من نوع آخر من أنواع الحيوانات ، أيا كان هــذا النوع ، وكيفما كان التشابه بينه وبين الانسان فى بعض الخصائص وبعض الأوضاع الجسيمة ، فلو كان خلق الانسـان بطريق الارتقاء والتطور لكان ما أخبر به القرآن عن خلقة لا يطابق الحقيقـــة ولا يتفق مع الواقع . وهــذا أمر باطل من أساسه . ثم ان نظرية دارون تفترض أن الانسـان ليس الا طورا من أطوار الترقى الحيوانية وتفترض كذلك أن الحيوان يحمل خصـــائص التطور الى مرتبـــة الانسان والواقع المشهود يكذب هذا الفرض لتفسير الصلة بين الحيوان والانسان، ويقرر أن الحيوان لا يحمل هذه الخصائص بل يقف دائما عند حدود جنسه الحيوانى لا يتعداه ، ويبقى النوع الانسانى متميزا يحمل خصائص معينـــة تجعل منه انسانا . هــذه الخصائص ليست نتيجة تطور آلى أو انتخاب طبيعى بل هى مقصودة ليخرج على الصورة التى كرمه الله بها وفضله على سائر مخلوقاته .

ودارون ونظريته انما ينفى تلك النفحة الالهية عن الانسان ومنجهة اخرى فان مسألة خلق الانسان الأول من الأمور الغيبية التى لا يتنـــاولها الحس ولا التجربة ولا المشاهــدة ، كما أنه ليست هنـــاك مقدمات عقلية تهدى العقل الى معرفة واقعها ، وانما سبيلنا الى العلم بها هو اخبـــار الوحى الالهى الذى يرتقى فوق الشكوك والشبهات وقـــد نص القـــرآن الـــكريم أن يكون مبدأ الخلق عامة مما يعلمه الانسان بنفسه أو بما منح من قوى الادراك والتفكير قالتعالى : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا » .

من أجل هذا فان الاسلام يرفض هــذه النظرية التى أبطلها الواقع وكذبها العلم وفنــدها العلماء ، ومما يذكر أن هذه النظرية لم تنتشر الا كسلاح شهره بعض علماء الطبيعة فى وجه الــكنيسة التى ظلت تحارب العلم وتحد من حرية البحث والفكر ، كما أنها تستخدم من قبل أعــداء الاسلام كسلاح آخر لزعزعة عقائد الشباب وصرفهم عن الايمان بحقــائق الاسلام مع أن الاســلام دين علم ومعرفة وتوحيد ، ومن هنــا كانت هذه النظرية وغيرها عاملا من عوامل الالحاد فقــد أدت الى أن أصبح الشباب يتشككون فى بعض حقــائق الدين واستهوى بعضهم القول بأن الانسان وليد المصادفة البحتة ومن ثم وجد الالحاد .

وعلى المسلم أن يكون فى حذر من مثل هذه الأباطيل التى يكمن وراءها القول بأن الانسان خلق عن طريق المصادفة أو أن الحياة نشأت عن المادة ذاتيا أو أن تولد الأحيــاء جاء عن الطبيعة وكل هذا كفر صريح .

« ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا » .

(٤٣)

شبهات حول الجهاد

أثار الاستشراق والتغريب شبهات كثيرة حول الجهاد الذى هو شرعة الله الماضية الى يوم القيامة بهدف دحض هذه الفريضة الأساسية .

والجهاد — لا الحرب بالمفهوم الاسلامى هو قتــال فى سبيل الله وحده واقامة حكم الله فى الأرض وتحرير الانسان من عبودية الانســـان والأهواء ودفاع عن المحرمات والمقدسات وتحقيق السلام العادل والجهاد هو ذروة سنام الاسلام وهو بالمفهوم الاسلامى العام : وضع قدرات المسلم ونشاطه وتعامله وجهوده فى سبيل الله تهذيبا ودعوة وعلما وانفاقا وقتالا وبناء حضارة فاذا هو جماع حياة المسلم مع الاسلام .

قد عرض المستشرقون للجهاد فى صورة قاتمة بهدف افراغ الانسان الغربى وتصويره على أنه زحف همجى ، أو أن الاسلام يغفل آداب المجتمعات قبل القتال وأثنــائه وبعده ، وأكثر المستشرقين يعرض الجهاد على أنه

سيف الاسلام المصلت الذى لم ينتشر الا به ، وان الاسلام لم يتمكن من اجتياح العالم بالسرعة الخاطفة الا بالعنف والقسوة .

ويقول ماكدونالد : ان الجهاد هو نشر الاسلام بالسيف وقد حرصت تشويهات الكنيسة وشبهات المبشرين المغرضين على اذكاء روح العداء فى عوام الناس ومثقفيهم .

وقد درج المستشرقون على تصوير فتوحات المسلمين على انها اعمال عدائية وقتالية اجبرت المواطنين على الاستسلام للاسلام والدخول فيه .

كما وصفوا معاملة الأسرى بأنها معاملة غير انسانية ، وعبر المستشرقون عن كلمة الجهاد بالحرب المقدسة فأصبحت عندهم عبارة عن شراسة الطبع والخلق والهمجية .

(٤٤)

شبهات حول التوراة

كشفت الدراسات العلمية الدقيقة فساد نسبة « الكتاب المقدس » أو العهد القديم كما يسمونه الى أنه الكتاب الذى انزل الى موسى عليه السلام وهو التوراة .

وقد تبين أنها من كتابة اليهود ابان السبى البابلى ، وانها حملت معها أحقاد اليهود على العالم وتصورهم بأنهم شعب الله المختار ، وقد تجمعت ادلة كثيرة على تحريف التوراة وبطلان مزاعم اليهود منها :

أولا : وصف الله تبارك وتعالى بأنه قد تعب من خلق السموات والأرض ولذلك احتاج الى يوم راحة وقد دحض القرآن الكريم هذا الزعم بقوله « لا تأخذه سنة ولا نوم » وقوله « وما مسنا من لغوب » .

ثانيا : ظاهرة عدم العدل التى اعتبرها اليهود قاعدة التعامل مع انفسهم ومع الغير « للاجئين تقرض بربا ولكن لأخيك لاتقرض بربا »

ثالثا : ظاهرة الاستعلاء بالجنس على العالم ، ودين الله الحق لايقر

الاســتعلاء بالجنس فالنــاس كلهم سواســية وجعل الأفضليــة للعمل الصالح « وكذلك جعلناكم شعوبا وقبــائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عنــد الله أتقاكم » .

رابعا : فساد صورة الأنبيــاء فى العهد القــديم ، فقد رماهم بأشنع القبــائح وأفظع الجرائم (شرب الخمر والقتل والزنا والغش والاجتيــال والانسياق وراء الشهوات) وما نسبته من اكاذيب الى نوح ولوط ويعقوب وداود وسليمان .

ومنذ أصدر الدكتور ريتشارد منجستون عام ١٦٧٨ كتابه عن التاريخ النقدى للعهد القديم ونفى فيه نفيا قاطعا نسبة أسفار الشريعة الى موسى عليه السلام مؤكدا أنها مجموعة من مدونات مختلفة الأصول عكفت أجيال متعاقبــة من الأحبار على اعادة تسجيلها باجتهاد وهوى ، تحويرا وحذفا واضافة ، حتى يتوفر لها آخر الأمر (عزرا) ومريدوه خلال القرن الرابع قبل الميلاد فتستقر على الوجه الذى تطالعنا به اليوم . منذ بدأ هذا البحث وقد نشأ تيــار علمى صحيح يقف على رأسه الدكتور بوكاى اليوم يكشف زيف هذا الــكتاب ، ومنذ ذلك الوقت تابع هذا وأيده علماء آخرون منهم أوربيل اكوستا وباروخ سينوزا وغيرهم .

ويرجح الخبراء أن اســفار التوراة تعود الى توليفــات مستقاة من أربعة مصادر رئيسية على الأقل غير عديد من روافد فرعية . وربما عاد بعضها الى مأثورات لم تكن تمت الى بنى اسرائيل أو بنى يهوذا بأصول، الا أنها بمرور الزمن كانت شائعة بين شعوب المنطقــة جميعا ، ويقول حسين ذو الفقار صدى ان التوراة اسقطت عمدا اربعة قرون من التاريخ. ويقول ان هنــاك فجوة بين قصص الآباء الأولين امتدت اربعمائة وثلاثين عاما ، فقصص الآباء تسجل بدقة تفصيلا بينما نجد أنه قد نسخ من ذاكرة القوم جميع مايتعلق بفترة ربما كانت اعصب فترات حياتهم القومية لو اننا بصدد أمة كان لها بالفعل كيان من قومية متصلة . ويقول ان هناك قصدا معينا وراء طمس معالم تلك القرون الأربعة تسترا على أحداث كان لها دلالتها أو فجوة تفصل فصلا قاطعا بين أزمة غابرة وبين واقع فعلى هو الميلاد الحق لاركان من عقيدة توحيدية حين اصطفى موسى شعبه من بين

مستضعفين ومن لاذ بهم من متـذمرين فخـرج بهـم من ارض مصر الى صحراء التيـه .

وقال : ان رهط موسى هم أول من يطلق عليهم بنى اسرائيل ، وتجد فى سفر الخروج أنه يتحاشى فى نصوصه ذكر كلمة عبرانيين وهى التى كانت علما على القوم طيلة سفر التكوين بينما قصر اسم اسرائيـل على شخص معين هو يعقوب ولم ينسحب قط على اى من اقوام » .

وهذا الذى يقوله حسين ذو الفقار صـدى وارد فى جميع الأبحاث التى صدرت فى السنوات الأخيرة لتكشف زيف هـذا الـكتاب ودعواه العريضة الباطلة .

(٤٥)

شبهات حول مفهوم الانسان

الانسان عقل وجسد وروح : ليس روحا فقط كما صـورته بعض الفلسفات الغنوصين الشرقية ، وليس عقلا فقط كما صوره الفكر اليونانى القديم وبعض الفلسفات الحديثة وليس جسدا كما اعتبرته دولة الرومان واسبارطه بوجه الخصوص فركزت على ابراز مفاتنـه والتمتع بجـماله وعضلاته لينازل الوحوش المختلفة .

فالانسان جمـاع ذلك (عقل وجسد وروح) وان اى تجاهل لأى من هذه يبعد الباحث عن التصور الصحيح وقد خلق الله تبـارك وتعـالى الانسان وأعلن مولده بنفسه (انى خالق بشرا) وقلده أمر الاستخلاف فى الأرض واسجد له ملاكته وعلمه الأسماء كلها وهداه الى الطريق المستقيم، ووضح له طريق الخير والشر (وهديناه النجدين) ومنحه حرية الاختيار واعطاه الارادة ليفرق بين الحق والباطل والفجور والتقوى وزوده بالادراك ووسائله (وجعل لـكم السمع والأبصار والأفئدة) .

وهو بهذا قد خرج من طين الأرض فهـو من صنع الله وهو ليس خلاصة التربة الأرضية كما تقول الداورنية ولـكنه قبضة من طين الأرض ونفحة من روح الله فالانسـان فى الدارونيـة مبتوت الصلة بالسماء ،

والإنسان فى منهج الاسلام مستخلف فى الأرض ودنياه طريق الى آخرته (وان الى ربك المنتهى)وتختلف عن فرويد صاحب الشواذ والذى قرر أن الطاقة الجنسية هى المحرك والموجه للانسان . ان منهج الاسلام لايهمل الطاقة الجنسية فى حياة الانسان ولـكن لا يعطيها اكثر مما تستحق وهى وسيلة وليست غاية ، الجنس فى منهج الاسلام وسيلة لاستمرار النوع .

(اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحـدة وبث منهـا رجالا كثيرا ونساء) والجنس وسيلة للسكن والراحة والمودة والرحمة .

(ومن آياته أن خلق لـكم من انفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) .

والجنس دافع ولـكنه ليس كل الدوافع .

ويختلف الانسان فى الاسـلام عن التفكير السيكولوجى الذى حصر الإنسان فى شعور التفوق كما قرر أدلر أو شعور النقص كما قرر يونج . فليس هذا هو الانسان على اى حال ولـكنها جزئية من جزئياته فقط . والانسان ليس هو المدرسة التجريبية ولا من شأنها أن نضعه على المشرحة لأن ادواتها داخل المعمل تعجز عن استيعاب تكوينه .

وليس هو حيوان المدرسة السيكولوجية التى تفسر على انه مجموعة من العادات لردود الفعل المنعكسة لأن هذا ينطبق على الحيوان .

وليس كما تخيله ماركس وانجلز صاحب التفسير المادى للتاريخ : يفسر الانسان من الخارج وحصر تاريخ البشرية فى البحث عن الطعام .

وليس كما صورته الوجودية أو الشيوعية ، ليس هو الانسان الذى ترتبط حياته بالقهر الاجتماعى الذى لايراعى مشاعره كما قرر دوركايم .

الانسان فى منهج الاسلام كما قال تعالى (ماغرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك) (عبد الرحمن عميرة)

ارادة الله تبـارك وتعالى خالق الـكون هى التى جعلت للانسان

فعالية معينة فى هذه الأرض ولذلك فان من أكبر أخطاء تفسير التـــاريخ انكار مشيئة الله أو اثباتها مع انكار فعالية الانسان .

ولفهم ذلك علينا أن نعرف أن الله تبـــارك وتعالى خلق هذا الـــكون فأودع فيه سننا تعمل عملها ، فكل مافى الـــكون هو تحت سيطرته وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . وشاء الله أن يتمتع الانسان بخيرات هذا الـــكون ويحالفه النجاح اذا أحسن استعمال هذه السنن بعد التعرف عليها واكتشافها ويصيبه الفشل اذا لم يحســـن استعمالهـــا أو التعرف عليها . ومع ذلك فطاقة الانسان محدودة وهنـــاك أمور لا خيـــار فيهـــا وتخرج عن طاقتـــه وكل مايستطيع أن يفعله هو أن يتبع أساليب الرقاية منها لا منع وقوعها ، كالزلازل والبراكين والأمراض والموت والليل والنهار والفصول . وهنـــاك أمور أودع فيها للانسان ميزة الاختيار فى حيـــاته وباستعمال حواسه لاختيار الهـــداية أو الضلال والاستماع الى الحق أو الاستماع الى الفسق والفجور والانحياز الى معسكر الفئة المؤمنة أو المروق الى معسكر الفئـــة الـــكافرة وذلك باستعمال أسباب العلاج أو اســـباب الخسران .

قال تعالى « يضل من يشاء ويهدى من يشاء » .

ومشيئة الله هى المشيئة الموافقه لعدله والله لا يهدى القوم الظالمين ومع ذلك فما نسميه أسبابا لاتقيد ارادة الله فالارادة الالهية حرة تعمل حرة طليقة فيستطيع خرق هذه السنن وحصول نتـــائجها من دون حدوث أسبابها المقدرة لها ، كما يحدث العكس ، فقد لاتحدث النتـــائج بالرغم من حدوث أسبابها فالله هو الذى خلق هذه السنن وهو القـــادر على تعطيل مفعولها .

(قيس القرطاس)

(٤٦)

شبهات حول المنهج الغربى والاسلامى

ان المنهج العلمى العربى يقوم على الهوى والاســـتعلاء ولا يصلح المنهج العلمى الا اذا قام على ضبط النفس والاخاء البشرى .

وقد واجهت المناهج والايدلوجيات الفرعية هزائم متوالية فى التطبيق لأنها عارضت الفطرة وطابقت الأهواء ولأنها لبشريتها لم تتمكن من متابعة تحولات الزمن والبيئــات . ان اخطر حقــائق المنهج العربى هو النظرة الجزئية والانشطارية ولا ريب أن انطلاق المســلمين على كل المستويات الاقتصــادية والاجتماعية لا يمكن أن يتم بدون الارتكاز على قاعدة أساسية تكون المصــدر والمنطلق ونقطة البدء ونقطة النهاية . الواقع أن هــذه القاعدة ليست سوى المنهج الأصيل الذى قــدمه الاســلام لبناء المجتمع، وعلى هذه القاعدة تقوم الثقافــة ويقوم النظــام السياسى والاجتماعى والاقتصادى والتربوى .

لقد وصل الفكر البشرى الى حد التحدى لرسالة السماء ودين الله حين اعطى الانسان لنفسه حق التشريع وتحويل أهــوائه ومطامعــه الى منهج فاسد .

ان الفكر الغربى الآن محاصر بنظريات ثلاث : هى النظرية المــادية والدوافع الاقتصادية والدوافع الجنسية ، وأهواء الوجودية ، وكلها تحتقر الانسان احتقــارا شديدا ، وهناك الجبرية التى تريد أن تخلى الانسان من المسئولية الفردية وتلقى تلك المسئولية على المجتمعــات وتلقى هــذه النظريات على المجتمعات الغربية طوابع مختلفة : طوابع المتعة الحسية: طوابع العنف والقسوة ، طوابع الحقد والبغض ، الاهتمام بالكم وتضحية النوع والتكيف .

وقد ثبت أن التجربة الغربيــة والتجربة الشيوعية مرفوضتان فى افق المجتمع الاسلامى وان التجربتين كانتا لمجتمع تختلف عن مجتمعنا وان الماركسية ماهى الا جزءا من نظام غربى ، وانها رد فعل لواقع الراسمالية التى عجزت عن اقامة مجتمع سليم ، ولا ريب أن الرأسمالية والماركسية كليهما من منبع واحد ، من حيث سيطرة مفهوم الربا ومن حيث التفســير المادى للتــاريخ .

ان أبرز مظاهر النظريات البشرية هو التصدع السريع حيث يعتريها الفساد بمرور الزمن فيصبح فى حاجة الى التعــديل بالحذف والاضــافة وهنــا يظهر الفرق الواضح والعميق بين منهج القرآن الثــابت الفطرى

الربانى المصـــدر الانسانى الطابع وبين منـــاهج الفكر البشرى حيث نرى نظريات ترضى التطلعات والغرائز .

ولقـــد استغلت القوى النـــازية هـــذا الاضـــطراب حيث يقـــول البروتوكولات : لـــكى نطمئن الى الرأى العـــام يجب بادىء ذى بدء أن نربكه تماما ، فنسمعه من كل جانب وبشتى الوسائل آراء متناقضة لدرجة تضل معها الطرق ، فيدركون حينئـــذ أن أقوم سبيل لهم الا يكون لهم رأى.

ان الهـــدف هو القضاء على وحدة الفكر الجامع التى أقامها القرآن فى الأمة الاسلامية وخلق الصراع الفكرى حيث نجـــد ذلك الغزو المتتابع الذى لاتثبت معه أى قيمـــة أو فـــكرة ، والذى ينقل الانسان الحـــديث من نظرية الى نظرية ومن وضع الى وضع ، وأخطر من ذلك أن كل نظرية تقدم للانسان الحـــديث لا تلبث ان تواجـــه بنظرية مضادة ، ومن هنا يجرى الجـــدل والحوار حولها ثم ينشأ الفراغ النفسى والاجتمـــاعى فى الولاء حول احداها ومعارضة الأخرى فاذا اســـتغلت نظرية قريبـــة من الفطرة الانسانية سحقت بقوة وظل الاعلاء والانتشار للنظرية المنحرفـــة واعلى شأن فرويد ودوركايم وماركس فى نظر معارضيه .

وقد تحمل النظرية على غير محاملها وتنقل الى أجواء وأوضـــاع لم يكن يقصدها صـــاحبها ، كما نقلت نظرية دارون من كونها نظرية بيولوجية الى نظرية اجتماعية كاملة . فاذا جرت محـــاولة للتوفيـــق بين النظريات المتصارعة على طريق البحث عن الفطرة والأصالة رمى صاحبها بالتلفيق والقسر ، رغبة فى أن يظل الصراع قائما .

وتكون نتيجة صراع النظريات المختلفة فى مجالات الفكر والتـــاريخ والاجتماع ان تؤدى الى خلق روح اللامبالاة والعزلة والانفصال فتتعمق روح الشك والسخرية واحتقار القيم .

ويقع الصراع فى المجتمعات بقـــدر الاجابات المختلفة عن ســـؤال واحد أو المواقف المتعددة ازاء قضية واحدة .

وميزة الاسلام أنه صـــنع وحـــدة الفكر الأساسية التى تحول دون

الصراع الفكرى وليس للانسان أن يضع مفهوما ويحمل النــاس عليـه ولــكن على الانسان أن يتبنى مفهوم الاسلام نفسه .

ثبت أن البضاعة الفكرية والثقافة التى قدمها الغــرب بشقيه الى الأمة الاسلامية ليست مجردة من الأهواء والتخطيط المرسوم للتغلب على خيرات البــلاد التى يتوفر فيها مصــادر الطــاقات دون أن يقابل ذلك تقــدم صناعى تكنولوجى وانها حافلة بالمعضلات والقلق والتنــاقض فى كل مذاهبها السياسية والاجتماعية والاقتصــادية ، وأنها فوق كل ذلك تدعو للسلام باللفظ وتلوح بالحرب بالأيدى والسواعــد وبريق العيــون والأسنان وتريد من العــالم المتخلف أن يستجدى اذنها فى كل خططه فى التقــدم وأن يتقبل الوصــاية الجشعة وهو مسلم بالأمر الواقع وبالقوة وكل ذلك مسلم به فى القانون الدولى الذى فرضت أعرافه على الشعوب الجــديدة كشرط أساسى فى دخول العــائلة الدوليــة يوم كان الغــرب المسيحى متفوقا متقــدما يصرف شئون الشعوب المختلفــة فى أفريقيــا والهنــد .

وعلينا أن ندرك أن الفكر الأوربى فى السياسة والفلسفة والاقتصاد بعــد أن كتبت له الغلبــة والانتشار وبهر أنظــار الشعوب الأخرى فى كل من آسيا وأفريقيــا عجز عن الاحتفاظ بوميضه وبريقه الخلاب حين تبين للشعوب الآســيوية والأفريقية ان مايفد اليها من الغــرب الأوربى والأمريكى من فلسفات وافــكار ساسية واقتصاد وفلسفة لايمكن تقبــله والانتفــاع به واســتيراده دون تحفظ كمــا تستورد السيارات والعــدد والماكينات .

لا اختلاف فى أن العلوم النظرية والعملية تراث انسانى قابل للنقل والتصدير والاستيراد ، أما الأفــكار الفلسفية والسياسية والعقائدية فلها مجال آخر لأن هذه الأفــكار تتأثر بالذات القومى والتــاريخى لــكل أمة وبالعقائد والمثل الدينيــة والتاريخية والأخلاق السائدة لقد كانت رســالة الاســلام أعمق حركة من حركات التحرر والتجديد لأنها بادرت منذ اللحظة الأولى الى تحرير الانسان من ربقــة الوثنية والثنوية ، والطاغوت وكل سلطان مارسته العقائد البــدائية ، وأعلنت مساواة الأجنــاس البشرية

أمام العدل الالهى وازالت ضروب التباعد بين الشعوب فلم تقو عروش كسرى وقيصر على صد تيار التحرر الذى تدفق من جزيرة العرب وتحطمت الطبقة الساسانية الفارسية المغلقة على صخرة المساواة وانجلى الاستبداد البيزنطى عن سواحل حوض البحر الأبيض المتوسط .

ثم داهمت أوربا العالم الاسلامى باسم الصليب وتحالفت مع الموجة المغولية الشرسة الغازية لتقويض العالم الاسلامى ، فتقوضت الدولة الاسلامية وأصبح العالم بحاجة الى من يدعوه للعدل على أوسع نطاق .

ولما كانت رسالة المسلمين عالمية الأهداف أعلنها الاسلام عقيدة ونطقت بها العربية لغة وتقبلتها الشعوب التى اعتنقت الاسلام وانضوت تحت لواء الأخوة الاسلامية ولكننا نسينا تراثنا حقبة طويلة من الزمن . ووقفنا مبهورين أمام التقدم الغربى الالحادى المادى فخيل الينا أن كل تقدم رهن بتقدم الغرب وجهلنا أن الحضارة والتقدم تغيرات وتحولات متقلبة وأن جوهر تراثنا الاسلامى هو فى التعامل الحضارى والتبادل مع جميع أنواع الحضارات والعقائد والفلسفات والأخذ منها والعطاء اليها نستقبل منها مايفد الينا لنمحصه ونعرضه على معايير النقد والعقل ونصدره تراثا انسانيا جديدا .

(صلاح الناهى)

المنهج العلمى الاسلامى

رسم علماء الحديث أصول المنهج العلمى الاسلامى : فالبحث فى الحديث يقوم على أساسين :

(أولا) النظر فى السند من ناحية اتصاله أو انقطاعه ويقوم على سلامة الرجال من الطعون واتصال السند أن يسلم سلسلة الحديث من سقوط راو فى أثنائه وذلك بأن يكون كل واحد من سلسلة السند قد روى الحديث عن شيخه .

(ثانيا) النظر فى المتن . وقد تميز بطريقة التبويب على الموضوعات: البخارى ومسلم والترمزى كما تميز بطريقة المسند ولكل امام مسنده : أحمد بن حنبل وعثمان بى أبى شيبه .

وصحيح مسلم يفضل صحيح البخارى لجودة الترتيب وسهولةالتناول بالاضافة الى انه اقتصر فى كتابه على ذلك الحديث المرفوع الى النبى ولم يمزجه بغيره من الأحاديث الموقوفة على الصحابة والتابعين كما صنع البخارى .

والبخارى يفضل بأنه من حيث الثقة برواته أقوى من الثقة برواة مسلم واشتراطه فى الراوى للحديث لقاءه بمن روى عنه ولو مرة واحدة

أما مسلم فقد اكتفى بمعاصرة الراوى لمن يروى عنه وان لم يلقه وقد اتفق على انه ينظر الى اهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر الى أهل البدعة فلا يؤخذ حديثهم ، وقام علماء الجرح والتعديل ببيان قال الرواة من حيث الضبط والعدالة والاتفاق فمن عدلوه قبلت روايته ومن جرحوه ردت روايته وكان التاريخ خير سلاح يتسلح به العلماء تجاه الكذابين .

ولقد عنى المحدثون بالنقد الداخلى للحديث كعنايتهم بالنقد الخارجى اما ماذكره المستشرقون أمثال جولد زيهر ومن تبعهم أمثال احمد أمين فى ضحى الاسلام من أن العناية اقتصرت على النقد الخارجى فهو كلام لا يقصد به الا مجرد التشكيك فى جهودهم العلمية فهذا ابن الصلاح فى كتابه (علم الحديث) يقول :

وقد يفهمون الوضع من قرينة حال الراوى والمروى فقد وضعت أحاديث طويلة تشهد بوضعها بركاكة الفاظها ومعانيها ويمكنا القول أن نقد المتن كان أول علوم الحديث وجودا وذلك يعرض المرويات على نصوص وقواعد الدين .

وقال ابن الصلاح ان معرفة علل الحديث هى من أجل علوم الحديث وأرفعها وأشرفها وانما يضطلع بذلك أهل الحفظ والفهم الثاقب .

ويمكن اجمال موقف الفكر الاسلامى مما يلى :

اولا : لا يعترف الاسلام بأى نظرية عن تطور الأديان وينكر انكارا باتا النظرية القائلة بأن البشرية مرت بثلاثة أدوار بالنسبة للتسلسل الزمنى وهى دور الخرافة ودور التدين ثم دور العلم ، كما ينكر النظرية الأرسطوية الطوطمية ، عن نشوء الأديان التى تدعى أن الابن أراد الاعتداء جنسيا

على أمه فمنعه أبوه فقتله ثم ندم فنشأت المحرمات وأن فكرة الألوهية ابتدأت بعبادة الحجر ثم الحيوان ثم الانسان ثم الآلة ثم العلم ، وذلك أن القرآن يقرر أن الاسلام ابتدأ ببداية البشر وكانوا لايحيدون عن التوحيد ثم حدثت انحرافات بتقديس بعض الأشيا ثم نسوا بمرور الزمن أن هذه مجرد واسطة فعبدوها من دون الله وبما أن هذه الانحرافات قــد حدثت فى عصــور ممتدة سحيقة فلا دليل على مايقولون والحكم للقرآن وحده فى هذا المجال بحكم العقل والواقع لا بحكم الايمان وحده .

« تلك من انبــاء الغيب نوحيها اليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للصابرين » . (قيس القرطاس)

ثانيا : لا يقر الاسلام مفهوم الجبرية اللاهوتية التى تقول أن الانسان ليست له ارادة وانه مسير غير مخير فقد شاء الخالق تبارك وتعالى أن يكون الانسان قوة مريدة فعالة فى هذا الــكون . وقد أعلن القرآن اقراره بأثر البشر وفعاليتهم : « ظهــر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى النــاس » وأن التعلل بمشيئة الله باطل (وقال الذين أشركوا لو شــاء الله ماعبدنا من دونه من شىء ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسول الا البلاغ المبين) .

كذلك لا يؤمن الاسلام بالجبرية المادية التى تقول ان الانسان ليست له ارادة وانما الوسيلة المادية هى التى ترسم التطور الاقتصادى ثم الواقع الاجتماعى الذى يجب أن يعيش فى حياته فما ينحته الانسان من أصــنام وتماثيل لا تتحكم فى حاته كما يزعم هذا التفسير :

« أتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وما تعملون »

صحيح أن الآلة تدل على مدى الرقى الذى قطعــه الانســان فى الميدان المادى كما انها تسهل له حيــاته بمشقة بسيطة وهذا هو أثر الآلة وما سواه مبالغة .

ثالثا : لا يؤمن الاسلام بفلسفة هيجل التطورية للتاريخ التى تقول بارتقاء الحضارات حضارة بعد حضارة وبعد أن ترتقى الحضارة الى أرقى مايمكن تظهر فى حضن الحضارة أفــكار معادية لها وتشرع فى محاربة الأفــكار القديمة وتكون نتيجة هذه المحاربة حصــول الامتزاج بين بعض

العناصر القديمة وأخرى جديدة تكون موجودة من السابق ولـكنها تقوى فى دور الاعتلال ، وأن الحضارة لا تزول الا بزوال الأسس التى قامت عليها أو بهزال الأسس التى تستند عليها .

رابعا : لا يقر الاسلام النظرية الفردية لتفسير التاريخ ولجعل التاريخ من رسم أفراد معدودين ولـكن الاسلام لا ينكر أثر الأفراد كعـامل من عوامل رسم التاريخ بما أودع فيه من قوة سواء فى الطريق الصحيح او الطريق الخاطىء .

فأثر فرعون وهو فرد لا ينكر : « ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيى نساءهم انه كان من المفسدين » وأثر ابراهيم لاينكر فى انقاذ أمة من عبـادة الأصنام وان وزنه يعادل وزنها بل يزنها : « ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين » .

كما لا يقر الاسلام النظرية الجبرية للمجتمع لأنه لاينكر اية نظرية تثبت الجبرية على الانسان وتعطل ارادته حث انه يؤكد مشيئته الانسان ومسئوليته عن أعماله ومع ذلك فانه لا ينكر أثر المجتمع فى سير التاريخ.

خامسا : لا يؤمن الاسلام بالنظرية الجغرافيةوالطبيعية المتطرفة التى تبالغ فى اعطاء الأثر للأنهار والجبال والتضاريس وانهـا هى التى تسير التاريخ . أما أن تكون هى احدى العوامل المؤثرة فهذا مالا شك فيه فى كثير من الأحيان . فانهزام نابليون فى زحفه على موسكو تدخل العـامل الجغرافى بالمنـاخ كعامل من عوامل انهزامه وليس معنى ذلك انه سبب الانهزام الوحيد ، فقد تدخلت عوامل أخرى منها عبقـرية القائد الروسى الفردية . وأما انتصار المسلمين فى فتحهم للاندلس فقد ذاب فيه العامل الجغرافى أمام العقيدة .

البهائيــــة

كشفت الدراسات الاستشراقية الروسية الحديثة الكثير من الحقائق حول قيــام الماسونية والبهائية حيث تحفظ المتاحف الوثائقيــة اليوم فى روسيا وثائق كثيرة تبين جهود الضباط الروس ورجال السفارة الروسية

فى طهران وتروى أدوارهم فى تأسيس الحركة البابية البهائيـــة والأموال والخبرة التخطيطية ، ودفع الأرمنى الروسى (منوجهرخان) الى اشهار اسلامه واستبطان نحلتـــه ليمكنه الاشراف المبـــاشر على الحركة البابيـــة ورعايتها وتكشف هـــذه الوثائق كما يقول الدكتور حسن بغدادى ان البابية والبهائية المتطورة عنها : ابتكارا روسيا أراد به القياصرة الروس منافسة المساعى الغربيـــة فى ديار الاسلام ، فاذا عرفنـــا أن المـــاسونية ابتكار يهودى صرف استفاد من امكانيات الانجليز والفرنسيين والألمـــان ، وان القادنية ابتكار انجليزى صرف استخدموه للقضاء على دعوة الجهاد الاسلامى الذى كان يمارسه علماء الهنـــد الابرار عرفنا الى أى حد يجرى التخطيط لاحتواء الاسلام والمسلمين .

وقد جاء تخطيط الروس فى انشاء الحركة البهائية نتيجـــة لطموح القياصرة للاستيلاء على البلاد العربية مهد الاسلام وتطويق الدولة العثمانية من الجنوب من بعـــد ما ضربوا الاســـلام ضربتهم الأولى فى بلاد القوقاز والتركستان وازبكستان واستولوا على عواصم الاسلام الـــكبرى هنـــاك (بخارى — سمرقند — مرو) وانهوا قصص المجد التى سطرتها .

وما البهائية والقادنية والماسونية فى هذا العصر الا حركات بديلة ووريثة للقرامطه واخوان الصفا والاسماعيلية والنصـــيرية (مع تعـــدد الاسماء واختلاف الأزمان) والهدف واحد ، كمـــا ســـخرت فلول الدولتين المجوسية والرومانية طوائف الهجيمة والقرامطه واخوان الصـــفا لتهـــديم الدولة العباسية فى العصر العباسى كمـــا استغل الصليبيون الاسماعيلية والنصيرية لمحاربة آل زنكى وصلاح الدين والتجسس عليهم . وقد استغلت دول الغرب هـــذه الحركات الجديدة لهـــدم الخـــلافة الاسلامية والدولة العثمانيـــة .

وقد أنهت ثورة البلاشفة على روسيا هذه المخططات مما اتاح للانجليز فرصة وراثة القيصر فى رعاية الحركة البهائية منذ ذلك الحين وحتى اليوم وقد استعان البلاشفة ببعض من سايرهم من البهائيين وتدرجت حالهم الى اعتنـــاق الشيوعية . وبانتقال الوصاية على الحركة البهائية الى الانجليز فتحت صفحة جديدة من ازدهارها . وقد أوصلوا من دسوه من عملائهم الى مناصبهم القيادية . وجددت البهائية نشاطها فى ايران ونمت محافلهم

فى عكا وأنحاء فلسطين كجزء من تخطيط اليهود الروس لاستغلال هـذه الحركة بواسطة القيصر للتمهيد للهجرة اليهودية الى فلسطين . وهكـذا دخلت الماسونية والوكالة اليهودية هذه المحافل البهائية ضمن قواها العاملة فى فلسطين لانشاء الدولة اليهودية .

وقـد وصلت طلائع التبشير البهائى الى العراق المجـاورة لايران لتنتشر بها خلال القرن الماضى حيث ظهرت داعية البهائيين المسماة قرةالعين مستخدمة ذلك الاغراء الانثوى وتقديم جسدها بأساليب شيطانيـة لجر الشباب الى الطائفة .

كما أن الحكومة البريطانية حملت الملك فيصل للتدخل لابطـال حكم قضائى صادر ضد الطائفـة البهائية فى دعواها ملـكية مبنى محفلهـا فى بغداد .

وقد شاع خبر التعاون العميق بين المحافل البهائية فى عكا ودولة اسرائيل بعد انشائها حيث نهج اليهود بدور البهائية المساعد فى تمكينهم من انشاء دولتهم ، ودور نداء الميرزا حسين رأس الحركة البهائية وابنـه عبد البهاء ليهود العالم بالتجمع فى فلسطين خلال القرن التاسع عشر .

وقـد بدلوا بعد ذلك خططهم وابتكروا للماسونية نوادى الروتارى والليونز تمويها وخداعا للسذج ، وابتكروا للبهائية أسماء جديدة تحت اسم الجهاد المقدس .

هذا التبديل فى الأسماء والأساليب هو ثمرة مباحثات المؤتمر البهائى العالمى المنعقد برعاية الانجليز فى لندن ١٩٦٣ .

وفى مارس ١٩٧٢ هـدم المحفل البهائى فى مصر واعتقل أكثر من مائة بهائى مصرى من الرجال والنساء وضبطت بحوزتهم خطابات خطيرة تدعو الى نبـذ الشريعة الاسلامية وقـد اتخذوا من طنطـا مركزا عاما وكانت لهم مناصب ولا يخفى أن امراة بهائيـة عريقـة فى زيفها من أصل عراقى كانت تخـدم المصالح البهائية من خلال سلطة زوجهـا الواسعة وقد ذكر كراتشوفسكى فى كتابه عن المخطوطات الدينيـة خبر لقائه ١٩٠٨ ببهائى يعمل نساخا بدار الـكتب بمصر ذكر له بعض أخبارهم اطمئنانا له لـكونه من روسيا راعية البهائية اذ ذاك .

الفرعونيــــة

قال أرنولد توينبى : عبثا بحثت عن الحضارة الفرعونية فى كيان مصر الحديثة وأعلن أن الحضارة الفرعونية قــد ماتت من قــديم ، وهذه حقيقة يجب أن تكون موضع نظر الخادعين والمخــدوعين على السواء ، فليست الفرعونية الا تلك التماثيل المـكدسة فى المتــاحف أو المعلقة على سفوح الجبــال ، أما فى الوادى فقــد انقرضت كما يقول دكتور جمال حمدان كما انقرضت من قبل تماسيح النيل فى النهــر ، وان انتقــال مصر الى الاسلام بعــد أن مرت بها الدعوة الابراهيمية الحنيفية ودين موسى ودين عيسى ليعطى الصورة النهائيــة لحضارة كونها الاســلام ولثقافة بنــاها القرآن واللغــة العربية ويمثل وضعها هــذا انقطاعا طبيعيا لا سبيل الى استعادته مع العصــور الحديثــة والديانات القــديمة ولم تــكن العروبة والعربية حديثة على مصر بدخول الاسلام بل كانت موجات متوالية خرجت من الجزيرة العربيــة قبل آلاف السنين ووسدت هــذه المنطقة وأعدتهــا للنقلة الى المرحلة الأخيرة .

(٤٧)

التفسير المادى للتاريخ (١)

يحاول التفسير المادى الاقتصادى للتــاريخ أن يصور للنــاس أن الارتقاء المبدئى يسير الى جنب الارتقاء فى الوسائل المادية ، بينما التاريخ بين لنــا خلاف هــذا الأمر فى بعض الأحيــان بل فى كثير منها . فان تعلم الوسائل المــادية والمعلومات العلمية تسير على خط غير الذى تسير عليه المبادىء فى ارتقائها المزعوم .

ومصــداقا لذلك نرى المبــادىء البشرية تنتكس انتكاسات فظيعــة وبعضها ينــادى بالهمجية الأولى وسبب الانتكاسات الفظيعة فى المبادىء البشرية لأن الجماعة الأولى التى تمثل المبــدأ البشرى الأولى عندما تعلن الحرب على الجماعة الثانية التى تمثل المبــدأ البشرى الثانى تشوه كافة أفــكار المبدأ للجماعة الثانية بينما تستفيد من الوسائل المادية والمعلومات

العلمية ، بل قد تستعمل نفس الوسائل اذا حصلت محلها فى حربهـــا مع الجماعة الأخرى .

• ليس من مهمة الانسان أن يقوم بوضع المبادىء والنظم حتى لا يحطم البشرية خصوصا وانه لم يخلق لهـــذا الأمر ، ولـــكن من المفروض أن تظل مبـــادئه فى مستواها على الأقل ان لم تتقدم قليلا بل الأصح أن تتقدم ولو قليلا جـــدا وتستمر فى تصحيح أخطائها كلما واتتها الفرصة . وهذا السبب فى ارتقاء الوسائل المـــادية ارتقاء كبيرا بينما تنتكس المبـــادىء والنظم بينما تسير الوسائل المادية فى خط مائل ارتقائى تسير المبادىء فى خط منحنى ترتقى أرتقاء بسيطا على شكل منحى ثم تتكس انتكاسة فظيعة. صحيح أن بعض الحالات تصادف فيها الوسائل المادية انتكاسات مع تهديم ولـــكنها على كل حال فترات بسيطة بل حتى عملية التهديم بسيطة ، ولا تنال من كافة الوسائل كما تنال فى المبدأ بكامله .

(٤٨)

أهل السنة والجماعة

ان مذهبنا هو مذهب اهل السنة والجماعة وليس مذهب الفلاسفة أو الباطنة أو المعتزلة الغلاة أو التصوف الفلسفى ، ولقد كان من عظمة الاسلام وكماله أن جمع بين العقل الذى عرفـــه المعتزلة ، والقلب الذى عرفه الصوفية ، واذا أردنا ان نتخذ نموذجا لنـــا فان هذا النموذج موجود فى انسان واحد هو محمد رسول الله صلى الله عليـــه وسلم الذى هو التطبيق العملى للاسلام : القرآن هو المنهاج ، هو القانون والرسول هو النموذج ، هو التطبيق « لقد كان لـــكم فى رسول الله اسوة حسنة » .

فاذا ماعدوناه فالـــكل بشر وفى درجة واحدة ، ونحن نؤمن بتتابع الصحابة حسبما جاءوا ابو بكر وعمر وعثمان وعلى ، لانفضل أحدا على أحد فكلهم له عمله ودرجته وسابقته فى الاسلام ومفهومنا الاسلامى واضح صريح ، وهو أن الاسلام لم يورثه الرسول صلى الله عليه وسلم احـــدا من آل بيته ، وانما قدمه للمسلمين جميعا ولم يكتم شيئا عن الناس منبـــه

أو اختص به احدا ، وانما قدم الاسلام للناس جميعا فليس لفئة ما من المسلمين ميزة خاصة ولا شريعة خاصة ولا نظام خاص .

ولم يجعل الرسول لأهل بيته من الأمر شيئا يزيد عما ما للمسلين عامة وقال قولته المشهورة : يا عباس ، يا على ، يا فاطمة : اعملوا فانى لن أغنى عنكم من الله شيئا . وقال لأسامه حين توسط فى رفع الحد عن المخزومية : اتشفع فى حد من حدود الله ، والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها ، فلا امتياز لأحد لقرابته لرسول الله ومفهومه أن القرابة قربة هى أبو بكر وقرابة هى على ، ولقد قال الله تبارك وتعالى لنوح عن ابنه الذى خرج عن مفهوم الايمان : انه ليس من اهلك فالصلة فى الاسلام بالعمل وليست بالنسب ، ولقد ادخل المسلمون مفهوم التشيع داخل فكرهم فأحبوا اهل البيت حبا صحيحا ولكنهم احتفظوا بمفهومهم الكامل بأن الله هو خالق كل شىء وان الرسول بشر يوحى اليه (قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى) والمسلمون بعد ذلك متساوون ليس لأحدهم امتياز وليس فى الاسلام ارتفاع للقلب عن العقل أو العقل عن القلب وكل الذى قالوا بذلك بعدوا عن فهم توازن الاسلام وتكامله ومن هنا فنحن ندرس الفلسفة ولكن الفكر الفلسفى ليس هو الفكر الاسلامى وانما الفكر الاسلامى قرآنى المصدر ، ونحن نحب الرسول ونحب اهل البيت ولكننا تحرك دائما داخل اطار التوحيد الخالص للحق تبارك وتعالى لا شريك له . ونحن نكبر العقل ونراه مصدر التكليف ولكن لانؤمن بأنه قادر على أن يفصل فى كل الأمور فهناك الوحى هو هادى القلب وهو الضوء الكاشف أمامه ولا ريب أن هناك نظريات من غير مفهوم الاسلام القائم على القرآن تلمع وتعجب ذوى النظر القاصر ولكنها ليست من الأصالة بل هى من هوى النفس .

٢ — ان اخطر مايعتمد عليه الاستشراق والتغريب فىدراسة الاسلام أو الكتابة عنه ثلاثة مصادر :

اولا : الفكر الباطنى الذى كتبه اخوان الصفا والرازى الطبيعى.

ثانيا — الفكر الفلسفى الذى كتبه ابن سينا والكندى والفارابى وابن مسكويه فقد تعلم ابن سينا على أيدى الاسماعيلية وابن مسكويه اتصل

بابن العميد ثم بعـــلاء الدولة الديلمى وكذلك ماكتبه ابو البركات البغدادى صاحب كتاب المعتبر فى الحكمةوهو يهودى اعتنق الاسلام توفى ٥٦٠هـ .

ثالثا : الفكر التصوفى الفلسفى الذى كتبه أمثال البسطامى والحكيم الترمذى والجلاح والسرروردى فى فلسفة الاشراق .

والمعروف أن فلسفة الفـــارابى فى تفسير النبوة تقوم على أســـاس مفاهيم البـــاطنية وقد استقى الفارابى والباطنيـــة النظرية من مصـــدر واحد هو جمهورية افلاطون وفلسفة ارسطو .

واخطر ماهنـــاك الفرق الغالية من الشيعة الذين لايؤمنون بالقرآن الذى بين أيدينـــا وتبدأ الشبهات من قولهم الباطل بأن لآيات الله ظـــاهرا وباطنـــا وان هـــذا العلم الباطن لايعلمه الا ائمة الشيعة القائمون منهم والغائبون وانهم المهيمنون على التأويل ، وكذلك القول بأن القرآن كتاب له ظاهر وباطن فهو كتاب مستور ومحجوب عن الجمهور وبينما كتب السنة تورد الرأى وضده ، وحجج كل فريق فان فى كتب الشيعة اصولا لا تقبل المناقشة لأنها مستورة وباطنه وخاصة مبداى العصمة والرجعة .

٣ ـــ هناك حقيقتان اساسيتان هما :

أولا : ان دعاة السلفية يعيشون الآن موقف الانفصال من دعاةالتربية الروحية مع أن كليهما مكمل للآخر فان دعاة التوحيد ينقصهم تكاملالاسلام شريعة وخلقـــا ودعاة التصوف ينقصهم تكامل الاسلام توحيدا وشريعـــة ان المفهوم الجامع عقيـــدة وشريعة وخلقا لم يعرفه ألا الاسلام ، ولذلك فلابد من أن يتسلف الصوفية ويتصوف السلفيون ويلتقى الجميع حول حلقة اساسية تجمعهما هى تطبيق الشريعة .

والاسلام يرتفع فوق جدلية الفلاسفة والمتكلمين والمنـــاطقة والمعتزلة فى العقيدة كما يرتفع عن صوفية الأعاجم القـــائمة على وحـــدة الوجود والاتحاد والحلول .

ثانيا : ان مفهوم التوحيد الخالص لم يعرفه الا الاسلام .

أما دعوات التوحيد التى عرفتها كتب التاريخ فانها لم تستكمل الجمع بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية .

ومفهوم التوحيد الخالص لا يكفى بتوحيد الربوبية الى الايمان لوجود خالق العـــالم فحسب بل لابد من توحيد الألوهية الذى يعنى توحيد العبادة اى عبادة الخـــالق وحده لا شريـــك له من الأهـــواء والأنداد والأشباه والأوثان (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) فلا نكون « ممن يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله » هذا التوحيد الذى لا يعقل التمثيل والنسبة والتعطيل كما حدث فى الفلسفات والأديان التى سبقت الاسلام .

ومن هنـــا فان مايقال عن توحيد اخناتون أو غيره من ديانات أو نحل موحدة كله باطل فان الاســـلام وحـــده هو الذى حرر الانسان من عبـــادة غير الله .

٤ — أعظم مافى الاسلام تجرده من وراثة النبوة .

فان حقيقة أن النبوة لاتورث التى قدمها الاسلام هى التى أعطت هذا الدين دفعتـــه القوية حين عرف الناس فى آفاق العالم أن الذين قاموا على الدين بعد النبى ليسوا من أهله أو قربته لقد وضع الاسلام قاعدة ذهبية هى أن خلافـــة الرسول من بعـــده انما تكون للاقرب فى الأخذ بكتاب الله وأسوة الرسول ومن بين هؤلاء الذين قربهم الرسول اليـــه من أصحابه وأهل مشاورته وذلك لفضلهم ورأيهم وسبقهم الى الاسلام .

فالنزعة الى توريث الملك هى أصلا نزعة فارسية تظهر فى النسق الـــكسروى كما يرث أبنـــاء الملك فى فارس ملك أبيهم فان لم يكن له ولد ورثه أقرب أهله اليـــه .

أما الاسلام فقد دعا الى الاختيـــار للاصلح ورأى ذلك أكثر عدالة ورحمـــة .

٥ — علينا تصحيح الفكرة القائلة بأن الاسلام لم يحكم واقع الحياة الا فى فترة محدودة من عصر الراشدين بينما تبين الدراسات الاجتماعية والنفسية أن الاسلام وان تخلى عنه الحاكمون بدرجة أو بأخرى فانه ظل يحكم المجتمعات ويوجهها وتتغلغل روحه فى أعماق النفوس وتصبغها وقد استمر الاســـلام يعطى هـــذه الفاعلية الاجتماعية والنفسية الى عهـــد قريب حيث نجحت المؤامرات الغربية فى تجميد قدرته على التوجيه النفسى والاجتماعى .

(٤٩)

شبهات حول الوثنية

قطع الاسلام الامتداد الفكرى والثقافى بين ماقبل الاسلام وبعده عن العرب أولا ثم فى كل مكان ذهب اليه ، وقد ذهب الى كل مكان واثر فى جميع النحل والأفكار ثم قطع امتداد الوثنية فى العالم كله .

وقد صدق من قال أن الاسلام احدث رقيا عظيما فأطلق العقل الانسانى من قيوده التى كانت تأسره حول المعابد وبين ايدى الكهنة من ذوى الأديان المختلفة فارتفع الى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة .

وقد خلص الاسلام الفكر الانسانى من وثنية القرون الأولى .

وكان من ابرز خصائص الاسلام أنه حرر الانسان من زيف الفكر البشرى والوثنى والمادى الذى تشكل نتيجة استعلاء الدعوة العنصرية أو خطأ تفسير الرابطة بين الألوهية والبشرية أو محاولة اثارة الشبهة حول وحدة البشرية ووحدة الدين وثبات الأخلاق أو حول الفصل بين الأخلاق والدين أو بين العبادة والشريعة . والدعوة الى انكار الغيب والجزاء أو الدعوة الى سقوط التكليف أو الفيض والاشراق والاتحاد والحلول ، أو فصل الدين عن المجتمع والدولة . أو طرح النظرية المادية المنكرة لوجود الخالق أو الدعوة الى التحلل والاباحة والتحرر من الضوابط والحدود .

ولقد كشف القرآن وجه الحق فى هذه القضايا جميعا وحررها ولذلك جاء الاسلام مصححا لكل هذه المفاهيم الزائفة التى استشرت وتمثلت فى فلسفات ومذاهب ودعوات سواء منها ماذهب مذهب العقلانية الخالصة أو الروحية الخالصة ، ولما كان الاسلام ممثلا للفطرة ، وجمع بين قوى الروح والمادة ، والعقل والقلب ، والنفس والجسد والحياة والموت والدنيا والآخرة فى اطار التوحيد الخالص لله ، كما جمع بين الثبات والتطور ، فأقر ثوابت هى بمثابة الدعائم وسمح بالتغير والتطور من داخلها وفى اطارها وأقر المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى وعارض

التناسخ والاشراق ووحدة الوجود والحلول . والاسلام بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع فانه يقرر الاعتراف بالرغائب البشرية واباحتهـا فى اطـار الشريعة والأخلاق والضوابط الحـافظة للشخصية الانسانية من الانهيار والتحلل ومن الربط بين الرغائب المـادية والأشواق الروحية ، والاعتراف بالطـاقة والجهد حيث لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، كذلك يقرر الاسلام منهج المعرفة الجامع الذى يرفض الفصل بين القيم ويدعو الى تكاملها فى توازن دقيق ، واقرار مفهوم التقدم على أنه تقدم مادى ومعنوى معا خالص لله ، وحيث يقوم منهج المعرفة على القرانية الخالصة وليس المنهج الفلسفى أو المنطقى ، باعتبـاره أصـدق المنـاهج وأقربها الى الفطرة البشرية وقد جاءت الشريعة الاسلامية ذات قواعد كلية واطارات مرنة ومن هنـا صلاحيتها لتكون شريعة انسانية عالمية صالحة لكل زمان ومكان ، وقـد قامت على البرهان وتحكيم العقل والنهى عن الهوى وفتح باب الاجتهاد . وكذلك أنكر الاسلام القول بغير دليل وقرر عـدم كتمان العلم ودعا الى التحرر من التبعيـة والتقليد واقر مبدأ الأصالة وفرق بين العقائد والمعارف عامة وفرق بين المعـارف الجوهرية والمعارف غير الجوهرية ودعا النظر الى ما يقال ودعا الى معرفة الرجال بالحق وفرق بين مقاييس العلوم المادية ومقاييس العلوم الانسانية كالنفس والأخلاق والمجتمع ، كذلك قرر الاسلام أن كون عمل الانسان خالصا لله ولحساب الله وبالوسائل التى أ.ادها الله وفى الحـدود التى حددها وفى الاطار الذى رسـمه وعلى الطريق الذى سار عليه الأبرار والمجاهدون .

كذلك فقد أقام الاسلام قاعدة التوازن بين مختلف القوى البشرية ، وخاصة بين الروح والجسد والعقـل والقلب ورفض التطرف ممثلا فى الاباحية والرهبانيـة على السواء ، وممثلا فى الترف والحرمان فحال بذلك بين خطرى الـكبت والانحلال ، وهو اذ يوازن بين المـادية والروحيـة فى الانسان يوازن بينـه كفرد وبنه كعضو فى المجتمع فالفرد جـزء من المجتمع والمجتمع هو كل الأفراد ، وبذلك تفادى الاسلام انحرافات الشطط وأخطار التطرف وقضى على مايسمى بالصراع أو التنـاقض أو الضـياع النفسى وحفظ للانسان وجوده بعيـدا عن الانهيار الذى يفرضه الانطلاق والتدمير الذى يفرضه الجمود وأعلن أن كل معطيـات الحيـاة مطبوعـة

بطـــابع الأخلاق والتقوى ، وأخلاقيـــة الحيـــاة من أكثر أسس الاسلام والتقوى قمة الأخلاق الاسلامية وهى تحمل معنى الـــكظم والامتنـــاع عن الدنايا والارتفـــاع فوق السيئات .

والاسلام هو الذى أقر سقوط عبودية الفرد للفرد وعبودية المـــرد للمجتمع وعبودية النفس الانسانية والعقل البشرى للاوثان والمادة وحرر الانسان من كل عبودية لغير الله تعـــالى . وقرر تضـــامن المجتمع فى المسئوليـــة عن كل اقرارة وأقام العـــدل الاجتماعى على أساس التضامن والمساواة والأخوة . وفى الاسلام التقى العلم بالدين والاسلام هو الذى دفع البشرية الى الخـــروج من دائرة المنهج اليونانى القيـــاسى الى منهج التجريب فأنشأ المسلمون المنهج التجريبى ثمرة دعوة القرآن لهم بالنظر فى الـــكون والتأمل فى الـــكائنات ومعرفة أسرار الوجود وجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وحث على العناية بتنمية العقل الانسانى وفضل العلم على العبادة ، وأقر مفهوم العلم على أنه علم الدنيا والدين، والعلم فى الاسلام يزكو بالانفاق .

وأقام الاسلام الفطرة ودعا الى نقائها وشـــدد بالنهى عن افسادها بالتعـــاليم الضارة ودعا الى التحرى عن الحق والى أن يغير المسلم رايه متى تبين له وجه الصواب ولا يصر على البـــاطل ، ولا يأنف من أن يأخذ الحقيقة من أى وجه يأتيه والا يتعصب لرأى تعصبا يحول بينه وبين النظر

كذلك دعا الاسلام الى الانتصاف من النفس واقرار الحق بالنسبة للقريب والبعيد والصديق والغنى والفقير . واليوم اذ تواجه البشرية هذا الفكر الوثنى المـــادى ممثلا فى مذاهب جديدة وفلسفات براقة تحاول أن تخطف الأبصـــار فان الاسلام قادر على أن يقدم الحقائق التى تحرر العقول وتشفى الصدور ، ومازال الاسلام هو الأمل المرجى للبشرية للخروج من أزمتها وهو الحقيقة القادرة على العطاء الصحيح للنفس الانسانية والعقل البشرى بما يحقق للانسانية القدرة على التماس الصراط المستقيم بعـــد أن تفرقت بها السبل .

(٥٠)

شبهات حول الرقيق

لقد حفلت كتب التاريخ المقررة على مدارسنا بأخطاء كثيرة منها أن تجارة الرقيق فى أفريقيا كانت تجارة عربية يحترفها العرب الذين يشترون أو يخطفون الأولاد والبنات ويصدرونهم الى الجزيرة العربية وما وراءها من بلاد المسلمين ليكونوا الرقيق والجوارى .

ولقد كشفت الأبحاث الجديدة أن تجارة الرقيق كانت فى أيدى الاستعمار وان كتاب « جذور » الذى ألفه الباحث المنصف (اليكس هيلى) يكشف عن أن الذين مارسوا هذه التجارة على نطاق واسع وبأساليب متقنة على مدى قرنين أو أكثر من الزمان هم الانجليز الذى تخصصوا فى فرق مختلفة للذهاب الى أفريقيا لشراء الرقيق واختيار الأصناف المطلوبة فى رحلات بالغة القسوة والعنف أو فى تولى بيع الرقيق على الشواطىء الأمريكية لأصحاب مزارع القصب والقطن والذرة وان هذه المرحلة السوداء جاءت فى أعقاب المجد الاسلامى الذى عرفته أفريقيا ابان امبراطورية غانا وامبراطورية مالى وملوكها المسلمين الذى كان العالم المتحضر يتحدث عن قصورهم ومدارسهم وجامعاتهم ورحلاتهم فى الحج الى مكة فلماضعفت هذه الدول الاسلامية وتفككت بدأ الأوربيون يتسللون الى أفريقيا ومارسوا تجارة الرقيق ثم بلغت أوجها على أيدى الانجليز ، وقد أثرى الانجليز واستثمروا أموالهم فى تجارة الرقيق وتكدست الأموال وأصبحت أحد مصادر الثورة الصناعية .

وهناك من التقديرات مايذهب الى أنه خرج من أفريقيا عشرون مليونا من الشباب والصبية والفتيات عصفت الأمراض الأوبئة بعدد كبير منها وربما وصل نصف هذا العدد وقد أضعفت تجارة الرقيق أفريقيا لأنها أخذت أقوى عناصرها .

(٥١)

الشيعة والسنة

لا ريب ان التقريب بين السنة والشيعة هــدف من أكبر أهــداف الوحدة الاسلامية وسوف يحدث أثرا لا مثيل له فى تاريخ اليقظة الاسلامية فقد كانت المحاولات للتفريق وتعميق الخلافات من جانب النفــوذ الأجنبى عاملا خطيرا خلال القرن الماضى للحيلولة دون الالتقاء بين شقى الأمة ممن يقولون لا اله الا الله . غير أن الأمر يقتضى اعادة النظر فى مسائل كثيرة اهمها الالتقــاء على حب رسول الله صلى الله عليه وسلم بوصــفه هو وحده المعصوم بالنبوة والرسالة والوحى وأن تكون العاطفة موجهة الى حب رسول الله صلى الله عليه وسلم متابعــة له واستئناسا به وأن تكون المساجد أكثر اهميــة فى نظر المسلمين من المشاهد بعيــدا عن الزخرفة الشديدة المسرفة فى استعمال الذهب والفضة وأن يكون هنــاك حرص شــديد فى أن لا تكون الامامة منافسة للنبوة أو مشاركة لها فى كثير من الصفات .

وأن تكون الصلة بالنبى وآل البيت هى صلة متابعة على طريق الدعوة وأداء الفرائض والدفاع عن بيضة الدين .

والملاحظ الآن فى العواصم الشيعية أن الزحام يستأثر بالمشاهد دون المساجد فهذه المشاهد غاصة بالزوار عامرة بالرجال والنساء حيث لايوجد فى المساجد مثل هــذا الاقبــال على الصلاة والعبــادة ، كما أن الصلة العاطفية والحمــاس الداخلى فى حب أهل البيت وتعظيم الأئمــة يكاد يشغل كل فراغ فى النفس والعــاطفة والعقل والضمير ، ويخشى أن يكون قــد اخذ الشىء الــكثير من حق النبوة ومن شخصية الرســول الأعظم الذى نال به أهل البيت الشرف واستحقوا الحب والتعظيم .

بل ان الشعر الذى قاله شعراء ايران فى مدح أهل البيت وخاصة أمير المؤمنين على بن أبى طالب ينــافس ويزيد على ماقيل فى الرســول صلى الله عليه وسلم .

بل ان هذا الهيام بأئمة اهل البيت قد وصل الى حدود عالية بظهور صور لأئمة أهل البيت وأمير المؤمنين على بن أبى طـــالب فى المساجـــد والبيوت .

وزيارة الأضرحة والمشاهد وشد الرحال اليها مما نهى عنه الاسلام ويخشى أن يكون العـــامة قـــد جعلت منافسة للنبوة أو مشاركة لها فى كثير من الصفات .

وفى مجال التقريب بين المسلمين أن يوجه التيار الى النبوة التى هى ملتقى كل مسلم وأن تتغير نظرة اخواننا اهل الشيعة الى صحابة رسول الله وازواجه أمهات المؤمنين فلا يقوم تقارب حقيقى الا بالاحترام المتبادل الشخصيات التى نصرت النبى ونشرت الاسلام .

الباب الثاني

الأدب

الأدب العربي ٠

الاباحـــة ٠

الأدب المـكشف

التجـديد

الفكر والأدب

القصــــة

الأدب العـربى

أبرز مظاهر الأدب العربى هى انسانيته وطوابعه القائمة على الحق والخير والعدل ، وقد وجهت للأدب العربى اتهامات متعددة وأثيرت شبهات كثيرة ، من أبرزها القول بتفشى السجع فى القرن الرابع الهجرى ، ومن الحق أن يقال أن السجع لم يجد قبولا من الكتاب العلماء ، ولدينا شهادة المقدسى فى هـذا « لم يلق البـديع قبولا من الـكتاب الـكبار ، وانما نسب حب السجع والقوافى الى العامة » وقد استشرى السجع فى مرحلة ضعف الأدب العربى وتأثره بالآداب القديمة وان ظلت الدراسات الثقافية فى مجال الاجتماع والأخلاق والساسة وغيرها من الجوانب الايجابية فى الفكر الاسلامى قوية . وقـد جاء هـذا الانحراف نتيجـة لآثار الغزوة الشعوبية ، فقـد استمد الأدب العربى مفاهيمه أصلا من الفكر الاسلامى الذى يعد « القرآن » قاعدته الأصيلة ، وبقى حريصا على الا يجنح عن أرض الواقع الصلبة ، فلم يكن مهملا للقضايا الحيوية ، ولـكنه تأثر فى مرحلة من مراحله بالآثار الواردة من الآداب القديمة والدخيلة فاضطرب أمره حينا ثم عاد الى اصالته .

وقد كان الأدب العربى قادرا دوما على مغالبة أمرين : الأسطورية والخيال المغرق ، والاشراقية . وهى طوابع وفـدت الى الأدب العربى من الآداب الفارسية والهندية وغيرها ، وكان الأدب العربى فى واقعيته وارتباطه بالطابع العملى والحياة أقرب الى مفهوم الاسلام وجوهره .

وحيث لم يكن هنـاك بد من هـذا التأثر فقـد كان الأدب العربى كالفكر الاسلامى حريصا على الا يغرق فى الطوابع الدخيلة ، وكان قادرا على أن يتحرر منها وأن يأخـذ مايزيد قوة دون أن ينصهر فى أى بوتقة تخرجه عن أصالته .

وقد انحرف الأدب العربى فى مجالين : مجال الشعر عندما أخرجه الشعراء الفارسيون الذين تأثروا بالمجوسية من أمثال بشار بن برد وأبى

نواس وغيرهم ، اخرجوه من مفهومه الأصـــيل الى الانحراف نحو الغزل الحسى والخمريات والغلمانيات وهو تيار بدأ غريبا ودخيلا مدموغا بالاتهام، والمجال الآخر مجال النثر حين انحرف الى السجع والمحسنات البـــديعية والمقامات وأسرف فى ذلك اسرافا الصرف به عن طبيعته الأصيلة .

ويمكن القول بأن « الأدب العربى » فى مفهومه الحق قد تكون بعد الاسلام ، وأن ماسبق ذلك لم يكن سوى تلك الحصيلة من الشعر الذى ضاع أغلبه وما أثر من بعض الحكم وسجع الـــكهان ، فلما نزل القرآن تأسست القاعدة الأصيلة للأدب العربى بمفهومه الصحيح القائم على قيم التوحيد والحق والعـــدل ، وكان القرآن بأسلوبه ومضمونه معا هو المصدر الحقيقى للأدب العربى الاسلامى الذى تشكل فى ظل القرآن وجرى فى مجراه ، فقـــد جاء القرآن معجزا ، هز النفس العربية ببلاغته ومضامينه معا ، ولم يستطع بلغـــاؤهم أن يصلوا اليه ، وسقطت كل محاولاتهم فى تقليـــده ، ومن هنـــا نشأ الأدب العـــربى من خلاله ، وبدأ النثر العربى الاسلامى يسيطر ويأخذ طريقه ، متحررا من سجع الـــكهان ، كما تحول الشعر ، فى مضامينه ونظمه ، وان كان النثر القرآنى قـــد اخذ المـــكانة الأولى ، وكان للقـــرآن نظرته الى الشعر والشعراء ، محررا اياهم من الغرور والوثنيـــة ومفاهيم الجاهلية ، وفى خلال ذلك نشأ ادب واسع الآفاق حوته كتب السنة والشريعة والعلوم والتربية والتصوف .

غير ان مدرسة النقد الغربى الوافد التى تسلطت على الأدب العربى الحـــديث قـــد حاولت أن تعزل هـــذا التراث عن مراحله الجديدة ، وأن تقصره على جوانب معينة من شعر الشعراء وما وصف بالنثر الفنى لتحجب تلك الثروة الضخمة من الأدب العربى الاسلامى ، ثم كان لها أن أعلت من شأن الأدب ووسعت دائرته واذاعت شعر الشعراء المـــاجنين المسرفين واهتمت به وحاولت أن تتخذ من الأغانى وكتب المحاضرات مراجع أدبيـــة وتاريخيـــة ، وحاولت الحكم على العهود الاســـلامية الزاهـــرة من خلال هؤلاء الشعراء .

وكان هذا انحرافا خطيرا بالأدب العربى الحديث عن طبيعته وعن اتصاله الوثيق بالأدب العربى الاسلامى فى مراحله المتعـــددة ، بوصفها حلقات متصلة . يسلم بعضها الى بعض ، وكان اعلاؤها لجوانب الكشف

والغزل الحسى والاباحة هــدفا من أهــداف التغريب والغزو الثقــافى لاخراج الأدب العربى من مضمونه الأخلاقى الذى لا ينفصل عنه ، ومحاولة لدفعـــه الى الانصهار فى مفهوم الآداب العالميــة ، بينما تستحيل آداب الأمم وثقافاتها عن التــذويب والانصهار فى آداب الأمم الأخـــرى لأنهـــا تستمد وجودها وكيانها من النفس والذات والمزاج الخاص ، الذى يختلف من أمة الى أمة والذى يختلف فى الأمة العربيـــة الاسلامية فى الجوهر والمضمون كثيرا وعميقا عن الآداب الأوربية التى تستمد جذورها ومصادرها من الآداب اليونانية الوثنية .

الاباحة (فى الأدب)

كلمة « الاباحة » تعبير اشتقه الأستاذ محمد فريد وجدى معبرا به عن التحلل والخروج عن العرف ، وقد اتسع نطاق كلمة الاباحة فى مجال الـــكتابات الأدبية والاجتماعية على أثر موجة الدعوات المستحدثة الوافدة من الغرب والداعيـــة الى اطلاق حـــرية المجتمع فى مواجهة الضوابط الأخلاقية والأدبية . ولقد صنعت هذه الفلسفات المستحدثة للاباحة تبريرا متصلا بها لفقته المـــذاهب النفسية والاجتماعية التى تدعو الى أن للانسان مطلق الحرية فى القول والعمل . وهذا الاطلاق وهذه الحرية لاغبار عليها اذا ماصدرت فى حـــدود قاعدة واضحة أساسية فى بنـــاء المجتمعـــات وقانونية ، وهى « عدم الاضرار بالغير » وترى مختلف الدعوات العقائدية سواء منها المستمدة من الاديان السماوية أو الدعوات الأخلاقيـــة البشرية أن للجماعة أصولا عامة تعلق بها الحـــريات ولـــكنها تحول دون تحطيم انسانية الانسان أو ازهاقها أو تدميرها بالاسراف أو الانحراف أو التمزيق ، وقـــد ربطت هذه الدعوات بين واقع الانسان الروحى والمـــادى معـــا ، وحاولت أن تخلق له « توازنا » قادرا على بنـــاء شخصيته والمحافظـــة عليها وانمائها . غير أن دعوات جديدة ظهرت فى الفكر الأوربى والغربى على السواء فى مجال اســـتعلاء الفلسفة المـــادية حاولت أن تدعو الى تحرير الفن والأدب الغربى والفن الأوربى الى الاباحة بمثـــابة رد فعل على موقف المسيحية والكنيسة والقسيسين فى الغرب من مقاومتهم لحرية الفكر ، فكانت تلك الاندفاعة التى أخرجت الفنـــان والأديب من ضـــوابط الأخلاق وقيم المجتمع ، مما فتح البـــاب لموجة طاغية من موجات الاباحة

فى المجتمع نفسه ، وكان ذلك فى الحضارة الحديثة متصلا أوثق اتصال بالحضارة الاغريقية ومفهومها الاباحى المتحلل من مختلف القيم والضوابط الأخلاقية قبل الميلاد .

فالفكر الغربى حينما يندفع الى موجات الاباحة والتحلل انما يجد من من مصادره وتاريخه وسوابقه وجذوره مايؤصل له هذا الاتجاه ، أما فى الفكر الاسلامى العربى فان الأمر يختلف اختلافا كبيرا .

ذلك أن المجتمع العربى الاسلامى كان مرتبطا طوال حلقات تاريخـــه بمقومات وقيم ذات طابع أخـــلاقى فى مختلف مجالات العـــلاقة بين المرأة والرجل ، ومختلف علاقات المجتمع والسياسة والتجارة وغيرها وان موجة القرن الثالث الهجرى خلال العصر العباسى التى كشفت عن جوانب من التحلل والاباحة تمثلت فى شعر بالعض الشعراء لم تكن الا مرحلة عارضة وغزوا شعوبيا التمس مصادره من الفلسفات اليونانية والفارسية وديانات المجوس ومذاهب المانوية والزرادشتية وغيرها ، وقد جاء هذا الطابع من الاباحة المتمثل فى أبى نواس وبشار وغيره فى ظل تحديات خطيرة واجهتها الحضارة الاسلامية والمجتمع ، وهى تحديات إضـــطربت فيها معايير الفكر الاسلامى وتطبيق الشريعة الاسلامية حين ظهر طـــابع الترف العـــاصف وطوابع التسرى وأسواق الجوارى وغيرها مما كان مخالفـــا فى حركتـــه لمفهوم الاسلام نفسه ، ومما أدى الى رد فعل قوى من الناحيـــة الأخرى بظهور فلسفات الزهادة والتصوف الفلسفى الى جوار مذاهب الباطنيـــة وغيرهـــا .

وقد انبعثت هذه الدعوات والحركات على أيدى رجال كانت لهم صلات سابقة بالديانات الفارسية والفلسفات الدخيلة ولم يكونوا فى حقيقة الأمر منطلقين من مفهوم أصيل للفكر الاسلامى بما غير به مفاهيم المجتمع والحياة .

وما يزال مفهوم الفكر العربى الاســـلامى الأصيل أن تقوم الضوابط الى جوار الحريات موازنة للـــكيان الانسانى ، ويرى كثير من البـــاحثين — حتى فى الغرب نفسه مثل تولستوى — أن كل فـــكرة فنية لاتستقيم والشعور الدينى فهى ليست فنـــا أصيـــلا ، وأن شأن الفن أن يعلى من أمر الانسان ويسمو به ويقيم الناس صلات المودة والاخاء وأن يدفع البشرية نحو الوصول الى الانسانية .

الأدب المكشوف

تجرى الدعوة التغريبية الدخيلة على الأدب العربى والفكر الاسلامى والثقافة العربية الى القول بأن الأدب فن حر يصور النفس الانسانية وليس له أن يعطل عمله ليسأل عن قواعد الأخلاق . وهذا مفهوم غربى خالص ، وبعيد كل البعد عن الذوق والضمير والمزاج العربى والاسلامى، فالمفهوم العربى الاسلامى للأدب أنه وحدة من وحدات الفكر الكلية لا تنفصل عنها ولا تستقل ، بل تتكامل وتتلاقى مع وحدات الأخلاق والدين والمجتمع على نحو لا يضحى فيه بأى قيمة من القيم فى سبيل اعلاء قيمة أخرى ، وهذا مايختلف مع المفهوم الغربى الذى يستقل فيه الادب بانطلاقته وحرية الحركة بعيداً عما يتأثر به المجتمع أو الأخلاق أو الدين:
بل ان الفن والأدب فى الفكر الاسلامى والثقافة العربية والأدب العربى يلتقى مع الدين والأخلاق ولا يتعارض معهما ليؤدى دوراً بناء متساميا لحياة الجماعة والفرد معا . فليس هناك تعارض أصلا بين الأدب والأخلاق ، أو الفن والدين بل هناك تطابق واتفاق ، مثل ذلك التطابق القائم بين العلم والدين . وفى هذا يقول العلامة محمد احمد الغمراوى « ان للفطرة كلها منشئا واحدا هو الله والعلم والدين كلاهما اجتمعا على استحالة التناقض فى الفطرة فاذا كانت هذه الفنون من روح الفطرفوجب الا تخالف أو تناقض دين الفطرة ، ودين الاسلام فى شىء . فاذا خالفته فى أصوله ودعت صراحة أو ضمنا الى رذيلة من أمهات الرذائل التى جاء الدين لدفعها عن الانسان حتى يبلغ ماقدر له من الرقى فى النفس والروح ، واذا خالفت الفنون الدين فى شىء من هذا فهى بالصورة التى تخالف بها الدين فنون قد جانبت الحق ودابرت الخير واخطأت الفطرة التى فطر الله عليها الناس والخلق » ومعنى هذا أن الادب والفن يتطابقان مع الدين والأخلاق فى الفكر الاسلامى والثقافة العربية ، ولذلك فان الأدب المكشوف المستورد الغربى الأصل يبدو وافدا غريبا لا جذور له ولا اصالة لأنه معارض للمزاج والذوق والفطرة جميعا .

فاذا قيل أن الأدب العربى القديم قد عرف الأدب المكشوف قلنا أن ذلك لم يكن بدافع الفطرة بل كان غزوا شعوبيا على النحو الذى نواجهه اليوم ونسميه بالغزو التغريبى ، وأن هذا اللون انما دخل على أيدى

المتصلين بالثقافات والديانات والفلسفات القديمة السابقة للاسلام وفى مقدمتها وثنية اليونان ومجوسية الفرس وفلسفات الهند .

وأن الذين انصهروا فى أصالة الفكر الإسلامى انصهارا تاما من الفرس أو الترك أو العناصر الأخرى قد استجابوا لفطرة الفكر الاسلامى أما الذين ظلوا على مفاهيمهم القديمة وابتعثوها من جديد معارضة للدولة الاسلامية أو الاسلام أو خصومة لهما فانهم هم الذين عرفت لهم هذه الألوان من أمثال : بشار وأبى نواس وغيرهم ، هذا هو الطابع المكشوف الذى ادخل على الأدب العربى فى باب المجون والفحش واستشرى فى الهجاء والخمريات والشعر الخليع ، غير أن أدبنا العربى كان دائما قد حدد موقفه على نحو يختلف عن الأدب الغربى فقال « الشعر الرفيع لا يقاس بحسن الديباجة وبراعة المعنى فحسب ولكن بشرف الغرض » وهذه نظرة تختلف اختلافا بينا عن مفهوم الأدب الغربى الذى يرى أن الأدب هو الأداء الفنى بصرف النظر عن غايته وطابعه : مكشوفا كان أو غير مكشوف .

وروح الفكر الاسلامى والأدب العربى تقوم على القول الكريم ، دون الهجو ، وعلى الاشارة العابرة الى الأمور المبتذلة دون الكشف والافاضة فى التبذل والتهتك وتصوير المحرمات الجنسية والميول المنحرفة ، وذلك بالقدر الذى يدل عليها ، أما هذا اللون من تصوير أخفى الغرائز البشرية والتحدث عن تطوراتها وتقلباتها على النحو المثير الذىتكون له آثاره البعيدة فى نفوس الشباب والفتيات فهو غير مقبول ، هذا فى نفس الوقت الذى يستبيح فيه العلم كعلم دراسة قضايا الانسان والنفس البشرية ومعرفة أهوائها عن غير طريق الأدب .

فالفكر الاسلامى والثقافة العربية انما تلتمس عناصر الوحدةوالتكامل فى حزئياتها على نحو يحقق لها بناء الفرد السليم والمجتمع السليم . حيث لا تعارض بين الروح والمادة ولا تصادم بين الأدب والأخلاق ، أو بين الفن والمجتمع ، ومقياس الجمال النفسى الانسانى انما يتمثل فى الوسطية بعيدا عن منحدر الشهوانيات واللذات ، وبعيدا أيضا عن الجمود ، فالفكر الاسلامى قد أعطى الحرية فى متاع الحياة دون اسراف او تبذل على هدى الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، والأدب المكشوف

لا يقدم السعادة ولا السلامة ولا يرسم للنفس الانسانية اسلوب الجمال والخير والحق ولـكنه يكشف جوانب موغلة فى الاباحة والتهتك على نحو من شأنه أن يدمر النفس الانسانية لا أن يحييها ويسمو بها .

ولا شك أن الاتجـاه الى الـكشف فى الأدب فن غـربى له جذور اغريقية قديمةوله طوابع متصلة كل الاتصال بالوثنيـة وعبـادة الأجساد والانفصال فى مجال الفن والأدب عن المجتمع وعن الدين ، واذا كانبعض الفلاسفة الغربيين قـد عارض كل فن لا يستقيم مع الشعور الدينى فان الفكر الاسـلامى يرى أن التوازن بين هـذه القوى جيعا هو عامل قوة للشخصية الانسانية وحماية لها من التحطم والانهيار ودفعا لها الى الخير والقوة ، وعندنا أن هذه المذاهب التى تحمل طوابع لها مظهر علمى براق انما هى دعوات مستترة الى الهـدم وعوامل تغريبيـة ذات هدف بعيد فى محاولة القضاء على مقومات هـذه الأمة وتحطيم روحها الايجابى ذى الطبيعة المتكاملة دينا ودنيا ، وروحا ومادة .

التجـديد

كانت كلمة « التجديد » احد الاصطلاحات الخطيرة التى اتكأ عليهـا النفوذ الاستعمارى والتغـريب لشجب التاريخ واللغـة والتراث والدين ومختلف فنون التراث القديم واتهامها بعدم الصـلاحية للوجود ، ومعنى التجديد فى كتابات دعاته هو الانفصال الـكامل عن كل قـديم والاتجاه الشامل الى الجديد ، دون تحفظ .

وفى مواجهة التجديد كانت هنـاك الحملة على الجمود والسلفيـة والتقليد والرجعية . غير أن استطراد هذه الدعوى وبلوغها أقصى مدى من التحدى . كشف عن خطأ الداعين لها ، حتى من وجهة نظر التقـدم والنهضة ، وربطهـا ربطا أكيدا بالتغريب والنفـوذ الاستعمارى ، فان الدعوة الحقـة الى النهضة حين تدعو الى التجديد لاتفصله عن القديم ، ولا تعزله عن المـاضى بل تجعل من المـاضى سـبيلا الى الجـديد ومن التطور رابطة بين القـديم والحديث ، والغربيون أنفسهم الذين يلتمس بعض الـكتاب منهجهم انما يفهمون التجديد على هذا النحو ، فلا انفصال مطلقا بين الـكلاسيكية والعصرية ، أو بين الأصالة والتجـديد ، أو بين

الماضى والحاضر ، وقد عرفه أصحاب الأمهات والحضارات بذلك الترابط الأكيد بين الماضى والجديد ، فالأصول الأولى لها قيمها الأساسية فى بناء كل جديد ، وهى ذات معنى بعيد يشمل كل شىء تقريبا ، فالأسس والأرض والجذور كلها معالم طبيعية لكل حركة تدعو الى التجديد .

وقد ذهب العلماء العقليون والتجريبيون معا وهم أبعد الناس عن أوهام الفلسفة ، ودعوات الغزو الثقافى والتغريب واقتلاع الأمم من مقوماتها وجذورها ، الى أن المعنى الحقيقى لكلمة (جديد) هى فكرة نقد شىء فى طور التحول ، فى حين أن كلمة قديم تعنى الموجود الساكن الموضوع مسبقا . وأن كلمة قديم استعملت عند العرب بمعنى الموجود لم يزل ، وتجمع المفاهيم العلمية للتجديد على أن التجديد فى الآداب كالتجديد فى العلم لا يمكن أن يقوم الا على أساس تعاون الماضى والحاضر ، وينبنى العقل فى حاضره على أساس العقل فى ماضيه .

ويصور مصطفى صادق الرافعى التجديد فى الأدب على نحو علمى غاية فى العمق حين يقول أن التجديد يتمثل فى قاعدتين :

(الأولى) ابداع الحى فى آثاره بفكره بما يخلق من الصور الجديدة فى اللغة والبيان .

(الثانية) ابداع الحى فى آثار الميت بما يتناولها به من مذاهب النقد المستحدثة وأساليب الفن الجديدة ، وفى الابداع الأول ايجاد مالم يوجد ، وفى الثانى اتمام مالم يتم ، فلا جرم كانت منهما معا حقيقة التجديد بكل معانيها ولا تجديد الا ثمة ، فلا جديد الا مع القديم .

ولا شك أن التجديد قانون طبيعى وقانون ثابت فاذا لم يكن تجديد فتدهور وانحطاط وهو فى الفكر شأنه فى الكائنات الحية ، بيد أن له أصوله ومقوماته وقواعده فهو لا ينفصل عن أرضيته وقاعدته . ولا ينقطع عن تطوره الطبيعى .

الفـكر والأدب

هناك خطأ كبير مشهور ، نبـه اليه كثير من الباحثين ، وما يزال فى حاجة الى التـذكير ، ذلك هو تحرير دائرة الآداب ، وتحديد مكانها من دائرة الفكر الأوسع والأشمل .

فالفكر هو الوحـدة الأساسية التى تصـدر عنهـا جميع الفروع والأجزاء . ويضم الفكر فى بوتقته : الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية والقانون والأدب . وكلها فى مفهوم الفكر الاســلامى تتكامل ولا تنفصـل ولا تستقل ، فالأدب قطـاع من الفكر بوصفه أدبا له مفاهيمه وطبيعتـه ودوره الطبيعى ، ولـكنه فى حركته هذه لا ينفصل عن دائرة الفكر ولا خرج عن مهمته وطبيعتـه فيفرض نفسه على دوائر أخـرى ، فيسيطر عليها ويتكلم باسمها .

غير أن الأدب العربي الحديث قـد دفع دفعا الى هذه المخاطرة ، واطلقت له الحرية فخاض فيما ليس من اختصاصه ، فأخطأ كثيرا وجاوز هـدفه ومهمته . وليس فى هذا ما يفهم منه معنى الحد من حرية الأدب ولـكن فيـه دعوة الى الارتبـاط بالقاعدة الأساسية التى قام عليهـا الفكر الاسلامى وهى قاعدة التكامل بين الفروع والأجزاء التى تشكل فى مجموعها عملا متكاملا ، ذلك لأنه اذا اطلق للأدب حريته على النحو الذى تدعو اليه الآداب الأوربيـة لـكان فى ذلك عـدوان على دائرة الدين والأخلاق والمجتمع ، والأدب العربى المستمد من الفكر الاسلامى هو أدب ملتزم بالعمل على ترقيـة المجتمع واعلاء شأن الأخلاق ، فهو لا يستطيع أن يتحرر من مهمته تلك .

ولذلك فان الأدب العربى بقيمه ومفاهيمه لا يستطيع ان يتقبل بسهولة نظرية تحرير الأدب من أخلاقيته . هذه النظرية التى دعا اليها الأدب الغربى واستمدها من الأدب اليونانى الذى فصل بين الأدب والأخلاق . وقد زاد هـذه النظرية قوة ، ظهـور نظريات فرويد ومذاهب الفن للفن ، وهى نظريات ثبت خطؤها العلمى وانحرافها ؛ ولقد حاول دعاة التغريب فرض هـذا المنهج على الأدب العربى ، ولـكن الأدب العربى الذى يتصل بالفكر الاسلامى اتصالا عضويا ضمن دائرة متكاملة ، يقوم على أساس أن الفكر

فى مجموعه انما يعمل من خلال الشخصية الانسانية المسلمة فى بنائها وتركيتها والسمو بها واعلائها . هذا الأدب العربى رفض هذه الدعوة . ايمانا بأنه لا يمكن أن يتجه فرع من الفكر الاسلامى للبناء بينما يتجه فرع آخر الى الهدم .

ولقد دعا الباحثون المنصفون الأدب (أى أدب) أن يلتمس طريقه الأصيل معليا قانون الأخلاق القائم على حراسة الاجتماع .

ولقد كانت هناك آثار سيئة لتعدى الأدباء دائرة عملهم والتداخل فى دوائر اخرى بينما هم يؤمنوا اساسا بتكامل الفكر الاسلامى ولم تتح لهم الفرصة لدراسة الجوانب الأخرى على النحو الذى يمكنهم من استعراضها والحكم عليها .

وذلك أن بعض الأدباء عرضوا فى العقد الثالث والرابع الى الدين والأخلاق ، وتناولوا هذه المباحث على طريقة الماديين فأثاروا شكوكا كثيرة، وكان لانتشار الأدب فى الصحف أثره فى نفوس القارئين ، هذا الأثر السىء الذى قصد اليه التغريب من طرح قضايا الفكر الاسلامى عن طريق غير المتخصصين فيه ، وفى هذا يقول العلامة محمد فريد وجدى « كيف يرجى من اديب كل همه منصرف الى تحليل عاطفة الهوى ودرس ثارات الجوى ، وتصوير الوعود الكاذبة وفضول العذال واللاهين وعدوان المنافسين والمعاكسين ، أن يتناول بالبحث أعلى عواطف النفس وهى عاطفة الدين ، بمثل أسلوبه الذى مرن به عليه واستولى على شعوره ، وهى تستدعى أسلوبا يجافى هذا الأسلوب ولا يمت اليه بصلة من درس النفس فى حالة عزوفها عن الشهوات وترفعها عن الغرائز، رأيناهم يثيرون شكوكا ويجرون فى مباحثهم التاريخية والاجتماعية على غير الأسلوب العلمى من التحقيق والتمحيص » .

من هنا نعرف الفرق بين دائرة الأدب ودائرة الفكر ، وان دائرة الأدب تقتصر على تصوير النفس الانسانية ، أما الفكر فانه الدائرة الأوسع التى تتصل بالشخصية الانسانية من جوانبها المختلفة العقلية والروحية والقانونية والاجتماعية والاقتصادية .

وفى مفهوم الفكر الاسلامى أن الأدب حلقة من حلقات الفكر لاتنفصل ولا تتحرك فى غير اتجاه التوازن والتكامل مع الحلقات الأخرى .

القصـــة

« القصة » فن من فنون الأدب : كالشعر والنثر والترجمة ، وهو فن قـــديم ومستحدث وهو فى حاجة الى القاء أضواء كثيرة عليه ، حتى ينكشف موقفه الصحيح من الأدب العربى وفيما قبل ظهور الاسلام ونزول القرآن كان هناك كثير من الأساطير التى أطلق عليها من بعد اسم القصة: وهى أساطير اليونان فى الغرب وأساطير الفرس والهند ، وهناك أساطير العرب فى الوثنية العربية .

وكانت هنـــاك الملاحم والمسرحيات التى عرفتها أوربا فى ظل الوثنية الأغريقية ثم فى ظل المسيحية الغربية ، وقد استمد كثير منها من الـكتب الدينيـــة القـــديمة ، فلما جاء الاسلام ، ظهر عصر جـــديد وفهم جـــديد للقصة ، ذلك هو ما القاه القرآن الـكريم المنزل حيث عرض لعـــدد من قصص الأولين ، على نحو له طابعه الخاص المتميز ، بالصدق والشمول والايجاز والاستعلاء على التفاصيل واستخلاص العبرة والتماس حكمـــة التاريخ ورسم نواميس الحضـــارات وقوانين قيـــام الأمم وســـقوطها ، والعوامل ذات الأثر فى تطوير المجتمعات وانهيارها ، وذلك من خلال تاريخ الأنبياء والأمم والدول التى مرت بها البشرية من قبل .

وقد وصف القرآن قصصه بأنه (القصص الحق) القائم على الواقع الصادق البعيد عن الخيـــال والتزيد والتفاصيل ، وذلك جريا مع منهج الايجاز والشمول والقصد .

ومن هنـــا فان مفهوم القصـــة الحديثة الذى عرفـــه الأدب الغربى مستمدا اياه من التراث الهلينى اليونانى ، أو ماعرفت من قصص مثل كليلة ودمنة أو ألف ليلة وليلة ، أو غيرها مستمدا من التراث الفارسى الهنـــدى القـــديم ، هذا المفهوم لايتفق مع مفهوم الأدب العربى الحقيقى المستمد من القرآن للقصـــة .

والفكر الاسلامى لا يقبل من القصـــة غير لون واحد هو (القصص الحق) ذلك أن الأدب العربى قـــد اتسم منذ ظهوره والى اليوم بخاصية واحدة تتمثل فى الصـــدق والوضوح والايجاز ، وهى عناصر تكاد تكون مضادة للقصـــة الحديثـــة بل ومعارضة لها .

ذلك أن العربى الذى كان يفكر فى أفق مفتوح مشرق طليق ، من النور فى ضوء الشمس التى تطلع على أرض الصحراء الواسعة ، فضلا عن طبيعتيه الحرة الجريئة ، طبيعة الفارس المقاتل ، الذى يقول كلمته فى صراحة ووضوح ، هذه الملامح فى الطبيعة والانسان لم تكن فى حاجة الى فن القصة القائم على الرموز والمبالغة والظلال والاستخفاء، أو على الشرح الواسع والتفصيل الكثير ، ذلك أن العقيدة الاسلامية كانت أيضا بسيطة سمحة وهى تقوم على التوحيد أساسا فلم تكن فى مثل حاجة المذاهب والعقائد الأوربية أو الشرقية القديمة الى مزيد من التفاصيل والى ادخال فلسفاتها المعقدة فى قصص ومسرحيات تقام فى المعابد أو الأديرة لتشرح للناس مقاصدها .

والفرق بين مفهوم القصة فى الأدب العربى ومفهومه فى الآداب الأخرى ، هو فرق فى ذاتية الأمة العربية ومزاجها النفسى وتركيبها الاجتماعى والجغرافى والعقائدى البسيط السهل السمح الطليق ، ومن هنا فقد اختفت من الأدب العربى القديم المسرحية والملحمة والقصة والأسطورة ، وحين ظهرت قصص مثل الف ليلة أو كليلة ودمنة أو المقامات كانت كلها دخيلة على الأدب العربى ولم تكن تصور النفس العربية فى حقيقتها وربما كانت تصور النفس الشرقية التى مازالت تحت تأثير وثنيات المجوسية أو نظريات وحدة الوجود الهندية أو غيرها .

أما النفس العربية حتى فى وثنيتها القديمة وأساطيرها الجاهلية فقد كانت بسيطة غير مسرفة حيث لم تكن الا انحرافا عن التوحيد القديم الذى جاء به ابراهيم .

ومن هنا فان القصة فى مفهومها الغربى اليوم قائمة على الخيال والوهم ، وعلى العقدة والحل ، وعلى الاسراف فى التفاصيل ، وعلى انتفاء الصدق ، وعلى طوابع الرمز والظلال انما تجنح بعيدا عن جوهر النفس العربية ولا تكون الا صورة مقلدة للآداب الغربية ، ولذلك فانها تسقط وتختفى مع اشراق المفهوم الأصيل للذاتية العربية والمزاج النفسى الاسلامى الذى هو مصدر الأدب فى الحقيقة .

الباب الثالث

الفقـــه

السنـــة

الشريعـــة

الاجتهـــاد

التقليـــد

الربـــا

الرقيـــق

السـنة

السنة هى تفصيـل ما اجمل القرآن والتطبيق العلمى للاسـلام . وتشمل السنة : الحديث النبوى واعمـال الرسول نفسه . وقـد اثيرت الشبهات منذ وقت طويل حول السنة . وترددت دعوات كثيرة تطلب الاكتفاء بالنص القرآنى وتتهم الحـديث النبوى بانطوائه على كثير من الدخائل ، والحق ان الدعوة الى رفض السنة او انتقاصها والاكتفاء بالنص القرآنى وحده انما هى دعوى تغريبية خبيثة ترمى الى الفصل بين النص والتطبيق وبين القانون والواقع العملى الذى جرى عليه الاسلام منذ اقام مجتمعـه وانفذ نظـامه ٭

فالسنة هى التطبيق الواقعى العملى المتمثل فى الأسلوب الذى اتبعه الرسول صلى الله عليه وسلم فى تنفيذ النص القرآنى ، ومن هنـا فالنص القرآنى وحده لا يكفى المسلمين اليوم ولا يحقق لهم اسلاما حقيقيا ، وهذا فضلا عن أن (السنة) جزء من القرآن نفسه بنص القرآن : « وأنزلنا اليك الـكتاب لتبين للناس مانزل اليهم » .

فهذا البيان الذى يفسر القرآن ويطبقه هو باقرار القرآن جزءاساسى، وفى هذا يقول العلامة ليوبولد فابس (محمد أسد) :

ان رفض الحديث يرجع الى استحالة الجمع بين حيـاتنا الحـاضرة المتقهقرة وبين روح الاسلام الصحيح كما يظهر فى سنة النبى — فى نظام واحد . ولـكى يستطيع نقـدة الحـديث المزيفون أن يبرروا تصـورهم وتصور بيئتهم فانهم يحاولون أن يزيلوا ضرورة اتباع السنة لأنهم اذا فعلوا ذلك كان بامكانهم حينئـذ أن يتـأولوا تعاليم القرآن الكريم كما يشاءون على أوجه من التفكير السطحى ، أى حسب قبول كل واحد منهم وحسب طريقـة تفكيره هو ، وهـذا هو الهـدف الـكامن وراء مهاجمـة السنة واثارة الشبهة حول الحديث ٭

وقضية التقليد قضية قديمة قدم الفكر الأسلامى وهى فى نفس الوقت

قضــية اساسية يتخذ منها الاسلام موقفا واضــحا أساسه التحــذير من التقليد ومدى الخطر المترتب عليه . وفى هذا يؤثر عن رسول الله قوله: « لتتبعن سنن من قبلكم حذو القذة بالقــذة : حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » .

قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ، قال فمن !

والمسلمون والعرب فى العصر الحديث خرجوا من تقليد قديمهم الى التقليد الغربى فــكأنهم عادوا الى السنن السابقة حيث يقوم الفكر الغربى فى جوهره على الفلسفة اليونانيــة أو القانون الرومانى ، ويعتنق نفس النظريات القديمة المتصلة بالوثنيــة وأعلاء الأجنــاس والألوان والتفرقة العنصرية واعتبار مادون اللون الأبيض (صاحب الحضارة) عبيداً واتباعا! ومن الخطر أن يظن المسلمون والعرب أنهم بخروجهم عن قــديمهم وفيــه الــكثير من قيمهم الانسانية الفطرية المتجددة ، الى تقليد الغربى المستحدث الذى يرجع فى أساسه الى قــديمهم السـابق للتوحيــد والأديان ، انما يتجددون ويتطورون ، ذلك أنهم فى الحق انما يتركون أصلح مافى القديم الحى المتصل بواقعهم وتاريخهم ، الى القديم المتجــدد من تراث الوثنيــة القائم على غير التوحيد ومفهوم الدين الحق .

وهو ظن فاسد كل الفساد بعيد عن طبيعة الفطرة الانسانيــة التى يمثلها الاسلام أعظم تمثيل .

الشريعــــة

يطلق لفظ « الشريعة » على النظام الذى شرعه الاسلام فى التعامل بين الناس ، وهو القانون الذى كان مطبقا فى العالم الاسلامى والبــلاد العربية الى حين قــدم النفوذ الاستعمارى فأزاله وأقام بــدلا منه قانونه الأوربى المعروف الذى مايزال يتعــامل به أغلب بلاد العــالم الاســلامى الى اليوم .

وقد جرت ابحاث عديدة خلال العقود السبعة الماضية حول المقارنة بين الشريعة الاسلامية والقوانين الوضــعية ، وقام دعاة التغريب باثارة الشبهات حول الشريعة الإسلامية وإعلاء شأن الأنظمة الغربيــة ، وكان

لورد كرومر فى مقدمة من حمل على الشريعة الاسلامية فى مصر منذ عام ١٨٩٢ وقد أورد هذه المعـــانى فى كتابه (مصر الحديثة) الذى صدر عام ١٩٠٧ وهاجمه كثير من أساطين الفكر فى مصر والعالم العربى ، وكشفوا وجه الحقيقة فى أمر الشريعـــة الاسلامية ، ولم يمض على ذلك أكثر من ثلاثين عاما حتى اعترف أساطين القانون فى العالم أجمع بايجابية الشريعة الاسلامية واستقلاليتها وأصالتها وقدرتها على أن تقدم للعالم كله وللانسانية أصلح نظام ، وذلك فى مؤتمر القانون الدولى فى لاهاى سنة ١٩٣٧ الذى قرر بأن الشريعة الاسلامية نظـــام قانونى مستقل غير مأخوذ من التشريع الرومانى وبذلك تقرر تمثيل الشريعة الاسلامية فى محكمة العدل الدوليـــة كنظام مستقل من النظم العالمية الـكبرى ، وفى خلال هذه الفترة هوجمت الشريعـــة الاسلامية ومن بعد هـــذا المؤتمر أيضا ، وفصل الاسلام عن أنظمة الحكم ، وفصل المجتمع عن الشريعة فى حياة المسلمين ، ومن هنا انطلقت دعوات الفصـــل بين الدين والسياسة ومحـــاولة القول خطأ بأن الاسلام دين عقدى ولا صلة له بالمجتمع والحياة ، جريا وراء المفاهيم الغربية التى رددت ذلك فى أوربا بالنسبة للمسيحيـــة ، وكانت هـــذه الدعوات والمحاولات ترمى فى الأغلب الى تصوير الاسلام بصورة مختلفة عن حقيقته وجوهره ، باعتباره الدين الوحيد الذى قصد الى بنـــاء مجتمع وفق نظام كامل ، وليس قاصرا على العبادات وحدها ، ولا على الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وارث ، وانما يشمل مختلف جوانب المعاملات فى المجتمع، سياسية واقتصادية وتربوية وأخلاقية .

ولقد جرت محاولات متعددة خلال فترة الاحتلال البريطانى لمصر وفى خلال فترة الحمـــاية وقبلها تهدف الى الغاء الشريعة الاسلامية من أنظمة الأحوال الشخصية الخاصة بأحكام الزواج والطلاق .

وقد واجه المفكرون المسلمون هذه القضية باهتمام كبير ، وأصـــدر (على أبو الفتوح) أول كتاب عن الشريعـــة الاسلامية والقوانين الوضعية عام ١٩٠٥ ، كما أجرى كثير من الباحثين بعد ذلك مقارنات حول ما أثير من شبهات عن صلة بين الشريعة الاسلامية والقانون الرومانى وأشارت (المنـــار) الى واقعـــة دخول القانون الفرنسى الى البلاد المصرية فى أواخر عصر اسماعيل وقالت :

« انه لما اريد تنظيم القضاء لم يتمكن العلماء المصريون من الكشف عن جوهر الشريعة الاسلامية واضطروا تحت ضغط النفوذ الأجنبى الى ترجمة قانون نابليون ، وقد واجه الفكر الاسلامى منذ يقظته كل ما أثير ضد الشريعة الاسلامية وما يوجد من أوجه نقص فى القانون الأوربى فيما يتعلق بالزنا والربا والخمر والميسر ومسائل زواج المسلمة بغير المسلم ومسألة الميراث واباحة البغاء ، وظهر علماء من رجال القانون وممن درسوا القوانين الأوربية والشريعة الاسلامية وكشفوا عن الفوارق والميزات بين الشريعة والقانون ، وأشار الكثيرون الى ماجرت عليه تركيا فى عصر مصطفى كمال من تبنى القانون المدنى السويسرى ، وأبانوا عن أن هذا القانون ليس مستحدثا ، وانما هو مزيج من القانون الرومانى القديم والروح المسيحية ، وانه وضع تصميما خاصا بعادات وتقاليد أمة من الأمم ، وكيف أن ذلك يكشف عن مخالفته لدين وتقاليد وعادات تركيا .

وفى عام ١٩٥١ عقدت شعبة الحقوق الشرقية من المجتمع الدولى للقانون المقارن مؤتمرا للبحث فى الفقه الاسلامى فى كلية الحقوق بجامعة باريس تحت اسم (اسبوع الفقه الاسلامى) ودعت عددا كبيرا من المستشرقين وأساتذة القانون فى الدول العربية لبحث كثير من النظريات وأبدى نقيب المحامين فى باريس عجبه حين قال :

« لست أدرى كيف أوفق بين ماكان يحكى لنا عن جمود الفقه الاسلامى وعدم صلاحيته أساسا تشريعينا يفى بحاجات المجتمع العصرى المتطور وبين مانسمع الآن ، فقد ثبت بجلاء : أن الفقه الاسلامى يقوم على مبادىء ذات قيمة اكيدة لا مرية فى نفعها ، وأن اختلاف المذاهب الفقهية وعلى مجموعة من الأصول الفنية البديعة التى تتيح لهذا الفقه أن يستجيب بمرونته لجميع مطالب الحياة الحديثة .

وقد عرض الكثيرون للفروق والمخالفات بين الشريعة الاسلامية والقانون الرومانى وابرزها أن الشريعة الاسلامية لم تفرق بين الروح والجسد ولم تهمل واحدا منهما ، وأن الانسان مركب منهما جميعا ، وأن المسلمين قسموا الفقه على أساس العبادات والمعاملات والعقوبات بينما قسم القانون الرومانى لى أساس الأشخاص والأشياء والخصومات.

وأن أساس القانون الاسلامى مستمد من كلام الله المنزل بالوحى ، اما اساس القانون الرومانى فمستمد من مشيئة الانسان ، وان خلاصة القانون الاسلامى : (لا اله الا الله محمد رسول الله) بينما بنى الرومان أحكامهم اما على أوامر رئيس الحكومة أو العرف والعادة ، وقد أهملت كتب الفقه الرومانى المسائل العمومية كالأمور الدستورية وأحكام القانون الدولية وجعلتها من أمور السياسة ، بينما الامام عند الفقهاء المسلمين حسب النية من حيث العمد والخطأ ولا توجد هذه عند الرومانيين ، وكذلك الدية والقصاص عند المسلمين، وكذلك الحدود التى تتعلق بالقتل والسرقة والزنا والقذف وشرب الخمر والارتداد ، بينما الزنا والقذف وشرب الخمر ليست محرمة عند الرومانيين ومن ثم فلا عقاب عليها .

وليست هناك مشابهة بين الشريعة الاسلامية والقانون الرومانى فى الزواج وهو عقد يجمع الزوجين برضاهما بينما يوجد عند الرومانيين أصناف عديدة للزواج الجائز يعتبر أكثرها عند المسلمين كالزنا ، وقانون الوراثة وتقسيم التركة عند المسلمين يغاير ماعند الرومانيين ، وكذلك نظام القضاء وأدوات القصاص ، والقانونان يختلفان حتى فى المعاملات المالية ، فمثلا الربا غير محرم عند الرومانيين ، وحتى أساس التجارة يختلف بينهما، فالبيع عند الفقهاء المسلمين (عقد برضا المتعاقدين) وهو عند الرومانيين عقد يتعلق بالمال الخ .

واضافت هذه الأبحاث ومنها البحث الذى اعتمدنا عليه للدكتور محمد حميد الدين أن الفقهاء المسلمين ماكانوا يعرفون اللغة اللاتينية التى كتب بها القانون الرومانى ، ولم تترجم هذه القوانين الى العربية قبل أوائل القرن العشرين ، ومن المعروف أن المقنن عند الرومانيين هو موظف الدولة، أما عند المسلمين فالفقيه لم يكن أبدا الا رجلا من عامة الناس تعلم وتفقه فأفتى ودون كتب الفقه .

الاجتهاد

الاجتهاد : كلمة جامعة تشمل جميع أنواع السعى وبذل المجهود فى استنباط الأحكام من النصوص الشرعية ، واستخلاص الفروع من الأصول .

ويمثل الاجتهاد طابع الحركة ومواجهة التغير والتطور فى البيئـات والعصور تجاه المسائل والقضايا الاجتماعية والمعاملات المختلفة . ويكشف عن قوة الحيوية والحركة فى الفكر الاسلامى والثقافة العربية ، فهو عامل مؤثر يحول بين الفكر والجمود أو التخلف أو التوقف عن مواجهة العصر أو التجارب معه ، وهو علامة على طبيعـة الفكر الاسلامى القادرة على التحرر من قيد التقاليد ، وينسحب طابع الاجتهاد على الفكر الاسلامى كله فيكون علامة من علاماته البارزة بما يحقق له القدرة على النماء والقـدرة على مواجهة كل جديد »

والفكر الاسلامى يقاوم التقليد ويرى فيه آفة الجمود وعلة التخلف. ولذلك فان الاجتهاد قانون أصيل يتمثل فى القدرة على التجدد والحركة فى مواجهة الأمم وحضاراتها وثقافاتها والملاءمة بين قوة الفكر وحركة المجتمع.

و « الاجتهاد » اصطلاح فقهى يعنى بذل الوسع للحصول على رأى أو حكم فى مسألة من مسائل الشريعة ، وهو أحد طوابع الاصلاح والتقدم والتجديد فى الفكر الاسلامى .

وقاعدته أن يهتدى بالقيم الأساسية والقواعـد العـامة ويتحرك فى اطارها بما يحقق العصرية والتطور ويحفظ الطريق الطبيعى للمجتمع داخل الشريعـــة .

وقد حرص الفكر الاسلامى وربيبته الثقافة العربية على سلامة المجرى المتصل خلال التاريخ الطويل باقرار ركيزتين أساسيتين :

أولاهما : حماية القيم الأساسية والمفاهيم الأصيلة لهذه القيم من أن تتوارى أو تذبل أو تنحرف .

ثانيهما : فتح باب الاجتهاد لمطاولة العصور المتواليـة والمجتمعـات المختلفة مع القـدرة على الاستجابة والمعاصرة وايجاد حلول واجابات لكل ما يتصل بها من قضايا ومشاكل وتطورات .

وبذلك يكون الاسلام والفكر الاسـلامى متحررا دوما ومتخلصا دوما من الزيوف الدخيلة والأفكار المغايرة والمذاهب الوافدة ويظل محتفظا بقوته

وذاتيته فى نفس الوقت الذى يكون فيه قادرا على الحركة والانفتاح على الفكر البشرى أخذا وعطاء .

ولا شك أن المجتمع الاسلامى فى العصر الحـديث فى حاجـة الى أمرين أولهما : اقتبـاس العلم والتكنولوجيـا ومشاركة الأمم فى هـذا التراث الحضارى .

والأمر الثانى هو أن يتحقق له ذلك دون أن يخرج عن اطار فـكره وذاتيته وثقافته ، ومن هنا فان قانون الاجتهاد هو الأداة المشروعة لتحقيق هـذا العمل ، بوضعه على مستوى الأمم الحية ، دون ان يذوب فىثقافات الأمم وبوتقة مذاهبها وافكارها .

ان حاجة الأمة الى الحيـاة والتطور تجعل لها من قانون الاجتهـاد حافزا للحركة وضابطا لحياتها ، بحيث تستطيع أن تتحرك فى حرية داخل نطاق فـكرها وقيمها ودون أن تدع الحضارة العالمية لتفقـدها ذاتيتهـا وشخصيتها وقيمها الأساسية .

والاجتهاد قادر على اداء هـذه المهمة ، من خلال الجوانب المفتوحة والمطلقة للاجتهاد ، دون أن يخل ذلك بالقوانين الأساسـية العـامة مما رسمت الشريعة الاسلامية من حلال وحرام ، والمعروف أن القوانينالثابتة فى الشريعة الاجتهاد فيها ولا تحايل على الخروج عنها .

والشريعة الاسلامية هى مناط التنظيم الاجتماعى ترسم اطارا واسعا له حدود وضوابط ، وتدع للمسلمين الحق فى أن يتحركوا فى داخل هذه الحدود والضوابط ويلتمسوا من الأنظمة او الأساليب ما يتفق مع عصورهم وبيئـاتهم .

ولقـد برز الأشعرى وابن حزم وابن تيميـة فى أزمات حضـارية اجتماعية شبيهة بأزمة عصرنا فاسـتطاعوا أن يحطموا الزيوف ويدحضوا الشبهات ويقضوا على الدخائل التى تحاول أن تفسد الجوهر أو تؤثر فى طوابع الفكر الاسلامى وملامحه وقيمه الأساسية .

ولقد كان مفهوم الاجتهاد فى الفكر الاسلامى هو مفهوم التجديد فى مجال تصحيح الفهم النـاقص أو الفهم المنحرف بالاضـافة الى الحقيقة الأصلية ، وكان الاجتهاد والتجديد طابع الفكر الاسلامى والثقافة العربيـة

جميعا وليس طابع الفقـــه وحده ، التماسا للمنـــابع الأصيلة ، وبنـــاء عليها مما يتصل بالحضارة والعصر والتقدم ، واعطاء اجابات صحيحة لكل القضايا الجديدة التى يفرضها العصر بحيث يظل الفكر الاســـلامى قادرا على مواجهة تطورات الحضارة .

ومفهوم الاجتهاد لا شك هو مفهوم التجديد وهو فى أعمق صـــوره ايجاد حلول للقضايا الجديدة مع حماية الأصول العامة والحيلولة دون أن يفقد الفكر الاسلامى طابعه وروحه وذاتيته المتمثلة فى التكامل والشمول والامتزاج بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة » .

وتجمع الآراء الأصيلة ان باب الاجتهاد مفتوح فلا يجوز سده ، وأن الفترة التى وصفت باغلاق باب الاجتهاد فيها ، انما هى فترة الغزو التترى الصليبى للمجتمع الاسلامى وقد كان القول بتوقف الاجتهاد فيما انما يعنى المحافظة على الشريعـــة من أن يدخلها ماليس متسقا مع أصولها فى ظل نفوذ أجنبى يخشى من حقده وخصومته ولذلك كان ذلك العمل فى حقيقته من أعمال الحفاظ على أصول الشريعة من أن ينالها ضير .

التقليـــــد

« التقليد » هو المتابعة بغير يقين عقلى أو اقتنـــاع برهانى . وهى مرحلة ضعف تمر بها حياة الأفراد والأمم . والمقلد فى مفهوم الفكرالاسلامى لايعد عالما ، لأن العلم هو المعرفة الحاصلة عن دليل ، وقـــد ذم الاسلام أصحاب الرأى الذى لا يستند الى دليل ، وقد رفض الاسلام مبدأ التقليد والتبعية ، يقول الامام الغزالى :

« ان التقليد يمنع من الأصالة ، والمعرفة التبعيـــة ليست معرفـــة حقيقيـــة » .

وعندنا أن التقليد ليس هو تقليد القـــديم وحده وانما تقليد القـــديم والوافد جميعا وهما سيان : تقليد القديم بغير برهان ، أو الأجنبى بغير ضرورة واتساق ، وكلاهما تتحرر منه الأمم التى بلغتمرحلة الرشد الفكرى وتسقط فيـــه الأمم الضعيفة . واخطر الأمور أن تدعى الأمم الى التحرر

من تقليد قـــديمها لتقع فى تقليد الأجنبى عنها ، وكلاهما يفسد الشخصية والذات .

ولـــكل أمة ثقافتها وقيمها وذاتها ومزاجها ، فلا تحتاج الى تقليـــد أمة غيرها فى أسلوب تفكيرها أو تعتنق قيمها ومفاهيمها ، ولـــكن الفكر الاسلامى والأمة العربيـــة كانت متفتحة دوما على ثقافات الأمم دون أن تتخلى عن مقوماتها ، والاستعمار يستهدف من دعوته الى ترك تقليد القديم ودفع الأمم الى تقليد الوافد الأجنبى ، وذلك فى محاولة التغريب الجادة الى اخراج الأمم من مثلها وشخصيتها وتمييعها فى الأممية والشعوبية .

ولـــكل أمة فطرتها وثقافتها الخاصة التى تقوم على أساس تراثها .

يقول أحد كبار المؤرخين : « لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة ، المنتحلين أطوار غيرها يكونون فيها منافـــذ لتطرق الأعداء اليها . وتكون أفئدتهم مهبط الدسائس نتيجة لتعظيم الذين قلدوهم ، ويكون هؤلاء المقلدون طلائع الجيوش الغالبـــة وأرباب الغـــارات يمهدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب ، ويثبتون لهم الأقدام ويمكنون السلطان » .

الربـــا

الربا معناه الزيادة وكان العرب يطلقونه على نوع خاص من معاملاتهم وهو أن يؤجل الدين أو ما يتبقى منه الى تاريخ معين بحلوله يرد المـــدين ما أخذه مع زيادة معينة ، والربا فى لغـــة الاقتصـــاد الحـــديث الفائدة (Interet) ويرجع استعمالها الى القانون الرومانى وكان يعنى بهـــا التعويض الذى يدفعه المدين الى دائنه عندما يقصر عن الوفاء .

فالربا هو ربح المال المقدم للعرض عن طريق المصارف أو المقرضين بالربا ، وهو قاعدة من قواعد الاقتصاد الغربى العصرى وللاسلام منـــه موقف واضح هو موقف التحريم القطعى ، وقد أقر الاسلام قاعدتهالأصيلة فى الأمر « وأحل الله البيع وحرم الربا » .

والتعريف العام للربا يمكن أن يكون بتبـــادل سلعتين من نوع واحد

أو من نوعين متقاربين كالقمح بالقمح أو القمح بالشعير ، والربا فى القرآن له ثلاث عناصر :

١ — اعارة مال او اغذية او بضائع اخرى معينة .

٢ — فائدة باهظة .   ٣ — وفاء مؤجل للدين .

فقد أراد الاسلام أن يجعل من التجارة عملا اخلاقيا لااساسا اقتصاديا للتقايض (تبايع السلع) أما النهى عن اكل الربا فواضح فى قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة « وكذلك لا يقر الاسلام أن يدفع المـدين مبلغا من المـال الا اذا تأخر فى وفاء دينه ، ذلك لأن الزمن ليس سلعة تجارية تبـاع وتشترى ، من اجل ذلك لا يرى الاسلام أن يزاد الدين على المدين اذا تأخر عن تسديد ماعليه من المال .

وهكذا يتضح أن الربا متعلق بالدرجـة الأولى بالديون المعقودة الى اجل مسمى .

ولـما كان الذين يستدينون هم الذين يكونون فى حاجـة ملحة الى مايستدينونه سواء أكان مالا عينيا أو عرضا من عروض التجارة ، شـاء الاسلام أن تكون جميع الديون قروضا حسنة (بلا زيادة على مبلغ الدين الأساسى) .

وتقدير الربا فى الاسلام لا يقتصر على الديون المعقودة فقط ، ولكن هناك عددا من أوجه البيع العادى يمكن أن ينقلب ربا فى أحوال معينة .

وقد حرم الربا فى القرآن تحريما واضحا صريحا ولم يعقب تحريمه تفصيل أو تفريق بين الربا الفاحش أو الربا المعتـدل ، وليس فى هـذا التحريم ما يعوق النهضة أو النمو الاقتصادى فى العالم الاسلامى أو الأمة العربية ، التى تقوم أنظمتها ومشاريعها وحركتها على عوامل مختلفة عن عوامل مدنية الغرب .

فالمعروف أن المـدنية الغربيـة تقوم على الصراع وتوفير اللذات ، ويغلب عليها الترف وحب الذات ، وفى ظل المدنية الغربية ومن منطلقات الربا والصراع ظهرت المزاحمات والمضاربات .

ولـكن مفهوم المدنية الاسلامية ومفهوم المجتمع الاسـلامى الصحيح لايقوم على مثل هذه البواعث بل يقوم على احقاق الحق وازهاق البـاطل والسعى لاقرار حكومة عادلة تقوم على الأمر بالمعروف وبذل الصدقات ، والمواخاة والتعاون والتكافل ، لترقية النفس الانسانية واعدادها للكمال. ولذلك فان الاقتصـاد الاسلامى لايقوم على أساس التزاحم والتنـافس والمضاربة ، بل التراحم والتساهل والملاينة .

وبالجملة فان شكل الحضارة الاسلامية لا يقتضى وجود الربا فيه .

وحكمة تحريم الربا فى الاسلام : الا يتمانع الناس بالمعروف .

يقول لورد كيتس الأستاذ بجامعة كمبردج : من الممكن ان تنسب جميع الآفات الاجتماعية الى الربا . وبقـدر مايزداد مجتمع ما تقدما فى المدنية والثقافة فانه ينقص عنه نصاب الربا فى عين المقدار والنسبة بحيث انه فى مجتمع مثالى سيكون المبلغ « صفرا فى المائة » .

الرقيـــق

أقرت الحضارة الرومانية « الرق » واعتبرته اساسا لبناء المجتمع الرومانى ، ونصت جمهورية افـلاطون على تقسيم الناس الى قادة وعبيد ، ودافع أرسطو عن اقامة نظام العبودية والرق .

والقانون الرومانى لم يكن يعتبر الرقيـق انسـانا له شخصية ذات حقوق على الانسانية ، بل يعتبره شيئا من الأشياء كسائر السلع التى يباح الاتجار فيها . أما الاسلام فانه وضع قانون تصفية الرق ، بعد أن حصره فى دائرة ضيقة . وأقام بين الانسان ورقيقه علاقات جديدة كريمة لم تكن موجودة من قبل ، وحبب اليه العتق وقرر للأرقاء حقوقا لم تكن لهم من قبل .

كما قيد الاسلام الاسترقاق ، بحرب شرعية على أن يكون المحاربون من غير المسلمين ، ودعا الاسلام المسلمين الى رعاية أرقائهم ، ونها النبى عن أن يقول « هذا عبدى » وأمر باحترامهم والانعطاف لهم .

ولم يبطل الاسلام الاسترقاق لأنه كان واقعا من أنظمة المجتمع القائم. ولم يكن من اليسير الغاؤه الا بالتــدريج كما أعطى الاسلام الأرقاء حقوقا لم يحلم بها احرار الأمم السابقة « اخوانكم خولكم » .

يقول الدكتور جورج يوست فى كتابه قاموس الـكتاب المقدس (١) أن المسيحية لم تعترض على (العبودية) من وجهها السياسى ولا وجهها الاقتصــادى ولم تحــرض المؤمنين على منابذة جيلهم فى آدابهم من جهة العبودية حتى ولا على المباحثة فيها ، ولم تقل شيئا ضد حقوق أصحاب العبيد ، ولا حركت العبيد الى طلب الاستقلال ولا بحثت عن مضار العبودية ولا عن فسادها ، ولم تأمر باطلاق العبيد حالا ، وبالاجمال لم تغير النسبة الشرعية بين المولى والعبد بشىء ، بل بعكس ذلك قــد اثبتت حقوق كل من الفريقين وواجباتهما . وهكــذا كانت عبودية الانسان فى أمم الأرض عندما ظهر الاسلام فهو نظام كان معترفا به من كل الأمم ، وأسواقه قائمة فى كل مكان وآثاره موجودة فى بيوت الناس ومجتمعاتهم .

وقد أمر الاسلام :

اولا — بحسن معاملة من تحت أيديهم من الرقيق الى أقصى ما يمكن أن تسمو اليه الفضائل الانسانية .

ثانيا — الترغيب فى تحرير الرقيق الى أقصى ما ينتظر من دين عالمى جاء لعلاج عيوب المجتمع وبحسن توجيهه نحو الفضائل .

ثالثا — وضع قاعدة المعاملة بالمثل فى الحروب الدوليــة فيما يتعلق بالأسرى ومبدأ الاسترقاق .

وقد نص القرآن على ايجاب تحرير الرقيق فى سورتى التوبة والنور، وجعل من مصارف الزكاة تحرير الرقاب (أى تحرير المملوكين) وجعل من حق الرقيق أن يطلب من مالكه التعاقد معه على مبلغ من المال يدفعه له لسعيه فى سبيل التحرر من الرق « فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا » كما جعل الاسلام تحرير الرق فدية عن أمور كثيرة .

---

(١) (ص ٦٠ — ٦١ طبعة بيروت ١٩٠١)

والاسترقاق الشرعى فى نظر الاسلام هو الذى يقع فى حرب يراد بها اعلاء كلمة الحق على أن يعامل المسترق بالرفق والاحسان كما يعـــامل الابن والأخ .

وقد هاجم كثير من الـــكتاب الغربيين مفاهيم الاســـلام فى الرقيق وأثاروا الشـــبهات حولهـــا ومن هؤلاء الـــكردينال لافيجرى الذى ألقى محاضرة عام ١٨٨٨ فى باريس هاجم فيها الاسلام ورد عليه احمد شفيق باشا بكتاب بالفرنسية نشر عام ١٨٩٠ وترجم الى العربيـــة . ومما قاله شفيق باشا :

« ان الدين الاسلامى لا يبيح بأى حال من الأحوال معاملة أحـــد من الناس معاملة الرق اذا كان أبواه مسلمين حرين ، ولا يكون الاسترقاق الا فى الحرب ومع ذلك فهو مقيد بشروط وروابط معلومة . وأن الشريعة الاسلامية تأمر تابعيها بالتزام الرفق والرأفة مع المملوكين » .

الباب الرابع

قضايا الفكر والاجتماع

- الأصالة
- الأحجار والبطولة
- الأساطير
- الاستشراق
- الاقتباس
- الالحاد
- التسامح
- التطور
- التعقيل
- التعريب
- التقدم
- التكامل
- التورائية
- التوحيد
- الثورة الفرنسية
- الجرح والتعديل
- الجبرية
- الجهاد
- العروبة والاسلام
- العصرنة
- العصور الوسطى
- عصر الانحطاط
- علة تأخر المسلمين
- الغيبيات
- الفلكلور
- الفكر والعنصر
- القيم
- الكتب الصفراء
- كتب المحاضرات
- اللاتينية
- اللاهوت
- المنهج العلمى التجريبى
- المرأة وتحرير المرأة
- المحافظة
- المعرفة والعقيدة
- المثل الأعلى

حرية الفكر
الخطيئة
الدولة الثيوقراطية
رجل الدين
العلم والدين
العقل العربى
الوسطية

منطق أرسطو
المسرح والفكر الاسلامى
القرآن والأدب
هزيمة المعتزلة
وحدة الوجود
وحدة الحضارة

الأصـــــالة

ماتزال « الأصالة » هى اخطر التحديات التى تواجه المجتمع الاسلامى والفكر الاسلامى تحت طرقات تحديات « التغريب » التى تحاصرنا من كل جانب ولا تدع مجالا واحدا دون أن تواجهه بالشبهات والزيوف .

ان المحاولات كلها تستهدف اثارة « ضباب » شديد يحجب الرؤية الحقيقة أو يموه الواقع ، أو يحدث تداخلا بين الحق والباطل ، فلا يجد المسلم الا حيرة شديدة، يحتاج فيها الى الضوء الكاشف والنور الهادى ازاء هذه الظلمات المتراكبة التى تحاول أن تجتــاح الأصالة وتحتوى هذه الأمة وتصهرها فى بوتقة الأممية لتفقد كانها الخاص وذاتيتها التى بها تسمت أمة الاسلام .

ومن هنا جاءت المحاولات المسمومة التى تحاول أن تصور الأصالة بغير مفهومها الصحيح أو تزيف أبعادها الحقيقية مع المعاصرة ومع التغريب، ومع التراث ، كذلك فاننــا نجد انفسنا أمام تفسيرات عديدة لــكل قيمة من القيم أو مفهوم من المفاهيم نجد تفسيرا ماديا خالصا ، ونجد تفسيرا ماركسيا ، ونجد تفسيرا « فرويديا » أو تفسيرا وجوديا وتضيع «الأصالة» بين هذه التفسيرات لأن احدا لا يقول ماهى وجهة نظر الاسلام الذى هو نظام مجتمع ومنهج حياة .

وفى هذا يصدق قول المستشرق « هاملتون جب » لقــد اســتطاع نشاطنا التعليمى والثقافى عن طريق المدارس العصرية والصحافة أن يترك فى المسلمين ولو من غــير وعى منهم أمــرا يجعلهم فى مظهرهم العــام « لا دينيين » الى حد بعيد ، ولا ريب أن ذلك خاصة هو اللب المثمر فى كل ماتركت محاولات الغرب لحمل العــالم الاسلامى على الابتعــاد عن حضارته من آثار .

ونرى وكأن الاسلام معزول عن الحاة والعلم والثقافة ، كأنما ليس له فى كياننا وجود ، وحين نواجه الحضارة الغربية يقولون أن هناك من

يرفضها وهنـــاك من يراها الطريق الوحيد ، ويحاولون القول بأن هناك مدرسة تتوسط ذلك وتحاول ان تجمع بين التراث والمعاصرة ، هذا الـــكلام مازالت تردده دوائر التغريب منذ أكثر من خمسين عاما .

وهذا من التمويه الذى يريد أن يصطنع مذهبـــا انتقائيا ، يريد أن يجمع شيئا من التراث الى شىء من الحضارة ، وهى محاولة تدرج نحو فقدان ملامح الشخصية الأصيلة بالتنازل عن اشياء وقبول أشياء ثم تعصف العواصف مع استعلاء النزعات الغربية بما بقى من التراث ، ويحـــدث الانفصال المأمول عن التراث ، عن الماضى ، وبذلك تنتهى قضية الأصالة ، ويحدث مايسمى بالانقطاع الحضارى .

والواقع غير ذلك ، فان الفكر الاسلامى لم يقبل طريقة الانتقاء التى قـــدمها بعض الباحثين امثال رفاعة الطهطاوى أو محمد عبـــده أو غيره ولـــكنه دعا الى أن يقام (أساس) من الدعائم الأصيلة للاسلام ثم تعرض معطيات التراث ومعطيات الفكر الوافد جميعا على هذا الأساس ، وفى ضوئه يمكن تقبل ما يقبل شريطة الا يكون ذلك معارضا للأصالة أو معطلا لها او حاجبا لأى ملمح من ملامحها .

وجاء اليوم من يدعو الى تجديد الفكر العربى ، بتجديد دعوة الانتقاء من التراث ومن الحضارة ، وهى محاولة زائفة يراد بها اعلاء عناصر معينة من التراث ليست هى العناصر الأصيلة فيه .

اعلاء الفكر الباطنى والغنوصى واليونانى والمجوسى القـــديم الزائف الذى حطمه (التوحيد الاسلامى) وكشف عن زيفه والذى جاهد المصلحون (احمد بن حنبل والأشعرى والغزالى وابن تيمية وابن حـــزم) فى سبيل تقديم التصور الاسلامى الأصيل ، خروجا على مفاهيم الفارابى وابن سينا وابن الراونـــدى وابن عربى والسهروردى والحلاج وغيرهم من خصـــوم الاسلام الداعين الى هدم مقوماته .

ولقد كشف ابرار المسلمين وقادتهم عن أن الطريق الوحيد هو التماس المنابع الأصيلة وهى الضوء الهادى والكاشف الى (الأصالة) .

نحن لا نطلب من حضارة الغرب الا (العلوم التكنولوجية) وحدها ، ومن حقنا ان نأخذها دون أن نأخذ معها (اسلوب العيش الغربى) الذى

يختلف عن قيمنا واخلاقنا ومفاهيمنا .. ولا صحة مطلقا للزيف الذى يدعيه التغريبيون من أن هناك ارتباطا بين العلوم التكنولوجية ، واسلوب العيش الذى هو منهج خاص بمجتمع مختلف .

وأمامنا تجربتان سابقتان : الأولى تجربة المسلمين حينما نقلوا علوم اليونان والفرس والهنود دون أن يأخذوا ثقافتهم وآدابهم .. والثانية هى تجربة الغرب حينما نقل علوم المسلمين فى عصر النهضة دون أن يأخذ عقيدتهم أو أسلوب عيشهم .

وكل مايقال فى هذا الصدد فهو من قبيل التمويه الزائف الذى لاتقره قوانين المجتمعات ولا نواميس الحياة .

أما العلم التكنولوجى فهو ملك البشرية كلها ، وكانت لنا فيه مشاركة ، وكنا من بناة دعائمه الأولى ، فالمسلمون هم الذين قدموا أصول المنهج التجريبى ، ولذلك فان من حقنا أن نأخذه متى توافرت لنا الامكانيات العملية والخبرة ، على أن نصهره فى بوتقة الفكر الاسلامى واللغة العربية حتى يدخل مرحلة الأصالة وحتى تنطبق عليه قوانين الاسلام فى العلوم والحضارة : « سلاما وأمنا ورحمة وعطاء للبشرية واخاء » .

* * *

وهناك قضية : « الأخلاق والتقاليد » وهى قضية يموهها التغريب ويحاول أن يفسد الفوارق العميقة بين الأخلاق التى هى جزء من الدين والتى هى قائمة بالحق ، لها طبيعتها الثابتة التى لا تتغير ، وبين التقاليد التى هى من صنع المجتمعات والتى تتغير مع تغير الزمان والبيئات .

ولقد حرص التغريب والاستعمار على اعلاء التقاليد واضعاف الأخلاق حتى سيطرت على مجتمعاتنا تماما ، وأن من حق الاسلام علينا أن نكشف هذه الآفات والعلل التى دخلت على مجتمعاتنا من العادات القديمة فاختلطت بالدين حتى كادت تغلب عليه .. وان علينا أن نعزل عن جوهر ديننا تلك البدع والخرافات والعادات التى تحاول اليوم أن تسيطر على مجتمعنا وتزيح الأخلاق الاسلامية الأصيلة .

ونحن فى هذا كله علينا ان نهتدى بهدى القرآن .

ولا ريب أن المحافظة على شخصيتنا من أن تجتاحها عوامل التحول والاحتواء والاذابة هو اكبر الأمانات فى هذه المرحلة من حياتنا ، ذلك أن المحاولة التى تجرى الآن عن طريق الصهيونية والفكر التلمودى ومفاهيم العلوم الاجتماعية والايدلوجيات وعن طريق التبشير والاستشراق والتغريب تستهدف (اذابة) المسلمين فى الفكر الأممى ، بخلع ذلك اللبـــاس الذى يميزهم عن العالم ، بالقضاء على تلك القيم والأخلاق والمناهج وأساليب الحياة وطرائق العيش التى تجعلهم فى النـــاس شامة ، وتمــيزهم عن الأمم الغربيـــة والشرقية على السواء ، وتلك (ميزة) اصـيلة دعاهم اليها دينهم وحرص عليها نبيهم ، وثبتها كتابهم « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » .

وستظل الأسس التى بناها الاسلام لهذه الأمة هى الدعائم الحصينة التى تحول بينهم وبين الانصهار فى بوتقة الأممية أو الاحتواء ، وسيظل فى مأمن من كل خطر ما استمسكوا بهذه الأسس وعلى ضوئها استقبلوا من أمرهم كل جديد وكل تغيير ونظروا فى كل ما يعرض عليهم من أمور العصر أو الحضـــارة .

ان كل هذه المحاولات التى يرسمها التغريبيون والتلموديون من وراء الماركسية والفرويدية والوجودية والبرجماتية تحاول أو تضع أهواءها فى مناهج وتضع أحلامها فى السيطرة على هذه الأمة فى مخططات . هـــذه المناهج سينكشف زيفها ، وهذه المخططات سوف يتحطم هدفها .

ولقد تحطمت فى السنوات الأخيرة مناهج ومخططات ، وتبين فشل احتواء الاسلام وفكره وأمته ، وبعد سنوات طويلة من محاولات الليبرالية من ناحية ومحاولات الماركسية من ناحية أخـــرى ، ومن بين ذلك دعوات تختفى وراء الفرويدية والوجودية ومذهب العلوم الاجتماعيـــة وغيرها من دعوات تختفى وراءها التلمودية صاحبة مخططات بروتوكولات صهيون . كان الظن أن درة تاج الاسلام قـــد أوشكت أن تسقطت فى مصيدة (الأممية) ولـــكن هل توقف التغريب عن الغزو ، وهل توقف عن اتخـــاذ أساليب جديدة ، فى سبيل هـــدفه الخطير فى اذابة المسلمين فى الفكر الأممى ،

وتمويه الأصـــول الأساسية للفكر الاســـلامى باثارة الشبهات حول القيم الأساسية وحول قضايا العصر ..

ان حقيقة واحـــدة لا سبيل الى تجاوزها : ان المسلمين (أساسا) يعرضون عليه ما سيقدم اليهم من التراث أو من الفكر الوافد ، وان كل محاولات الفكر الليبرالى والفكر المـاركسى فى التطبيق قـد اثبتت فشلها وزيفها ، وان المجتمع الإسلامى قـد أعلن ، رفضه للجسم الغريب وأنه بعد تجربة استمرت الآن اكثر من مائة عام نستطيع أن نعلن فى وضـــوح وصراحة فشل التجربة الغربيـــة فى مجال التعليم والسياسة والاجتماع والقانون .

وان طريقا واحدا ليس غيره هو الطريق المفتوح امامه الى استعادة مقدراته مع الاحتفاظ بشخصيته وذاتيته واصـــالته : هو طريق القـــرآن والشريعة الاسلامية .

البطولة

يخطىء كثير من باحثينا عندما ينساقون وراء مفهوم غربى للبطولة فى تقدير طابع من طوابع الفن كالتماثيل أو ما يطلق عليه تجسيد البطولة فى المهرجانات والاحتفالات الاستعراضية .

فنحن فى التماسنا لأى جانب من جوانب الفكر أو قضاياه يجب أن نلتمس جوهر قيمنا وذاتيتنا حتى لانقع فى فى خطأ كبير هو التماسنا لمفهوم دخيل علينا وهجر لمفهومنا الأصيل أو تجميد له .

و « البطولة » قيمة من القيم التى تتمثل فى مختلف الثقافات والأفكار الانسانية ، شرقية وغربية ، اوربية أو اسيوية او افريقية ، وهو أمر متصل بكل المذاهب والأديان والدعوات ، ولـكن هذه القيمة الانسانية الكبرى. يختلف الرأى فيها أو يختلف مفهومها ، فى كل ثقافة عن الأخرى ، وكل امة عن غيرها ، استمدادا من تراثها وجوهر فكرها .

وفى فكرنا العربى الاسلامى يبدو الأمر واضحا وضوحا لايحتاج الى خفـاء فنحن فى فكرنا الاسلامى وثقافتنا العربية نـكرم البطولة ونضعها

موضع التقدير ولكنا نختلف عن الفكر الغربى فى أساليب تقديرها وتكريمها، ان هذه القيمة عندنا لها مفهوم يختلف ، والتماثيل تجسيد مادى للبطولة يتفق مع ثقافات أمم مختلفة ، ولكن الفكر الاسلامى العربى يعق فطرته وجوهره وذاته وطبيعته ومزاجه اذا تقبلها ، وتقدير البطولة فىثقافتنا يكون بتكريم العمل الذى قدمه البطل وبنشر الفكر واعزاز الراى وهو تخليد معنوى ، يقوم على تقدير الكلمة ولا ينصب أبدا على تقدير الفرد أو تقديسه أو وضعه فى صورة يبدو منها فى مجال التاليه أو مايشبهه على النحو الذى عرفه الأغريق قديما حين رفعوا أبطالهم الى مصاف الآلهة وانصاف الآلهة . والأمم الغربية مستمدة من نظرتها ومن تراثها الأغريقى القديم تجسد الأبطال فى أشكال مادية ، ويرجع هذا أصلا الى الطابع الوثنى المستمد من فلسفات اليونان والهنود . ولكن الاسلام والفكر الاسلامى له طابعه ومفهومه لهذه القيمة الانسانية . فبطولة الاسلام : بطولة فكر لا بطولة تماثيل وأحجار ، وليس فى الاسلام هياكل تدمر ولا بعلبك ولا الأهرام ، وقد عرض لهذا الراى كثير من الباحثين ، وفى مقدمتهم الدكتور عبد السلام العجيلى الذى يقول : ربما عد البعض هذا الفهم نقصا ولكنى اعتبره من مزايا العبقرية فلم يخلف العرب (والمسلمون) ماخلفته الأمم الأخرى ، فاوابد الحضارة العربية لم تنحتها من حجارة أو تسجلها الصخور بل سجلتها الأعمال الحية .

ويبدو هذا المعنى واضحا من وراء الوعى فى قول عمر بن عبدالعزيز لرجل كتب يستأذنه فى بناء سور للمدينة ، قال عمر (حصن مدينتك بالعدل) وكممن سور يزوره السائحون وهو مبنى على أساس من الظلم والجور . ويمتد أثر هذا الفهم الى الفن الاسلامى .

يقول الدكتور العجيلى : ان فن العمارة العربية لم يتميز بالضخامة والرسوخ بينما تميز بالجمال والدقة وخفة الظل فهو لم يقصد به ان يطاول الدهر وانما أريد به أن يكون متعة للعين والروح ، ومعنى هذا غلبة المعنويات على الماديات فى طابع الفن والبطولة ، ويصل هذا المعنى الى غايته بالقبول بأن الذوق الاسلامى العربى لم يتعلق بالتصوير كفن من الفنون الجميلة ، ليس لأن الدين نهى عنه بل لأن الروح العربية الاسلامية لا تميل اليه ولأنه لا يتفق مع فطرتها التى تجد مجالها الفنى فى «الكلمة»

وليس هذ مفهوم الذوق العربى وحده ولـكنه فى الحق انما يمثل مفهـوم الفكر الاسلامى الأصيل المستمد من جوهر الاسلام والقرآن اصـلا وربما أخذ به العرب وعمقوه ، وان تخلف فى اجزاء أخرى لغلبـة الفلسفات الوثنية السابقة للاسلام .

والفن الذى تعلق به العرب وأخلصـوا له قبيل نزول القـرآن هو الشعر ، لأنه أرضى رغبتهم فى الحيـوية والاستثارة وجاءت الموسـيقى امتدادا للشعر واتصالابه والفارق بينهما هو الفارق بين السذاجة والترف، وجملة الرأى أن الطابع العربى الاسلامى فى الفن والحضارة هو طـابع الحيوية والروح العلمية ، ملخصا فى كلمات قليلة « أعمال خالدة لا آثار خالدة » .

الأسـاطير

كلمة (Historia) كلمة يونانية معناها « خرافـة » وهى التى دخلت الى العربية فى عصورها الأولى فأصبحت الأسطورة أيضـا كلمة (Mythology) الميثولوجيا ، وقـد كان لدى الاغريق القدماء قصص كثيرة عن ماضيهم تدور حول أبطال عظماء ، هذه الأساطير كانوا يفسرون بها الحياة والطبيعـة والخير والشر ، وكانوا يؤمنـون بأن هـذه الأمور بأيدى آلهة وآلهات ، وقـد آمن الرومان بآلهـة الاغريق واطلقوا عليهـا أسماء رومانية كما أضـافوا الى الأساطير الأغريقية كثيرا من أساطيرهم، وتستعمل كلمة (أسطورة) فى التعبير عن الأعمال الخارقة وتدور حول الآلهة وتختلف عن الملاحم التى تسجل أفعالا انسانية ، ويرى الغربيون أن بين الأسطورة والدين علاقة ، وكثيرا ماتحكى الشعائر أحداث أسطورة والأسـطورة فى الأغلب تحكى بمنطق العقـل البـدائى ظواهر الـكون والطبيعـة والعادات الاجتماعية ، وثمة تفسير يرى أن الأسطورة ابتكرت للابانة عن الحقيقـة فى لغـة مجازية ، ثم نسى المجاز المقصـود وجرى تفسيرها حرفيا .

ولا يسلم العلماء الآن بنظرية واحدة تطبق على الأساطير ، والأصح عندهم التفسير الخاص بأساطير كل أمة ، ومن حق أن يقـال أننـا حين نتحدث عن الأساطير انما نتحدث عن عالم مختلف عنا وربمـا لا يتطابق تطابقا كاملا معنا ، فاختلاف الثقافات والأمزجة بين الشرق والغرب يؤكد

وجود خلافات عميقة فى مختلف مفاهيم الفنون والآداب، والقيم الاجتماعية والنفسية ، وعلينا حين نتحدث عن الأساطير أن ننظر اما لهــا عالمهــا وتحدياتها ، وكذلك الأمر فى القصـــة والفن والدين ، والأغريق واليونان لهم فى هـــذا طوابع وقيم تخالف جو الشرق الذى عرف بأنه مبعث الأنبياء ومتنزل الديانات والذى طبع منذ القديم بطابع الايمان بالله .

والخرافة لم تكن واضحة تماما عند العرب ، ومن هنـــا فان الأساطير التى عـــرفت عنهم قليـــلة ، أما الفراعنـــة والفرس والهنود فــكانت لهم أساطيرهم المشتركة الأصل الوثنية الطابع، ويجمع العلماء أن هذه المجموعة من الخرافات انما كانت تهدف الى تعليل خلق الـــكون والله والأبطال . ويمكن أن يطلق على الميثولوجيا : « علم الانسان القـــديم » ، وقد اعترف الأغريق بأن أسماء الآلهة رموز لقضايا طبيعيـــة وفلسفية (ابولو) يرمز الى النـــار و (ميرا) ترمز للهواء و (بوسيدون) للماء و (أرتمس) للقمر، وما حروبها ومغامراتها سوى اشارات الى حرب العناصر الطبيعية .

وترى بعض النظريات أن هذه الآلهة ليست الا أسماء أفراد من البشر قاموا بأعمال باهرة البستهم التخليد الذى رقى بهم فى نظر الأغريق الى مقام الآلهة وانصـــاف الآلهـــة ، وهو نوع من عبادة الأموات أو عبـــادة الأبطـــال .

وهذا المعنى غريب على الفكر الاسلامى كله ، هذا الفكر الذى عرف بوضوحه وصراحته وبساطتـــه منذ جاء الاسلام ، حيث يقوم الفكر كله على قاعدة التوحيد الخالص لاله واحد ، لا متعدد، ولا يموت ، ولا يحارب البشر، ولا يصارعهم ، ومن هنا تختلف مفاهيم عديدة من القضايا الخاصة بالطبيعة والخلق والتاريخ بين مفهوم الاسلام ومفهوم الهلينية .

فالبطولة فى الاسلام هى بطولة العمل والكلمة ، وليست بطولة الفرد نفسه ، ولذلك فان الأبطال فى الاسلام ظلوا فى درجـــة الانسان ومكانه حتى بالنسبة لأعظم شخصية فى التاريخ الاسلامى كله وهو النبى محمـــد صلى الله عليه وسلم (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل) ، (قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى) .

وهكذا يقطع الفكر الاسلامى قطعا ببشرية الرسول ، وبانعدام عبادة الأبطال أو ترقيتهم الى آلهة وانصاف آلهة . وتبـــدو هذه التفرقـــة بين الفكر الهلينى والفكر الاسلامى فى تصوير الاله ، فضلا عن تعدد الآلهة .

الهلينيون يصفون الآلهة بالمغـامرة والضراوة وبالشراسة والجنون، فهم يتزوجون أمهاتهم وأخواتهم ثم يقطعون أجسادهم ويزنون ويأكلون لحوم البشر (١) .

وهناك آراء تقرر أن وضع الأساطير عند الهلينين وغيرهم انما كانت للذة والامتاع والايناس ، وليس للاخبـار أو لاعطـاء المعلومات ، ويقول الباحثون المتخصصون أن الميثولوجيا تصور خلق الانسان والـكون وخلق النجوم والشمس والقمر ، واصل الموت وتغنى بسير الأبطـال ، واكثرها يدور حول قصـة واحدة في روحها ، ومبدؤها عاشق ومعشوق يقترف احدهما خطيئـة فيتوارى عن الأنظار أو قـد يكون سبب الافتراق خيانة أو فعلا مسببا عن غيره (٢) .

وقد تذف الغربيون : الفكر الاسلامى والأدب والثقافة العربية بقدر ضخم من هذه الأساطير ، وعنى كثير من الكتاب والأدباء بترجمتها ومحاولة اغراق الأدب العربى فيها ، وجرى البحث حول الأساطير فى الأدب العربى نفسه وكان من أهم هموم المستشرقين والمبشرين للبحث عن الأساطير ، وقال رينان أن العرب ككل الأمم السامية ليس لها أساطير فى شعرها ولا فى عقائدها ، وأن هـذا يدل على ضيق الخيـال لديهم ، وقد عمد البعض الى بحث الأساطير العربيـة فى عصر ماقبل الاسلام ، وفيها وصف العرب لآلهتهم ، وقـد وجدوا من ذلك شيئا ليس بالـكثير ، ولا بهـذه الصورة الهلينية ، ومرجع هذا فى الأغلب الى أن الوثنيـة العربية كانت وثنيـة تقليدية ، وليست فلسفية وأنها لم تتعمق هذه الألوان ، فقد كانت العرب على دين ابراهيم وهو دين التوحيد ثم انحرفت الى وثنيـة طارئة ، فلما جاء الاسلام قضى على هذه الآثار ، وقد حاول طه حسين وغيره انتحـال أساطير حول سيرة الرسول والف عنها كتابا هو على (هامش السيرة) وقـد عارض الدكتور هيكل هـذا الاتجاه ووصفه بأنه اتجـاه خطير من حيث حرص المسلمين طوال العصـور على تنقيـة سـيرة الرسول من الأساطير وابعادها عن الروايات الخيالية والوهمية التى حاولت الاسرائيليات الصاقها بها (٢) .

---

(١) أنيس فريحه ، مجلة الأبحاث . م/٤

(١ ، ٢) راجع المعارك الأدبية لأنور الجندى .

واذا جرت المحاولة للربط بين الأسطورة عند العرب قبل الاسلام وعند الاغريق فقد ثبت أن هنـــاك فارقا بعيدا بينهما يستمد اصـــوله من مزاج الشعبين وطبيعتهما المتباينة فضلا عن اختلاف الجغرافيا والتاريخ فضـــلا عن الوضوح الموجود فى البيئـــة العربية . وفى هذا يقول الشوباشى : بينما الشعر الأغريقى الملحمى يصور عالما وهميا لاتكاد تقود صلة بينـــه وبين الحياة الحقيقية للمجتمع الأغريقى وتصف آلهتـــه وعمالقته وفرسانه بأنهم يتميزون بقـــدرات غير آدميـــة ويحققون الخوارق ويتســـامون وراء شهوات واطمـــاع واحقاد ويأنفون ان تغلب عليهم الرحمة أو تحس قلوبهم بحب أو حنان ويرتكبون فى سبيل تحقيق غايتهم آثاما تتقزز منها النفوس ولا يعتمـــدون على الأجســـاد فحسب ولـــكنهم يمثلون بالجثث . والمرأة قاسية كالرجل فهنـــاك امرأة تشترك مع عشيقها فى قتل زوجها والتنكيل بأبنائها وأخرى تتزوج بأبنائها .

وبينما كان ذلك الشعر يرسم تلك الصور المشوهة المخيفة ، حرص الشعراء العرب القدامى على تصوير عالمهم الحقيقى بما فيه من خير وشر وتحليل عواطفهم كما احسوها ، ووصف الأحداث على نحو ما وقعت لهم، وهنـــاك فارق آخر اشار اليه الشوباشى وهو انه بينما كان الشعر العربى ديوان علوم العرب وأخلاقهم وأخبارهم ، كانت حكمـــة الشعر الأغريقى اقرب الى أن تكون مواعظ تربوية .

وبينما كانت الملاحم الأسطورية اليونانية تقوم على شطحات الخيـــال والتهويل والأغراب ، يان رواة الشعر العربى يحرصون على صيانته من كل تغيير أو تحريف .

ويتصل بالفوارق البعيدة بين مفهوم الغرب للأساطير ، فارق الطبيعة النفسية الواضحة الصريحة فى العربى والجو المـــكشوف فى الصحراء، بينما هنـــاك وحشة الجبـــال وقسوة الطبيعـــة ، ولهذا الخلاف الجذرى

---

(١) ص ١٣٨ رحلة الأدب العربى الى أوربا للشوباشى .

(٢) الرسالة م ١٩٤٩ ص ٨٢٤ .

(٣) نفس المصـــدر .

لم يترجم العرب والمسلمون الميثولوجيا والأساطير والالياذة اليونانية وقالوا : انها تعبير عن النفس الانسانية الهلينية ، ولهم تعبيرهم الأصيل عن النفس العربية .

وتختلف الميثولوجيا اليونانية عن الميثولوجيا المصرية القديمة أيضا كما تختلف عن العقيدة الاسلامية « فالآلهة فى الميثولوجيا اليونانية والميثولوجيا الاغريقية تدفعها حيوية عارمة الى كل تصرفاتها ، حيوية لا تفرض العدل والحق والخلق والضمير لأنها حيوانية عاتية شهوانية باطشة ، والآلهة فى الميثولوجيا المصرية القديمة تسيطر عليها فكرة العدل والخلق والحق فى الغالب » .

أما الاسلام فينبذ نهائيا فكرة الشهوة والظلم عن ذات الله ، وفكرة القدر فى الاسلام لا تتفق مع الفكرة الاغريقية ولقد حاول كثير من الكتاب ترجمة الميثولوجيا الاغريقية ولكنهم كانوا يحسون أنهم ينحتون الصخر، وذلك للفوارق الواضحة بين النفس العربية والنفس الاغريقية ، وقد أشار الى ذلك كاتب الرسالة حين قال ان الصعوبة الأساسية فى الأساطير واستلهامها ليست فى الحاجة الى الفهم . فالفهم قد يكون ممكنا بالشرح ولكن الصعوبة الحقيقية كامنة فى الشعور بها فى أعماق الضمير . أن الأسطورة تنبع من ضمير الشعب لا من رأسه ، وتعيش كامنة فى دمه واحساسه وهى تراث شخصى لكل شعب لايمكن نقله الى ضمائر الشعوب الأخرى ، كما لا يمكن نقل الثقافات الى الرؤوس بل كما يمكن نقل الاعمال الأدبية التى لاتقوم على أسس وراثية كالأساطير، ولابد أن تعيش الأسطورة حياتها فى تاريخ الأمة وضميرها حتى يستسيغها ذوقها وتنبض لها قلوبها . لهذا لم يكن ممكنا أن يشعر العرب بجمال التراجيديا الاغريقية والمستندة فى صميمها الى الأساطير لأن تنقل الى تراثهم كما نقلت الفلسفة لأن الفلسفة تراث ذهنى فى الأغلب والأسطورة تراث شعورى فى الصميم .

الاستشراق

ان أبسط تصوير للاستشراق واعمقه هو انه « استخدام العلم فى خدمة السياسة » والاستشراق بعضه متصل بالنفوذ الاستعمارى وبعضه متصل بالثقافات الغربية والمسيحية ، وبعضه متعصب .

ومن هنا فقد كانت مادته فى الأغلب نافعة لتغذية حركة التبشير وكانت آراؤه وملتقطاته انما تمثل « مادة » خاما يستطيع التبشير استعمالها فى دعم خططه ، وفى اثارة عوامل الخلاف وتأريث الشبهات بما يحقق مخططه ، والاستشراق اذا كان خاضعا لنفوذ دينى أو سياسى فانما يدرس القضايا بوجهة نظر مسبقة وبأحكام مقررة وبأهداف واضحة : أساسها خدمة النفوذ الاستعمارى ، وقوامها التعصب والاتهام للشرق والاسلام والعروبة ، ومهما صيغت كلماته فى أسلوب له طابع علمى فانها تنطوى على عدم الحيدة وعلى لا انحياز . وقد عمل عدد كبير من رجال الاستشراق فى مجال التبشير ، وكانت كتاباتهم وقودا خصبا فى أيدى المبشرين ومن هؤلاء مرجيلوت وماسليون وهنرى لامنس ولويس شيخو وفنسنك وجولدزيهر وهم من أشد المستشرقين تعصبا على الاسلام واللغة العربية .

وقد كانت كلمة (الاستشراق) فى نظر الكثيرين وما تزال تحمل طابع البحث المجرد من الهوى ، غير أن النصوص التى يقدمها علماء الاستشراق فى مختلف البحوث تكشف عن غير قليل من القصور فى الفهم أو الهوى فى القصد ، وأخطر ما يتصل بتاريخ الاستشراق أن رجال الارساليات التبشيرية قد خلعوا أثوابهم فى السنوات الأخيرة بعد أن انكشف أمرهم وتخفوا وراء استاره كما أن هناك كثيرين تحولوا من الاستشراق الى التبشير وفى مقدمة هؤلاء : لويس ماسنيون الذى كان تابعا فى عمله لوزارات الاستعمار وقد عاد فى سنواته الأخيرة فعمل فى معسكر المبشرين جهرة اعتمادا على اسمه اللامع المحيط بقدر كثير من سمت العلماء .

وقد يتحدث الكتاب ببساطة وحسن نية عن الدور الذى حققه الاستشراق فى بعث التراث الغربى الاسلامى . ونحن نعرف أن مصدر اهتمام المستشرقين بالشرق والاسلام لس مجردا ولا خالصا لوجه العلم

والحق انما يرجع الى أن العالم الاسلامى واقع فى قبضة استعمارهم فهم يدرسون تاريخه وأدبه بهدف محدد ، وهو التعرف الى نفسية هذه الأمم ليكيفوا مواقفهم ومعاملاتهم وعرفوا من أى جهة يستطيعون اخضاعه . وما هى جوانب الضعف فيه للتركيز عليها وما هى جوانب القوة فيه للقضاء عليها ، وذلك بهدف أن يبقى نفوذهم ويستمر . وهم فى كل ماكتبوه قد عمدوا الى وضع : (الاسلام واللغة العربية والثقافة والتاريخ) فى قفص الاتهام ، وحملوا كتاب العرب والمسلمين على الوقوف موقف الدفاع ورد السهام .

واذا كان الاستشراق خالصا لوجه العلم فلماذا يركز على الجوانب الضعيفة والروايات المدخولة والشبهات ، ولماذا يركز على النصوص الفلسفية حين يدرس التصوف وعلى الباطنية حين يدرس التاريخ ولماذا يولى اهتمامه للحلاج والسهروردى فى الدراسات الصوفية وأبو نواس وبشار فى الدراسات الأدبية وأبو بكر الرازى وابن الراوندى فى الدراسات الفلسفية ، ولماذا يهاجم بعنف المتنبى وابن خلدون والغزالى ولماذا لا يعنى بالأصالة فى الفكر الاسلامى ويهملها ثم يركز على الآثار الفارسية والهندية واليونانية ؟ ولماذا يبعث من جديد تلك الشبهات التى أثارتها الشعوبية قديما ويعيد النظر فيها ولماذا يركز على الخلافات بين السنة والشيعة وبين المسلمين والنصارى ، وذلك كله فى محاولة تأريث الخلافات بين المسلمين والعرب حتى لا تتم لهم وحدة فكر ولا نداء الى تجمع ؟ ولماذا القول بأن هناك اضطهادا للمفكرين ومحاولة لمنع حرية الفكر ، ولماذا الاهتمام بأخبار الزنج والقرامطة والمجوسية ولماذا تكتب الأبحاث المطولة عن مسيلمة الكذاب ولماذا ينكر وجود عبد الله بن سبأ .

ولقد ركز استشراق على الأفكار الدخيلة فى الاسلام والفلسفات الوافدة فى محاولة لتصويرها بنها جوهر الفكر الاسلامى مع الاغضاء المتعمد عن القيم الأساسية والدور الذى قام به أمثال ابن حزم والغزالى وابن تيمية والقاضى ابن العربى وابن الجوزى وغيرهم فى تحرير الفكر الاسلامى من هذه الدخائل .

ويولى المستشرقون عناية كبرى بفكرتى وحدة الوجود والحلول . وهناك ذلك الاهتمام الدائب بالعاميات والفلكلور والأمثال الشعبية والأغانى

والمواويل وكلها محاولات لخلق تصور وجود لغة عامية قائمة بذاتها .

وقد جاهد المفكرون المسلمون هـذه الاتجاهات وكشفوا عنها وحالوا بين هؤلاء المستشرقين وبين تحقيق أهدافهم ، وكان عبـد العزيز جاويش واحمد زكى باشا وأحمد تيمور وغيرهم فى مقدمة هـذا الرعيل ، وكانت فى مصر عنـد انشاء المجمع اللغوى محاولة أخرى لرد المستشرق فنسنك عن عضوية المجمع ، وقـد هاجمه الدكتور حسين الهوارى وقـدم صورة لآرائه فى الاسلام والنبى والقرآن وكشف عن اتجاهه واتجاه المستشرقين عامة . ومن بين ما قاله « انه اذا أراد أحد منهم أن ينـال من الاسلام أمرا فانه يفرض فرضا ثم يبحث عن الآيات القرآنية التى تتناسب مع هذا الراى الذى فرضـه ، فاذا وجد آية تدحض رأيه حذفها وانـكرها انكارا حتى يخرج بالنتيجة التى تزرع الشك فى فؤاد من يطلع على أقواله من غـير تمحيص بحجج شبه منطقية يزعزعون بها عقائد المسلمين ، وهى احـدى الطرق التى وضعها الاستعمار من زمن قـديم ، وكانت احدى وسائلهم مع تقوية اللغـات العاميـة التى لايتفـاهم بها المسلمون ولا يفهمون لغـة قرآنهم » .

ولا شك أن من أخطر أعمال الاستشراق هو وضع موسوعات كاملة أمام الباحثين العرب والمسلمين تمكنهم من أن يجدوا مايريدون البحث عنه فى سرعة وسعة ، فيلجأون اليها دون أن يكلفوا انفسهم مؤنة البحث عما تتضمنه من حقـائق او اباطيل وذلك اعتمادا على طبيعـة بعض المؤلفين والباحثين والعلماء من الثقة بالـكلمة المطبوعة ومن الاعتمـاد على شهرة الأسماء التى وضعت على صدر هذه الأبحاث .

ومن هذه المراجع التى يجب مراجعتها فى حيطة وحذر لاحتوائها على كثير من الشبهات « دائرة المعارف الاسلامية » والمنجد والموسوعة العربية وبرو كلمان فى الأدب العربى » والهدف الأكبر من مثل هذه الأعمال الهادفة الى تشويه الحقائق هو خلق شعور بالنقص واحساس بالازدراء من شانه أن يسيطر على نفوس المسلمين والعرب ، ويصدق فى هذا قول الدكتور عرفان عبد الحميد من أن هدف الاستشراق هو خلق جيل يتنكر لتراث هذه الأمة ليصير الى حيرة واضطراب فكرى فيسهل عنده غزو المجتمع الاسلامى بالفكر والمبادىء والمفاهيم والتصورات الغربية .

وقد أشار العلامة مالك بن نبى الى أنه فى أى قضية أو مسألة أو معضلة تواجه المسلمين فان الاستعمار والتبشير والاستشراق والتغريب قادر على طرح اجابات مستمدة من محاولته المستمرة لتغيير مجرى التفكير الاســـلامى .

وقد أجمعت كتابات المنصفين على أن المستشرقين لم يتخلصـــوا بعد من تعصبهم ، وأن عملهم لم يتحـــرر من الهوى وقـــد سجل لويس برنارد وهاملتون جب مثل هـــذا المعنى حيث أشار برنارد الى أن ظاهرة التعصب الدينى واضحة فى مؤلفاتهم ، وقال جب أن ظاهرة الأحكام المسبقة على الاسلام لا تزال تحكم أعمـــالهم بالرغم من محاولة التحرر منها ، ولا شك أن الزعم الجديد الذى يروج له المستشرقون فى السنوات الأخيرة من أن أبحاثهم قـــد أخذت شكل الموضوعية والتجرد من الأهواء والأخذ بأسباب البحث العلمى ، هذا الزعم لا يثبت أمام الصـــورة المشوهـــة والعبارات الحاقدة والأهواء الدفينة التى تظهر هنا وهناك من وراء السطور بالرغم من محاولة اخفائها ، هـــذا الاخفاء هو الذى جد على هذه الأبحاث .

ومجمل آراء المستشرقين منحرفة، وهى منصبة على القرآنوالرسول والاسلام ، وعندهم أن القرآن صورة من الكتب السابقة عليه وأنه منقول منها ، وأن له لغـــة فى مكة تختلف عن لغة المـــدينة ، وأن الاسلام جملة مستقى من الديانتين اليهودية والمسيحية ، وأن الرسول كان راهبا رومانيا غضبت عليه البابوية فخرج عليها ودعا الى دين آخر ، وما تزال كتابات ورسوم دانتى وفرجيل وفولتير وديدرو وهم من أقدر كتاب الغرب وفنانيه تحمل صـــورة التعصب ، وما تزال تؤثر فيمـــن تبعهم من أمثـــال لامنس ومرجليوث ولويس شيخو وسنوك وفنسنك ، وقد انتقلت الى طه حسين وعلى عبد الرازق ومحمود عزمى وسلامه موسى وما تزال تنتقل الى طبقة جديدة من اتباع المبشرين والمستشرقين .

الاقتبـــاس

« الاقتبـــاس » ضرورة لا محيـــد عنها بين الأمم فى محيط الثقافات والحضارة والنظم ويجب أن تتم فى حرية كاملة وفى حالة من حالاتالرشد الـــكامل والايمان العميق بالجذور والمقدرات الأساسية ، ودون أن تفرض

أو يلتزم بها المقتبس تحت ضغط نفوذ سياسى أو استعمارى أو سيطرة من نوع ما ، وقوام الاقتباس المعرفة الكاملة بالفروق الواضحة بين المعرفـــة والثقافة وبين العلم والفلسفة ، وبين الجوانب العقلية والروحية ، وبين الحضارة والثقافة ، وأن تجرى فى اطار كيان الأمة وشخصيتها ومزاجها وطوابعها الأساسية ودون أن يتعرض أى مقوم من مقوماتهـــا للخطر أو الاضطراب .

ومن المعروف أن العالم الاسلامى يتعرض للاقتباس وهو تحت ضغط نفوذ استعمارى عات جبار يستهدف تحويل الأمم عن قيمها واخراجها من مقوماتها وصهرها فى بوتقة العالمية والأممية التى تستهدف افتقاد هـــذه الأمم قـــدراتها وكيانها الخاص حتى تستسلم عن طريق الفكر للغزو الثقافى والنفوذ الأجنبى .

وأهم شروط الاقتباس (١) نقل الايجابى الصالح النافع (٢) الجرأة فى نقل العلم (٣) التحفظ فى نقل الثقافة والأدب مع الايمان الكامل بأن العلم ليس ملكا للغرب ولا للشرق ، أما الثقافة (والأدب جزء منها) فهو ملك خاص لـــكل أمة . ولـــكل أمة قيمها الاجتماعية والأخلاقية والمـــدنية وهى من أهم المجالات التى تبرز فيها طبـــائع الامم ، والمعروف أن القيم الأساسية بالنسبة لأى أمة أو ثقافة كالتربة بالنسبة للنبـــات والبذور ، فـــكل تربة لها مقوماتها التى تستطيع أن تنقل حضانة نبـــات بعينه او بذرة بعينها ، بينما لا تتقبل عشرات من البذور التى لا تستطيع ان تنمو فى غير تربتها ولابد أن تموت اذا انتقلت الى تربة أخرى ، اذ أن لـــكل تربة عوامل خاصة تحوطها تختلف عن غيرها ، من جو وماء ومكونات جيولوجية كذلك لـــكل أمة تربة فـــكرية لها مقوماتها التى تصلح لبذر دون بذر .

يقول وليم مرسيه : ان البشر والشـــعوب لا يقبلون من التـــأثيرات والعوامل الا ما كان ملائما للخلاصة الخالصة من عقليتهم ، مسايرا لمـــا فيها من حركة وتوثب ، وفى ايجاز فانه لا يجوز أن يقتبس الناس من غيرهم ولا الشعوب من بعضها البعض الا ماكان حيا فى قرارة أنفسهم متوثبـــا للوجود .

واذا كان هنـــاك مفهوم باحث غربى بالنســـبة لموقف الفكر الغربى

من الاقتبـــاس ، فلماذا يكون مفهوم الاقتباس عندنا عاقا للفطرة ، خارجا عن القوانين الطبيعية والاجتماعية التى تسلكها الأمم ، وما تزال الأصالة التى عرفها الفكر العربى الاسلامى طوال تاريخـــه تفرض عليه أن يرفض تلك النظرية الفجة التى ينادى بها دعاة التغريبوالتى تقول بتقبلالحضارة الأوربية بفكرها : وخيرها وشرها ، ما يحمد منها وما يعاب .

ان أمامنا تجـــربة أصيلة هى تجربة المسلمين فى القرن الرابع من ترجمة واقتبـــاس ، فقـــد أخذوا مايتفق مع مقوماتهم وقيمهم الأســـاسية وردوا مايختلف معها وعندما أخذوه صهروه فى بوتقتهم وصاغوه وحولوه الى كيانهم فلم يغير من معالم شخصياتهم ، وانما أضاف قوة الى حياتهم وكذلك فعل توماس الاكوينى حينما ترجمتآثار الفكر الاسلامى الى اللغات الغربيـــة ابان حركة النهضة فانه عمد الى غربلة طوابع الفكر الاسلامى وحرر منها الفكر الغربى المتجدد .

وعندما ننظر نظرة موضوعية منصفة لأولئك الذين يفرضون علينـــا الاقتبـــاس غير المشروط نجد علامة كبيرا مثل الأستاذ هنرى بوردو يقول لقومه : لا شىء أقتل من تغلغل الأفـــكار الأجنبيـــة لأن الغاية التى تصل اليها هذه الأفـــكار انما هى جرح مواطن حسنا وشـــعارنا فاذا أردنا أن تكون ثقافتنا ضربا من الهو لا من التشويه لزمنا أن نجعل هـــذه الثقافـــة عاجزة عن تغيير طبيعتنا وروح عنصرنا . يجب علينـــا قبل كل شىء أن ندرس أنفسنا فاذا وثقنا بأنفسنا بعد هذه الدراسة وتمكنا من اســـتخدام قلوبنا وأفكارنا كما يستخدم القائد جيشه الأمين الذى يترفع عن الانضمام الى العدو . فحينئذ نحاول فتح العالم أى الاتصال بآداب الأمم . فالوطن كما عرفه أحد كتابنا انما هو اجتماع الموتى والأحياء فى بقعة واحدة .

ويبدو خطر الاقتباس والاستعارة واضحا حين نرى أمما كبرى تخشى خطره بينما نحن ، ونحن بين شقى الرحى وفى قلب خطر صراع الثقافات نستهين بالأمر وننظر اليه فى بساطة بل ربما عددنا ذلك أمرا لا أهميـــة للاحتياط له . يقول جون بول سارتر « لو افترضنا أن شعبا أوربيا صغيرا اضطر بحكم الظروف السياسية والاقتصادية أن يستعير من الأيدلوجيـــة الأمريكية أو السوفيتية شيئا فهـــذا الشىء المستعار لن يبدل جوهره بعد

الاستعارة الا بعملية هضم صحيحة سليمة ، وذلك لأن أصوله مستمدة من طبيعـــة الاقتصاد والوضع الاجتماعي والسياسي فى أمريكا أو روســـيا أما حين يكون المستعين سطحى الثقافة فلن يستطيع أن يبدل طبيعة هذا الوضع فيبقى الشىء المستعار فى جوهره أمريكيا أو روسيا يفرض على ثقافة صغيرة لا قبل لها بتحويله أو طبخه من جديد ، وذلك لأسباب تتعلق بطبيعة ضعفه السياسى والحاجة الاقتصادية والفقر الثقافى » .

وهكذا تبدو مسألة الاقتبـــاس فى ضوء الواقع وينكشف مدى الخطر الـــكامن من ورائها ، ان النتيجـــة الطبيعية هى ضياع مزاج الأمة وكيانها وطابعها وشخصيتها فعلى الأمم أن تحتفظ بخصائصها . التى تتميز بهـــا والتى تستمدها من جذورها وتراثها ودينها وعليها أن تستوحى تاريخهـــا وتستلهم اجواءها ، والتقليد اقل باعا من الأصالة واضـــعف شخصية ، وهو لن يستطيع أن يكون ذلك الأجنبى ولا أن يعـــود ذلك الأول . ومن هنـــا فان ذاته سوف تمسخ مسخا وتضيع فى بوتقـــة العالمية والأممية التى تنصهر فيها الأمم الضعيفة التى فقدت مقوماتها .

الالحـــاد

الالحاد فى التعبير الغربى (Atheisme) هو نفى وجود الخالق المبدع للــكائنات ، وهو تعبـــير عن نفى وجود الله . والالحـــاد ضـــد الايمان . وقـــد بدأ الالحاد فى القرن السابع قبل الميلاد على يد الفليسوف طاليس وتتلمذ له كثيرون وكان مرماهم جميعا التدليل على قيـــام الوجود بنفسه مستغنيا بقواه الذاتيـــة عن مدبر حكيم فوق عالم المادة وقد دارت بين الالحاد والايمان منذ ذلك الوقت والى اليوم معارك متعددة .

ولا شك أن الايمان من طبائع الفطرة الانسانية التى لا مفر منها ولا مرد عنها والالحاد عارض وهى ظاهرة طبيعية فى البشرية لا تتوقف ولا تنتهى وقـــد جاء العلم الحديث فأعطى ظاهرة الالحاد مفاهيم جديدة نتجت عن قدرة الانسان على استكشاف المجهول والسيطرة على الطبيعـــة مما دفعه الى الامعان فى انكار وجود الله .

وهناك عوامل أخرى دافعة الى اذاعة مفاهيم الالحاد والتأكيد عليها وترديدها تتصل بأصحاب الحركات الهدامة الرامية الى القضاء على التوحيد أو سيطرة نفوذ معين .

وتكاد تجمع الأدلة على أن تفشى ظاهرة الالحاد فى الفكر الغربى انما ارتبطت الى حد كبير بعوامل تتصل بالدعوة الى القضاء على الأديان، أو على نفوذ الكنيسة والمسيحية فى أوربا ، وقد اصطنع الاستعمار ومؤسساته من تبشير وتغريب وشعوبية أساليب الالحاد وأمعنوا فى اذاعتها وتوسيع نطاقها كجزء من الهدف المرسوم للقضاء على الاسلام فى نفوس معتنقيه واثارة جو من الريب والشبهات وخلق أجيال ضالة بعيدة عن مفهوم الايمان والدين والتوحيد ، لتكون الأمم بهم فريسة سهلة تمهد الى التهام النفوذ الأجنبى لها .

وقد قامت فى أوربا خصومة ضخمة بين العلم والدين . وغلبت نزعة العلم وسيطرت وحملت لواء الهدم العنيف للدين ومفاهيمه وقيمه ومن بينها القيمة العليا وهى وجود الاله الخالق الأكبر .

ولكن هذه الحملة تركزت على الكنيسة وعلى مفهوم معين للدين أساسه المسيحية الغربية وطقوسها ومفاهيمها التى تختلف كثيرا عن مفهوم المسيحية المنزلة من السماء أو المسيحية الشرقية الأصيلة ، فالأوربيون لم يأخذوا المسيحية كاملة وانما أخذوها اطارا للفلسفة اليونانية الوثنية وللقانون الرومانى . ومن هنا فقد كانت الحملة على الدين فى أوربا مسألة مستقلة تدور فى دائرتها ولا تتصل بأى دين آخر ، وخاصة الاسلام الذى ليس هو دينا فقط ولكنه دين ومنهج حياة . وقد نقلت هذه المعركة الى العالم الاسلامى كأسلوب من أساليب الاستعمار فى اثارة الشبهات وتحريف المفاهيم ولكن الواقع يثبت أن الاسلام يختلف فى موقفه من العلم والحضارة عن غيره من الأديان وانه يقوم أساسا على مفهوم الانفتاح فى مواجهته على العلم وفى ظل دعوته نشأ المنهج العلمى التجريبى .

ومن هنا فان الحملة على الدين استتبعت فى أوربا ظهور ظاهرة الالحاد والحملة على الله بمفهوم الغرب .

والمعروف أن أول من اجترأ فى هـذا السبيل هو نيتشه حين قال « لقد مات الله » وقد ارتبط هـذا الاتجاه فى الفكر الغربى بخيطه الأول والقـديم فى الفكر اليونانى حين قال الفلاسفة « ان الآلهـة المقيمة فى المـكان المقدس قد ماتت » .

وقد تنوعت فلسفات الالحاد فى العصر الحـديث وتطورت ، ومنها مايدعو الى الوهيـة المـادة أو الوهية الانسان ، ومنها ما يجعل الغريزة محور تفسير الوجود ، وقد اختلفمفهوم الاله نفسه فى الأديان التوحيدية، فالاله فى عرف اليهود اله قومى لهم وحـدهم دون غيرهم من الأميين وهو اله شرير ، وعند النصارى واحد من ثلاثة والتفسير المـادى للتاريخ ينكر فكرة الالوهية ويربط الانسان ومصيره بالمادة ويفسر حركة التاريخ بعوامل ليس فيها ارادة الله . والملحد يرى ان الكون مادى يدار من داخل نفسه.

اما المؤمن فيرى أن وراء هذا النظام الدقيق وهـذه القوانين الثابتة والنواميس الدقيقة خالق مدبر موجه « وأن هذه النواميس التى اكتشفها العالم ليست مستقلة فى ذاتها ولـكنها مظاهر مختلفـة لقوة واحدة هى المهيمنة على الوجود كله ، وانها لو لم تكن كذلك لـما كان هذا الترتيب البـديع ، وهـذا التضامن المتبـادل بين العوامل الكونية ومعنى اتحاد نواميس الوجود كلها فيما بينهـا انها مظاهر مختلفـة لقوة واحـدة عامة مهيمنة على الوجود بأسره حافظة له من التلاشى » (دائرة معارف القرن العشرين) فالالحاد ضد الايمان ، والالحاد انكار وجود الله ،وهو مفهوم قام على المذهب المـادى الذى يرى أن كل ماليس محسوسا فهـو ليس موجودا أصلا .

ونفى الألوهيـة يتضمن نفى النبوة والـكتب المنزلة وعالم ماوراء الطبيعة والجزاء والحساب والقيـامة والجنـة والنـار ، ويرجع بعض الباحثين الالحاد الى نظرية أصل الأنواع لدارون ولـكن المتمعن فى الأمر يجد أن دارون لم يخالف مبدأ الايمان بالله ، ولـكن الذين تلقفوا هـذه النظرية من بعده بهدف هـدام ، هم الذين فسروها واستخرجوا منهـا مايدفع الى خلق طابع الالحاد ، ويتمثل هذا المعنى واضحا فى بروتوكولات صهيون .

ومن حق أن يقال أن هجوم الفلسفة الأوربية على الأديان وعلى كل القيم الأساسية التى تمثلها ومنها وجود الله انما كان منظورا فيه الى الكنيسة والاقطاع وأثرهما فى تعويق النهضة وفى تحرير الانسان وأن جميع المذاهب الفلسفية : سواء منها الفلسفات الاجتماعية أو الطبيعية أو النفسية (نيتشه ، ماركس ، فرويد ، دوركايم) انما كانت تضع أمام أنظارها هدفا ضخما تريد هدمه هو الدين الغربى ، وذلك نتيجة التحدى الذى واجهته النهضة الأوربية مع الكنيسة من ناحية ، والدور الخطير الذى لعبته الصهيونية منذ الثورة الفرنسية وبعدها فى تصديع المسيحية والكنيسة والقضاء على فكرة الايمان والدين والقيم الأخلاقية والاجتماعية وذلك طبقا للمخطط الذى كشفت عنه بروتوكولات صهيون فى الاستيلاء على العالم ، وفى ضوء هذه البروتوكولات يمكن اعادة النظر فى كل خطوات التاريخ الغربى وثوراته وفى ظهور الماركسية وغيرها .

ومن الواضح أن تنتفى تماما بالنسبة للعالم الاسلامى والاسلام والأمة العربية كل هذه التحديات التى واجهت الفكر الغربى ، ولكن التبشير والتغريب والنفوذ الاستعمارى قد اتخذ من هذه الشبهات سلاحا هاما فى مواجهة الاسلام وزلزلة مفاهيمه فى قلوب المسلمين عن طريق عرض هذه القضايا والتركيز على بعض الجوانب منها واثارة الشبهات ، فليس فى الاسلام بالحق قصة خلاف بين العلم والدين ، ولا قصة صراع بين الشعوب والعلماء وليس فى الاسلام كنيسة ولا كهنوت ولا طبقة رجال دين ، ولا توجد فيه بالقطع ما يسمى بالكهانة اطلاقا فذلك شىء لم يعرفه التاريخ الاسلامى بجملته ، ولقد كان علماء الدين على العكس من ذلك دعاة النهضة والعلم واليقظة وهم الذين أشعلوا نيران المقاومة والجهاد والنضال فى وجه النفوذ الأجنبى ، والذين أوقدوا شعلة العلم والحرية .

واذا كانت نزعة الالحاد يمكن أن يتسع نطاقها فى الغرب حيث تمتزج المسيحية المثلثة بالوثنية الاغريقية فانه فى الشرق لا توجد هذه النزعة اذا سارت الأمور على طبيعتها الا صدى خفيفا ، فالمسيحية الشرقية والاسلام الموحد يبعد اذا سارت عن الالحاد كثيرا ولكن الأمور لم تتوقف فى ظل التغريب ونفوذ التبشير عند هذا الحد بل نقل ميدان المعركة الى

عالمنا الاسلامى وفرض علينا فرضا ذلك الصراع . والنفس الاسلامية الشرقية بطبيعتها نفس مؤمنة بالله ، عميقة الايمان بالخالق ، وفى رحابها نزلت الأديان السماوية الثلاثة فهى تعق فطرتها حين تتعلق بمفاهيم الالحاد الغربى الأصل الوثنى الجذور .

وقد واجه الفكر الاسلامى والثقافة العربية تجارب قليلة فى هذا المجال منها ماكتبه اسماعيل أدهم تحت عنوان (لماذا انا ملحد) وقد كشف فيه عن تحدى نفسى خاص وشخصى يتعلق بالأمر الذى دفعه الى هذا الانهيار، فقد كان والده مسلما متزمتا يضربه فى الصباح ليصلى الفجر قسرا بينما كانت أمه تأخذ أخته الى الكنيسة يوم الأحد فى رفق ، وكان هذا هو التحدى الذى دفعه الى الالحاد بعد صراع نفسى جاد .

وهذه تجربة فردية لا تتصل بجوهر الدين نفسه ولا تمثل انكارا أساسيا للتوحيد ، ولكنها نوع من الانحراف دفع الى مهاجمة كل القيم فى سبيل الانتصار وتأكيد الذات . وقد ذكر اسماعيل أدهم ذلك فى وضوح حين قال « أما الأسباب التى دفعتنى للتخلى عن الايمان بالله فهى كثيرة منها ماهو علمى وما هو فلسفى ومنها مايرجع لبيئتى وظروفى ومنها مايرجع لأسباب سيكولوجية: لقد كان أبى لايعترف لى بحق تفكيرى ووضع أساس عقيدتى المستقلة وكان يفرض على آراء الاسلام والقيام بشعائره وقد ثرت على هذه الحالة وامتنعت » لقد خرج اسماعيل أدهم عن جذوره فى سبيل التحدى الشخصى وتأكيد ذاته ، وآمن بالعلم وحده ولكنه فى النهاية كانت ماذا ! عندما تعرضت الاسكندرية للغارات أيام الحرب العالمية الثانية وفرغ المنزل الذى كان يعيش من ايراده ، انتحر لأنه أحس بأن مورده قد انقطع . وهذا مفهوم الالحاد . والفرق بينه وبين مفهوم الايمان بالله .

والمعروف أن الالحاد كسائر أنواع الشر طارىء على النفس ، أى أنه ليس من طبيعتها .

ولقد كشف درس الطبيعة الانسانية عن أن فى أعماق النفس حاجة الى التدين بدين ما ، وقد اكتشف الرواد الذين زاروا مجاهيل الأرض أنه لاتوجد قبيلة من البشر بغير دين ، فالذين لم يعرفوا الله مثلوه حسب

تصوراتهم فى الآلهة التى اتخذوها لأنفسهم وقد ظهر فى كل جيل ملاحدة وهراطقه وأعـــداء للدين ولـــكنهم كانوا ولا يزالون غير ذات فاعلية وما تزال الـــكتلة البشرية وستظل متدينة .

والأمر الجديد الذى تكشف عنه الدراسات العلميـــة اليوم ، مع تفتيت الذرة واقتحام الفضاء ، ومع انهيار النظريات العلمية القديمة هو أن وراء هـــذا الكون خالقـــا وصانعا ومدبرا . وقـــد ظهرت فى السنوات الأخيرة مؤلفات كثيرة لعلمـــاء المعـــامل الذين يعيشون كالرهبـــان خلف الواجهات الزجاجية وبين أدق دقائق الأجهزة العلمية تكشف عن توصلهم باليقين الى هذه الحقيقة . لقد انتهت مرحلة توقف العلم عنـــد المحسوس والمعقول . ولذلك فان العلماء المعمليين ليسوا هم دعاة الالحاد وانما تنطلق دعوى الالحاد من محيط الفلاسفة . والفلسفة نظرية وافتراض وليست علما ، وهى افتراض يقوم فى نفس أصحابه أولا ثم تلتمس له الادلة ، وهو قابل للانتفاض والتحول باختلاف العصور والبيئات .

وهناك فلسفات معاصرة ترى أن التحـــديات الأساسية لها هى فى مهاجمة الدين واثارة النفس الانسانية ضده وخلق جو من الالحاد والاباحة لأهـــداف سياسية ورغبة فى التسلط على العـــالم البشرى والسيطرة عليه . وقد استفاد الاستعمار والنفوذ الأجنبى من هذه الموجات والدعوات وحاول استخدامها فى الأقطار التى يسيطر عليها وقـــد كانت الفلسفات المادية أساسا بعيدة عن العلم الخالص ، وقد حاولت منذ ظهور نظرية أصل الأنواع لدارون أن تنحو بالمفهوم العلمى منحى فلسفيا وتتخذ منه ذريعـــة لتأكيد المذهب المادى القـــائل بأن الـــكون يدير نفسه بنفسه ، ولم يكن دارون ولا واحد من العلماء التجريبيين أو المعمليين قـــد قال بذلك ، ولكنها الفلسفة التى كانت تواجه تحديات معينة فى مقدمتها الـــكنيسة ومفاهيم المسيحية الغربية وقضـــايا متعددة تتعلق بالنفوذ السياسى للبابوات وأمراء الاقطاع . ثم كانت الفلسفة المادية المتمثلة فى التفسير المـــادى للتـــاريخ الماركسى أعلى مراتب الدعوة الى مخاصمة الدين ، والدين الذى تخاصمه الماركسية هو دين أوربا .

التسامح

لم يعرف فكر بشرى معنى التسامح كما عرفه الفكر الاسلامى وخاصة فى مجال العقائد المخالفة ، وقد كتب العرب والفوا فى الملل والنحل وكانوا واسعى الصدر تجاه العقائد الأخرى ، وحاولوا أن يفهموها وأن يدحضوها بالبرهان والحجة ، ثم انهم اعترفوا بما أتى قبل الاسلام من ديانات توحيدية ويحظى ابن حزم فى هذا المجال بالنصيب الأوفر ، وقد كتب أبو الريحان البيروتى عن أديان الهند فى القرن الخامس للهجرة فلم يمس عاطفة أحد من أهلها ، وكان اذا كتب عن نحلة يشعرك أنه هو أحد ابناء تلك النحلة لتلطفه فى وصف شعائرها ، وكان كتاب العرب يذكرون جميع المخالفين بكل حرية ، وفى كتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصبعة وطبقات الحكماء لابن القفطى وطبقات الأدباء لياقوت وفى الوافى بالوفيات للصفدى ، وفى تاريخ حكماء الاسلام للبيهقى ، أمثلة لهذا التسامح فقد ترجم المؤلفون للنصارى واليهود والسامبين والمجوس كأنهم أبناء ملة واحدة (هامتون جب فى كتابه الأدب العربى) .

وفى مختلف مجالات المجتمع والفكر ترى هذا التسامح واضحا فقد بلغ أرباب الديانات الأخرى فى الحضارة الاسلامية مكانا عاليا فكان منهم أطباء الخلفاء وأعوان الأمراء ، ويرجع ذلك الى مفهوم الاسلام فى التسامح مع أهل الذمة وأصحاب الكتاب من الملل المختلفة .

غير أن كلمة التسامح لم تلبث أن استعملت فى العصر الحديث على نحو آخر جد خطير، فقد استعملها دعاة التغريبوخصوم العرب والمسلمين على نحو يدعو الى تساهل المسلمين عن القيم الأساسية لفكرهم فىسبيل اتاحة الحرية للحضارة ومن ذلك قولهم : الشرط الأول للحضارة وهو التسامح للآراء المخالفة وحرية الرأى ، ويذهب البعض الى القول بأن السياسة والاجتماع والدين لن ترتقى حتى تشملها الحرية شمولا تاما كما شملت العلوم المادية ، والمقصود من ذلك أن يتجاوز الفكر الاسلامى عن قيمه الكبرى أو مفاهيمه للقيم الانسانية العامة ليفسح المجال للقيم الغربية فى السياسة والاجتماع والدين وهى مخالفة للفكر الاسلامى مخالفة جوهرية وتامة .

ان الفكر الاسـلامى كان دائما متفتحا على الفكر الانسانى وعلى مختلف المذاهب والآراء والفلسفات والأديان ولـكنه كان حريصا على أن تبقى جذوره وقيمه الأساسية القائمة على التوحيد ، ولم يمتنع عن تقبل أشياء كثيرة من هـذه المـذاهب ما التمس فيها قوة ايجابية وتقـدما ، ولـكنه لم يقبلها على علاتها ، بل صهرها فى بوتقتـه واذا بها فى كيانه وأساغها أصـلا بحيث أصبحت عاملا مجددا له ، دون أن تخرجـه من ذاتيته وطوابعه ومزاجه الأصيل .

ومن هنا فان مثل هـذه الدعوى الى التسامح ، على هـذا النحو لاغراق الفكر الاسلامى والثقافة العربية فى اتون التيـارات والمـذاهب الغربيـة التى تمر الآن فى مرحلة الانهيار ، وحيثتسيطر أممها وحضارتها على العـالم وتحاول أن تفرضـها بقوة هـذا النفوذ ، وحيث ان الفكر الاسلامى والثقافة العربية لاتزال بعد لم تصل الى مرحلة الموازاة التامة. كان من حق كل ثقافة أصيلة أن تحتفظ بمقوماتها وأن لا تمكن أى ثقافـة أخرى من أن تجتاحها أو تقهرها أو تحتويها .

فمفهوم التسامح والتساهـل اليوم فى هذا المجال ، مفهوم جـدير بالنظر والاعتبار والتوقى . والغربيون فى صدر حضارتهم لم يتقبلوا الفكر الاسلامى كاملا بل أخذوا منه ماجدد فكرهم ولكنهم لم يقبلوا التسامح معه الى الحد الذى يغير ذاتيتهم .

التطور (التطور والثبـات)

التطور قانون طبيعى يعترف به الفكر الاسلامى على نحو ما يعترف به الفكر البشرى كله ، وهو يقوم على أساس واحد هو أنه لا يعنى التغير الـكامل ، فالفكر الاسلامى يؤمن بثبـات الأصول العامة والقواعد العليا وتطور الجزئيات والتفاصيل والفروع ، وفـكرة التطور لا تتعـارض مع الفكر الاسلامى الا اذا استهدفتالقضاء علىالجذور والمقومات الأساسية، أما فيما عدا ذلك فهى طابع من طوابعه : يتمثل فى المرونة والقدرة على الحركة والتجاوب مع ظروف البيئات والعصور ، والقدرة على امتصاص عصارات الثقافات والتفتح على الحضارات دون الانفصال عن جـذورها

أو فقـــدان ذاتيتها ، ومفهوم الفكر الاسلامى هذا عن التطور أقرب وأوثق اتصـــالا بالعلم من المفهوم الغـــربى الذى أوجـــدته الفلسفة وفرضت به ـ انبعاثا من المادية الخالصة ـ عدم وجود شىء ثابت مطلقا .

ومفهوم الفكر الاسلامى فى التطور والثبـــات هو مفهوم العلم فى شـــأن الـــكون والوجود نفســـه ، الثـــابت الأصـــول والطوابع المتطور الجذور والفروع .

ومفهوم التطور فى الفكر الاسلامى يستمد وجوده من قانون الاعتدال والتوازن فـــكل تجـــاوز لحـــدود الصـــورة أو الغاية ينقلب بحكم هـــذا القانون الى نقص أو اضطراب أو اختلال ـــ وهنـــا اجماع بين الباحثين على أن التطور ليس قانونا أخلاقيا وليس كل طور أفضل من الذى سبقه، بل ان التطور قانون اجتماعى واقعى لا يقتضى مطلقا تفضيل الطور الأخير على الأطوار السابقة ، ذلك أن فـــكرة التطور الاجتمـــاعى أخـــذت من فـــكرة التطور الحيوى (البيولوجى) والتطور فى الحيـــاة يكون تحسنا وارتقاء وقـــد تكون ضعفا وانقراضا .

وهنا يبدو الفارق بين التطور والتطوير . فالتطور يشمل أى تغير يحدث فى أوضاع الجماعة سواء فى اتجاه تصاعدى أو فى اتجاه عكسى تنازلى . ثم هو فوق ذلك ينبنى على أن دوافع هذا التغيير وعوامله انما يكون منشؤها ذات الشىء ومردها الى مافيه من طاقات طبيعية .

أما التطوير فهو على عكس ذلك . يختص أولا بالتغيير التصـــاعدى الذى يهدف دائما الى طلب الـــكمال والحيـــاة الأفضـــل ويتـــأثر بدوافع خارجة عن طبيعتـــه والقوة الخارجية هى القيادات الاصلاحية والدعوات التقـــدمية (١) .

وهو يعنى المواءمة بين مقتضـــيات الفكر الاســـلامى بما يتضمن من فلسفات وتشريعات، وبين ماجد فى المجتمع تحت الحاح من عوامل التطوير الضرورى فى مختلف نواحيه السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ومن

---

(١) راجع بحث الدكتور محمد بيصار عن (العقائد والأخلاق) .

هنـــا فان التطور لا يمكن أن يكون قانونا تقدميا : اى ان كل طور أفضل من الطور الذى سبقه . ورجال النظرية يقولون أن التطور يبـــدو كحركة دائرة ، الى أمام والى أعلى ، وتطور من البسيط الى المركب ومن الأسفل الى الأعلى ومن الـــكمية الى النوعية .

غير أن التطور هو القانون الذى تتمثل فيه الجهود الانسانية وتبدو فيه أعمال المـــكلفين الاختيارية والارادية التى هى مناط الحكم عليهابالخير والشر والصواب ثم بمبلغ ملاءمتها أو عدم ملاءمتها لصـــالح المجتمع ورقى الانسانية .

ولمـــا كان مفهوم التطور قـــد ارتبط أساسا بالمفهوم المـــادى الذى استخلصه الفلاسفة من نظرية دارون فقد قام على مفهوم انـــكار وجـــود الخالق ، ويرى أن نشأة الـــكائنات الحية هى نشأة طبيعية أو من ذاتها. ولـــكن الفكر الاسلامى يرى اثبـــات الخلق لله لا للطبيعـــة ووقوع البعث فى الآخرة ، مع الايمان الـــكامل بالغيب ، ولذلك فان التطور الذىالتمسته المـــذاهب الفلسفية المادية بمعنى اطلاق الحريات الاجتماعيـــة والفكرية على النحو الذى يصل الى الالحاد والاباحة ليس من مفهوم الفكر الاسلامى ولا هو متقبل فيـــه . وان ذلك النحو من الفهم انما قام فى أوربا فىظروف محلية خاصة ، وليس له قيمة حقيقية فى مجال القيم الانسانية وقد وردت حكمة التطور بمفهومها الاسلامى فى الطبقات الـــكبرى للسبكى وفى مقدمة ابن خلدون وفى كتاب البدر الطالع للشوكانى . قال السبكى ومن كرامات هذه الأمة التطور بأطوار مختلفة وهذا الذى يسميه الصوفية بعالم المثال ويثبتون عالما متوسطا بين عالم الأجسام والأرواح ، واشار ابنخلدون الى ان اهل الدول أبدا يقلدون فى طور الحضارة الدول السابقة قبلهم..الخ.

ولقد دارت مناقشات متعددة حول التطور والثبـــات ، بافتراض ان هنـــاك تناقضا حتميا بينهما ، والواقع أن الثبات يبدو نظريا نقيض التطور والحركة ولـــكن اذا انعمنا النظر من الناحيـــة العلمية والواقعية وجدنا أن للتطور والحركة ضوابط ، هذه الضوابط بطبيعتها ثابتة باعتبار المقومات والدوافع الأســـاسية للحركة والتطور ، فالقطـــار والسيارة والطـــائرة والصاروخ كلها أجسام متحركة ولـــكنها فى نفس الوقت محكمة الصنع

بضوابط ثابتة ، تنظم حركتها وتيسر اندفاعها باستمرار ، ولولا هذه الضوابط الثابتة لكانت الحركة عشوائية أقرب الى الفوضى ولما تولدت الحركة قط ، فالقطار يخرج عن مساره اذا أهملت صيانته ، واختلت ضوابطه ، وفقد أحكام صنعه ، والصاروخ ينفجر فى قاعدته اذا اختلت تلك الضوابط .

كذلك المجتمع الانسانى مجتمع دائب الحركة والتطور ولكن هناك ضوابط أساسية تنظم حركته ، هذه الضوابط هى القيم الدينية والخلقية ومن هنا لا يجوز أن نقول أن هذه القيم ثابتة ومن ثم فهى تتناقض مع الحركة ، والواقع أنها ضوابط للحركة ، وليست بالقيود المعوقة لها ، اما هؤلاء الذين يحاولون تصويرها كذلك استنادا الى نظرية المتناقضات فهم لا يتعمقون الحقائق .

التعقيل

عبارة وردت على لسان بعض المفكرين فى معارضة الحماسة والعاطفة . والتعقيل هو العمل الذى يحتكم الى العقل ويستند الى شواهد الحس والتجربة .

والمعروف أن (مصطفى كامل) داعية الوطنية المصرية الكبير كان مصدرا من مصادر الوعى واليقظة ظهر بعد أن أصاب المصريين الجمود واليأس على أثر الاحتلال البريطانى . ومن هنا فقد كانت صيحته عاملا هاما فى ايقاظ الوعى وتحريك المشاعر ودفع النفوس الى التطلع العاطفى والروحى بالحرية والوطنية ، ومن هنا كانت حركته مطبوعة بطابع الحماسة والوجدان والعاطفة ولم يكن فى الامكان أن تبدأ حركة بعث الأمة بعد يأس الا عن طريق تلك الشعارات المثيرة التى تهز النفس من أمثال قوله « بلادى بلادى لك حبى وفؤادى ، لك حياتى ونفسى أنت أنت الحياة ولا حياة الا بك يا مصر » .

هذه الدعوة التى حمل لوائها مصطفى كامل بعد عشر سنوات من وقوع الاحتلال البريطانى كانت مبعث ثقة ويقظة عارمة بين طبقات

الشعب المتطلع الى الحرية ، وقد ظل مصـــطفى كامل يشدو بمثل هـــذه الأنغـــام منذ ١٨٩٣ تقريبـــا الى أن توفى ١٩٠٨ وفى عام ١٩٠٧ ظهرت الجريدة ونشأ حزب الأمة وطلع لطفى السيد بتلك الصيحة الداعية الى « التعقيل » والمهاجمة للحماسة والعاطفـــة ، انطلاقا من مفهوم التفاهم والمصالحة والالتقاء فى منتصف الطريق ، على النحـــو الذى كان يطمع كرومر فى تحقيقه ، بايجاد طبقة تحمل لواء الحكم فى مصر وتوالى النفوذ الأجنبى ولا تعاديه وتتقبل أوضاعه وتجرى مع الأمور مجرى الاصلاح على مراحل ، دون أن يشوبها هـــذا الطابع من الوطنيـــة الجارفة التى اتسم بها مصطفى كامل وصحف وكتابات الحزب الوطنى ، والذى كان يتطلع الى المطالبة بالجلاء والحرية كاملة .

ومن حق أن يقال ان طابع الحزب الوطنى لم يكن طابعا عمليا ولكنه كان ضرورةوطنية لابد أنتستهل بها الحركة الوطنية بعد الاحتلال الأجنبى.

غير أن التعقيل الذى دعا اليه لطفى السيد لم يكن قاصرا على هذا المفهوم وحده ولـــكنه كان مخططا كاملا معارضا تمام المعارضة لاتجاهات الحزب الوطنى السياسية والاجتماعية التى كانت تتسم بالايمان ، بالوطن وحرارة الدفاع عنه .

التغـــريب

التغريب فى أبسط مفهوم هو حمل المسلمين والعرب على قبولذهنية الغرب ومحاولة غرس مبادىء التربية الغربية فى نفوس المسلمين حتى يشبوا مستغربين فى حيـــاتهم وتفكيرهم ، وحتى تجف فى نفسهم موازين القيم الاسلامية : ويستهدف تحقيق ذلك ايجاد شعور بالنقص فى نفوس المسلمين والشرقيين عامة وذلك باثارة الشبهات وتحريف التاريخ الاسلامى ومبادىء الاسلام وثقافته واعطاء المعلومات الخاطئة عن أهله وانتقـــاص الدور الذى لعبـــه فى تاريخ الثقافة الانسانية ، ومحاولة انكار المقومات التاريخية والثقافية والروحية التى تتمثل فى ماضى هذه الأمة مع توهين القيم الاسلامية والغض من مقدرة اللغة العربيـــة وتقطيع أوصال الروابط بين الشعوب العربية والاسلامية .

ومن مخططات التغريب الحيلولة دون قيـــام (وحدة الفكر) التى هى مصدر وحدة الأمة وبلبلـــة العقول والنفوس بعشرات من المـــذاهب والدعوات ، وتجميد الفوارق الثقافية والاقتصادية فى الأمة الواحدة ، بما يحول دون قيام الوحدة .

وحركة التغريب (Westernism) دعوة كاملة لها نظمها وأهدافها ودعائمها ، وتخدمها مؤسسات مختلفة أهمها التبشير والاستشراق .

ويقول أصحاب هذه الدعوة أن للمسلمين والعرب قيما ومثلا وذاتية خاصة تحول بينهم وبين الاندماج فى الأمم الأخرى وتخلق فيهم قدرة قوية على مقاومة النفوذ الأجنبى والغاصب ، ولا سبيل للقضاء على هذه المقاومة الا بصهر هؤلاء فى بوتقـــة الفكر الغربى واخراجهم من قيمهم لينصهروا فى قيم الغرب هنـــاك لايجدون فى أنفسهم مشاعر الخصومة معه ، بل يجدون طابعا من التقبل والانضواء تحت ألوية النفوذ الغـــربى وفـــكره والرضى به .

ومن هنا يجرى العمل على اخراج الفكر الاسلامى والثقافة العربية من قيمها وجذورها ومفاهيمها بمحاولة فرض قيم متباينة لا تلتقى مع الذوق والنفس والطابع والمزاج العربى الاسلامى ويجرى تحقيق ذلك عن طريق ايجاد النخبـــة والقـــادة الذين يتعلمون فى مدارس التبشـــير ومعاهـــد الارساليات .

التقـــدم

مفهوم التقدم فى الاسلام أنه يدفع الانسان دائما الى الامام ، والتقدم فى الاسلام هو تأكيد القيم الانسانية المطلقة ، وهو تقدم كامل شامل ، يعنى التقدم المادى والروحى معا ، وهو تقدم سياسى واقتصادى ومعنوى ، وفى مجال التقدم المـــادى يتحتم أن يكون هـــذا التقدم مشروطـــا بالقيم الأساسية الأخلاقية بغير اذلال للخلق ، وذلك انطلاقا من مفهوم الاسلام بأن الحوافز الروحية تعطى المادى مثلا أعلى .

وقد علت أصوات غادرة تدعو المسلمين والعرب الى ان الدين معوق عن التقدم ، مانع من النهضة وأن عليهم أن ينفصلوا عنه حتى يتقدموا ،

هذه الأصوات ليست خالصة فى دعوتها وليست صـــادقة فيما رتبت من نتائج . ذلك أن الاستعمار انما كان يريد بذلك أن يخرج المسلمين والعرب من دينهم ليكونوا أسلس قيادا ولينصهروا فى بوتقـــة العالميـــة فتضيع شخصيتهم وطوابعهم .

وهى ليست صادقة لأنه اذا كانت أوربا قـــد فعلت ذلك ، ونجحت بالانفصال عن دينها ، فان المسلمين يفشلون دائمـــا اذا تحقق لهم هـــذا الانفصال . ذلك أن أوربا كانت بطبيعتها لا دينية وكانت المسيحية دخيلة عليها ولذلك سرعان ما لفظتها أو حرفتها ، أما الشرق الاسلامى العربى وهذا العالم الوسط بين الشرق والغرب تد تشكل والدين جزء من ذاته وتكوينه ، فهو عنصر أساسى جذرى لا سبيل الى التخلص منـــه الا اذا أعيد تشكيل الأمة من جديد ولأمر ما نزلت الأديان الثـــلاثة الـــكبرى فى هذه المنطقـــة .

ولذلك فان محاولة اخراج المسلمين والعـــرب من الدين بعـــامة أو الاسلام بخاصـــة انما هى تجربة مستحيلة ، ذلك لأنهـــا مضادة لاتجـــاه التاريخ مخالفة لروح التقدم متعارضة مع مزاج المسلمين وذوقهم والاسلام لم يحل مطلقـــا خلال تاريخه دون التقدم وليس الاســـلام الذى وقف أو يقف أمام التطور أو النهضة والحضارة ، لأنه كان بطبيعته مصدرا للبحث العلمى ومنشئا للمذهب العلمى التجريبى الحديث . وأن الحضـــارة التى أقامها كانت نتـــاج ايمان المسلمين به وتحقيقهم لدعوته الدالة الى النظر فى الآفاق واستطلاع أسباب القوة والعمارة فى الأرض .

وقد أكد المنصفون من الباحثين أن الاسلام قادر على التطور والحركة فى مجال التقدم ولكن ليس الى الحد الذى يراد به من تبرير القيم الغربية، فان ذلك يفتح الباب لذوبان المسلمين وتلاشى شخصيتهم .

والواضح أن مفهوم التقدم فى الفكر الاسلامى مختلف عن مفهـــومه فى الفكر الغربى ، وتاريخ الاسلام وحضارته ونهضته يستطيع أن يرسم هـــذا المفهوم فى وضوح ويقرر حقيقة دور الاسلام والفكر الاسلامى فى التقدم الانسانى وفى هذا يقول العلامة الفرنسى مسمر :

« ان تقدم العلوم فى الغرب فى وقتنا هذا حصل رغما عن الدين ، أما دين الاسلام فالعكس من ذلك . أى لا يمكن أن يبقى على قيد الحياة الا بانتشار العلوم ، فان بين الاسلام والعلوم رابطة كلية . والغربى اذا صار عالما ترك دينــه أما المسلم فانه لا يترك دينــه الا اذا صــار جاهلا وبأى وجه يمكن نسبة التقدم الحالى الى الدين النصرانى والحــال أنه ماجاء الا بعــد خمسة عشر قرنا من ظهوره وبأى وجه يمكن نسبة تأخــر المسلمين الحالى الى دينهم وفى عام ٧٤٢ م أى بعد مائة واحد عشر سنة من وفاة (محمد) كانت دولة الاسلام اكبر من دولة الاسكندر المقــدونى وفى عام ١٥٠٦ عند وفاة السلطان سليم كانت اكبر من مملكة الرومانيين » وبذلك يتضح ان عظمة الاسلام مكثت الف سنة وكل منا يعرف أنه لايمكن الوصــول الى مثل هــذه الدرجة من الأمور السياسية والحربيــــة الا بالعلوم والتجديد » .

وقد اشار الى مفهوم التقدم وارتبــاطه بالاسلام العــلامة جوستاف لوبون حين قال للشبان المسلمين الذين زاروه فى بيتــه بباريس فى أوائل هــذا القرن : ان السبب فى انحطاط الشرق هو تركه روح الدين وتشبعه بالعقائد البــاطلة وأن قوة الدين قوة ادبيــة كما أن الشعب الذى يريد الرقى يجب الا يقطع الصــلة التى تربطه بماضــيه ، وقال ان العلوم لا تفيد المسلمين الا اذا اقترنت بدينهم .

التــكامل

هذا مصطلح اسلامى اساسا يكشف عن فوارق عميقــة بين الفكر الاسلامى العربى والفكر الغربى . فالفكر الاسلامى يؤمن بتكامل وحــداته وعناصره المختلفة والتقائها على الهدف الأساسى للفكر وهو بناء شخصية الفرد وبناء المجتمع .

وابرز ميزات التكامل فى الفكر الاسلامى هــو التوازن والمواءمة والتنسيق بين تيــارات الوحدات المختلفة واتجاهاتها ، بحيث يحميها من التعارض أو التضارب أو التخلف ويحول بينها وبين خلق جو من الصراع، بحيث تلتقى فروع الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية والقانون على

مفهوم متكامل أساسه بنــاء الفرد والجماعة ودفعها الى التقدم والبنــاء والنمو وأداء الرسالة الانسانية الأساسية التى يقوم الفكر الانسانى من أجل بنــائها وحمايتها ودفعهــا الى الأمام ، عنــدما يتم هذا اللقاء يمكن لهذه الرسالة أن تحقق غايتها ، وهــذا لا يتم ألا بوجود جو من التكامل بين هذه الفروع المختلفة من الفكر تستهدف غاية موحدة وتقوم على أساس فهم واحد مستمد من القرآن والاسلام .

اما الفكر الغربى فقــد قام أساسا على غير ذلك ، بل على عكس ذلك ، قام على أساس الانفصــال والتخصص والتباعد بين كل من أعمال العاملين فى مجال الاجتماع والسياسة والاقتصــاد والتربية والقانون ، أو انه حين دفع هذه الفروع الى العمل لم يخلق بينها ذلك الرباط الأساسى والحتمى الذى يربط أجزاء الفكر الاسلامى وهــو الأخلاق ، والارتبــاط بالتوحيــد والايمان برسالة السماء التى يمثلها الاســلام ويرسم القرآن منهجها وطريقها ، بحيث يظل الفكر الاسلامى يستمد منها ويسير فى فلكها ويستهدف الغاية من عمله تحقيق منهج ربانى فى مجال الفكر والحضارة. ان الفكر الغربى ليس مرتبطا فى حركته بمسئوليــة عقائدية أو أخلاقيــة تنتظم وحداته كما التزم بذلك الفكر الاسلامى استمدادا من الاسلام ولذلك فقد حاول دعاة التغريب التــأثير فى طــابع التكامل الذى يتسم به الفكر الاسلامى بمحاولة تجزئة هذه الفروع . ومن ذلك اعطاء الأدب مثلا حرية خاصــة تخرج به عن هــدف بناء المجتمع ، أو الفصل بين الدين والمجتمع فى مجال الحضارة ، أو تفريغ السياسة من القيم الأخلاقيــة ، أو بنــاء الاقتصاد على الأساس المــادى الخالص بينما هو فى الاسلام لا يقوم الا على أساس التكامل بين المادة والروح ، والدنيا والآخرة .

ومحاولة التجزئة هذه لها أبعاد خطيرة حين يحاول الفكر الاســلامى الأخذ بها فانها تصرفه عن منهجه الأصيل وتخرجــه عن مساره الحقيقى المهتدى بأهداف الاسلام ومنهج القرآن .

ولذلك فان الدعوة الى التكامل ولفت النظر اليها انما هى من الأسس التى لا شك فيها لتحرير الفكر الاسلامى والثقافة العربيــة من التبعيــة والغزو والتغريب ووضعها على الطريق الصحيح .

التوراثيـــــة

ليس هناك رأى واحد فى كتابات من كتبوا عن التوراة من الباحثين والعلماء الغربيين يجزم بأن التوراة المتــداولة اليوم هى كتاب سماوى، وأحدث ماكتب فى هـــذا الصدد عـــدد خاص من مجلة لايف باسم الكتاب المقـــدس صـــدر فى أبريل ١٩٦٥ ومن قبل ذلك صدر عديد من الدراسات والأبحاث فى الشرق والغرب تشير الى ان التوراة لم تعد كتاب علم وتشريع بعد أن وكل الغربيون أمر العلم وسن الشرائع للانسان — على حد تعبير الدكتور أنيس فريحه ، الذى يرى أن ذلك قد حرر الانسان — الأوربى من تقديس الحرف — فشعر أنه حر طليق من كل قيد ينظر فى الكون بعقله ويحس الجمال فى روحه . ويرى الدكتور فريحه فى بحثه باسم « نقد التوراة » أن هذا النقد هو ظاهرة عامة فى هذا العصر ، من أجل اعادة النظر فى الدين والتوكيد على الانسان وعظمته والتقليل من أهمية الحرف وهى عوامل أساسية فى الفكر الغربى المعاصر ، حيث الانسان ســيد نفسه له أن يفهم الـــكون بعقله . ويرى هذا البـــاحث نقلا عن عدد كبير من البـــاحثين أن نقد نصـــوص الكتاب المقـــدس أصبح اليوم ضرورة من اجل معرفة كتابها وازمنة وضع مختلف اقسامها ، وقد أدى هذا النقد الى اكتشاف فوارق فى الأسلوب وتناقض فى الزوايات عن الحادث الواحـــد وتباين فى الأوامر التى يفترض أنها من مصـــدر واحد ، ويعقب على ذلك بقوله « مما جعل القول بأن كل كلمة وكل نقطة من النصوص المقدسة هى وحى الهى حرفى أمرا بالغ الصعوبة » ، ويقول : لقد كان الناس يعتقدون جيلا بعد جيل أن الـــكتب الخمسة الأولى من التوراة (تكوين ، خروج ، لاويين ، عدد ، تثنية) كتبها كلها النبى موسى مع أن مثل هذا القول لايرد فى التوراة ذاتها ، وأنه حين طبقت مقاييس البحث العلمى التى استعملت فى دراسة وثائق القرون الوسطى ثبت بما لايدع مجـــالا للشك أن الأمر خلاف ذلك (مجلة المعرفة (٤٥) ١٩٦٥) .

و « التوراة » كلمة عبرية الأصل معناها توجيـــه وتعليم ، ثم شرع وقانون ، وقـــد أطلق لفظ التوراة على الأسفار الخمسة المعروفة بأسفار موسى بحسبان موسى هو صـــاحبها ، وعبارة الدكتور أنيس فريحة فى

هذا الصدد هى (توهمـــا أن موسى مؤلفها) أما فى العربيـــة فان لفظ « توراة » يطلق موسعا على الـــكتاب المقدس بجملته : أى بعهديه القديم والجديد (٦٦ كتابا) .

ويقول الدكتور فريحة : لا يعلم بالضـــبط متى كتبت التوراة « ليس لدينا أدلة تاريخية سوى تلك التى جاءت نتيجة التحليل اللغوى والتاريخى للنصوص ذاتها . والنص العربى الذى ضبطت أحكامه بين القرن ٦ ، ٨ الميلادى فقد حدث فى هذه الفترة شبه تسابق الى ضبط حرف السريانية والعبرية ، وذلك بسبب ظهور الاسلام وحرصه العجيب على الحفاظ على اللغـــة التى نزل بها الوحى . ويقول الدكتـــور فريحة أيضا : ان ترتيب الـــكتاب الذى استقر عليه يعود الى زمن أبعـــد من الزمن الذى ضـــبط فيه النص (والمجمع عليه هو بدء القرن الثانى للميلاد ، ويرجع زمن تأليفها — أى التوراة — الى ماقبل المسيح ، وقـــد اعترف بقدسيتها فى القرن الخامس قبل المسيح) (٤٤٤ ق.م) وكتب الأنبيـــاء (٢٥٠ — ٢٠٠ق.م) والـــكتب المقدسة بين (١٥٠ ق الى ١٠٠ ب.م) ولا يعرف أسماء المؤلفين ولا زمن التأليف بالضبط . وهنـــاك اجماع على أن أقـــدم كاتب قد ظهر فى يهوذا فى القسم الجنـــوبى من فلسطين فى القرن (١٠ ، ٩ ق.م) وحاول أن يكتب قصـــة الخليقة ويتميز أسلوب هذا الـــكتاب بدقة الوصف والحرارة الدقيقـــة التى تشيع فى كتاباته وجاء بعده كاتب دينى آخـــر دون تاريخ شعبه (شمالى) فلسطين وجاء كتاب آخرون متعددون » .

ويقول الباحثون أن الشروع فى دراسة التوراة دراسة نقدية لم يبدأ الا بعد القرن السابع عشر حيث جرى تطبيق قواعـــد النقـــد الأدبى على التوراة وأن ذلك جاء نتيجـــة مباشرة للثورة الانجيليـــة ضـــد الـــكنيسة البابوية « بهدف التخلص من ربقة التقليد الكنسى »وعندهم أن تقدم العلوم ساعد على نقـــد التوراة حيث أثار التنـــاقض الواضح بين ماأثبته العلم وما جاء فى التوراة شكا وقلقا روحيا وأبرز هذه التناقضات أن التوراة قالت أن الأرض ثابتـــة . وعنـــدما اتجهت أفـــكار الغربيين الى الأدب الاغريقى والرومانى أحدث ذلك رد فعل ضد الـــكتاب المقـــدس وظهرت الدعوة الى أن الفكر الشرقى لا يتلاءم مع روح أوربا ، وقد أشار الدكتور

انيس فريحه الى ما اصـــاب التوراة من تغيير وتحريف ، وقال ان هناك أغلاطا منشؤها السهو والـكسل والملل ، أو ضعف النظر ، واذا كان الناسخ غير أمين فى عمله عندما يعرض كلمة لا يستطيع قراءتها فانه يعمد الى تغيير الـكلمة أو تحوير النص بكامله ليستقيم المعنى فضـــلا عن أن كثيرا من هـــوامش المعلقين والشرائح كانت تحشر فى المتن ولم ينج نص التوراة من كل هـــذه الآفات ، فجاء نصها مشوها قلقـــا غامضا فى كثير من الأسفار » وقد جرت الدراسات الى نقد التوراة وهل هى شعر أم نثر أم تاريخ أم دين . وجرى البحث حول شخصية المؤلفين وهل هىشخصيات تاريخية أم اسماء وهمية .

واعتبرت التوراة « أدبا » فى نظر الباحثين أو قسما كبيرا منها اعتبر من الفنون الأدبيـــة. ويرى بعض النقاد أنها دراما بطلها « يهوه » يبـــدأ الفصل الأول بقصـــة الخليقـــة ، وظهور الانسان الأول فيقع فى الخطيئة ويطرد من الفردوس . ويرى قسم آخر أنها أقرب الى الملحمة « ملحمـــة الخلاص » ويقول الدكتور فريحة ان من نتـــائج هـــذه الدراسات النقدية للتوراة أن أخذ الانسان فى اعادة النظر فى نشأة الدين .

وقد جاء فى دراسات الـكتاب المقدس فى مجلة لايف أن التوراة أوسع الـكتب انتشارا ومن أكبرها أثرا فى تاريخ البشر ، ولـكنها مع ذلك كتاب كتبه الانسان وأن مؤلفيه يحملون أسماء ذائعـــة الصيت مثل : (بسياه ، ايزيكييل ، جربمياه ، القـــديس بول) . ولـكن أغلب كلماته كتبها أشخاص آخرون لايعرف أحد من هم ولا يمكن معرفتهم فى يوم من الأيام ، فقـــد ظل الوحى الالهى الى الانسان ينتقل من الأب الى الأبن الف سنة تقريبـــا بعد ابراهيم من غير أن يكتب ، وبعد ذلك فقط بدأ اليهود فى تدوينـــه ، وكان ذلك قبل الف سنة تقريبا من ميلاد المسيح فأخـــذوا يسجلون القصص والقصائد القديمة واضـــافوا اليهـــا قصص وقصـــائد أخرى جديدة .

وقـــد استلزم الأمر أن تعـــاد كتابة لفائفهم عـــدة مرات وأن ينقل وينسخ ، مما أوجد فرصا عـــديدة لا تحصى لتغييرات كثيرة لا حد لهـــا ، بعضها مقصود والبعض الآخر غير مقصود ، ولمـــا بدأت المسيحية تنتشر

بسرعة ازدادت الحاجـة الى عمل نسخ جـديدة لاسيما العهد الجديد ، وأخذ كثير من المؤمنين يصنعون نسخا لأنفسهم بأنفسهم أو كان أحدهم يقرأ بصـوت مرتفع فى (النسخ) بينما كان يتلقى عنه ما يقرب من أثنى عشر ناسخ ، وهـذا ما مهد الطريق لأخطاء أكثر وأكثر ، لذلك فانه لا يوجـد اليوم اى نص (أصلى) لأى جزء من الـكتاب وربما حوى العهد الجديد تغييرات أكثر وأبلغ من العهد القديم (١) .

وقد اشارت هذه الأبحاث الى أن الـكتاب المقدس كتب أول ماكتب باللغـة العبرية القديمة واللغـة الـكوئينية اى الاغريقية الا أنه عاش أكثر ما عاش فى الترجمـة : وقالت الأبحاث أن كل الترجمات ناقصـة قاصرة ، وكانت طريق المترجمين محفوفة بالمخاطر والصعوبات فقد عجز القـديس جيروم نفسه عن ارضـاء الـكنائس المعاصرة ، والتمشى مع ذوقها وميولها » .

وبعد فان هذه الدراسات (الأوربية وما قيل فيها يفوق ما أوردناه) انما تمثل موقف الفكر الغربى نقدا واثارة للشبهات حول صـحة التوراة الموجودة الآن وصلتها بالتوراة المنزلة من عند الله ، وهذا كله معروض للقول فى مواجهة الحملات الاستعمارية والتبشـيرية والتغريبية الخطيرة ومحاولاتها فى اذاعة التوراة وتوزيعها فى العالم كله من حيث أنها وثيقة تاريخية ودينيـة ، ويؤخذ من احصـاء جمعيـة التوراة فى نيويورك أن الـكتاب المقدس نقل الى ٤١٢ لغـة غير اللغات الأوربية (عام ١٩١٨) ويقدرون عدد النسخ التى وزعت من التوراة فى العالم وفى جميع اللغات التى ترجمت اليها بأكثر من ٣٠ مليون نسخة . وقد عمد كثير من الـكتاب وخاصة الأدباء المهجريين وفى مقدمتهم جبران خليل جبران وميخائيل نعيمه الى نقل أسلوب التوراة الى الأدب العربى . وقـد وصف ميخائيل نعيمه بأنه ربيب التكوين الذى تغذى بالعهد القديم من آيات شعرية نافذة العبير السحرى مثل المزامير وشعر الجامعة وسفر أيوب ونشيد الانشاد حيث لايخلو مقال من مقالات نعيمة من تعبير شعر دينى أو من آية أو بضع آيات

---

(١) عن بحث الدكتور أمير رضا — الوعى الاسلامى — مايو١٩٦٦ .

برمتها ويطلق على هذا النهج : الأسلوب التورائى ، وهو أسلوب عرف منذ راجع ابراهيم اليازجى ترجمة الأناجيل التى قام بهـــا الأمريكيون فى أوائل القرن . وقـــد رغب اليازجى أن يتصرف فى بعض كلمات الترجمة ويتخير الفاظها ويزيل عجمتها ويخلصها من فساد التركيب وسوء التأليف فحيل بينه وبين ذلك ومنع منه ، وبذلك نشأت لغة تورائية عامية ركيكة التركيب ، وقد حاولت هـــذه اللغة غزو اللغة العربية الفصحى بمحاولات جبران ونعيمة ولـــكنها تراجعت بعد فترة من الزمن عاجزة عن تحقيق أى تحول فى الأسلوب العربى القرآنى المصدر .

وكان المستشرق كاممفاير قد أشار فى ترجمته لجبران الى أن تأثير الترجمة العربيـــة للتوراة ظاهر فى أسلوبه وخاصـــة فيما يتعلق بالرموز والاستعارات والمجازات .

ومن الحق أن يذكر أن (التوراة) كانت مستوحى لـــكتاب فى الغرب أمثال فكتور هيجو ولامرتين وجوتيه وتوماس مور والفردى دى‌فنى وملتون .

أما فى اللغة العربية فان الدكتور أنيس فريحه يشهد بأنه ليس لها أثر كبير فى الأدب العربى فيما عدا محاولات جبران ونعيمة التى اخفقت ، فليس هناك غير محاولات ساذجة من بعض الشعراء الذين يكتبون قصيدة النثر يستعملون فيها عبارات الخلاص والخطيئة وغيرها وهى كلمات ليست أصيلة فى الفكر العربى وفى نفس الوقت يمكن القول بأن القرآن الكريم والحديث النبوى قد كانا ولا يزالان المصدرين الهامين من مصادر الأسلوب الأدبى والأداء الفـــكرى والموضوعى ، وفى مجـــال الدراسات العلميـــة والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وليس فى مجال القصة أو التاريخ وحدهمـــا .

وفضلا عن ذلك فقد ظل القرآن بعيدا عن كل اتهام بالخلط والاضطراب أو الشك حول نصه أو مضمونه فضلا عن أنه لم تثبت قط أى معارضة فى نصوصه لأى نظريات علمية حديثة أو اختلاف مع المنهج العلمى الحديث من ناحية مصدره أو مضمونه أو النصوص الواردة فيه .

وقد حاول الدكتور طه حسين أن يقف منه موقف كتاب الغرب من

التوراة بنقد النص الأدبى أو التاريخى ولـكنه فشل فشلا ذريعا وتحطمت محاولته ومحاولة تابعيه أمام وثاقة النص القرآنى وسلامتــه ، وعجزت الشبهات التى جمعها الدكتور طه حسين من المبشرين والمستشرقين عن أن تقــدم شيئا له أهميتــه أو من شأنه أن يثبت أمام التحقيــق العلمى أو العقلى .

التوحيـــد

يتسم الاسلام بسمة واحدة كبرى أصلية تمثل محور عقيدته وشريعته ونظامه الاجتماعى كله تلك هى « التوحيد » وعليها تقوم القواعد الأخلاقية والفكرية والعقلية والوجدانية جميعا « هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم » والتوحيد هو مفهوم الفطرة السليمة التى تتمثل فى أنه لا معبود ولا خالق ولا رازق ولا ضار ولا نافع غير الله سبحانه وتعالى .

والتوحيد فى مفهومه الأصيل هو أن يتقى الانسان ربه فى كل أعماله ولا يرى سوى الله وحده سيدا وهــدفا ، فليس غيره من يخشى أو اليه يلتجىء أو يستند ، فاذا عرف الانسان مفهوم التوحيد معرفة كاملة دفعــه ذلك الى الصدق والخير والشجاعة فلا يرى غير الله ولا يخشى سواه . ومن هذا المفهوم نفسه يقوم كيان الفكر الاسلامى كله فى مختلف الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وقد وقعت البشرية فى أخطاء الوثنية والتعدد والشرك والانكار الكلى وتأليه البشر وغيرهم نتيجة لقصور فى الادراك وخطأ فى التصور . وقد وصل بها ذلك الى مراحل عديدة من الاضطراب والتخبط والبعد عن مناهج العدل والحق .

ذلك أن مفهوم التوحيد فى الاسلام انما يرسم دائرة كاملة للمجتمع والفكر الانسانى كله قوامها سيادة الانسان للـكون تحت حكم اللهوالتقاء القيم الروحية بالقيمة المــادية ، وارتباط القلب بالعقل ، والدنيا بالآخرة ،

ومن هنـــا فان جوهر الأديان فى مفهوم الاسلام واحد لا يتغير وانما نشأت الانحرافات بمرور الزمن ، والدين واحد على لسان جميع الأنبياء والرسل « شرع لـــكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » وقوام التوحيد اعلاء الله سبحانه عن الشريك والشبيه وشجب عبادة الأصنام والاتجاه الى الاعتقاد بوجود الله عنطريق التأمل والبصيرة والعقل والدليل والايمان بقوة عليا مسيطرة .

والتوحيد غير الثنـــوية وغير التثليث مما تقول به بعض المـــذاهب الأخرى .

والتثليث ليس خاصا بدين معين فان بعض الأديان القديمة غيرالمنزلة فيها تثليث خاص بها . وهنـــاك الثالوث الفرعونى والاغريقى والهندى .

أما فى الاسلام فان الله منزه عن المشابهة والمشاكله وانه لا يجوز عليه اتحاد وتركيب بل لا يجوز أن نتناول التكلم فى ذاته المقدسة بعقولنا القاصرة « ليس كمثله شىء » « ولا يحيطون به علما » ولا شك أن الأديان كلها قامت على التوحيد « ولكن بعد وفاة الرسل أدخلت الأمم الى تعاليمهم جميع أهوائها الموروثة لها من الوثنية الأولى من التشبيه والتجسيدوالتعدد فى ذات الخالق ، أما الأديان فى مبادئها فكانت بريئة من ذلك كله وكان أتباعها الأولون على غير ماعليه أشياعها الآخرون » (محمد فريد وجدى: كنز العلوم واللغة) .

ويقول الدكتور حسن صعب ان قاعدة الاسلام الأزلية هى الاعتقاد بوجود الله الذى لا يتغير بتغير الزمان والمـــكان .

وحقيقة كونه واحدا هى حقيقة لا يأتيها البـــاطل من قريب ولا من بعيد وكل الدعوات الباطلة تتحدى هذه الحقيقة بالانكار والمبالاة وتتحداها بالنفى والاستهزاء .

وتعطى عقيدة التوحيد للمسلم أعلاء الله سبحانه على كل عظيم ، فلا تعبد الأفراد ولا الأبطال ولا الصالحين ولا الأولياء وتقدر الناس بأعمالهم

لا بأحسابهم ولا مكانتهم الماديةولا أصولهم ولا أنسابهم . والتوحيد هو الذى يقرر المفهوم المطلق الذى يفتح البـــاب بين الانســـان والله سبحانه على مصراعيه بغير واسطة أو وصاية .

« واذا سألك عبادى عنى فانى قريب » وفى ذلك قول الرسول واذا (سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله) .

فالله خالق كل شىء واليه يرد كل أمر ولا يقطع قضـــاء الا باذنه (والله فى العقيدة الاسلامية وجود كامل متصف بالحيـــاة والعلم والقوة والارادة) « ولله المثل الأعلى » وليس كمثله شىء ، وهو واجب الوجود — والانسان وفق هذا المفهوم من التوحيد : حر مسئول ، لا يقر بالجبرية ولا يقبل بالقدرية .

الثـــورة الفرنسية

شغلت الثورة الفرنسية حيزا كبيرا فى الفكر الاســـلامى الحـــديث وعدها كثيرون مصدر النهضة واليقظة فى العالم الاسلامى والأمة العربية ورتبوا على وجودها كل مظاهر التقدم الفكرى والاجتماعى . ولم يكن هذا هو الحق بوجه من الوجوه ، فقد بدات اليقظة فى العالم العربى كحركة طبيعيـــة تلقائية داخلية عرفها التاريخ الاسلامى فى عديد من مراحله ، حيث تنبعث الحركة من الداخل ولـــكن أصحاب هذا القول كانوا دائما هم دعاة التغريب وصنائع المستشرقين والمبشرين والعاملين على محاولة صبغ اليقظة العربيـــة الاسلامية الحديثة بطابع غربى بينما تتسم هذه اليقظة بعروبية واسلامية المصادر والبواعث والمراحل المختلفة .

والثورة الفرنسية حركة غربية مرتبطة بالمجتمع الأوربى ولها بواعثها التى من أهمها : محاولة حصول طبقات معينـــة من المجتمع كانت معزولة عن الحياة على حقها فى الحرية والعمل والمشاركة فى النشاط السياسى وأهم هذه الطبقات هم اليهود واليهم يعزى قيام هذه الثورة .

ويمكن القول بأن الثورة الفرنسية كانت بمثابة رد الفعل الذى واجه الفكر الغربى فى العصر الحديث بعد اتصاله بالفكر الاسلامى فان الحرية

والاخاء والمساواة وهى شعارات الثورة انما استمدت أساسا من الاسلام وهى حلقة من الحلقات المتصلة بتأثيرات الاسلام فى الفكر الغربى والمجتمع الأوربى والتى بدأت بحركة لوثر وكالفن وقد تمثلت فى أولا : الغاء الوساطة بين الله والناس ثم تمثلت فى الثورة الفرنسية ثم فى الدعوة الى الغــاء نفوذ الأشراف ورجال الدين ومحو الفوارق بين الطبقات .

وقد أشارت الى هذا المعنى وأكدته ابحاث كثيرة ، مالت الى الاعتقاد بأن الثورة الفرنسية بروحها كانت وليـدة للتعاليم الاسلاميـة والتراث العربى .

ففى القرن الثامن عشر كانت الثقافة الاسلامية قد أثرت الى حـد كبير فى أذهان مفكرى أوربا وأدبائها والفرنسيين منهم خاصة . وكانت كلمات عمر بن الخطاب من مثل قوله « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا » هى الأصل فى قول رجال الثورة الفرنسية « يولد الناس ويعيشون أحرارا متساوين فى الحقوق » وقـد ثبت أطلاع مفكرى فرنسا وفلاسفتها على التراث الاسلامى اطلاعا كبيرا يقطع بهـذه الصلة التى لا ريب فيها وهى أنهم تأثروا بما وقفوا عليه من مفاهيم الاسلام فى الحكم والشورى والعدل والمساواة .

ويتصل بهذا ماذكره رئيف خورى فى كتابه عن الثورة الفرنسية نقلا عن رفاعة الطهطاوى حيث يقول : وقرأت جزأين من كتاب روح الشرائع لمؤلفه مونتسكيو ويلقب عندهم بابن خلدون الأفرنجى ، فمونتسكيو اذن اطلع اطلاعا مؤكدا على آراء فيلسوفنا الاجتماعى ابن خلدون فما الذى يمنع أن يكون روسو وسواه من مواطنيه قـد اطلعوا أيضـا على شىء أكثر من التراث الاسلامى .

ويقول « أوليس من المعجب أن يستعمل المفكر الفرنسى روسو كلمة جارية ابن قـدامه « عهدا وميثاقا » فى جبين كتابه الذى كان انجيـل الثورة الفرنسية كما لقبوه » أوليس المعجب أن تقول جارية للخليفـة : (أعطينا عهدا وميثاقا وأعطيناك سمعا وطاعة فان وفيت لنـا وفينا لك وان نزعت الى غير ذلك فاننـا تركنا وراءنا رجالا أشداء والسنة حدادا)

وفى هذه الـكلمات المعدودات زبدة المساواة التى ارتكزت عليها الثورة الفرنسية .

ومعنى هذا أن الفرنسى الحديث تتلمذ على المسلم العربى القديم ، ومن غير شك ان اطلاع فلاسفة فرنسا وكتابها على الفكر الاسلامى قد خلق فيهم أستعدادا نفسيا كبيرا للثورة — هذا هو الواقع الذى أنكره كتابنا العرب والمسلمون حين كتبوا عن الثورة الفرنسية وصوروها على انها كانت بعيدة الأثر فى الفكر العربى الاسلامى دون أن يذكروا أنها استمدت وجودها منه أصلا ، ومن الحق أن يقال ان كتابات أدبائنا عن الثورة الفرنسية انما كانت تحاول أن تصور عظمة فرنسا وتأخر العرب والمسلمين لتلقى ظلا من التبعية والاعجاب بالغرب والولاء الفكرى والسياسى دون أن يعرف هؤلاء أبعاد الهدف الذى اتخذوا مخدوعين كمخالب قط له ، ذلك الهدف هو اعطاء الثورة الفرسية مسحة قداسة حتى تخفى بواعثها الحقيقية التى كان من ورائها اليهود .

حاشية : الثورتان الفرنسية والروسية (١٧٨٩ — ١٩١٧) يرى بعض المؤرخين انهما مكملتان بعضهما لبعض الأولى سياسية والثانية اجتماعية ، والثورة الفرنسية أخرجت اليهود من الجيتو وجعلت لهم وضعا اجتماعيا مساويا لوضع المسيحيين ، أما الأخرى فقد وضعت النظرية اليهودية الاقتصادية موضع التنفيذ تحت اسم الشيوعية أو الاشتراكية ، وأن اليهود كانوا من وراء الثورتين . جاءت فى فرنسا انتقاما من النفوذ المسيحى الضخم ، وفى روسيا انتقاما من سحق دولة اليهود الكبرى فى الخزر ومحاولة احتوائهم . بدأت الثورة فى فرنسا بما هيأت له الأذهان: فولتير وروسو وديدرو وسائر رجال الانسكوبيديا فجاءت الثورة وفى الأذهان تربة صالحة لها ، كذلك فان الثورة الفرنسية وما تلاها منثورات فى أوربا قد قضت على وحدة الجامعة المسيحية واحلت بدلا منها صراع القوميات وكسب اليهود من ذلك السيطرة الاقتصادية والاجتماعية فى كل قطر . وأن حرية واخاء ومساواة شعار الثورة الفرنسية هما شعار الماسونية التى مهدت للثورة الفرنسية لتحقيق هدف اليهود .

ذلك أن ماحققته الثورة الفرنسية باعتراف قطب من كتاب فرنسا هو هو جوستاف لوبون « كان سيتحقق طبيعيا دون قيام هذه الثورة » ولكن الهدف من الثورة فى تقديرنا انما كان فى أن يصل اليهود الى مقاليد الأدوار السياسية ومكان الصـــدارة ليس فى فرنسا وحدها بل فى أوربا جميعا، واذا كانت مبادىء الثورة الفرنسية ذات أثر فى العالم الاسلامى فان هذه المبـــادىء أساسا هى بضاعة الاسلام والعرب ولا ضير من أن ترد اليهم، هذا مع التأكيد الواضح على أن ميثاقا لحقوق الانسان قـــد وقعه أمراء المماليك فى مصر للشعب بقيادة علمـــائه عام ١٧٩٧ حيث لم تكن آثار الثورة الفرنسية قد وصلت الى الشرق وقبل وصول الحملة الفرنسية مما يؤكد أن يقظة الشرق ونهضته انما كانت مستمدة من أعماقه وأن الاحتكاك الغربى قـــد وسع الجوانب ولـــكنه لم يكن المصدر الأول ولا البـــاعث الأسبق أو الوحيد .

الجرح والتعـــديل

كان من أعظم ماقصد اليه مفكرو الاسلام فى سبيل توثيق «النص» وحمايته من هجوم خصوم الاسلام والغزو الفكرى هو انشاء علم الجرح والتعديل أو علم أسماء الرجال وهو ميزان دقيق يكشف خصائص الباحثين والثقاة بصفاتهم ويجعل من سواهم موضع الشك والريبة ومن ثم فـــلا يؤخذ العلم منهم .

وقد وصف الدكتور أسبرنجر هذا العلم بقوله :

لم تعرف أمة فى التاريخ ولا توجد الآن على ظهر الأرض أمة دققت لاختراع فن أسماء الرجال الذى نستطيع بفضـــله أن نقف على ترجمـــة خمسمائة الف (نصف مليون) من الرجال المسلمين ، وقد التزم المحدثون الصدق والصراحة فى دراسة هؤلاء الرجال وجميع مايتصل بهم وما يدل على تفوقهم ويقظتهم واحتياطهم وتساهلهم .

ويمكن أن يسمى هذا العلم « الكشف عن الشبهات » التى يدسها أعداء الفكر الاسلامى وخصومه ، والتى تحمل أحيانا طابعا بارعا وظاهرا متقبلا وصياغة براقة ربما خفيت على البسطاء والغـــافلين عن خطر من

لبسوا ثوب الاسلام وعملوا على هدمه من الداخل من أتباع المجوسية والباطنية والديانات القديمة والفلسفات الغنوصية والوثنية .

ومن هنا فقد حرص مفكرو الاسلام على وضع قواعد عامة لعلم الكشف عن الشبهات من شأنها أن تكشف هؤلاء الخصوم وأن تردالناس الى الحقيقة وأن تقيم حصانة دائمة ويقظة مستمرة ازاء مثل هذهالمحاولات فى مواجهة هذه الشبهات .

وقد أصبح هذا المنهج الذى اصطنعه رجال الحديث من بعد ضروريا فى مختلف مجالات الحياة الفكرية العربية الاسلامية وذلك للكشف عن حقائق الأمور فى حياة الباحثين والمفكرين ومعرفة اتجاهاتهم وهوياتهم وطوابعهم .

وقد وجه علم الجرح والتعديل اهتمامه الى عدة عناصر هامة فى هذا المجال منها :

أولا — لابد من معرفة تاريخ الرجال واهوائهم قبل معرفة أقوال الرجال .

ثانيا — لابد من القاء نظرة شاملة على الأمور ، لا نظرة جزئية .

ثالثا — كل قول يؤخذ منه ويترك الا قول الرسول المعصوم صلىالله عليه وسلم .

رابعا — العلم والمعرفة ملك للناس جميعا ، أما الفكر والثقافة فمرتبطان بالعقول والأرواح ولكل فكر قيمه واسسه ومفاهيمه .

خامسا — يرفض قول أصحاب البدع والأهواء .

سادسا — لابد من وجود مطابقة اخلاقية كاملة بين حياة كل باحث مفكر وبين فكره .

سابعا — لا يقبل رأى من لا تتوفر فيهم الثقة الأخلاقية والعدالة والكرامة .

واذا نحن راجعنا تاريخ الفكر الاسلامى وتطوره وجدناه قد واجه نوعين من التحدى .

(النوع الأول) : التطور الانســانى فى قطاعــه الأفقى والرأسى (١) الأفقى مع تغير الأزمنة (٢) والرأسى مع اختلاف البيئات .

(النوع الثانى) : يتمثل فى التحديات الخارجية المتمثلة فىالفلسفات والأديان والمــذاهب القديمة التى تحاول فرض مفاهيمها وتقاليدها . وقد حاولت هذه التحديات هــدم أو تدمير مقومات الفكر الاسلامى ، وقــد تمثلت هذه التحديات فى دعوات أو حركات مختلفة : كالراوندية والبابكية والخرمية والمقنعة والباطنية وغيرها .

وقد أثارت هذه الفرق عديدا من الشبهات والقضايا التى نقلتها من الأديان والفلسفات القديمة : كالمجوسية والزرادشتية والمانوية والمزدكية، وذلك لمحاولة تغيير جوهر الفكر الاسلامى وتحويله عن قيمه الأساسية ، وقد انصبت هذه التحديات على تحريف مفهوم التوحيد والنبوة وما وراء المادة والبعث والجزاء وأثارت الى جانب ذلك دعواتالى الالحاد والاباحة، كما أثارت دعوات الى الوثنية والتعطيل . كما أثارت قضية ظاهر الكلمات وباطنها وذلك بقصد قطع الصلة بين المعانى والكلمات والبــاس العقائد الوثنية ثيابا اسلامية تهدف الى زعزعة ايمان الناس فى الاسلام واعادة بعث دياناتهم القديمة وادخالها فى الاسلام .

وقد استطاع المفكرون المسلمون عن طريق علم الكشف عن الشبهات دحض كل هذه المفتريات بعد كشفها وكشف الدعاة عنها ومن ثم فشلت هذه الدعوة كما فشلت دعوات كثيرة من قبلها ومن بعدها .

الجبريــــة

حاول كتاب التغريب وصف الاسلام بالجبرية لموقفــه من قضــية القضاء والقدر ، وفى ظل مرحلة الضعف التى مرت بالعالم الاسلامى ، هذه المرحلة التى يحاول خصــوم الاسلام عزو أسبابها الى الاســلام ، والواقع أن مفهوم القضاء والقــدر مفهوم ايجابى بنــاء وقد كان مصــدر انتصار المسلمين وقوتهم ، وكان قوة دافعة فى حياتهم فهو الذى حرضهم على أن يهبوا أرواحهم خالصة لله فلا يخشون الموت . ولقد فرق المسلمون دواما بين التوكل على الله مع العمل والحركة وبين التواكل ولقــد كانت

الشبهة التى يثيرها خصوم الاسلام دواما تتركز فى القضـــاء على هـــذا الفرق الواضح .

ومن هنـــا كان « اصطلاح » الجـــبرية التى أريد به اقرار مفهوم التواكل والاستسلام للاقدار وهو غير ماعرفه الاسلام .

وقد انتشرت فكرة الجبرية فى القرون الأخيرة السابقة لحركةاليقظة الاسلامية المصدر ، نتيجة لانتشار مفهوم خاطىء جاء فى أطواء التصوف حين تأثر بالمـــذاهب الاغريقية والغنوصـــية الشرقية فيما يتصـــل بالقول بوحدة الوجود والحلول والاتحاد وغيرها من المفاهيم البعيدة عن جوهر الاسلام المطبوع أساسا بطابع الوحدانية الخالص .

ولذلك فقد كانت أولى بواعث حركة اليقظة الاسلامية التى انبثقت من الجزيرة العربيـــة والأزهر قائمة على التوحيـــد وفى مواجهـــة خطر الجبرية التى ليست من أصول الاسلام . وانما جاءت انحرافا عن مفهوم الاسلام الصحيح ، واطلق عليها عبارة التواكل والاستسلام للاقدار على النحو الذى خلق شبهات عديدة حول موقف الاسلام الواضح ازاء العمل والمسئولية الفردية التى هى عماد مفهوم الاسلام .

ومن الحق أن يقـــال انه ليس فى مفهوم القـــدر الاســـلامى مايميت شجاعة المسلم أو يؤدى الى فتور همته ، وان هذا القـــدر مرادف لسنة الســكون التى تهيمن على جميع أعمال النـــاس وقـــد أكد القرآن حرية الانسان وتأثير ارادته فى عمل الخير والشر .

الجهـــاد

الجهاد فريضة من فرائض الاسلام الأساسية : تعنى حماية الفكرة والأمة من عدوان المعتدى والتـــأهب الدائم والاستعداد المتصل بحمـــاية النفوس واعدادها وحماية الثغور وحراستها ، وليس هو بمفهوم القتال والحرب الا فى حالة واحدة هى العدوان .

وتتمثل فى آى القرآن الواضحة « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » فهو ليس قتالا ولا يكون

ابدا عدوانا وانما هو ارهاب واشعار باليقظة الدائمة « ود الذين كفروا لو تغفلون عن اسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » و «الجهاد» الاسلامية من أن يقتحمه الاعتداء الخارجى وحفظا لحدود الدول الاسلامية من أن يخترقها العدو ، وقد أجمع الأئمة على أنه فرض كفاية يجب على أهل كل ثغر أن يقاتلوا من يليهم من العدو فان عجزوا ساعدهم من يليهم من المسلمين .

ولكن كلمة « الجهاد » فى دراسات المستشرقين والمبشرين قد لقيت عنتا شديدا واثيرت حولها الشبهات المختلفة ، وحوربت أعنف الحروب ، وكانت آيات الجهاد فى القرآن تلقى من الاستعمار والتبشير وما تزال تلقى حربا عنيفة ، فقد كانت الدعوة الى جهاد المستعمر عن طريق مفاهيم الاسلام من أخطر الأسلحة التى قاومت بها الأمة العربية النفوذ الأجنبى ، حتى لقد حرم المحتلون الفرنسيون فى الجزائر تدريس (الجهاد) فى آيات القرآن أو فى أبواب الفقه .

وقد اتسع هذا المفهوم المنحرف فى الهند ، فقامت دعوات أيدها الاستعمار تفسر القرآن تفسيرا جديدا يؤول فيه مفهوم الجهاد بما لايناقض الوجود الاستعمارى البريطانى غير أن اقطاب الاسلام ما لبثوا أن كشفوا هذه الخدعة .

الحرية

للحرية فى كل فلسفة مفهوم . ولها فى الفكر العربى الاسلامى أرقى مفهوم وأعمق مضمون ، فهى الحرية بمعناها الشامل القائم على حماية حريات الآخرين وعلى تقدير التبعة الى جوار تقدير الجرية . وهى بمفهوم الشريعة الإسلامية « القدرة على عمل كل شىء لا يضر بالغير » والحرية حريات :

١ — فالحرية ضد الرق ، فلا يكون الانسان — رجلا أو امرأة ، مسترقا أو مملوكا لغيره ، ولاتكون الأمة محتلة أو مستعبدة بل تملك حريتها.

٢ — الحرية هى حق الدفاع عن النفس امام القضاء .

٣ — حرية الراى هى حق التفكير والحكم على الأشياء .

٤ — الحرية فى التعليم فى مواجهة الجهل ، والحرية فى التعليم حق للرجل والمراة .

٥ — الحرية فى الاعتقاد والحرية فى القول .

٦ — حرية التملك ، وشريطة هذه الحريات كلها فى الاسـلام أن لا يكون فيها طغيان على حريات الآخرين ، وقد كفل الاسلام حرية العقيدة (لا اكراه فى الدين) ودعا الى تحـرير الفرد فكريا وتحـريره من الرق الاجتماعى فوسع منافذ العتق والحرية وحصر الرق فى أضيق نطـاق ، محاولا تصفيته على التدريج .

واعتمد كرامة الانسان قائمة على أساس الاخوة ، وجعل الاسلام الحرية السياسية قائمة على الشورى وجمـاع نظرة الفكر الاسلامى فى الحرية هى أن الناس جميعا ولدوا احرارا ، لافضل لعربى على عجمى ولا لأسود على ابيض الا بالعمل النـافع ، وما يراه فلاسفة اليسار من أن الحرية هى الغاء استغلال الانسان للانسان هى جانب من جوانب مفهوم الحرية فى الاسلام ولـكنها ليست الحرية كلها ، وما يراه بعض فلاسفة الغرب من اطلاق الحرية بغير حدود فلا يقبله الفكر الاسـلامى لانه يراه دعوة الى تحطيم قيم المجتمع التى تحميها الحرية .

ومفهوم التوحيد فى الاسلام هو أعلى مفاهيم الحـرية حيث تتحرر النفس الانسانيـة والعقل الانسـانى من قيـود الوثنيـة وعبادة الفرد والعبودية لغير الاله الواحد الأكبر ، وقد القت دعوة التوحيد أمام الانسانية الضوء الصادق محررتها من كل قيود العبودية : عبـودية العقل والنفس وخلصتها من عبادة ماهو غير الله وفتحت الطريق أمامها الى فهم الحقائق الـكبرى .

فالحرية فى مفهوم الاسلام هى ضد العبودية والرق والوثنية والظلم ، وهى حرية الفرد والمجتمع جميـا ، ليست حرية المجتمع على حساب الفرد ولا حرية الفرد الممتاز على حساب المجتمع والجماهير ، وهى حرية الفكر المنطلق فى طريق الحق ، الى الاجتهاد والابداع والتجديد ، فالمجتهد له

اجر اذا اخطأ واجران اذا أصاب ، وهى حرية المتدين حيث « لا اكراه »، والعقل هو المنطلق والبرهان هو اداة الجدل والحوار ، وكل مسلم يعود الى الحق متى تبين له ، حتى الرسول نفسه وهو المعصــوم يقبل الحق ويعود اليه ولا يرى فى ذلك ضيرا فالحق أحق أن يتبع .

والاســـلام ينعى على الذين يستخدمون الحــرية من أجل الغرض الخاص ، او الغايات الفردية ، وينعى على الذين يتبعون الرأى من غير أن يعرفوا ادلته ووجه الحق فيه ، ويأخذ عليهم ان يتمسكوا بالباطل متى استبان لهم الحق .

والاســـلام اول من دعا الى الحرية بمعنى التحـــرر من قيـــد الجهل والخرافة والتقليد فى فهم الظواهر والأحداث .

حــرية الفــكر

هناك قضية تثار بين آن وآخر يرددها بعض الــكتاب ، هى أن حرية الفكر وجدت اضطهادا خلال العصور المختلفة وفى مجال الأديان والأمم المختلفـــة . وان مفكرين لقوا حتفهم من اجل حرية الفكر او قول الكلمة . وهذا القول على اطلاقه لايمثل الحق ، وانما يستهدف اتهام المجتمع الاسلامى بأنه عجز عن حماية المفكرين ، وأن شأنه فى ذلك هو شأن المجتمع الأوربى وأنه خاصم حرية الفكر وارتكب من أجلها الاضــطهاد والقتل ، ويضعون امثال السهروردى والحلاج فى مجال القتل وابن رشد فى مجال المضطهدين ، والحق أن حرية الفكر لم تكن مصدر اضطهاد أو قتل فى الاسلام على أى نحو من الانحاء او وجه من الوجوه ، وأن هنـــاك فارقا بعيدا بين ماواجه جاليليو وسقراط وغيره من مفكرى اوربا وما واجه امثال الحلاج وابن رشد .

ان الكنيسة والدين الغربى قد ضاق بحرية الفكر وبالكشوف العلمية وضاق بمخالفيه فأقام لهم محاكم التفتيش ومذبحة بارتلمى وعقد عديدا من المحاكمات . هــذا معــروف وثابت بواقع التاريخ ، ليس هنـــاك مجال لانكاره ، أما مجال الاسلام والمجتمع الاسلامى فلم يضار مسلم واحد مهما بلغ من حرية الفكر واطلاق الكلمة .

وان الذين عوقبوا لم تكن الـكلمة هى سبب عقوبتهم ولـكنه كان التصرف الخاطىء ، ولولا ثبوت اليقين باتصال السهروردى والحلاج بأعداء المسلمين محرضين أو متآمرين ، لما كانت محاكمتهم ، وان الكلمة وحدها لم تكن مصدر اضطهاد ، فقد بلغ غيرهم من حرية الفكر ماهو أشد جراة دون أن يمسهم أذى من أمثال ابن عربى وأبى العلاء المعرى ، ولكن الاتهام بالنسبة للسهروردى والحلاج كان واضحا وأكيدا فليست الكلمة هى التى قتلتهم ولـكنها المؤامرة ، ولقد كان الاسلام سمحا فى حرية الفكر التى كانت أساسا من أسسه وقاعدة من قواعده ، ومنها استطاع العلماء المسلمون أن يصدروا فى دراسة الفكر اليونانى والرومانى والفارسى والهندى وأن يصهروا ماتقبلوه منه وفق مفهوم التوحيد ، وأن يرفضوا مايعارضه. ولقد أطلق الاسلام لدعاة الأديان الدفاع عن عقائدهم وسمح لهم بالسجال والجدل فى حرية كاملة كما حفظ لهم حرية العقيدة وحرية العبادة .

فاذا ذكر ابن رشد فان تحريق مؤلفاته لم يكن خصومة الفكر نفسه، ولـكن الخصومة الشخصية بينه وبين أمير الأندلس هى التى جرت عليه عقوبته واضطهاده ، فلما زالت أسباب الخصومة عادت لابن رشد ولمؤلفاته مكانها فى نفس حياة ذلك الأمير ومجتمعه ، ولم يكن الأمر فى هـذا كله متصلا بآراء ابن رشد ولا بحرية الفكر نفسها من قريب أو من بعيد (راجع فصل ابن رشد فى آخر الـكتاب) .

وعلى الجملة فان المسلمين لم يضطهدوا أحدا ولم يسفكوا دم أحـد عقابا له على الاشتغال بالعلم أو الفلسفة ، حيث لا اكراه فى الدين ، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وقد انتفى القتال بين المسلمين من أجل الاعتقاد ، كما عمد المسلمون الى التساهل مع أهـل العلم والنظر من كل ملة ، وحيث لم يسمع فى تاريخ المسلمين بقتـال وقع بين السلفيين أو الأشاعرة والمعتزلة كما حـدث بين البروتستانت والـكاثوليك فى تاريخ أوربا ، وما كان يقع فى القسطنطينيـة من سـفك الدماء بين الأرثوذكس والـكاثوليك فى عهد القياصرة الرومانيين ، بل ان أبا العلاء المعرى قال مالم يقل بمثله فولتير وروسو ، ومات مع ذلك على فراشه ، ولم يرد فى التاريخ الاسلامى علماء يحرقون لأجل معتقداتهم وهم على قيد الحياة كما

صنع الأوربيون فى ديوان التفتيش فى اسبانيا ، وقـد جاء ذلك نتيجـة لتقدير المسلمين للعلم ولاحترامهم للاخاء الدينى اشد احترام ، وهم لايكفرون من اقر بالتوحيد وان اختلف فى الرأى والفروع .

وحرية الفكر فى الاسلام انما هى حرية شاملة ، تشمل المسلم وغير المسلم ، وهى مطلقة خالصة لوجه الحق وحده ، فالمفكر المسلم يقول الحق ولو على اقرب الناس اليه ، وينصف من هو اهل للانصاف ولو كان من غير ملته ، وغير هذا مفهوم حرية الفكر فى الغرب بشهادة جوستاف لوبون نفسه : الذى يقول : ان حرية الفكر فى الغرب تختفى لدى اوربى عندما يمتد بحثه الى فكر العالم الاسلامى ، فان المفهوم الصليبى العميق الأثر فى النفس الأوربية يحول دون الانصاف .

ومفهوم حرية الفكر فى الاسلام انما يهدف الى تحرير الانسان من رق التقليد الأعمى وتربيتـه على استقلال الارادة واحتقار التقليد والتبعية العمياء ، وتحريره من عبادة الأهواء ودعوته الى الاقتناع بالدليل ، تحريره من الجهل والظن .

وقد نهى الاسلام عن التقليد الذى يقوم على العصبية الوراثية والنعرة الطائفيـة .

الخطيئـــة

« الخطيئة الأصلية » مصطلح غربى مسيحى ، له أبعاده فى الفكر الغربى ، ويعنى مايسمونه الخطيئـة التى ارتكبها آدم وورثها عنه البشر وترتب عليها فى تقديرهم مادعى بصلب المسيح فداء للبشر وتكفيرا لهـذه الخطيئـة .

وقد كان هـذا الاتجاه مفهوما جديدا فى المسيحية اعلنه احد مفكرى المسيحية بعد المسيح (بولس) واقرته المجامع واصبح جزءا من الفـكر المسيحى والأوربى جميعا وقامت من أجله معارك عديدة فى عصر النهضة الأوربية ، واصبح من بعـد له تأثـير كبير فى الفكر الغربى وفى عقلية الأوربيين ، ويعد فى نظر بعض المؤرخين مصدرا لنشوء كثير من المدارس

الالحادية ، وقـــد تغلغل الصراع من أجل هذه الفكرة فى الأدب الغربى والفلسفة الغربية ، وفى كثير من النظريات السياسية الأوربية .

أما الفكر الاسلامى فان هذا الاصطلاح لا يمثل شيئا معينا ، ومفهوم الاسلام كما أورده القرآن بالنسبة لآدم وعيسى واضح فليس فى عمل آدم مايعـد خطيئـة عامة شاملة للانسانيـة كلها ، ويقـرر القرآن أن آدم عصا ربه فغوى ، ثم تاب عليه ربه فهـدى ، والاسلام بذلك يقرر عـدم وراثة الخطيئة ، ويعتبر أن كل أمرىء بما كسب رهين .

والفاظ الصلب والخلاص والفـداء والخطيئـة الفـاظ ذات دلالة واضحة فى الفكر الغربى المسيحى ، ترتبط بهـذا المعنى ، ولكنها لاتحمل مثل هـذه الدلالات فى الفكر الاسلامى وليس لها تاريخ أو اثر ، والفكر الاسلامي يكشف فى هذا عن استقلاليته عن التـأثير بما هو خارج عن عقيـدته .

الـدولة الثيوقراطيـة

من الأخطاء التى ينسبها الغربيون للاسلام اتهـامه بأنه أقام الدولة الثيوقراطية أو يدعو الى اقامتها ، وتعنى الدولة الثيوقراطية : الحكومة الدينيـة فى المجتمع الغربى ، ومن الحقائق الواضحة الأكيدة أن الاسلام لم يقم الدولة الثيوقراطية على المفهوم الذى عرفه البابوات فى حكومتهم، والدولة فى المفهوم الاسلامى تجعل جميع المواطنين متساوين أمام القانون فى الحقوق والواجبات ولكل مواطن الحق فى ارتقاء أعلى المناصب ماعدا منصب الرئيس، وحريةالعبادة فى الدولةالاسلامية مكفولة لجميعالمواطنين، والمبـادىء الاجتماعية فى الدستور الأساسى توافق جميع الديانات وان احتوى بنودا تشـجع نمو العقيـدة الاسـلامية دونمـا تمييز للمسلمين عن سواهم بمنافع خاصـة ، والاسلام أسلوب صالح للحياة الـكريمة ، تسوده الأصالة ويتفوق فيه الجوهر على المظهر .

ومفهوم الدولة الثيوقراطية (أى الدولة الدينية) لا يقوم فى العالم الاسلامى قط ، ان الاسلام ليس عبادة وتدينا ولـكنه أسلوب صالح للحياة الـكريمة تسوده الأصالة ويتفوق فيـه الجوهر على المظهـر . والدولة

الثيوقراطية التى يتولى أمرها رجال الدين على المعنى المتعارف عليه فى الغرب لا توجد فى الاسلام . وشريعته السمحاء لاتقر وجود مايسمى رجل الدين ، والعلمانيـــة والثيوقراطية لا وجود لها فى الاسلام حيث فىالدول الأسلامية يتساوى المواطنون أمام القانون فى الحقوق والواجبات وحيث حرية العبادة مكفولة لجميع المواطنين على السواء .

ومن هنا فان مايردده دعاة التغريب من وصـــف الحكومة الاسلامية بالدولة الثيوقراطية ليس صحيحا على اطلاقه ، حيث لا توجد فى الاسلام سلطة للـــكهانة .

ولم تكن يوما اداة من أدوات الاستبداد على نمط الحكومات الثيوقراطية التى عرفت فى أوربا . وليس فى التوحيد بين السلطتين الدينية والدنيوية فى الاسلام مايؤدى الى شىء من التضارب ، فليس الاسلام حقائق روحية خالصة ، ولـــكنه حقائق روحية ونفسية واجتماعية .

رجـــل الـــدين

كلمة « رجل الدين » كلمة غريبة وافدة يحاول الـــكتاب والمفكرون أن يطلقوها على العلماء المتخصصين فى دراسات العقائد والفقه والشريعة والتفسير ، والذين تكون دراساتهم فى الأغلب مستمدة من المعاهد الاسلامية الخالصة : كالأزهر والزيتونة والقرويين ، والواقع أن الاسلام لا يعترف بطبقـــة معينة يمكن أن تسمى رجال الدين لها نظـــام خاص ، أو حقوق معينة ، أو نفـــوذ من أى نوع ، ولـــكن هنـــاك علمـــاء متخصصـون فى الدراسات الاسلامية والدينية .

ورجل الدين عند الفرنسيين يوصف بأنه (Relig ujenx) ومعنى هذا الوصف أنه لا يصلح لفهم أمور المعاش بسبب انقطاعه عن صحبة الناس .

وقد جاء هذا المفهوم فى الفكر الغربى نتيجة للتحديات التى واجهها الدين فى أوربا ، فى صراع الـــكنيسة مع العلم ، مما دعا العلماءوالباحثين أن يضعوا الدين موضع الخصومة العنيفـــة ، حتى أن جميع الفلسفات

النفسية والاجتماعية تهاجم الدين وهى لا تقصد الا مفهوم الدين فى المجتمع الغربى وليس المسيحية المنزلة .

ومن هنـــا كان اتهام رجل الدين بأنه منفصل عن المجتمع ، أما فى الاسلام فان عالم الدين (وليس رجل الدين) ، له خبرة عميقة بالمجتمع وادواته ، ذلك لأن الاسلام دين وزيادة ، فهو ليس قاصرا على العلاقة بين الانسان والله بل شاملا للعلاقة بين الناس والمجتمع .

العــلم والــدين

ان مايقال عن الصراع بين العلم والدين يقصد به الصراع بين العلم التجريبى والمسيحية الغربية ، أما بالنسبة للفكر الاسلامى فليس هنـــاك صراع أو معضلة ما ، فقد ربط الاسلام بينه وبين العلم ، بروابط عميقة ، والاســـلام هو الذى دعا إلى حرية البحث وصراحة التفــكير والتسامح الدينى ، فلم ينـــاهض الاسلام العلم ، بل فى أحضانه تكامل الدين والعلم، فالاسلام كما يقرر المثل الأعلى لقواعــد الايمان يقرر المثل الأعلى لقواعد العمل ، ويربط بين العلم والعمل ، والاسلام لا يقرر ماليس عليـــه دليل وبرهان ، ولا يقرر المفاهيم والأفــكار بمعزل عن العمل والتطبيق وانما يرى المفاهيم والأفكار مقدمات دافعة لبناء حياة كاملة .

والعلم فى مفهوم الاســـلام هو العلم المطلق ، وليس العلم الدينى وحده ولـــكن كل مايتصل بالعلم من كيمياء وفلك وتكنولوجيا وقـــد أطلق الاسلام كلمـــة العلم على كل نوع منه ولم يقصرها على نوع معين منه ، وقد وردت مادة العلم فى القرآن بصورة تدعو الى الكشف والنظر وتكررت ٨٦٠ مرة ومادة البيـــان وردت ٥٢٢ مرة ومادة الــكتابة ٢٢٠ مرة ، ومادة القراءة ٢٨ مرة ومادة الرأى ٣٣١ مرة ومادة السمع ١٨٥ مرة ، ومادة البصر ١٤٨ مرة ومادة النظر ١٣٠ مرة ، ومادة العقل ٤٩ مرة ومادة الفؤاد والقلب ١٩٤ مرة .

وأول كلمة نزلت من القرآن هى « اقرأ » وأول قسم فى القرآن كله، أقسم به الله سبحانه فى ثانى آية نزلت بعد الأمر بالقراءة صـــدر بحروف من حروف الهجاء وكان بالقلم ومايسطر العالمون « ن والقلم وما يسطرون »

ونقول مع الأستاذ عبد العزيز جاويش انهم اذا تحـدثوا عن تاريخ النزاع بين العلم والدين فانما يأخذونه من غير تاريخنا واذا ذكروا وضع السلطة بين أيدى رجال الدين فانما يتكلمون عن محيط غير محيطنا وماض غير ماضينا .

وليس فى تاريخ الاسلام أو الفكر الاسلامى مايشير الى أن هنـاك مناهضة بين العلم والدين وقعت ، أو أن الدين ناهض العلم ، ان علماء الغرب وجدوا فى كتبهم الدينيـة المقدسة مايتعارض مع كشوفهم العلمية فخالفوها ، أما القرآن وهو كتاب المسلمين المقدس فليس فيه مايخالف أو يختلف أو يتعارض مع رأى من آراء العلم والعلماء ، بل على العكس من ذلك ان كثيرا من النظريات العلمية الحديثة لها مدلول فى القرآن .

والدين بمفهوم العقائد له مجاله وأسلوبه فى المعرفة ، والعلم بمفهوم الكشف عن الطبيعة له مجاله وأسلوبه ولكن الاسلام يجمعهما معا ولا يجد هنـاك تعارضـا حيث يجمع الاسلام فى منهج المعرفة بين أسلوب العقل وأسلوب القلب معا .

والاسلام هو الذى دفع المسلمين الى ابتداع المنهج العلمى التجريبى الذى قامت عليه الحضارة الحديثة .

العقـل العـربى

جرى دعاة التغـريب على اثارة الشبهات حول العقل العـربى ، واتهامه بالقصور ضمن نظرية السامية والآرية التى تحاول أن تعلى من شأن العقل الأوربى والغربى وهى احدى النظريات التى يتخذها الاستعمار لتبرير وجوده ، ولخلق جو من التقدير والاعلاء للعقل الأوربى .

أما العقل العربى فى مجال الانصاف فانه يختلف عن العقل الغربى، اذ يجمع بين الأضداد والأشباه فيربط بينها فى انسجام ، دون أن تتصارع أو تختلف ، بينما يعجز العقل الغربي عن مثل هـذا التوحيد ولا يرى الا شيئا واحدا وضده .

ومرجع ذلك أن الاسلام يقوم على التكامل والوسطية ، فيجمع بين الدين والدنيا ، والعقل والقلب والعلم والدين ، والروح والمادة .

ومن هنــا كانت استطاعة العقل العــربى توحيــد الأضــداد فى انسجام : المسجد والقصر والمسجد والمصنع ، كما جمع بين العقل والطبيعة وبين الحكمة والشريعة .

والعقل فى مفهوم الفكر الاسلامى أساس ضخم ولــكنه وحده عاجز عن أن يصــل الى كل الصواب . وللمعرفة فى الفكر الاسلامى طريقان يجريان معــا . العقل والقلب ، أما الايمان التقليدى الموروث فهو مرفوض قطعــا ، والعقل ليس مستقلا بالاحاطة بجميع المطالب ولا كاشفا للغطاء فى جميع المعضلات ، وان هناك حقائق لا يدركها الا القلب .

والعقل فى تقدير علماء المسلمين نور فى القلب يعــرف الحق من الباطل والخير من الشر والحسن من القبيح ، وقد حدد الامام الغزالى حدود نطاق العقل وانكر الاعتماد عليه كلية فى ادراك الأمور الالهية ، وقد كان هذا المفهوم الاسلامى هو الذى جاوز بالفكر الاسلامى مرحلة الغيبيــات وأطل على « التجربة » حين أنشأ المذهب العلمى التجريبى . فالمسلمون هم الذين وضعوا قاعدة : (جربواحكم) فى مجال الطب والفلكوالهندسة والــكيمياء .

العــروبة والاســلام

من اكثر المحاولات التغريبية خطرا ، تلك المحاولة التى تريد أنتصفى العروبة من مفهوم الاسلام وتفصل بين الاسلام والعروبة ، وذلك فى نطاق النظرية التى تقول بأن الدين ليس مقوما من مقومات الدعوات القوميــة وكيفما يكون الراى فى هذه النظرية فان الاسلام ليس دينا بمفهوم اللاهوت القائم على العلاقة بين الله والانسان وانما الاسلام الى جوار ذلك منهج حياة ونظام مجتمع وثقافة وحضارة .

ومن هنــا فان علاقة الاسلام بالقومية ، أو علاقة الاسلام بالعروبة هى علاقة عميقة الجــذور بعيدة المدى حيث ارتبطت منذ أمد طويل اتباطا

عضويا ، أما مقومات القومية من لغة وتاريخ فى مجال العروبة والاسلام فلا يمكن الفصل فيما بينها . فاللغــة والتاريخ العربيان مرتبطان بالاسلام ارتبــاطا شاملا متصلا على مدى القرون الأربعة عشر ، وليس هذا قولنا وانما هو قول بعض العلمانيين والتغريبيين حيث لا مفر من الاعتراف به ، يقول دكتور نبيه أمين فارس : ان تشابك الاسلام والعربية فى التــاريخ تشابك عضوى متفاعل حيث لا مجال الى فصل الواحدة عن الأخرى ، وهل كانت النهضة العربيــة الحديثة الا تيارا من النهضة الاسلامية فى القرن التاسع عشر . هذا بالاضافة الى تشابك المفاهيم القومية والاسلامية وقوة النزعة الاسلامية فى الجماهير .

ولقد كان مفهوم الوحدة العربية مفهوما اسلامى الجذور منذ بــدأت حركة اليقظة ، ولم يكن فى الامكان غير ذلك ، غير أن الدعوة التغريبية ومحاولة القضاء على أصــالة الفكر الاسلامى والثقافة العربية كانتدائما تحاول أن تفرغ مفهوم القومية العربية من الاسلام وتجعله علمانيا خالصا مجردا . بينما لم تستطع القوميــات فى الغــرب أن تنفصل عن مفاهيم المسيحية الغربية التى هى بطبيعتها ليست الا دينــا لاهوتيا خالصا ، وقد جرت هــذه المحاولة فى الحركة الطورانيــة ، وفى العالم العربى حاولت بعض أحزاب الحركة العربيــة أن تتبنى هــذا المفهوم فى محاولة خلق قومية عربية علمانية على الطراز الذى عرفتــه تركيا عن طريق الإتحاديين والماسونية ومن هنــا فقد كانت أزمة الوحدة العربيــة هى ذلك الجفــاء الواقع وبين النظرية المستوردة التى لو صلحت للتطبيق فى بيئات الغرب فهى لا تصلح للتطبيق في بيئــة الفكر الاسلامى والثقافة العربية : وفى هــذا المعني يقول (عيسى البندك) وهو مسيحي يفهم أعمــاق الروابط والعــلاقات بين الاسلام والعروبة : « ان العربى مسلما أومسيحيا يرتبط بالاسلام والعربيــة : اللغة التى يتكلم بهــا والأخلاق التى يتخلق بهــا والتقاليد التى يزاولها ، وما يعتز به من آباء وشهامة ومروءة ، اننا نؤمن ايمانا قاطعــا بأن كيان النصارى العرب جزء من كيان اخوانهم المسلمين» ويقول دكتور محمود عزمى : الاسلام مبدأ يخضع له جميع العــاملين فى الميادين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى بلادنا مهما كانت عقيدتهم « عقيدة المسلمين أو المسيحيين أو اليهود ونحلهم والملحدين، ذلك ان بلادنا

قد غمرتها « الاسلامية » بالمعنى الذى نفهمه » وقول الدكتور السنهورى « انه فى الاسلام الى جانب الدين توجد المدنية والذين يؤمنون بتعاليم الدين هم المسلمون ، أما الذين ينتمون الى الثقافة الاسلامية فهم أولئك الذين يضمهم هذا الوطن الاسلامى الكبير على مختلف أديانهم ومذاهبهم وجنسياتهم ونحلهم — ليس المسلمون هم أصحاب الفكر الاسلامى ولكن كل من استظل براية الاسلام وانتمى الى الثقافة الاسلامية ولو كان غير مسلم » .

العصرية

من الكلمات التى تتردد كثيرا كلمات العصرنة ، والحداثة ، وهما بمعنى واحد . وتتجه فى الغالب الى مجرى الدعوة القائلة بتطور كل شيء، والتى تحاول أن تشق طريقها الى مجال الأديان وخاصة الاسلام غافلة عن أن الفكر الاسلامى يؤمن بالثبات والتطور معا : لا بالتطور المطلق ، الثبات للقيم الأساسية العقائدية والتشريعية والأخلاقية ثم التطور فى التفاصيل والمسائل الفرعية بما يتفق مع العصور والبيئات . وتحاول شبهات التغريب أن ترمى الاسلام وفكره بالتأخر نتيجة لهذا المفهوم بينما هو فى نظر العقل الراجح أسمى مايمكن التوصل اليه فى سبيل موازنة نواميس الفكر والمجتمع والحياة .

وهناك أصوات تقول بالدعوة الى عصرنة الاسلام أى وضعه فى مجال التطور وهو مايستحيل على الفكر الاسلامى تقبله فى مجال القيم الثابتة . .

فالعصرنة فكرة تغريبية خطيرة يراد بها لوى أعناق الأصول الاسلامية لتبرير الواقع الحضارى القائم بما فيه من مخالفات ومعارضات لمفهوم الاسلام أو مفهوم الدين عامة ، وتجرى هذه المحاولة عن طريق مايطلق عليه « التأويل » .

فالعصرنة هى محاولة فرض مبادىء وأهداف غربية تحاول احتواء الفكر الاسلامى وجعله خاضعا للواقع الغربى فى قيمه ومذاهبه وفلسفاته

فى تجاهل مابين الفكرين الاسلامى والغربى من خلاف وتبـــاين عميق فى قضـــايا كثيرة وانه لا سبيل للعصرنة الا بأن يخضع الفكر الاسلامى للفكر الغربى ويتقبل اطاره وقيمه وهو مالا يمكن أن يحدث ، ومن الاستحالة ان يقع ، فالفكر الاسلامى بأصوله القائمة على التوحيد كان دائما قادرا على أن يتقبل من الفكر البشرى ويترك ، ولـــكنه لم يكن فى وقت من الأوقات — حتى فى أحلك فترات ضعفه — بحيث يمكن أن ينصهر أو يخضع أو يفقد مقوماته ، وقد استطاعت الفلسفة اليونانية أن تحتوى الديانة والفكر اليهودى ، ثم احتوت الديانة والفـــكر المسيحى ولـــكنها عجزت عن ان تحتوى الفكر الاسلامى ، الذى تأثر بها وأخـــذ منها ورفض ، واستطاع بعد صراع طويل أن يتحرر منها وأن يقيم منطقـــه ومقوماته مستمدا أصول ذلك كله من القرآن نفسه .

واذا وقف الاسلام موقف « الثبات » أمام محاولة احتوائه أو صهره، كان ذلك معناه فى نظر دعاة التغريب : الرجعية أو التعصب وهى عبارات لايستطيع الخوف منها أن يذل الاســـلام وفـــكره للسيطرة الغربية ، وقد أيد كثير من المفـــكرين الغربيين أن الاســـلام والفكر الاسلامى والتـــاريخ الاسلامى واللغـــة العربية لا يمكن تفسيره فى ضـــوء المذاهب الغربيـــة العلمانية والمـــادية .

أما اذا كانت العصرنة بمعنى دفع الاسلام والفكر الاسلامى والثقافة العربية الى مواجهة الحياة العصرية والالتقاء بالحضارة وبالفكر البشرى أخذا وعطاء ، فان ذلك أمر لم يتـــأخر عنه الفكر الاسلامى يوما فقد كان دائما فكرا مفتوحا قادرا على الأخذ والعطاء ، وأن له من جوانبه المتطوره مايمكنه من الالتقاء بمختلف النظريات الحديثـــة البناءة التقدمية . كما أنه قادر على أن يكتشف لهـــذه النظريات جذورا فى أعمـــاقه وفى قيمـــه الأساسية ، ولم يكن الفكر الاسلامى بقيم الثبـــات فيه بعـــاجز يوما عن التطور والحركة والتقدم ، بل ان هـــذه القيم الأساســـية من عقيـــدة وشريعة وأخلاق ، كانت أقوى الحوافز لاعطاء الحضارة قيمة انسانية أعلى من مفهومها المادى الخالص . ولكن الاسلام ليس من شأنه أن يبرر انحراف الفكر الغربى أو الحضارة الغربية القائمة أو يقبل من مفـــاهيمها مايختلف

مع جوهر التوحيد أو يتعارض مع أصوله القائمة على دحض الربا واباحة الالحاد والوثنية .

لقد استطاع الفكر الاسلامى أن يتحرر من أعظم قيود الفكر الغربى وهى قيود الوثنيـــة والعبودية لغير الله وحده وبذلك أطلق مفاهيم الحرية والعـــدالة والاخاء والمســـاواة التى عجزت الحضـــارة الغربيـــة والفكر الغربى المعاصر عن وضع حلول لها فبـــاتت وهى معضلة العصر وأزمة الانسان ، هـــذا فضلا عن أن جمع الاسلام بين الروح والمادة ، والعقل والقلب ، والدنيـــا والآخرة ، قـــد أعطاه قيما عقلية ونفسية وسعتمجال انسانيته وسماحته وقضـــت على كثير من الصراعات والأزمات وخاصـــة أزمات القلق والضياع التى يعانى منها الفكر الغربى ، هـــذا فضلا عن أن التراث الاسلامى العربى ليس تراثا منفصـــلا أو مجمدا أو متخفيا ، بل هو ميراث ملىء بالحيوية لم يتوقف عن التفاعل فى المجتمع الاسلامى والفكر الاسلامى خلال أربعة عشر قرنا كاملة دون انفصال أو توقف . وهو تراث بناء تقدمى ، ماتزال مفاهيمه قادرة على اعطاء البشرية خير ماتحتاج اليه.

وليس فى مفهوم الفكر الاسلامى — استمدادا من قوماته وقوانينـــه التى تعطيه القدرة على التجدد من الداخل — ليس فيه جمود أو وثنيـــة أو انحراف أو صراع وما تزال القيمة الأساسية للفكر الاسلامى حيةمتفاعلة قادرة على العطاء .

العصـور الوسطى

ماتزال كلمة العصور الوسطى فى اطلاقها تعنى الفترة مابين القرن الخامس الميلادى والقرن الخامس عشر الميلادى ايضا وهى الفترة التى سقطت فيها الحضارة الرومانية خلال عشرة قـــرون كاملة الى ان بدأت حركة النهضة الأوربيـــة (الرينسانس) وتحاول كتب الغرب أن تصـــف هذه الفترة بالعصور المظلمة ، وهـــذا المفهوم صحيح وصـــادق بالنسبة لأوربا ولـــكنه كاذب ومضلل بالنسبة للعالم كله وللفكر البشرى عامة . ذلك انه خلال هـــذه الفترة ظهر الاســـلام فى القرن السادس الميـــلادى وأشرقت شمسه فعمت العالم كله وامتدت من حـــدود الصين شرقا الى

حدود فرنسا وقدمت للانسانية مجددا قيم التوحيد والعدل والاخاء كمقومات لحضارة انسانية كانت بعيدة المــدى والأثر فى الحضـــارة البشرية وفى النهضة التى بزغت فى أوربا بعد ذلك .

لذلك فان اطلاق القول بأن فترة العصور الوسطى كانت فترة ظلام دامس ، هو قول باطل ، وهى محاولة لتجاهل العصر الاسلامى الزاهر ، وذلك وفق اتجاه الفكر الغربى الذى يحاول أن يربط بين الحضارة الرومانية المنهارة وبين الحضارة الأوربية الجديدة كأنما ليس فى العـــالم الا أوربا وحدها .

ولذلك فان اطلاق كلمة العصور الوسطى على العالم كله انما هو اطلاق ظالم ، فالعصور الوسطى المظلمة انما كانت كذلك بالنسبة للغـــرب وحده ، ولــكنها كانت مضيئة مشرقة بالنسبة للعالم الاسلامى (الهنــد وفارس والأمة العربية والأندلس) .

وتعبير العصور الوسطى تعبير غربى ينطبق على أوربا وحدها فقد سقطت هــذه القارة فى الظلمات فترة ما بين سقوط الحضارة الرومانية وعصر الرنيسانس (النهضة) أما فى العالم الاسلامى فان هــذه الفترة بالذات كانت الفترة الذهبية بالنسبة للاسلام وحضارته .

فاذا أراد دعاة التغريب اذاعة هذا المفهوم فانما يراد به انكار فضل الحضارة الاسلامية على العالم .

عصر الانحطـــاط

حاول التغريب والفكر الاستعمارى الغربى أن يصف مرحلة القرون الثلاثة السابقة للقرن العشرين بأنهـــا عصر الانحطاط ، وهو تعبير قاس ظالم ، وكان يمكن أن يطلق عليه عصر الضعف والتخلف ، ولقــد تجرى الشبهات باتخاذ انتساج هذه المرحلة اسلوبا لمحاكمـــة الاسلام به ، أو اتخاذه سندا لرمى الاسلام وفكره بالقصور والتخلف خاصـــة فيما يتعلق بظاهرة « الجبرية » التى سادت مفهوم الصوفية وأثرت على مفاهيم الحياة والارادة الانسانية . ومن الحق أن يقال أن هذه المرحلة لها وجوه ضعفها ولها وجوه قوتها .

أما وجوه الضعف فهى تأثر الفكر الاسلامى بالفلسفات الهندية والفارسية والمجوسية التى حملت مفاهيم معقدة مضطربة كوحدة الوجود والحلول والاتحاد وغيرها من المذاهب التى لاتتفق مع جوهر التوحيد .

والمفروض أن يحاكم الفكر الاسلامى الى اصوله الأولى والى انتاج أعلامه الرواد ولا يحاكم الى انتاج فترة الضعف والجمود التى توقف فيها الابداع والتجديد والاجتهاد وغلب طابع التقليد .

فالفكر الاسلامى فى جوهره الأصيل مازال مضيئا ايجابيا مؤثرا معطيا للأمم المختلفة والعصور المتعددة دفعات التقدم والبناء والحيوية .

أما وجوه القوة فهى تتمثل فى عمليـــة « التجميع » التى قام بهـــا المفكرون حيث ظهرت فى هذه الفترة الموسوعات الالهية والفنية والعقائدية المختلفـــة التى جمعت الآثار المختلفة الموزعة ، وهى عملية رد فعل لـــا حدث نتيجـــة الغزو الصليبى والتترى من حرق وتدمير آثار الفكر العربى الاسلامى فقد عمد العلماء والأدباء الى عملية التجميع كوسيلة لمقاومة فناء الفكر الاسلامى وهو عمل نافع ايجابى يدل على القوة لا على الضعف ، وان وجه اليه النقــد بأنه لم يحرر من وجهة التنسيق الفنى أو التحقيق العلمى ولكن التقدير المنصف لأخطار هذه الفترة وظروفهـــا من شأنه أن ينصف العاملين فى هذه المرحلة ويقدر لهم هذا الجهد على اطلاقه .

علـــة تأخـــر المسلمين

تعددت أبحاث المفكرين المسلمين فى السنوات الأخيرة حول « علة » تأخر المسلمين وتعـــددت آراؤهم فى ذلك ، ولـــكنها اجمعت على شىء واحد ، ذلك هو أن للمسلمين منهجا فكريا واجتماعيا استمدوه من القرآن الـــكريم وأن هـــذا المنهج هو سر نجاحهم وظفرهم واتساع ملكهم ، وفيه تكمن قوتهم الحقيقية .

ويدور هذا المنهج حول التوحيد ، والعدل ، والاعداد بالقوة يرهبون بها خصومهم ، وبالجهاد يواجهون به من يعتـــدى عليهم . مع الاستمساك بالحق ، ودون الاعتماد على مشورة الغير ، والنهى عن اتخاذ بطانة من غيرهم ، ولقد مضى المسلمون على هـــذا النهج فانتصروا وعزوا ، فلمـــا

انصرفوا عنه وقصروا فيه ذلوا وضعفوا وكلما عادوا اليــه عادت اليهم العزة والسيادة .

واليوم وهم يراجعــون انفسهم في ظل تحــديات الاستعمار والغزو السياسى والاجتماعى والثقافى ، يتقدم اليهم كثيرون من غيرهم يناصحونهم بالباطل ، ويكتمون عنهم سر قوتهم ويردونهم عن طريقهم ، بل ربما ذهب هؤلاء الخصوم الى اتهام الاسلام نفسه بأنه هو مصدر ضعف المسلمين .

وربما قام هذا الاتهام على النظر فى واقع المسلمين اليوم وهو ليس من الاسلام فى شىء ، وربما كان هذا الاتهام تعصبا وضغنا على العرب والمسلمين حتى لا يعودوا الى مصادر قوتهم ، وليس من شك أن الاسلام محجوب اليوم بالمسلمين ، وان مايحياه المسلمون اليوم ليس هو الاسلام ولــكنه التقليد والمتابعــة ، فالمغلوب مولع دائما فى الاقتداء بالغالب ، ولــكن المسلمين لم يقبلوا التبعية ، واكدوا رفضهم لها أيا كان مصدرها وهم الآن على أبواب الرشد الفكرى ، وقد جربوا مذاهب الغــرب التى فرضها عليهم نفوذه فلم يحقق لهم النصر أو السيادة ، وهم لابد عائدون الى قيمهم ومفاهيمهم الأصلية يستمدون منها وسائلهم فى مقاومة الغــزاة واقامة الحق .

الغيبيـــات

هناك عالمان : عالم الشهادة المــكشوف الواضح الذى نراه بالعين وندرسه بالعقل والتجربة من خلال الأنابيق والمعايير العلمية وهو مايسمونه المحسوس . وهنـــاك عالم الغيب الخفى الذى لا نعرفـــه بالعلم ولــكن بالوحى والايمان والبصيرة . وهدتنا اليه أديان السماء ، وقد جرت بعض الفلسفات منذ قـــديم الى انكار عالم الغيب والطعن فى وجوده ، ومن ثم فهى تشك فى الألوهية والنبوة والوحى والأديان والــكتب ، ومن ثمتشك أيضا فى البعث والجزاء .

وقد كان العلم يجرى مع الفلسفة فى هذا الطريق الى أن تحطمت الذرة ، وتبين أن مفاهيم الذرة كلها تتصل بالضوء والنور ، وهما من عالم الغيب ، فآب العلم أو أوشـــك الى اليقين وبقيت الفلسفة المــادية تثير

الشكوك والشبهات من أجل اقرار مفاهيم هدامة ترمى الى تدمير المجتمعات وسيطرة نفوذ الاستعمار والصهيونية .

واذا كان الانسان روحا ومادة ، فلابد أن يكون جامعا للغيب والشهادة فى تركيبه وكيانه ، ولمـا كان الانسان هو سيد الـكائنات تحت حكم الله فقد أوتى العقل وعلى أساسه تقوم المسئولية الفردية والتبعية الأخلاقية ، ومن ثم فان الدنيا ليست هى الحياة ، والموت ليس هو نهاية الحياة ، ولما كانت التبعة مسئولية فقد كان لها جزاء ، ومن هنا يتقرر البعث والحساب والجنة والنـار .

ان النفس الانسانية فى فطرتها تؤمن بالدين وتؤمن بالقوة العليـا القائمة وراء الحياة الطبيعية ، هذه القوة الممثلة فى الله الواحد الأحد ؛ الذى أرسل رسله بالهدى ودين الحق .

ذلك هو الغيب الذى لا يختلف فيـه العلم والذى تعارضه الفلسفة المادية ، لأنها تدعو الى هدف واضح خطير ، ولا تعتمد على أسلوب المعرفة الحقة القائم على العقل والوجدان .

الفلـــكلور

كانت الدعوة الى (الفلكلور) فى السنوات الأخيرة تستمد وجودها من الايمان بالتراث الشعبى ، تراث الأمم القديم الذى يعطى صورة نفسيتها ومزاجها وطوابعها الاجتماعية . غير أن الدعوة الى الفلكلور قـد شابتها أهـداف وغايات انحرفت بها عن هـدفها النبيل وغايتها الحقة . فقـد اتخذت وسيلة لاذاعة العاميات وجمع الأزجال والمواويل والأمثلة العـامية على نحو أراد به دعاة التغريب والغزو الثقافى أن يثبتوا أن العامية ليست لهجة ولـكنها لغة ، واتخذوا من ذلك سلاحا لمعارضة الفصحى واضعافها وتغليب العاميات عليها .

ولقد بدأت حركة الفلكلور على أيدى المبشرين ودعاة التغريب الذين حملوا لواء الدعوة الى العامية واللغة المحكية فى محاولة لاقصاء الفصحى: لغة القرآن عن مكان الصدارة ، وتعزيز العامية فى كل قطر وبلد . مستهدفين

تفكيك وحدة الأمة العربية وابعادها عن مستوى بلاغة القرآن وآدابه .

كما عمدت دعوة الفلكلور الى استحياء الماضي القديم الوثني البائد، من وراء عصر الاسلام ، فهي قد ارتبطت بالفرعونية في مصر، وبالفينيقية في لبنان وكانت تحاول بذلك احياء قيم ماتت وانتهت ، وتقاليــد ومظاهر وأعياد عرفتها الأمة العربية في وثنيها ثم تحررت مع ظهور الاسلام ، ولم تعد مرة أخرى اليها ، وقد جاءها الاسلام بالتوحيد الخالص فقضى على هذه الوثنيات القديمة البائدة التي تتعارض اليوم مع الثقافة والقيم جميعا.

ولقد جرى الفلكلور اليوم في مجارى ثلاث كلها بعيدة عن جوهــر ذاتيــة الأمة ومزاجها النفسي ، اما باحياء الوثنيات الفرعونية أو العادات الجاهلية العربيــة او الوثنيات الاغريقية ، وهذه الثلاث لا تتصل مطلقــا بحقيقة الأمة العربية التي تحررت منذ خمسة عشر قرنا من هذه الطقوس والوثنيــات .

والواقع أن الدعوة الى احياء التراث الشعبي المسمى بالفلكلور لم تستطع أن تحقق نتــائج حقيقية الى جانب الأصالة وانما امكن استخدامها في اهــداف التعــريب والشعوبيــة وقــد تبين انه احيــاء الفلكلور لكي يكون عاملا في المحافظة على الشخصية العربيــة الاســلامية حتى تنمو وتترعرع وتتمكن من رد كل عدوان عليها لايؤدى وانما الذي يستطيع ذلك هو التاريخ الصحيح ، ذلك أن الفلكلور يقوم على أوهام الشعوب وأهوائها وعلى أدنى قــدر من العواطف والمشاعر التي تتعلق بها النفوس الجاهلة الضعيفة المحدودة الأفق التي لم تصل الى قدر من الثقافة التي يقــدمها الدين والتي تقوم على التحرر من الوثنيات والماديات . وفرق عميق بين التــاريخ وبين الفلــكلور وبين التراث وبين الفلكلور بل ان الفلكلور نفسه انما يستهدف احياء الاقليميات والوثنيات والتقاليد والعادات التي انحرفت عن مفهوم العقائد الصحيحة مما صنعه الانسان الضعيف في حالات الفرح والحزن وفي خلال مراحل الالتقاء الاجتماعي العــام . وهي في مجموعها خارجة عن أصول الدين الحق الذي هــدينا اليه ولذلك فان احيــاء هذا النوع من التراث هو احياء لدعوة التفرقة والجهل والتمزق .

ذلك ان قدرا كبيرا من هذا التراث يتعارض مع القيم الأساسية التى بناها الاسلام فى نفوس أهله .

وبالنسبة للأغانى والمواويل فانها فى مجموعها خواطر ساذجة لاتمثل من النفس الانسانية الا أدنى مراتبها وهى فى مجموعها تقوم على الأهواء وينسى المفهوم الاسـلامى الذى يرتقى فى الحزن عن معارضـة أمر الله وفى الفرح عن الانخداع وراء مظاهر الأهواء .

الفـكر أم العنصر

فى العصر الحديث علا صوت العناصر والأجناس والعروق والدماء، وجرت الدعوة الى القوميات ، وكانت أوربا هى التى فتحت هذا الطريق حين خرجت من نفوذ الكنيسة الى القوميات المختلفة .

ولقد كانت الدعوة الى الوحدة العربية دعوة مختلفة عن ذلك تماما، متحررة من طابع الأقليـة أو التعصب للجنس أو اقامة حواجز الخصومة والخلاف مع القوميات الأخرى على النحو الذى شهدته أوربا فى صراعها القومى .

ذلك أن الأمم العربية والفارسية والتركية والهندية ، قد جمعتها الى أحقاب طويلة ، وحدة فكر ، أساسها الاسلام ومادتها القرآن وقوامهـا اللغة العربية التى حملت الفكر الاسلامى الى العالمين .

وقد كان هـذا الفكر اسلاميا ولم يكن عنصريا ، استمد وجوده من واقع المسلمين ومن تلك البوتقـة الروحية والنفسية التى انصهرت فيهـا الأجناس جميعا وتوحدت على تعاليم واحدة قوامها الاسلام والنبوة والعدل والتوحيد .

ومن هنـا فان ذلك التساؤل الذى يثار فى باب الشبهات بين حين وحين ، حين يقال : حضـارة عربية أم حضارة اسلامية ، وفكر عربى أم فـكر اسلامى ، أو أن الغزالى كان فارسيا والفارابى كان تركيا والكندى كان عربيا أو ابن خلدون كان مغربيا ، فالحقيقة أن هؤلاء جميعا لم يكونوا يصدرون عن عنصر أو دم أو جنس حين كتبوا ذلك الفكر . وانما كانوا

متصهرين فى بوتقـــة الفكر الذى صنعه الاسلام وقام عليه القرآن والذى لم يكن به شبهة من شبهات العصبية أو العرق . وانما كان استمدادا من مفهوم التوحيد والعـــدل الذى جاء به محمـــد صلى الله عليه وسلم الى الناس كافة .

القـــيم

تعبير حديث مشتق من قيم الشيء ، ومن القيمـــة ، وهو اصطلاح اقتصادى ولكنه عمم فأصبح يعنى الأسس التى يستند اليها فى كل ماتصدر الأمم والأفراد من أقوال وأفعـــال ، وهـــو يستعمل بمعنى المعيـــار الذى يقاس به الجهد الانسانى فى أى زمان ومكان ، تقاس به القيم الأساسية: روحية ومادية ، أو عقلية ونفسية ، أو أخلاقيـــة واباحية ، والقيم الآن هى مجال الصراع بينالحضارات والثقافات المختلفة ، فالحضارة الاسلامية والثقافة العربية تؤمن بالقيم الانسانية المتكاملة فى مجال الروح والمـــادة بينما تحـــاول النظريات المستحدثة أن تقصر القيم على الجوانب المـــادية والعقلية فى مجال الاطلاق والاباحة وذلك بدعوى أن العصر والحداثة كلها أصبحت تلقى ظلا على القيم الأخلاقية والروحية ومن الحق أن يقال أنها تتبع الانسان نفسه فاذا كان الانسان روحا وعقلا ، ومادة ونفسا ، فان القيم تكون كذلك ، ومادام الانسان لا يمكن أن يكون مادة خالصة فكذلك القيم التى ترتبط بوجوده وكيانه .

ان مفهوم التقدم ومفهوم الحضارة من شأنه أن يصرف عن الانسان كل مايحطم شخصيته ، او يدمر كيانه ، وأن يحرره من ربقـــة الخرافات وسيطرة الجهل ، أما مفهوم المذاهب المدمرة التى أخذت تسيطر على الفكر الغربى فى السنوات الأخيرة سواء فى مجال علم النفس ، أو فى مجال مفاهيم التربيـــة أو فى مجال الفلسفات فانمـــا هى ثمرة المجتمع الغربى نفسه ولها امتداداتها للفلسفات اليونانية والوثنيـــات الاغريقيـــة والقيم الهلينية التى تستهدف التحرر من قيود الأخـــلاق والانطـــلاق فى عبادة الأجساد .

وهذه المفاهيم غريبـــة كل الغرابة على الفكر الاسلامى والثقافـــة

العربية ولذلك فانها حين تحاول أن تغزو قيمنا تجد صعوبة بالغــة فى تقبلها لأنها تتعارض مع قيمنا الأساسية ومكونات شخصيتنا وجوهر روحنا ومزاجنا وطبيعتنا .

واذا كانت الثقافات الغربيــة قــد عزلت الدين عن منهج حيــاتها وفكرها ومجتمعها بعــد أن وجــدته معوقا لها عن الحرية أو النهضــة أو الحركة فان الأمر يختلف بالنسبة لعالمنــا وأمتنا ، حيث يعترف الاســلام بالنزعات البشرية وفى مقدمتها الجنس ويعالجها علاج المواجهة والصراحة ولا يقمعها قمعا ، ولا يطلقها اطلاقا .

وحين يقع (الغرب : فكره ومجتمعه) فى صراع بين الفردية والجماعية يقف الفكر الاســلامى موقف التكامل والتوازن بين الفــردية والجمــاعية جامعا بينهما .

فالدين فى مفهوم الفكر الاسلامى ليس قيمة رجعيــة أو متخلفة أو جامدة ، ولــكنها قيمة حية ذات فاعليــة وحاجز نفسى عظيم فى مواجهة أخطار الحياة وتحديات الاباحة وعامل من عوامل التوازن النفسى والتكامل البشرى ، وضوابطه الأخلاقية من أسباب الايجابية والقوة .

فالفكر الاسلامى والثقافة العربية لا ترى رأى الغرب فى أن المادة وحدها هى معيــار القيم ، وانما تراها متصلة بالانسان ووجوده وكيانه، فالانسان هو معيار القيم لا العلم ولا المادة ، والانسان مادة وروح ، ومن هنا فانها تربط بينهما فى توافق وتناسق وتوازن ايجابى بناء .

ومن حق الفكر الاسلامى أن يرى أن القيم المــادية وحدها لا تحقق نمو الشخصية ولا اكتمالها وان القيم المتكاملة هى العــامل الأول فى دفع الأمم الى النجاح والتقدم .

والقيم فى مفهوم الفكر الاسلامى لا تتصل بالبيئة وحدها ، ولا تتغير بتغير الظروف والبيئات ، وانما هى قيم ثابتــة اساسية مع كل الظروف وقيم أخرى متغيرة مع الأحداث والظروف والبيئات أما القيم الثابتة فهى القيم المتصلة بالعقائد والأخلاق والشرائع وقوامها التوحيد والاخاء والحرية والحق والعــدل ، أما ماعدا ذلك من القيم فانها تخضع للبيئــات والزمن

ضمورا واتساعا والقيم فى صميمها انسانية ودافعة الى العطاء والرحمة.
وقد أثيرت شبهات حول مفهوم الفكر الاسلامى للقيم حين وصف بأنه فكر روحى ومن الحق أن يقال انه فكر (روحى ومادى) وانه لم يغفل من حسابه المادة بل على العكس أقر القيم الدنيوية وطالب الناس بالاقبال عليها وبين أهمية بناء الحياة والعمران فأمر بالزواج والشراب والزينة والطعام ولكنه طالب فى نفس الوقت بعدم الاسراف والنظر الى التقدم على أنه ليس تقدما ماديا شاملا ، وبذلك فان المادة لا تتقدم القيم الروحية ولا تحجبها .

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

بل ان الفكر الاسلامى يسمو بالقيم المادية ويحولها الى قيم انسانية متجاوبا مع طبيعة الانسان التى تتكون من جسم وروح .

ولا شك أن التقسيم الغربى للقيم واعلاء الماديات منها انما جاء استمداد من الفكر اليونانى الذى قسم الناس الى سادة وعبيد ، والسادة لهم الحكم والرئاسة والعبيد للانتاج المادى ، وقد عرف الفرس نفس هذا التقييم حين دانوا بالهين احدهما للخير والآخر للشر ، وكانت القيم عندهم مرتبطة باللذات والاستجابة للشهوات .

وجاءت المسيحية الغربية معارضة تماما لليونانية والفارسية حين دعت الى الزهد واحتقار المادة ، وانصراف الانسان عن الملذات والعكوف فى الأديرة والتكفير عما وصف بأنه خطيئة الانسان . ثم جاء الاسلام فصحح المفاهيم وعدل الموازين حين دعا الى التوحيد والتقوى والكرامة الانسانية ونادى بالحرية والعمل ودعا الى السلام والعدل وجمع بين الدنيا والآخرة ، ووازن وجمع ونسق بين القوى المادية والقيم الروحية فى وحدة تؤدى الى التوسط والاعتدال فى تحقيق مطالب الجسم ومطالب الروح .

ومن أبرز قيم الاسلام الحرية فى الإختيار وما يتبعها من مسئولية وجزاء ، بما يحقق للانسان الارادة المطلقة فى الترجيح بين الشر والخير على النحو الذى يجعله مختارا مسئولا ، مسئولية حرة ، وهى من اعظم

القيم التى تعطى الانسان كفاءة فى الارادة والتحـرر من اغلال الآخرين واستعبادهم له فضـلا عن تجرره من أسر الشهوات ومن سيطرة المـال والجاه والناس جميعا .

القـــديم

تجرى المحاولات التغريبيـة الى دعوتنـا — نحن وحدنا (العـرب والمسلمين) — الى ازدراء القديم وكراهيته بل ويسارع فيتم لها الشبهات التى تحمل طـابع السخرية والاحتقار لهـذا القـديم ، ولـكنه مع الأسف يتنـاقض مع نفسه فلا يفعل ذلك مع القـديم الغربى ، بل على العكس من ذلك فهو يعلى من شأن القديم عنده ، بل ويحاول أن يعلى من شـأن هذا القـديم الخاص به عنـدنا فهو يدعونا الى الأدب الاغريقى ويحيط الدراسات الهلينيـة بهالة من الفخر ، ويحاول أن يربط بيننا وبين اليونانية واللاتينية . وتقرر الأبحاث والدراسات التاريخية أن الغرب لم يجدد نفسه ولم يدخـل عصر النهضـة الا من طريق البعث والاحيـاء للاغريقيـات واللاتينيات . فلماذا اذن هـذا التنكر لتراثنا وقـديمنا ، ونحن نؤمن أن اى امة لاتستطيع أن تدخل عصر النهضة الا على اساس احيـاء قديمها والارتباط به ، ومن عجب أن الغرب قـد أحيا تراثا انفصل عنه الفسنة، والصهيونية احيت لغة انفصلت عنها الفى سنة ، ولكن المقاييس تختلف اذا جاءت للحكم على قـديمنا وتراثنا الذى لم ينفصل عن أمتنا خلال اربعة عشر قرنا متوالية متصلة ، ولنستمع الى عالم غـربى هو كارل بيرسون يتحدث عن القديم .

« ان من أقوى المؤثرات التى تحفظ الثبات الاجتماعى وتحول دون تحلله تلك الصفة التى نبغضها : صفة الجمود على القديم ، لا بل نقول أن العـداء الصارخ الذى تقابل به الجمـاعات الانسانيـة كل الفكرات الجديدة لمن أخص تلك المؤثرات ، وهذه الصفات بمثابة الـكور الملتظية نيرانه ، والتى بدونه لاتستطيع أن تفصل بين المعدن الصحيح والفضلات الزائفة ، وهى تحمى الجسم الاجتماعى من أن يترك معرضـا لتغـيرات تجريبية فجائية غير مقيدة آنا ، أو بالغة أقصى الضرر آنا آخر .

ويؤكد الباحثون أن الأمم النـاهضة توازن بين روح القـديم وروح

الجديد وتبنى الجديد على اساس من القــديم ، وتجدد من القــديم ماهو صالح وايجابى وترفض من الجديد ماهو غير صالح أو ايجابى أو يتفق مع كيانها ومزاجها وطابعها . وأن الدعوة الى تطيعـــة القديم ، كالدعوة الى تقبل كل جديد ، وكلاهما معارض لناموس الوجود وسنة الحياة التى تبنى الجديد من مادة القديم .

فالتوازن بين القديم والحديث هو طابع النهضة الأصيلة ، فاذا أهمل القــديم ضاعت مقومات الأمة وتعرض كيانها للخطر ، واهتزت شخصيتها، وباتت معرضة لخطر الاحتلال ، وان كل دعوة الى انكار القــديم انما هى دعوة العــدو ، والمستعمر ، وكل طابع فى هــدم هذه الأمة ، والعمل على افنــاء وجودها ، ولو كانت الأمة العربية حرة لاستطاعت أن تقف موقف الانصاف من تراثها ، ولــكنها واقعة تحت عواصف شديدة من الغزو الثقافى ودعوات التغريب المنبعثة من داخل الأمة نفسها، ومصدرها معاهد الارساليات التبشيرية التى تحاول أن تخــدم أهــداف المستعمر والنفوذ الأجنبى .

ونحن نحاول أن نجد مثل هذه الدعوة الى تدمير القــديم وسحقــه والتشكيك فى آداب الأمم الغربيـــة فلا نجد ، وانما نجــد عكس ذلك ، حرصـــا شــديدا واستماتة فى الربط بين القــديم والجديد ، وبين تراث والواقة والحى .

الــكتب الصفراء

أطلقت عبارة (الكتب الصفراء) على كتب التراث العربىالاسلامى لأنها كانت مطبوعة فى العصور الأخيرة على الورق ذى اللون الأصفر ، بيد أن هذه التسمية انما كانت محاولة للسخرية بهذا اللون من الكتب وتحقيرا له ، بينما تمثل الكتب الصفراء عملا مجيدا بالغ الأهمية فى تاريخالحضارة الاسلامية والفكر الانسانى .

ولقد كانت هذه الــكتب الصفراء مصدر تنافس خطير بين الغربيين الذين نقلوها الى بلادهم وكانتمصدرا للنهضة العلمية والفكرية المعاصرة، بل لقــد بذل المستعمرون منذ وردوا العــالم الاسلامى جهودا ضخمة فى

الحصول على الوف المخطوطات والـكتب المدفونة فى المساجد القديمة ونقلوها حتى عمرت بها مكتبات باريس وبرلين ولندن .

ولقد جهل المسلمون والعرب قدر هذه الثروة الضخمة وتحاموها فترة طويلة تحت ضغط الدعوات المضللة التى كانت تدعوهم الى النظر اليها بعين الاحتقار ، ازاء المؤلفات الغربية الحديثة الباهرة المظهر ، ولكنهم عادوا من بعد الى ايمان عميق بتراثهم وانتقل كثير من أعلامهم الى خزائن الـكتب الغربية يصورون هذه المؤلفات وينقلونها الى وطنها مرة اخرى .

ولقد حوت هذه الـكتب الصفراء دررا من العلم والفكر ، وخاصة كتب الفقهاء التى ضمت عشرات من حلول القضايا والمعضلات وكتب التاريخ التى جمعت مئات المواقف وتراجم الأبطال وكتب الـكيمياء والطب والعلوم الطبيعية المختلفة التى قامت عليها نهضة أوربا الحديثة والتى كشفت للغربيين « أصول المنهج العلمى التجريبى الاسلامى » .

وما تزال هذه الـكتب الصفراء مرجعا ثرا للمسلمين والعالم كله ، بما حوت من تراث ضخم حى، لم يستطع المعاصرون استيعابه والانتفاع به.

كتب المحاضرات

فى فترة من فترات التاريخ الاسلامى ، استشرت كتب المحاضرات التى جمعت ما تجمع لدى العرب والمسلمين من أساطير الأمم السابقة رواياتها وخرافاتها وشعرها وحكمها وقد بدا ذلك على أنه تراث يكشف للمسلمين علامات فكرهم الأصيل المستمد من القرآن والتوحيد ، ويبين الفوارق البعيدة بين التوحيد والوثنية، وبين العلم القائم على العقل ، وبين الخرافات والأوهام .

غير أنه فى خلال مراحل الضعف التى مرت بتاريخ المسلمين ومع ضغط قوى الغزو الأجنبية من مجوسية وباطنية ودعاة الفلسفة اليونانية، فقد جمعت هذه الأساطير والخرافات وشكلت تيارا ليس من الفكر الاسلامى الأصيل ولـكنه من الدخائل واضافات التقليد والابتداع .

ولقد حرص كثير من الباحثين المنصفين على الاشارة الى هذه الآثار

والـكشف عن اخطائها وسمومها ، وحذروا من اعتبـارها مراجع أصيلة، أو مصادر سليمة ، غير أنه فى خلال يقظة الفكر العربى الحـديث ، لم يلبث دعاة الغزو الثقافى والتغريب أن عملوا على احياء هذه الكتب واعادة اذاعتها من جديد ووضعها أمام الباحثين على أنها مصادر يرجع اليها . ومن ذلك الف ليلة والاغانى وكليلة ودمنة ورسائل اخواء الصفا وغيرها ، ولقد اعتمد الدكتور طه حسين فى كثير من مؤلفاته على هذه الكتب وكان من العاملين على اعادة طبعها ونشرها والتعريف بها .

كما عمل على احياء كثير من الأساطير التى أحاطت بالسيرة النبوية وحياة المسلمين فى العصر الأول وضمنها كتابه (على هامش السيرة) ، هذا بالاضافة الى دعواه المبطلة فى القول بأن القرن الثانى كان عصر شك ومجون اعتمادا على نصـوص استخرجها من كتاب الأغانى الذى لم يكن مؤلفا ليكون مرجعا تاريخيا أو علميا ولـكنه كان من أعمال الترف والتسلية فى جمع شعر الأغانى وسير شعرائه .

ولا شـك أن البـاحث الثبت لا يتخذ من مثل هذه الـكتب مراجع اساسية له .

اللاتينيـــة

جرت محاولات كثيرة فى مطلع هـذا القرن وفى ظل النفوذ الأجنبى الى اعلاء شأن اللغة اللاتينية وفرضها للتـدريس بجوار اللغة العربيـة واللغات الحديثـة وكذلك الى توجيه الاهتمام بالأدب اللاتينى القـديم . والمعروف أن اللغـة اللاتينية قـد هجرها أصحابها منذ وقت بعيد وانها قد ماتت ، ونشأت على أنقاضها اللغات الفرنسية والايطالية والانجليزية الحديثة التى لا يزيد عمرها على أربعمائة عام .

ولقد حاول كثير من دعاة التغريب عقد المقارنة بين اللغة العربيـة واللغة اللاتينية . والعجب من بقاء العربيـة بينما انتهت اللاتينية وانطوت صفحتها ، ولقد جرت المحاولات لاعلاء شأن اللهجات العامية فى العـالم العربى كمحاولة للقضـاء على اللغة العربيـة الفصحى « لغةالقرآن » واحلال هـذه العاميات مكانها ، غير أن هذه المحاولات كلها باءت بالفشل

فليست اللغـــة اللاتينيـــة كاللغة العربيـــة ، وإذا كانت اللغة اللاتينية لغة أمة فقـــد انتهت بانتهاء امتها ، أما العربيـــة فهى لغة امة ولغة فكر، وقد ارتبطت بالقرآن الـــكريم فأصبحت الى جانب انها لغة العرب الذين يبلغون مائة مليون فانهـــا لغة المسلمين الذين يبلغون سبعمائة مليون ، فهى لغـــة فكرهم ولغة دينهم ولغة هذا التراث الاسلامى العربى الضخم، الذى لا سبيل للعرب والمسلمين الى الاستغناء عنه .

اما اللغة اللاتينية فانها لغة تاريخية تدرس اليوم من أجل احيـــاء نصوص الأدب اللاتينى القديم ، وربما كانت لها أهمية خاصة فى دراسات الجامعات الغربيـــة ولـــكن أهميتها فى دراسة الجامعات العربية قليل، ذلك أن الآداب اليونانية واللاتينيـــة تختلف اختـــلافا واضحا مع الآداب العربية والاسلامية فى مقاصدها ومقوماتها ، ولقد رفض المسلمون فى القديم ترجمة الآداب اللاتينيـــة بينما ترجموا العلوم ، ذلك لأن لـــكل امة ادبها المستمد من ذاتها والقائم على اساس مزاجها النفسى والاجتماعى . ولقد ترجمت كثير من آثار اللاتينية الى العربيـــة وحرص هؤلاء المترجمون على اذاعتها بكل وسيلة ولـــكن الذاتيـــة العربية رفضتها واحست بالفـــارق العميق بين طابع النفس العربيـــة القائم على الفطرة والايمان بالله وبين طابع النفس اللاتينية الوثنى .

اللاهـــوت

أطلقت كلمة اللاهوت فى الاصطلاح المستعمل فى الـــكتابة العربية على مفهوم الدين الغربى ، أى فيما تمثل العلاقة بين الله والناس ، أو مايطلق عليه فى مصطلحات الاسلام : العبادات .

ولـــا كان مفهوم الدين فى الفكر الغربى قائما على هـــذا الجانب وحده ، فقـــد وصف بأنه لاهوت ، ومن هنـــا تبدو التفرقة الواضحة بين مفهوم الفكر الاسلامى ومفهوم الفكر الغـــربى فالاسلام ليس دينا فحسب، ولـــكنه دين ونظام مجتمع .

ذلك أن الاسلام لم يفصل بين علاقة الانسان بربه وعلاقته بالنـــاس والمجتمع بل هما عنصران متكاملان لاينفصلان .

أما فى الغرب فقد تلقى الأوربيون الدين المسيحى فى ظروف كانت الأمم قد اقامت مناهجها الاجتماعية على اساس الفلسفة اليونانية الوثنية ، والقانون الرومانى ومن هنا فقد تقبلت أوربا دين المسيحية كاطار جامع بين وصايا المسيحية وبين هذين التراثين ، ومن هنا بقى مفهوم الدين فى نظر المفكرين الغربيين قائما فى اساسه على العلاقة بين الله والانسان ، أما فيما يتعلق بالمجتمع فقد آثر الغربيون مناهج اليونان والرومان التى كانت سائدة فعلا .

أما فى العالم الاسلامى فقد بدأ الاسلام ببناء جماعة صاغها على مبادئه وظلت هذه الجماعة تنمو حتى شكلت المجتمع الاسلامى من خلال مفاهيمه وقيمه ، ومن هنا فقد تكاملت فى مجتمعه عناصر الاسلام عن عقيدة وشريعة وأخلاق ، ومن هنا اختلف مفهوم الغرب عن مفهوم الاسلام فى هذا الأمر ، وكان لهذا الخلاف أثره البعيد فى فهم الغربيين للاسلام أو فى محاولة التغريبيين تحويل المسلمين عن هذا المفهوم ، ودعوتهم الى قصر الاسلام نفسه أو تركيب العقل العربى الاسلامى منذ خمسة عشر قرنا .

المنهج العلمى التجريبى

جاء الاسلام دينا ومنهجا اجتماعيا ولقد كانت دعوته الى العلم ابرز مناهجه ، فقد حث المسلمين على النظر فى الكون ، والسعى فى آفاق الأرض ، واستخراج ثمرها ودعا الى العلم ونادى بالبرهان والدليل ، واقام الانسان سيدا على الأرض تحت حكم الله . فكان هذا هو منطلق المسلمين الى النظر والبحث والعمل .

ومن هنا نشأ منهج المعرفة الاسلامى ذى الجناحين القائم على اساس العقل والبصيرة معا ، دون فصل احدهما عن الآخر أو اعلائه ، ومن هنا اخذ المسلمون علوم السابقين جميعا فنظروا فيها ثم صححوا ماكان فيها من أخطاء وأعادوا صياغة مناهجها بما يتفق مع روح الاسلام وطبيعة المجتمع الاسلامى التى تختلف عن روح اليونان والاغريق الوثنى وعن مجتمع الرومان العبودى ومن ثم أنشأ المسلمون منهجهم العلمى التجريبى

الذى تخطى المنهج الاغريقى النظرى ، وتقــدم فى مجــال الطب والفلك والعلوم الطبيعية والــكيمائية على نحو حقق كثيرا من نتائج العلمية .

ثم كان أن تتلمذ الغربيون على هذه المنــاهج فى جامعات قرطبــة واشبيلية ونقلوها الىأنحاء أوربا ثم سيطر الأوربيون علىالأندلس وأخرجوا المسلمين والعرب من أوربا جميعا ، واستولوا على هذه المناهج والأبحاث، ثم امتدت أيديهم حتى حققت ثمرات العلم والحضارة العصرية .

غير أن الغربيين انكروا فضــل العرب والمسلمين على هــذا العمل فترة طويلة ، وظلوا أكثر من اربعمــائة عام يؤكــدون أن المسلمين كانوا يعيشون القرون الوسطى ، وانهم لم يكونوا الا نقلة للفكر اليونانى ، غير أن اصوات منصــفة لم تلبث أن ظهــرت فى السنوات الأخيرة كشفت عن الحقائق واعترفت بفضل العرب والمسلمين ، ليس فى مجال العلم والطب والمنهج التجريبى وحده بل فى مختف مجــالات الفكر العــالمى من تاريخ واجتماع وسياسة واقتصاد .

المرأة وتحرير المرأة

كانت الدعوة الى تحرير المراة أساسا ثمرة من ثمار الدعوة الاسلامية، فقد أعطى الاسلام للمراة حقوقا فى مجال المجتمع والاقتصاد والعلم لم تكن تعرفها أوربا اذ ذاك ، حيث كانت تعقــد المؤتمرات فى الغرب للنظر فيما اذا كانت المرأة مخلوقا انسانيا أم لا ، فى هــذه الفترة بالذات كان محمد بن عبد الله ينادى فى قلب الجزيرة العربيــة بحرية المراة ومكانتها ويعلن حقوقها الاجتماعية والاقتصادية التى منحها الاسلام .

وقد كتبت المراة المسلمة فى ظل الاسلام صــفحة ناصعة فى مختلف المجالات غير أن مرحلة الضعف والتخلف قــد القت ظلها على المراة وعلى المجتمع كله ، فانزوت المراة ، ثم فرض عليها الجهل والحجاب ، فلما جاء الغرب جعل من بين أهــدافه الاستعمارية تدمير الأسرة واخراج المراة الى الحياة وخلق أجواء من الحب والغرام والاثم ومحاولة تحرير المجتمع من قيم الغيرة والعرض والــكرامة التى قدمها الاسلام للمراة .

غير أن الاستعمار لم يكن يستطيع أن ينفذ برامجه الا على مراحــل طويلة ، فـكان من ابرز ماعمل لاذاعته : « القصـــة الغربية الاباحية » فاغرى كثيرا من الـكتاب الشوام بترجمـــة القصـــة فذاعت ذيوعا شديدا ودخلت كل بيت والتفت الى العـــذارى تلك النشوة الخيالية فى صور من الاباحة والوهم ، فاثارت فى النفوس ثائرة الغريزة والهبت فى المشاعر عواطف الجنس واغرقت البـــلاد بالأندية الليلية والراقصات . والخمور واساليب الدعارة واباحت البغـــاء وجعلت له أحياء خاصة ودافعت عن وجوده .

ولقد حرص الغيورون على كشف مفاهيم الاسلام فى تحرير المرأة، هـــذا الفهم القائم على تعليم المرأة واشتغالها بالاعمـــال التى تنـــاسب طبيعتها بعد دعم شخصيتها بتربية سليمة قوامها القدوة الصالحة، وبتعليم متخصص يدرس لها ما تحتاج اليه ولا يشغلها بما يشغل به الصبيان . غير أن الاستعمار حال دون ذلك بافساد التعليم وبافساد الأسرة نفسها ،ومن هنـــا فقد استغلت صيحة تحرير المرأة التى نادى بها بعض الكتاب ، فى سبيل تحقيق اهـــداف الاستعمار نفسه ، ولقد ركز المبشرون فى تقاريرهم على تعليم المرأة فى مدارس الارساليات الخاصة الداخلية واهتموا بتعليم ابناء السراة والأمراء والقادة . وقالت احدى كبيرات المبشرات ان هـــذا التعليم هو اقرب طريق لهدم الأسرة المسلمة .

المحـــافظة

وصفت « المحافظة » فى الأدب العربى الحديث بأنها تقف فى مقابل (التجديد) ، وكان هذا خطأ مقصودا ومغالطة تغريبيـــة خالصة ، ذلك أن المحافظة ليست جمودا ولا تأخرا . ولا رجعية الى التقليد ، ولكنها محاولة لايجاد الترابط الصحيح بين الخطوط المختلفـــة لشخصية المجتمع والفكر جميعـــا .

فان الدعوة الى التجديد وحدها انما تستهدف اخراج الفكر والمجتمع من مقوماتها الأصيلة بينما الجمود وحده هو دعوة الى التـــوقف عن النمو وكلاهما ليسا من الخير الذى تترقبه المجتمعات ابان النهضات .

وانما تقوم النهضات على عوامل مختلفة قوامها المحافظة على القيم

الأساسية الثابتة التى بنيت عيها الأمة اساسا ثم تفتح الباب للجديد فتنظر فيه فى وعى ورشد ، فتأخذ منه ماتراه صالحا لنموها وتجديد حياتها .

ولقد كانت تجارب الأمم جميعا من هـذا النوع ، ولم تر امة أصيلة التاريخ عميقة الجذور ذابت فى فـكر امة اخرى أو مناهجها وانتقلت كلية الى الجديد الوافد .

ذلك أن هذا الجديد الوافد انمـا يجىء عادة قسرا وفى ظل ظروف القهر والاحتلال ، وان هذا الجـديد قـد يكون خاصا بأمته واهله ، من نتاج فـكرهم وفى مواجهة معضلاتهم ، وتحديات مجتمعاتهم ، ولذلك فان أى تجربة من تجارب النهوض فى الاجتماع او السياسة او الاقتصاد فى أى أمة ، لا تكون صالحة للنقل أو الاقتباس من أمة أخرى ، شأنها شأن البذور التى قد تنمو فى تربة ولا تنمو فى تربة أخرى .

ولقد كانت الدعوة الى التجديد واتهام المحافظة ، من التحديات التى واجهت مجتمعنا فى ظل النفوذ الأجنبى الذى كان حريصا على أن يخرج هذه الأمة عن مقوماتها واغراءاتها بالرأى الجديد الوافـد الذى يختلف مع طبيعتها وعقائدها وذاتيتها ، حتى لقد دعا احدهم الى أن نأخذ الحضارة الغربيـة شرها وخيرها وما يحمد منها وما يعاب ، فاذا تصـدى احـد لهؤلاء الغزاة وأعلن أن لهذه الأمة مقوماتها وصف بالمحافظة او الجمود او الرجعية ، ثم تحرر الفكر العربى من هـذه الدعوة الضـالة حيث تحول بعض هؤلاء الدعاة الى المحافظة والاعتـدال وعرفوا أن قيم الأمم عميقة الجذور يستحيل أن تقصف أو تقتل تحت اى تهديد أو اغراء .

المعرفـة والعقيدة

كان من أخطر ما واجه الفكر العربى الاسلامى فى مواجهة التغريب والغزو الثقافى : تضبيب المصطلحات وتمويه المفاهيم ووضع الأغشية فى وجه الفوارق بين القيم حتى يظل السذج البسطاء على فهم مضلل ، ودون أن يعرفوا الفرق بين كلمة حق واضحة عميقة وكلمة باطل مموهـة لهـا بريق وخداع .

ومن أخطر هذه المصطلحات محاولة احلال كلمة « المعرفة » بدلا من كلمة « العقيدة » . فالمعرفة : هى الثقافة العـامة والعالمية « المشاعـة

للناس جميعا ، والتى تمثل التعريف بأنواع المعـــارف المنثورة فى الثقافات المتعددة وهـــذه تختلف اختـــلافا واضحا عن العقائد التى تتصل بأمـــة بذاتها والتى تتشكل من خلال تراث وقيم وتاريخ ودين ، وهى تختلف اختلافا واضحا فى كل أمة عن الأمة الأخرى ، وتختلف بين أمم الشرق والغرب ، وتختلف بين المسلمين وبين غير المسلمين ، وبين العرب والغرب .

ولقد تشكلت الأمم منذ قديم من خلال عقائدها وقيمها ولغاتها ومفاهيمها على نحو جعل لـــكل منها طابعها المختلف ، فاذا صنفنا هـــذه الخلافات وصلنا الى ثلاثة جذور هى :

* الأمم الشرقية ذات التراث الروحى الخالص التى تستمد مفاهيمها من آراء بوذا وكونفوشيوس والبرهمية وغيرها من العقائد التى تعلى شأن الوجدان والقلب والبصيرة .

* الأمم الغربية ذات التراث اليونانى الاغـــريقى الرومانى الهلينى الوثنى من آراء سقراط وارسطو وافلاطون وغيرها من العقائد التى تعلى من شأن عبادة القوة وعبادة الجسد وتأليه العقل .

* الأمة الاسلامية ومنها العرب ذات التراث التوحيـــدى الخالص القائم على منهج متكامل من العقل والبصيرة ، الرابط بين الروح والمـــادة والدنيا والآخرة ، والعلم والدين .

ومن هنا فقد كان من الضرورى لأمتنا وهى مفتوحة النوافذ للمعارف المختلفـــة والعقائد المختلفة أن تكون على وعى بالفـــوارق بين المعـــارف والعقـــائد .

المثل الأعلى

يختلف المثل الأعلى فى كل دين وعقيـــدة وفلسفة ، وقـــد صورت المسيحية المثل الأعلى فى القـــديس المتبتل الزاهـــد الوادع ، ويصـــور نيتشه « المثل الأعلى » فى السوبرمان الطاغية الأنانى المتغطرس المتجبر ، أما فى الاسلام فلا نجد المثل الأعلى فى الانسان بل نجـــده ممثلا فى الله سبحانه وتعالى ، وفيه تعالى تجتمع من الكمالات المطلقة اقصى مايستطيع

عقل بشرى أن يتصوره ، ويجد المسلمون فى الله سبحانه وتعالى المثل الأعلى فىصفاته وأسمائه الحسنى « ولله المثل الاعلى » « وله المثلالأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » .

ويرى الدكتور توفيق الطويل : انه اذا كانت الرحمة فى المسيحية هى رأس الكمالات والقوة عند نيتشه هى قمة الفضائل ، فقد جمع الله تعالى بين الرحمة والقوة فى تعادل وتوازن فهو قادر منتقم وهو غفور رحيم وصفات القوة والجبروت عنده لا تطغى على صفاتالرحمة ، ويقول: ان الله هو المثل الأعلى لكل من آمن بالاسلام فمن اهتدى بهدى الاسلام حق عليه الاقتداء بالله ، ومحاولة الاقتداء بصفاته الحسنى ، أو كما يقول الصوفية من المسلمين: « تحقيق الكمالاتالالهية على قدر الطاقة البشرية » ويتجلى المثل الأعلى الاسلامى فى مفهوم السلم والحرب بأجلى صورة فالله سبحانه وتعالى حرم البدء بالعدوان (ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتدين) ولكنه اكد رد العدوان (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) .

وهو سبحانه الذى دعا الى المصابرة والمرابطة : يا أيها الذين آمنوا اصبروا (اى غالبوا الأعداء بالصبر على المكاره فى الحرب) ورابطوا (اى اجتمعوا فى الثغور مترصدين للعدو متأهبين للغزو) ويقول (وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل) أى قلاع وحصون .

أما فى الغرب فقد أنكر الفلاسفة مفهوم المسيحية للمثل الأعلى ، ودعا نيتشه الى صورة أخرى للمثل الأعلى تتمثل فى الانسان الأعلى : وفى صورة الطاغية المستبد الأنانى الجبار الذى يعتصم بالظلم والقسوة والجبروت ويحتقر الصبر والحلم والدعة ، يطالب بالقضاء على المرضى والمحتاجين ، ويرد الدكتور توفيق الطويل المثل الأعلى الذى رسمه نيتشه الى نظرية التطور التى تأثر بها ، وأصر على تطبيق قانونها على الأخلاق، ودعا الى ترك المبادىء الخلقية والانصراف عنها ، حتى ينقرض الضعيف ويبقى الأقوى ، وكانت نتيجة التطبيق مروعة ، اذ سرعان ماتحولت به فضائل المسيحية من احسان وتضحية ، وأصبحت القسوة والظلم والبغى والعدوان ونحوها فضائل تتجلى فيمن أسماه (السوبرمان) وقد قسم

نيتشه الاخلاق الى اخلاق سادة واخلاق عبيد ، ووصف المسيحية بأنها اخلاق عبيد ، أما اخلاق السادة فتتمثل فى ارادة القوة واحترام الظلم والقسوة والمغامرة .

ويرى الدكتور الطويل أن مرد فلسفة نيتشه الى رجل مصاب فى جسمه وفى عقله وقد أمضى عمرا من حياته يعانى آلام مرض وراثى فى جسمه ، وفى متاعب صرع أصابه فى عقله مما دعاه الى التماس مثله الأعلى فى دنيا المغامرة واقتحام الأخطار .

ولكن نيتشه انتهى ، ومثله الأعلى لم ينته ، بل يكاد يكون المثل الأعلى للفكر الغربى فى العصر الحديث وبه يتمثل الاستعمار والنفوذ الأجنبى والصهيونية .

ويتصل المثل الأعلى الغربى بآراء ميكافيلى ، ومذهبه فى السياسة الذى اعتنقته أوربا حيث يرى أن السياسة لا ترتبط بالضمير ولا بالأخلاق.

منطق أرسطو

سبقت الفلسفة اليونانية الأديان الكبرى الثلاثة ثم كان لها تأثيرها الواضح على الديانة الموسوية ثم انتقل الى الديانة المسيحية . فلما ظهر الاسلام وتمت رسالته واكتمل منهجه ، وكانت دعوته الى التوحيد امتدادا لمفهوم الأديان المنزلة من عند الله قبل انحرافها ، بدا هذا التوحيد غريبا بالنسبة لمفاهيم الأديان التى كانت قد اختلطت فيها الفلسفات اليونانية والهندية والفارسية مع الأديان القديمة كالبوذية والمجوسية وغيرها ، ومن هنا بدت مفاهيم هذه الأديان متقاربة متشابهة ، وبدأ الاسلام منذ ذلك الوقت والى اليوم وكأنه يحمل مفاهيم مستقلة تختلف كل الاختلاف فى جوهرها عما وصلت اليه الأديان من تضارب وتحريف .

ولكن الفلسفة اليونانية لم تلبث أن اقتحمت مجال الفكر الاسلامى وأثرت فيه ، فقد استعان الاسلام بمنطق أرسطو فى فترة من أدق الفترات وفى مواجهة مهاجمات الأديان وصيالها ومساجلاتها . ومنه انطلق علم الكلام للرد على شبهات خصوم الاسلام بنفس منطقهم .

غير أن الفكر الاسلامى لم يلبث أن تحرر من منطق ارسطو ، وكشف أعلام هذا الفكر عن منطق للقرآن وكان لابن حزم والغزالى وابن تيمية آراء واضحة فى هذا المجال ، ومما ذكره الغزالى أن منهج الكلام مثل الدواء وهو مما يحتاجه الانسان فى فترة المرض .

أما منهج القرآن فهو مثل الماء والغذاء مما يحتاجه الانسان فى مختلف فترات حياته ، ثم جاء ابن تيمية فألف كتابه (الرد على المنطقيين) فأشار الى أن للقرآن منطقا خاصا يختلف عن منطق ارسطو . وقد كشف ابن تيمية فى منطق ارسطو عن خصائص العقلية اليونانية التى تباين الفكر الاسلامى وتختلف عنه فالعقلية اليونانية تقع تحت الطابع النظرى فى التفكير وتعلى من شأن العلوم النظرية وتراها أشرف من العلوم العملية وتهتم بالجانب الصورى من المنطق دون المادى وتجعل القياس أكثر أنواع الاستدلالات يقينا ، بينما يقرر الاسلام أوضاع الحياة العلمية ويعتمد على التجربة . ويقول الدكتور النشار : ان العلوم الاسلامية نشأت تبعا لحاجات الحياة بل ان اهتمام الفكر الاسلامى بالحاجات الانسانية قد دعا الفقهاء فى الأحكام الى العدول عن قياس الغائب على الشاهد الى الاستحسان .

ويقول العز بن عبد السلام أن الله شرع لعباده السعى فى تحصيل مصالح عاجلة وآجلة تجمع كل قاعدة منها علة واحدة ثم استثنى منها مافى ملابساته مشقة شديدة أو مفسدة تربو على تلك المصالح ، ويعبر عن ذلك بما يخالف القياس وذلك جائز فى العبادات والمعاملات وسائر التصرفات.

ومن هنا فقد ناصر ابن تيمية المنطق المادى وانتقد المنطق الصورى، وهاجم أفكار الماهيات والكليات وسائر التصورات التى لم تستند الى وجود غيبى وبذلك يعد ابن تيمية رائدا لكل الاتجاهات الحديثة فى نقد منطق أرسطو من أرجانون فرنسيس باكون الى المنطقية الوضعية لدى ستينج وكارناب وغيرهما كما ترك بصمات واضحة فى المنطق المادى لدى بيكون وميل المنطق السيكولوجى لدى كوزان وقد هاجم ابن تيمية الفلاسفة الذينتشيعوا لمنطق أرسطو أمثال الغزالى وابنسينا وابن رشد.

وكان منهجه الواضح هو الكشف عن أن هناك مباينة واضحة بين الفكر الاسلامى والفكر اليونانى فى اعمق أعماقه وفى قضاياه الرئيسية .

ويرى ابن تيمية أن التسليم بمنطق اليونان يقوض أساس الحضارة الاسلامية اذ سينتج عن ذلك أحكام عامة تهدم ما تبناه المسلمون من أحكام ولا سيما فى نطاق الالهيات . « فكانت عبقرية ابن تيمية لا فى نقد المنطق الارسطاليسى وانما فى استخلاص منطق بعيد عن خصائص العقلية الاسلامية ويجمل طابع الحضارة فيها » .

المسرح والفكر الاسلامى

يتردد القول كثيرا حول المسرح والقصة فى الفكر الاسلامى والأدب العربى .

لماذا لم يظهر المسرح فى الفكر الاسلامى ، والواقع أن ذلك يتفق تماما مع خاصية النفس العربية الاسلامية بطبيعة تركيبها ومن خلال مزاجها النفسى الذى اتصل بمفهوم الاسلام والقائم على التوحيد فقد تشكلت هذه النفس مطبوعة على الصراحة والوضوح ، وقد فرض عليها ذلك ايمانها بالله ، وجوها الصحراوى الواضح الذى يمتلىء بالضوء منذ الصباح الباكر فاذا أشرقت الشمس عم الكون كله ضياء ونور .

فالنفس العربية واضحة كل الوضوح ، صريحة كل الصراحة ، لا تحتاج الى الرموز ولا الى الايماءات ولا تجد هنالك مايحول دون أن تقول الكلمة ، وقد أعطاها فكرها الاسلامى هذه القوة وهذا الوضوح ، فضلا عن بساطة العقيدة الاسلامية التى لا تحتاج الى مسرحية طويلة لتشرحها أو تجلى فى نفوس الناس وعقولهم فلسفتها .

وبالاضافة الى ذلك فقد شكل القرآن منهج البلاغة العربية فأقامها على الوضوح والايجاز ، حتى عد أبلغ الكلام هو السهل الممتنع . وقال النبى عن نفسه . ان الحكمة قد اختصرت له اختصارا . وقالت السيدة عائشة رضى الله عنها : ان النبى لم يكن يسرد كسردكم هذا ولكنها كلمات موجزة .

كل هذه العوامل كانت بعيدة الأثر فى انتفاء الملاحم والأساطير والمسرح عن الأدب العربى والفكر الاسلامى ، فقد كانت هذه الملاحم والأساطير والمسرح نتيجة لطبيعة الأمم التى عرفت هذه الفنون ، فقد اتخذتها وسيلة للافصاح عن فكرها حيث عاشت فى بلاد تميزت بالليل الطويل والظلام والغيوم والسحب ، وعرفت بالجبال العالية والبحار العميقة ، وما يتصل بذلك من مخاوف كانت تملأ قلوب سكان تلك البلاد. ومن هنا نشأت الأساطير والقصص الخرافية ، وكانت الفلسفة الوثنية تحتاج الى تفسير وايضاح ، ومن هنا كان الرمز فى التعبير وكان المسرح للتوضيح فكيف يوجد هذا فى بيئة تختلف كل الاختلاف ، ولا تحتاج الى مثل هذه الوسائل لايضاح فكرها أو تبليغ كلمتها .

ولقد رأى العرب الشعر اليونانى والقصة اليونانية ابان حركة الترجمة التلقائية فأعرضوا عنها لأنها كانت مليئة بالوثنيات والأساطير . وكانت متعارضة مع ذاتيتهم وعقائدهم ، أما ترجمتها اليوم فان ذلك لم يكن بارادة الفكر الاسلامى ، ولكن انما فرض عليه . ومع ذلك لم يسغها ولم يتقبلها .

القرآن والأدب

جرت محاولات فى دراسات الأدب العربى خلال الثلاثينات ، كانت تستهدف وضع القرآن الكريم موضع النقد وتعتبره اثرا ادبيا يمكن ان يجرى عليه مايجرى على اى قصيدة شعرية أو قطعة بلاغية .

ولقد أخطأت هذه الدعوة طريقها ، لأنها اعتبرت القرآن كتابا موضوعا ، كتبه محمد ، بينما القرآن ليس كذلك ، فهو من آى الله المنزلة من السماء وليس من صياغة البشر ، ولذلك فان وضعه موضع النقد ليس بالأمر الصحيح علميا حيث تناقش آثار الأدباء والكتاب .

ولقد أجرى الغربيون نفس المراجعات على التوراة والكتب الدينية، غير أنهم اكدوا بطريقة حاسمة قبل أن يقوموا بهذا العمل ان هذه الكتب ليست سماوية ولا منزلة ، وانها محررة بأقلام بشر ، وقد بلغوا فى ذلك مبلغا بعيدا من التحقيق فذكروا اسماء الكتاب الذين شاركوا فى

كتابة هذه الـكتب ، ومن ثم فقـد اعتبروها تراثا ادبيا قابلا للمراجعـة والنظر واخضعوها لقواعد النقد الأدبى .

ولـكن الذين حاولوا مثل هذه المحـاولة فى الأدب العربى كانوا يعرفون أن القرآن نص سـماوى موثق ولا يأتيـه البـاطل من بين يديه ولا خلفه ، وانه ظل محفوظا دون أن يطرأ عليه ما طرأ على الكتب الدينية الأخرى ولذلك فقد كانت محاولتهم اخضـاع القرآن لمثل ما اخضعت له الـكتب الأخرى فى الغرب ، كان جراة ومجازفة وخروجا على منـاهج البحث العلمى نفسه .

غير أن النظر فى الدوافع والخلفيات يكشف عن أن هـذه المحاولة لم تكن خالصة لوجـه البحث العلمى ولـكنها كانت ضمن مخطط تغريبى يرمى الى اخراج شباب المسلمين الذين يتعلمون فى الجامعات من قدسية النص القرآنى ، وخلق احساس بالاستهانة به والنظر اليه على أنه كتاب ادبى خالص ، وقـد جاء ذلك فى غيبة التربيـة الاسلامية الصحيحة التى كان الاستعمار قد رفعها من مناهج التعليم حتى لا يبقى فى نفوس الشباب أى قـدر من الاحساس بأصـالة القرآن وسلامته وانه منزل من عند الله .

هزيمـة المعتزلة

يردد كثير من الباحثين الغربيين ومن تابعهم من كتاب يكتبون باللغة العربية هذه العبارة « هزيمة المعتزلة » يريدون بها القول بأن هذه الهزيمة انما كانت عاملا من عوامل الضعف الذى حل بالمجتمع الاسلامى .

وهؤلاء الباحثون هم اما مغرضون يعرفون الحقيقة ويتجاهلونها فى سبيل تمويه الأمور وغش القراء وتضليلهم عن حقيقة تاريخ الاسلام وفكره .

واما هم مع الأسف لم يستوعبوا حقائق الاسلام ولم يفهموه فهمـا صحيحا ، وربما فهموه من داخل دائرة الفكر الغربى الذى كان دائما سيىء الرأى فى الاسلام وفى الأديان عامة .

والحقيقة ان هزيمة المعتزلة كانت نتيجة طبيعية لاختلاف هذه الدعوة مع جوهر الاسلام ومع طبيعة الفكر الاسلامى ومنهج المعرفة فيه ، هـذا

المنهج الذى يقوم على جماع العقل والوجدان ، لقد كان الاعتزال اساسا محاولة أصيلة لمواجهة المذاهب الفلسفية التى كانت تحتمى وراءها الأديان المعارضة للاسلام وقد ادى دوره فى هذا المجال على احسن وجه ، وواجه علماء الكلام فى الأديان والفلسفات الأخرى فى قوة وادال منهم وحقق كثيرا من النتائج وأدخل مئات من الوثنيين فى الاسلام .

غير أن المعتزلة لم يلبثوا أن بلغوا درجة من الغلو فى تأكيد موقفهم وفكرتهم ، وبذلك أعلوا شأن العقل وبلغوا به مبلغا خطيرا ، ولما كان المسلمون يؤمنون بالغيب والشهادة ، ويؤمنون بالوحى والعقل ، ويتكامل ايمانهم هذا ويتشكل فى وحدة واحدة فان اعلاء شأن العقل وحده كان خروجا على مفهوم الاسلام ، وهو خروج عرض المعتزلة للهزيمة وعرض فكرهم للانهيار تحت أضواء الاسلام الصحيح ، ومن هنا جاءت تعديلات وتصحيحات قام بها الامام الأشعرى ومدرسة الامام أحمد بن حنبل اذ كان لابد أن يعود الاسلام الى اصوله، وان يتحرر مما اصابه عن طريق الفلسفة اليونانية من انحراف .

ولذلك كانت هزيمة المعتزلة نصرا لأصالة الاسلام وتعديلا لمسار فكره وربما كان حزن بعض الغربيين على هزيمة المعتزلة راجعا الى ما حاولوا أن يلصقوه بها من أنها كانت منطلق الفكر اليونانى الاغريقى وانها لو حققت نجاحا مطردا لقضى ذلك على وسطية الاسلام وتكامله بل وربما قضى على ارفع مفاهيم الاسلام واصلها الأصيل « التوحيد » ولذلك فهم يتمسحون بالمعتزلة ويعلون من شأنهم .

المعتزلة مالهم وما عليهم

أنكر عليهم علماء أهل السنة مافى مذهبهم من الأخطاء بالبيان والحجج. الا أن غلوهم فى التمسك بالعقليات فى الأمور التى لا مجال للعقل فيها من المغيبات ذلك الغلو جعلهم يسيئون التصرف فأغروا الخلفاء بحمل الناس بالقوة عن اعتناق مذهبهم والتبرؤ من كل اعتقاد يخالف مايقولون به وقد شغل السلطات الحاكمة بالقبض على العلماء المخالفين وايداعهم السجون وابعادهم عن بلادهم واهلهم وضربوهم بالسياط حتى اضطر كثير

منهم تحت التهديد والاكراه ان ينطق بخـــلاف مايعتقد وثبت الامام أحمـــد رحمه الله على قوله فأصابه من ذلك بلاء عظيم وقهر وبقى تحت العـــذاب طيلة اواخر عصر المأمون حتى عهد المعتصم والواثق الى ان اطلقه المتوكل الذى انتصر لله ومنع التعرض له بالعودة لمذهب أهل السنة ورفع الأصار عنه وفشل أهل الابتداع فى القضاء على المذهب السنى .

ولم يزل عامة النـــاس ينظرون بنوع من الاستنكار والاستنكاف الى مذهب الاعتزال وتجن اهل العلم لـــا وقع فيه رؤساؤه من الاساءة ولـــا تضمنه المذهب نفسه من الاعتقادات المخالفة لـــكتاب الله وسنة رسوله.

وكان الحسن الأشعرى من المعتزلة وخرج عليهم ورد على كثير مما ذهبوا اليه بالحجة والبرهان ولم يزل علماء السنة بعد ذلك يردون عليهم ويتربصون ما أخطأوا فيه .

ومن أشهر من رد عليهم ابن تيمية فى كتابه المشهور « منهاج السنة النبوية » وهو الذى اختصره الذهبى فى كتابه المنتقى من منهاج الاعتدال .

وحـــدة الوجود

وحدة الوجود مذهب دخيل على الفكر الاسلامى والثقافة العربية ، وهو من المذاهب القديمة المرتبطة بالوثنية والمجوسية وفلسفات الاغريق والهنود والفرس التى تحرر منها الاسلام بالتوحيد وفصل بينه وبينها .

وتعنى وحدة الوجود تأليـــه المخلوقات واعتبار الـــكون هو الله ، وقد أثارت هذه الدعوة موجـــة من الصراع الفكرى العنيف وشجبها الفكر الاسلامى على لسان كثير من علماء الـــكلام والمحدثين والمفسرين والفقهاء والصوفيين السنيين ، على اعتبار أنها دعوى تتناقض مع جوهر العقيـــدة الاسلامية تناقضا مطلقا بحيث لا يمكن التوفيق بينها وبين عقيدة التوحيد بأى وجه من الوجوه .

وقد سمى آسين بلاسيوس فى كتابه (ابن‌عربى) دعاة هذه الفكرة بالاسلام المتنصر Ellelam eristianiza وقال انها جاءت من المذاهب الباطنية.

وهذا هو سر اهتمام المستشرقين والمبشرين بالدعاة الى هذه الفكرة كابن عربى والحلاج ، وترويج كتاباتهم رغبة فى احداث شبهات عميقة تبلبل عقيدة البسطاء .

ومفهوم الاسلام فى مواجهة وحدة الوجود هو أن الموجود اثنان :

واجب الوجود ، وممكن الوجود .

وممكن الوجود هو هذهالكائنات التىندركها بحواسنا الخمس مباشرة

وواجب الوجود هو صانعها الواحد الفرد الصمد .

كما انكر الاسلام عقيدة الاتحاد : أى حلول خالق فى المخلوق ، أو استغراق المخلوق فى الخالق ، وهو أى الاسلام يميز طبيعة كل منهما ولذا انكر الاسلام فكرة الحلول .

والاسلام لا يقبل وحدة الوجود لأن فيها انتقالا من عقيدته الأصلية (لا اله الا الله) الى مايقوله بعض الصوفية (لا موجود فى الحقيقة الا الله) وسياق كل منهما ينتهى الى نتائج مختلفة أشد الاختلاف لنتائج الأخرى .

والتصوف السنى فى منهجه يجب أن يبدأ من القرآن وينتهى اليه .

وحدة الحضارة

هناك دعوات ارتبطت بالاستعمار والنفوذ الأجنبى اطلقت عليها عبارة وحدة الحضارة ، وحدة الثقافة العالمية ، والحكومة العالمية .

وعبارة وحدة الثقافة العالمية : عبارة خلابة المظهر براقة الصورة ولكنها تخفى فى أعماقها التعصب والاحتقار للثقافات الانسانية ومعناها فى الواقع سيادة الثقافة الغربية وحضارتها وتشييدها على ثقافات الأمم وحضاراتها ولا سيما الثقافة العربية والفكر الاسلامى ، هذه التى سادت افريقيا ، وآسيا ، والتى هى طابع هذه المنطقة التى ماتزال مجال النفوذ الاستعمارى للغرب وهى تسمى هذه الدعوة : دعوة التمدن والتحضير للأمم المتخلفة ، رسالة الرجل الأبيض الى العالم الملون ، والهدف الكامن

فى اعماق هذه الدعوة البارعة الملمس والمظهر ، وهو سوق الناس جميعا الى الولاء والعبودية للسيادة الغربية فى الفكر الغربى واحلال قيم الفكر الغربى ومفاهيمه محل القيم الفكرية الثقافية التى يدين بها الشرق والعالم الاسلامى والعرب وافريقيــا ، وهى قيم ومفاهيم تختلف فى جوهرها عن قيم الفكر الغربى ومفاهيمه .

ومن الحق أن يقال أن هنـــاك دعوات متعددة للحكومة العالمية او الوحدة العالمية . فالماركسية تدعو الى وحـــدة قوامها الفكر الماركسى ، والامبريالية الغربية تدعو الى وحدة تقوم على قيمها ومفاهيمها ، وتحمل الصهيونية لواء دعوة الى وحدة تخضع العالم كله للفكر الصهيونى ، وكل من هذه الوحدات تتصارع وتحاول أن تفرض ايديولوجيتها وتعمل كل منها لتضع العالم تحت سلطانها ، والحضـــارة الاسلامية العربيـــة لها دعوة عريضة الى الوحدة الانسانية ، تحمل انقى المثل وانبل المبادىء ولاتتطلع من وراء هذه الوحدة الى السيادة أو النفوذ الاستراتيجى ، ويرى الدكتور غوليلموترير والـــكاتب الايطالى فى كتابه (وحدة العالم) : ان الوحـــدة لاتحقق بتغلب أمة على أمة أو جنس على جنس ، ولا يمكن أن يكون فرد واحد سيد العالم. وكذلك الوحدة لنتكون بتوحيد اللغات فهذا غير ممكن.

ويتساءل هنريك رالف فى كتابه (الانسانية والوطنية)

Hamante et Patria

هل يجـــدر بالأمم الضعيفة المهضـــومة الحقوق أن تأخـــذ بالنزعة الانسانية وتضحى بالنزعة الوطنية ، وهل تفكر فى سعادة الانسانية قبل أن تفكر فى سعادتها .

ويرى هنريك رالف أن النزعة الانسانية يجب الا تعتنقهـــا الا الأمم القوية ، أما الأمم الضعيفة فان لم تتمسك بوطنيتها اعتدت عليهـــا الأمم القوية . ويعتقد هنريك رالف أن انصار السياسة الانسانية هم طائفـــة

المنافقين يروجون لها دفاعا عن مصالحهم الخالصة ورغبة فى الاستمرار على بسط نفوذهم وسيادتهم على الأمم المهضومة الحقوق .

ويرى كثير من الباحثين : أن محاولة الغرب فى توحيد البشر انما يعنى صبغها بالصبغة الأوربية وطبعهم بطابعها . وما دام الغرب يؤمن أن ليس الانسان فى مجموعه سيد الخليقة وانما الانسان الأبيض وحده ، هذا الانسان الأبيض الذى ندب لتطهير الأرض وحماية الحضارة ، فانه لا سبيل الى هذه الوحدة ، كذلك دعوة الصهيونية الى امتياز شعب الله المختار وما يرددونه من رسالة انتدبوا لها ، كل هذا من شأنه أن يحول دون وحدة الانسانية التى لاتتجمع الا وفق مفهوم الاسلام وحده : « لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى ، وان الأمم شعوبها وقبائلها تستطيع أن تتعارف وتلتقى على الأخوة والمحبة والمساواة » .

الوسطية

مفهوم الوسطية يرتبط الى حد كبير بالفكر الاسلامى اذا تصور أن الفكر الشرقى (البوذية الكنفشوسية والهندوكية) بما يوصف بالروحية الصرفة والفكر الغربى (المادية والماركسية والوجودية) بما يوصف بالمادية الصرفة ، فى هذا يوصف الفكر الاسلامى بالوسطية الجامعة بين الروح والمادة .

وقد تنبه الى هذا المعنى كثير من الباحثين الذين يرون أن الخلاف بين أيدلوجية الفكر الغربى والفكر الماركسى لا يحلها الا الفكر الاسلامى فحيث الماركسية تؤله المجتمع والغربية تؤله الفرد، يؤكد الاسلام الرابطة الجامعة المتوازنة بين المجتمع والفرد ، وحيث يقف الغرب عند نزعة الحرية وتقف الماركسية عند نزعة العدل يجمع الاسلام بينهما فى مزيج يعطى زبدتهما، ومن هنا يبدو ما يسمى وسيطية الاسلام بين الروح والمادة من ناحية وبين الفردية والجماعية من ناحية أخرى ، ويرى العلامة السلجوقى : أن اليهودية انحرفت الى الفردية الطاغية ، وأكدت المسيحية على الروحية

الصرفة ثم جاء الاسلام وسطا جعل الفرد متفـاعلا مع المجتمع ، وجعل المجتمع متفاعلا مع الفرد على قاعدة التوازن . وتبرز وسطية الاسـلام ليس فقط فى تقريب الفرد من المجتمع وليست فى تقريب المجتمع من الفرد وانما فى هـذا السلوك الخلقى لأن الوسـط بين التفريط والافـراط هو فضيلة وهو خلق .

ويقول المستر جب : اخذ المسلمون يسلكون سبيلا وسطا فيـأخذون خير ما فى الشرق وخير مافى الغرب ، وسيؤدى هذا الى ظهور المثل العليا الجديدة للثقافة العربية .

الباب الخامس

الدعوات والمذاهب

البهائية	الفرعونية
التبشير	القومية
الصهيونية	المادية
الطائفية	الماسونية
العلمانية	الهدامة (المذاهب الهدامة)
العامية	الوثنية
العنصرية	توحيد الأديان
الفينيقية	فرقة النصيرية



البهائيـــة

خدع كثير من البـــاحثين الغربيين وربما قصد بعضهم الى اعتبـــار البهائية دعوة من دعوات الاصلاح والتجديد الاســـلامى توضع فى مجال التقدير والاعتبار فى موازنة دعوة جمال الدين الافغانى ومحمد عبده ،وقد تابعهم بعض الباحثين المسلمين فى هذا الرأى ، بينما تجمع المصادر المختلفة على أن البهائية حركة مضادة للفكر الاسلامى ومحاولة تغريبية للقضاء على مفاهيم الاصلاح على النحو المستمد من الفكر الاسلامى وقوامه التوحيد ، واحلال مفاهيم أخرى مستمدة من الدعوات الباطنية والمجوسية القديمة. وآية ذلك اهتمام الاستعمار بها وتشجيعها ورعاية المبشرين والمستشرقين ودعاة التغريب بها فى نفس الوقت الذى تقاوم فيه هذه المؤسسات جميعها كل دعوة اصلاحية حقيقية وتخنقها فى المهد أو تجهضها قبل ان تولد .

وتبدو دعوة البهائية واضحة فى انها محاولة لخلق جو من التضارب الدائم بين الأمم وذلك بالغاء الاديان القائمة واحلال دين جديد يوحد بين الأمم وترك العصبيات المذهبية والجنسية والسياسية .

وقـــد أحاط النفوذ الاستعمارى هـــذه الدعوة بالتشجيع والتقـــدير وفسحت لها الصحف واهتم بها الكتاب وركزت عليها الاضواء فىنفس الوقت الذى كانت الصهيونية تحاول ان تسيطر فى فلســـطين وغزوات التبشير تجتاح العـــالم الاسلامى ومصر على الخصوص ، وقـــد تردد أن هذه الدعوة انما قصد بها الى تركيز النفوذ الاستعمارى فى البـــلاد التى ظهرت فيها (ايران) وانها حاولت أن تستمد مفاهيمها من موروثات قديمة باطنيـــة ومجوسية ولـــكن براعـــة النفوذ الاستعمارى كانت قادرة على الاعلان بها واذاعتها والاستفادة بها فى مختلف أنحاء العالم الاسلامىلاثارة الشكوك فى النفوس وكسب مزيد من الذين تزعزت عقائدهم .

وحاول كتاب مصر فى العشرينات والثلاثينات الدعوة لها والقولبأنها تقوم على أساس وحدة الأديان وانها جماع المسيحية واليهودية والاسلام ،

وانها تستهدف توحيد لغات العالم ومساواة الرجل بالمرأة ونبذ العصبيات واتحاد الشرق والغرب ، وذلك بزوال الأديان ، ولم تفلح كل وسائل الدعاية فى أكبر الصحف — اذ ذاك — وبأكبر الاقلام فى كسب واحد من المسلمين لهذه الدعوة بل ماتت الدعوة فى مهدها وانكشفت معارضتها للذوق والضمير والروح الاسلامى .

وقد أولت بريطانيا داعية البهاية اهتمامها ومنحته الحكومة البريطانية لقب سير واحتفل به هربرت صمويل المندوب السامى البريطانى اليهودى الأصل فى القدس ثم كشفت الأيام من بعد تلك الرابطة الأكيدة بين البهائية والصهيونية عندما عقد المؤتمر العالمى للبهائية فى اسرائيل عام ١٩٦٨ بعد وفاة زعيمها عباس البهاء بخمسين عاما وتكشفت تلك العلاقة فى ان دعوة البهائية الى ازالة جميع الاديان اليهودية والمسيحية والاسلام لم تكن تهدف فى الحق الا الى ازالة الاسلام .

وقد حاول البهائيون التشكيك فى آيات القرآن وتأويلها بما يؤيد دعواهم وانكروا عالمية اللغة العربية وكونها اللغة المشتركة — لغة الصلاة والعلوم الاسلامية فى العالم الاسلامى — ودعوا الى ايجاد لغة اخرى تكون لغة الأمم وذلك بالاضافة الى انكار اعجاز القرآن والمعجزات المحمدية .

ويجمع الباحثون المنصفون على ان البهائية بعث جديد للباطنية التى وضعت تعاليمها الأولى على أساس محو الاسلام وازالة سلطانه ، وهم يعدون مؤسس البهائية رسول الله الأعظم ولهم كتاب يسمى الأقدس يرتل بطريقة القرآن .

ولم تتوقف الدعوة البهائية منذ ذلك الوقت بل ظلت تتجدد سنوات بعد سنوات وفى كل مرة تجد من المسلمين من يكشف عن زيفها . يقول فريد وجدى : ان دعوة البهائية الى اتحاد الأديان قد سبق اليها الاسلام وأسسه على اقوى الأصول فقرر أن اصل الأديان واحد ، فوحدة الدين هى الأساس الذى يقوم عليه الاسلام وان طموح البهائيين لأن يكون دينا عاما يقضى بالعجب لأنها ليست بدين سماوى وليس فيها من الأصول والمبادىء ما يلفت العقول اليها بعد أن بلغت فى عرض نفسها على الأمم

وان البشرية ليست فى حاجة الى دين جديد بعد الاسلام الذى استكمل شرائط الدين العام ، وأين هى من الاسلام الذى تبنى أمما قوية ، ومدنيات فاضلة فى خلال عصور متعاقبة ، ولا يزال على مثل حيويته الأولى حتى ليتوقع فلاسفة كثيرون ومنهم برنارد شو أن مبادىء الاسلام توشك أن تعم العالم أجمع ، ويقوم الاسلام على أصلين ضمنت لهما التعميم والخلود . موافقته للفطرة واعتماده على العقل واعتماده على العقل والعلم فأين البهائية من هذا الموقف العلمى الحق ، وهى تقوم على أصلين أحدهما عتيق غامض قال به أفراد من محبى السبح فى الخيالات وهى تصوير ذات الله بصور المخلوقين ، وثانيهما وهو صرف الألفاظ عن ظواهرها وهو مجال فسيح للظنون والأوهام والخبط .

التبشـــير

للاستعمار مؤسسات أساسية ضخمة تقوم بالعمل على تثبيت وجوده وتأكيد بقائه : أهمها التبشير والاستشراق ، وهذه المؤسسات تحمل دعوات مختلفة الى التغريب والشعوبية ولكنها لا تظهرها بأسمائها وانما تخفيها وراء أسماء كبيرة براقة أغلبها يحتجب تحت أسماء ثقافية أو حضارية .

وأقوى القوى العاملة هى « المدرسة » الأجنبيـة فى مجال التعليم والتربية وتكوين النشء والأجيال الجـديدة والصـحيفة فى مجال الثقافة والقراءة . وقد أكدت تقارير المبشرين المختلفـة على الدور الخطير الذى قامت به المدرسة والصحيفة وما تزال تقوم به فى سـبيل تحقـيق غاية أساسية :

(أولا) تمزيق وحدة العرب والمسلمين والحيلولة دون التئامها .

(ثانيا) تدمير القيم الأساسية العربية والاسلامية الفكرية والحيلولة دون سيطرتها ومحاولة فرض مفاهيم أخرى « غربية » المصدر على الثقافة والتربية العربية والفكر الاسلامى رغبة فى القضاء على :

١ — الرابطة بين الدين والمجتمع .

٢ — أخلاقية التعليم والتربية والمجتمع والسياسة .

٣ — اذاعة اسلوب من التحرير فى مجال الفكر يصل الى الالحاد واسلوب من التحرر فى مجال الحياة يصل الى الاباحة .

وللتبشير دور هام فى تحقيق هذا الهدف الأساسى من اهداف الاستعمار وهو اخراج المسلمين والعرب من القيم التى تدفعهم الى الحرية ومقاومة النفوذ الأجنبى وعدم الانصهار فى الأممية او العالمية واقامة مجتمعهم الخالص المستمد من قيمهم وتاريخهم ولغتهم وأديانهم . فاذا استطاع الاستعمار اذابة المسلمين والعرب فى بوتقة العالمية وصهرهم فى الثقافة العامة واخراجهم من ثقافتهم وقيمهم لم يعد هنالك مجال لتشكلهم بصورة خاصة ، بصورة الذات والشخصية الخاصة ، عندئذ تصبح الحضارة الغربية وقد حققت اكبر انتصاراتها بأن احالت المسلمين والعرب الى عبيد فى القطيع الذى يسود فيه الجنس الأبيض الغربى صانع الحضارة .

وقد اجمعت خطط المبشرين ودراساتهم وابحاث مؤتمراتهم على أن الهدف من التشير هو : انشاء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الفكر الاسلامى وابعاد العناصر التى تمثل الاسلام عن مراكز التوجيه ، فاذا لم تنجح دعوة التبشير فى ادخال المسلمين فى دين جديد فلا اقل من أن تكون قد أخرجته من الاسلام .

وقد كانت خطة التبشير شاملة وموحدة وذات مراحل وحلقات وقد اشرف عليها رجال ذوو خبرة وثقافة واتصال كامل بمخططات الاستعمار وهى تضم وزارات المستعمرات والخارجية فى الدول المستعمرة للعالم الاسلامى ، ومؤسسات التبشير الكبرى بفروعها المختلفة وارسالياتها ومعاهدها فى العالم الاسلامى بالاضافة الى جماعة المستشرقين المنبثين فى مختلف الجامعات الأوربية والمتاحف والمكتبات العامة والمعاهد المعنية بالدراسات الشرقية والغربية ، وقد تأكد مدى التناسق بين هذه الهيئات من التقارير التى نشرتها هذه الهيئات والتى تكشف عن أن وزارات المستعمرات تستخدم المبشرين فى العمل داخل البلاد العربية والاسلامية ، وتؤكد اهمية عملها وخطورة دورهم فى أن يكونوا عنوانا لها وأداة لتحويل الأفكار على النحو الذى تريد ، وتبدو هذه الأهمية فى اشراف الساسة الكبار على مؤتمرات المبشرين امثال لورد بلفور الذى أعلن اهمية مؤسسات التبشير فى خدمة اهداف السياسة وذلك فى قوله : « والمبشرون

هم فى نظر الاستعمار عيونه التى تقوم باطلاع الدول الغربية بالنواحى التى يهمهم معرفتها من عقائد المسلمين وآدابهم والثقافات التى يتـأثرون بهـا » ويتجلى ذلك حين نرى أن مؤتمر التبشير فى أدنبرج سنة ١٩١٠ يعنى بدراسة قرار حول اليـه من المؤتمر الاستعماري المنعقد فى برلين فى نفس العام : يقول هـذا القرار : « ان ارتقاء المسلمين يتهـدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم لذلك فان المؤتمر الاستعمارى ينصح للحكومة بزيادة الاشراف والمراقبة على ادوار هذه الحركة ويطلب المؤتمر الاستعمارى ممن فى أيديهم زمام المستعمرات ان يقاوموا كل عمل من شـأنه توسيع نطاق الاسلام وازالة العراقيل عن طريق انتشار التبشير » .

وتتمثل خطة التبشـير التى رسمـها (شاتليه ، زويمر ، ماسنيون وغيرهم) فى أن يكون عمل التبشير مبنيا على قواعد التربيـة العقليـة و « التأثير على عقول المسلمين وقلوبهم » فان عجزت ارساليات التبشير عن زحزحة العقيدة الاسلامية فى نفوس معتنقيها فانها تستطيع أن تحقق هـدفها من هدم الفكرة الاسلامية ببث الأفكار التى تتسرب مع اللغـات الأوربية ، وذلك عن طريق نشر اللغات الانجليزية والألمـانية والهولندية والفرنسية مما يمهد الى ادخال الأفكار الغربيـة الهادمة للفكر الاسلامى عن طريق هذه اللغات ، ومن هنا تسقط الأوضاع والخصائص الاجتماعية الاسلامية وتحل بدلا منها الخصائص الغربية .

ويرى زويمر شيخ المبشرين « أن القضاء على الاسـلام فى مدارس المسلمين هو اكبر واسطة للتبشير ، وأن المسلم لا يكون مسيحيا مطلقـا ولـكن الغاية هي اخراج المسلم من الاسـلام فقط ليكون اما ملحـدا أو مضطربا فى دينـه ، وعنـدها لايكون مسلما وهـذه أسمى الغـايات الاستعمارية » .

ومن مناهج التبشير وانظمته تلك القاعدة التى تقول ان جميع الوسائل تستغل فى سبيل التبشير حتى أعمال البر ، وأن التطبيب والتعليم من وسائل المبشرين ويقول مؤلف كتاب (طرق العمل التبشيرى فى المسلمين) : لنجعل هؤلاء القوم المسلمين يقتنعـدون فى الدرجة الأولى بأننـا نحبهم، فنكون قـد تعلمنا أن نصل الى قلوبهم ، وعلى المبشر أن يحترم فى الظاهر

جميع العادات الشرقية والاسلامية حتى يستطيع أن يتوصل الى بث ارادته بين من يصغى اليها ، كما تشمل هذه الأساليب دراسة اللهجات العامية واصطلاحاتها نظريا وعمليا ، ومخاطبة عوام المسلمين على قدر عقولهم ، وان تلقى الخطب بأصوات رخيمة وبفصاحة ، وأن يخطب المبشر وهو جالس ليكون تأثيره اشد على السامعين وان يكون خبيرا بالنفس الشرقية وأن يستعمل التشبيه والتمثيل اكثر مما يستعمل القواعد المنطقية، وأن يكسب ثقة الشباب بالحديث فى موضوعات اجتماعية وخلقية وتاريخية ومنها يستطرد الى مباحث الدين ، وعلى المبشر أن يحاول كسب القلوب بتظاهره بالميل الى مطامح المسلمين من الاستقلال السياسى والاجتماعى .

ثم يرمى التخطيط الى مرحلة اكثر اهمية حين يدعو الى ان يكون تبشير المسلمين بواسطة رسول من أنفسهم ، وأنه يتحتم على طبيب الارسالية الا ينسى ولا لحظة واحدة إنه مبشر قبل كل شىء وطبيب بعد ذلك ، وعليه استغلال فرص المرض والسيطرة على المرضى وانتهاز فرصة الضعف والحاجة وعدم القدرة على التفهم والاقتناع والدس للعقل الباطن بالايحاء .

وفى طريق العمل استطاع التبشير ان يكون فى العالم الاسلامى دعاة « من انفسهم » ركز الاستعمار على أسمائهم واكسبها شهرة ولمعانا ودفع بها فى خضم الثقافة والصحافة وآزرها حتى تصدرت وأصبحت قوة لها وزنها حيث تولت كبريات المناصب فى الجامعات والأعمال الرسمية .

ويقوم عمل التبشير فى مجال التعليم على فرض ثقافة الغربوتاريخه وبطولاته ولغته واقصاء لغة العرب والمسلمين وتاريخهم واثارة الشبهات حولها وانتقاصها وفى مجال الثقافة يعمد الى اثارة الغمزات والاتهامات الى الشريعة الإسلامية واللغة العربية والحديث النبوى ، على نحو يفتح باب الشكوك والاتهامات وهو يجرى فى ذلك على مخطط مدروس وأسلوب دقيق فهو لا يلبث أن يثير قضية جزئية ، حتى يتوقف ، ليبدأ فى اثارة قضية جزئية اخرى ، بحيث لايشعر القارىء أو الباحث الى ان هناك ترابطا بين هذه الاشارات وبعضها ، اعتمادا على انه على المدى

الطويل يستطيع أن يكسب من وراء ذلك خصماً للفكر الاسلامى وصديقا للتبشير والفكر الغربى يكون عونا على أبناء وطنه ودينه وتاريخه .

الصهيونيـــــة

الصهيونية حركة سياسية يقوم بهـا اليهود من أجل السيطرة على مقدرات الإمم والشعوب ، وقـد ظهرت فى صور شتى وكتابات ودعوات متعددة منذ سقطت الاندلس فى إيدى الفرنجة الذين أخرجوا منها العـرب والمسلمين ، وكان اليهود قـد عاشوا فى حمى الأمة الاسـلامية فى أمن ورخاء فلما تشتتوا وتوزعوا فى انحاء أوربا والعالم كله واجهوا الاضطهاد العنيف ممـا دفع بعض حاخاماتهم الى حمـل لواء الدعـوة الى التجمع والسيطرة على الحكومات والدول وذلك بالسيطرة على الذهب والبنـوك والثقافة والأعلام والعلوم الـكيمائية ، وقد بدأت الحركة بالجماعة السرية (الماسونية) ثم استعلنت عام ١٨٩٧ بالحـركة التى حمل لواءها تيودور هرتزل فى الدعوة الى « الدولة اليهودية » والتى اتخذت من بعض نصوص التوراة المحرفة سندا الى السيطرة على فلسطين ، ومن ثم كان السعى الى تحقيق هذا الهـدف بكل وسائل الخداع والاكراه والظلم والافساد ، وذلك بعد أن قطع اليهود شوطا طويلا بالسيطرة على الحكومات الأوربية بعد أن تجمعت الماسونية فى اشعال الثورات المختلفة وفى مقدمتها الثورة الفرنسية التى كان هدفها الأساسى اعطاء حق المساواة لمختلف العناصر، واتاحة الفرصة لليهود للسيطرة على السياسة والحكومات بعد أن كانوا معزولين عن ذلك تماما .

وقد وجدت الصهيونية فى محاولتها للسيطرة على فلسطين اعتراضا قويا ورفضا قاطعا من السلطان عبدالحميد خلال مدة حكمه للدولة العثمانية فقد رفض كل العروض والمغريات والتهديدات فى هـذا الصـدد ووقف موقفا مشرفا كان من نتيجته أن اشتد التآمر عليه حيث أسقطته المنظمات الماسونية التى سيطرت على حزب تركيا الفتاة (الاتحاد والترقى) وكانت حركة اسقاطه ١٩٠٨ ، ١٩٠٩ حلقـة من نفس مخطط الثورة الفرنسية فقـد فتح لهـا الاتحاديون الطريق الى فلسـطين والى السـيطرة على مختلف الحكومات والزعمـاء مما هيـأ لوعـد بلفور ١٩١٨ الذى أعطى

الصهيونية جواز الاقامة والاحتلال لفلسطين وقد تمت هذه الخطوات كلها عن طريق دسائس اليهود ، ومؤامرات الصهيونية ، ومخططات الماسونية فى جميع انحاء العالم بما حقق قيام اسرائيل عام ١٩٤٨ .

وقد خفيت هذه الحقائق على المسلمين والعرب زمنا طويلا وخدع كثير منهم بهذه المنظمات ، ولكن الحقائق اخذت تظهر فى السنوات الأخيرة وبدأ المسلمون والعرب يحسون بالخطر الجارف الذى يهددهم وخاصة بعد سقوط القدس فى أيديهم عام ١٩٦٧ وقد عرفوا الدور الخطير الذى قام به بعض الكتاب والصحفيين فى التعاطف مع مخططات الصهيونية التى تمثل الآن طليعة دور جديد للاستعمار الغربى لاقامة الامبراطورية الصهيونية .

الطائفيـــــة

اصطلاح جديد ظهر مع الاستعمار الغربى والنفوذ الاجنبى ، حين ركز الاستعمار على الأقليات الموجودة فى العالم الاسلامى واحتضنها واتخذ منها سلاحا للحيلولة دون تحرر الأقطار أو وحدة الشعوب . ولذلك فقد عمد الاستعمار الى تنمية الطائفية وتعميق خلافاتها مع الأكثرية (راجع باب اقليات) وكانت الطائفية من أخطر العوامل التى استعان بها النفوذ الأجنبى لتحطيم الامبراطورية العثمانية تمهيدا لبسط نفوذه على العالم الاسلامى وكان لدور الطوائف الأرمنية واليهودية كالدونمة فى تركيا ابعد الأثر فى تأريث المخططات الأجنبية فى السيطرة .

ولم تكن الطائفية يوما قضية فى وجود الدولة الاسلامية ، بل كانت مختلف الطوائف تجد حريتها وانطلاقها فى المجتمع ، وقد وضعت الشريعة الاسلامية لها حمايتها وانظمتها وكرمت الأديان وحميت الكنائس والمعابد ، وقد وصل أبناء الطوائف المختلفة الى ارقى المناصب فى عصر الازدهار ، وكان لهم دورهم فى الحضارة الاسلامية والثقافة العربية ولم يقع بينهم وبين غيرهم أى خلاف أو صراع الا تحت نفوذ الاستعمار الذى أعلن انه انما جاء ليحمى هذه الطوائف من المسلمين ، وقد ورد صراحة فى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ نص خاص بحماية الأقليات ، وكان لهذه السياسة أثرها فى اندلاع ثورة ١٨٦٠ فى لبنان التى قصدت بها الدول الأوربية الوقيعة بين

المارون والدروز توطئة لوضعها فى نظام خاص يمكن للنفوذ الأجنبى من التغلغل فى لبنان وبناء مؤسساته الارسالية والتبشيرية والامتداد منها الى العالم الاسلامى كله ، وقد تنبه لهذا كثير من المفكرين والزعماء فكشفوا عن التقارب بين المسلمين والنصارى والشيعة والسنة وكيف أن الدم العربى يجمع بين هذه الطوائف جميعا ، كما أن الاسلام قد وضع قواعد أمينة للعلاقة بين الجميع ، ولا شك أن الدم العربى يجمع بين مسلمى العرب ونصرانيهم فى الشام ومصر والعراق ، وان كل انواع الخلاف انما كانت نتيجة مواقف خاصة ودسائس اجنبية وقد ارث المستعمر هذه الخلافات القديمة واستغلها .

العلمانيــــــــة

العلمانية فى كلمة هى فصل الدين عن المجتمع والدولة وقصره على العلاقة بين الانسان والله وهو مايعرف باللاهوت وبعض الأديان هى كذلك ، ولكن الاسلام يختلف ، فهو دين عبادة ودين شريعة واخلاق فى نفس الوقت . وفكرة العلمانية ظهرت فى أوربا نتيجة عدة عوامل منها موقف رجال الدين من النهضة والكشوف العلمية ، ومنها هدف اليهود فى القضاء على سلطان المسيحية فى المجتمع ، وبذلك يتاح لهم السيطرة السياسية والنفوذ العسكرى . ومن هنا يبدو ذلك البغض الشديد للدين فى فلسفات عديد من الفلاسفة ، أمثال نيتشه وماركس وفرويد .

وقد تأثر العالم الاسلامى والفكر الاسلامى بظلال هذه النظرية ، وهذه الدعوة وكان للبعثات التبشيرية والارساليات وسيطرة النفوذ الاستعمارى على مناهج التربية والتعليم أثره فى اعلاء هذا الاتجاه وتعميقه ، بعد عزل الأسلوب العلمى الدينى الذى يتمثل فى المدارس والجامعات الاسلامية القديمة .

ومن حق الغربيين أن يقفوا موقفا ما ازاء دينهم وعقائدهم التى وقفت ضد نهضتهم وضد كشوف العلم وفرضت محاكم التفتيش وغيرها من أساليب السيطرة أما بالنسبة للمسلمين والعرب فان الموقف يختلف اختلافا كبيرا فان الاسلام كان مصدر العلم والحرية والمساواة وداعية الأخاء .

فضلا عن ذلك فان الصلة المحكمة التى تربط الدين بالمجتمع هى احدى خصائص التاريخ الاسلامى فليس فى التاريخ الاسلامى دولة ثيوقراطيــة (دينيــة) ولم يقع يوما أن رجال الدين فى الاسلام — امسكوا فى أيديهم أزمة السلطة السياسية العليا ، ذلك بسبب بسيط هو انه لا وجود فى الاسلام للــكهانة ولا لطبقة ممتازة تدعى رجال الدين ، ولهذا يستحيل أن يوجد فى الاسلام مؤسسة تشبه الــكنيسة المسيحية التى تختص بأسرار الدين وطقوسه .

العاميــــــة

الدعوة العامية ، هى دعوة تغريبية خالصة ، تهدف الى الوحــدة الفكرية والوحدة القومية ، وقطع الصــلات بين أجزاء العالم الاســلامى والأمة العربية ، وترمى اساسا الى مقاومة لغــة القرآن ، والقضاء عليها وهى فى مختلف صورها ، التى تقول بتليين اللغة العلامى اللغة العربيــة المستعصية ، أو خلق لغــة وسطى بين العامية والفصحى ، انما تهــدف الى فصم عرى الصلات القائمة بين المسلمين والعرب من ناحية وبين المسلمين والعــرب وبين القرآن ومستواه البلاغى من ناحية أخرى .

ولا شك أن اللغــة العربيــة هى رابطة الوجود العربى وصمامه الأصيل ، فاذا انحلت تبدد هذا الــكيان ، وكل المحاولات التى تهدف الى اعلاء العامية ووصفها بالقــدرة على الأداء انما هى محاولات استعمارية ضخمة ، تهاجم الاسلام والوجود العربى أيضا .

وقد نفذت مخططات استعمارية وتغريبية خطيرة بهدف القضاء على اللغة العربية واعلاء العاميات فى العالم العربى ، وحملت هذه المخططات عناوين براقة خدعت البسطاء مثل القول : بأن اللغة ملك للأمة التى لها الحق فى أن تيسرها وذلك قول قد يصدق على كل اللغات ولــكنه يخفق اخفاقا ذريعا بالنسبة للعربيــة ، ذلك أن العربية انما هى لغة أمة وهى فى نفس الوقت لغــة فــكر ، فهى لغــة الأمة العربية التى تتمثل فى حوالى مائة مليون ولا شك أن فى القضاء عليها قضاء على وحدة هذه الأمة التى تمثل الآن اكثر من أربعــة عشر دولة وحكومة لا يجمعها جامع الى الوحدة العربية أقوى من اللغــة الفصحى ولا سبيل الى تفاهم المغربى

مع المصرى مع العراقى الا عن طريق الفصحى ، وهى فى نفس الوقت لغة فكر جامع يجمع ألف مليون من المسلمين تقوم ثقافتهم وفكرهم وتراثهم ودينهم وعبادتهم على أساس « اللغة العربية » التى هى المصدر الأساسى للقرآن الكريم . قانون هذه الأمة الاسلامية ودستورها ونظامها الكامل فى الاجتماع والسياسة والأخلاق والتربية والاقتصاد .

وفى العصر الحديث بدأت نزعة الاحتفال بالشعر العامى ولا ريب أن الاحتفال بالشعر العامى ، هو محاربة واضحة للكلمة البليغة والمعنى الرفيع ، فان هذا الحيز الذى يفرد لها انما ينقص من مكانة الشعر الأصيل وما كان الشعر العالى — والكتابة العامية بحمله — الا مثلا متدنيا للأفكار العامية والتافهة .

ان دعوة الشعر العامى كلها تستهدف الفصحى وتستهدف البيان العربى ودعاتها يبطنون مفاهيم خطيرة وخلفيات ضالة تحمل أهواء التغريب والشعوبية وهذا مالم يكن يقصد اليه بيرم التونسى أو بديع خيرى وان كان ابراز هذا اللون من شأنه أن يعارض الفصحى ، وقد ارتبط الشعر العامى بالكاريكاتير وبالاثارة وخلق تيارا من التعبير والحوار والأداء صرف الناس عن كثير من القيم العالية والمعانى الرفيعة .

العنصرية

التفرقة العنصرية والدعوة الى تفاضل الأجناس هى احدى مبتدعات الفكر الغربى مستمدا من مفهوم رومانى قديم أطلق عليه « روما سادة وما حولها عبيد » وقد تجدد هذا المفهوم فى ظل استشراء النفوذ الأجنبى والاستعمار الغربى كمبرر له بحجة القول أن هناك شعوبا متخلفة تحكم وشعوب ممتازة تحكم ، وجرى القول بالتفرقة بين العنصر السامى تخلفا والعنصر الآرى تقدما ، وحاول الكاتب الفرنسى جوبنيو ان يقول ان بعض العناصر خلق للسيادة وبعضها خلق للخضوع ، واستغلت دوائر الاستعمار هذه المعانى فى مجال البلاد المحتلة ، وجرت محاولة اقناع المسلمين والعرب أن يستسلموا تحت لواء هذه النظرية للغزو والاحتلال ، ولكن العلم الصحيح نفسه أثبت كذب هذه الآراء وخداعها وضلالها وكشف عن أنها استغلت استغلالا غير برىء ، وتكشف فيما بعد أنها لم تكن ذات

اصول علمية أو تؤيدها براهين حاسـمة ، وتسد قاوم الفكر العربى الاسلامى هذه النظرية بقوة نظريته الأصيلة القائلة بأنه لاتفرقة ولاتفاضل بين اسود وابيض ولا بين عربى واعجمى الا بالعمل ، وتكشف أن عقلية الرجل الأبيض مسممة بالتعصب العنصرى ، وأن الحضارة الغربيـة حين ارتبطت بمقومات الوثنية وعقلية الاغريق أعلت من شأن العنصرية وكانت الـكنيسة فى أوربا — على حد تعبير الأستاذ سامى داود — هى التى تحمى الحق المقـدس للملوك والاشراف فأثرت بذلك التفرقـة العنصرية واعترفت بشرع السبى والاستعباد واغلاق السجون والمطابق على العبيد والمستضعفين .

وقد ردد هـذه الآراء رينان وجوبينو وغيرهم ثم اثبت العلماء أمرين ان الخلاف بين الآرية والسامية هو خلاف فى اللغـة وليس فى العنصر أو الدم ، وان اختلاف الملامح والعـادات لا علاقة له بالفطرة والنفس ، وانه لا اختلاف فى أصل الطبيعة بين العقل البشرى فى الآرى أو السامى أو الأبيض والأسود .

وقـد سبق كثير من العلماء وعلى راسهم هردر وجينى ونوفاليس القائلين بالتفرقة بين الأجنـاس البيضاء والصفراء والسوداء . ولا ريب ان اصدق نظرة الى الشعوب هى نظرة الاسلام « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم » والمعروف أن أثر الشعوب لا ينكر فى فترة من فترات التاريخ ولـكن هذا الأثر يجب الا يتخذ لاعلاء شأن العصبية فهناك شعوب أخرى نهضت فى فترات أخرى من التاريخ وأغلب الشعوب ان لم نقل كلها مرت فى فترتين: فترة النهوض وفترة السبات ، ان اختـلاف الشـعوب يجب أن يكـون للتعارف لا للتنازع .

الفينيقيـــة

دعوة من الدعوات التى أثارها النفوذ الاسـتعمارى وحركات الغزو الثقافى والتغريب ، لاثارة التاريخ القديم فى سبيل القضاء على الواقع التاريخى الحى ، ولاثارة دعوة الاقليمية والتفرقة العنصرية على أساس من أصول الأمم الشرقيـة القديمة قبل أن يصهرها الاسـلام فى بوتقـة

الاسلام والعروبة . وقد حملت الدعوة الفينيقية الى لبنان الدعامات الاستعمارية لعزل اللبنانيين عن العروبة ، وللقول بأن اللبنانيين هم احفاد الفينيقيين القدماء الذين كانوا سكان هذا الساحل قبل ان يأتى العرب وانهم تاريخيا ليسوا عربا وانما هم خليط من ابناء الفينيقيين وابناء الامارات الصليبية وأن مصلحتهم الاقتصادية والحضارية تحتم عليهم ان ينشئوا كيانا خاصا غير عربى وأن يمارسوا دورهم الخاص محايدين ، الفينيقية واحدة من تلك الدعوات الفرعونية والأشورية والبربرية التى اذاعها النفوذ الاستعمارى فى العالم العربى وغذاها وجند لها نفرا من المفكرين والمثقفين الذين تخرجوا أساسا من جامعات الارساليات ومعاهد التبشير . وقد حمل لواءها الحزب القومى السورى الاجتماعى حين دعا الى (سوريا الطبيعية) والأمة السورية ، وسوريا للسوريين والسوريون أمة تامة ذات حدود طبيعية وقد ردد الكتاب الفرنسيون هذه المعانى محاولين اثارة الشبهات بأن اللبنانيين ليسوا عربا وانهم والسوريين فينيقيون ومن لم يكن منهم فينيقيا فهو من احفاد الصليبيين الذين قدموا الى سوريا ولبنان من مختلف اقطار اوربا ولا سيما فرنسا (١) .

وقد أشار أحد الباحثين العرب مصححا لهذه التيارات فقال : ان الفينيقية دعوة الى الاستعمار الفرنسى فى لبنان فكون فيها حركات النشر عن طريق المدارس والمعاهد والصحف أوسع نفوذا ، مما أنشأ فى لبنان اليوم تيارا يدعو الى عزلة لبنان من العالم العربى وكان اغلب دعاة هذه الدعوة متعاونين مع الاستعمار الغربى ، وهى التى حملت لواء الكتابة بالعامية اللبنانية والدعوة الى كتابة العربية بالحروف اللاتينية وتغليب اللهجات .

الفرعونيــــة

الفرعونية أحدى دعوات الاقليمية وتمزيق الوجود العربى قومية والاسلامى فكرا ، ولقد جرت الدعوة الى الفرعونية وبلغت أمدا بعيدا وخلفت مدرسة عاشت فترة ولكنها فشلت فى ابسط بسائط الدعوت ،

---

(١) عبد الرحمن البزاز : بحوث فى القومية العربية .

فشلت فى أن تجد أرضية تنبعث منها ، حيث لم تجـد تراثا فلكلوريا أو قيما دينية أو أخلاقية أو اجتماعية أو عملا أدبيا مكتوبا ، أما حضارتها فقد تحجرت فى الأهرامات والتماثيل والمعابد وقـد عبر الزمن بالمصريين أربعة عشر قرنًا فى مجال التوجيه على النحو الذى أصبح معه ينظر إلى الوثنية نظرة كريهة ، ولا يرى فى هذه الأحجار المنحوتة الا تاريخـا يفخر به من ناحية القوة والصبر والصمود وسبق العالم كله والأمم ذات النفوذ السياسى فى العصر الحديث بقرون الى مجال المدنية .

لقد كان هدف دعاة الفرعونية ادخال مفاهيم الوثنيـة الفرعونيـة المرتبطة بالوثنيـة اليونانية وغيرها وتجديد عبادة البشر والأبطال بعد أن صرف عنها المسلمون القرآن الذى أعلى من شأن الله وحده ، وكرم البطولة فى معانيها وقيمها وليس فى أفرادها ودعاتها .

وقد كشف كثير من الباحثين وخاصة مؤلف (قناع الفرعونية) مخاطر الدعوة الفرعونية وقال ان أول ماتبـادر الى الذهن أن فرعون هنا ليس الا رمزا لنوع من الحكومات الاستبدادية البـائدة ، فالفرعونية اذن هى نوع من النظم التى تنهض على الحكم الاستبدادى الجائر ، وتساءل : هل يستطيع المصرى المتشوق للحيـاة الصحيحة أن يجد فى شعار الفرعونية من قوة الدفع الى الحرية والمساواة مايجـده المسلم فى كلمة الاسلام . وخلص الى القول بأن الفرعونية لم تكن نظاما اجتماعيا ولا قوة دافعة الى الحرية والمساواة ، وأن المصرى المتشوق للحياة الصحيحة لايجد فى شعار الفرعونية من قوة الدفع الى الحرية والمساواة ما يجده المسلم فى كلمة الاسلام . فاذا لم تكن الفرعونية نظاما اجتماعيا ولا قوة دفع الى الحرية والمساواة فـكيف تكون فى النهاية ، انه مع انفتاح كل قيد جديد تبـدو مرئيات ذلك الـكابوس الفرعونى الخانق والتى تتحرك معهـا ذكريات عصور واحتاب تصور الظلم الاجتماعى والتخلف العقلى .

كما كشف المؤلف عن مفهوم التوحيد المزعوم عند الفراعنة (١) .

---

(١) قناع الفرعونية للأستاذ أحمد صبرى .

وقد تحررت الثقافة العربيــة فى سرعة عجيبة من اخطاء الدعوة الفرعونية وسقطت كلمات طه حسين الذى حمل لواء هذه الدعوة حين قال : ان الفرعونية متأصلة فى نفوس المصريين ، ولا يطلب منها ان تتخلى عن فرعونيتهـا ثم كذبتـه الأحـداث والوقائع حين قال : مصر لن تدخل وحدة عربية » .

هذا وتميل أحدث النظريات واقواها الى أن الفراعنة موجة من موجات الجزيرة العربيــة التى هاجرت وانه توجد روابط سلاليــة بين العــرب والفراعنة ترجع الى مايربو من خمسةآلاف سنة مضت . يقول سليم حسن : لقــد دلت البحوث الأثرية الحديثــة على قيــام بعض هجرات نزحت من شبه جزيرة بلاد العرب وحطت رحالها فى أماكن مختلفة فى بلاد الشرق الأوسط وتدل الآثار على أن أول هجرة كانت قــد وفدت على وادى النيل حوالى ٣٥٠٠ ق.م فحط أهلها رحالهم فى أرض الكنانة واختلطوا بالشعب المصرى وكونوا شــعبا واحــدا يجرى فى عروقــه الدم السامى والدم الحامى معا .

ويقول : والواقع أن لدينا آثارا باقية حتى يومنا هــذا تدل على أن مصر كانت متصلة ببلاد العرب الجنوبية وكانت تتجر معهــا بواسطة البحر الأحمر وذلك منذ عهد الملك (كورع) أحد ملوك الأسرة الخــامسة المصرية (٢٥٠٠) ق.م .

القوميــــات

فــكرة القومية انما قدمت الى المسلمين من الخارج من أوربا ،أول من نادى بها نابليون فى مصر فى محاولة لابعاد مصر والشــام عن الدولة العثمانيــة واشعار العــرب بأنهم مختلفون عن الأتراك وجاء محمــد على وابراهيم رافعين نفس الشعار ثم تسلم الدعوة بعد ذلك الشباب العربى المسيحى ابتغــاء تقويض الخلافة تحت شعارات ماكره وكان للمــدارس التبشيرية اكبر الأثر .

« القومية » تيــار غربى ظهر فى القرن المــاضى فى أوربا فى ظل تحديات مختلفة واجهت الغرب من خلال مراحل النهضة والتطور والحضارة

والاستعمار ، خروجا من قيود الكنيسة وسلطان نفوذ امراء الاقطاع ، وغلبة مبدأ الدولة وظهور مفهوم الامة وفى محاولات للترابط بين الأجزاء فى محاولة قوميتين هما القومية الايطالية والقومية الجرمانية .

وقد قامت القومية الغربية على مفاهيم حددتها تلك الظروف والتحديات، وفى العالم العربى ، عندما سقطت الوحدة العثمانية العربية، برزت الدعوة الى « العروبة » ، وحاولت أن تستكشف مفاهيمها المستمدة من أوضاعها وتحدياتها الخاصة ، غير ان الاستعمار حاول ان يستفيد من الدعوة وان يوجهها لخدمة اهدافه ، وان يحتويها ، او يحرف مفاهيمها ويفرض عليها مفاهيمه الغربية رغبة فى اخراجها عن المضمون الأصيل المستمد من جوهر قيم الأمة العربية ومفاهيمها وتراثها .

وكانت المحاولة الاولى التى حاولها النفوذ الاستعمارى هى أن تكون [illegible] الضيقة ، وان تنحصر فى مفهوم الوطنية لا تتعداه ، وفى هذه المرحلة طرح التغريب دعوات القومية المصرية والقومية السورية ، وحاول ان يجعل هذه الاقليميات فلسفة فأثار الفرعونية والأشورية والبابلية والفينيقية والبربرية ، وحاول عن طرق آخر أن يحطم كل وحدة اكبر ، فأثار الخلاف بين المسلمين والمسيحيين ، وبين السنة والشيعة ، وبين الدروز والموارنة ، وبين العرب والبربر وبين العرب والأكراد وهكذا .

فلما فشلت كل هذه المحاولة ، وبرز مفهوم الوحدة العربية جامعا قويا فى مواجهة النفوذ الأجنبى ، عمدت حركة التغريب الى تفريغ هذا المفهوم من قيمه ومقوماته فظهرت الدعوة الى (قومية منفصلة عن التراث والثقافة) بحجة أن هذا التراث وهذه الثقافة اسلامية أصلا ، وبرزت الدعوة الى قومية علمانية ، غير أن هذه الدعوى وان استمرت ذاتها لم تحقق أى نجاح ، ذلك لأن الأمة العربية لاتستطيع أن تنفصل فى حركتها الفكرية والاجتماعية عن قيمها الاساسية .

وان الاسلام الذى هو منطلق مزاجها النفسى والعقلى ليس دينا بمفهوم الدين الذى عارضته القوميات الأوربية ولكنه دين وثقافة وحضارة ومنهج حياة وان اكبر عوامل القومية وهى اللغة والتاريخ

لاتستطيع فى الثقافة العربية أن ينفصل عن مفهوم الاسلام الأوسع ، كمصدر أساسى للفكر ومنهج للمجتمع .

وقد اعترف كتاب الغرب بهذه الحقيقة ولم يجدوا مفرا من تسجيلها، يقول ولفرد كانتول سميث أنه لم تقم حركة وطنية فى العالم العربى الا وكانت الروح الاسلامية أساسها ، وان تاريخ الشرق الحديث يدل على أن القومية المجردة ليست القاعدة الملائمة للنهوض والبناء ، وما لم يكن المثل الأعلى اسلاميا على وجه من الوجوه لن تثمر الوحدة .

وقال هاملتون جب : ان العرب متمسكون بلغتهم وأدبهم ومعنون بمجد الاسلام ، كما اكد كثيرون « أن العرب لايفكرون بابدال صرفهم بالحروف اللاتينية ، أو أن يتنحوا عن لغة القرآن التى تربطهم بالعالم الاسلامى كافة » « وأن الروح الاسلامية ستبقى تسود بلادهم وتتقدم أبدا بلا كلل ولن يطرأ عليها أى ضعف أو وهن » .

وقد تأكد أن الصلة بين الفكر الاسلامى وحركة المقاومة الوطنية قوية ثابتة ، وأن كل ثورات المقاومة للاستعمار نشأت من أحضان المساجد ،وأن ثورة ١٩١٩ فى مصر بدأت فى ساحة الأزهر الذى كان مصدرها ووقودها، وأن الذين حملوا لواء التحرر الاجتماعى نفسه كانوا من المفكرين الاسلاميين.

وقد كشفت ثورة الجزائر عن مدى أهمية هذا اللون من النضال وعمقه فى سبيل تحرير أرض المسلمين ومقاومة أى غزو أجنبى .

ويقرر كثير من المراقبين المنصفين أن أزمة القومية العربية انما تتمثل فى ذلك الجفاء المصطنع بينها وبين الفكر الاسلامى ، وقد حمل بعض الدعاة لواء قومية علمانية على الطراز الأوربى وفق مفهوم الدعوة الطورانية وما حمل لواءه الاتحاديون فى تركيا ، وهو ما لا يجد فى الأمة العربية تقبلا ولا تقديرا .

ويقول الأستاذ جبريلى فى كتابه (اليقظة العربية) فى هذا المعنى: كان الاسلام ثورة عظيمة فى تاريخ العرب فمنه استمد العرب قوة وهو الذى حفظ لهم لغتهم والعرب لا يستطيعون فهم تراثهم القديم الذى هو

جزء من حاضرهم إلا اذا فهموا الاسلام ، والمفــكرون القوميون يرون أن الاسلام يمد العرب بخصائص خلاقة » .

ولقد حاول الــكثيرون التصدى لمدى العلاقة بين الدين والقومية ، فالعلاقة بين الاسلام والعروبة لاالقومية فى الثقافة العربية والفكر الاسلامى هو مفهوم حضارى جامع ، يقوم على أساس تعاقد روحى واجتماعى عميق ، دون أن يحمل معه أى معنى من معانى الاستعلاء بالجنس ، أو العــداء للأجناس الأخرى ، بل على العكس من ذلك يؤمن بالانفتاح والالتقــاء مع القوميات الأخرى ، التى يجمها معها وحدة فكر واصول ثابتة ، لا سبيل الى تجاهلها أو نكرانها . ومن هنا فقد عجزت كل المحاولات فى أن تجعل العروبة مناقضة للاسلام أو مصادمة للأمم الاسلامية غير العربية .

ومع أن الاسلام ليس دينا فحسب ، حتي يقول دعاة النظرية الغربية بأنه لايشترك فى مقومات العروبة ، فان النظرة السريعــة الى القوميات الأوربيــة تكشف عن انها لم تنفصل عن دينها ، فالبروتستانية جزء لايتجزأ من القوميات الهولندية والانــكليزية ، بينمــا الأرثوذكسية جزء أصلى من القوميات اليونانية والبلغارية والاسلام كان ولا يزال جــزءا أساسيا من القوميــات التركيــة والايرانيــة والافغانيــة والعربيــة والباكستانيــة والأندونيسية .

ولا مجال للعروبة كدعوة قومية (علمانية القومية) من غير العرب الذين تعلموا فى معاهد الارساليات والتبشير ، أما الذين عرفوا أصــالة الثقافة العربيــة فقد ربطوا بين العروبة والثقافة العربيــة المستمدة من الفكر الاسلامى وهنــاك عشرات منهم لهم كتاباتهم وقصائدهم التى تؤمن بأرضية الاسلام الحضــارى والثقافى للوحدة العربيــة ، بل أن البعض قــد وصل الى حد القول بأنه ليس من العــروبة التنكر للاســلام ، أو التفتيش عن بعث عربى بغير دين العرب .

ويقظة الفكر العربى تؤمن بأنها لا تستورد المفاهيم ولــكنها تصنعها من واقع أمتنا ووجودنا بل انهــا لتؤمن بأكثر من ذلك ، وهو النظر بعين

المراجعة والحذر الى كل مايصلنا من تفسيرات خشية أن يكون مصـــدرها محاولة التغريب والغزو الفكرى لصهرنا فى ثقافة الاستعمار ومفاهيمه .

المـــــادية

يقوم المذهب المادى على اساس المحسوس وحده ، منكرا ماسواه من عالم الغيب (الميتافيزيقا) انكارا تاما ، وتقوم النظرية المــادية على اعتبار الـــكون موجودا بنفسه ، وقديما وغير منتـــه ، (وهو ما يخالف حقائق الأديان المنزلة) والمذهب المادى ليس علما خالصا ولــكنه فلسفة تقوم على الافتراض ، ذلك لأنها تتصل بالجانب غير المحسوس ، وهـــو جانب يتحاشاه العلم لأن أنابيقه لايستطيع أن تضعه فى مجال التجربة ، ومن هنـــا فان التعارض بين المذهب المادى والواقع ليس خلافا بين الدين والعلم ولـــكنه خلاف بين الدين والفلسفة .

وحين تفترض الفلسفة المـــادية انكار وجود الله والأنبيـــاء والبعث والجنة والنار وغيرها انما تختلف مع العلم الذى قد حدد عمله فى دائرة المحسوسات ولم يدخل فى الخـــلاف مع الأديان ، ومن هنـــا فان النظرية المادية لا تجد سندا لها من علم أو تجربة ، أو برهان أو قياس ، ولـــكنها تجدد نظرية قديمة عرفها الاغريق القدماء .

اما العلماء فانهم بعد أن تحطمت الذرة قـــد اصـــبحوا يقررون أن هنـــاك وراء هذا الـــكون المادى المحسوس عالما آخـــر ، ويقررون أن هنـــاك حقيقة كامنة وراء المظاهر ، وأن الـــكون ليس حقيقـــة فى ذاته وليس هو المظهر الوحيد للتعبير عن الحقيقة وان هذه المفاهيم كلها قـــد وصلت الى القول بأن ليس من شـــك فى أن قوة مدبرة مفكرة هى التى أبدعت الـــكون . وقال أرنست رارز فورد ، ان نظرية المادة قد هدمت وان الذى هدمها هو ماثبت من أن الذرة تتكون من الكترونات (كهارب) تدور حول (بروتونات) على نظام يحاكى النظام الشمسى ، وأن المادة لم تعد ثابتة لقد اصبحت تتحول الى طاقة والطاقة تتحول الى مادة .

ويقول الدكور محمد خليل عبـــد الخالق : ان الأساس الذى قامت عليه المذاهب العلمية فى القرن ١٩ قد انهار وأصبح العلماء الآن يتكلمون

عن الكون وعن الانسان وعن الحياة ، والآن يكشف العلم عن مجاهيل جديدة تبحث عن الأرواح وأصل المادة وغاية الوجود ، ان مذهب دارون فرض وليس حقيقة وهو قابل للنقض .

وعنـــدنا أن الخطأ هـــو فى التوسع فى اطلاق لفظ العلم على آراء الفلاسفة وفروض علماء الطبيعة ومن الحق أن يقال أن نظرية داروين قد استغلت استغلالا بشعا لتدمير قيم الأديان ومفـــاهيم الروحيـــة ، واثارة الشبهات حول حقيقة وجود الله والوحى والنبوة وغيرها ، وكان الهدف من استغلال النظرية اشاعة روح الالحاد والاباحية والتأثير فى مفـــاهيم الأخلاق والاجتماع .

وقد استغل هؤلاء الفلاسفة نظرية التطور واخرجوها الى مجـــال هذه العلوم فى محاولة القول بأنه لا يوجد شىء ثابت وأن كل شىء يستحيل ويتطور ويتحول من حال الى حال ، وأن من ذلك الدين والأخلاق . وهى نظرية خطيرة تعزى الى دعوة الصهيونيـــة المندفعـــــة الى تدمير القيم والحضارات فى طريقها الى السيطرة العالمية .

ويقف الفكر الاسلامى من المادية موقفا واضحا فهو يقرر أن الانسان مركب من بدن ونفس وجسم وروح ، وأن البدن من عالم المادة لأنه يمتاز بالخصـــــاص المعروفة للأجســـــام أما النفس أو الروح فانها من عالم آخر يختلف فى خصائصه عن المادة . والاسلام فى جوهره ثنـــائى يقر بوجود الله ووجود العالم وبوجود الدنيا والآخرة ، والروح والجسد ، والنفس والبدن، وهو يدعو الى الاقبال على الدنيا وتنمية الحضارات وبناء الأعمال المادية ولـــكنه يجعل هدفها انسانيا ولا يجعل مفهومهـــا المادى هـــو كل غايتهـــا .

وقد ذهب غلاة المادية الى القول بأن المادة هى كل شىء ، وهى أصل العقل والشعور ، آمنوا بأن المادة لاتنقسم ، وهو ماسموه الجوهر الفرد، غير أن مفاهيم العلم تطورت وقلبت مفاهيمهم وحطمت نظريتهم حيث أثبت العلماء أن الذرة قابلة للتجزئة ، وأن المادة تصبح طاقة ، والطاقـــة تصبح مادة ، وأصبحت المادة والطاقة مظهرين لشىء واحد .

وكذلك واجهت نظرية المادية التاريخية والمادية والجدلية نقدا يشكك فى فرضيتها ويديل من غلوائها .

وقد كان التحدى امام فلاسفة المادية جميعـا هو نظرتهم الى الدين والـكنيسة وما يتصل بها من واقع وتاريخ ، ومن هنـا جاء هجومهم على الدين ككل اما بالنسبة للاسلام فان الموقف يختلف تماما ، ويكفى انالاسلام هو منشىء المذهب العلمى التجريبى الحديث .

الماسونيـــة

الماسونية جمعية سرية اقامها اليهود للقضاء على كل القوىالناهضة لهم وفى مقدمتها الكنيسة الكاثوليكية وقد اخفوا هدفها الأساسى الذىيقوم على اساس اعادة بنـاء هيكل سليمان ومن هنـا سميت الماسونية باسم (البنائين الأحرار) وقـد خفيت هذه الغاية على المخدوعين الذين دخلوا اليها ظانين أنها دعوة الى الحرية وانصاف المظلومين ، وقد شاعتدعواها فى العالم الاسلامى مع مخططات الاستعمار الأخرى كالتبشير وغيره ، ولم يكتشف العرب أمرها الا بعد سقوط السلطان عبد الحميد الذى كانيعرف أخطارها منذ اتصلت محافلها القائمة فى سالونيك مع جماعة تركيا الفتاة وعملت الى السيطرة عليها واحتوائها وتوجيهها الى غاياتها الأساسية فى اسقاط عبد الحميد الذى وقف عثرة ضد مطامع اليهود فى فلسطين ،وكانت جمعية تركيا الفتاة الحاكمـة خلال (١٩٠٩ — ١٩١٨) هى التى حققت هـدف الصهيونية على أوسع نطاق كمـا حققت هـدف الاستمار بايجاد مذابح دموية للعرب بواسطة الاتحـاديين حتى لا تلتئم وحـدة العنصرين المسلمين الى وقت طويل .

وقد كشفت الدراسات التى قام بها الـكثيرون مدى أخطار الماسونية التى استطاعت أن تقضى على كثير من الحكومات والملوك والحكام الـذين حافظوا على مقومات بلادهم وحالوا دون نفاذ اليهود فيهـا ، وكان فى مقدمة الذين كشفوا هذه المخططات السيد رشـيد رضا فى مصر والأب لويس شيخو فى الشام ، ثم كان لظهور وثائق مؤتمر بازل الذى عقـده هرتزل وحضره ثلاثمائة من الحاخامات مؤكدا الرابطة الوثيقة بينالماسونية

وبين الصهيونية كأداة سرية لها ، فقد جمعت هذه البروتوكولات كل ماعرف عن الماسونية من مخططات واعمال ولذلك فقد عمدت الصهيونية الى تكذيب هذه البروتوكولات واتهامها بأنها من اعمال خصومها ، بل لقد قام بعض العرب بمسايرتهم فى ذلك ، ولكن النظرة الصحيحة تكشف عن أن الماسونية جهاز من أجهزة الصهيونية الطامعة فى السيطرة على العالم واقامة امبراطورية تكون القدس عاصمتها واعادة بناء هيكل سليمان والسيطرة على العالم كله ووراثة الاستعمار الغربى .

الهدامة : المذاهب الهدامة

تعددت المذاهب الهدامة والدعوات الهدامة ، وقد حاول الاستعمار اغراء العرب والمسلمين بها وكان للصهيونية دور كبير فى حماية هذه المؤسسات ورعايتها ومن أبرز هذه المذاهب الدعوات : الى الالحاد والاباحة والكشف وقصص الجنس وانكار الأديان والوحى والجزاء واليوم الآخر . وقد كانت البهائية من ابرز هذه الدعوات التى ثبته اخيرا انها نتاج صهيونى تحمل وسائل العمل له ، وكذلك الجمعيات السرية الماسونية التى انتشرت فى العالم الاسلامى خلال الفترة السابقة للحرب العالمية الثانية والتى كان لها دورها فى اسقاط السلطان عبد الحميد على اثر موقفه المشرف فى معارضة أهداف الصهيونية فى الاقامة فى فلسطين، ومن هذه الدعوات الهدامة : مذهب الروحية الحديثة التى تحاول خداع المؤمنين بالله بعد أن استوعبت الدعوات المادية غير المؤمنين وذلك حتى تتم السيطرة على المسلمين والعرب . وقد كشف الباحثون عن أخطار دعوة الروحية الحديثة وما وراءها من خلفيات صهيونية ومادية .

ومن الدعوات الهدامة تلك الدعوات التى تحمل لواء العروبة المنفصلة عن جذور الفكر الاسلامى ، وكذلك الدعوات التى تحمل لواء الاقليمية الضيقة ، أو العنصرية ، او محاولة جعل الوحدة العربية دعوة عدوانية منعزلة عن العالم الاسلامى ، منفصلة عن جيرانها من الترك والفرس والهنود .

• وقد جاءت هذه النظرات من تقليد خاطىء لنظرية القومية الغربية التى قامت على أساس القضاء على نفوذ الكنيسة واعلاء العنصر

والجنس والدم مع العدوان والخصومة للأجناس الأخرى على النحو الذى عرفته النزعات النازية والصهيونية .

ولقد كان الفكر الاسلامى قادرا على نبذ هـذه الدعوات الهـدامة ودمغها بالخطأ ، ومعارضة الذاتيـة العربيـة الاسلامية والمزاج النفسى والاحساس العربى لهذه الدعوات التى تتعارض مع جذور هذه الأمة التى اقامت فكرها على اساس التوحيد والعدل والحرية ذات الضوابط البناءة للمجتمع والفرد .

الوثنيـــــة

تطلق كلمة الوثنيـة على مختلف العقـائد التى لاتفرد الله سبحانه بالتوحيد من تعدد وتنسب الوثنية الى الوثن أى عبادة الأحجار والأصنام، وقد وصف اليونان القـدماء (الاغريق) بالوثنية ، كما وصف بهـا اهل الجزيرة العربية على اختلاف فى المدى والفهم ، فقد كانت وثنيـة العرب ساذجة تقليدية بينما كانت الوثنية الاغريقية تقوم على فلسفة عريضـة ، لها فلاسفةامثال افلاطون وأرسطو وشعراء امثال اسخليوس وسوفوكليس، والعقائد الوثنية متعددة منها تأليه الطبيعة (أو جزء من اجزائها كالشمس او القمر او بعض أنواع الحيـوان) أو تأليـه البشر (فردا أو اسرة أو جماعة) وذلك كعبادة الملوك والأسر الحاكمة عنـد بعض الأمم القديمـة كالمصريين القدماء او الحديثة كاليابان والهنود ، وكعبادة الأنبياء والأبطال والقديسين والأولياء ، ولذلك فقد حرص الاسلام على عدم اسباغ أى نوع من انواع التكريم المبالغ فيـه للأبطال أو الصـالحين حتى لا يتحول مع الزمن الى مثل هـذا النوع من العبادة . وكان الاغريق يقولون بتعـدد الآلهة ، فكان كل اله يمثل قوة طبيعية خاصة يديرها ويتولى أمرها ، ومن ذلك : زيوس : اله الرعـد والبرق وهو كبير الآلهـة وديمتر اله الأرض والخصوبة ، وافروديت آلهـة الجمال وابولو اله الشمس ، ونيتون اله البحر وهكذا . ولا يفرق اليونان بين طبيعة الآلهة وطبيعـة البشر ، اذ يجوز عليها مايجوز على البشر من بغض وحقد وقسوة وشره وطمع وجبن وحب للانتقام . وكانت آلهتهم لا ترى بأسا من اغتصاب زوجات الآلهـة الأخرى وتتصف بالأخلاق الشريرة .

ومن العقائد الوثنية الاعتقاد بالوهية بعض الكائنات الخفية وعبادتها كالملائكة والجن والشيطان والأرواح . أو تاليه جزء من الانسان كالعقل، وهنـاك العقائد السلبية والالحادية القائمـة على انـكار الله ووجوده، وانكار الحياة الآخرة .

ويقول الدكتور محمد البهى أن الوثنية التى يحاربها الاسلام ليست هى وثنية الغرب التى كانت قائمة على تقديس الأصنام وبعض الـكواكب فحسب ، بل هى وثنيـة الانسان على العموم وهى تقـديس الشخص دون رعاية للمبـدأ أو المثـال ، وعنده أن الانسان دائما فى حاجة الى معونة الدين فى مكافحة الوثنية .

وقد هاجم الاسلام الوثنيـة وهاجم تعدد الآلهة ودعا الى عبادة اله واحد لا يعرف شخصه ولا تحد حقيقته لأنه فوق الطبيعة وفوق ما بهـا من أشخاص .

وهناك اجماع علي أن الوثنية وتعدد المعبود متلازمان ، كما أن الوثنية وتشخيص المعبود متلازمان .

وتختلف الوثنية العربية عن الوثنية الاغريقية في انها لم تكن وثنية قائمة بذاتها ، وانما كانت انحرافا عن دين التوحيد الذى دعا اليه «ابراهيم» فقد اعتنق معظم العرب دين ابراهيم ولكنهم مع تقـدم الزمن ومع تفرقهم فى الأقطـار كانوا يحملون معهم بعض حجارة الـكعبة يتبركون بهـا ثم حولوا هذه الأحجار الى أصنام وأوثان ، ومن هنـا اختفى التوحيد وبرزت عبادة التماثيل والأصنام وقدمت لها القرابين ، ومن وثنية العرب عبـادة النجوم . وقد عجزت المسيحية بما فيها من تقاليد وما يتصل بها من عقيدة التثليث ودعوى صلب المسيح أن تجتذب انتبـاه العرب ، أما التثليث فقد كان معروفا عند الفراعنة القـدماء ، والهنود ، واليونان ، وكان الفرس يعبـدون الها مثلث الأقانيم مثل الهنود هو (أو رمزا ومترات واهرمان) ويقول (راون) فى كتابه خرافات التوراة (Biblemyths) أن تصور الخلاص بواسطة تقـديم أحد الآلهة ذبيحة فـداء عن الخطيئة قـديمة العهد جدا عند الهنود الوثنيين ويعتقد الهنود الوثنيون بالخطيئة الأصلية.

ويقول رتشارد فى كتابه (خرافات المصريين الوثنيين) انه لاتخلو كافــة الأبحاث الدينيــة المــأخوذة من مصــادر شرقيــة من ذكر أحد انواع التثليث أو التولد الثــلاثى أو اللاهوت الثلاثى وكان الهنــد يعبدون (تى مورتى) أى الأقانيم الثــلاثة (الرب والمخلص وسيفا) والصينيون يعبدون بوذا ويسمونه (فو) ويقولون انه ذو ثلاثة أقانيم والمصريون القدماءيعبدون (ايزيس . أوزيريس . حورس) .

فالتثليث جاء الى المسيحية من الفلسفة الاغريقية، وهكذا يبدو تقارب واضح بين الوثنية والاغريقية والمسيحية الغربيــة (وهى غير المسيحية السمحاء المنزلة) والفرعونية ، مع تشابه واضــح فى كثير من الطقوس والنظريات،ويقف الاسلام وحده متميزا عن هذه الاديان جميعا بطابع التوحيد الجذرى الأساسى، وقدصور القرآن الكريم هذا المعنى فى قوله تعالى : « ماكان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين » ومن هنا تأتى معارضةالاسلام للوثنية والشرك وللتحريف فى سبيل القضاء على الوثنية .

توحيــد الأديان

ترتفع بين آن وآخر صيحة تدعو الى توحيد الأديان ، أو على الأقل الى توحيد الاسلام والمسيحية ، فى عام ١٨٨٣ كان القس اسحق تيلور يقوم بالدعاية لتوحيد الاسلام والنصرانية على أساس قاعــدة التوحيــد الموجودة فى الاسلام والموجودة عند الــكنيسة الانجيلية وقــد اتصل عن طريق صــديق فارسى هو (ميرزابكو) بالأستاذ محمد عبده وهو فى منفاه فى دمشق ، وقــد تجدد هذا الموقف مرات ومرات وكان هنــاك من يدعى خريستفو جباره الذى كان يحمل لواء هذه الدعوة فى مصر وقد هاجمــه رجال الــكنيسة وقال القمص سرجيــوس انه أراد أن يجعل المسيحيين مسلمين ينكرون لاهوت المسيح الذى هو أساس دينهم والذى تتركز فيــه كل عقائدهم ، كما انه أراد أن يجعل المسلمين مسيحيين يعترفون بصــحة الانجيل الأمر الذى اذا سلم به المسلمون لوجب الا يقبلوا كتابا آخر غير الانجيل وأن يعترفوا بلاهوت المسيح ، كمــا انه أراد أن يجعل اليهــود مسيحيين لأنه طلب اليهم أن يعترفوا بأن المسيح قــد جاء الى العــالم

ولو اعترف اليهود بمجيء المسيح لهجروا طقوسهم اليهودية وعاداتها وصاروا مسيحيين ، لأن المسيح هو محور نبوءاتهم . ومعنى هذا استحالة هذا التوحيد بين الأديان .

وهناك محاولة أخرى موضع الشك والريبة هى محاولة البهائية التى تتظاهر بتوحيد الأديان وتهدف الى هدم الأديان لتحل محلها الدين البهائى .

ومعنى هذا عبر المحاولات المختلفة أن من ورائها هدفا سياسيا استعماريا أو صهيونيا من اهداف تلك الدعوات العاملة على تقويض المجتمعات الانسانية ، وليس فى مفهوم الاسلام نفسه توحيد الأديان وانما فيه تساندها على مقاومة الالحاد والاباحة وكشف الاعتقاد بوحدة الله والتقاء الانسانية على الخير والاخاء .

فرقة النصيرية

سأل الشيخ شهاب الدين احمد بن محمد بن مرسى الشافعى شيخ الاسلام ابن تيمية رحمهما الله عن النصيرية القائلين باستحلال الخمر وتناسخ الأرواح وقدم العالم وانكار البعث والنشور والجنة والنار فى غير الحياة الدنيا وبأن الصلوات الخمس عبارة عن ذكر خمسة اسماء (على وفاطمة وحسن وحسين ومحسن) وأن الصيام عبارة عن أسماء ثلاثين رجلا وامرأة يعدونهم فى كتبهم وبأن الههم على بن ابى طالب فهو عندهم الامام فى الأرض والامام فى السماء فكانت الحكمة فى ظهور اللاهوت بهذا الناسوت على رايهم وان يؤنس خلقه وعبيده ليعلمهم كيف يعرفونه ويعبدونه .

يقولون : محمد هو الاسم وعلى هو المعنى ويوصلون العدد على هذا الترتيب فى كل زمان الى وقتنا فمن حقيقة الخطاب فى الدين عندهم أن عليا هو الرب وأن محمدا هو الحجاب وأن سلمان الفارسى هو الباب .

ويقولون ان ابليس الأبالسة هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه ويليه فى رتبة الابليسية أبو بكر رضى الله عنه ثم عثمان .

أفتى شيخ الاسلام ابن تيمية فى رسالة مستقلة بأن هذه الطائفة الملعونة اكفر من اليهود والنصارى والمشركين وان قتالهم اوجب من قتال هؤلاء وأنهم فرع من القرامطه والمجوسية الملعونة لايختلفون ألا فى الاسم فقط وهم ينتسبون الى ابى شعيب محمد بن نصير . وكذلك ذكر شيخ الاسلام فى كثير من كتبه ان الاسماعيلية على مثل نحلة النصيرية والقرامطة يقولون بالتاسخ وتأليه على ومن بعده من ائمتهم . والاسماعيلية اليوم كثير فى الهند وزعيمهم المدعو اغا خان وكذلك الدرزية الذين يسكنون جبل الدروز من أرض الشام وهم الذين يؤلهون الحاكم العبيدى وكل ذلك من ذيول الدولة الملحدة الملعونة العبيدية التىقامت بالمغرب ثم كان من قضاء الله أن تمكنت مصر وغيرها منالبلاد الاسلامية واعلنت فيها الكفر والزندقة وسب الصحابة (ذكر ذلك ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة وابنكثير فى البداية والنهاية ، الف فى تكفيرهم وبيان شنيع مذاهبهم الامام أبى بكر الباقلانى كتاب (كشف الأسرار وهتك الأستار) وذكر عنهمالحافظ بن كثير وغيره أنهم قوم يظهرون الرفض ويبطنون الكفر المحض .

الباب السادس

التـــاريخ

- اخوان الصفا
- الاسرائيليـــات
- الاغريق واليونان
- البطـــولة
- تفسير التـــاريخ
- الحمـلة الفرنسية
- الخلافـــة
- فتنـــة ١٨٦٠
- محـــاكم التفتيش
- الــكشف
- ما قبل الاســلام
- معركة سانت بارتلمى
- مكتبة الاسكندرية
- مصر للمصريين
- ارساليـــات لبنـــان

اخوان الصفا

ليس الاهتمام بنشر رسائل اخوان الصفا واعادة اصدارها عيبا فى ذاته ما اسديت للقارىء الحقيقة كاملة ، ودون أن تشوه هذه الحقيقة باضفاء صفات غير صادقة على هذه الجماعة الغامضة التى عجز أصحابها ان يبرزوا اسماءهم او يكشفوا عن انفسهم او يقفوا فى صفوف العلماء او المصلحين أو الفلاسفة او حتى دعاة المذاهب من امثال ابن الراوندى والحلاج والسهروردى وغيرهم . ولكى يقرأ القارىء رسائل اخوان الصفا عليه أن يعرف من كتبها أولا فاذا وثق به وعلم أنه من اهل العلم الخالص البعيد عن الضلال أو الانحراف كان له أن يقرأ ماكتب فان لم يتحقق له هذه الثقة فعليه أن يقرأ فى حذر على ضوء ماعرف من أمر الكاتب وأهوائه ، والاجماع بين الذين قدموا لاخوان الصفا منذ كشف احمد زكى باشا عن هذه الرسائل الى اليوم ، وقد تناولها الكثيرون بالبحث كالدكتور طه حسين وجبور عبد النور وعمر الدسوقى ودور النشر اللبنانية . أقول ان الاجماع منعقد على أن اخوان الصفا جماعة مشبوهة ليست من العلماء ولكنها من دعاة الباطنية والمجوسية والزندقة الحاقدة على الاسلام واللغة العربية والدولة الاسلامية ولهم صلات واضحة واكيدة بالحركات المريبة التى كانت تعمل على تقويض المجتمع الاسلامى ، وقد أضفى هؤلاء الدعاة للجماعة السرية على هدفهم السياسى طابعا علميا وفلسفيا ، بيد ان هذا الطابع لم يخف حقيقتهم ولم يحل دون بروز مقاصدهم من خلال عرضهم للنظريات المختلفة التى تكشف عن معارضة اكيدة لمضامين الاسلام وقيمه الأساسية وفى مقدمتها « التوحيد » : لب لباب الاسلام وفكره وقرآنه ودعوته .

وتؤكد مختلف المصادر التاريخية أن « اخوان الصفا » تكونت على هيئة جماعة سرية (٣٣٤ — ٣٧٣ هـ) فى البصرة لبث آرائهم بواسطة رسائل علمية ولها صلة أكيدة بالباطنية والاسماعيلية . ويمكن القول جملة أن المنهج الفكرى الذى قدمه اخوان الصفا فى رسالتهم الجامعة ورسائلهم

الاثنين والخمسين يكشف عن مجافاة أصيلة للاســلام وتلفيق كامل لــكل الفلسفات الوثنية بمختلف أنواعها وفنونها : من أفلاطونيــة حديثــة الى فيثاغورية الىنظريات أفلاطون وارسطو وأفلوطين وفيثاغورس والمجوسية والمزدكية والمانوية والزرادشتية جميعا منظومة فى سلك واحد فى محاولة لخلطها بمفاهيم غامضة من الشريعة الاسلامية تلتقى بها معقائد الباطنية.

وقد وصفهم (أبو حيان التوحيدى) فى كتابه الامتاع والمؤانسةبأنهم « عصابة » وضعت منهجا زعموا أنهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله ، وانهم قالوا : ان الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة لأنهــا حاوية للحكم الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية وزعموا انه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة الاسلامية فقد حصل الـكمال » .

وقد وجهت الى مضامين هذه الرسائل نقدات صريحــة تكشف عن مخالفتها الجوهرية لقيم الفكر الاسلامى ووصفت بأنها تكشف عن اغراق فى الخيــال واعتماد على الأفكار اليونانيــة من غير فحص ولا انتقــاد لمقومات ، وبحث فى كل علم من غير اشباع واقناع ، وابرز مايكشف عن شعوبيتهم ومحاولتهم لهــدم المقومات الأساسية للاسلام فكرة انهميؤمنون بكل الأديان والمذاهب . واذا أرادوا تأييد رأيهم وبث دعوتهم تمثلوا أنبياء الله المرسلين (موسى وعيسى ومحمد) واضافوا اليهم اليزدان وغازيمون وارسطو وأفلاطون ، وهم يخلطون الأديان بالفلسفات فى محاولة لبنــاء مذهب يلغى الأديان ويعيد الوحــدة — الى المسلم والنصرانى والمجوسى واليهودى والأفلاطونى والمشائى والفيثاغورثى — على حد تعبير الدكتور جبور عبد النور — ويجمع الذين درسوا رسائلهم أن غايتهم هى الباطنية وأنهم من الفرق الضالة الغالية التى تعمل دائما على الاحتماء كذبا بأهل البيت ، وأن أكبر مصدر لادانتهم أسلوبهم الرمزى واخفــاء أسمائهم ، والتحرز من ذكر الأعلام الذين يصدرون عن آرائهم وفكرهم تحفظا من أن يكشف مذهبهم أو هواهم السياسى ، وفى كتــاباتهم اشــارات غامضة يستشف منها ميلا خفيا الى المجوسية المعــدلة بالوثنيــة الاغريقيــة ، وهم يرون أن عليا هو الى طبقة الأنبياء أقرب ويفرقون بينه وبينالصحابة ويحاولون وصفه بالتفوق على الخلفــاء الراشدين . كما اتسمت هــذه

الرسائل بالنقمة على الدولة الاسلامية والسعى الى تحطيمها وتبرز فى كتاباتهم مفاهيم الباطنية والاسماعيلية والفيثاغورثية والأفلاطونية والمجوسية . وتخلط بين آرائهم على غير وفاق ، وفى نصوصهم فقرات كثيرة ولكنها مموهة تشير الى أن فى قرارة نفوسهم ميلا الى الوثنية ، والوثنيةاغريقية وبابلية واشورية، وهم حين يوازنون بين الأديانالسماوية والأرضية يفضلون الأخيرة ويسرفون فى تمجيد مفاهيمها .

ولهم آراء فى الكواكب تخالف مفهوم الاسلام فهم يعتقدون أنها السبب المباشر فى التكون الطبيعى وظهور المادة ، وسبب مايصيب الأجسام فوق سطح الأرض من علل وامراض وقد لاحظ التوحيدى انهم ينكرون البعث بالأجساد (جـ٣ ص٧٨ و جـ٤ ص٤٠) ويفسرون الجنة والنار خلافا لما تواتر عند المسلمين وينكرون الشياطين على الصورة التى يفهمها معظم المسلمين ويفسرون الكفر والعذاب تفسيرا باطنيا فلسفيا ، وتشتمل رسائلهم على كثير من الآراء الخيالية وبعضها معتنق من اليونان وبعضها وليد الأذهان وبعضها تراث الكهان كأسرار الاعداد والتنجيم والفال والرجز ، والسحر والعزائم والايمان بطوالع النجوم وتأثيرها ، وموسيقى الأفلاك ونغماتها والحانها ، ويشمل كذلك عقيدة الوحى والامام المستور والتقية ، وفيها اعداد النفوس والعقول لدولةجديدة وهى فى مجموعها شرائع من الحكمة والديانة والشعوذة والكهانة والسياسة ، تقوم على أساس الفلسفة اليونانية الطبيعية الالهية وقد كانت هذه الرسائل محاولة لوضع نظام جديد يحل محل الشريعة الاسلامية التى يعتقد اخوان الصفا أنها أصبحت عتيقة لا تؤدى رسالتها وقد اخفقت محاولة اخوان الصفا وفشلت ، فلم تنجح فى اقامة نظام علمى أو تنشىء مجتمعا يقوم على أساسها لأنها خالفت جوهر الاسلام وبعدت عن المزاج العربى الاسلامى وملامح الذاتية التى أقامها الفكر الاسلامى فى الأمة التى نشرت بين أهلها وأكدت أن كل محاولة لدمج الفكر الاسلامى القائم على التوحيد بأى فلسفة وثنية ، كاليونانية أو الهندية أو المجوسية فانه عمل لا يحقق شيئا ، اذ لا يمكن أن يتحقق الذوبان والانصهار مطلقا بين الفكر الاسلامى القائم على التوحيد ومختلف هذه الديانات والمذاهب والفلسفات القائمة أساسا على الوثنية والتعدد والالحاد والانكار ،وقد

فشلت هذه المحاولة كما فشلت كل المحاولات التى سبقتها والتى تلتها فى خلط الاسلام بغيره أو اضافة اجزاء منــه الى مذاهب وفلسفات اخرى ، وكشف الاسلام فى هذه اللقاءات عن ذاتية واضحةصريحة قادرة مستحيلة على الانصهار أو الذوبان فى غيرها محتفظة بطابعها وذاتيتها وجوهرهــا ومزاجها حتى فى أشد الفترات ضعفا وتخلفا .

وجملة القول ان محاولة اخوان الصفا والباطنية فى خلط الاســلام بأهرمين والبرذان وافلاطون وارسطو وغازيمون ، أو خلط الفكر الاسلامى بالهيات اليونان أو كتب الأديان الأخرى او كتب الطبيعة والـكواكب امر غير متحقق فجوهر الاسلام مستحيل على الانصهار او الخلط .

الاسرائيليـــات

من اخطر التحديات التى واجهت الاسلام والفكر الاسلامى والثقافة العربيــة ظاهرة « الاسرائيليات » وهى اضافات خطيرة ونظريات مستمدة من نصوص قديمة ، وثنيــة ومجوسية من خارج مفهوم الاسلام وذاتيتــه المختلفــة عن الأديان والفلسفات ، تسربت مع الزمن وقصد الى اضافتها خصـــوم الاسلام واعدائه رغبة فى عزله عن جوهره الأصيل وقد شكلت مع الزمن قشرة صلبة او حاجزا خطيرا عازلا عن مفهوم الاسلام فى بساطته ووضوحه ويسره وايجازه ، واضافت تفاصيل كثيرة باطلة وتوسعات عديدة تتعارض أساسا مع مفهوم الاسلام القائم على التوحيد ، والمتصل الواضح الصريح للغيب والايمان بقواعد القرآن ونهجه ومنطقه فى مواجهة مختلف القضايا والأمور السابقة وغير المنظورة وخاصة ما يتعلق بعـــالم الغيب وما وراء العالم المحسوس ، وفيما يتعلق بالعالم الآخر والتاريخ القــديم السابق على الاسلام وتاريخ الأمم السابقة والمجتمعات وأحداثها .

وقد اضيف الى الاسرائيليات مع تطور الفكر الاسلامى اضافات اخرى تسربت من الفلسفات اليونانية والهنــدية والديانات الفارسية وغيرها مما كون حصيلة ضخمة استعملها الشعوبيون واعداء الاســلام والعرب فى القديم سلاحا لتحويل الأنظار عن مفهوم الاسلام وجوهره واخراجــه عن مضامينه واتاحة الفرصة لمفاهيم الوثنية والثنائية والتثليث لغزوه .

وقد واجه المفكرون المسلمون هــذه الدخائل الاسرائيلية الباطنيــة والمجوسية وغيرها وفندوها وكشفوا عنها ، وفى مقدمة من تولى ذلك : الجاحظ (البيان والتبيين) القــاضى بن العربى (العواصم من القواصم) وابن الجوزى (تلبيس ابليس) كما واجه هذه القضايا ابن حزم والغزالى وابن خلدون وعرضوا لآراء الباطنية والمجوسية والمزدكية والمانويةوغيرهم ويطلق علماء المسلمين كلمة اسرائيليات على جميع العقائد غير الاسلامية ، ولا سيما تلك العقائد والاساطير التى دسها اليهود والنصارى فى مفاهيم الاسلام ، وفى مقدمة هذه الاسرائيليات تلك الإضافات للنصوص الثابتــة أو التفسيرات للآيات القرآنية والتوسع فى أوصاف الملائكة والجنة والنار والحشر ويوم القيامة وتصويرها تصويرا حسيا .

وقد أفرد ابن خلدون فى مقدمته فصلين لدراسة هــذا الموضوع ، وادرك اهمية هذا النوع من التنبؤ فى تاريخ الاسلام ، وكان فى مقــدمة من نعى عليه وشهر ببطلانه .

وهذه التنبؤات هى التى اضــافتها الاسرائيليات مما يتعلق بالمهــدى المنتظر او رجعة المسيح أو ظهور المسيح الدجال ، وكل هذه الأمور وغيرها مما لا سند لها من القرآن او الحديث الصحيح .

وقد بدأ تكون هذه الحصيلة عندما حاول المفسرون المسلمون سؤال احبار اليهود عما يوجد فى كتبهم من اشارات الىبعض المسائل التىاوردها القرآن ثم نقلوا ما كانوا يسمعونه على انه استرشاد أو توضــيح ثم لم يلبث ان تحول الى مايشبه القضايا المسلم بها .

وفى عصر الضعف ومرحلة التخلف وفترة التجميع ظهرت كتب كثيرة لم يكتبها علماء محققون، جمعت أحاديثمنحولة واكاذيب ومفترياتمدسوسة على الدين ، وفى مقــدمة هــذه المؤلفات بدائع الزهــور والعرائس فى القصص والأخبار .

وقد ارتفعت الأصوات بالدعوة الى غربلة هذه الــكتب حرصا على مقاومة الخطر الذى تنفثه فى جمهور العوام وانصاف المتعلمين .

وكان لدائرة المعــارف الاسلامية وللمستشرقين اهتمام بالغ بلمثــال

كعب الاحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وهم الذين اشاعوا الاسرائيليات فى صدر الاسلام ، وكان علماء المسلمين يسألونهم بوصفهم من اهل الكتاب عما عندهم فى مثل قضايا بدء الخليقة وشأن الأنبياء والأمم القديمة ، ولم يكن هذا الا من باب التعرف الى الشبهات والتحزر من الوقوع فيها ، غير أن بعض الرواة جمع مثل هذه الآراء امثال السدى والكسائى والثعلبى والخازن والطبرى وسجلوها فى مؤلفاتهم ، فالتصقت بتفسير القرآن الكريم . وقد عارض المفكرون المسلمون هذا الاتجاه وشجبوه وفى مقدمتهم العلامة ابن خلدون ، غير أن دائرة المعارف الاسلامية وكتابها جميعا من خصوم الاسلام نقلت هذه الآراء وبوبتها وعدتها مصادر صحيحة وجاء جولدزيهر وهو من خصوم الاسلام فدافع عن كعب الأحبار وزملائه .

وقد تسرب الى بعض كتب التفسير كثير من الاسرائيليات فشوهت صفحاتها الوضاءة . كذلك تدفق فيض من الأساطير على كتب الملاحم والمغازى فالتبس فيها الحق بالباطل والواقع بالخرافات .

يقول الامام احمد بن حنبل : ثلاثة لا اصل لها : التفسير والملاحم والمغازى اى انها ليست لها اسانيد صحيحة متصلة .

وقد ثبت فى كتب ثقات المؤرخين أن كعب الأحبار ووهب بن منبه وزياد بن ابيه كانوا من المتآمرين على الاسلام من طريق بث متون الروايات الاسرائيلية التى شوهت جمال معانى القرآن الكريم فى كتب التفسير ، ومثل ذلك تفسير الرعد والبرق والجسد الذى القى على كرسى سليمان وما جاء فى عصا موسى . ويقال ان كعب الأحبار ووهب بن منبه دخلا الى الاسلام ظاهرا ليكيدوا له كيدا ، وقد نقل كثيرا منه ابن جرير الطبرى ونقده ابن كثير .

الاغريق واليونان

كلمات متعددة تمثل طابعا فكريا معينا وتوحى الى مناخ ثقافى له طابعه ومفاهيمه وتكشف عن عالم له قيمه ومقوماته : هى الاغريق واليونان ومنها اشتق اسم المذهب الفكرى « الهلينية » التى هى بمثابة النمط الثقافى الذى يتجلى فى المثل اليونانية او اقتباس اللغة والفكر اليونانى والتزام

المثل اليونانية العليا . وترجع أهمية الدراسات المتصلة بالاغريق واليونان والهلينية الى ارتباطالحضارة الغربية الحديثة بالجذور اليونانية والاغريقية واعتبارها من مصادرها الأساسية ، فقد سقطت اليونان تحت حكم الرومان ١٤٦ ق.م وقد تبنى الرومان حضارة اليونان حتى سقطت الدولة الرومانية فى القرن الرابع المسيحى ، ودخلت أوربا فى فترة القرون الوسطى المظلمة التى كانت كذلك بالنسبة لأوربا وحدها ، حيث ظهرت أضواء الاسلام فى القرن السادس المسيحى ، ولم تلبث أن عمت العالم كله ووصلت الى أوربا واستقرت فى الأندلس وجنوبى فرنسا وايطاليا ، وكانت هى الشرارةالتى اوقدت عصر النهضة ، ومن جذور المذهب العلمى التجريبى الاسلامى تكونت الحضارة الحديثة ، هذه الحضارة التى حاولت أن تنفى عننفسها مؤثرات الفكر الاسلامى فى نفس الوقت الذى ارتبطت فيه بالاغريقية القديمة واعتبرتها مع المسيحية الوافدة من الشرق — بعد أن تحولت الى طابع غربى واطار للحضارة الغربية مصدرا لها .

وقد ركز الفكر الغربى على التراث الاغريقى وابتعثه مجددا ،واعتبره مصدرا أساسيا له ، ومن هنا فقد عنى المتصلون بالفكر الغربى عنايةكبرى بالآثار اللاتينية والاغريقية والهلينية واحتضنوا نظرية لم تتأكد تاريخيا ولا علميا بأن للاغريق واللاتينية أثرا كبيرا فى الفكر الاسلامى ، وهى نظرية طالما رددها المبشرون والمستشرقون ودعاة التغريب فى محاولةلخلق تصور عربى اسلامى بأن القيم الاسلامية لها ركائز من الفكر الهلينى .

ومن الحق أن يقال أن الفكر الاسلامى قد تكاملت قيمه ومقوماته فى حياة الرسول ومع آخر آية من آيات القرن الكريم وأنه لم تجر اضافة أى شىء اليه من بعد والى اليوم ، وان كان هذا الفكر بطابعه فى الانفتاح على الثقافات المختلفة قد أخذ واعطى ورفض فى مجال المناهج والأساليب واستطاع أن يهضم كثيرا ماوجده فى ثقافات وفلسفات الأمم المختلفة بعد أن ساغه وصهره فى بوتقته . شأنه بالنسبة للفكر الهلينى وشأنهبالنسبة للفلسفات الفارسية والهندية والمسيحية وغيرها .

أما موقف الفكر الاسلامى من الفلسفات اليونانية والتراث اليونانى فقد كان واضحا ، اذ ترجم العلماء المسلمون الفلسفات العلمية والطبيعية وعلوم الفلك والحساب والطب وغيرها وأعرضوا عن الآداب والشعر ،

ولمـــا ترجمت الفلسفة الالهية وهى علم الأصنام عند آلاغريق والوثنيـــات وقف منها المفكرون المسلمون موقفا صريحا فى المعارضة والرفض ، وكان شأنهم فى كل ما نقلوه أمرين أولهما انهم اداروه فى اطار التوحيـــد والنبوة ورفضوا الثنائيات وعبادة الالهة والأصنام والوثنيات جميعـــا وثانيهما انهم اساغوه وصهروه فى بوتقتهم ، وأحالوه الى جوهر فكرهم دون أن تغـــير شيئا من قيمهم أو مفاهيمهم .

ولكن الغزو الفكرى وحركة التغريبحاولت محاولات ضخمة انتفرض على الذوق العربى الاسلامى والمزاج العربى الاسلامى تصورات اغريقية ويونانية لها طوابعها الخاصة المستمدة من بيئاتها . وقد فشلت هذهالمحاولة فى ان تغير من جوهر القيم الأساسية للفكر الاسلامى القائمة أساسا على التوحيد ، ذلك أن الفلسفات اليونانية الاغريقية قد تتلاقى مع الفكرالعربى الحديث ومع المسيحية ومع اليهودية والتوراة ، ومع الفرعونية والمجوسية الفارسية بحكم قاسم مشتركاعظم بينها، يكاد يوجد عنصر اللقاء والتقارب والتشابه وخاصة فى مجال الأساطير حتى بين نظرية ايزيس وأوزوريس وحورس وبين نظرية التثليث ، يقول العلامة توينبى أن شخصيتى ايزيس وسيبيل تظهران فى المسيحية مرة أخرى فى تجلى السيدة مريم فىشخصية أم الاله الكبرى ، كما تشاهد تقاطيع اله الشمس فى الصورة ذات الطابع الحربى الذى يبدو فيها المسيح فى بعض الأحيان .

ويمكن القول بأن المثل الأعلى فى الاسلام يختلف اختلافا جذريا عن المثل الأعلى اليونانى الذى ارتبـــط الى حـــد كبير بالفلسفات الفرعونيـــة والمسيحية . وابرز هذا الخلاف يتمثل فى التوحيد الاسلامى (لا اله الا الله واحداً احدا هو رب كل شىء) والانسان سيد الكون تحت حكمه وارادته ، بينما فى المفهوم الاغريقى يوجد عشرات الآلهة ، التى تتصارع وتتقـــاتل وحيث يبـــدو الانسان هو سيد العالم وحيث يعبد جماله الجسدى ويؤلهه وحيث يصارع الانسان الآلهة وينتصر عليها وحيث تفعل الآلهة الشر . يقول أنيس فريحه « ان الهتكم لا تتميز عن البشر الا بقوتها والا بخلودها وعدم فنائها مع الزمن وهى فيما عدا ذلك كعامة النـــاس تماما تحسد وتغار ، وقد وزع اليونان السلطات بين هذه الآلهة ، ووجهوا عنايتهم الى تمجيـــد ودراسة الجسم الانسانى فأعطوا الآلهة شكله ومثلوها به . ويرتكز المثل

الأعلى اليونانى على أن الانسان هو مقياس كل شىء فى هذا العالم » .

ويعتقد اليونان أن نصيبهم أوفى من نصيب غيرهم من حيث جمـال الأجسام ومن هنـا نشأ طابع الحضارة الاغريقية والثقافة الهلينية وهو تمجيد وتأليه الجمال الجسمى ، ويصف أنيس فريحة هذه الآلهة بأنها تسرح وتمـرح على جبـل اولمبوس وتتصرف تصرف البشر ، فقـد كانوا يحبون ويكرهون ويقتلون ويسرقون ويخطفون نساء بعضهم بعضا ، وبعبارةأخرى كانت آلهـة اليونان أناسا ولكنهم جبـابرة ذوو بأس يتصفون بكل ماهو جميل وبكل ماهو بشع ذميم ، كانوا أناسا يقتدى بفضائلهم ويهزأ برذائلهم، ولذلك لم يشعر اليونانىأمام ربه انه عبد ذليل بحاجة الىالرحمة والشفقة، بل ظل سيد نفسه متيقن أنه سيد الأرض وأن الحياة نهب له ولعبقريتـه ولم ير فى الكون قوة تسحقه » .

وهذه العبارات من كاتب معجب بحضارة الاغريق وبأسلوب مهـذب كثيرا فى تصوير مدى هذه العـلاقة بين الآلهـة والبشر لتكشف عن فهم مختلف كلالاختـلاف وبعيد كل البعـد ، عن مفهوم المسلمين والعرب فى علاقتهم بالله تباركوتعالى هذا الخلاف الجذرى بين الفكر اللاتينى والفكر الاسلامى ينسحب ويمتد منهذه النقطة الى كل القيم والمفاهيم الاجتماعية والسياسية والدينية ويشكلخلافا واضحا بين مفهوم الاسلام ومفهوم الفكر الهلينى، ومنهنا فانه من العسير علىالدعاة الى افراغ الفكر الاسلامى أو الأدب العربى فى قوالب الفكر الغربى أو الفلسفةالهلينية أن يحققوا شيئا، وهذا العسر الذى يواجه دعاة التغريب اليوم ، انما هو صـدى للموقف الذى وقفه المفكرون المسلمون من الفكر الهلينى عندما ترجم الى اللغـة العربية فى القرن الرابع الهجرى وأحدث سجالا عنيفا وصراعا ضخما ، فى محاولة الفلاسفة المسلمين : الكندى والفارابى وابن سينا لتأصيله أو لاسلامه ، وهى المحاولة التى حاولها الفلاسـفة الثـلاثة لصهر الفلسفة اليونانية فى بوتقة الفكر الاسلامى واطار التوحيد . وقـد كانت محاولة جد فاشلة فقد استصفى الفكر الاسلامى من ذلك التراث القديم ما وافق مقوماته ورد الباقى وجاء الأعلام العمالقة : ابن حزم وابن تيمية والغزالى فكشفوا عن مناهج الفكر الاسلامى القادرة على أن تؤدى ماحاول الفلاسفة التماسه من الفكر الهلينى وانتهت دورة ضخمة من دورات الفكر الاسلامى

الى التماس مفاهيم الاسلام والتحرر من الآثار التى حاول أن يفرضها الفكر اليونانى الوثنى ، وقد رفض الفكر الاسلامى مبدأ التبعية للفلسفات اليونانية والفارسية والهندية وعدل انحراف المعتزلة واهل الكلام كما عدل مذاهب الفلاسفة المتصوفة الذين ادخلوا مذاهب وحدة الوجود والحلول والاتحاد وكلها مذاهب لها صلة بالفكر الهلينى .

وبالجملة فقد ظل كفاح المفكرين المسلمين مستمرا اكثر من ثلاثة قرون فى سبيل تحرير الفكر الاسلامى بين هيمنة الفلسفة الهلينية والهندية والفارسية القديمة .

وبالجملة فقد رفضت العقلية الاسلامية الفلسفة اليونانية الالهية ، أما فى مجال الطبيعات والعلوم الرياضية فقد صححت أخطاءها وحولتها الى منهج أصيل مستمد من جوهر القرآن ومفهوم الاسلام للعلم كما حررت علم النجوم من النظرة الغيبية ، كما صححت أضخم النظريات اليونانية فى مجال العلم كاقليدس والطب .

ولعل أبرز ماقاومه الفكر الاسلامى من الهلينية هو نظرة الالحاد والثنائية والوثنية والاباحة ، وهى المظاهر التى ورثها الفكر الغربى والحضارة الغربية ، والتى يحاول دعاة التغريب فرضها من جديد على الفكر الاسلامى والمجتمع الاسلامى باعادة ابتعاث المسرحيات اليونانية والأدب الاغريقى على النحو الذى جرى عليه طه حسين وتلاميذ التبشير والتغريب بحسبانه سلاحا يراد به القضاء على جوهر الفكر الاسلامى ومفهومه الأساسى (التوحيد) .

والقول الحق فى هذا المجال أنه ليس من شأن الفكر الاسلامى وهو فكر له أصالته وتاريخه وحضارته أن يلتمس مقاييس الفكر الغربى أو الاغريقى فى تعليل الكون أو فهم الحياة ، ذلك أن الفلسفة اليونانية ومفاهيم الوثنية انما تتنافى مع التوحيد والنبوة وتعارضها على خط مستقيم ، وتحمل طابع السخرية بالدين والوحى وأبرز مفاهيم اليونان التفرقة بين السادة والعبيد فى المجتمع : واستخدام الرقيق ليقوم بالعمل بينما ينعم السادة بثمار الجهود وهو المفهوم الذى قامت عليه الحضارة الغربية وتوسعت من بعد من خلال الفردية والجنس الأبيض ومفهوم النخبة والصفوة .

البطـــولة

البطولة قيمة من قيم الفكر والمجتمعات الانسانية ولكنها كمختلف القيم الأساسية لها فى كل فكر ومجتمع مفهوم ، فللغرب مفهومه للبطولة الـــذى يختلف عن مفهوم الاسلام والفكر الاسلامى . وفى الغرب اليوم مفهومان للبطولة : مفهوم الفردية ومفهوم الجماعية أو مفهوم الديمقراطيـــة ومفهوم الماركسية . فالمفهوم الأول يستمد أسسه من تقدير الفرد واعلائه وتخليده على النحو الذى يذهب به الى أعلى درجات التقدير ، ومنها اقامة التماثيل وتأليف الكتب والاحتفالات السنوية بمناسبات المولد والوفاة، وهذا المفهوم يؤمن بأن البطل يصنع التاريخ ويعبر عن روح العصر ، وليس ثمرة الأحوال الاجتماعية او المادية وان كل عصر يظفر بالبطل الجدير به . ومن ثم فان الرجل العظيم يوجد فى ابان الحاجة اليه كما يرى هيجل ويرى كارليل أن التاريخ العام فى اعتقاده هو تاريخ من ظهر فى الدنيـــا من العظماء فهم القادة والأئمة وهم المبدعون لكل ماوفق اليه أهل الدنيا . والبطل عنـــده لا تصنعه الحوادث ولا تخلقه الأوهام .

وهناك النظرية الاجتماعية فى البطولة وترى أن الرجل العظيم قبل أن يصنع المجتمع فان المجتمع هو الذى يكونه ويصنعه ، وأن البيئة تصنع العظيم قبل أن يعيد العظيم صنعها . وأن الرجل العظيم نتيجـــة لمؤثرات طويلة متشابكة قد عملت على ايجاد الشعب الذى نبغ فيه .

ويقف الفكر الاسلامى جامعا بين المفهومين رابطا فى دقة ويسر بين الأمرين فالبطل يأتى نتيجة لحاجة المجتمع ثم هو يصنع التاريخ والمجتمع .

والبطولة فى الاسلام تتمثل فى النبى محمد صلى الله عليه وسلم فهو قد أخرجته الجزيرة العربية ثم هو أخرج الجزيرة العربية وغيرها من الظلمات الى النور وغير العالم كله، غير قيمها وغير مفاهيمها القيم كما كان يفهمها الناس قبل الاسلام وجاء برسالة تحمل مفهوما جديدا للبطولة. فقد كانت البطولة العربية قبل الاسلام بطولة الكرم والشجاعة والنجدة، فاحتفظ لها بهذه القيم وغير مفاهيمها حيث كان الكرم من أجل الفخر ، والشجاعة والنجدة من أجل المباهاة فوجه هدف الكرم والشجاعة والنجدة جميعا الى التماس مرضـــاة الله ، ونقاها من زيف الفخر والمباهاة ، ومن هنـــا فان تكريم الأبطال فى

الاسلام يختلف عن تكريمهم فى الأمم المختلفة ، وهو تكريم للبطولة لا للبطل والعمل لا للفرد ، ولا يحمل ضروب الوثنيـــة أو التجسيم أو اعلاء البطل عن انسـانيته أو الفخر ، وقد آمن المسلمون بأن البطولة للفكرة لا للفرد ، فعزل عمر بن الخطاب خالد من قيادة الجيش فى أوج البطولة وهو من لم ينهزم فى معركة ، وقال كلمته التى تمثل مفهـــوم البطولة فى الاســـلام : « خشيت أن يفتن الناس به فأردت أن يعلموا أن الله هو الصانع » .

وهكذا كرم الاسلام العمل ولم يكرم الفرد لذاته ، بينما كرمت الأمم الأخرى الأفراد لذاتهم وغالوا فى تكريمهم وبالغوا فى ذلك حتى بلغوا به درجة التقديس ، وكذلك فعل اليونان والفراعنة فأضافوا الى الناس طبيعة الآلهة وحنطوهم ليظلوا ماثلين الوف السنين واتخـــذوا التمـــاثيل استبقاء لوجودهم المحسوس . أما فى الفكر الاسلامى فلا يخلد البطل لحمه ودمه، أو صناعته من الأحجار والجرانيت وانما يخلد ذكره وعمله . وكـــذلك فهم المسلمون أن البطولة ليست فى الفرد ولكن فى عمله ، فاذا اختار الرسول الرفيق الأعلى فعلى الرســـالة أن تبقى وتستمر ، وكـــذلك فهم المسلمون الأمور « من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبـــد الله فان الله حى لا يموت » والبطولة ليست فى خالد ولـــكن فى عمل خالد ، فاذا عزل خالد فان العمل يجب أن يستمر ، وكذلك اتصل الأمر بتقدير البطولة فى الاسلام فى مفهوم الامام والقائد والحاكم فهو بالموالاة مادام على الحق فاذا انحرف فلا طاعة له على الناس ، ولا يكرم الرجل أو يعظم الا من خلال عمله الصالح ، ومن هنـــا حارب الاسلام الخضوع للامراء والأغنياء لمجرد غناهم ، وعد هذا نوعا من الشرك ، ودعا الى تكريم الفضائل والقيم فى ذاتها أينما كانت ، ومن هنـــا غلب العنصر المعنوى الخـــالد على العنصر المادى الفانى ، وقد اتصل هذا بمفهوم القصة فى الأدب العـــربى ، فهى الى الحقيقة أقرب منها الى الأساطير فى الأدب اليونانى ، والاسلام يكرم العمل ، ويجعل الكلمة مكان الطقوس والاستعراضات ، فمن طريق الكلمة الحق والعمل الايجـــابى تحققت البطولة التى تتمثل فى تحـــرير البشر من الوثنية والظلم ، وفتح آفاق اكتشاف الـــكون والرحـــلة واختراق البلدان والقارات فى البحر والبر ، وتحققت فى ميادين العلم والفـــكر وفى آفاق النفس . وتتجلى البطولة فى مفهوم الاسلام فى أن المـــال وسيلة وليس

غاية ، وأن تقدير الانسان انما يقوم بعمله لا بنسبه ولا شخصه ولا مظهره، وهكذا تمثلت البطولة الاسلامية فى القيم الخالدة كالايمان بالله والايمان بالجزاء والمسئولية واقامة العدل والمساواة وحماية الضعيف وتحريره والمروءة والشرف والوفاء والكرم والنجدة والشجاعة ، وقد ظلت البطولة فى تاريخ المسلمين والى اليوم تستمد مفهومها من هذا المعنى الأصيل فى الاسلام ، كما تمثل هذا المعنى فى القرآن الكريم الذى عرض شخصيات الأنبياء والقادة فى هذا الضوء واعتمد بطولتهم من خلال هذا المفهوم ، وما زال المسلمون يرون فى شخصية رسول الله « المثل الأعلى للبطولة » على النحو الذى اقره الاسلام وطبقه الرسول .

فالبطل المسلم يلتمس بعمله الله ، ولا ينسب لنفسه شيئا من الفخر .

وقصة « صاحب النقب » معروفة ، هذا البطل الذى حقق للمسلمين بعد أكثر من شهرين اقتحام سور دمشق وقد عجزوا عنه ، وكان مما أولاه بالفخر بأنه بعد أكثر من ستين فارسا تقدموا ورجعوا أمام السهام ، ماكان أولاه بأن يعلن اسمه ولكنه أصر على التخفى فلما اضطره القائد الىالاعلان عن نفسه تقدم بعد أن أخذ عليه العهد أن لا يسأله أحد عن اسمه فكان عمل البطل المحارب الذى يقدم نفسه للموت فى كل لحظة موجها الى الله، لا يقصد به كسب مغنم مادى ، أو شهرة شخصية ، ومن هنا فقد كانوا يستقبلون الموت فى غبطة وكانوا يضيقون به اذا ماتأخر عنهم ، والبطولة الاسلامية كانت دوما مسئولية وليست غنما ، عمر بن الخطاب كان لا يعطى أهله الا أقل عطاء ويعاقبهم اذا خالفوا عقابا مضاعفا ، وعمر بن عبدالعزيز ترك كل ثورته وماله والتمس الخشونة . والبطولة الاسلامية كانت عفوا عند القدرة ، فقد سمح صلاح الدين لأهل القدس من الصليبيين أن يخرجوا ثرواتهم وأموالهم وغنائمهم ، ورفض أن يفعل بهم وهو المنتصر ما فعلوا بالمسلمين يوم استيلائهم على القدس من قبل اذ قتلوا ٧٠ الفا من المسلمين.

ولا شك أن هذه المفاهيم للبطولة تختلف اختلافا واضحا عن مفهوم البطولة الغربى الذى يقوم على أسس أخرى ، فبطولة نابليون أو الاسكندر أو قيصر أو غيرهم تختلف اختلافا جوهريا فى دوافعها وغاياتها عن بطولة خالد وسعد بن أبى وقاص وعمر بن الخطاب .

ومع تقدير المسلمين للمثل الأعلى للبطولة فى شخصية الرسول فانهم لم يتخـذوا يوم مولـده أو يوم وفاته عيدا يحتفلون به أو مناسـبة لاقامة المهرجانات ولـكنهم ايمانا بمفهوم البطولة القائم على العمل لا على ذات البطل جعلوا يوم الهجرة : أعظم حدث فى التاريخ هو مناسبة تكريم بطولة الرسول .

ومن هنا فان شبابنا الذى يحاول أن يلتمس مفهوم البطولة من الفكر الغربى لن يصل الى مفهوم الشخصية الاسلامية ولا الى المعنى الاسـلامى وسوف لا تجد الذات العربية أو المزاج العربى الذى صـنعته وكونته قيم اساسية لها مفاهيمها وجوهرها المختلف .

تفســير التـــاريخ

هناك عدد من مذاهب تفســير التـــاريخ بعضها يعتمد على العوامل التاريخية أو الجغرافية أو الأجنـاس وكل تفسير من هذه التفاسير يعلى قيمة معينة ويجعلها اساسا ومصدرا ويخفض من العوامل والقيم الأخرى، واشهر هذه المـذاهب : التفسير المادى للتـاريخ الذى يعـتبر أن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام . والذى يرى أنه لا توجد قيم أصيلة أساسها الدين أو الأخلاق أو التقاليد ، وعيب هـذا المذهب انه يتجاهل جانب المعنويات الحقيقية والقوى الذاتيـة للشعوب . أما تفسير الأجناس فيرد كل العوامل الى الدماء والرسوس(الاعراق) وتفاعلها ، وللعـلامة ولفرد كانتول سميث نظرة جديرة بالاعتبار فى التفريق بين النظرة المادية والنظرة الروحية والنظرة الاسلامية فى فهم التاريخ .

وعنده أن النظرة الروحيـة كالمسيحيـة مثلا يعيش المسيحى فيهـا بشخصية مزدوجة أو عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط . والمثل الأعلى عنده غير قابل للتطبيق ، والواقع البشرى المطبق فى واقع الأرض منقطع عن المثل الأعلى المنشود ، ويسير هذان الخطان فى نفســه متجاورين أو متباعدين ولـكن بغير اتصال والتـاريخ فى نظره هو نقطة ضـعف البشر وهبوطه وانحرافه .

وفى مفهوم الهندوكية (وهى نظرة روحية أيضـا) يقول ان الرجل الهندى لا يأبه للتاريخ ولا يحس بوجوده لأن التاريخ هو ماسجله البشر من أعمال فى عالم المادة وعالم الحس ، والهندى مشغول دائما بعالم الروح ، عالم اللانهائية ومن ثم فكل شىء فى عالم الفناء المحدود لا قيمة له عنده ولا وزن والتاريخ بالنسابة له شىء ساقط من الحساب .

أما فى المذاهب المادية كالماركسية مثلا ، فهو الايمان بحتمية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدى الى الخطوة التالية بطريقة حتمية ، ولكن لايؤمن الا بهذا العالم المحسوس ، بل لا يؤمن فى هذا العالم الا بالمذهب الماركسى وحده وكل شىء عداه باطل . والماركسى يتبع عجلة التاريخ ولكن لايوجهها . ولا يقيسها بأية مقاييس خارجة عنها .

أما فى الفكر الاسلامى فيرى « ولفرد كانتول سميث » (وهو صادق فى هذا الراى) : أن المسلم يحس بالتـاريخ احساسا جادا ، انه يؤمن بأن الله قد وضعنظاما عمليا واقعيا ، يسير البشر فى الأرض علىمقتضاه ، يحاولون دائما أن يصوغوا واقع الأرض فى اطاره ، ومن ثم فهو يعيش كل عمل فردى أو جماعى وكل شعور فردى أو جماعى بمقدار قربه أو بعده من واقع الأرض لأنه قابل للتحقيق .

والتاريخ فى نظر المسلم هو سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله فى الأرض ومن ثم فكل عمل وكل شعور فرديا كان أو جماعيا ذو اهمية بالغة ، لأن الحاضرنتيجة الماضى ، والمستقبل متوقف علىالحاضر ، فالمفهوم الاسلامى واضح الايجابية ، فبينما غير المسلم يضحى بنفسه لأنه لا يريد أن تمر عجلة التاريخ الخاطئة وهو حى وسامح لها بالمرور ، فهو يقف فى طريقها حتى تدوسه وتقتله ، ويكون ذلك أغلى قربان يتقدم به الى الله ، فان المسلم حين يضحى بنفسه ، ففى حسه أن هنـاك نظـاما الهيا يراد أن يطبق فى واقع الأرض ، وفى حسه وهـو يضحى أنه يدفع عجلة هذا النظام خطوة الى الأمام » . ا.هـ

ومن الحق أن يقال أن الفكر الاسلامى له تفسير للتاريخ يختلف عن التفسير الغربى المادى والشرقى الروحى على السـواء . وان التفسـير الغربى لا يصلح لفهم التاريخ الاسلامى .

فالتاريخ الاسلامى لا يمكن فهمه أو تفسيره الا على ضوء النظرة الاسلامية للحياة الانسانية ، وكل تفسير يقوم على غير هذا الأساس ضرب من الخطأ العلمى لا يجوز أن يرتكبه باحث جاد أو مؤرخ يبتغى وجه الحق وحده . ولذلك فان كل مؤرخ عربى يفسر التاريخ الاسلامى وفق منهجه الغربى يقع فى الخطأ الذى يتمثل فى ظاهرة واحدة : هذه الظاهرة هى وحدة المناهج الاسلامية والفكر الاسلامى فى مختلف فروعه وتكاملها . بينما يؤمن الفكر الغربى بتجزئة هذه المفاهيم والفصل بين الله والطبيعة والعلم والدين . (راجع الخبابى — الأقلام : مارس) .

أما روح الفكر الاسلامى وحضارته وتاريخه فتقوم اساسا على وحدة الكون وانسجام قوى الطبيعة واتساقها ، وذلك بحسبان أن الاسلام هو النظام الوحيد الذى يحقق هذا الانسجام لأنه يجمع بين الروح والجسد فى نظام الدين ، والسماء والأرض فى نظام الكون ، ويسلكها فى طريق واحد هو الطريق الى الله . وان الاسلام — والاسلام وحده — هو الذى يجمع بين العلم والدين فى وحدة تامة غير متنافسة ، ومن هنا فان تطبيق منهج التجزئة الغربى يحول بين الباحث وبين الوصول الى الحقيقة ويجعل الأمور أمامه مضطربة غامضة .

هذا من ناحية الفكر الغربى . أما المفهوم المادى فيرى مايرى الدكتور تريتون فى كتابه (الاسلام : عقيدته ومبادئه) « اذا صح فى القول ان التفسير المادى يمكن أن يكون صالحا فى تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى ، وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها ، فان هذا التفسير المادى يفشل فشلا ذريعا حين يرغب فى أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم ، وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم ، وثبات أقدامهم ، فلم يبق أمام المؤرخين الا أن ينظروا فى العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفردية ، فرأوا انها تقع تقع فى هذا الشىء الجديد ، الا وهو الاسلام » .

ويقول (البيان وأيد غراى) ان نظرة المسلمين الى التاريخ نظرة بناءة فهم يرون أن البشرية اذا اعتقدت تعاليم الوحى (القرآن) فان ارادتها حينئذ تتطابق مع ارادة الله » .

الحمـلة الفرنسـية

هناك محاولة دائبة من جانب دعاة التغيب للقول بأن الشرق الاسلامى لم يعـرف « اليقظة » قبل الحمـلة الفرنسية ، وهى دعوى باطلة بواقع التاريخ نفسه ، وهذه الدعوى انما تستهدف القول بأن العالم الاسلامى لم ينهض الا بفضل الغرب ونفوذه ، وأنهم لم يستيقظوا حتى أيقظهم الغرب ، وهو خطأ صريح حيث لاسند تاريخى أو علمى له . فان العالم الاسلامى والأمة العربية قـد استيقظت قبل الحملة الفرنسية بأمد طويل ، هـذه اليقظة بدأت فى منتصف القرن الثامن عشر او حوالى ١٧٤٠ م على التحديد حين انبثقت صيحة الامام محمد بن عبد الوهاب فى قلب الجزيرة العربيـة بدعوة التوحيد ، وما كان لها من أصداء واسعة فى العالم الاسلامى كله .

وهذا الواقع يسبق وصول الحملة الفرنسية بأكثر من نصف قرن ، ويسبق وصول الارساليات التبشيرية بمائة عام على الأقل ، ومن قبـل وصول الحملة الفرنسية كانت حركة العلماء فى الأزهـر قد وضعت أول وثيقة لحقوق الانسان حينما أخذت العهد المـكتوب على الأمراء المماليك بألا يظلموا الرعيـة ولا يفرضوا عليها أى ضرائب أو قيـود ، فاذا كان ذلك كذلك ، فان القـول باعلاء شأن الحملة الفرنسـية ليس الا من دعاوى المستعربين والمستعمرين ، التى ملأت الكتب المدرسية بفضل نفوذهم وجميع المراجع الصحيحة تجمع على أن الحملة الفرنسية لم تكن مصدر نهضـة بقدر ماكانت عامل تعويق للنهضة الأصيلة . والأمم لا تتجسد من خارجها، وانما تتجسد من مصادر فكرها ومن أعماق روحها . ويقول شكرى فيصل فى هذا الصدد « ليس فى تاريخ الشعوب شىء هو اكراه على التمدن ، لأن كل تمدن بالقوة فانما معناه تمدن الأشكال دون الجوهر ، وهو تجديد يتنـاول مظاهر الأشياء دون أن يغوص فى حقائقها ، ويصل الى القول بأن تأثير الحملة الفرنسية كان سلبيا بالغا ، وقد ولدت الحملة الفرنسية فى مصر ما ولدت المعاهـد التبشيرية فى سواحل الشام وبيروت ، ولدت حذرا من المدنية التى مثلوها للنـاس متقاربة مع تقاليدهم وولد الحـذر قلقا ، وامتد القلق والحـذر بتأثير بعض التصرفات السيئة فأصبح تعصبا وكرها ، ويقـول : من المستحيل عقلا أن نتصـور أن الشرق العربى كان

سيظل نائما ، لأن لهـذا الشعب تاريخا فى الحضارة وقدما فى التمـدن وجذورا عريقة ، لقد نهضت الشعوب التى اقل عراقـة كالصين والهنـد واليـابان .

وعنده انه لولا الحملة الفرنسية لاستطاع الشرق العربى أن ينهض نهضة حقيقية ، والشرق له تقبل ذاتى للحضارة ، ليس مفروضا عليه من الخارج ، ولم يعرف المسلمون الموت بل الانحطاط فقط ، وقد مرت بهم كما مرت بغيرهم ادوار الخمول .

ويقول ساطع الحصرى أن الحملة الفرنسية لم يكن لها أى تأثير فى النهضة المصرية ، وانما هى مزاعم واكاذيب نشرتهـا الصـحف والـكتب الفرنسية محاولة بها تدعيم مركزها الثقافى فى مصر ، واقتدى بها كثير من كتاب العالم العربى . ثم يقول : وانا لا استغرب ابدا أن يتوهم بعض الـكتاب من ابنـاء فرنسا أن الحملة الفرنسية خدمت النهضة المصرية . ولا استغرب كذلك أن يتباهى هؤلاء بهذه الخدمة الموهوبة، على أن استغرب استغرابا شديدا كيف يظهر بين كتـاب الأدب من يشارك فى ذلك (آراء واحاديث فى التاريخ والاجتماع) .

الخلافـــة

كانت الخـلافة الاسـلامية هـدفا من اخطر اهـداف الاستعمار والصهيونية ، فقد استطاع السلطان عبد الحميد والدولة العثمانيـة فى اشد مراحل الضعف وهى ترمى من الدول الأوربية بالمؤامـرات من أجل تمزيقها والقضاء على دولة الرجل المريض ، استطاع أن يحمل لواء الوحدة الاسـلامية للأمم الهنـدية والفارسية وجميـع المسلمين من خارج الدول العثمانية لاقامة حاجز ضخم فى وجه الزحف الاستعمارى الغربى . وقـد نجحت دعوته نجاحا قويا اكد وحدةالمسلمين الروحيةوالفكرية والسياسية، وقـد كاد أن يحول ذلك دون مخطط الاستعمار المندفع الى السـيطرة والصهيونية العالمية الطامعة فى السيطرة على فلسطين . ومن هنا كانت تلك الحملة الضخمة التى ساقتها هذه القوى على السلطان عبـد الحميد ورميه باتهامات متعددة اقلها الاستبداد . وقد جرى الباحثون وراء ذلك دون

تبين لحقيقة ما صاغه النفوذ الاستعمارى من صور وهمية مستهدفا القضاء على السلطان عبد الحميد عن طريق الجمعيـات السرية الماسونية التى سيطرت فى سالونيك على جمعية الاتحاد والترقى وساقتها الى اهـدافها بعد اسقاط عبد الحميد من حيث حققت اهـدافها فى تخليها عن طرابلس الغرب وسقوطها فى براثن ايطاليـا ، ومن حيث تسليم فلسطين لليهود والسماح لهم بالاقامة فيها ، ومن حيث دخول الحرب العالميـة الأولى فى صف المانيا وايقاع الخصومة بين العرب والترك وتعليق الاتحاديين لزعماء العرب على المشانق وما جرى بعد ذلك من اقتتال العرب والترك المسلمين لحساب الدول الغربيـة التى سيطرت على الشـام (سوريا ولبنـان) وفلسطين ، ثم تسليم فلسطين للصهيونية العالمية .

ثم كانت الخطوة الثانية فى سبيل اسقاط الخلافة : (علامة الوحدة الاسلامية ودعامتها) وذلك عندما سيطر مصطفى كمال أتاتورك علىتركيا، وتابع بصورة أشد قوة وعنفا مخططات الاتحاديين والماسونية العالميـة ، وكانت خطوته النهائية هى اسقاط الخلافة عام ١٩٢٤ مما فك عروةالوحدة بين المسلمين وأسلمهم للنفوذ الاستعمارى ، ثم وقوف بريطانيا فى وجـه أى دعوة للخلافة ووقوف الغرب كله أمام أى دعوة للجامعة الاسلامية .

وقد دعا أحد الماسون من علماء الأزهر الى وضع كتاب مسخ فيـه مفهوم الخلافة ، وأخرج نظام الحكم فى الاسلام كلية من مفهوم الاسلام ، وحاول أن يقر خطأ كبيرا مفترى هو أن الاسلام دين عبادة جريا وراءمفاهيم الاستعمار والغرب وخدمة للماسونية وأعداء الاسلام .

فتنـــة ١٨٦٠

تحاول كتب التاريخ وبحوث القوميات وغيرها أن تذكر فتنـة ١٨٦٠ على أنها مؤامرة وقعت بين المسلمين والمارون ، اضطرت الدول الأوربيـة الى التـدخل لاقامة نظام خاص فى لبنان ، ومن الحق أن يقال أن هـذا التصور خاطىء من أساسه فلم يكن قبل بوادر النفوذ الأجنبى هنـاك أى خلاف من شأنه أن يوقع بين عناصر الأمة ، فقد كان المسلمون يرعونمختلف الطوائف والأقليات ويتيحون لها حمـاية كافيـة لأداء طقوسـهم ورعاية مصالحهم . ولكن الحقيقة الأكيدة فى فتنة ١٨٦٠ أنها مؤامرة دبرتها الدول

الكبرى لعزل لبنان عن الدولة العثمانية واعدادها كمنطلق لاتمام عزل العالم الاسلامى والبلاد العربية واسقاط الدولة العثمانية ، وقد اكد هذا المعنى كثير من المؤرخين المنصفين فقد احتفت فرنسا بالموارنة وثبتت بريطانيا الدروز ، ووقفت كل دولة وراء واحدة من هذه القوى وأمدتها بالأسلحة وأغرتها بالطائفة الأخرى ، وأثارت بينها الخلافات التى اججت فتنة ١٨٦٠ فلما وقعت الواقعة بين الموارنة والدروز ، وقتل من قتل ، تدخلت فرنسا وبريطانيا باسم وقف المذابح وأرسلت بريطانيا وحدة مكونة من ١٢ الف جندى ، فسارعت فرنسا وأرسلت حملة قوامها سبعة آلاف جندى ، وفرض على الدولة العثمانية اقامة نظام خاص للبنان يمنحه الاستقلال الذاتى تحت رئاسة حاكم مسيحى تختاره الدول الأوربية ويصدق عليه السلطان . وقد ثبت ذلك كله فى تقرير السير ريتشارد وود قنصل انجلترا الى ناظر الخارجية التى نشرته الدولة الانجليزية فى الكتاب الأزرق ١٨٧٨ قال : والذى يبحث بحثا دقيقا فى أسباب الفتنة التى سفكت فيها الدماء فى المشرق يعلم أن الباعث الوحيد على حدوثها هو منبع السياسة الأجنبية التى تنتهز الفرص لايقاد نار الفتنة بين ذوى الأحقاد ولو لم يكن أولئك المفسرون يحسبون أن هذه الفتنة تجر الى القتل والفظائع ، ومن هذا القبيل واقعة الدروز والموارنة وواقعة الصقالبة والبلغاريين وقد تبين ان الاعتداء انما كان يبتدىء من جانب النصارى .

ولم تلبث البعثات التبشيرية أن هرعت الى بيروت وأقامت معاهدها وارسالياتها فى محاولة لفرض نفوذ ثقافى غربى على أبناء المارون ، وقد بدأت الارساليات الفرنسية هذا العمل ولحقت بها البعثات الأمريكية ،ولم تلبث بعد قليل ان أصبحت مصدرا خطيرا لتصدير صحفيين وكتاب الى مصر ومختلف أنحاء العالم العربى ، ومما يذكر أن سركيس وصروف ونمر ومكاريوس وزيدان وفرح أنطون وشبلى شميل هم الدفعة الأولى من خريجى هذه المعاهد وهم الذين تصدروا الصحافة العربية فى مصر ، وكانوا أصحاب الحملة العنيفة على الدولة العثمانية وعلى السلطان عبدالحميد وهم الذين مهدوا للنفوذ الاستعمارى والصهيونية ولفصل العرب عن الترك وتقسيم البلاد العربية بين الصهيونية وفرنسا وانجلترا .

الـكشف

أطلق تعبير الاستكشاف (Explaration) على الحملات الاستعمارية والتبشيرية التى قام بها الغرب فى قلب القارة الأفريقية بدعوى أنها كانت منـاطق مجهولة ، وان أمثـال ولفنجستون وصمويل بيكر وغـيرهم كانوا مكتشفين روادا بينما تؤكد الحقائق ان المؤرخين العرب قـد جاسوا خلال هذه المناطق وكتبوا عنها فى مؤلفاتهم . فقد وصل ابن بطوطة الى أعالى نهر النيجر والى تمبكتو وسكوتو قبل أن يصل اليهـا الرواد الأوربيون ، وأول من أشار اليها وذلك بنحو ثلاثة قرون .

ويحاول الاستعماريون أن يرددوا هذه الشبهة وان يفرضوها على كتب المدارس فى البلاد المستعمرة ، مدعين أنهم اكتشفوا الهند مثلا ، بينما كانت الهند معروفة فى القارة الأوربية فى العصور القديمة ، وذلك قبـل وصول ماركبولو (١٢٥٤ — ١٣٢٤) الذى وصل الى فارس وأفغانستان وبكين والتبت ، أو فاسكو دى جاما الذى أبحر حول أفريقيا عام ١٤٩٧ ومنها الى الهند .

يضاف الى هذا ذلك الادعاء الذى ردده الاستعمار من أن (صمويل بيكر) هو الذى اكتشف منابع النيل الأبيض مع أن هذه المنابع لم تكن مجهولة فى وقت ما ، وكانت حقيقة تفرض أن يقال أنه أول من وصف هذه الأصقاع ، أما الذين قادوه اليها فهم رجال الحملة المصرية .

والواقع أن ما وصـف بأنه رحلات الـكشف هـذه لم تكن الا خطة الاستعمار التى فرضتها الدول الأوربية وفى مقدمتها (أسبانيا والبرتغال) بعد تحررها من النفوذ العربى الاسلامى فى الأنـدلس فى محاولة لتطويق عالم الاسلام .

وقـد أشار ولفنستون فى احـدى كتاباته الى هذا المعنى حين قال « ان نهاية الاكتشاف الجغرافى هى بداية العمل التبشيرى » فان الارساليات التبشيرية كانت تتحرك وراء هؤلاء الرحالة ، الذين كانوا فى الأصل دعاة ومبشرين .

وليس هــذا استنتاجا وانما هو نص من مصـــادر تاريخية مدعومة بالأسانيد حيث يقول رولاند اوليفر في كتابه : (العامل التبشيرى فى شرق أفريقيا) ما يأتي بالنص :

ولقــد أعد ولفنسجتون نفسه منذ سنواته الأولى حينما كان يعمل فى جمعية التبشير اللندنيـــة للاطلاع بمشـــاعل التبشير الخاصـــة بأفريقيـــة الاستوائيـــة ، وبالعمل بين شـــعوب فطرية فى بلاد لم يكن قـــد سكنها الأوربيون ، وفى عام ١٨٤٩ كان ولفنجستون لايزال يفكر بطبيعة الحال ، فى التجارة أكثر من الاستعمار ، وبما أنه كان أولا وقبل كل شىء مبشرا مسيحيا ، فلقد اختـــار كعضو فى هــذه الحركة التبشيرية أن يبحث عن نهر تستطيع السفن أن تمخر فيه الى داخل البلاد . لقـــد اراد ولفنجستون أن يستكشف طرقا فى أفريقيا للمبشرين لا للمدنية ، كان ولفنجستون مبشرا قبل أن يكون رحالة ولم تكن رحلته المشهورة الا تمهيدا للبعثات التبشيرية »

أما فاسكو دى جاما فقد لقى من كتبنا المدرسية اهتماما كبيرا وصور بصورة البطولة . بينما تكشف الحقيقـــة عن صورة بشعة لأعمال فاسكو دى جاما وغيره من طلائع الفتح والاستعمار وما قاموا به من ظلم وبطش، وتصف الكتب التاريخية الموثوق بها (دى جاما) بأنه من أقسى خصـــوم المسلمين ، ففى رحلاته الى آسيا ضرب بمدافعـــه الثقيلة المراكب العزلاء التى تنقل حجاج الى مكة فأحرقها بعد أن نقل أموالهم وأمتعتهم الى اسطوله وبعد أن حظر على رجاله انقاذ الغرقى ومنهم النساء والرجال حتى هلكوا جميعا الا عشرين طفلا بعث بهم (دى جاما) الى البرتغال حيث حملوا على اعتناق النصرانية .

هذه واحدة مما فعله دى جاما الذى تحاول أن تصوره كتب التاريخ فى العالم العربى كله على أنه مكتشف عظيم بينما أن (دى جاما) لم يكتشف شيئا وهو لم يصل فى حيـــاته الى كالـــكوتا ولم يستقبه الحاكم الهنـــدى لأن البرتغالى (بارتلمى دياز) كان قـــد بلغ رأس الرجاء صالح قبل فاسكو دى جاما بعشر سنين فضـــلا عن أن عبور المحيط الهنـــدى من ســـواحل أفريقية الشرقيـــة الى آسيا كان معروفا من التجـــار العرب والهنود منذ قرون عن بحث للدكتور بدر الدين القاسم (مجلة المعلم العربى) .

أما هنرى الملاح البرتغالى (١٣٩٤ — ١٤٦٠) فان حقده على العرب والمسلمين واضح وصريح ، فقد حمل فى ريعان شبابه على مدينـــة سبتة التى انطلق منها طارق بن زياد الى الأندلس ثم تصدى لمدينة طنجة المسلمة فرد على أعقابه ، واسس مدرسة بحرية ضمت رجالا حملوا لواء تجــديد الحروب الصليبية وخوله البـــابا نيقولا الخامس حق الفتح والاستيلاءعلى جميع البـــلاد حتى الهند ، أما الرحالة البوكرك فقــد كتب الى ملكه يفخر بأنه ذبح جميع مسلمى مدينة جوا وجعلهم اكداسا فى المساجد ثم احرقها، وأنه أشعل النار فى سفن المسلمين ، ومع ذلك فان هذا السفاح يذكر فى كتب التاريخ العربية بأنه فاتح منتصر .

محــاكم التفتيش

كانت محاكم التفتيش من أسودصفحات الغرب الأوربى خلالالعصور الوسطى بالاضافة الى الحروب الصليبية وغزو الفرنجة للدولة الاسلامية فى الأندلس .

وقد شكلت محاكم التفتيش بطلب الراهب توركماندا وقامت بأعمالها ثمانية عشر عاما (١٤٨١ — ١٤٩٩) وقد حكمت على عشرة آلاف ومائتين وعشرين شخصا بأن يحرقوا احيـــاء فأحرقوا وعلى ٦٠٦٨ بالشنق بعــد التشهير فشهروا وشنقوا وعلى ٩٧٠٢٣ بعقوبات مختلفـــة فنفــذت وكان ذنبهم أنهم يعلمون علوم المسلمين والعرب من حكمة وفلك ورياضة .

وقد قاومت محاكم التفتيش دعوات حرية الفكر وقامت فى مواجهة البروتستانية التى ادالت من الـــكاثوليكية ، ثم عملت محاكم التفتيش فى سبيل اخـــراج بقـــايا المسلمين فى الأندلس من الاســـلام وتحويلهم الى المسيحية .

وقد كان القديس أوغسطين وتوما الأكوينى كلاهمــا يبرر الاضطهاد والتعذيب مادامت الاغلبية ترى فى ذلك الطريق الى الله . (اقــرأ كتاب محاكم التفتيش لعلى مظهر) .

ما قبل الاســلام

كان من أحرص ماعمدت اليه دعوات التغريب اثارة تاريخ ما قبـل الاسلام والاذاعة به وتوسيع البحث فيه وذلك عن طريق البعثات الأثرية، وابتعاث الدعوات الفرعونية والفينيقية والأشورية والبابليـة والبربرية ، وذلك من أجل أعادة المسلمين والعرب الى ماضيهم الوثنى قبل الاسلام ، واعلاء هذا الماضى وتزيينه . وكان للكشوف الأثرية التى حـرص النفوذ الاستعمارى على استغلالها أبعـد الأثر ، ففى مصر كان كشف قبر توت عنخ أمون فى العقد الثانى من هـذا القرن وما وجد فيـه من آثار عجيبة منطلقا للدعوة الى الفرعونية فى مواجهة الدعوات العربية والاسلامية ، وقـد جرى المصريون شـوطا فى هـذا المجال ، من حيث بنـاء القبور والقصور على الأنماط الفرعونية والدعوة الى لغة وأدب وتراث فرعونى، غير أن حملة هـذه الدعوة لم يلبثوا أن فشلوا وعجزوا عن تحقيق وجود مثل هذا التراث ، ووجدوا أن الصـلة قـد انقطعت بين المصريين وبين الفرعونية خلال أربعـة عشر قرنا كاملا ، وذلك بالاسـلام الذى غـير النفسية والعقلية والمزاج المصرى والعربى مغايرة كاملة بعد أن أخرجهمن الوثنية ودفعـه الى التوحيد والى منهج ربانى قـوامه الفطرة ، تقبـله المصريون تقبلا ضخما وتصدروا به العالم الاسلامى كله .

وما تزال هذه المحاولات تجرى فى بيروت وفى غيرها ، وللبنـانيين العـذر فى التعلق بالدعوة الفينيقية نظرا لارتباط غير المسلمين بها ، وما لهم من نفوذ فكرى واجتماعى يغذيه النفوذ الاستعمارى الطامع فى تمزيق وحدة الأمة العربيـة والحيلولة دون اجتماعها على فكر موحد يدفعها الى الأمام بقوة .

ولقد كان الاستعمار والتغريب والصهيونية والماسونية والتبشير على اهتمام موحد بالدعوات القديمة التى كانت قبل الاسلام وهى كثيرة : منهـا الدعوات الفرعونية والبـابلية وغيرها ومنهـا التراث اليونانى الاغريقى الوثنى بما يحمل من أساطير وملاحم وفلسفة الهية مسرفـة فى التعارض مع التوحيد ، فضلا عن الجاهلية العربيـة التى قامت على عبادة الأوثان والأصنام ، ومن هنـا اتخذت الصهيونية العالميـة والاستعمار ودعوات

التغريب والتبشير من هـذا التراث القديم كله بما يتصل بالفلسفات الهندية القديمة القائمة على وحدة الوجود والحلول والاتحاد والفلسفات المجوسية الفارسية القديمة وغيرها مما يطلق عليه (الغنوصـية) بالاضـافة الى الاغريقيـة الوثنيـة ، اتخـذت من كل ذلك تراثا تصدر عنـه القصص والمسرحيات والمترجمات والـكتب ليكون عملا من عوامل تدمير القيم العربية الاسلامية ، ويحـاول أن يرد المسلمين عن التوحيـد والنبـوة والـدين الحق عامة .

معركة سانت بارتلمى

من أبرز الفوارق بين الشرق والغرب ، وبين النزاع الدينى فى أوربا ، وما ليس له مثيل فى العالم الاسلامى ، هذا النزاع الذى قام بين الكاثوليك والبروتستانت وكانت معركة (سانت بارتلمى) أقسى صوره ، فقد قتل فيها نحو مائة الف بسبب التعصب المـذهبى ، وقد عرف الاسلام بعض صور الاختلاف المذهبى بين الحنابلة والشافعية ، او بين السنة والشيعة ولكن ما من خلاف بين هذه المذاهب زاد عن المعـارك الـكلامية . اما فى أوربا فالصورة مختلفة .

وقد وقعت معركة سانت بارتلمى فى القرن السادس عشر وفى عام ١٥٧٢ على التحقيق وفقدت فرنسا بها زهرة رجالها من أهل العقل والفطنة والحرية والعلم والصناعة .

ويعزى المؤرخون سبب هـذه المجزرة الى الحقـد الدينى فى أقسى أشكاله ، وذلك انه لـما ظهر المـذهب البروتستانتى فى المانيا فى أوائل القرن السادس عشر وامتد منها الى سائر ممالك أوربا أصاب فرنسا منه جانبا هاما ، فقد انحاز الى البروتستانتية كل من كان ناقمـا على سلوك الكنيسة الكاثوليكية اذ ذاك .

وكانت البروتستانتية فى الواقع ثمرة العلم الاسلامى الذى تدافع الى أوربا ، وأنشأ جوا من حرية الضمير وحرية البحث .

لم يرق فى عين الملكة كاترين دوق يسى أم ملك فرنسا شارل التاسع

أن تنتشر البروتستانتية فعزمت على احداث مقتلة عامة تكون سببا فى افناء البروتستان الفرنسيين وقطع دابرهم اجمعين، وكانت يد الكنيسة الكاثوليكية فى تدبير هذه المكيدة العظيمة فى ٢٤ أغسطس ١٥٧١ ، فلما دقت الكنائس اجراسها كان ذلك اشارة للجنود والمتطوعين بالبدء فى الفتك بالبروتستان فدهموا بيوتهم وفى ايديهم المشاعل تضىء لهم الطريق فى الليل الدامس ، واخذوا يفتكون بأولئك الأبرياء مرتكبين من القسوة والوحشية ما يندر مثله فى تاريخ البشر ، حيث بقروا بطون الحوامل وأخرجوا الأجنة ثم القوها للكلاب والخنازير ، وكانوا يسلمون الأطفال الذين فى المهد الصغار الذين فى سن العشر سنين من اولاد الكاثوليك ويأمرونهم بقتلهم حزا من أعناقهم فى أسواق باريز ، ولم يزالوا كذلك حتى سالت شوارع المدينة بالدماء وعجت الأصوات الى السماء .

وتكرر حدوث مثل هذا فى كثير من مدائن فرنسا .

ومن أعجب ما وقع أن الكنائس دقت مرة أخرى فى اليوم التالى فظن أتباع الحقد الدينى بأن ذلك امرا مجددا باستئناف القتال فانحوا على اخوانهم قتلا ونهبا وتمثيلا بأشد مما فعلوا بالأمس ، واستمرت المجزرة الى اليوم الثالث وبعده ثم استحالت الى مذابح فردية طوال شهرى سبتمبر واكتوبر فى باريس وغيرها .

مكتبة الاسكندرية

جرت محاولة التغريب على الصاق حريق مكتبة الاسكندرية بالمسلمين، وجارى المستشرقين فى هذه الدعوى نفر من الكتاب فى مقدمتهم جرجى زيدان وطه حسين ، بينما دافع عن العرب بعض كتاب الغرب وفى مقدمتهم العلامة جيبون فى كتابه سقوط الدولة الرومانية حيث قال : أن هذه الفرية لفقها على المسلمين « أبو الفرج العبرى » فى كتابه مختصر الدول ، وقد ترجم الى اللغة اللاتينية فتلقفها أهل الغرض من الفرنجة فأذاعوها ، فأشار جيبون الى براءة عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص من التآمر على حريق مكتبة الاسكندرية ، واثبت أن الذى أحرقها انما هم الرومان بمراكبهم الحربية فى حصارها لجيوش كليوباتره بقيادة يوليوس قيصر .

قال جيبون : تأكدت أنها أحرقت قبل الاسلام بمائتى عام ، وأن أبو الفرج ابن العبرى لفق الفرية بعد الاسلام بنحو ستمائة سنة ، ولم يتعرض قبل أبى الفرج مؤرخ واحد لذلك ، حتى أن بطريك الاسكندرية (افتيكوس) مع توسعه فى الكلام على استيلاء المسلمين على ثغر مصر لم يذكر كلمة واحدة عن حريق عمرو بن العاص لهذه الخزانة .

وكان الرحالة البغدادى قد زار مصر فى عهد الملك الكامل فنقل هذه التهمة وقد طبعت رحلته فى اكسفورد سنة ١٨٠٠ وهى محشوة بالخرافات والأكاذيب . وقال لطفى جمعه انه كان أفاتيا (Enentu Rier) نظنه ينتمى الى حلب ويسمونه (التيس الملتحى) وقد نقض هذه الرواية واشنطون ارفنج وفليه وغيرهم كما نقضها ارنست رينان الذى قال فى خطاب له فى المجتمع العلمى الفرنسى : انه لا يعتقد أن عمرو هو الذى أحرق خزانة الاسكندرية لأنها احرقت قبله بزمن طويل .

مصر للمصريين

هذه كلمة حق أريد بها باطل كما يقولون : فان مصر للمصريين دعوة صحيحة اذا أريد بها الوقوف فى وجه الاستعمار البريطانى الذى سيطر على مصر عام ١٨٨٢ ، أما والاستعمار البريطانى هو الذى رفع هذا الشعار فانه أبلغ العجب ، فقد اراد به اخراج المصريين من امرين (١) من الأمة العربية المجاورة لهم والتى تربطهم بها اللغة والتاريخ والجوار والمصالح الاقتصادية والاجتماعية (٢) ومن العالم الاسلامى الذى هو الامتداد الطبيعى للأمة العربية فكرا ودينا وثقافة (٣) ومن الاسلام نفسه وهو المنهج الفكرى والاجتماعى للمصريين وللعرب والمسلمين جميعا .

ولذلك فقد جاءت كلمة (مصر للمصريين) مضادة لكل دعوة وطنية عربية اسلامية تريد أن تضع مصر فى مكانها الصحيح من الأمة العربية ومن العالم الاسلامى ومن الاسلام نفسه ، ولكن الاستعمار قدمها عن طريق بعض الفلاسفة القادرين على التمويه والتضليل فبدت براقة لامعة ، بينما كان المصريون يدعون اساسا الى التحرر من نفوذ الاستعمار البريطانى والغربى ، أما الصلة التى كانت قائمة بين المصريين والدولة العثمانية فلم تكن استعمارا بأى معنى من معانى الاستعمار ، بل كان ترابطا بين جنسين

يجمعهما فكر واحد ، ولقد جاء العثمانيون الى العالم العربى : الشام ومصر والمغرب بدعوة من اهله وحماية له ، وتوسيعا لجبهة المقاومة مع النفوذ الأوربى الاستعمارى الصليبى ، الذى حاول معاودة غزوه لمصر والشـــام كرة اخرى بعد أن انسحق نفوذه فى الحروب الصليبية ، فكانت تلك الوحدة الاسلامية : العثمانية العربية عاملا من عوامل القوة خلال أكثر من أربعمائة سنة (١٥١٧ — ١٩١٧) اضـــطر النفوذ الاستعمارى خلالها الى تطويق العالم الاســـلامى دون أن يتمكن من السيطرة على البحر الأبيض نتيجـــة هذه الوحدة .

ومن هنا فقد كان لطفى السيد وجماعـــة الجريدة وحزب الأمة غير صادقين فى الدعوة الى مصر للمصريين فقد كانوا باعترافهم على ولاء مع النفوذ البريطانى فى مصر وكانوا حيث سـماهم كرومر : (الـــذين التقوا بالانجليز فى منتصف الطريق) وهم بدائل الاستعمار وخلفائه (لطفى السيد وسعد زغلول وعبد العزيز فهمى) وغيرهم هم تلاميذ مدرسة كرومر التى قامت على أساس فلسفته التى رسمها فى تقاريره السنوية .

ارساليـــات لبنـــــان

ترددت كلمات كثيرة تحاول ان تعطى دورا من البطولة للارساليـــات التبشيرية اللبنانية التى وردت الى العالم العربى فى منتصف القرن الماضى واقامت عددا من المعاهد والمدارس يحاول بعض الداعين الى تزييف الوثائع التاريخية بأن ينسبوا النهضة العلمية والأدبية والتعليمية فى العالم العربى الى هذه الارساليات والى خريجيها الذين وردوا الى مصر فأنشأوا الصحف من امثال فارس ونمر وصروف وسركيس ومن تابعهم من أمثال جرجى زيدان وفرج انطون واديب اسحق وسليم عنجورى .

ومن الحق ان يقال ان اليقظة العربية الاسلامية بدات بانبعاث صوت الامام محمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية وبالدعوة التى صدع بها العلماء فى الأزهر ، وما قامت به النهضة المصرية أيام محمد على من ترجمة وتأليف وكل هذه سبقت تلك الدعاوى التى يحاول بعض المبشرين واتباعهم أن يصوروها منطلقا للنهضة الفكرية والأدبيـــة والاجتماعيـــة فى العالم العربى .

بل ان الصيحة التى انطلقت من منابر هذه الارساليات والتى كانت تحمل الدعوة الى العروبة لم تكن خالصة ولا صادقة وانما كانت فى اساسها دعوة الى اخراج لبنان من الرابطة العثمانية العربية على النحو الذى أراده النفوذ الاستعمارى بأحداث ١٨٦٠ والتى انتهت بسيطرة النفوذ الفرنسى والبريطانى على لبنان لتكون منطلقا للارساليات ولتمزيق الجامعة التركية العربية التى كات تقف فى وجه النفوذ الاستعمارى .

أما الدعوة الى الوحدة العربية كحركة أصيلة فهى التى قام بها العرب فى مواجهة حركة الدعوة الطورانية التى قام بها فى الدولة العثمانية (جماعة تركيا الفتاة والاتحاد والترقى) وكانت هويتهم مع النفوذ الغربى للقضاء على الروابط العربية التركية .

الباب السابع

السياسة

الاستعمار
الاستعمار التركى
الأقليات
الاقليمية
الرجل الأبيض
الجامعة الاسلامية
الجنس
العالمية
الوطنية
الاتحاديون وليس السلطان

الاستعمار

كلمة من أسماء الأضداد فهى اشتقاق من التعمير ، بينما هى تحمل فى مفهومها معنى السيطرة والغزو والفتح ، وهى شبيهة بكلمة الاستكشاف الذى كان مقدمة للغزو والاستعمار ، وهى متصلة أيضا بكلمة « امبريالية » التى تعنى التوسع الاستعمارى . ولها امتدادان جديدان هما الاستعمار الجديد والاستعمار الثقافى ، ومن الحق أن يقال أن الاستعمار بهذه الصورة يختلف اختلافا بينا عن الاستعمار القديم المتمثل فى الدول الفارسية والرومانية والبيزنطية . ذلك لأن الاستعمار الحديث قد ارتبط بالحضارة من ناحية وبدأ كأنما هو ثمرة لها أو وسيلة من وسائل نموها حصولا على الخامات وتصريفا للمنتجات ، ولكن أظهر مظاهره أنه حمل معه أساليبه وفكره وقيمه فحاول فرضها على الدول التى استعمرها ، وحاول أن يقيم سيطرة كاملة على الأرض والانسان والحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية . ومن هنا فقد اختلف اختلافا ضخما عن صورة الاستعمار القديم . وقد بدأ الاستعمار من قارة أوربا وجعل مجاله الحيوى عبر قارتى أفريقيا وآسيا ، واتخذ لذلك أساليب بعيدة كل البعد عن التعامل الأخلاقى ، بل فرض أسلوبا من السيطرة والاذلال والقمع والتفكك على نحو بعيد كل البعد عن أساليب المدنية أو قيم الحضارة ، وقد كان الاستعمار فى خطوته يحمل هدفين أحدهما ظاهر والآخر خفى ، أما الظاهر فهو السيطرة على مقدرات الشعوب ، وفرض نفوذ كامل يحمل طابع الاستعلاء ويحمل فى نفس الوقت طابع الاستمرار فأوربا صاحبة الحضارة ليس لها موارد الا ما تستطيع أن تحصل عليه من مستعمراتها، وهى تحصل عليه على أنه حق ، ولا تنظر الى أصحابه الا على أنهم عبيد تابعون يجب أن يظلوا خاضعين مكتفين بالحصول على أقل قدر ممكن من الأجر فى مقابل حصول الاستعمار على مقدراتهم وثرواتهم الضخمة التى لا حصر لها . أما الوجه الخفى للاستعمار فانما يتمثل فى ذلك المخطط الذى يهدف الى استمرار الاستعمار واتصاله على مدى الأزمنة وهو أمر لايمكن

ان يتحقق الا اذا احتوت الحضارة الاستعمارية هـذه الشعوب والأمم فى وجودها ومفاهيمها وحضارتها وثقافتها والقضاء على كل الطـوابع التى تحملها هذه الأمم ، وتدمير القيم الاساسية لها وصهرها فى بوتقة الثقافة والحضارة الغربيـة على اساس انها حضارة الانسان الأبيض للسيدالمدن الذى وكلت اليه العناية الالهية تمدين المتـأخرين والسود والملونين ، ومن هنـا فقد نظم الاستعمار فلسفة كاملة لهدفه هـذا جعل لها طابعا علميا ومظهرا وضـاء واخفى فى داخلها اغراضه الخفية وهى ادماج شـعوب أفريقيا وآسيا ادماجا كاملا فى الحضارة الغربية وفكرها والتخلص الكامل من قيم هـذه الشعوب وذاتيتهم ، ولـما كانت هذه الشعوب الأفريقيـة والآسيوية شعوبا عريقة ولها حضارات باذخة وتاريخ طويل وماض عريض فقد قاومت مقاومة جسورة جبارة ، وكانت الحضـارة الاسلامية اشـدها مقاومة بحسبانها احـدث هـذه الحضـارات واكثرهـا اتساعا وأكثرها ارتباطا بالحيـاة ، فان اغلب تلك الحضارات كانت قد ماتت أو انطوت ، أما الحضارة الاسلامية العربيـة فانها كانت لاتزال نابضـة متفـاعلة مع الحياة ، وأن اعترتها مرحلة من مراحل الضعف ، وهى احدى سنن الأمم والحضارات بعد دورة بلغت الف عام ويزيد ، ولقد كان الاستعمار يعرف مدى خطر هـذه الحضارات على وجوده ومدى خطر مفاهيمها على بقائه، ومدى قدرتها على المقاومة والمواجهة والصمود ، ولذلك فقد كان ضغطه عليها اشد وكان حربه لأهلها وتدميره لثوراتها وقضاؤه على قادة فـكرها أشد وأعنف .

وقد بدأت جولة الاستعمار الحديث منذ أوائل القرن الخـامس عشر الميلادى مما أطلق عليه تطويق العالم الاسلامى ، وانتهت فأطبقت عليه منذ الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٠ الى أن تمت السيطرة عليه فى نهـاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ على نحو تمثل فى استعمار مباشر واحتلال وانتداب ، ثم فى صك باقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين .

وقد شهد العالم فى خلال هذه الفترة حركة واسعة النطاق للاستيلاء على الأجزاء والوحدات المختلفة فى أفريقيا وآسيا ولا سيما القارة الأفريقية فى العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر حيث كان الصراع عنيفا بين فرنسا وانجلترا والمانيا وبلجيكا والبرتغال . ثم كانت حركة تمزيق الدولة

العثمانية والقضاء عليها وتوزيع الأجزاء العربيــة بين ايطاليــا وانجلترا وفرنسا وأسبانيا . وكانت الخطوات الأولى أن رجع الاستعمار عن أساليبه وغير من خططــه وان لم يتراجع عن هــدفه الأســاسى فأجلت الــدول المستعمرة اغلب جيوشها واكتفت بالاتفاقيـــات والمعاهـــدات والنفوذ الاقتصـــادى وربطت الأقطار بنقــدها واقتصـــادها ، وظلت قادرة على السيطرة على الموارد والثروات والخامات واطلق على هذا النوع من النفوذ « الاستعمار الجديد » .

والاستعمار الجـــديد هو فرض الســيطرة الأجنبيــة من ســياسية واقتصادية، على دولة ما مع الاعتراف باستقلالها وسياستها ودون الاعتماد فى تحقيق ذلك على اساليب الاستعمار التقليدية واهمها الاحتلال العسكرى، ويطلق على هذا الاسلوب الاستعمارى اسم (الامبريالية الجديدة) ويستخدم الاستعمار الجديد فى تحقيق اغراضه وسائل خاصة لتحاشى المعارضــة الشعبية الوطنية ، ومن ذلك الاتفاقيات الثنائية غير المتكافئة وتكبيل الدول النامية بشروط تحرمها من حرية التصرف والضغط عليها ، تتمثل فى صورة معونات وقروض ، وقامة القواعد العسكرية واثارة الاضطرابات ووضعها تحت السيطرة الأجنبية وتشجيع الاقليــات البيضــاء التى تتمتع بامتيــاز اقتصادى وثقافى بارتقاء السلطة وممارسة سياسة التمييز العنصرى فضلا عن استخدام المنظمات الدولية التى تقوم عليها الدول الكبرى بدور رئيسى فى الضغط على الدول النامية وتوجيه سياستها .

ويتصل بهذا الاستعمار الجديد : الاستعمار الثقافى وهو أشد خطرا واخفى اثرا ، ويتمثل فى الغزو الفكرى للدولة المسيطرة عن طريق مؤلفاتها واخلاقها وكتاباتها ومذاهبها ودعواتها والترويج لها فى الشعوب الضعيفة الواقعة تحت نفــوذها السياسى والاقتصـــادى ، ويتمثل هــذا النوع فى الارساليات التبشيرية والمدارس الأجنبية والصحف والمؤلفات والأفــلام ، وتقوم هذه المؤسسات بدور كبير فى مجال الثقافة والصحافة والتعليم ، وتعمل على تغيير القيم الأساسية للأمم وفرض مفاهيم مختلفة عن مفاهيمها التى تتمثل فيها روحها وطابعها وذوقها ، ويصب الاستعمار الثقافى اخطاره على اللغة والتاريخ والدين والعقائد ، فينشر حولهــا جوا من التشــكيك

والسخرية ويفتتح الطريق للالحاد والاباحية والتحلل والدعوات الوجودية المادية والوثنية .

الاستعمار التركى

تتردد على ألسنة الكتاب كلمة الاحتلال التركى والاحتلال الغربى ، وتوصف الأمة العربيــة بأنها وقعت تحت سيطرة استعمارين واحتلالين . وايراد العبارات على هــذا النحو أمر مقصود له هدف بعيد : هو تصوير العلاقة التى كانت بين العرب والأتراك على أنها علاقة استعمار او احتلال وهــذا مناقض للتــاريخ والواقع معا ، فالرابطة التى قامت منذ ١٥١٧م حتى ١٩١٨ م بين العرب والترك داخل نطاق الدولة العثمانية لم تكن فى الحقيقة احتلالا ولا شبيهه .

وانما كانت محاولة من محاولات الوحدة والالتقاء بين اقطار العــالم الاسلامى فى مواجهة الأخطار ، وقــد جاءت هذه الوحدة على أثر ضعف قوى السلاجقة والمماليك من بعدهم وتعرض البلاد العربية وخاصــة مصر والشام لتجــدد اخطــار الغزو الصليبى الغربى والتحــركات التى بداها الاوربيون مرة أخرى لاستئناف الحروب الصليبية . والمعروف أن العرب قــد رحبوا بالوحدة الاسلامية العثمانية بعد أن ضعفت قوى المماليك فى مصر وقوى البربر فى المغرب وأصبحوا هــدفا لمحاولات صليبية جديدة ، وقــد وجدوا فى العثمانيين اخوتهم فى العقيدة منتعشا جديدا للاسلام وقوة شابة بدوية مقاتلة ، رفعت راية الاسلام عالية خفاقة وأعادت ذكرى الأبطال فى سبيل اعزاز الاسلام ونشره .

كما رحب العرب فى مصر والشام بالوحدة الاسلامية العثمانية بعــد أن نقموا على دولة المماليك اهمالها شأنهم فى المرحلة الأخيرة فحــاربوا فى صفوف العثمانيين والواقع انه لم يكن فى هذه المرحلة خلاف جذرى بين العرب والترك ، فقد كان الطابع الاسلامى هو مظهر الوحدة الأساسية بين العناصر المختلفة والوحدات المنضمة تحت لواء الوحدة الاسلامية .

ومن حق أن يقــال أن العثمانيين قــد قاموا فى هذه المرحلة الأولى بتمثل مفهوم الاسلام فى نطاق الحكم وتحركوا من خلال اطاره . ويشــهد

المؤرخون بأن العثمانيين قد اقتفوا اثر الخلفاء الأولين فى العدل والتسامح وتمثلوا اعمالهم واتخذوهم قدوة ، وعملوا على جمع القلوب اليهم بتقدير العلماء الاتقياء وانشاء الجوامع والمدارس .

ومن هنـــا فان القول بأن هـــذه الرابطة بين العرب والترك كانت استعمارا انما هو من النظريات المشبوهة والعبارات المدخولة التى يحاول الغزو الفكرى والتبشير والتغريب اذاعتها واقرارها فى الأذهان .

اما ما كان من الخـــلاف بين الترك والعـــرب بعـــد تنحى السلطان عبد الحميد وفى ظل حكم الاتحاديين دعاة الطورانية فـــذلك هو الخـــلاف الحقيقى الذى يموه عليه خصوم المسلمين والعـــرب ويصفونه بأنه خلاف بين الترك والعرب وهو فى الحقيقة خلاف بين الاتحاديين اتباع الماسونية واعوان الصهيونية وبين العرب الذين تصدروا للزعامة فى هذه الفترة .

الأقليـــات

قضـــية الأقليات نتـــاج استعمارى اصيل ، فهى الأداة التى حاول الاستعمار استغلالها لتحقيـــق غاياته وتركيز وجوده . وهى من الوسائل التى اتخذتها الدول الأجنبية سبيلها لتحطيم الامبراطورية العثمانية وبسط نفوذها على بلاد الشرق فقـــد لجأت هذه الدول الى استغلال هذه الأقليات الطائفية (كالأقليـــة اليهودية والأرمنية) وغيرها للثورة على العثمانيين ثم جاء الوقت الذى اعلنت فيه كل دولة كبرى حمايتها لطائفة من الأقليـــات والطوائف ، واثارت عن طريق هذه الحماية وهـــذا الولاء صراعا وخلافا بلغ فى بعض مراحله حد اثارة الفتن والقلاقل (راجع مادة فتنة عام ١٨٦٠) ولم تكن هذه الطوائف فى احضان الأنظمة السياسية التى عرفها العـــالم الاسلامى تجد عنتا ولا ارهاقا ، بل تجد حمـــاية وتقديرا بحكم نصـــوص القرآن والنظم التى رسمها الرسول والخلفاء تطبيقا للقرآن ، ولسنا نحن الذين ندافع عن هذا المفهوم ولكن لندع واحدا من الغربيين المنصفين هـــو كابتن غوردون كانتج يقول : ان الاقليات المسيحية واليهودية كانت تعامل على الدوام خير معاملة فى البلدان الاسلامية الى أن تأتى دولة أوربيـــة وتستخدم تلك الأقليات لقلب الحالة كما حدث فى مسالة الأرمن والأتراك ، ان زعماء العرب فى هذا العصر وفى العصور السابقة كانوا دائما يعملون

على تلافى هذا التنافر واصلاح ذات البين ، فاذا كان التعصب قد اخـذ مجراه فى زمن من الأزمنة فقـد كان المسلمون فى مذهب الحاكم ينـالهم من الاضطهاد ما ينـال المسلمين ، ومن الواجب ان تتخذ مبادىء (نجران) كالمثل الأعلى للزعيم المسلم : « ان دم الذمى كدم المسلمين » .

ويقول بغروندو : لقد كان فى وسع الاسلام حل مشكلة النصارى فى الشرق بالقضاء عليهم دفعة واحدة ، ولـكنه لم يفعل لان دعوته لم تقم على الفتح فى الأساس ولم يكن ثمة اكراه فى الدين ، لهـذا لم يتعرض الاسلام للنصارى واليهود ولم يخيرهم بين الموت أو اعتناق الدين الجديد بل تركهم يمارسون طقوسـهم دون ان يخصهم بشريعـة . ومن هنـا فانه انصافا للحق والتاريخ نقول ان مسألة الأقليـات لم تـكن موجودة قبـل دخول النفوذ الاستعمارى للعالم الاسلامى ، ولقد ركز النفوذ الاستعمارى على الطوائف الطارئة والمتوطنـة فاستخلص بشريعة فى البلاد العربية: الأرمن الأشوريين والمهاجرين من اليهود والروس واليونان والافرنج ليقاوم بهم العرب وخلق من هذه الطوائف قوى يحركها بالثورة على اهل البـلاد متى تشاء ، وقد اسكنت بريطانيـا الأشوريين فى شمال العراق وارادت به ما أرادت من اسكان اليهود فى فلسطين ، ولـما لم تستطع انكلترا ان تخلق بالأشوريين قلاقل ذات اهمية فى العـراق أعارتهم للفرنسيين الذين نقلوهم الى سورية ولبنان ليكونوا مصدر قلق لسوريا كما كانوا للعراق .

وقد انزعج المستعمر حين تم الالتقاء بين الأكثرية المسلمة والأقليات غير المسلمة وأبدى قلقا لا حد له .

وهكذا كانت محاولة المستعمر الدائبة لاستغلال الأقليات فى كل وطن وهو الذى كون فى هـذه الأقليات ، ذلك الاحسـاس الذى يسيطر على بعضها من انها لا تأمن على قوى خارج نطاق بلادها . وان كان هذا المعنى قـد زال تماما فى بعض البلاد التى بلغ فيها الوعى القومى والوطنى درجة كبيرة . وسيزول تدريجيا فى المنـاطق المتحـررة بالقضـاء على عوامله الاقطاعية والقبلية والطائفية .

ويتصل بمسألة الأقليات ذلك الدور الذى قام به الصحفيون الشاميون فى مصر أو طائفة السوريون المتعاونين مع الاستعمار . فقد كان كل الدعاة

الى الآراء الهدامة المادية والالحاد والشعوبية والتغريب من أولياء النفوذ الاستعمارى وخاصة البريطانى من أمثـــال فرح أنطون ولويس صــــابونجى وفارس نمر والدكتور شبلى شميل وجرجى زيدان .

وقد وصف اللورد كرومر هـــذا الفريق فى مذكراته بأنهم منحة من السماء وأنهم خميرة البلاد ، ووصل بعضهم الى أعلى المراكز الادارية وفى فصل مطول من كتاب الدكتور انيس صايغ : « الفكرة العربية فى مصر » يتحدث عن الأقليات فليرجع اليه من يشاء ومما قاله : لم يكن كل السوريين المتعاونين مع الاحتلال موظفين أو مرابين . فمنهم من انشأ صحفا وأشهرها صحيفتا المقطم والمقتطف اللتـــان أصـــدرهما فارس نمر ويعقوب صروف واسكندر مكاريوس ، وكانت الصحيفتان اللسان الناطق لسلطات الاحتلال باللغة العربيـــة فأيدتا ذلك الاحتلال وقاومتا الحركات الوطنيـــة بكل مافى لفظتى تأييد ومهاجمة من معان ، وكتبهؤلاء الثلاثة يدافعون عن حقالانجليز بمصر ويصفون حسنات الاستعمار ويمجدون أبطاله ويطـــالبون باستمراره ويدعون أهل مصر الى الاذعان اليه لأنه يحميهم من داء الوطنيـــة ولم تمر بمصر حادثة واحدة الا وقفوا فيها موقفا معارضا لأمانى الشعب ، فطلبوا سجن الأحرار وعارضوا توظيف الوطنيين ، بل أنهم رحبوا باعدام الأبرياء اثر حادثة دنشواى ، وباعلان الأحكام العرفيـــة واحتلال السويس وسلخ السودان عن مصر وغير ذلك من مساوىء الاحتلال .

ويرى الدكتور أنيس صايغ أن الأقليات فى كثير من فترات التـــاريخ الحديث كانت تتحالف مع الاستعمار وتتنكر لحق المشاركة القومية (راجع ص ٩٨ — ١٠١) .

وقـــد اتصل هـــذا الخط ببعض الدعوات كالفرعونيـــة والفينيقية والأشورية والبابلية ، وكان لعلماء الآثار والكشوف الأثرية الحديثة أثرهم فى اعطاء مزيد من الوقود لهذه الحركات التى كانت تعتمـــد أكثر ما تعتمد على ربط الحاضر بالماضى البعيد للأمم متخطية أكثر من ثلاثة عشر قرنا من تاريخ الاسلام . وقد فشلت هذه الدعوات جميعا وأكدت خطلها ، بل لقد تبين بمراجعة التاريخ الصحيح أن الفراعنة والفينيقيين والبربر وغيرهمانما هم موجات قدمت من الجزيرة العربية أصلا .

الاقليميــــة

نستطيع أن نفهم اصطلاحات الوحدة الاقليمية اذا نظرنا الى الخلفية الأساسية التى يحركها الاستعمار والتى تستهدف التمزيق والتفرقة واعتبارها من عوامل سيادة النفوذ الأجنبى ، هذا المعنى يبدو واضحا خلف كل قضايا الوحدة القومية والدعوة الطورانية والدعوات الاقليمية واصطلاحات القومية والوطنية وكلمات الكيان الخاص والفرعونية والفينيقية والبربرية .

والمعروف أن العالم الاسلامى والأمة العربية لم تكن تعرف من قبل هذه المصطلحات المتعددة وان كانت تعتبر أن وحدة الفكر هى أساس الوحدة الاسلامية وكانت جامعة الفكر القائمة على المفاهيم المستمدة من الاسلام هى مصدر التلاقى والوحدة ، غير أن النفوذ الاستعمارى لم يكن يستطيع أن يقيم قواعد نفوذه الا على تقسيم الجماعات الوحدة الى عناصر يتبع بعضها الجنس والعرق أو يتبع اللغة أو يتبع الدين ، وكان دوما قادرا على اثارة الخلافات المذهبية بين أبناء الدين الواحد ، والخلافات بين أصحاب الأديان المختلفة ، واثارة الخلافات بين الأفريقيين والآسيويين أو بين أبناء المدن المختلفة فى القطر الواحد .

وكلما وجد النفوذ الاستعمارى أن أمة بدأت تحقق وحدتها الوطنية لتلتقى فى وحدة الأمة مع جاراتها التى تربطها بها اللغة والتاريخ استعمل مخططاته فى سبيل القضاء على هذه المحاولة وبث الالغام من من جديد لاثارة الفرقة والخلاف . بل لقد بلغ الاستعمار الى أبعد من ذلك فى محاولاته للحيلولة دون الوحدة التى تقوم على رابطة الأمة وعودة الأجزاء ، والمثل الذى يضرب فى هذا أن فرنسا حكمت المغرب العربى بأقطاره الثلاثة المتجاورة المتلاصقة التى تجمعها جبال الأطلس وهى تونس والجزائر ومراكش ، ومع ذلك فقد أقامت فى كل قطر نظاما مختلفا فى عناصره الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية ، وذلك حتى لا تتلاقى هذه الأقطار ، وحتى يتم تعميق الخلاف والاقليمية بينها وكذلك فعل بين مصر والسودان ، وبين سوريا ولبنان ، ومن الحق أن يقال ان

الأمة العربيــة كانت دائما ساعية الى الوحدة ولــكن النفوذ الاستعمارى كان دائما يحطم هذه المحاولات واحدة بعد اخرى وقد جرت محاولة لتقديس الحدود والأعلام والعملة والنظم ، بحيث يصــبح من العســير انصهارها وتلاقيها . واذا كانت محاولات الوحدة بين أجزاء الأمة الواحدة عسيرة الى هذا الحد بفعل النفوذ الاستعمارى فان محاولة الترابط بين أجزاء العــالم الاسلامى تلقى مزيدا من العسر والمقاومة .

ويجمع المؤرخون على ان أوربا منذ أخذت فى مواجهة الدولة العثمانية والضغط عليها اثارت مسألة المسيحيين والأقليــات ودورهم ومسئوليتهم وحقوقهم ثم توسعت فى هذا الشأن فى العالم العربى ايضا .

وقد كان بعض الأقليات أصحاب دور فى التركيز على تمزيق الــدولة العثمانية وخاصة بعض السوريين الذين قدموا الى مصر وعملوا فى مجال الراى والصحافة .

ثم جعل الاستعمار مسألة الأقليات فى مختلف انحاء العالم الاسلامى ورقة رابحة يلعب بها ويكبت بها كثيرا من التطلعات والمشــاعر والأعمــال النافعة باسم الخوف من اثارة الأقليات وكان أخطر ما قام به النفوذ الأجنبى فى مصر لاثارة الخلاف بين الأقليات وغيرهم فى مصر أن نصب من الأقلية رئيسا للوزارة فأحدثت صداما استفاد منه الاستعمار تركيزا لقواعده .

الرجـــل الأبيض

من النظريات التى يذيعها الاستعمار والتغريب ويحــاول أن يؤكدها فى نظر الأمم الواقعــة تحت نفوذه وسلطانه ، القول بأن الرجل الأبيض — لا الانسان عامة — هو تاج الخليقة ، وان الغلبة فى كل صراع ينشب على وجه الأرض سواء كان بينه وبين غيره من الأجناس الملونة أو بينــه وبين مظاهر الطبيعــة كالجبال والغابات والبحار أو بينه وبين الوحوش، ويرددون عبارة الكاتب الأمريكى شتانبيك (الرجل الأبيض لا يغلب) وهم عندما يكتبون تاريخهم يبــدأونه بشعب أبيض ، هو شعب اليونان وينقلون زعامة البشر بعده بين أجنــاس بيضاء من رومان وطليان وجرمان . فاذا ظهر شعب ملون وارتفع الى مستواهم نظروا اليه بعين الذى يعتقد أنه

الصعود الذي لابد ان ينهار يوما لأن اصحابه ليسوا من الجنس الأبيض ، وقد كان ذلك موقفهم من اليابان .

ونظرية الجنس الأبيض لم تكن فى الحقيقة الا اسلوبا من اسلوب السيطرة عن طريق اخضاع بعض الأفكار الاستعمارية لمظهر علمى يخفى وراءه اهواء الاستعمار ويحاول أن يصورها بصورة الواقع المفروض ، ويقلل من اهمية هذه النظرية تاريخيا أن الدولة الرومانية سقطت فى القرن الرابع الميلادى وظلت أوربا اكثر من الف عام تعيش ظلمات القرون الوسطى بينما كانت اجناس اخرى ليست بيضاء تتولى مقاليد الحضارة الانسانية وتذيعها فى كل مكان وتقيم مجتمعات من حدود الصين الى حدود فرنسا وايطاليا فى قلب أوربا . وقد استطاعت هذه الحضارة أن تقدم للبشرية المنهج العلمى التجريبى والجذور الأساسية لمختلف العلوم الطبية والطبيعية والكيميائية والفلكية التى نماها الغرب فيما بعد وأقام بها حضارته الحديثة ومن هنا فان فكرة الجنس الأبيض نفسها لم تكن هى مصدر الحضارة .

هذا فضلا عن أن هذا الاستعلاء باللون لم يكن يوما من الأيام مصدرا من مصادر التقدم أو الامتياز ، فان الجنس الآرى الذى يوصف بأنه الانسان الأبيض قد وصل الى أوربا قادما من قلب آسيا من فارس والهند . ومع ذلك فان شأنه فى هذا يختلف عن شأنه هناك . وذلك لأن عوامل كثيرة ومختلفة هى التى أعطت الأوربيين قيادة الحضارة فى هذه المرحلة حين بلغ العرب والمسلمون مرحلة الضعف ، والرجل الأبيض الذى « ورث » تراث العلم والحضارة العربية الاسلامى قد استعلى فى غطرسة وغرور عن أن يعترف بالفضل وأنكر دور العرب والمسلمين وحاول اطلاق كلمة العصور الوسطى المظلمة على العالم كله ، وما زال ينظر الى التاريخ من حيث بدأ فى أوربا وينتهى بها . وتلك نظرة ظالمة بعيدة عن الانصاف تنكر حضارات الأمم والشعوب المختلفة التى سبقت واثرت فى مسير الحضارة البشرية التى ليست هى نتاج الرجل الأبيض وحده ، الا ان يكون الرجل الأبيض هو وريثها والمتصرف فيها .

وقد كان الرجل الأبيض يدعى انه ممدن البشرية ، وان سلطانه

ونفوذه ليس الا عملا انسانيا يستهدف تحضير الشعوب وتعميرها (واشتق اسم الاستعمار من التعمير) ولـكن الشعوب رات كيف كان الرجل الأبيض قاسيا وظالما وعنيفـا ، وأنه لم يكن ممدنا بقـدر ما كان مستعمرا جشعا يحرص على أن يمتلك كل شيء ، وان يسيطر على مختلف الخامات والثروات وينقلها الى بلاده ، دون أن يترك لأصحابها الا الفتات القليل ، وأنه كان حريصا أن لا يقدم لهذه الشعوب من حضارته آلا الجوانب السلبية والبراقة، التى تحمل جراثيم قتل الكيان والشخصية وتذويب القيم وتحطيم المعنويات. وذلك بقصد استدامة السيطرة وابقاء النفوذ واطالة أجل الاستعمار .وقد كشفت الأبحاث العلمية المنصفة خطأ نظرية الرجل الأبيض وتميزه عقليا أو جسميا ، وتأكد أن ماحصل عليه من التقدم العلمى انما هو تطور البشرية الطبيعى والجهد المشترك الذى ساهمت فيه مختلف العقول والقوى ، وان هذا التميز العلمى وحده ليس هو كل شيء فى الحضارة وانما الحضارة قوى روحية ومادية ، وان العمل المادى الصرف منفصلا عن الأخلاق والدين لم يحقق الا أزمة العصر ، أزمة العالم الذى كبر عقله وتوقف قلبه عن النمو فباعد ما بين قوتيه الصانعتين لحياته .

وقد أتخذ الرجل الأبيض مفهوم روما القديم وطبقه فى العصر الحديث، فأهل روما سادة وما ورءها عبيد واستعمل قوته المادية وقدرته العلمية فى غرور وتيه ، على الانسان الملون فأوجد التفرقة العنصرية، وحاول أن يقول بالحرية والمساواة والاخاء فجعلها قاصرة على الأوربى والأبيض وحدهما، وأنكر حق الأجنـاس الملونة فيها ، وبـذلك أعطى البشرية ذلك الأسلوب المضطرب الذى أشقاها بالحضارة ، وحول العلم الى مجال الفتك والتدمير والصراع الذرى النووى الرهيب . ولم يوجهه الى منح الانسانيـة الأمن بعد الشدة أو الغنى بعد الفقر ، وكان مصدر هذا الاضطراب جميعا هو ذلك الفهم القائم على الغرور والاستعلاء ، الفهم الذى يفـرق بين الرجل الأبيض والرجل الملون حيث تكشف حقائق التـاريخ والعلم والاجتماع أن لا فروق عقلية أو جسمانية تميز جنسا عن جنس ولا لونا عن لون .

الجامعـــة الاســـلامية

كانت صيحة الجامعة الاســـلامية عندما استعلنت انمـــا تعنى بجمع المسلمين فى العالم الاسلامى تحت لواء الخلافة العثمانية فى وجـــه النفوذ الاستعمارى الزاحف الذى كان يخطط من اجل تمـــزيق الدولة العثمانيـــة وايقاع الخلاف بين العرب والترك كعنصرين تجمعهما وحدة سياسية وفكرية واجتماعية واسقاط الخلافة الاسلامية كقوة جامعة للمسلمين .

ولقد كانت دعوة الجامعة الاسلامية قسما بين السلطان عبد الحميد وجمال الدين الأفغانى . اما السلطان عبد الحميد فقد حمل لواءها منـــذ تولى الحكم كمحاولة لتجميع مسلمى العالم كله مع الدولة العثمانية فى وجه النفوذ الغربى الذى كان قـــد بدأ يســـيطر على كثير من اجـــزاء البـــلاد الاسلامية .

أما جمال الدين الأفغـــانى فقد كان يطمع فى تحرير قطر من الأقطار العربية ليكون منطلقا للوحدة الاســـلامية وكان يركز على مصر بالذات فى هـــذا المجال ، فلما سقطت مصر فى قبضة النفوذ الاستعمارى البريطانى عام ١٨٨٢ رأى أن يدعم دعوة عبد الحميد الى الوحدة الاسلامية الجامعة، وانتقل الى استانبول من أجل هذا الغرض غير أن حوائل كثيرة حالت دون تحقيق هـــدفه ، أهمها ، مزاجه النفسى وطابعه الفكرى كداعية ومفكر وما شاب حركة السلطان عبد الحميد من معوقات وضغوط .

غير أن النفوذ الاستعمارى ومن ورائه الصهيونية العالمية كانا يعملان فى اصرار وعنف على اسقاط السلطان عبد الحميد كوسيلة لاسقاط دعوته، وقد تمكنا من ذلك عام ١٩٠٩ حيث تولى أمر الدولة العثمانية أولياء الماسونية والنفوذ الاستعمارى من زعماء الاتحاد والترقى الذين أعدوا الدولة للسقوط والتمزق الكامل بتسليمهم طرابلس الغـــرب لايطاليـــا ، والسماح لليهود بالاقامة فى فلسطين . ودخول حرب العالمية الأولى مع الألمان مما مهد لقيام حركة مصطفى كمال التى كانت المرحلة النهائية فى القضاء على الطـــابع الاســـلامى فى الـــدولة العثمانيـــة بالغـــاء الخـــلافة والتحول الى دولة علمانية غربية .

الجنس

تستعمل كلمة « جنس » فى الفكر العربى بمفهومين: مفهوم (الجنس) من الدم والقبيلة و (الجنس) من الصلة القائمة بين الرجل والمرأة ، أما الجنس بمعنى القومية فهو من خصائص الأمم ، والفكر الاسلامى يقبله ، بمفهوم له مخالف لمفهوم الغرب، فهو لا يعلى من شأنه اعلاء شأن العنصرية الغالية المصارعة بل يراه وسيلة لتلاقى الأمم على حد قول القرآن (ياايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله اتقاكم) .

وقد استعلى نداء الجنس بوصفه العرق والعنصر استعلاء شديدا وتحرك فى دوائر مختلفة أولها استعلاء الجنس الأبيض بوصفه صاحب الحضارة وقد حاول الاستعمار أن يبرر سيطرته على الأقطار الاسلامية والأفريقية والآسوية بأنه جنس متفوق وتلك أجناس متخلفة ، وان اليه وحده أمانة الحضارة وتمدين الأمم ، وقد كذبت الوقائع هذا الادعاء فقد كشف الأوربيون والغربيون عن دخيلتهم التى تقوم على ازدراء عجيب للشعوب الملونة وخاصة اذ ساموها سوء العذاب وعملوا على الابقاء على جهلها وضعفها واستنزاف مواردها .

ثم ظهرت نزعات استعلاء الجنس فى صيحة الجنس الآرى والجنس السامى ومحاولة المفاضلة بينهما وهى صيحة مرتبطة بالدعوة الأولى ، ثم كانت دعوة الجرمان الى سيادة الدم الألمانى وغيرها من الدعوات ، وفى السنوات الأخيرة علت دعوة اليهود الى ما اسموه شعب الله المختار ،وقد كانت حرب الأجناس هى صيحة الاستعمار اساسا حين حاول اخراج الأمم من أثوابها الفكرية والروحية والنفسية القديمة التى كانت تقوم على وحدة الفكر ، فأثار دعوة العرق والعنصر فظهرت دعوة القومية الضيقة والاقليمية والكيان الخاص ، وكلها دعوات افاد منها الاستعمار والنفوذ الأجنبى حيث استطاع السيطرة على الشعوب والأمم وحال بينها وبين الالتقاء فى وحدات شاملة توسع دائرة المقاومة والتجمع ، وقد اكد علماء الأجناس أن أجناس البشر على اختلاف الوانها متساوية فى قدراتها

الفعلية والفكرية واسقطوا مختلف نظريات التفرقة بين الأجناس التيحاول بها الاستعمار والنفوذ الأجنبى فرض سيادته .

أما مفهوم الجنس بوصفه الصلة بين الرجل والمراة ، فان الاسلام ينظر اليه بغير تعقيد ولا يثير حوله الأزمات خلافا لنظرة الفكر الغربى اليه، لأنه يجعله من المباح فى حدود الشريعة ، ويفسح له المجال فى العمل . ويضع له الضوابط التى تكفل له سلامة الاتصـال وبعـده عن التفسخ والاضطراب والأزمات . ويقول الامام ابن قيم الجوزية :

(ان الاتصال الجنسى تحفظ به الصحة وتتم به اللذة وسرور النفس وتحصل به مقاصده التى وضع لأجلها) .

ولا ينظر الاسلام للجنس نظرة بعض الديانات الأخرى من أنه ثمرة خطيئـة ولا ينظر اليه نظرة بعض الفلسفات من اطلاقه بغير ضوابطونظم، فالاسلام يأمر بالعفة اذا عجز الشاب عن الزواج . وبذلك يكون الزواج هو الطريق المفتوح أمام الجنس الطبيعى السليم ، وذلك فى مواجهة خطأ الفلسفات التى تدعو الى حصر الزواج فى أضيق نطاق وتمنعه على بعض الزعماء الروحيين وتمنع زواج الأرملة والمطلقة .

وقد رفع الاسلام منشأن المراة وتنزيه لها عنأن تكونأداة لمتعةالرجل(١) وذلك لأن الرجل الذى يمارس الجنس مع المراة دون أن يرتبط بها ولا أن يحمل أولادها اسمه انما يخفى احتقارا للمراة . فتحريم الزنا يعنى تحريم احتقار المراة — واكتمال الحرية الشخصية للرجل والمراة انما يكون بحق الزواج ثم بحق الطلاق لا بالتفريط ولا بالاباحة الجنسية فليست الاباحـة مرادفة للحرية . وكما عبرت عقوبة الزنا عن احترام عميق للمراة وتقدير للجنس فان الطلاق يعنى حرية تصحيح الخطأ والبدء من جديد وانقاذالأسرة بدلا من أن تسحق تحت حقد الفشل والكراهية .

---

(١) محمد جلال كشك : (دراسة فى فكر منحل) .

ولقد ظهرت فى الفكر العربى الحديث نظريات ودعـوات تعلى من شأن الجنس وفق مفهوم الاباحة والكشف على أسس من الفلسفة المادية والنظرة المدمرة التى تبثها الماسونية والتى تحمل طابع العلم وصورته .

وكان أقوى من حمل لواء هذه الدعوة فرويد فى دراسـات النفس ولورنس فى الأدب وسارتر فى مذاهب الفلسفة . ولمـا كانت هذه الدعوة لها خلفية تتصل بأهداف الصهيونية العالميـة التى وردت فى بروتوكولات صهيون التى تدعو الى تدمير الجنس البشرى وتحطيم معنوياته فقد وجدت سبيلها الى الفكر العربى الاسلامى والثقافة العربية عن طريق غـزوات التغريب والنفوذ الأجنبى والاستعمار الفكرى . وقد وجدت هذه الدعوات مجالا خصبا فى الآداب الأوربية والقصة ، واتخـذ مذهب فرويد أساسا للقصة والأدب المعاصر ومنه امتدت خيوط الى الأدب العـربى والثقـافات الاسلامية .

وتحمل نظريات الجنس دعوة مدمرة خطيرة الى التحلل والانطـلاق والقضاء على مختلف الضوابط والقيم فى مجال علاقات المراة بالرجـل ، ويستهدف النفوذ الاستعمارى والغزو الثقفى من هذا التركيز على هـذه المعانى فى المحيط العربى الاسلامى نتيجة أساسية وهى : أن تدمير الجنس فى أمة من الأمم يضمن دمارها وانحلالها وزوالهـا . والمعروف أن انحلال الحضارات المختلفة فى التاريخكله قد ارتبط بالانحلال الاجتماعى والأخلاقى. وأن الانحلال الجنسى الموجود الآن فى قلب الحضارة الغربية انما هو علامة خطيرة من العلامات التى تشير الى نهاية هذه الحضارة .

العالميـــة

الدعوة الى العالمية لها مفهوم انسانى يبهر النفس ويعجب العقل. ولكن لكل مفاهيمه وموازينه ، والدعوة الى العالمية فى هـذه المرحلة التى يمر بها العالم الاسلامى والأمة العربية انما تستهدف أخطـارا كبيرة على الأمم فى حالات الضعف أو حالات وقوعها تحت نفوذ الاستعمار أو قبل أن تتكامل قواها ، وأن الدعوة الى الأممية أو العالمية فى هذه المرحلة بالذات انما هى محاولة لتذويب الأمم ذات الحضـارات والثقـافات المتميزة فى

حضارة الغالب وثقافته والقضاء على قدرتها فى المقاومة او التميز بكيانها الذاتى وشخصيتها الخاصة . فالعالمية مذهب فلسفى ينكر حقيقة الأوطان ويرى أن انقسام العالم الى أمم متعادية او متناحرة مضاد للعدالة والأخوة الانسانية ، ومن شأن الفوارق الطبيعية والأخلاقية والاجتماعية والروحية والجغرافية والتاريخية واللغوية — وهى عميقة الجذور بعيــدة الأصــول فى البشر الى درجة كبيرة — من شأنها أن تجعل قيام وحدة فكر انسانية شاملة امرا بعيدا بل مستحيلا « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين » .

ومن الانصاف أن يقال أن هناك جوانب تلتقى فيها الأمم . وأن هناك جوانب أخرى من العسير التقاؤها حولها . وأهم هذه الجوانب العسيرة الأخلاق والعادات والآداب والتقاليد والأذواق والروح . فليس فى الامكان القول بأن هنــاك خلقا وذوقا عالميا بل ليس هناك خلق وذوق أوربى . ولكن هناك خلقا وأدبا وذوقا وروحا انجليزية ومثلها فرنسية ومثلها روسية وللعرب والمسلمين خلق وتقاليد وآداب وذوق مختلف ، هــذه الأمور هى من مقومات كل أمة ومنبع الهامها ويرجع هذا التباين الى عوامل كثيرة ذاتية من الدم الى الجنس الى البيئة الى الدين الى اللغة الى التاريخ الى السجايا والمفاخر مما يجعل من الاستحالة التقاء الأمم فى العالمية .

ولا شك أن من وراء الدعــوة الى العالميــة اهــدافا يحمل لواءها الطامعون والأقــوياء . فهنــاك الدعوة العالميــة تحت لواء الحضــارة الراسمالية . وهنــاك الدعوة الأممية التى تحمل لواءها الماركية وهناك دعوة العالميــة التى تطمع الصهيونية فى تحقيقها . وذلك بالسيادة على البشر جميعها تحت لواء زعامة شعب الله المختار .

الوطنيــــة

برزت فى العصر الحديث فكرة (الوطنية) كما برزت فكرة (القومية)، وظل الباحثون يضطربون فى التفرقة بينهما وتحديد مفهوم كل منهما بحيث لايتداخلان ، وقــد استقر الرأى على أن الوطنيــة تتصل بالأرض كما أن القومية تتصل بالعرق والدم والأمة ، فالمصريون حين يتحــدثون عن مصر

أرضها وسمائها وكيان وجودهم فيها فهى وطنيـــة ، وحين يتحـــدثون عن امتهم وارومتهم واعراقهم فهى قومية ، الأولى تتصل بأرض مصر والأخرى تتصل بالأمة العربية ، ولقد حاول النفوذ الاستعمارى والتغـــريب والغزو الثقافى بلبلة الثقافة العربيـــة بهذه المصطلحات والقاء التعارض والمضادة بينها ، واعلاء شأن الوطنيـــة الضيقة ، ومحاولة جعلها قومية حتى تفصل المصريين عن العرب ، وكذلك فعل الاستعمار فى سوريا وفى المغرب وفى لبنـــان ، للحيلولة دون قيام فكر موحد قومى يجمع الأمة العربية فى كيان واحد ، واثارة خلافات قديمة بائدة ، والتركيز على ملامح طبيعية يختلف فيها كل قطر عن الآخر لخلق روح الاقليمية مرتبطة بتحويل الوطنيـــة الى قومية ، غير أن هذه المحاولات عجزت عن أن تحقق هدفها ثم برزت نظرة شاملة من وراء انحراف دعوات الوطنيـــة بالمفهوم الضيق ، أو القوميـــة بالمفهوم الغربى ، تقوم على الترابط بين حلقات ثلاث :

فى الوطن الواحد : الوطنية بمعنى الأرض وهى تتعلق بالأرض فى كل قطر والقومية بمعنى الأمة وهى تمثل الوحدة العربية .

ووحدة الفكر فى مجال الثقافة التى ترتبط باللغة والتاريخ والتراث ذى المصدر الواحد ، فالمصرى يرتبط بوحدة الأرض الوطنية وبوحدة الأمة العربية ووحدة الفكرة الاسلامية .

وكذلك العراقى والسورى والمغربى وهكذا .

ولا سبيل الى الفصل بين الحلقات الثـــلاث ، ولا ســـبيل لأن يقبل العربى انفصاله عن مصادر ثقافته ووحدته الفكرية ، ولا سبيل الى قبوله الوطنيـــة المجردة من روح العروبة وما يزال الاســـلام عاملا أساسيا فى أرضية الوحدة الثقافيـــة والقومية . وقـــد اســـتحال ان تقبل الثقافـــة العربية مفهوما للوطنيـــة أو القومية مستوردا من تجربة الغرب . فتلك تجربته الخاصة التى صاغها وفق ظروفه وعصره ومقومات فكره وتراثه ، وليست هى بالتالى قابلة لفرضها على أمة أخـــرى له فكرها وله مقومات

شخصيتها وكيانها وذوقها ومزاجها وتراثها الخـالص الذى كونتـه اعصر طويلة خلال أربعة عشر قرنا ، وقد عجزت قوى التغريب عن صهر الثقافة العربيـة والأمة العربية فى قوالبها التى أرادت بها ان تصهرها فى بوتقة الثقافة العالمية : اى ثقافة الاستعمار المسيطر نفسه .

الاتحاديون وليس السلطان عبد الحميد

هناك خطأ ذائع وشائع ، هو أن الدولة العثمانية هى التى اساءت الى العرب وعلقتهم على المشانق واوجدت الفرقة والخلاف ، وكانت سببا فيما ترتب على ذلك من سيطرة فرنسا وانجلترا على الشام بأجزائه الأربعة (فلسطين والأردن وسوريا ولبنان) وكذلك العراق وذلك بعـد الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ وبعد أن اتفق العرب مع بريطانيـا على اقامة دولة عربية نظير تأييدهم لها .

والحق أن الدولة العثمانية كلمة مبهمة عامة ، والحقيقة أن (حزب تركيا الفتاة المسمى الاتحاد والترقى) الذى تولى السلطة من عام ١٩٠٨ حتى عام ١٩١٨ هو الذى دمر العلاقات بين العـرب والترك بدعوته الى الطورانية ومحاولته تتريك العرب والقضاء على لغتهم وتعليق زعمائهم على المشانق عام ١٩١٦ .

والاتحاديون جمـاعة سرية كانت بايعـاز من النفوذ الاسـتعمارى والمنظمات الماسونية العاملة لحساب الصهيونيـة العالميـة ، تعمل على اسقاط السلطان عبد الحميد حامل لواء الدعوة الى الجامعة الاسلامية ، وتعد العـدة لتمزيق الدولة العثمانية وتسليم الأجزاء العربية وغير العربية منها الى الدولة الأوربية على النحو الذى وقع فعـلا وذلك باعلاء طـابع القومية التركية والعنصرية الطورانية .

أما السلطان عبد الحميد فقد كان يدعو الى توسيع جبهة المقـاومة على النفوذ الأجنبى وذلك بربط مسلمى آسيا وافريقيا بالدولة العثمانيـة

وكان موقفه من العرب مشرفا وكانت اجابته فى مواجهة تحديات الصهيونية لدخول فلسطين من أشرف ماقاله رؤساء الدول وزعماء الأمم عندما رفض رفضا باتا اغراء هرتزل بالملايين من الذهب وقال (تقطع يدى ولا أفرط فى فلسطين ، ان فلسطين ليست ملكا لبلادى ولكنها ملك العرب) ولكن أمثال ساطع الحصرى وغيره من الباحثين المتأثرين بأغراض خاصة يطوون هذه الصفحةويموهونها على النحو الذى لا تبدو فيه تلك الفوارق بين الـــدولة العثمانية وبين الاتحاديين واضحة كما يطمسون الفوارق الدقيقة بين موقف السلطان عبد الحميد الذى دافععن فلسطين ودفع ثمن ذلك عرشه وحيانه، وبين موقف الاتحاديين الذين علقوا العرب على المشانق فقطعوا كل صلة بين العثمانيين والعرب .

الباب الثامن

الكتب والمؤلفات

الف ليلة وليلة
شمائل المصريين المحدثين
الأغانى
البيان والتبين
المضنون به على غير أهله
الامامة والسياسة
المنجد
دائرة المعارف الاسلامية
يقظة العرب
الموسوعة العربية الميسرة
تحرير المرأة
حديث الأربعاء
الأخلاق عند الغزالى
على هامش السيرة
فى الأدب الجاهلى

عبقرية الحضارة العربية
تاريخ الحضارات العام
الجام العوام فى علم الكلام
روح الاسلام
بندلى جوزى
الدين بين السائل والمجيب
محمد رسول الحرية
مسألة الحسين شهيدا
العبقريات
الفلسفة القرآنية
كتاب الله (العقاد — مصطفى محمود)
حياة محمد
تفسير عصرى للقرآن

الف ليلة وليلة

من أخطر شبهات التغريب محاولة اعتبار كتاب (الف ليلة وليلة) مصدرا تاريخيا ممثلا لحياة العالم الاسلامى ، فقد جرت محاولات متعددة لاعتبار القصص الذى تضمه الف ليلة ممثلا لحياة العرب والمسلمين بصفة عامة بينما تكشف اقل مراجعة لمصادر الف ليلة عن انه تراث ايرانى وهندى سابق للاسلام ، وانه لا يمثل بحال صورة المجتمع الاسلامى العربى ، أو مفاهيم الفكر العربى ، وقد حكى المؤرخ الكبير المسعودى المتوفى ٩٥٦م (القرن الثالث الهجرى) فى كتابه (مروج الذهب) عن وجود كتاب قديم بالفارسية او بالفهلوية يحكى عن ملك وعن بنت وزيره (شهر زاد) وخادمتها دين زاد وقد أشار اليه ابن النديم مؤلف الفهرست المتوفى ٩٠٥هـ مجملا . وقال انه كتاب الحماقة والسيئات، كما أشار اليه المؤرخ القرطبى، وقد كانت كل اشارات المؤرخين المسلمين اليه اشارات تحمل طابع الرفض والامتهان والنص على انه مصدر ساقط فى انظار العلماء والباحثين على حد عبارة الدكتور سنيتى كمارجترجى فى مجلة ثقافة الهند (يناير ١٩٦٢) .

ومعنى هذا : أن كتاب الف ليلة أصلا كان سابقا للاسلام وأن مصدره أساطير هندية وفارسية ، وقد ظل العرب يتناقلونه بعد ترجمته كوسيلة من وسائل الترف ويضيفون اليه حكايات جديدة ، كما أضيفت اليه فى العهود المختلفة وآخرها عهد دولة المماليك ومسامرات أهل بغداد والقاهرة .

ومن هنا نرى خطر الاستعانة به كمصدر لدراسة حياة المجتمع الاسلامى بل على حد اتجاه بعض المستشرقين ودعاة التغريب من اعتباره مصدرا وحيدا فى رسم صورة زائفة .

ومما يذكر أن أول من أبدى اهتماما ازاء الف ليلة وليلة هو جاسوس انجليزى مغامر (ريتشارد بيرتون) عام ١٨٨٣ وهو واحد من أولئك الذين

كانوا يتخفون فى زياراتهم للبــلاد العربية ويلبسون العباءة العربية أمثال لورنس وفيلبى وكان يطلق على نفسه فى دمشق الحاج عبد الله والمعروف انه تصرف فى النقل على النحو الذى يخدم اهدافه .

ومن الحق ان يقال انه مهما تكن صورة الحياة التى ترسمها الفليلة فهى ليست قطعا صورة المراة العربية او المسلمة ، فقد غير الاسلام نظرة المراة الى الحياة كما غير واقعها تماما فلم تكن فى مفهومه ولا فى مجتمعه الأصيل اداة جنس او مصدر غايات حسية ، كما كانت فى مفهوم المجتمع الوثنى او الجاهلى ، وحتى بعد أن اضطربت الحياة فى المجتمع الاسلامى فقد ظل هنــاك فارق واضح وحاجز كبير بين ماكانوا يسمونها (الغانية) وبين ذات الصون والعفاف .

وقد حوى الف ليلة صورة مشوهة عن المجتمع العــربى الاسلامى يزيد فى زيفها أن قصصه تمثل أمما مختلفة وعصورا متبــاينة وان الجانب الأكبر منه كان موجودا قبل الاسلام : وقــد اضــاف المترجمون الغربيون — بالقصد العمد — القائم على التعصب والخصومة ، أضافوا الى بشاعة الصورة التى يحملها الــكتاب اضافات زادته فسادا، فقد أشار (غالان) المستشرق الفرنسى الذى ترجم الف ليلة لأول مرة عام ١٧٠٤ م بأنه «فرنج» الــكتاب ليلائم ذوق قارئه وأنه ركز على صور الرفاهية والترف وانه عمد الى رسم ما سماه : صورة الشرق الحيوانى .

وكان أن استقى من هذه الترجمة باحث آخر هو المستشرق (لين) أرضية كتابه (وكذلك الف كثيرون) عن المجتمع الاسلامى اعتمادا علىهذه الصورة . وقال ريتشرد بيرتون (الانجليزى) فى مقدمة ترجمته لألف ليلة انه انما أراد منها أن يتعرف مواطنوه مما فيه الــكفاية على طباع المسلمين وعاداتهم واخلاقهم ليكون لديهم الحنكة الضرورية لحكم المسلمين الواقعين ضمن امبراطوريتهم .

وقد اخطأ هذا المستشرق فى تقديم هــذه الصورة للمستعمرين لانها لاتمثل المسلمين والعرب منقريب او بعيد ، كذلك فقد اخطأ المستعمرون فى الاعتماد عليها كأساس لمعرفة أخلاق المجتمع الاسلامى المختلف عن ذلك اختلافا كبيرا .

شمائل المصريين المحــدثين

يمثل نظرة رجل غريب عن مصر والشرق رسم صورة لمجتمع مصر فى العهد الذى اعقب الحمــلة الفرنسية واهتم برصــد الناحية الاجتماعية والعادات والتقاليد بهدف مبيت اشار اليه فى المقدمة حين قال أنه أراد أن يجعل مواطنيه الانجليز احسن معرفة للطبقــات المختلفة فى أمة من اهم أمم العالم وهو من اسوأ الــكتب التى وضعت للطعن فى قــدر المصريين والعرب والمسلمين ومن قــدر حضارتهم ومجتمعاتهم ومهمتهم الأساسية . هذا الكتاب الذى الفه المستشرق (ادوارد وليم لين) وتضــد فيــه الى التقاط كل ما يتعلق بالعادات والخرافات والأساطير ومحاولة تلفيقها فى صورة زائفة يراد بها تقديم صورة للمجتمع المصرى ، وهى صــورة ليس فيها شىء من الحق أو الانصاف وليس فيها أى قــدر للصدق أو التحقيق العلمى . وكان ادوارد لين قد قــدم الى مصر عام ١٨٢٥ لدراســة آثار المصريين القــدماء ، واتخذ له منزلا فى بعض الأحيــاء الشعبية وادعى الاسلام وأطلق على نفسه اسم منصور افنــدى ولبس ملابس الأتراك ، وبذلك احاط نفسه بجو من الثقة مكنه من خداع الوطنيين وتحقيق هدفه فى تجميع خيوط وهمية نسبها الى الاسلام فقد أخذ يتصل بالطرق الصوفية وموالد الأولياء ويجمع ما يردده العــامة من احاديث الخوارق والخرافات والبدع ، ثم صنع من هــذا كله دراســة فى جــزأين كبيرين كانت كسبا ضخما لدوائر الاستشراق فى أوربا اذ بلغ الاهتمام بها قدرا كبيرا وتناقلتها اللغات المختلفــة واعتبرت لدى المبشرين والمستشرقين مرجعــا يعتمدون عليه ، وقــد عنيت دائرة المعــارف الاســلامية التى انشــأها متعصبو الاستشراق بهذا الكتاب واعتبرته مرجعا فهى تنقل منه هذه الخرافات على انها حقائق . وقــد جرى هــذا المجرى من بعد (أحمد امين) حين لبى نداء هؤلاء العتاة فى انشاء قاموس للعادات والتقاليد الشعبية ونقل كثيرا مما كتبه (لين) وجرى مجراه فكان ذلك من الأمور الخطيرة البعيــدة عن التحقيق العلمى .

هذا وقد حرف المترجم الفصل الذى تحــدث فيــه المؤلف عن الدين الاسلامى وأحكامه ولم يحتفظ بأمانة النقل .

الأغـــانى

(الأغانى) كتاب ادبى فى بضعة وعشرين مجلدا وضعه ابو الفرج الأصفهانى ليسامر به الأمراء والفارغين من المترفين فى اسمار الليل ، ولم يقصد به الى العلم او التاريخ . وكان الأصفهانى فى نفســه انسانا رافضا لمجتمع المسلمين والعرب وله ولاء بالمولد وبالفكر جميعا الى خصوم المسلمين والباطنية والرافضة وغيرهم ، ولم يكن عمله هـذا الا نوعا من الحرب العنيفــة التى شنتها الشعوبية على الاســلام والمسلمين والعرب رغبة فى هدم فكرهم كوسيلة الى هدم مجتمعهم .

ولقد حرص التغريب وأصحاب نظرية النقد الأدبى الغربى الوافــدة على القاء الأضواء الساطعة على هذا الــكتاب واحيائه واعتباره مرجعا فى الدراسات الأدبية ، ومصدرا لتصوير المجتمع الاسلامى ، وكان الدكتور طه حسين جزاه الله ابرز من دعوا الى ذلك والحوا عليه فقــد عمد الى الأغانى نفسها فاستصدر اعتمادا على قصصها احكاما زائفــة على مجتمع المسلمين وتاريخهم أراد بهما المساهمة فى عملية التغريب الضــخمة التى كانت تجرى فى الثلاثينات من هذا القرن .

غير أن أقل مراجعــة لسيرة الأصفهانى تــكشف عن انه كان من الشعوبيين ، وقد عرف بالتحايل والاغــراق ، واثبت كثير من البــاحثين والمؤرخين انه لم يكن مؤرخا .

واكدوا ان كتابه لا يصلح لأن يكون مادة تاريخ ، وانمــا هو جمــاع لقصص وجدها فى الكتب والأسواق وأراد بها أن يسجل للأغانى والمغنين وهو جانب واحد من حيــاة المجتمع الاسلامى الحافل بالجوانب السياسية والاجتماعية والفقهية والصوفيــة ، وقــد شهد عليه الكثير من معاصريه ومؤرخيه بالانحراف ودمغه المؤرخ البوسقى تدمغه بشهادة فى نظر العلماء كمصدر موثوق به اذ قال « ان أبا الفرج أكذب الناس لأنه كان يدخل سوق الوراقين وهى عدة من الدكاكين مملوءة بالكتب فيشترى منهــا شيئا كثيرا من الصحف ويحملها الى بيته ثم تكون رواياته كلها منها » وذكر عنه صاحب معجم الأدباء (جـ ٥ ص ١٥٣) قوله :

(كان شأنه فى معاقرة الخمر وحب الغلمان ووصـــف النساء شأن الشعراء والأدباء الذين كانوا فى عصره أو قبـــله ، حيث يقـــدم دهاتين الخمارين وجلهم من النصـــارى واليهود والصابئين والمجوس ، وقد عرف بمعاقرته للخمر ولم تكن له عناية بتنظيف جسمه وثيابه) .

وقال عنه الصـــابى فى كتابه الذى الفه فى اخبـــار الوزير المهلبى (وكان أبو الفرج الأصفهانى وسخا قذرا لم يغسل له ثوبا منذ فصله الى أن قطعـــه وكان الناس يحذرون لسانه ويتقون هجاءه ، ويصـــدون عن مجالسته ومعاشرته على كل صعب من أمره لأنه كان وسخا فى نفســـه وثوبه ونعله) .

وحكى القاضى ابو على المحسنى التنوخى فى كتابه نشوار المحاضرة: « ان أبا الفرج كان اكولا نهما وكان اذا اطل الطعـــام وثقل على معدته تناول خمسة دراهم فلفلا مدقوقا ولا يؤذيه ولا تدمع له عيناه وبعد ساعة أو ساعتين يفصد » .

ولست ادرى كيف يصلح مثل هذا الكاتب مرجعا فى نظر الباحثين، أو يمكن ان يؤتمن على رأى أو قول ، ولقد عودتنا منـــاهج الفكر العربى الاسلامى أن ننظر الى الكاتب قبل أن ننظر الى كتابه فان وجدناه أمينـــا كريما موضع تقدير النـــاس بالصدق والحق قبلنا منه والا رفضنا ما يقدمه ولو كان صـــادقا فى بعضه — وقد أشار الدكتور زكى مبـــارك فى كتابه (النثر الفنى فى القـــرن الرابع الهجرى) الى مكانة الأصـــفهانى وكتابه الأغانى فى بحث مطول نجتزىء منه قوله : (وشهرة الأصفهانى وكتابه مستفيضة وانما اريد هنـــا ان أنص على ناحيتين فى الأصـــفهانى وكتابه لم أجد من تنبـــه لهما من الباحثين . ولهاتين الناحيتين اهمية عظيمة فى فهم الحياة الأدبيـــة وسيكون لهما أثر عظيم فى دعوة المؤلفين الى الاحتياط حين يرجعون الى كتاب الأغانى يلتمسون الشواهد فى الأدب والتـــاريخ (الناحية الأولى) خاصة بالأصفهانى ، تلك الناحية هى خلقـــه الشخصى فقد كان الأصفهانى مسرفا أشنع الاسراف فى الملذات والشهوات ، وقد كان لهذا الجانب فى تكوينه الخلقى اثر ظاهر فى كتابه ، فان كتاب الأغانى

احفل كتاب بأخبـــار الخلاعة والمجون ، وهو حين يعرض للكتاب والشعراء يهتم بسرد الجوانب الضعيفة فى أخلاقهم الشخصية ويهمل الجوانب الجدية اهمالا ظاهرا ، يدل على أنه كان قليل العناية بتدوين أخبار الجد والرزانة والتجمل والاعتدال ، وهذه الناحية من الأصفهانى أفسدت كثيرا من آراء المؤلفين الذين اعتمدوا عليه . ونظرة فيما كتبه جرجى زيدان فى كتـــابه تاريخ آداب اللغـــة العربية وما كتبه الدكتور طه حسين فى حديث الأربعاء تكفى للاقتناع بأن الاعتماد على كتاب الأغانى جر هذين الباحثين الى الحط من أخلاق الجماهير فى عصر الدولة العباسية وحملها على الحكم بأن ذلك العصر كان عصر فسق وشك ومجون .

« ولا شك أن اكثار الأصفهانى من تتبع سقطات الشـــعراء وتلمس هفوات الكتاب جعل فى كتابه جوا مشبعا بأوزار الاثم والغواية وأذاع فى الناس فكرة خاطئة هى اقتران العبقرية بالنزق والطيش .

(أما الناحية الثانية) فهى خاصة بكتاب الأغانى : تلك الناحية هى نظم ذلك الكتاب ، ففى مقدمته عبارات صريحة فى الدلالة على أن مؤلفه قصر اهتمامه أو كاد على امتاع النفوس والقلوب والأذواق ، فهو كتاب ادب لا كتاب تاريخ ، واريد بذلك ان المؤلف أراد أن يقدم لأهل عصره أكبر مجموعة تغذى بها الأندية ومجامع السمر مواطن اللهو ، وانه ليحدثنا فى المقدمة بأنه أتى فى كل فصل من كتابه بفقرة اذا تأملها قارئها لم يزل متنقلا بها من فائدة الى مثلها ، ومتصرفا فيها بين جد وهزل . وأخبرنا بعد ذلك بأنه اهتم بالغنـــاء الذى عرف له قصة تستفاد وحـــديثا يستحسن وعلل ذلك بقوله « اذ ليس لكل الأغانى خبر نعرفه » .

وقال زكى مبارك : والخطر كل الخطر ان يطمئن الباحثون الى أن روايات الأغانى قيمة تاريخية وأن يبنوا على أساسها مايشيرون من حقائق التاريخ ولاسيما وان صاحب الأغانى يصارحنا بأن « فى طباع البشر الانتقال من شىء الى شىء والاستراحة من معهود الى مستجد » .

وهكذا تبدو صورة كتاب الأغانى على حقيقتها أمام الباحثين .

البيـــان والتبيين

واجه كتاب البيان والتبين للجاحظ حملة عاصفة من النقد والتجريح من كاتبين شهيرين هما سلامة موسى وطه حسين بينما حظى بعض كتب الجاحظ بتقدير هذين الكاتبين . وهذا موضع الغرابة التى تكشف عنهـا عناصر هذا الـكتاب .

« فنقطة الانطلاق فىهذا الكتاب هىمواجهة دعاة الشعوبية وتوضيح ما للعرب من مزايا فى لغتهم وبيـانهم وبديهيتهم وسرعة خاطرهم وذلك أن المفاضلة بين العرب وسواهم فى هذا الباب كانت من المسائل التى عنى بها الشعوبيون وخصومهم وخاصة فى مجال الخطابة » فقد دافع الجاحظ عن العرب وبيانهم وتكلم عنالخطابة عندهم والكتابة وعنشعرهم ولهجاتهم ونوادرهم ومناظراتهم ورويتهم وبديهتهم، وذكر عدداً منشعرائهم وخطبائهم وكتابهم واشار بما جبل عليه العرب من بلاغة وقوة عارضـة فى بواديهم وحواضرهم ، ويتمثل هذا الجزء الذى أزعج دعاة التغريب (وهـو الجزء الثالث) الذى أطلق عليه : الشعوبية ومن يتحلى باسم السـوية وقـد وصفهم بذلك لأن ظاهر دعوتهم كانت المطالبة بالتسوية بين العنصرالعربى والعناصر الأخرى بعد أن بين آراء الشعوبية ومزاعمهم ورد عليهـا فبين أولا أن اليونانيين انما كانوا أصحاب فلسفة ومنطق لا أصحاب خطابه وان الهنود كانوا أصحاب حكمة وادب ، وانه لم يشتهر بالخطابة حقا الا العرب والفرس ثم فرق بين خطابة الفرس وخطابة العرب .

وقال ان كل كلام للفرس وكل معنى للعجم انما هو عن حول فـكرة وعن إجتهاد وخلوة ، وكل شيء للعرب انما هو بديهية وارتجال وكانه الهام وليست هناك معاناة » .

المضنون به على غير أهله

نسب الى الامام الغزالى كتاب يطلق عليه اسم « المضنون به على غير أهله » وقد كتبت المصادر المختلفة هذه النسبة وفى مقدمتها ما ذكره السيد المرتضى الزبيدى فى شرح الاحياء قال : اعلم أنه عزى الى الشيخ كتب منها (المضنون به على غير أهله) ، قال ابن السـبكى : ذكر ابن

الصلاح انه منسوب اليه ، وقال معاذ الله أن يكون له . وبين سبب كونه مختلفا عليه والأمر كما قال وقد اشتمل الكتاب المكذوب على الغزالى على التصريح بقدم العالم ونفى علم القديم بالجزئيـات وفى (المسامرة) لمحيى الدين عربى : أن هذا الكتاب من تاليف على بن خليل السبيتى ، وكذا صرح صاحب تحفة الارشاد بأنه موضوع عليه .

الامامـة والسياسـة

تردد أن كتاب الامامة والسياسة هو من تاليف ابن قتيبـة وهو من الأخطاء الشائعة ، التى نقلها الوراقون حين طبعوا مثل هذا الكتاب ويؤكد خطاهم عدد من الثقاة المحققين ويقول السيد محب الدين الخطيب رحمه الله:

« كتاب الامامة والسياسـة : لقيط مجهول النسب ، وابن قتيبـة برىء منه ولم يذكر له مترجموه كتابا بهذا الاسم . وأسلوب القول فيـه يخالف أسلوب ابن قتيبة فى كتاب (المعارف) وفى سائر كتبه ، والكتاب يشعر بأن مؤلفـه كان بدمشـق وابن قتيبـة لم يخرج من بغداد الا الى الدينور ، والمؤلف يروى عن ابى ليلى ، وابو ليلى كان قاضيا بالكوفة قبل مولد ابن قتيبـة بنحو مائة وعشرين سنة ، ويذكر فتح موسى بن نصـير لمراكش وهذه المدينة شيدها يوسف بن تاشفين بعد ابن قتيبة بمائة سنة . فكتاب الامامة والسياسة لا يجوز لمؤلف أن يجعله من مصادره » .

المنجـد

قاموس المنجد : يشتمل على قاموسين : قاموس للألفاظ اللغوية ، وهـذا ليس موضع المناقشة الآن ، وقاموس اطلق عليه (معجم الآداب) اعداد فردنيان توتل وهو القاموس الحافل بالأخطاء والشبهات ، والذى عرض له عديد من الباحثين ، وكشفوا عن اخطائه وفى مقدمتهم العـلامة عبد الله كنون الذى نشر فى مجلة دعـوة الحق المغربيـة اكثر من عشرة فصول عنه تضم اكثر من اربعمائة خطأ شائع : تاريخى وعلمى ، وقـد قرات أولى تخطئة لمنجد فى مجلة الفتح عام ١٩٢٦ و١٩٢٧ وقـد أحصى عبد الستار فراج فى مجلة العربى للمنجد مائة خطأ تاريخى ولغوى وجغرافى

من الأخطاء الصارخة (مما يجب أن يحذف أو يصحح أو يصاغ بطريقـة تبرئه من الشك والابهام) .

وأشار الى أن المؤلف قد اعتمد على دائرة المعارف الاسـلامية التى وضعها كبار المستشرقين ، وعلى كتاب التمـدن الاسلامى لجرجى زيدان وعلى كتاب بروكلمان وكلها منقوضة .

وأسوأ مافى القـاموس مادة « محمـد » وهى فى عبارتهـا تنضح بالتعصب والحقد وفساد المنهج والبعد عن العلمية والانصاف .

يقول : « محمد نبى المسلمين من بنى هاشم تزوج من خديجة ورزق منها فاطمة ، دعا الأعراب الى الاسلام وانتصر على المكيين فى بدر ولكنهم غلبوه فى أحد فحاربهم فى حنين ودخل مكة ظافرا » .

ولا شك أن قاموس المنجد من أخطر القواميس التى فى كل الأيدى والمحملة بالأخطاء وخاصة فيما تحاول أن تدخله الى الألفاظ العربيـة من مصطلحات كنسية وطائفية ولاهوتية ، وهى الفاظ ليست عربيـة أصـلا فضلا عن أنه يفسرها تفسيرا لا يتفق مع مفاهيم الاسلام .

دائرة المعـارف الاسـلامية

وضعت دائرة المعـارف باللغـات الأوربيـة فى دوائر الاستعمار والاستشراق والتبشير بهدف أساسى هو أن تكون مادة فى أيدى الخبراء والمبعوثين الذين ترسلهم دوائر وزارات الاسـتعمار الى عالم الاسـلام والعروبة ، ولذلك فهى تنضح بالحقد والتعصب والشكوك والاضطراب وقد كتبها جهابذة التبشير والاستشراق وحملوها كل خصوماتهم واحقادهم .

وقد لفت الباحثون المنصفون النظر الى اخطاء دائرة المعارف عندما ترجمها نفر من الكتاب فى الثلاثينات فقد تصدى لهم أكثر من باحث منصف يعارض خطتهم ويطالبهم بتصحيح تلك الأخطاء فى صلب البحث ولـكنهم اكتفوا بالتعليق على هـذه الشبهات فى الهوامش ففوتوا كثيرا من الحقائق على القارىء المتعجل الذى لا يعنى بالرجوع الى الهامش . وقـد اشار

العلامة فريد وجدى الى ظاهرة خطيرة فى هذه الموسوعة وهى (سيطرة البدع الدخيلة فى الدين الاسلامى على مواد الموسوعة باستفاضة مثيرة ، حتى ليظن الباحث انها من أصول الاسلام) وقد أمعن مؤلفو الدائرة فى تسجيلها وشرحها كأنها حقائق مقررة ، وبينما تسيطر هذه البدع على أنها من المعارف الاسلامية فان الاسلام يبرأ منها وما جاء الا لمحاربتها . وأشار العلامة وجدى الى « القصد المتعمد فى الجمع بين أساطير البدع وحقائق الشريعة » وقال ان أكبر كتاب الدائرة قسس مبشرون يهمهم أن يتحيفوا الاسلام لا أن ينصفوه وقليل منهم من يتصف بالشجاعة العلمية فيتغلب على عناصر التعصبوليس كتابالدائرة وحدهم مننفس النمط بل جل المشتغلين بالدراسات الاسلامية فى الغرب لا يتجاوزون صناعة التبشير ومنهم « توماس باترك هيوز » صاحب قاموس الاسلام . وهو مرجع متبادل لا تكاد تخلو منه مكتبة أوربية ، وقد قضى القس المؤلف فى وظيفته التبشيرية ببلاد الهند بين المسلمين والبرهميين والبوذيين أكثر من عشرين سنة ، وجمع ونشر معجمه هداية للموظفين الانجليز الذين يتولون الحكم ببلاد الهند فى أواخر القرن الماضى ومساعدة للمبشرين بالمسيحية ممن يحاولون علماء الاسلام وللباحثين فى الأديان المقارنة .

ومن المصادر التى اعتمدتها دائرة المعارف (كتاب شمائل المصريين) الذى كتبه المستشرق ادورد وليم لين عام ١٨٢٥ عن المصريين وقد أصبح هذا الكتاب أحد المراجع الهامة لمؤلفى دائرة المعارف ينقلون عنه الخرافات وكأنها حقائق . وقال أحمد أمين : ان نظرة المستشرقين فى دائرة المعارف هى نظرة خاصة يختلف عن النظرة التى ينظرها المسلمون وبعضهم كان متعصبا يمزج تعصبه ببحث كما فعل الأب لامنس فى بعض ماكتب .

وقال العلامة تقى الدين الهلالى : ان فى دائرة المعارف الاسلامية أخطاء ودسائس ناشئة عن التعصب الأوربى ، وفى بروكلمان مثل ذلك وأقبح ، وقد وجه دكتور محمد يوسف زايد النقد الى دئرة معارف البستانى فقال : ان الدائرة بشكلها الحاضر لم تحقق ماهدف اليه ناشروها وماينتظره منها القارىء العادى الذى لايستطيع أن يطمئن الى دقة معلوماتها كما أنه لا يجد فى كثير من موادها الترابط بين الأجزاء الذى يسبغ على المادة

وحدتها كما انه ايضا لا يجد المراجع الضرورية لبحثه فضلا عن المتخصص الذى لا تروى مواد الدائرة غلته بطبيعة الحال .

يقظـــة العــرب

يقظة العرب لجورج أنطونيوس من الكتب الخطيرة التى يجب الحذر الشديد فى الاعتماد عليها فى كتابة تاريخ العرب والاسلام الحديث ، وقد اشار بعض المستشرقين ودعاة التغريب بالاعتماد عليه فأفســد كثيرا من أبحاث الباحثين ، وأن المراجع لوقائع حياة جورج انطونيوس لايدهش من من أن يكون كتابه خدمة للتيارات التغريبية وتركيزا على الوقائع المشبوهة فهو من مواليد دير القمر بلبنان ومن خرجيى كلية فكتوريا بالاسكندرية ومن رواد جامعة كمبردج ، وكان ملتحقا بدائرة المعـــارف فى حكومة الاحتــلال البريطانى فى فلسطين ، شأنه فى هذا شأن نجيب عازورى ، الذىيركزون على كتابه (يقظة الأمة العربية) .

وقد غالى أنطونيوس فى تصوير الدور الذى لعبته الجمعية العلمية السورية التى انشأها النفوذ الاستعمارى داخل الكلية السورية الانجيلية والذى عده عاملا اساسيا فى نشوء القومية العربية بينما كان الانصـــاف يقتضيه أن يعتبر هذه الجمعية السرية هى اول عامل محرك لدفع اللبنانيين الى الانتضاض علىالدولة العثمانية والمطالبة بحكم خاص تحت نفوذ الدول الأجنبية وخاصة فرنسا ، وأن رفع لواء العرب فى هذا الوقت لم يكن من اجل وحدة العرب به من أجل الانفصال عن دولة الخلافة .

وأبرز أخطائه الناشئة عن التعصب موفقة من السلطان عبد الحميد واتهامه بما هو منه براء ، والتنكر لموقفه من الصهيونية ومن هرتزل وهو من أشرف المواقف ومن العسير أن يطلب من مثل جورج أنطونيوس فى ثقافته وعقائده الدينيةوالفكرية أن ينصفالدولة العثمانية أو السلطان عبدالحميد، ولقد كشفت الوثائق الكثيرة التى ظهرت فى السنوات الأخيرة من الحقـــائق مايجعل الـــكثير مما ذهب اليه أنطونيوس زائفا وخاطئا وأبرز أخطائه ان اعتبر ناصف اليازجى وبطرس البستانى مبدأ اليقظة العربية فضـــلا عن اساءته الى عبد الرحمن الكواكبى ، من أجل هذا كله أصبح كتاب يقظـــة العرب من الكتب التى تقرأ بحذر ولا تؤخذ على أنها من المصادر العلمية .

الموسوعة العربيـــة الميسرة

وجهت الى الموسوعة العربية الميسرة نقدات شتى وجملة ماقيل عنها انها دائرة معارف اجنبية (هى فى الواقع دائرة معارف كولومبيا) تدترجمت الى اللغة العربية دون تقدير للتاريخ العربى الاسلامى وحقائقـــه ودون تقدير حاجة الباحث العربى ، فهى لا تحمل مطلقا اى وجهة نظر عربيـــة لـــا تناولته من موضوعات ، وهى تتنكر أساسا للسنة الهجرية والتـــاريخ الهجرى فى كل ماتورده من مواد وخاصة فيما يتعلق بعصر النبى والخلفاء.

فاذا عرضنا للمواد الاسلامية وجدناها ضعيفة جدا وفاترة ومدرسية الى أبعد حد وليس بها من السعة والعمق مانجده من المواد التى لا حاجة للباحث العربى بها ، هذا بالاضافة الى غلبة طابع السيطرة الصهيونية على المواد وخاصة فيما يتعلق بفلسطين وتاريخ الأديان .

ومن المقارنة بين مادة مسجد ومادة مسرح تجد أن المسجد قـــد كتب عنه خمسة عشر سطرا بينما كتب عن المسرح ١٧٠ سطرا .

وتصويرها لمادة شريعة ، ومادة صلاة ، ومادة صـــوم هو تصـــوير بدائى وساذج .

وتضم الموسوعة بعض المواد التى اعتمـــد فيها على الاسرائيليـــات والروايات التى تضمها الكتب غير العلمية كمادة اسرائيل . واسوأ ما فى الموسوعة انها تحمل وجهة نظر اليهوية فى مختلف المسائل ، فهى تحاول أن تفرض على الباحث العربى مفهوما خطيرا بالنسبة لفلسطين لا يتفق مع حقائق التـــاريخ .

ومن عجب أن باب الأديان والعقائد قـــد حرر تحت اشراف ابراهيم مدكور وأحمد فؤاد الأهوانى وغيرهم . وأن ثلة من الكتاب المسلمين والعرب ذكرت أسماؤهم فى المقدمة كمحررين لفصول الموسوعة .

تحـــرير المــراة

كان لــكتاب تحرير المراة الذى كتبه قاسم امين ولا يزال له دوى كبير وشهرة عالمية فى مختلف دوائر الفكر والسياسة ، وقد اعتبره الــكثيرون نقطة بدء لنهضة المراة المصرية الحديثة غير انه لفهم مضامين هذا الكتاب يجب معرفة البواعث والظروف التى احاطت باصداره ، وهى كتاب الدوق داركور الذى كتبه عن مصر ورد عليه قاســم امين وما كان له من اثر فى صالون الاميرة نازلى هانم فاضل الذى كان يرتاده محمدعبده وسعدزغلول، تحت رعاية اللورد كرومر وفىظل مخططات النفوذ الاستعمارى. وقد روى فارس نمر صاحب جريدةالمقطم عام١٩٢٥ذكرياته فىهذا الصدد فاشار الى بواعث تاليفكتابتحرير المراة وكيف كانقاسم امين يشير فىرده علىالكاتب الفرنسى داركور مهاجما الحركة النسائية التىتتزعمها هذةالاميرة وكيفكلف فارس نمر انينتقد ماكتبه قاسمخاصا بالمراة، ثم اقترح الشيخ محمد عبده ان يتقدم قاسم الى صالون نازلى للاعتذار عن الطعن الذى اورده فى كتابه وما رآه فى معارضة السفور على النحو الذى كانت تدعو اليه الاميرة فى مجتمعاتها ، وكان ان اتفق على ان يكتب قاسم كتابا يرضى الاميرة ، وكان الى جانبه فى هــذا الراى محمد المويلحى وسعد زغلول ومحمد عبده ،وقد اشارت مصادر كثيرة الى ان الشيخ عبده كتب بعض مواد هذا الكتاب ، وقد ارادوا بذلك ترضية الاميرة وكسبودها حرصا على حمايتها لهم فىظل النفوذ البريطانى ، ومن هنــا نرى ان قاسم امين لم يكن فى الحقيقةمنطلقا من هــدف صحيح ، هذا فضلا عما اثبتته الوثائق من انه رجع عن اغلب آرائه فى ايامه الاخيرة وقال انه اخطأ وتسرع فى الدعوة الى السفور فى مجتمع لم يستكمل بعد عوامل النضوج .

حــديث الأربعــاء

كان كتاب (حديث الاربعاء) واحدا من كتب الدكتور طه حسين التى استهدفت غرضا معينا فى مجال اثارة الشــبهات والتشكيك فى التــاريخ والأدب العربيين : وكانت فصول حديث الأربعاء تنشر فى جريدة السياسة الأسبوعية فى يومالأربعاء من كلاسبوع بينما ينشر الدكتور قصصا فرنسية اباحية مترجمة فى يوم الاثنين . وقد اثار هذا بعض المراجعات حتى قال

الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى ينفى الدكتور فى كتابيـــه (حـــديث الأربعاء) وهو مما وضع وقصص تمثيلية (وهى ملخصة) ان له ولعا بتعقب الزناة والعشاق والفجر والزنادقة ، وقد يذكر القارىء أنه أدخل القصص التمثيلية فى هذا الحساب ويقول انها ليست له وان كل ما له فيهـــا أنه ساق خلاصة وجيزة لها .

وهذا الاعتراض مدفوع لأن الاختيار يدل على عقل المرء ويشى بهواه، كالابتكار سواء بسواء ، وانما يختار المرء ما يوافقه ويرضاه ويحمله عليه اتجاه فكرة حتى لا يسعه أن يتخطاه .

وها هو ذا حديث الأربعاء ماذا فيه ، كلام طويل عن العصر العباسى، وللعصر العباسى وجوه شتى وفى وسعك أن تكتب عنه من عدة جهات وأن تتناول فلسفته او علمه او شعره وجده وهزله .

ولكن الدكتور طه يدع كل جانب سوى الهزل والمجون ويروح يزعم أنه عصر مجون ودعارة واباحة متغلغلة الى كل فرع من فروع الحيـــاة ، فلماذا ؟ لأية علة يغضى عن الجوانب الأخرى لذلك العهد . بل قل لمـــاذا لا يرى غير الماجنين والخليعين صورة منه ، ولست أفترى عليه فانه القائل فى الصفحة السابعة والعشرين من كتابه :

« درست هذا العصر درسا جيدا واقرأ بنوع خاص شعر الشعراء، وما كان يجرى فى مجامعهم من حديث تدهشك ظاهرة غريبة ، هى ظاهرة الاباحة والاسراف فى حرية الفكر وكثرة الازدراء لكل قديم سواء أكان هذا القديم دينا أم خلقا أم سياسة أم أدبا » .

ولم يكف الدكتور أن يعهد الى طائفة معينة من شعراء العباسيين وأن يرسم من سيرتهم صورة يزعمها صورة العصر بل هو ينكر أن غير هؤلاء من العلماء او الشعراء يمثل العصر العباسى ، ثم يمضى ويورد سيرة أبو نواس ومن اليه مثل الوليد بن يزيد ومطيع اياس وحماد عجرد والحسين ابن الضحاك ، ووالبة بن الحباب ، وابان ، ومروان بن حفصة ويقول فى بيان الحكمة من ذلك أنه لا يريد أن يكتفى بالقول بأن القرن الثانى للهجرة على كثرة من عاش فيه من الفقهاء والزهاد وأصحاب الشك والمشغوفين

بالخير انما كان عصر شك ومجون وعصر افتتان والحاد عن الأخلاق المألوفة والعادات الموروثة والدين أيضا. وانما أريد ان أشخص حياة هؤلاء الشاكين المسرفين فى المجون ، وان سخط عليهم نفر قليل من الفقهاء وأصحاب الزهد فقد كان الناس جميعا على اختلاف طبقاتهم وأهوائهم ومنازعهم يحبونهم .

أقول . اذا كان الأمر على هذا النحو فليس عندى شك فى أن هذا العصر الذى عاش فيه هؤلاء الشعراء وهؤلاء الناس الذين كانوا يعجبون بهم ، لم يكن عصر ايمان ويقين فى جملته وانما كان عصر شك واستخفاف وعصر مجون واستهتار باللذات (ص ١٨٤) .

يقول المــازنى :

« وحسبنا هذه المقتطفات ، ونكتفى بملاحظة واحــدة هى انه ما من عصر يمكن أن يكون له جانب واحد كما يريد أن يصور لنــا العصر العباسى، وانه لم يخل زمن قــديم أو حديث من مثل مايضيف الدكتور ، ولو أن كاتبا تناول عصرنا الحاضر لألفى الكلام ذا سعة على نحو مافعل الدكتور ،ولكنه لا يكون صادقا ولا دقيقا . اذا ذهب يزعم ان حياتنا الحاضرة قائمــة على الفسق والفجور والدعارة والاباحة والزندقة والالحاد ، من أجل ان الشعراء والكتاب — وأنا منهم ولا فخر — ذكروا الخمر وتغزلوا وتشببوا وان الناس يتفكهون فى مجالسهم ويرفهون عن نفوسهم بالتلهى والمجانة احيــانا وان ذلك يعجب الفارغين ويروقهم » ا.هـ

وقد واجــه ما جاء فى كتاب حديث الأربعــاء كتاب كثيرون ودحضوا زيف الرأى الذى وصل اليه الدكتور باتهام العصر كله ، ومما قاله أنطون كرم فى بحثه عن الأدب العربى فى آثار الباحثين قوله « وكان من جرائه (أى الدكتور طه) أن حلت الاستنتاجات العــامة محل اللطائف المستدقــة والقوانين الشاملة فى موضع الخصائص الفردية وخالط عرض الحقائق لون من التحدى الخطابى فى الاثبات وقال : احتفظ المؤلف لنفسه أن يجمع بين الأنماط الثلاثة فى دراسة هذا الشعر : التاريخى والذاتى والفنى ، وانه يحــاول الجمع بين أسلوب (ســانت بوف) و (جول لومتر) و (تين) فيجرى فيها جميعا على غير استيفاء ، يتنحى الملامح ولا يتسلل الى الدقائق

فاذا به يخطىء طريق المؤرخ الحق فى جلاء الشك وتحري الحق الأخير ويخطىء طريق الذاتيين فى تفكيك الذات المبدعة حين يقتصر منها على جوانب » .

كما تناول محمد غلاب وزكى مبارك هذا الاتجاه بالنقد والرد عليه .

الأخلاق عند الغزالى

بدات الحملة على إعلام الفكر الاسلامى مبكرة من خلال اطروحات اوائل خريجى الجامعة المصرية ، وكان زكى مبارك قد تولى نقد فكر الامام الغزالى معتمدا على كل ما اورده خصوم الفكر الاسلامى عنه من شبهات وتخرصات نجمعها فى رسالته التى كانت موضعا للنقد والمراجعة بعد مناقشتها علنا ، على اعمدة الصحف والمجلات ، وكان ذلك عام ١٩٢٤ وما تزال الحملة على الامام الغزالى قائمة ومستمرة حتى هذه الأيام ، لاتتوقف ولا يحاول دعاة التغريب وقف الهجوم على هذا الرجل الذي دحض قوائم الفلسفة اليونانية الالهية وخطمها وكشف عن زيفها واوقف تيارها فى الفكر الاسلامى حتى جاء ابن تيمية فأتم منطق القرآن بدلا من منطق ارسطو واكمل عملية تحرير الفكر الاسلامى من محاولة سحقه تحت براثن هذه الفلسفة الوثنية التى سيطرت على كثير من الأديان والعقائد .

وكانت اكبر الاتهامات التى ساقها زكى مبارك للغزالى أنه لم يشر فى مؤلفاته صراحة كلها الى موقف واحد فى مواجهة الحملة الصليبية التى كانت قد استقرت فى الشام فى هذه الفترة ، ولكن المراجع لفكر الغزالى كله ولعمله الضخم (احياء علوم الدين) يعلم فى وضوح ان تحدى الحروب الصليبية هو الذي دفعه الى اعادة صياغة الفكر الاسلامى من جديد فى فهم متكامل وان استبطانه للحدث الضخم كان مصدر اروع معطياته واعماله

ولقد شاء الدكتور زكى مبارك ان يراجع نفسه من بعد ، وكانت فرصته لدراسة التصوف الاسلامى بعد اكثر من عشرين عاما من اطروحته عاملا هاما فى ان يكتب مقالة المعروف الخطير فى مجلة الرسالة عام ١٩٤٤ « اليك اعتذر أيها الغزالى » .

حيث أشار الى مدى الخطأ الذى وقع فيه وما وصفه بالاندفاع دون التحقق فى موقفه مع الامام الغزالى وأعلن عودته عن رأيه فيه وقـد كان ضروريا وقد أعيد طبع كتاب الأخلاق عند الغزالى فى السنوات الأخيرة أن يشار الى هذه الواقعة فى المقدمة اقرارا للحق وتأصيلا لمنطلقات وتطورات الكتاب بعد الأعمال الأولى المبكرة فى حياتهم الأدبية .

على هامش السـيرة

فاجأ الدكتور طه حسين قراءة عام ١٩٣٣ بظهور مجلة الرسالة بنشر فصول جديدة تحت هذا العنوان شكلت من بعد كتابا ضخما فى أجزاءثلاثة اقبل عليه القراء فى شغف بالغ فقد أغراهم أسلوب طه حسين الموسيقى وحملهم حملا على متابعتـــه ، وكانت صيحات الاعجـــاب تختلط بصيحات الدهشة بعد أن أشيع أن الدكتور طه حسين رجل قـــد هاجم بعض القيم الاسلامية فى كتابه الشعر الجاهلى .

وبذلك تحقق الهدف الذى قصد اليه الـكاتب ونجح نجاحا كبيرا فى استعادة مكانتـه لدى العـامة ، وفرح لذلك أيضـا الذين خططوا للعمل نفسه ، من حيث أصبح فى مقدور الدكتور طه حسين العودة الى التأثير فى مناهج التعليم والجامعة والثقافة جميعا على النحو الذى جرى عليـه من قبل .

غير أنه بالرغم من العمل البـارع الذى اسـتطاع به طه حسين أن يستعيد مكانته فى نظر الجماهير بالكتابة عن الرسول ، وما حققه ذلك له من ثقة فى مجالات العمل الذى قصد اليـه أساسا فان كتابه على هامش السيرة كان عملا خطيرا وبعيد الأثر فى اثارة الشبهات حول سيرة الرسول الـكريم فقد عمد طه حسين الىعشرات من الأساطير الزائفة التىأبعدها المحققون عن سيرة الرسول وعملوا على تنقية هذه السيرة الكريمة منها حتى تظل موثقة صحيحة ، فأعادها مرة أخرى الى السيرة على نحو أشد خطرا مما كان ، فقد توسع طه حسين فى هذه الأساطير واضـاف اليها وحذف منها واعترف نفسه صراحة بهذا العمل حين قال :

« أحب أن يعلم الناس أنى وسعت على نفسى فى القصص ،ومنحتها

من الحرية فى رواية الأخبار واختراع الحديث مالم اجد به بأسا إلا حين تتصل الاحاديث والأخبار بشخص النبى أو بنحو من الدين » .

ولقد هاجم الدكتور محمد حسين هيكل صاحب حياة محمد صديقه طه حسين على درب الحركة الأدبية بضعة عشر عاما هـذا الاتجاه فـكتب فصلا فى ملحق السياسة (١) قال فيه :

« ان أدب الأسطورة هذا أخصب الوان الأدب ، ان الكاتب والقارىء يعرفان جميعا أن المادة التى يعالجان هى من نوع الأسطورة لاجناح عليهم اذا اطلقوا للخيال فيها العنان فابتدعوا من خيالهم ما يزيد هذه الأساطير رقة وعذوبة ، لا تحول بينهم وبين الأخـذ بقول بعضهم « اعـذب الأدب اكذبه » اى حائل .

ولذلك فانى استميح طه العذر ان خالفتـه فى اتخاذ النبى وعصره مادة لأدب الأسطورة .

وأشار الى ما اتصل بسيرة النبى ساعة مولده ، وما يروى عماحدث له من اسرائيليات روجت بعد النبى ، ثم قال : لهذا وما اليه يجب فى رأيى الا يتخذ مادة لأدب الأسطورة فانما يتخذ من التاريخ واقاصيصه مادة لهذا الأدب ما اندثر ، أو ماهو فى حكم المندثر ، وما لا يترك صدقه أو كذبه فى حياة النفوس والعقائد اثرا ما .

« والنبى وسيرته وعصره تتصل بحياة ملايين المسلمين جميعا ، بل هى فلذة من هذه الحياة ومن اعز فلذاتها عليها واكبرها أثرا فى توجيهها ، وطه يعلم اكثر مما أعلم أن هذه الاسرائيليات انما أريد بها اقامة أساطير ميثولوجية اسلامية لافساد العقول والقلوب من سـواد الشعب ولتشكيك المستنيرين ودفع الريبة الى نفوسهم فى شأن الاسلام ونبيه وقـد كانت هـذه غاية الأساطير التى وضـعت فى الأديان الأخرى . ومن أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين فى مختلف العصور لتطهير العقـائد من هذه الأوهام » .

---

(١) ملحق السياسة الأسبوعية (ديسمبر ١٩٣٣) .

و هكـذا انكشفت حقيقـة خطيرة من وراء هامش السـيرة اشد خطرا من الحقـائق التى تكشفت من وراء (حـديث الأربعاء) و (الشعر الجاهلى) .

فى الأدب الجـاهلى

أثار صدور كتاب الشعر الجاهلى عام ١٩٢٦ ضجة كبرى ، اتصلت بالمشاعر الدينية من ناحية وبالصراع الحزبى من ناحية ، وكانت نقطةالخطر أن ما جاء فيه من آراء غير محققة مما القى على طلبـة كلية الآداب ولقد قامت معركة ادبيـة كبرى حول الشعر الجاهلى واتهم الدكتور طه بالزيغ والالحاد ولمـا صودر الكتاب سارع الدكتور باصدار كتاب بديل عنه تحت اسم (فى الأدب الجاهلى) حذف منه بعض الفصـول التى اثارت الثورة عليه وأضاف فصولا جديدة غير أن كتابه الجديد لم يكن اقل خطرا منسابقه فيما حاول أن يعرض له من شبهات وما تزال هذه الشبهات قائمة بقيـام الـكتاب واعادة طبعه ونشره .

وقد أجمعت لجنة من الغمراوى والعوامرى ومحمد بنعبدالمطلب واعلنت أن الكتاب اضاع على العرب والمسلمين (١)الوحدة القومية والعاطفةالدينية (٢) والايمان بتواتر القرآن وقراءاته وانه وحى من عنـد الله (٣) كرامة السلف من ائمة الدين واللغة (٤) كرامة الثقة بسيرة النبى فى كل ماكتب (٥) اعتقاد صدق القرآن ونهيه عن الكذب (٦) اضاع الوحدة الاسـلامية (٧) أضاعحرمة الصحابةوالتابعين (٨)أضاع تنزيهالقرآن عنالتهكموالازدراء (٩) أضاع تنزيه النبى وأسرته عن مواطن التهكم والاستخفاف (١٠) أضاع صدق القرآن والنبى فيما أخبر به عن ملة ابراهيم (١١) اضاع براءة القرآن مما رماه به المستشرقون من أعدائه (١٢) أضـاع الأدب العـام مع الله ورسوله .

وقال الدكتور عبد الحميـد سعيد ان تغيـير العنوان (من الشعر الجاهلى الى الأدب الجـاهلى) لم يغير شـيئا من روحه اللادينيـة فان السموم التى أراد الدكتور أن ينفثهـا فى كتابه لاتزال ماثلة فى كثير من فصوله ومباحثه .

وقد صدرت كتب كثيرة فى الرد على طه حسين وكتابه أهمها ماكتبه فريد وجدى (نقد كتاب الشعر الجاهلى) .

ولطفى جمعة (الشهاب الراصد على الشعر الجاهلى) ومصطفى صادق الرافعى (تحت راية القرآن) .

غير أن الدكتور محمد أحمد الغمراوى أخرج كتابه فى الرد على كتاب (فى الأدب الجاهلى) فقال ان صاحب الكتاب لم ينتفع بنقد الناقدين على تعدد نقدهم وصوابه ، وقال ان عملية تنقية الكتاب بالحذف لم تتو على تخليصه من كل ما يجافى الدين وان خلصته مما يظهر من كل ما يؤخذ عليه القانون ، خلصته من الواضح الصريح الذى يمكن أن يمتد القلم اليه بالحذف ، أما المثبت فى ثناياه من التهكم الخفى فذلك مالا يمكن أن يتناول بالحذف الا أن يحذف أكثر الكتاب .

فالكتاب وان خلص من مثل (للتوراة أن تحدثنا أن ابراهيم واسماعيل وللقرآن أن يحدثنا ومن قوله : ولأمر ما شعروا بالحاجة الى اثبات أن القرآن كتاب عربى مطابق فى الفاظه للغة العرب) فانه لم تخلص من مثل قوله : (وفى القرآن سورة تسمى سورة الجن انبأت أن الجن استمعوا للنبى) ومن مثل قوله « فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبى يجب أن يكون من صفوة بنى هاشم » كشرط هذه القطعة التى وصفتها النيابة بسوء الأدب فى حق النبى ، وكان ينبغى أن تحذف » .

وأبرز مافى كتاب الأدب الجاهلى فى رأينا ليس هو مناقشة هذا الشعر والبحث عن حقيقة أمره ولكن اتخاذه « ستارا » لاذاعة هذه الآراء الجريئة الخطيرة فى الاسلام ورسوله وكتابه ومحاولة طرح هذا المنهج الخطير من مناهج البحث الذى يقول بفصل الأدب عن الفكر الاسلامى ، ونسيان القومية والدين كشرط من شروط البحث العلمى . وقد رد الكثيرون (كما رده فريد وجدى وغيره على هذه النقطة وكشفوا عن زيفها) ويقول الدكتور الغمراوى فى هذا الصدد :

انه ذهب الى أن نسيان القومية والدين شرط أساسى من شروط البحث العلمى فان كان أراد بذلك أن على الباحث الا يخفى بعض حق أو يتراخى

فى استيفاء الدليل العلمى محاباة لقوميته أو ارضاء لعاطفته هذه فقد أصاب، أما اذا كان أراد أن الانسان لايستطيع أن يكون ذا عاطفة قومية أو دينية من غير أن يحابى أو يداجى فى العلم فقد أخطأ ولم يصب، ان الانسان يستطيع أن يراعى الدقة العلمية التامة فى البحث وهو متذكر دينه كل التذكر ومعتقد صحته كل الاعتقاد ، غير مجوز على قرآنه خطأ أو على توراته . بل أن التدين الصحيح يزيد الباحث المخلص ان أمكن حرصا على الحق واستمساكا به اذا وصل اليه . أن الباحث المتدين بين محبتين فى الحق مرة لدينه ومرة لعلمه ، ويبغض الباطل مرتين كذلك ولا خوف عليه مطلقا أن يخفى بعض الحق أو يدلس فى البحث محاباة لدينه اذ ليس الحق يخاف على دينه ولكنه الباطل وهو يعلم أن دينه حق . يعلم ذلك علم مستيقن ويعلم أن العلم قائم على قاعدة استحالة التنافى بين أجزاء الحق ، فهو لا يخشى ابدا أن يكشف البحث الصحيح عن حقيقة تنافى دينه ولذلك يمضى فى أبحاثه آمنا مطمئنا متبعا أقوم الطرق فى البحث والتفكير .

فالتدين الصحيح والعلم الصحيح يمكن اجتماعهما اذن وكثيرا ما اجتمعا، كما أن العاطفة العلمية القومية والعاطفة الدينية القوية لا يتعارضان بل يتضافران فى خدمة العلم .

عبقرية الحضارة العربية

هذا كتاب أغلب من شاركوا فيه من غير المسلمين ، وقد صدر فى طبعة فاخرة غير انه لم يخلص لكلمة الحق ، يقول الأستاذ عبد المعز عبد الستار أنه يورد حقائق ويسوق أمجادا ثم يكر عليها فوراً بما ينسفها ويسلبها وينسبها لغير أصحابها العرب المسلمين بطريقة خبيثة ماكرة تعرفها فى لحن القول ولايتنبه اليها الا من خبر أسلوب المستشرقين ومكرهم وكيدهم للمسلمين . وتلك عادة المستشرقين فانهم كلما أثبتوا فضلا نفوه، وكلما غزلوا غزلا نقضوه من حيث يدرون أو لا يدرون .

ومن الأخطاء الواضحة :

(١) الالحاح على تسمية الدولة الاسلامية : الامبراطورية العربية

ولا ريب أن الدولة الاسلامية شيء غير الامبراطورية في مفهومها الاصطلاحي حتى في أيام ضعف الخلافة ، فهي لا تقوم على قانون الطبقة والاستغلال.

(٢) تسمية الاسلام بأنه اسلام عربي .

ومن ذلك القول بأن الاسلام قد استوعب كثيرا من عناصر الفلسفة الأفلاطونية والمنطق اليوناني والتشريع الروماني .

والواقع أن هذا زيف كبير فأى عنصر من عناصر التشريع الروماني استوعبه الاسلام وهو قد أنزل تشريعه بوحي من عند الله في ارض لم تطأها اقدام الرومان ، وتناوله الصحابة والتابعون والفقهاء ودونوه ورتبوه من قبل أن يعرفوا ما الرومان أو اليونان .

(٣) ليس صحيحا أن الاسلام تعبير عن نظرة العرب الى الحياة والايمان ذلك أن الاسلام هو الذى غير نظرة العرب للحياة والايمان وعبادة الأوثان .

(٤) يرددون القول بأثر العرب على الاسلام وهو قول باطل فأى أثر تركه العرب على الاسلام ، انما كان الأثر هو أثر الاسلام على العرب اذ أخرجهم من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق العيش الى سعة الحياة ومن جور الأديان الى عدل الاسلام .

(٥) خطأ القول بأن للعرب أثرا على الاسلام باقيا لا يزول والحقيقة أن أثر الاسلام على العرب هو الباقي الذى لا يزول .

(٦) خطأ القول بأن الشريعة الاسلامية لم تبلغ تمامها الا بعد أن انتقل معتنقو الاسلام وأهل الذمة الى قلب المجتمع الاسلامي ، وكيف يكون لأهل الذمة مع غيرهم أثر في صياغة أحكام الشريعة .

(٧) خطأ القول بأن دور العرب كان في علم الكلام بجوار فلسفة الفرس وطب اليهود والنصارى ورياضيات الهنود .

والواقع أن القرآن والسنة والفقه واللغة والعقيدة والتاريخ والأخلاق وسائر مقومات الأمة القرآنية انما جاءتهم من القرآن .

اما الطب والرياضة وسائر علوم المادة فهى علوم عامة يتعلمها الناس بكل لغـــة فلم يكن دورهم فى علم الـــكلام فحسب ، بل هم الذين قـــدموا للبشرية المنهج الربانى .

(٨) قولهم أن الفـــاتحين العرب قـــد بنو امبراطوريتهم بفضـــل قوة عسكرية هائلة والحقيقة أن ذلك كذب على التاريخ ويهون من قيمتهم وقوتهم الذاتيـــة التى منحهم اياها الاسلام قوة المبدأ والروح ، فالعرب لم يكونوا فى يوم ما ولا فى معركة من المعارك التى انتصروا فيها على عدوهم اكثر منهم عددا أو عدة أو قوة عسكرية هائلة . وانما كانوا اقـــوى منهم نفسا فكانوا أعظم بأسا بفضل ايمانهم بربهم ورسالتهم .

(٢)

كتاب تاريخ الحضـــارات العـــام

(الجزء الثالث : القرون الوسطى والحضارة العربيـــة)

صدر هذا الكتاب عن احدى الهيئات الأجنبية ومؤلفـــه أجنبى وقـــد راجعـــه الأســـتاذ محيى الدين صبحى وأشـــار الى وجوه النقد والخطأ والانحراف فيـــه قال :

كان الدين الاسلامى هو المرشد الايدلوجى للمفكرين السياسيين فى الحضارة العربية فاذا أراد مؤرخ أن يفهم التيارات السياسية فى الحضارة العربية فعليـــه أن يكون عميق الاطـــلاع على مفهومات الامامة والاجمـــاع والشورى وأهل الحل والعقد ، وصلات المسلمين بغيرهم وموارد الدولة من الزكاة والفىء والخيرية والصدقات والغنائم ومكانة القضـــاء والجهاد والدعوة الى سبيل الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ودورها فى المجتمع العربى الاسلامى .

ومن هنا فان الحقيقة لا يكشفها سوى مسلم ولا يجمعها سوى مسلم خبير بأسرار اللغة متبحر بأسرار الشريعة .

وتتأكد هـــذه الحقيقـــة فى قراءة الموسوعات الأجنبيـــة التى يكتبها الغربيون والمستشرقون — مهما كانوا منصفين عن الحضارة الاسلامية التى

يسمونها الحضارة العربية ، انهم لا يستطيعون التفرقة بين العصور الوسطى المظلمة فى اوربا والعصور المضيئة فى عالم الاسلام . انهم لايستطيعون معرفة مصدر وحدة الحضارات الفرعونية والآشورية والبابلية والفينيقية والأرامية التى تشترك مع الحضارة الاسلامية فى أصل واحد ، ولا مايسمى بالهجرات السامية التى خرجت من اليمن وجنوب الجزيرة العربية لأنها لا تعرف النقطة الأولى : الحنيفية الابراهيمية ، لأنهم لا يكشف لهم عن حقيقة الأثر الذى احدثه الاسلام من انه علامة على دخول البشرية عصر الرشد من ناحية ولأنها كانت علامة اليقظة فى عالم الغرب نفسه ، وتحرير الانسان من الوثنية وتحرير البشرية من عبودية الكهان والملوك والأكاسرة .

ومن الأخطاء التى وردت فى هذا البحث :

ان سقوط بغداد عام ١٢٥٨ ليس نهاية لسقوط الحكم العربى فان الامبراطورية الاسلامية بين الصين وفرنسا استمرت من ٦٢٤م الى ١٤٥٣م من فتح سوريا على يد العرب المسلمين وسقوط القسطنطينية بيد الأتراك العثمانيين وقد جاء بعد سقوط بغداد المماليك والأتراك العثمانيون . هذا ولم تسقط غرناطة فى يد الكاثوليك الا عام ١٤٩٢ م .

ثانيا : الألف سنة التى تمثل العصور الوسطى الأوربية وازدهار حضارة الاسلام يقترح المؤلف كلود كوهين حذفها من تاريخ العالم . هى عصر السيطرة الاسلامية حيث تفتحت حضارة العرب وانطوت مخازى البربرية الرومانية العرقية والعسكرية والدينية الى غير رجعة .

وقد قدمت الحضارة الإسلامية نظرة الى الكون تتسم بالتوازن من الانسان والطبيعة تحت مشيئة الله . وموقف العدل والشورى بين الناس على اختلاف عروقهم وطبقاتهم ودياناتهم على أساس ان الحضارة الرومانية بنيت على أساس تفوق العرق الرومانى وسخرت شعوب الامبراطورية كلها لاطعام اهل روما المقدسة .

ثالثا : هاجمت كتابات الغربيين الدولة العثمانية ولم يعد يذكر عن هذه الامبراطورية العظيمة سوى الرجل المريض والانكشارية ومذابح الأرمن

واليونان . نعم لقــد تفككت الدولة سياسيا ولــكن القانون العربى ظل امرا قائما قام باسم الاسلام ، وقد تعاون العرب مع الاتراك دون النظر الى السياسة .

كذلك فان الاتراك لم يقيموا وحدتهم مع العرب الا بعد ان طلب العرب منهم ذلك ، وان الانحطاط لم يحدث الا فى القرن السادس عشر بعد انقضاء خمسمائة عام على قيام دولتهم .

ولــكن كتاب الغرب يتعسفون فى التركيز على الأقليــات العرقيــة والدينية مع أن العرب يفخرون بتسامحهم الذى اتاح لمختلف الطوائف حرية الاعتقاد والعبادة .

(٣)

كتاب الغزالي : الجام العوام فى علم الكلام

كتبه الامام أبو حامد الغزالى فى آخر أيامه وملأته عبارة الندم عمــا وقع منه وتكررت فيه الانابة الصريحة وقد تحول به عن التصوف الى مذهب السلف يدعو فيه الــكتاب الى الــكف عن علم الكلام ويقول :

أما الآن فنشتغل باقامة الدليل على ان الحق هو مذهب السلف وفى اقامة البرهان على ان الحق هو مذهب السلف برهانان : عقلى وسمعى .

اما العقلى فاثنان كلى وتفصيلى . أما البرهان الكلى على أن الحق مذهب السلف فيكشف بتسليم اربعة اصول هى مسلمة عند كل عاقل .

أعلم ان الحق الصريح الذى لا مراء فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف ، أعنى مذهب الصحابة والتابعين وهانذا أورد بيانه وبيان برهانه فاقــول :

حقيقة مذهب السلف وهو الحق عندنا . ان كل من بلغه حديث من هذه الأحاديث من عوام الخلق يجب عليه فيه سبعة أمور هى التقديس ثم التصديق ثم الاعتراف بالعجز ثم السكوت ثم الامساك ثم الــكف ثم التسليم لاهل المعرفــة . أما التقــديس فأعنى به تنزيه الله تبــارك وتعالى عن

الجسمية وتوابعها والنبى صلى الله عليه وسلم افاض الى الخلق ما اوحى اليه من صلاح العباد فى معادهم ومعاشهم ، وانه ماكتم شيئا من الوحى واخفاه وطواه عن الخلق فانه لم يبعث الا لذلك ولذلك كان رحمة للعالمين.

روح الاســـلام

وجه بعض المفكرين النقد الى هذا الـكتاب من وجهة نظر مفهوم أهل السنة والجمـاعة فأشار الأستاذ محمد ذيب مرزا الى أنه يحتـوى على عبارات تتضمن سموما وأباطيل ومغالطات واخطاء لا يمكن أن تصدر عمن يريد الدفاع عن الاسلام . فالمؤلف يحاول ان يوحى الى الذهن أن القرآن الـكريم ماهو الا نتـاج عبقرية محمد صلى الله عليه وسلم المتأثرة بظروف البيئـة المحيطة به . يقول ص ٤٠ (وبكل مافى الخيال الشرقى من ابداع كان محمـد يرسم لأصحابه الجـزاء العظيم الذى ينتظرهم) ويقول (بل موسيقى روحية لا تصدر الا عن صفاء ضمير محمد حين يتصل بربه فيجود عليه بتلك المعجزات والذين يستعملون مثل هـذا التعبير يقصـدون الى أن صفاء الضمير يجعل الانسان يتخيل انه يتصل بربه .

وفى ص ٢٢٥ يكرر نفس الفكرة مع اضافة زعم جديد بأن المعتقدات التى جاء بها الاسلام انما هى مستعارة من الأمم السابقة وهى نفس الفكرة التى تتكرر فى كتابات المستشرقين : يقول (فان الأوصاف للجنة والنـار عند محمد والمستعارة من الخيـالات الطافيـة عن الزرادشتى والصابئى واليهودى والتلمودى يسترعى الانتباه كصورة جانبية فقط .

الملاحظة الثانية : عدم التزامه بالنصوص التاريخية ونصوص بعض الأحاديث بدقة ويعتذر المترجم عن ذلك بأن هدف الكاتب كان توجيه كلامه الى المثقفين الأوربيين ، وهـذا يعنى أنه حور وعـدل فى النصوص لتكون ملائمة لأفهامهم .

والحقيقة أن الذين ينظرون الى العقلية الغربية التى ترفض الايمان بغير الأشياء المادية المحسوسة نظرة التمجيد والتعظيم يتملقون هذهالعقلية عادة فى كتاباتهم .

ومثال على ذلك اذكر فيلم الرسالة الذي قيل انه صهور لشرح الاسلام فالفيلم كان ناجحا فى تحريك عــدد ضخم من الأشــخاص ، ولــكنه كان فاشلا فى توضيح الأساس الروحى والايمان العميق الذى حرك الأحداث والأشخاص فى ذلك الزمان . ولتقريب الاسلام من مدارك الغربيين كمـا يدعى تحدث المؤلف عن نوع من الماسونية فى الاسلام ص ١٩٨ وربما يدل ذلك على انه ماسونى . أما عبارة كاثوليكية الاسلام فى ص ٢٠٢ فلم أفهم لها معنى بالاضـــافة الى انه أنكر وجود الملائكة لأن عقل الانسان حسب زعمه عن سبر غور هذه القصة .

(ثالثا) حاول كفيره من اعداء الاسلام أن يدعى انه لا مانع من ايجاد تغيير وتبديل وتطوير فى أحكامه لتصبح ملائمة للعصر الحاضر ، وان الاسلام نفسه لا يمنع من ذلك ، وهذا يمكن فى زعمه بعد تخليصـــه من التفسير الحرفى للنصوص والفتاوى التى اصدرها الفقهاء واهل العلم لانهم حاولوا حسب اقترائه ان يشوهوا مجد دينهم (الصفحات ٢٠٦/٢١٣/٢١٤) .

(رابعا) : الأخطاء التاريخية التى وقع فيها ولم ترد فى كتب السيرة

— زعمه أن الكفار كان يطلقون على النبى لقبا شائنا (ص٧٦) .

— خلطه بين أحداث معركة بدر والخندق (ص ٧٧) .

— زعمه أن عمار بن ياسر قتل تحت التعذيب (ص ٤١) .

— ادعاؤه أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان عضــوا بارزا فى حلف الفضول .

— زعمه أن جيش المسلمين قــد سبى حليمـــة الســـعدية مرضعة الرسول (ص ١٨) .

— زعمه أن الرسول قــد أعــدم ستة من الخــائنين وربما بعض المنافقين (ص ٧٦) .

— ادعاؤه أن الأمويين كانوا وثنيين فى قرارة نفوسهم (ص ٣٠١)

الحركات الفكرية في الاسلام : بندلي جوزى

هذا الكتاب يحمل تفسيرا ماديا للتاريخ الاسلامى ويحمل وجهة نظر متعصبة للاسلام ، ويرى الاستاذ محمد عبد الله عنان أن موضوع الكتاب الحقيقى هو الشيوعية فى الاسلام ، وان الفكرة التى يحاول أن يعرضها المؤلف ويعمل على اثباتها بكل وسع الجدل والاستشهاد فهى أن مبادىء الاسلام ترتكز الى اسس شيوعية وان النبى صلى الله عليه وسلم كان بطلا من أبطال الفكرة الشيوعية فهمها فى القرن السابع كما فهمها ماركس وانجلز فى القرن التاسع عشر ، وكما طبقها لينين فى روسيا البلشفية مع أن البلاشفة لم يلقوا من الفشل فى اذاعة الدعوة البلشفية قدر مالقوا فى الأمم الاسلامية (القوقاز وازربيجان والتركستان وقازان) فانهم لم يفلحوا فى بث مبادئهم فى هاته الجماعات الاسلامية التى يسيطرون عليها ومازالوا يلقون صعابا فادحة فى ضبطها وحكمها طبقا النظم الجديدة ، ولقد كانت غايتهم تحطيم النظم الاجتماعية التى يقوم عليها المجتمع الاسلامى وهو شطر من الغاية أو الثورة الهدامة أو الثورة العالميـــة التى يعمل لتحقيقها زعمـــاء البلاشفة ووجهها الثانى مناوأة الاستعمار البريطانى الذى تخضع لصولته هذه الأمم ، ولـــكن البلاشفة يصـــدمون فى كل مجتمع اســـلامى بمبادئ الاسلام وتعاليمه ولا يرون منفذا الى بث الدعوة الشيوعيـــة بين ابنـــاء دين قامت اسسه الاقتصادية على احترام الملكية الفردية واحاطتها بكل ضروب الحماية .

يقول بندلى جوزى : انه قـــد اصبح من المقرر أن الاســـلام مسألة اقتصادية واجتماعية أكثر منها دينية وأن الأمير كايتانى الايطالى يقول ان الاسلام لم يكن حركة دينيـــة اذ لم يكن فيـــه دين الا الظاهر أما الجوهر فكان سياسيا واقتصاديا ، وهذا ولا شك انحراف فى الفهم وتحميل للألفاظ غير ما تحمل .

كذلك فان بندلى جوزى يحاول تصوير المجتمع العربى عند ظهور النبى مجتمعا يصطدم بالنزعة الشيوعية ، ويقوم على طبقة المثرين واصـــحاب البنوك وسدنة الـــكعبة واصحاب السلطة ، وطبقة الارستقراطية وطبقة الصعاليك وهو يمهد بهذا الى القول بأن النبى كان بطلا للفكرة الشيوعيه

وهو لا يجرؤ على التصريح بهذه النتيجة فى عبارات صريحة بل تراه يحاول أن يلقى عليها حجابا بقوله :

(معاذ الله أن نحشر المصلح المكى بين الاشتراكية والشيوعية) .

(وهذا هو نفس اتجاه طه حسين فى الفتنة الكبرى بأسلوب آخر)

وكذلك يحاول المؤلف أن يجعل من بعض الحركات التى قام بها بعض الفرق حركات شيوعية محضة فيزعم أن حركة بابك الحزمى واشياعه فى شمال أزربيجان انما كانت فورة شيوعية محضة وعلى هذا النحو يريد ان يصور قيام الاسماعيلية والقرامطة مع أن القرامطة كانوا ثوارا على الاسلام والمجتمع الاسلامى ، ولا يستطيع احد ان يزعم أن مزاعم هذه الفرق كانت فى عصر من العصور اسسا مقررة للاسلام أو المجتمع الاسلامى .

الدين بين السائل والمجيب

كتاب ميرزا الحائرى

تتركز شبهة المؤلف فى ادعائه أن هناك مصحفا آخر غير القرآن يدعى مصحف فاطمة وهو بهتان باطل ، فعلماء السنة مجمعون على أن المصحف الشريف الذى نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى بين ايدى المسلمين الآن : آية آية وحرفا وحرفا ويجمعون على كفـر من زعم بأن هناك مصحفا آخر .

وكتب أهل السنة (وتفاسير الطبرى والبيضاوى والرازى وابن كثير والالوسى) كلها تجمع على تنزيه القرآن عن الزيادة والنقصان . حتى ذكر الامام ابن حزم الأندلسى كتابه (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) ان : **القول بأن بين اللوحين تبديلا كفر صريح وتـكذيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم .**

بل ان فقيه الشيعة ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسى (٤٦٠ هـ) ينفى ما اخترعه الذين اغتر (ميرزا الحائرى) بكلامهم فقال :

أما الكلام فى زيادية ونقصانه فمما لا يليق به أيضا لأن الزيادة فيه

مجمع على بطلانها والنقصان منه ، فالظاهر أيضا من مذهب المسلمين خلافه وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا وهو الذى نصره المرتضى ، وهو الظاهر فى الروايات غير أنه رويت روايات كثيرة والأولى الاعراض عنها وترك التشاغل بها لأنه يمكن تأويلها ولو صحت لما كان ذلك طعنا على ماهو موجود بين الدفتين فان ذلك معلوم صحته لا يعترضه أحد من الأمة ولا يدفعه ورواياتنا متناصرة بالحث على قراءته والتمسك بما فيه .

(البيان : المطبعة العلمية بالنجف ١٣٧٦ هـ)

فالقارىء يرى صراحة فى هذا النص أن الطوسى لم يؤسس القول فى ذلك بل تبع ماقاله السيد الشريف المرتضى ، ويلى تفسير الطوسى فى المكانة عند الشيعة : تفسير الشيخ أبى على الطبرسى المسمى بمجمع البيان وفيه يؤكد نزاهة القرآن من النقص : فيقول : أما الزيادة فيه فمجمع على بطلانه وأما النقصان فقد روى جماعة من أصحابنا وقوم من حشوية العامة أن فى القرآن تغيرا ونقصانا والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه ، وهو الذى نصره المرتضى قدس الله روحه واستوفى الكلام فيه غاية الاستيفاء فى جواب المسائل الطرابلسيات وذكر فى مواضع : ان العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار العظام والكتب المشهورة واشعار العرب المسطورة ، فان العناية اشتدت والدواعى توفرت على نقله وحراسته وبلغت الى حد لم تبلغه فيما ذكرناه لأن القرآن معجزة النبوة ومأخذ العلوم الشرعية ، والأحكام الدينية . وعلماء المسلمين قد بلغوا فى حفظه وحمايته الغاية حتى عرفوا كل شىء اختلف فيه من اعرابه وقراءته وحروفه وآياته فكيف يجوز أن يكون مغيرا أو منقوصا مع العناية الصادقة والضبط الشديد .

وقال المرتضى قدس الله روحه :

ان العلم بتفصيل القرآن وابعاضه فى صحة نقله كالعلم بجملته وجرى ذلك مجرى ماعلم ضرورة من الكتب المصنفة ككتاب سيبويه والمزنى، فان أهل العناية بهذا الشأن يعلمون من تفصيلها مايعلمونه من جملتها ، حتى لو أن مدخلا أدخل فى كتاب سيبويه بابا فى النحو ليس من الكتاب لعرف وميز وعلم أنه ملحق وليس من أصل الكتاب . ومعلوم أن العناية

بنقل القرآن وضبطه اصدق من العنــاية بضــبط كتاب سيبويه ودواوين الشعراء .

وذكر المرتضى : ان القرآن كان على عهد رسول الله مجموع مؤلف على ماهو عليه الآن واستدل على ذلك بأن القرآن كان يدرس ويحفظ جميعه فى ذلك الزمان حتى عين على جماعة من الصحابة فى حفظهم له ، وأنه كان يعرض على النبى صلى الله عليه وسلم ويتلى عليه وأن جماعة من الصحابة مثل عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب وغيرهما ختموا القرآن عدة ختمات ، وكل ذلك يدل بأدنى تأمل على أنه كان مجموعا مرتبــا غير مبتور ولا مبثور ، وذكر أن من خالف ذلك من الامامية والحشوية لا يعتــد بخلافهم (مجمع البيان جـ ١ ص ٣١) .

واستمر هذا التنزيه للقرآن عند مفسرى الشيعة حتى الأزمان الأخيرة حيث أخذه عنهم محمد بن المرتضى الملقب بالفيض الكاشانى أحد كبار علماء الامامية فصرح فى تفسيره (الصافى فى تفسير القرآن)عند تعقيبه على الآية الــكريمة (انا نحن نزلنا الذكر) بمثل ذلك وقال (وانا له لحافظون من التحريف والتغيير والزيادة والقصان ، ونقل عن محمــد بن على بن بابويه القمى قوله : اعتقادنا أن القرآن الذى انزله الله على نبيه صلى الله عليه وآله هو مابين الدفتين وما فى أيدى الناس ليس بأكثر من ذلك)

محمــد رســول الحــرية

لبعد الرحمن الشرقاوى

قال الأستاذ محمد أبو زهرة : ان الــكتاب كان له اتجاه غير دينى فى دراسته فهو مادرس محمدا صلى الله عليه وسلم على أنه رسول يوحى اليه بل على أنه رجل عظيم له آراء اجتماعية فسرها الكاتب على مايريد . وقد تكون هذه الكتابة مفيدة لقوم يصغرون من شأن محمد ويهونون من أمره وهى فى نشرها بين المسلمين مصدر توهين للعقيــدة الاسلامية وباعث على الفتنة وهى غير صادقة ومنفرة للقلوب ومضعفة للايمان .

أولا : الكاتب يقطع النبى صلى الله عليه وسلم عن الوحى ، فــكل ماكان من النبى من مبــادىء وجهاد فى سبيلها ، انما هى من عنده لابوحى

من الله تعـــالى ، وهى به بمقتضى بشريتـــه لا بمقتضى رسالته والعنوان (انما انا بشر مثلكم) يعلن ان ماوصل اليه النبى صلى الله عليه وسلم من مبادىء جاهد من اجلها نما هو صادر عن بشرية كاملة لا عن نبوة .

وقد اقتطع هذة الجملة مما قبلها وما بعدها ، ونصها الصحيح « قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد » وهو بهذا الاقتطاع ينفى الوحى عن الحياة المحمدية .

ثانيا : ينفى الـكتاب الخطاب السماوى للرسول ولا يذكر أن جبريل خاطب النبى صلى الله عليه وسلم فى العيان وتصويره للوحى بأنه حلم فى النوم يخالف ما اجمع عليه المسلمون من أن جبريل كان يخاطب النبى صلى الله عليه وسلم بالعيان لا فى المنـــام : الأمر الذى تردد ذكره فى القرآن على أنه رسول الله الى الذين يصطفيهم من الأنبياء لتبليغ الرسالة الالهية لأهل الأرض .

ثالثا : انه يقطع الرسالة عن الرسول ويقطع الوحى عنه ويتجه الى القرآن فيذكر عباراته احيانا منسوبة الى النبى صلى الله عليه وسلم على أنها من تفكيره ومن قوله لا انها قرآن موحى بها وقائله هو الله سبحانه وأن ذلك مبثوث فى الكتاب بكثرة .

وهو ينسب بعض آى القرآن الى النبى . وكذلك ينسب ابطال التبنى الى النبى ولا ينسبه الى الله تبارك وتعالى . وكذلك ينسب تحريم الخمر الى النبى .

رابعا : يذكر قصص القرآن على أنه نتيجة تجارب النبى صلى الله عليه وسلم .

وما كانت قصص النبى الا من القرآن وما كانت له رحلات فى بلاد العرب بل انه لم يخرج من الحجاز الا مرتين احداهما فى الثانيـــة عشرة والثانية وهو فى الخامسة والعشرين .

خامسا : يرى الكاتب أن القرآن من كلام محمد ولم يذكر قط على وجه التصريح ان الله تبـــارك وتعالى هو منزل القرآن وباعث محمد بالرسالة

بل ان ذكر الله تبـــارك وتعالى يندر فى الكتاب ، بل لا تجد له ذكرا قط ولم يذكر القرآن الا نادرا ، بل لا تجد له ذكرا قط . واذا ذكر آية ذكر انها همهمة نفس النبى صلى الله عليه وسلم .

وهو لا يذكر كلمة القرآن على انه منسوب لله فى مقام يومىء بالتشكيك فى صدقه ويوهم بأن به تحريفا وتبـــديلا ومحاولة التقاط واحد ممن كانوا يشركون مع العشرات فى كتابة الوحى لاثارة هذه الشبهة .

سادسا : انه ليوهن شأن النصوص ســـواء اكانت قرآنا ام احاديث عندما يقرر أن الحكم فى الاسلام بالقـــرآن أو السنة أو الراى على انهـــا متساوية والمسلم مخير بينها .

سابعا : موقفه من النبى محمد صلى الله عليه وسلم المبعوث من عند الله خاطىء فان الـــكلام الذى كتبه عنه غير قائم على أسس صادقة بل على ماينافى كل الحقائق التاريخية تماما .

١ — ادعى أن النبى سافر الى اليمن مع عمه وهـــذا مالم يذكر فى الصحاح عن تاريخ النبى وذكره المستشرقون من غير سند تاريخى .

٢ — يسترسل ويدعى أن محمد كان رحالة معنيا بما عنـــد الرومان والفرس ، وغير صحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم جاب البلاد العربية شمالا وجنوبا ، وانه كان معنيا بمعرفة ماعنـــد الرومان والفرس وان كل ذلك لا يوجد مايدل عليه فى التاريخ الاسلامى والمصادر الصحيحة .

٣ — يذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم تعلم الكتابة من ملاحظته للحروف وأن هذا تزيد فى الروايات .

٤ — يذكر أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد سحر وهذه دعوى باطلة ، وقد ورد ذكر السحر فى بعض الروايات ولكن الثقات والمحققين من العلماء ردوها وثبت بالدليل القاطع بطلانها . وان المستشرقين يطيلون من ذكرها توهينا لشأن الدعوة الاسلامية .

مسرحيـــة الحسين شـــهيدا

ان محاولة كتابة حياة الصحابة على هيئـــة مسرحيات بأقـــلام كتاب ماركسيين أو شعوبيين من شأنه ان يقلل من اقـــدار هؤلاء الرجال الأفذاذ ويفتح الطريق أمام الجـــراة عليهم بالنقد والتعرض لهم كأنهم شخصـــيات سياسية وتاريخية اعتادوا نقدها او الولوغ فى عرضها دون تقدير للخطر البالغ الذى يترتب على هذا العمل مما يتصل بالاسلام نفسه . ومن عجب ان هؤلاء الـــكتاب الذين تعرضوا لهذه الدراسات لم يكونوا مؤرخين اصلا يحملون امانة العمل ويقـــدرون مسئوليته وانما كانوا من الأدباء والشعراء الذين اطلقت لهم حرية التعبير دون ان تحاط بسياج من الكفاية العلمية او التقدير الكامل للظروف والتيارات والعوامل المختلفـــة التى تكتنف تاريخ الاسلام كله ، فمنهج كتابة التاريخ له اصوله وقواعده التى تجعل من العسير على الهواة من الأدباء والشعراء أن يحققوا فيه عملا ايجابيا صالحا ، ولمـــا كان لتاريخ الفترة الأولى من حياة الاسلام خطر بعيد الأهمية فى تقـــدير اصول الاسلام نفسه فان التصدى لـــكتابة مسرحية أو قصة فيها هو عمل غير يسير الا على من استطاع ان يحيط به ، ومن كانت له من ذاتيته المؤمنة بالاسلام المقدرة لرجاله ومواقفه مايمكنها من تجنب الخوض فى أمور تعددت فيها الروايات وتعرضت لـــكثير من الاضافات بأيدى خصوم الاسلام نفسه واصطنعت سلاحا لضرب الاسلام والتقليل مكانه فى النفوس . ومن الحق ان هؤلاء الصحابة كانوا من معدن آخر يختلف عن معدن الذين جاءوا من بعدهم وهم يمثلون النموذج الاسمى من البطولة الاسلامية ، ومن هنـــا فلا يمكن تناولهم على هذا النحو الذى نراه فى كتب بعض الأدباء المحدثين ، ويمكن ان يقال ان احداث المائة سنة الأولى من تاريخ الاســـلام كانت من معجزات التاريخ ، وهى عمل لم يعلمه احد فى امة اليونان ، او امة الرومان وان الذين يحاولون التقليل من شأن هؤلاء الصحابة هو الاساءة الى الاسلام نفسه فى شخصيات العصر الأول صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) العبقــريات

(٢) الفلسفة القرآنيــة

يقول غازى التوبه ان الأستاذ العقاد يرد صفات الصديق والفاروق البارزة الى العوامل الوراثية او التكوين الجسمانى والعصبى لهما او الى الصدف العظيمة ويحاول ان يفسر مواقفهما على ضوء هــذه الأسباب . والعقاد يضع هذه الأسباب فى المرتبة الأولى فى توجيه الشخصية ، وتأتى العقيدة الاسلامية وتربية الرسول عليه الصلاة والسلام فى المرتبة الثانية، ان كان هنــاك دور للعقيدة أو لتربية الرسول عنده ، والعقاد فى موقفــه هذا متأثر ببعض المــدارس الأوربيــة التى تقدس الأفراد وطابع الفردية وتفسر مختلف حوادث التاريخ على هذين الأساسين . وقــد أورد العقاد ذكرا لاحدى هذه المدارس التى تحدد صفات العبقرى انطلاقا من تكوينــه الجسدى ، وهى مدرسة لمبروزو . والعــالم الايطالى لومبروزو ومدرسته التى تأتم برأيه يقررون بعد تكرار التجربة والمقارنة أن للعبقريات علامات لا تخطئها على صورة من الصور فى احد من اهلهــا ، وهى علامات تتفق وتتناقض ولــكنها فى جميع حالاتها وصــورها نمط من اختــلاف التركيب ومباينته للوتيرة العامة بين أصحاب التشابه والمساواة .

ويقول الدكتور محمد احمد الغمراوى : يجب أن يقرأ للعقاد باحتياط وهو يكتب عن الاسلام فالعقاد ابن العصر الحديث أخذ ثقافتــه مما قرأ لأدبائه وعلمائه وهو شىء كثير . وليس كل ماكتبه المستشرقون يقبله المسلم ولا كل نظريات علماء الغرب يتفق وما قرره القرآن . ولكن العقاد اعتقد من هذه النظريات ما اعتقد فهو ينظر الى القرآن الكريم من خلال مااعتقد منها ويبــدو أن من بين مااعتقده العقاد نظرية فريزر فى نشوء الأديان فهى عنده ليست سماوية ولــكن ارضية نشأت بالتطور والترقى الى الأحسن. ومن هنــا تفضيل العقاد للاسلام على غيره من الأديان فهو آخرها واذن فهو خيرها ، من هنــا تفضيله ماسماه الفلسفة القرآنيــة على غيرها من الفلسفات .

ويقول: ان لم يكن هذا هو تفسير اطلاق اسميه الغربيين على كتابيه عبقرية محمد والفلسفة القرآنية فهذه التسمية خطأ منه ينبغى أن يتنبه اليه قارىء الكتابين من المسلمين ، لينجو ما امكن مما توحى به التسميات من ان محمدا صلى الله ليه وسلم عبقرى من العباقرة لا نبى ولا رسول بالمعنى الدينى المعروف فى الأديان المنزلة . ويؤكد هذا الايحاء أن جاء الكتابواحدا من سلسلة كتب العبقريات الاسلامية وأن يكون أولها . فالناشىء الذى يقرأ بعد عبقرية محمد عبقرية أبى بكر وعبقرية عمر مثلا لا يمكن أن يسلم من ايحاء خفى الى نفسه أن محمدا وابا بكر وعمر من قبيل واحد ، عبقرى من عباقرة وأن يكن اكبرهم جميعا ، كالذى سمى النبى صلى الله عليهوسلم بطل الأبطال فاوهم انه واحد من صنف ممتاز من الناس متجدد علىالعصور بدلا من صنف اختتم به صلى الله عليه وسلم : صنف الانبياء والمرسلين من عند الله . فالنبى والرسول يأتيه الملك من عند الله بما شاء الله من وحى ومن كتاب ، ولا كذلك العبقرى ولا البطل . فالنبوة والرسالة فوق البطولة والعبقرية بكثير . وكم من الصحابة رضوان الله عليهم من بطل ومن عبقرى ، وكلهم يدين له صلى الله عليه وسلم بانه رسول الله الى الناس كافة فى ذلك العصر وما بعده وانه خاتم النبيين .

والفلسفة القرآنية تسمية اخطر من عبقرية محمد ، فمحمد صلى الله عليه وسلم كان خلقه القرآن كما وصفته السيدة عائشة أم المؤمنين ، فهو خلق للعباقرة والأبطال منه نصيب ، اذ العظمة كلها والكمال الانسانى كله فى اتباع ما جاء به القرآن ، فلأن يحشر صلوات الله وسلامه عليه فى العباقرة أقرب الى الصواب من أن يحشر القرآن فى الفلسفات . ان الذى جرت به عادة الناس أن ينسبوا الفلسفة الى صاحبها فيقال فلسفة ارسطو أو فلسفة ابنرشد فماذا يمكن أن يراد ياترى اذا قيلفلسفة القرآن أو الفلسفة القرآنية . ان القرآن كتاب الله ليس لمخلوق فيه حرف ملك أو غير ملك ، فهل يمكن على هذا أن يقال أن الفلسفة القرآنية معناها فلسفة الله فى القرآن . ومن هنا تبدو بشاعة هذه التسمية بالنسبة الى كتاب الله فهى تسمية لا تستقيم الا ان كان القرآن كتاب محمد كما زعم المستشرقون ، فيكون معناها فلسفة محمد كما جاءت فى القرآن . وتسرب هذا المعنى الى نفس القارىء المسلم الناشىء عن طريق الايحاء هوالخطر

الـكامن فى تلك التسمية ، وهو عيبها الذى ينبغى ان يكون اول ما يؤخذ على الـكتاب ، وشر منه ماتوجبه التسمية من ان القرآن يمكن تلخيصه أو شرحه تحت هذا الاسم العجيب .

وقد وقع العقاد فى الخطأ وخالف القرآن الذى هو موضوع كتـابه بذكره ما قاله فريزر ومن اليه عن الانسان الأول وحيرته فى القوى التى احاطت به ورهبته اياها وعـدم اهتـدائه الى مصـدرها ثم ماحاوله من استرضائها واللـياذ بها أو ببعضـها كلما رغب أو رهب بعـد أن أخـذ فى الترقى .

والكلام على الانسان الأول بهذه الصورة خطأ فاحش صححه القرآن الكريم ، فالانسان الأول فى القرآن هو آدم أبو البشر وأول نبى فىالأرض، لم يعبد الا الله ولم يلجأ الى سواه مخافة محذور أو ابتغاء مرغوب ، لكن كان من ذريتـه من الأمم من ضل عن الله ، وكان الضلال على درجات فى العصر الواحد وفى العصور المتعاقبة . وجاء فريزر ومن لف لفه فعمم هذا الضلال على الجنس البشرى وجعل من درجاته سلسلة أو سلاسل بعضها اعمق واعرق فى الضلال من بعض أو بعضها اقل ضلالا واقرب الى الرقى من بعض ، تطبيقا منه على الأديان ، لمـا جاء به (دارون) تفسيرا لنشوء الأنواع فى عالم الحيوان ، حين لا صلة مطلقا بين الميـدانين حتى يمكن أن يقاس عالم على عالم أو ميدان على ميدان . ولو كانت نظرية (فريزر) واقعـة فى دائرة العلم التجريبى ماقبلها منه أولو العلم لسببين علىالأقل كل منهما مبطل لها أو كاف لابطالها (أولهما) : انهـا لا يمكن اختبـارها بالتجربة كما تختبر الفروض ونظريات العلوم التجريبية (ثانيـا) ظاهرة الأنبيـاء والرسل الواقعيـة فى التاريخ والتى لا يمكن مطلقا الجمع بينها كحقيقـة تاريخية وبين تلك النظرية المسرفة التى لا تعترف بنبوة أو رسالة الهية كالتى اجمعت عليها الأديان السماوية وهناك الآن شبه اجماع على تطور الحيوان بعضه من بعض اذا افترض وجود الحيـاة على الأرض فى المبـدأ ولو فى صورة خليـة واحدة : حيـة مائية كالأميبا مثلا ، لـكن وجود الحياة ولو على هذه الصورة فىالأول لايدرون له تعليلا ولا تفسيرا، لأن الأرض كانت كتلة نارية فلما بردت كانت معقمة تعقيمـا تاما فمن أين للحياة أن توجد فيها الا بأمر الاله الحكيم وتدبيره .

واذا وجدت الخلية الحية فى الماء فمن أين لها التطور الى كل هذه الأصناف من الحيوان الا بأمر الله القادر الحكيم وتدبيره . واذا وجدت الخلية الحية فى الماء فمن أين لها التطور الى كل هذه الاصناف من الحيوان الا بأمر الله القادر الحكيم وتدبيره فهذا أدل على الله سبحانه وقدرته وحكمته فىخلق الأنواع كلنوع بذاته مستقلا عن غيره كما كانيعتقد الناس قبل أن يجىء دارون بنظريته ليفسر نشوء الأنواع . وعلى كلا الأمرين البديلين فوجود الحياة فى الأرض المعتمة أولا وتنوعها ثانيا — مهما يكن طريق هذا التنوع — دليل هاد الى الله سبحانه الذى خلقها وأوجدها ودبر أمرها وطورها ونوعها ورتاها وجعل أنواعها متنامية متكاملة ويعيش الحيوان لا غنى له عن النبات لتستمر له الحياة .

ودارون لم يفعل أكثر من أن سار فى الأرض ونظر كيف بدأ الله الخلق وان نسب ذلك لغير الله خطأ منه وغفلة اذ نسب الى ماظنه عوامل التطورماكان ينبغى أن ينسبه الى رب هذه العوامل ومقدرها ، واخطأ مرة أخرى اذ عمم التطور حتى شمل خلق الانسان وان اعوزه فى ذلك ماسماه بالحلقة المفقودة التى تخبطوا فيها الى اليوم وجعلوا يتصورونها كيف شاءوا بناء على ضرس يجدونه هنا أو عظم قرد أو جمجمة يجدونها هناك مع أن الاحتمالات فى مثل هذا أكثر من أن يثبت معها أو يتعين بها هيكل مايسمونه انسانا أو شبه انسان . وهم أحرار فى أن يتصوروا أو يفترضوا ما شاءوا مادام النقد العلمى مازال موجودا لكنا معشر أهلالقرآن لا نخضع ما اتصلبخلق آدم من آياتالقرآن لتصوراتهم تلك أو لفروضهم. فالقرآن كتاب الله يحكم على نظرياتهم ولا يخضع لها . وهو يقرر أنآدم أبا البشر لم يخلق فى هذه الأرض حتىيتناوله التطور الذى خلق الله أحياءها عن طريقه قبل أن يهبط آدم وزوجه الى الأرض بأمر الله وان جنح بعض المحدثين من المفسرين الى أن آدم خلق على هذه الأرض وان جنته كانت على هذه الأرض ، غافلين عن فقه قوله تبارك وتعالى (ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين) حينما أمروا بالهبوط واخرجوا من الجنة ومن أن هناك فى ملكوت الله ست أرضين أخرى غير أرضنا هذه طبق آية آخر سورة الطلاق ولابد أن يكون آدم خلق فى احداها وكانت جنته فيها .

وعلى اى حال فحقيقة القرآن الكريم فى آياته المتعلقة بآدم أبى البشر تبطل ما قال العقاد عن الانسان الأول تبعا لما قاله أتباع دارون فى خلق الانسان .

كتاب الله للعقاد

كتاب الله لمصطفى محمود

فى كتاب الله شرح العقاد هذه النظرية فى شأن تطور العقيدة من عبادة الطوطم الى عبادة الله . ولا ريب أن هذا الخطأ يرجع الى أن هذه النظرية منقولة من الفكر الغربى ومن كتابات أحد الفلاسفة اليهود الذى أراد بها اعلاء شأن التوراة . ولا ريب أن مفهوم الاسلام يكشف عن خطأ القول بأن عبادة الله قد تطورت من عبادة الطوطم الى عبادة الشجر والحجر ومنها الى عبادة الأفلاك والنجوم ثم صارت أربابا متعددة لها انه أعظم هو زيوس اوجوبيتر ، ثم تحولت الى عقيدة توحيد مخصوصة لشعب واحد عند اليهود وهو يهوا رب اليهود فقط وهو شعب الله المختار ثم تطورت العقيدة الالهية لتصبح الثالوث (الأب والابن والروح القدس) فى المسيحية التى تدعى أنها تؤمن برب واحد فى اقانيم ثلاثة وكانت قمة تطور العقيدة الالهية فى الاسلام ، هذا هو الخطأ الذي وقع فيه العقاد ، ورddه مصطفى محمود حيث جعل العقيدة الالهية تتطور من عبادة الطوطم الى عبادة الأحجار الى عبادة النجوم الى عبادة الآلهة المتعددة .

ويتحدث مصطفى محمود عن الانسان الأول الذى كانت روحه ترتجف جوعا الى الايمان مثلما يرتجف جسده جوعا الى اللقمة والأمان ويقول بالنص : (ظن أن أباه الميت الذى يظهر له فى الحلم هو الله فعبده وذبح له القرابين واتخذ من قبره محرابا مزارا) .

ثم جاء التطور من اله متجسد الى عبادة روح مجردة بلا شكل ولا جسم .

ولا شك أن مفهوم تطور العقيدة عند الكاتبين يناقض القرآن ، فالقرآن يخبرنا أن أبا البشر آدم عليه السلام كان نبيا موحدا على أنقى

صور التوحيد ولم يكن اخنـــاتون عابد الشمس هو أول موحد على وجه الأرض كما يزعم العقاد ومصطفى محمود ونجيب محفوظ . ويخبرنا القرآن الـكريم أن نوحا عليه السلام كان من أولى العزم من الرسل وكان على انقى صور التوحيد واعلاها وهو الذى دعا قومه الف سنة الا خمسين عاما الى عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ثم جاءت الرسل تترى (هود وصالح وشعيب) وابراهيم وبنيـه اسماعيل واسحق ومن وراء اسحق يعقوب ووصى بها يعقوب بنيه ودعاهم الى أن لا يموتن الا وهم مسلمون ، ويوسف الصـديق الذى قال : توفنى مسلما والحقنى بالصالحين واستمر ركب التوحيد فى ركب النبـوة : الى موسى وعيسى . وقـد اخطأ العقاد ومصـطفى محمود فى القول بأنه ليس فى التوراة ذكر للتوحيد الا قبيل زمن المسيح وانه ليس فيها ذكر للجنة والنار واليوم الآخر وليس فيها أى سـمو الى آخر ماينـاقض صريح القرآن . والمعروف أن اليهود حرفوا التوراة وبدلوا كلام الله ليشتروا به ثمنا قليلا كما وصفهم الله تعالى فى القرآن ، ويقول الحق (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لمـا بين يديه وانزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وانزل الفرقان . ان الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام. وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لمـا بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لمـا بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين) .

وهكذا نرى أنه ليس من اختلاف قط فى العقيدة وان التحريف والتبديل قـد حصل على فترات من الرسل ، فآدم عليه السلام وبنوه كانوا موحدين ولـكن الذرارى طال عليهم العهد فنسوا حظا مما ذكروا به فتولوا وكفروا بما انزل الله الانبيـاء والرسل يردونهم الى جادة الحق . وتاريخ الانسانية من فجرها الى أن يرث الله الأرض ومن عليها يمثل هذا الصراع الدائم بين الحق والبـاطل ولا اختلاف بين الرسالات جميعـا فى العقيـدة ، وانما الاختلاف بين الشرائع فى التفاصيل . ومن رحمة الله بالعبـاد أن جعل أحكام الشريعة السابقة منسوخة بالشريعة اللاحقة يبقى منهـا مايصلح لذلك الزمان وينسخ الله الأحكام الأخرى تخفيفـا ورحمة : (ماننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها أو مثلها) .

وقد حسب الكاتبان انهما يؤديان للاسلام خدمة وما دريا انهما يخالفان صريح القرآن وأن الخلط بين أنبياء الله وبين اخناتون : فرعون مصر وعابد الشمس والقائل عن نفسه أنه ابن الاله ومن صلبه ملك مصر العليا والسفلى وسيد الأرضين كيف يقال عنه انه أول الموحدين .

وخطأ العقاد قوله ان التطور فى الديانات محقق لاشك فيه ولا ريب انه قد خدع للقراءات اليهودية التى دبر بها التلموديون مؤامراتهم للادعاء بأن دينهم أول دين توحيد ، ومن متابعة هـذا الخطأ نرى كتاب اليوم يقولون (ولما جاء عصر الأديان) يقصدون اليهودية مع أن دين الله قائم منذ أبى البشر آدم لم ينقطع (محمد على الباز) .

حيـاة محمـد

تعرض كتاب حيـاة محمد للدكتور محمد حسين هيكل الى نقد شديد فقد جرى فيـه كاتبه مجرى المتابعة لمنهج المستشرقين ، بل انه بدأ كتابه بترجمة فصـولا من كتاب حيـاة محمد للمستشرق الفرنسى اميل درمنجم الذى كتب كتابه تحت تأثير ظروف العلاقات السياسية بين المغرب الاسلامى وبين فرنسا الكاثوليكية ، ولذلك فقد حاول فيه أن يعمل على تقريب وجهات النظر مما فات الدكتور هيكل فخدع به وتابعه :

وقـد كشف هذه الأخطار فى نفس الوقت الذى كان هيـكل يترجم فصول كتاب صاحبه ويعلق عليها وهو الدكتور حسين الهراوى . كما نقد هـذا الاتجاه شيخ الاسلام مصطفى صبرى ثم جاء بعد سنوات الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى فواجه هذا التيار فقال :

ان من أسباب نشأة هذه المدرسة فى حينها : ذلك الانبهـار الذى أصيبت به كثير من العقول العربيـة المسلمة من أبنـاء الهضة العلمية فى أوربا فقد راحت تلك العقول تتوهم — تحت تأثير ذلك الانبهار — انه ليس من المسلمين وبين أن ينهضوا مثل تلك النهضة الا أن يفهموا الاسلام هنـا كما فهمت أوربا النصرانية هنـاك ، وأن يضعوا حقائق الاسـلام الغيبية من وراء اكتشافات العلوم المادية فلا يؤمنوا بغيب لم يدركه علم ، ولا يعرجوا على معجزة لم يؤيدها اكتشاف أو اختراع فان فعلوا ذلك نهضوا

نهضة أوربا فى علومها ولحقوها فى وقيها وفنونها . وكان من مظاهر هذا الاصلاح ظهور أول تجربة تحاول تحليل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم تحليلا يسير فى خضوع منكسر وراء العقلية الأوربية وتحت لواء مازعموه (العلم الحديث) اجل فقد كان كتاب (حياة محمد) لحسين هيكل التجربة الرائدة فى هذا المضمار اعلن فيه الرجل انه لا يريد أن يفهم حيـــاة محمد عليه الصلاة والسلام الا كما يأمر به العلم ولذلك فلا خوارق ولا معجزات، فى حياته عليه الصلاة والسلام وانما هو القرآن والقرآن فقط . وانبرى الشيخ مصطفى المراغى شيخ الأزهر يقرظ الكتاب ويبارك الخطوة الرائدة وانطلق محمد فريد وجدى هو الآخر ينشر سلسلة مقالاته داعيا الناس الى فهم الاسلام والسيرة النبوية عن طريق العلم ، ولو اقتضى ذلك الاعراض عن الخبر الصادق الذى ثبت فى الكتاب والبينة وانما كان يقصـــد بطريق العلم الا يستسلم العقل للغيبيات ولا للخوارق والمعجزات وان جاء بهـــا الخبر الصادق المتواتر . كأن العلم انما يتحقق بانكار كل مالم يقع تحت حسك وشعورك ، كانت هذه المـــدرسة رد فعل أثاره الانبهـــار والشعور بالضعف لدى طائفة من المسلمين تهيـأ لها سبب ظروف خاصـــة أحاطت بهـــا وهى ان تطلع على الحيـــاة الأوربيـــة فتستهويهـــا زخارفهـــا وملاذها فاتخذوا من نزوات انفسهم حاكما متسلطا على عقولهم واصطنعوا بذلك مدرسة فـــكرية ظاهرها الاصلاح الدينى وباطنها الاستخذاء النفسى والانبهار الفكرى بين يدى نهضة الغرب ، ومع الأسف فان هذه المدرسة لم تكسب الى نهضـــة علمية كالتى نهضتها أوربا كما كانوا يتوهمون . لقد كان من الخطأ أن يحاول المسلم فهم حياة رسول الله على أنه عبقرىعظيم أو قائد خطير أو داهية محنك فمثل هذه المحاولة ليست الا معاندة أو معابثة للحقائق الـــكبرى التى تزخر بها حيـــاة محمد صلى الله عليه وسلم ،ولقد اثبتت الحقائق أن النبى كان متصفا بكل صـــفات السمو والـــكمال الخلقى والعقلى والنفسى ، ولـــكن كل ذلك كان ينبع من حقيقة كبرى واحدة فى حياته عليه الصلاة والسلام ، الا وهى انه نبى مرسل من قبل الله عز وجل ولا ينبغى للمسلم أن يتصور أن المعجزة الوحيدة فى حياته صلى الله عليه وسلم انما هى القرآن مادام انه لا ينكر أن له عليه الصلاة والسلام سيرة يحاول أن يفهم حياته من خلالها . أما اذا كان ينكر وجود هذه السيرة فان

عليه أن بيكر معجزة القرآن أيضا اذ لم تبلغنا معجزات رسول الله المختلفة الا من حيث بلغتنا معجزة القرآن .

وقال الأستاذ حسين الغمراوى للدكتور هيكل فى التعليق على مانقله عن درمنحم :

كأنى بالأستاذ يعجب بما فى الكتاب وما يحويه من آراء تقرب مسافة الخلف بين الاسلام والنصرانية على ماتفرضه من حسن النية فى المؤلف والعاطفة الدينية والأدبية فى الناقد الا اننا رأينا العلمين يسيران معا فى الطريق الذى رسمه جماعة المستشرقين .

يقول هيكل والواقع ان النبى صلى الله عليه وسلم منذ الساعة الأولى بل من قبل أن ينزل عليه جبريل بالوحى كان أشد مايكون نفورا من هذه الوثنية التى نشأ أهله من قريش فيها واشد مايكون ميلا لهذه المعانى الروحية التى يتحدث عنها النصارى واليهود المنبثون من أهل الكتاب فى أنحاء شبه جزيرة العرب ، فحين كان يتصل بهم أثناء ذهابه الى الشام والى اليمن فى القوافل قبل أن يقوم فى تجارة خديجة وبعد أن قام بها ، هذه المعانى الروحية هى التى دفعته الى أن يتحنث فى كل عام بغار حراء شهرا أو اكثر من شهر ، ثم قوله : هذا الاتصال بأهل الكتاب وكتبهم هو الذى أدى بمحمد كما قدمنا لينصح الى الذين اتبعوه بعد أن أمضهم أذى قريش أن يهاجروا الى الحبشة المسيحية فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد . ويعترض الدكتور حسين الهراوى على هذا الاتجاه الخاطىء للدكتور ويقول ان الذى تفهمه من ذلك ان تعاليم أهل الكتاب كانت قد لفتت نظر سيدنا محمد الى الكمال الروحى والمثل الأعلى وجعلته يتحنث فى الغار وهذه طريقة المستشرقين فى البحث ورد الهراوى على القول بأن مصادر القرآن هى هذه الكتب التى يدعون أن النبى قد استفاد منها فى سياحاته .

وتساءل الهراوى فقال : هل حقيقة كانت الهجرة الى الحبشة لأنها مسيحية ، ويقول ان درمنحم شأن المستشرقين بتر هذه القصة بصفة مشوهة للحقيقة فلم يكن الدافع للنجاشى ورعه وتقواه ولم يكن سببعطفه ورحمته ذلك الدافع الدينى بل الدافع الحقيقى أن هذا النجاشى كان عادلا

وهـذه هى الخلة التى ذكرها النبى حين قال (لأن فيها ملـكا لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق)

وكان من أخطاء درمنحم أن استدل بالآية الـكريمة :

(فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب).

استدل بها درمنحم على أن الله تعالى رضى الناس الاسلام دينا مع بقاء الأديان التى سبقت وحدة مندمجة فى هذا الـكمال الروحى اندماجا اشار اليه القرآن فى قصص أصحاب هذه الأديان .

ولا ريب أن هذه مراوغة خطيرة من الاستشراق يحاول بها أن يفسر الآيات القرآنية تفسيرا يخـدم به أهـدافه والحقيقة أن الاسلام كما جاء فى القرآن جاء ليظهره الله على الدين كله وأن الأديان كلها التى سبقت كانت موصلة اليه لولا أن قادتها حرفوها .

والواقع أن الدكتور هيكل قد تابع منهج المستشرقين وخضع لمفهومهم فى الفلسفة المادية بالنسبة للمعجزات وبالنســبة للاسراء والمعراج ولم يستطع أن يتحرر من التبعية الفكرية .

تفســير عصرى للقرآن

يقول الدكتور فتحى جمـوده : ان تفسير القرآن هو أسمى مراتب الاجتهاد ولابد لمن يتصدى له أن يكون مشتهرا بالتقوى والورع والصفاء النفسي والاشراق القلبى حتى يصافح روح القرآن ويتمزج بأسراره وينفذ الى أغواره ويهتدى الى خوافى سحره واعجازه ، وأن يستوفى بعد ذلك شرائط الاجتهاد العـامة من بصر واحاطة بلسان العرب ومفرداته والآلات عباراته وعلومه وفنونه وآدابه وآثاره وعيون تراثه احاطة شاملة وعلما ثابتا بالقرآن وأحكامه وطرق استخدام هـذه الأحكام الى وعى صـادق ومعرفة وثيقـة بوجوه القياس والاهتـداء الى العلل والمقاصد العـامة والخاصة للشرع على الاجماع ، وواضح أن الدكتور مصطفى محمود يفتقد العدة اللازمة لهذا العمل الخطير وليس معنى أن الاسلام خال من الكهنوت وأن لـكل ذى عينين أن ينظر فيه أنه — أى الاسلام — يستغنى عن العلماء والمتخصصين المتبحرين فى علومه وأحكامه والذين هم مكلفون ببيانها للناس على وجهها الصحيح .

(٢) ان من أحكام الشرع أحكاما يقينية ثابتـــة منقولة بالتواتر معلومة للعلم والخاص ممتنعة على الجدل والخلاف كالتكاليف والمحرمات ، وهـــذه تخرج عن نطاق الاجتهاد لأن طرح الاجماع حرام ومن جحدها أو خالف عنها فهو آثم فاسق ، وطائفة أخرى من الأحكام خافية الدليل مفضية الىالخلاف الأبيض فى اكتشاف دليلها ، وهذه تترك للاجتهاد بشرط الا يمارسه الا من استوفى شرائطه من أئمة الاجهاد .

والملاحظ أن الطبيب المفسر قـــد اغفل هـــذا التقسيم وتجاهل هـــذه الفوارق وانطلق فى أرجاء القرآن من غـــير تمييز وتعرض لأصـــول الدين ذاتها يصوغها على مطلق هواه ومشيئته ، وبالأسلوب الذى يناسب تغير الموديلات وتطور الموضات على أبواب السبعينيات ، فهو مثلا ينكر الجنة والنار ويقول ان الأمر لن يعدو بالنسبة للعصاة نوعا من النـــدم والعذاب النفسى وبالنسبة للاخيار لونا من الشعور بالراحة والسكينة ، وهو قول يشبه قول اليهود بانكار البعث والحساب وبأن الجنة والنـــار قائمتان فى الحياة الدنيا وأن اغنياء الدنيا هم أهل الجنة والفقراء هم أهل الجحيم .

(٣) اطلاق آراء غير مسئولة ولا معقولة مثل تسامحـــه فى العـــرى الذى تهافتت عليه النســـاء اذ هو يرى أن بضعة أمتار (كـــذا) تزيد أو تنقص فى ثوب المرأة لا تؤثر فى دينها وفى صفاء قلبها .

وقال احمـــد موسى سالم : ان هـــذا التفسير رجعى أولا لأنه يزعم للمسلمين ان القرآن كتاب دين أخلاق وليس كتابا فى السياسة وهو بهذا يخفى من أبسط البسائط فى واقع الدعوة الاسلامية وواقع تطبيقاتها ان الدين الذى هو تفسير مجدد للحياة والوجود والـــكون والانسان والمجتمع والتاريخ يحرك السياسة بكل أبعادها فى الحكم والأموال وعلاقات المجتمع وخصائص الثقافة ومناهج الحضارة ، ولقد ظل القرآن الـــكريم بهـــذا المعنى الشامل يحرك السياسة فى المجتمع الاسلامى ويحفظ عليـــه قوته العلمية والاقتصادية والفكرية والعسكرية والدولية ، طوال عصر نهضـــة المسلمين ، وهو رجعى لأنه يعرض الى نذر القرآن بحتمية الموت والهلاك والفناء بصياغات مبهمة تبرق من خلالها ملامح الروحانية الهنـــدية وروح النرفانا التى تحمل الدعوة المرفوضة بالاسلام وهى (أنت تتطهر بقـــدر ماترفع يدك عن شواغل الحياة وبناء الحياة) . وهو رجعى لأنه لايعرف

الفــرق بين الطبقة والدرجة هذا المعنى الواضح فى القـــرآن الكريم والذى ميزت فيه آياته البينات بين الحديث عن الطبقة فى موضوع الكبراء والاراذل والحديث عن درجات المؤمنين او درجات العاملين فالدرجة فى بيان القرآن الـــكريم تعنى التقدم أو التأخر على خط واحد مستقيم يقاس به على نقـــله ومستوياته جميع النـــاس وفق قانون واحـــد للايمان والعمل هم جميعـــا متساوون أمامه من غير تمييز بالعنصر او اللون أو اللسان . أما الطبقة فهى جماعة من الناس تختلف تماما فى مصالحها وملامحهـــا عما تحتها أو فوقها من طبقة أو طبقات فى المجتمع الواحد .

وهو قد جعل التصوف هو الضوء فى مقابل ظلام المادية الالحادية ، وله وقفة فى تفسيره للحرام والحلال بحسن نية وقفة صريحة بجانب المادية الغربية المادية الاستعمارية التى لا يقل خطرها الأخلاقى علينا وعلى قيمنا عن المادية الالحادية الشرقيـــة والتى نجـــد فى التفســـير الصحيح الأمين والعصرى للقرآن الـــكريم مانرد به دون خفاء على هذه وتلك بكلمة سواء يفهمها العامة والخاصة جميعا » .

وقد ردد كثير من الباحثين أخطاء مصطفى محمود فى التفسير وخاصة مانقله عن ابن عربى من أن عذاب الآخرة عذاب معنوى أو انه عذاب الضمير والوجدان ، وقال ابن الخطيب انه لو تدبر آيات العـــذاب لوجـــد « كلما نضجت جلودهم » فهل يمكن أن يقع نضج الجلود على الضمير والوجدان .

وخطأه فى اباحة النظر الى من يحرم النظر اليها ، واباحة ما عليه الآن نساؤنا وفتياتنا من امتهان للخلق واحتقار لتعاليم الاســـلام ولو قرأ بعض أحاديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لاستبان حرمة النظر مطلقا بريئة كانت النظرة أم آثمة وذلك لأن ديننا الحنيف حرص دائما على سد الذرائع فى كل ماشرعه لنا .

كذلك اخذ على مصطفى محمود أنه اخطأ فى تفســـير خطيئة آدم فى الجنة وحجج برأى منحرف عن نعيم الجنة وأن العسل واللبن والخمر كانت سببا فى صدوده عن الدين بادىء الأمر ، واخطأ فى القول بأن الله (جل شأنه) هو العقل المحيط ، ذلك انه لم يرد فى أسمائه تعالى اسم العقل ثم ، ان الله تبـــارك وتعالى فوق كل تصور فلا يصح اطلاق معنى العقل على ذات الله .

كتاب (القرآن عقيدته وتعاليمه)

تأليف محى الدينوف

هذا الكتاب عبارة عن حملة شيوعية سافرة ضد القرآن الكريم فهو يهاجم الاسلام والرسول صلى الله عليه وسلم ومؤلف الكتاب هو محى الدينوف السكرتير السابق للحزب الشيوعى السوفيتى فى ازبكستان والسفير للاتحاد السوفيتى فى سوريا .

وقد وزع الكتاب فى أندونيسيا والكويت عام ١٩٧٤ وكان بمثابة امتداد لخطة تبثها روسيا فى حملتها ضد القرآن الكريم والتى بدأتها منذ عام ١٩١٧ وفقا للفكر الشيوعى المسموم الذى يعتبر الدين معوقا لحركة التاريخ وان مهمة الشيوعية القضاء على الدين حتى تندفع حركة التاريخ دون عوائق .

وقد حمل الكتاب مجموعة من الاكاذيب والأضاليل منها قول مؤلفه ان مايقرب من ربع القرآن يشتمل على قصص الأنبياء وكثير من الأساطير محرفة نوعا ما ومستعارة من الديانات القديمة والكتب المقدسة وانه اعادة للكلمات القديمة والمكروره فى الفكر الماركسى كله . وهى تلك الكلمات التى تبدأ برفض الحوار الموضوعى والعلمى مع الدين وعلى انهـا الاسلام ، وواضح أن المؤلف لم يراجع أى كتاب من كتب الاسلام المعتمدة وانما تقصى آراء خصوم الاسلام التى تقول أن الاسلام تلل من شأن النساء أو أرغم الشعوب الأخرى على اعتناقه أو وضع الانسان فى مركز ثانوى أو قلل من كبرياء الانسان وكلها اتهامات باطلة جرى تفنيدها وهى متواترة فىكل مؤلفات الاستشراق الشيوعى والغربى على السواء .

قصة الحضارة

يقول صبحى ماردينى أن (ول ديورانت) مؤرخ متحامل فقد قالتحت عنوان الفتح الاسلامى فى الهند مايدهش ويستنكر لما تضمنه البحث من تجن وتحامل على حقائق التاريخ ورجاله الأفذاذ المعروفين رغم ماتفرضه الروح العلمية على العلماء والمؤرخين من نزاهة خالصة وتجرد لاتشوبه

شائبة . فقد استسلم ولديورانت الى عواطفه الشخصية المكبوتة وانساق وراء تأويلاته الذاتية المستمدة من ذلك الحقد الماركسى الذى يحمله الغرب على الشرق عامة وعلى العرب والمسلمين خاصة مما جعـله منحـرفا عن جادة الحق والصواب وينزلق فى متاهات الحقد والبغض .

يقول لعل الفتح الاسلامى للهند أن يكون أكثر قصص التاريخ تلطخا بالدماء وان حكاية الفتح لما يبعث اليأس فى النفوس لأن مغزاها الواضح هو أن المدينة مضطربةالخطى وان حركة الرقيقالذى قوامه النظام والحرية والثقافة والسلام قد يتحطم فى لحظة فى أيدى جماعة من الهمج تأتى من الخارج غازية » .

هل هى تساوى واحد من الف من معارك التتار والمغول فى أصقاع الأرض والحروب الصليبية العالمية التى أثارها العالم المسيحى علىالعالم الاسلامى ومحاكم التفتيش فى أسبانيا والحربان العالميتان الأولى والثانية.

وينسى المؤلف تلك المجازر الدموية الجماعية التى ارتـكبها أجـداده الأوربيون ضد الهنود الحمر فى عقر دارهم حين شنوا عليهم حروب الابادة الشاملة فاستأصلوهم تماما وما زالوا يشنونها ضد الزنوج السود فى أمريكا وافريقيا وضد العرب فى فلسطين المحتلة .

بينما كان العرب (الهمج كما يطلق عليهم المؤلف) فى الهند يقضون على الوثنية والفساد وينيرون أرضه المظلمة بعـدلهم وتسامحهم ومدنيتهم وذلك باعتراف زعيم هندى كبير غير مسلم مثل نهرو فى كتاباته..

وقد تألم ول ديورات كثيرا وكاديبكى من فرط الأسى واليأس لما لحق بالمعابد الهندية من احراق وتدمير بعد سرقة تماثيلها الذهبية ونهب ماتحمله من لآلىء وجواهر ثمينة فهل من المدنية والحضارة أن تمتص أقوات الشعب لتجمد فى تماثيل ذهبية تزدان بالأحجار الكريمة وتوضـع فى زوايا المعابد لتخدر الشعب الجائع والسيطرة عليه وهل من المدنية والحضارة أن تترك أمثال هذه الثروات الطائلة داخل المعابد بينما يعيش غالبية الشعبالهندى فى فقر وبؤس الا الفئة القليلة جدا فيه وهى الطبقة الحاكمة التى تعيش فى بذخ خيالى وترف حيوى أقرب الى الأسطورة منه الى الواقع .

هذه هى الحضارة التى يتباكى عليها المؤلف . هذه المدنية التى تبيح استغلال النساء لتتجر بأعراضهن . وهذا هو السلام الذى يحرض على قتل النفس التى حرم الله قتلها الا بالحق ، فيطلب من الزوجة التى يتوفى عنها زوجها بأن تقتل نفسها أو أن تعيش بقية عمرها منبوذة محتقرة مهانة من الجميع . لقد قضى العرب على جميع هذه المفاسد والشرور فأطفئوا نيران الحروب الطائفية التى كانت تشتعل بين حين وأخرى مختلف طوائف الهند العديدة فتفتك بهم الفتك الذريع وتهلكهم بالمئات والألوف . قضوا على الوثنية وحطموا الأصنام ووزعوا ثرواتها على الفقراء والمحرومين ونشروا العدل والمساواة بين الجميع مما جعل الشعب الهندى يلتف حولهم ويساعدهم على حكامه ورفعوا كذلك من مستوى المرأة وكرموها ومنعوا اكراهها على البغاء وقضوا الى الأبد على تلك الخرافة الشائعة التى تقضى بل تقتل المرأة نفسها بعد وفاة زوجها وفتحوا أمامها أبواب الأمل عريضة واسعة لتبدأ حياتها من جديد كما تشاء ومع من تحب .

ولم يكتف ديورانت بهذه المغالطات حول فتح العرب والمسلمين للهند بل هاجم رجالهم بعنف ووصفهم بالطمع والجشع والقسوة ، وتحامل متعسفا بشكل ظاهر على فاتح الهند العظيم البطل الاسلامى المجاهد محمود الغزنوى (٩٧٠ — ١٠٣٠) الذى أمضى ربع قرن من الزمان من حكمه فى حرب وجهاد حتى ضم شمال غرب الهند والبنجاب لامبراطورية فى وسط آسيا وقد كان بطلا محاربا وسلطانا أديبا ضم بلاطه الفارابى والفردوسى والبيرونى . هؤلاء العرب الذين يصفهم المؤلف بالهمجية يقول عنهم مؤرخ أوربى معاصر يدعى ماكس فانتاجو فى كتابه المعجزة العربية (كان من المنتظر عندما اضمحلت دولة اليونان أن يهضم اليونان الثقافة الهلينية بسرعة فيحملوا الشعلة الحضارية عاليا أما اليوم فاننا نعرف الأسباب التى احدثت عكس ذلك وان هذه المهمة المجيدة قد أصبحت من نصيب العرب الذين كانوا يعمرون الامبراطورية المجاورة) .

الباب التاسع

تراجم الأعلام

لــورنس
فيليب حتى
ساطع الحصرى
المتنبى
الحــلاج
السلطان عبد الحميد
السهروردى
شبلى شميل
ابن رشــد
ابن الراوندى
يعقوب ارتين
ولى الدين يكن
غانـــدى
ســارتر
ابن خلدون
ميكافيــلى
عمر الخيــام
تولستوى
يعقوب صنوع

أديب اسحق
جرجى زيدان
نيتشــه
ماركس
فرويــد
سعد زغلول
لطفى السيد
كــرومر
دنــلوب
ولفنجستون
فاسكو دى جاما
الغــزالى
كارل مارتل
دوركايم
دارون
لورنس
جــبران
أبو نواس
هــرتزل

ابن المقفع
هنرى المـــلاح
أبو ذر الغفارى
السلطان جلال أكبر
عبد الرحمن الكواكبى
اخنـــاتون
مرشد دبور
المـــأمون

زويمـــر
أتاتورك
منــــــدل
فـــريزر
يوحنـــا الدمشقى
نصير الدين الطوسى
ابن عـــربى

لورنس

من الشخصيات التى أبرزها الاستعمار وأحاطها بهـالة ضخمة من البطولة : شخصية الضابط لورنس الذى وصـف بأنه (ملك العرب غير المتوج) والمغامر الذي كشف المؤلفات والأبحاث عن هويتـه الاستعمارية وولائه المزدوج لبريطانيا والصهيونية العالمية ، وكيف خدع العرب وعايشهم فى خيامهم (أبان الحرب العالمية الأولى) على هدف واضح هـو اسقاط الدولة العثمانية والايقاع بين العرب والترك ودفع العرب الى الاقتتال من أجل استيلاء فرنسا وبريطانيا على أراضى فلسطين وسوريا ولبنان ، وقد كشف عن هذه الخدعة التي قام بها فى كتابه (أعمدة الحـكمة السبعة) وفضح نفسه : حين قال : لو قيض للخلفاء أن ينتصروا فان وعود بريطانيا للعرب لن تكون سوى حبر على ورق ، ولو كنت رجلا شريفا وناصحا أمينا لصارحتهم بذلك وسرحت جيوشهم وجنبتهم التضحية بأرواحهم فى سـبيل اناس لا يحفظون لهم الا ولا ذمة . وقوله : أما الشرف فقد فقدته يوم أكدت للعرب بأن بريطانيا ستحافظ على وعودهم ، وقوله : لقد جازفت بخديعة العرب لاعتقادى أن مساعدتهم ضرورية لانتصارنا القليل الثمن فى الشرق، ولاعتقادى أن كسبنا للعرب مع الحنث بوعودنا افضل من عدم الانتصار . ومن ذلك قوله : انى أكثر ما أكون فخرا أن الدم الانجليزى لم يسفك فى المعارك التى خضتها لأن جميع الأقطار الخاضعة لنـا لم تكن تساوى فى نظرى موت انجليزى واحد ، لقد جازفت بخديعة العرب لأننى كنت أرى أن كسبنا للحرب مع الحنث بوعودنا أفضل من عدم الانتصار .

وقد كشف كثير من الباحثين الأجانب والعرب حقيقة لورنس : ذلك الجاسوس البريطانى الذى جاء (عام ١٩١١) قبل الحرب العالمية الأولى على هيئة عضو فى بعثة أثرية تدرس القلاع الصليبيـة وفى جبيل تلقى دروسا فى اللغةالعربية فى مدرسة تبشيرية ، وقد ادعى لورنس انه جاء ليكتشف الطريق التى سلكها بنو اسرائيل بعد خروجهم من مصر بينما كان يعمل فى الواقع على رسم الخرائط للمنطقة لاستعمالها فى حالة الحرب ،

فلما أعلنت الثورة العربية فى الحجاز رافق فيصل بن الحسين عامين ونصف. فى أثناء ذلك سار الجيش العربى من ميناء جدة على البحر الأحمر حتى دخل دمشق منتصرا فى ٣٠ سبتمبر ١٩١٨ .

ولقد خدع لورنس العرب وعمل على تحطيم قـوى الجيش العثمانى ونسف القطارات المحمـلة بالذخائر فلما انتهت المعركة واعلن لورد اللنبى فى القـدس (الآن انتهت الحروب الصليبيـة) واعلن غوروا فى دمشق قولته : هانحن قد عدنا ياصلاح الدين ، عمد لورنس الى أعظم سرقة حين سلب قبر صلاح الدين اكليلا من الذهب كان قد قدمه له الامبراطور غليوم يوم زيارته لدمشق .

ولما نجحت خطط الاستعمار البريطانى ، اتجه بجهوده لانجاح خطط الصهيونية واقنع فيصل بالاجتماع بويزمان زعيم اليهود .

لقد كان من اكبر اهداف لورنس وبريطانيا استبدال خليفة المسلمين فى نظر مسلمى العالم بشريف من نسـل الرسول حاكم الحـرمين وحامى الـكعبة .

وكان لورنس يؤمن أن الثورة العربيـة هى تقطيع أوصـال الدولة العثمانية وايقاع الخلاف بين العرب والترك وفتح الطريق أمام الصهيونية الى فلسطين .

وقـد أهـدى لورنس كتابه (أعمدة الحكمـة السبعة) الى سارة ارنسوهن الجاسوسة اليهودية التى القى الأتراك القبض عليها فىالناصرة أثناء الحرب فى فلسطين فانتحرت حتى لا تبوح بسرها .

هذا هو لورنس الذى كانت الصحف تكتب عنه وتصـوره على أنه منقذ العرب وملك العرب غير المتوج والذى جعلوه صانع الثورة العربيـة وقائدها الفعلى .

وقـد كشفت كتابات البريطـانيين انفسهم عن لورنس انه لم يكن جاسوسا لبريطانيا والصهيونيـة فحسب ، ولـكنه كان الى ذلك انسانا منحرفا ، من الوجهة النفسية والاجتماعية والخلقية وأن تاريخ حياته يحمل صورة من الشذوذ الحسى غاية فى الغرابة والعنف . كذلك فقـد كشفت كتابات المؤرخين خطأ ماذهب اليه البعض من أن لورنس هو ملك العـرب

غير المتوج أو أنه كان مخلصا للعرب ، وأن كتابه فى الأعمدة السبعة كان مجموعة من الأكاذيب وهى صفحة اتهام له بالتبعية للاستعمار والصهيونية .

فيليب حتى

كان (فيليب) حتى فى كل كتاباته ممثلا للطابع اللبنانى الخالص القائم على منطلق الفينيقية المنفصل عن العروبة والأمة العربيـــة . وقـــد أقام دراساته كلها على هذا النحو وأكد اقليمية لبنان وانفصاليته ورسم له تاريخا قديما مستقلا عن الأمة العربية مرتبطا بأوربا والغرب ، وكانت مؤلفـــاته عاملا هاما فى تأكيد دعوى الكيان الخاص والانفصال بين لبنان والعروبة، وقد أضفى هذا الاتجاه وهذه العقيـــدة على مختلف آرائه التى ساقها فى كتابه (العرب) وغيره طابعا خاصا ، بعيدا عن المنطلق العلمى والتفسير التاريخى المنصف الصريح الذى يرد الأمور الى مصادرها فهو يتنكر تنكرا مطلقا لأثر الاسلام فى الأمة العربية ، ويضيف كل تاريخ الاسلام ونهضته وحضارته السامقة الممتدة على الزمن الى العرب وحدهم ويجرى الـــكلام عنها تحت عنوان (العرب) فى تجاهل للاسلام واضح، وانحراف عن المنهج العلمى القائم على تأكيد أثر المسلمين من اتراك وفرس وهنود وبربر وغيرهم . وبذلك فهو يمثل طابع المستشرقين ومنهجهم مكتوبا باللغة العربية (وان لم يكتب هو مؤلفاته أيضا باللغة العربية) بل كتبها بالانجليزية ثم ترجمت وأحيطت بقدر كبير من التركيز والاهتمام رغبـــة فى ترويج آرائه ونظرياته التغريبية الاقليمية البعيدة عن الانصاف .

وقد راجع هذه الآراء الخاطئة كثير من الباحثين المنصفين وكشفوا عن وجه الزيف والخطأ فيها وفى مقدمة من شجبوا آراءه الدكتور عبد العزيز الدورى الذى كشف عن خطأ فيليب حتى المتعمد فى القول بأن علم التاريخ عند العرب منقول من المفاهيم الأجنبية والفارسية القديمة وقد اشار الى هذا حين قال : تبين لى فى نشأة علم التاريخ عند العرب ، ان هذا العلم عربى النشأة والأصول وان خطوطه الأساسية تحددت قبل الترجمة من الفارسية وخطأ قوله بأن المثال الذى احتذاه المؤلفون فارسى عن الأصـــل على طريقة (خدا ينامه) مردود ، وقال نحن نعـــرف أن كتابة التـــاريخ الاسلامى انما جرت على أساس السير وعلى أساس الأسر الحاكمة قبـــل ترجمة الخداينامه وقال : لقد بدأ علم التاريخ عند العرب من أصول تتصل

بدراسة الحديث (المغازى) من جهة وبمتابعة الاهتمام الموروث من الجاهلية بالأيام كما ظهر لدى الاخباريين .

وقد أشار كثير من الباحثين إلى مدى تعصب فيليب حتى ، وبعده عن المنهج العلمى وأنه وقع تحت تأثير النظريات التى فرضها النفوذ الاستعمارى على لبنان بعد الحرب العالمية الأولى والتى حاولت أن تخلق للبنان الشخصية تاريخية منفصلة عن تاريخ العرب والاسلام ، وبدأت اقليميته فى أنه مزق تاريخ العــرب على حــد ما أسماه تاريخ لبنـــان ، تاريخ سوريا ، تاريخ فلسطين .

ولعل أبرز أخطـــاء فيليب حتى التى كان يروج لها هى الادعاء بأن اللبنانيين هم الذين قادوا النهضة العربية الحريثة وانهم قدموا الى مصر فأنشأوا فيها الصحف والمطابع وكان أبرز رجالهم هو اليازجى والبستانى والشميل وصروف ونمر وزيدان . ولو أن باحثا منصفا راجع هذه المرحلة من تاريخ العالم الاسلامى والبلاد العربية لكشف مدى الدور الخطير الذى لعبه هؤلاء المارون فى سبيل إسقاط الخلافة وتمزيق البلاد وقيام اسرائيل والتمهيد لتسليم الوطن العربى كله للنفوذين الفرنسى والانجليزى .

ومن دعاوى فيليب حتى فصـــل الجامعـــة العربيـــــة عن الجامعة الاسلامية ، جريا وراء النظرية المارونية اللبنانية الفينيقية الباطلة والزائفة التى تحاول أن تقيم دولة مسيحية فى لبنان تصبح حجر عثرة فى وحـــدة العالم الاسلامى وتمثل محورا مواجها لمحور اسرائيل .

ساطع الحصرى

قال على الطنطاوى : ان ســـاطع الحصرى هو الذى حارب الدعوة الاسلامية عمره كله بقلمه ولسانه وسلطان وظيفته حربا علمية منظمة وكان أسلوبه فى محاربتها هو العمل على احلال العربية محل الاســـلامية وهى دعوى الجاهلية التى ينهى رسول الله عنها وبين أن صاحبها ليس منـــا وأقام برنامج المدارس على هذا الاساس الوهمى ، وقد أحرز الاستاذ ساطع الحصرى شهرة بعيدة المدى فى مجال دراسة القومية وألف فيها عددا من الـــكتب حتى أصبح مرجعا أساسيا لنظرية القوميات القائمة على أساس اللغة والتاريخ . وقد استهدى الحصرى فى أبحاثه بالنظرية الالمانية وبمناخ

البلقان فى حركته القومية التى رفع فيها شعار اللغة فى مواجهة الدولة العثمانية للتحرر منها وكان أكبر أساتذته ماكس مولر ونوردو وهما فيلسوفان يهوديان قصدا من وراء نظرية اللغة الى أحياء القومية اليهودية وقد اعتبر ساطع حصرى : اللغة أساس القوميـــة وعارض نظرية الأرض التى دعا اليها (انطون سعادة) وقـــد جرى الجـــدل بينه وبين عدد من النظريات الأوربية فى القومية دون أن يواجه الواقع العربى أو يفهم الفكر العربى وجذوره المستمدة من الفكر الاسلامى أساسا ، هذه الجذور التى تجعل من العسير فصل اللغة عن الفكر واعتبارها مقوما منفصلا ، أو الاعتماد على نظرية أن بقاء اللغة أو ضياع اللغة ، هو بقاء الأمة وضياعها ، ذلك أن الانطلاق من مفهوم الفكر الاسلامى نفسه يجعل مثل هذه الآراء على درجة كبيرة من السذاجة والبساطة ، والواقع أن ساطع الحصرى كان غربى الفكر أساسا بل وغربى الذوق والنطق أيضا ، وأن تركيبه الثقافى والاجتماعى يحول بينه وبين تبنى نظرية عربية أصلية مستمدة من واقع الأمة العربيـــة وكيانها وذاتيتها وقيمها التى لا تنفصل فيها اللغة والتاريخ عن الفكر نفسه وفى ذلك مغالطة أو جهل ، ذلك أن اللغة العربية ليست لغة أمة ولـــكنها لغة أمة وفكر معا وأن تاريخ العرب لا ينفصل عن تاريخ الاسلام .

ذلك أن ساطع الحصرى نشأ فى بيئة الاتحاديين الأتراك الذين كانوا صنائع للفكر الغربى ونشأوا فى أحضان المنظمات المســـونية وحملوا لواء الايمان بالفصل بين الدين والمجتمع وفهموا الاسلام فهما غربيا على أنه دين لاهوتى ، وعلى هذا الفهم الخاطىء القاصر قامت نظرية ساطع الحصرى فهى نظرية مضطربة من أساسها لأن كلمة واحدة لو أنها صححت لكان موقف ساطع الحصرى من نظريته مختلف كل الاختلاف ، هذه الكلمة هى أن الدين الذى اقام عليه نظريته ليس هو دين العرب والمسلمين ولكنه دين أوربا ، ولذلك فان كل التحديات التى تعالجها نظرية القومية الوافـــدة لا توجـــد أساسا فى الفكر الاسلامى ، هذا فضلا عن اختلاف مفهوم (العروبة) عن مفهوم القومية واختلاف مفهوم الاسلام عن مفهوم الدين بصفة عامة .

ويخطىء ساطع الحصرى فى انه قصر تقصيرا كبيرا فى فهم الفـــكر الاسلامى وأبعاده وارتباط العروبة به ، وعاش فى مؤلفاته خادما لنظرية القوميات الأوربية الوافدة ، وهى لا تلتقى على اى وجه مع التحديات التى

واجهتها الامة العربية بعد سقوط الدولة العثمانية من وجهة نظر الثقافة العربية والفكر الاسلامى الذى يتحرك دائما فى ثـلاث دوائر : الوطنيـة المرتبطة بالأرض، والعروبة المرتبطة بالأمة، ووحدة الفكر الاسلامية الشاملة. ولقد وقف ساطع الحصرى موقف الخصومة والحقد والتعصب مع الاسلام كلما عرض له ، وكانت محاولاته للفصل بين اللغة العربية والفكر الاسلامى محاولة ساذجة ثم كشف نفسه واسقط مكانته كاملة حين أعترف بالقومية اليهودية القائمة على الدين ، بينما عارض عنصر الدين فى فهم القوميـة العربية ، وان كانت كلمة (دين) لا تؤدى معنى الاسلام حين يكون البحث حول العروبة .

وقد ثبت أن ساطع الحصرى قد خدم بدعوته وفكره مفاهيم الماسونية والنظرية القومية الوافدة التى كان النفوذ الغربى حريصا على تلقينها للعالم العربى ، وهى ليست الا صورة من مفهوم الاقليمية اللبنانية . والمعروف أن ساطع الحصرى كان من أعمدة وزارة المعارف فى تركيا منذ أوائل حكم الاتحاديين الى أن انتهت الحـرب الأولى ، وانه كان من أخطر الموجهين للبرامج التربوية والتعليمية فى العراق حيث عمد الى فصلها عن الاسلام فصلا تاما وكان دوره أشبه بدور طه حسين فى التعليم المصرى .

وجملة القول ان ساطع الحصرى نادى بمفهوم القومية الأوربية الوافد وحاول تطبيقه على (العروبة) ذات الجذور العربية الاسـلامية دون أن يدرك أعماق الأثر الذى تركه الفكر الاسلامى والقرآن فى اللغة العربيـة وفى الأمة العربية ومدى ترابط ذلك الى أكثر من ثلاثة آلاف سـنة بالأمة الوسطى الحنيفية السمحاء التى جاء بها ابراهيم فربطت هـذا العـالم الوسط : (عالم العرب والاسلام) بروابط تاريخية وثقافة عميقة دعمتها الأديان السماوية التى نزلت فى أرض الرافدين وختمتها رسالة الاسـلام العالمية التى نزلت فى الجزيرة العربية .

وقد استوحى ساطع الحصرى نظرية (الفصل) وهى نظرية معروفة فى الفـكر الغـربى ، اسـتوحاها من الاتحـادتين الأتـراك ولكنهـا تسـقط سـقوطا شديدا عندما تطبـق على الفـكر الاسلامى الذى يقوم على التكامل وترابط القيم فقد ركز على اللغة كأساس لنظريته وعزلها عن مفهوم الفكر العربى الواسع كما ركز طه حسين على

الأدب وعزله عن الفكر الاسلامى أو (عن الدين والقومية) على حد تعبيره.
ونظرة طه حسين كنظرة ساطع الحصرى نظرة ضيقة أوربية لاتتفق مع المزاج النفسى والاجتماعى الاسلامى القائم على تكامل القيم وشمولها. كما دعا الى اعتبار التاريخ مقوما وبذلك عزله عن اللغة والفكر والثقافة جميعـــا .

كما ختلف مع دعاة الأرض والوطنية (أنطون سعادة) وهى نظرية أخرى وافدة لا يعترف بها الفكر العربى الاسلامى الذى يؤمن بالحلقـــات الثلاث المترابطة المتــداخلة : (الارض ، والأمة ، والفكر) وقــد اعترف ساطع الحصرى باسرائيل قومية تقوم على الدين ، ورفض اعتبار الاسلام مقوما بوصفه دينا ،ومفهومه للاسلام هو مفهوم غربى خالص للدين الغربى استمده من مفهوم الاتحاديين فى تركيا ، وقد فهم الاســـلام على انه دين روحى كما فهم الأوربيون الدين وكما وصف المستشرقون والمبشرون الاسلام ولم يفرق بين الدين بعامة والاسلام، ولم ينظر الى فوارق العصر والبيئة والجذور الثقافية التى تختلف فيها القومية فى أوربا عن مفهوم العروبة فى عالم الاسلام والعرب .

وعندما قاوم التجزئة والاقليمية لم يقاومها بأسلوب الأصالة العربية بل قاومها عن طريق الأسلوب الوافد ، وقد هاجم القوميين السوريين لأنهم أخذوا نظرية أوربية هى نظرية الأرض ولم يأخذوا نظرية أوربية اخرى هى نظرية اللغة التى دعا اليها وهاجم البعث فى سنواته الأخيرة ولكن دون أن يصل الى أصالة مفهوم العروبة وترابطها مع الفكر الاسلامى ، ذلك الترابط الجذرى الذى لا سبيل للانفكاك عنه .

وقد وصف البـــاحثون ساطع الحصرى بأنه هو أنضج ثمرة من ثمار المدرسة الاتحادية التركية تعلم فى مدرستها وآمن بفلسفتها ونقل فــكرها ومضامينها الى العرب والمعروف أن مدرســـة الاتحاديين هى التى أنشأت تركيا الفتاة وحزب الاتحاد والترقى ، وهى صنيعة النفوذ الغربى واليهودى لتحطيم الوحدة الاسلامية الجامعة التى كانت تمثلها الخــلافة لاســـلامية العثمانية ، وخلق الكيانات القومية والاقليمية ، وقد عاشت هذه المــدرسة فى حضانة الفكر المادى ثمرة فولتير واوجست كونت وكان رجالها من اتباع هيجل ونيتشه ودعاة الفلسفة الوضعية والمتشبعين بالنزعة الطورانيـــة

العدوانية ومفهوم القومية القائم على الصراع مع القوميات الأخرى ، وكان ساطع الحصرى هو بوق الدعوة الاتحادية فى العرب وقد ركز على اللغة وعزلها عن الفكر الاسلامى واعترف بأن اسرائيل قومية تقوم على الـــدين ورفض اعتبار الاسلام مقوما بوصفه دينا ، ولا ريب أن مفهومه للاسلام كان ناقصاوهو مفهوم اللاهوت والعلمانية واذ تجاهل تكامل الاسلام الجامع بين العبادة ومنهج الحياة ، وبالرغم من أنه هاجم القوميين السوريين فانه لم يصل الى مفهوم العروبة فى ترابطها الجذرى مع الاسلام .

المتنبى

حرص دعاة نظرية النقد الأدبى الغربى الوافـــدة على وضع أسس وقواعد للأدب العربى تختلف اختلافا جوهريا مع طبيعته وذاتيته ، وقـــد استهدفت هذه الدعوة ابراز شخصيات لا تمثل الأدب العربى فى أصالته ، فضلا عن اعلائها : لأبى نواس وبشار والضـــحاك وغيرهم ، والعمل فى نفس الوقت على تدمير الشخصيات ذات الأصـــالة والقوة أمثـــال المتنبى والغزالى وابن خلدون .

وقد ساير الدكتور طه حسين المستشرقين فىهذا الاتجاه ونماه وفتح له آفاق الصحافة والمحاضرات العامة ، وكان المتنبى أحد ضحاياه فقدكتب عنه كتابا حاول اتهامه بأنه لقيط ، فقد مضى يتشكك فى نسب المتنبى حتى وقع فى هذا الشك الجرىء فى محاولة للتقليل من مكانة المتنبى فى الأدب العربى وكان قد سبقه فى هذا أستاذه (بلاشير) الذى حارب المنبى فى كتاب ضخم لابد أنه كان الضوء الكاشف أمام محاولة طه حسين .

وقد جرت كل محاولات ماسنيون وفون كريمر وبلاشير ودى ساسى من منطلق الحقد على هذا الشاعر الفحل الذى يعتبره النقاد العرب بحق (أبين الناس منطقا عن الشخصية العربية وأشدهم اعتزازا بها وتقـــديرا لها وسعيا لانهاضها) على حد تعبير الأستاذ محمود محمد شاكر فى كتابه عن المتنبى الذى سبق كتاب الدكور طه حسين ، وقد كان شاكر هو أبرز الذين راجعوا طه حسين فى رأيه فى المتنبى فى مجموعة من المقالاتدحض فيها تلك الشبهات التى أثارها الدكتور وكشف الغرض المبيت من ورائها.

ولا شك أن حملات المستشرقين على المتنبى تدخل فى باب اعلائهم وتقديرهم للمنحرفين فى تاريخ الأدب العربى ممنأولوهم اهتماما كبيرا أمثال

الحلاج وشعراء الأغانى ، وهو ان لم يكن تعصبا وحملة تغريبية فانما هو جهل بالذوق العربى والخصومة لشاعر فحل دان العربيـــة الف سنة ولم يصل الى مكانته واصل (على ادهم) .

وعلى كل حال فان طه حسين كان ظالما ومسرفا فى الشك وبعيدا عن الأسلوب العلمى فى هذه الشبهة التى اثارها والتى ليس لها سند تاريخى أو منطلق علمى .

الحـــلاج

أولى لمستشرقون ومن تابعهم من دعاة التغريب اهتماما كبيرا بشخصية الحلاج ، وحاولوا تصويره من خلال فكرة خاطئة أريد لصقها بالاسلام وهى مصادرة الفكر والقتل باسم حرية الفكر ، وهـــذا مالم يحـــدث فى تاريخ الاسلام كله وان حدث فى تاريخ أوربا الغربيـــة المسيحيـــة ، فلقـــد كان الاسلام حفيا بحرية الكلمة الى أبعد حد ، مالم تخرج من نطاق الكلمة الى نطاق آخر : كالتآمر السياسى أو مخابرة دولة أجنبية .

والحلاج لم تقتله الكلمة مهما كانت خارجة عن مفهوم الاسلام ، ومهما كانت مغرقة فى الشك والوثنية وانما قتل حين ثبتت عليه مراســـلات الى القرامطة فقد ثبت انه كان وكيلا لهم ، وكان القرامطة قد أزاحوا النظـــام الاسلامى ، وسفحوا الدماء وخربوا البلاد وأنشأوا لهم عاصـــمة فى هجر حملوا اليها الحجر الأسود فظل بها نحو ثلاثين عاما .

ولقـــد قال أبو يزيد البسطامى وابن عربى مقـــالة الحلاج دون أن يصيبهم شر ، والذى عليه القول الراجح أن الحلاج كان يعمل لحســـاب القرامطة ، وأن دعواه فى الحلول والاشراق ووحدة الوجـــود انما كانت تعمل على افساد الأساس الفكرى للدولة الاسلامية وهدم تعاليم الاسلام كمقدمة لتحطيم سلطته السياسية وهو نفس المنهج الذى سلكته الباطنية، فقد رأى خصوم الاسلام ازاء عجزهم عن هدم دولته أن يلجأوا الى تقويض عقيدة التوحيد التى جمعت شمل العرب وتذرعوا الى ذلك بنظريات التصوف الهندى المجوسية الفارسية والفلسفة الوثنية اليونانية ، وكانت مقـــدمات ذلك السخرية بالشريعة الاسلامية والترخص فى الحدود واباحة المحرمات،

وقد جرى الحلاج فى ذلك شوطا طويلا فادعى الألوهية واتهم بمعارضـة القرآن وانه يحيى الموتى وان الجن يخدمونه وانه يعمل من الخوارق مايشبه المعجزات وانه كان يدعو الى نوع آخر من الحج غير الطواف بالبيت الحرام فى مكة . وله مع اصحابه كتابات بالشفرة لا يفهمها الا هو ومن أرسلها اليه

وقد وصفته كتب التاريخ بأنه رجل مجوسى الأصل اشتغل بالمخاريق والحيل ادعى العلم بالأسرار ثم تناهى الى ادعاء النبوة ثم الربوبية واستغوى غلمان قصر المقتدر بالله العباسى لينفذ بهم الى تحقيق غايته فأدى ذلك الى قتله ، وذكر امام الحرمين فى كتابه الشامل،أنه كان بين الحلاج وبين الجنابى رئيس القرامطة اتفاق سرى على قلب الدولة وان هذا هو السبب الحقيقى لقتل الحـلاج .

وقد ظل الحلاج متمتعا بحريته الى اليوم الذى ثبت أنه كان بينـه وبين رئيس القرامطة اتفاق سرى على قلب الدولة عند ذلك تعرض للقتل بتهمـة غير تهمة حرية الفكر التى يدعيها المستشرقون ولقد خدعت الفلسفات الحلاج فى القول بفكرة وحدة الوجود وغفل عن أن الشريعة الاسلامية جاءت بفكرة التوحيد المنزه وان الله تبارك وتعالى منزه عن الجهة والزمان والمـكان ، ويتفسرع منه بأن الله تبـارك وتعـالى مسـتقل عن هـذا الـكون خارج عنه وقد أوجده من العدم وهو يمسكه لحظة بعد لحظة الى ان يأذن تبارك وتعالى بانتهائه .

ان البحث العلمى قد كشف الآن حقيقة لا مراء فيها هى أن هذه الدعاوى ظهرت فى ظل هذا المفهوم المضطرب الخاطىء الذى يقوم على تقسـيم الشريعة الى باطن وظاهر والذى يجعل بين الظاهر والباطن مسافات من التأويل وتزييف التصوف . هذا التصوف الفلسفى الباطنى الذى يقوم على وحدة الوجود قد امتزجت فيه أمشاج من فلسفات معقدة أجنبية عن بساطة الاسلام وفطرية تعاليمه هى مزيج من فلسفات وتصورات الهنود والفـرس والرواقيين من الأغريق ، يحوى كل فكر شارد واسطورة ضالة وشـعوذة ماهرة التقت كل هذه التيارات المضـطربة ومن ورائها أهواء السـياسة ومكايدها فى محاولة للقضاء على بقاء الاسلام واصالته وفطـرته وروحـه المشرقة للدخول فى متاهات الضلال والجهل والخطيئة ، مما كان مصـدرا اساسيا لدخول المسلمين فى مرحلة الضعف والتخلف .

قال الامام ابن تيمية فى رسالته الى الشيخ قطر المنيجى (أواخر القرن السابع الهجـــرى) أحد تلاميذ ابن عرى وحامل لواء فكرة وحدة الوجـــود فى العالم الاسلامى ان انتشار التصوف المؤسس على عقيدة وحدة الوجود بين الشعوب الاسلامية كان من الأسباب التى ادت الى هجوم التتار والصليبيين على بلاد المســلمين .

كانت هذه الجائحة مقدمة الغزو الفكرى الصليبى التترى الذى قصــد به صرف المسلمين عن مفهوم الاسلام الأصيل ليسهل الهجوم عليهم .

بل أن تصوف ابن عرى القائم على وحدة الوجود عمل خطير يهدف الى امتصاص اصالة القرآن المتألقة التى هى أساس عنصر المقاومة الخالد فى تكوين المسلمين الروحى والأخلاقى .

ومن هنا نفهم بحق العلاقة الأكيدة بين نشر هــذه الكتابات القــديمة وانبعاث تراث ابن عرى والحــــلاج وابن سبعين وغيرهم وبين مقاصـــــد الاستعمار وعناية المستشرقين .

السلطان عبد الحميد

لا أعتقد أن هناك شخصية فى العصر الحديث هوجمت بمثل ذلك العنف الذى هوجم به السلطان عبد الحميد ، حيث وصف بما وصف به الديكتاتويون والظلمة والمستبدون فى التاريخ كله ، وقد جرى هذا السيل من الاتهامات وقتا طويلا حتى ساد جميع كتب التاريخ العربى الحديث وجرى على الألسنة وهو ما كشفت الوثائق السياسية الجادة التى ظهرت فى السنوات الأخيرة عن زيفه وعن الغرض البعيد الذى كان وراء اسقاطه ، ذلك أن السلطان عبد الحميد قد رفض ما عرضته عليه الصهيونية العالمية من فتح الطــريق لها الى فلسطين والسماح بالاقامة فى القدس ، وقد كان رفضـــه صريحا واضــحا وحاســما ، وكان ذلك مقــدمة للحملة التى شــنها الاســـتعمار والصهيونية عليه واتهامه تمهيدا لاسقاطه ، وقد جرت هذه المحاولة بالسيطرة على جمعية الاتحاد والترقى ودفعها الى الانقلاب داخل المحافل الماســـونية ولحسابها ، وكان السلطان عبد الحميد قد تزعم الدعوة الى الجامعة الاسلامية فى مواجهة خطر تزايد النفوذ الاستعمارى ، واقامة قوة حاجزة لا تكتــفى بالعرب والترك وهما قوام الدولة العثمانية بل تضم المسلمين جميعا ، وقد

نجحت الدعوة نجاحا كبيرا واخذت تحقق نتائج هامة ، كان من أبرزها الالتقاء بين السنة والشيعة بعد الخلاف الطويل الذى فرضه النفوذ الاستعمارى ، وقد شهد جمال الدين الأفغانى للسلطان عبد الحميد بالدهاء السياسى الخطير فى مواجهة أوربا ، وكشفت الوثائق مدى رصانة عبد الحميد وحدة جمال الدين ، حتى فى المسائل صغيرة التى لا تحتمل من جمال الدين رجوعه عن بيعته للسلطان .

وقد جرت محاولات كثيرة للتركيز على جمال الدين الافغانى فى السنوات الخمسين الأخيرة وابرازه فى صورة البطل والقديس ، ولم يكن هذا فى الواقع الا محاولة لحجب السلطان عبد الحميد وانتقاصه واحلال جمال الدين كبديل لعبد الحميد وذلك فى مجال اخفاء الدور الخطير الذى قام به فى مواجهة الصهيونية العالمية والذى كان يعرف هو سلفا انه سيكلفه عمره وعرشه وقد حدثت بالفعل محاولتان احداهما لاغتياله وأخرى لاقصائه عن الملك وقد فشلت الأولى ونجحت الأخيرة .

ولقد حرصت الدعاوى الصهيونية والاستعمارية والحت الحاحا شديدا تجاوز كل حد فى سبيل تصوير السلطان عبد الحميد فى صورة الحاكم الطاغية المستبد من ناحية والرجل الخائف المذعور من ناحية أخرى ، وقد كشفت الوثائق التى برزت فى السنوات الاخيرة كذب الادعائين ولم يستطع الحاملون عليه اثبات اسم احد من أسماء من وصفوا بأنهم اغرقوا فى البسفور داخل غرارات على حد قول حافظ ابراهيم فى قصيدته ، والحق أن السلطان عبد الحميد استطاع والدولة العثمانية تمر بأقسى مراحل الضعف أن يواجه العالم الغربى الاستعمارى بالحيلة والخدعة والمرونة السياسية وانه أوقع الدول بعضها فى البعض الآخر ، وتركهم ينشغلون بصراعهم عنه فى وقت كانت محاولته لاخراج فكرة الجامعة الاسلامية الى الوجود قد خطت خطوات واسعة وقاربت أن تحقق نتائجها ، التى عملت على جمع المسلمين تحت لواء الخلافة من خارج الدولة العثمانية باسم الخطر الاستعمارى والصهيونى الذى يتهددهم وكانت صيحته « يا مسلمى العالم اتحدوا » .

وكان هذا مثار الخصومة الحاقدة على السلطان من الاستعمار بالاضافة الى خصوم الصهيونية وكلاهما كان يطمع فى تمزيق الدولة العثمانية وتقسيم التركة .

وهناك شائعة ان السلطان عبد الحميد دس سما للمصـــلح الأفغانى فمات ولم يثبت هذا تاريخيا . يقول الاستاذ صلاح الدين المنجد : لقد نسبت الى السلطان عبد الحميد امور كثيرة وهو منها برىء والصحيح أن جمال الدين مات بالسرطان بعد أن مرض شهورا طويلة ولو دسوا له السم لمات بسرعة وقد وصف جرجى زيدان فى الهلال (م٥/١٨٩٧) كيف توفى فقال : « كان قد اصيب بداء السرطان فى فكه السفلى منذ بضعة شهور فقاسى آلاما مبرحة واجريت له عمليات كثيرة حتى استؤصل الفك السفلى كله او اكثره فامتـــد الداء الى العنق وأوغل فى الفم فعتد اللسان وضاعف الآلام فاشتد المـــرض خطرا ولبث الناس ينتظرون وقوع الأجل والحضرة السلطانية تواصـــــل الالتفات اليه بالاتفاق مع الجيب الهمايونى على أن ذلك لم يدفع مقدورا ولامحا مســـطورا » .

السهروردى

حاولت حركة التغريب ومعها التبشير والاستشراق اعلاء شأن مجموعة من النماذج الغربية واعطاءها صورة الاستشهاد والبطولة رغبة فى الترويج لآرائها واثارة الراى حول آراء وافدة على الفكر الاسلامى لم تكن فيه أصلا ولا تمثل جوهره ولا حقيقته .

ومن هؤلاء شهاب الدين السهروردى (المقتول) الفـــارسى الذى حمل لواء الفلسفة الاستشراقية المستمدة من الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية والتى تتعارض مع مفهوم التوحيد فى الاسلام ، ولقد اهتم بروكلمن ، ورينز ، وفادى برج من المستشرقين بآرائه ووصفوه بالعبقرية وترجم أحدهم (بوج) كتاب « هياكل النور » كما عرض له ماسنيون أثناء بحوثه عن الحلاج وأهتم به كثيرا باول كرأوس وهنرى كوربان .

والحقيقة أن السهروردى نتاج غريب عن فكر الاسلام وطابعه ومزاجه الذى شكل أعلام المسلمين فى مجال الفكر من أمثال الغزالى وابن تيمية وابن حزم وغيرهم ، وهو اقرب الى صور الباطنية والمتحللين والمعطلين ولن نصفه بأكثر مما وصفه به من يرونه عبقريا وشهيرا : « لم يكن مظهره مما يلـــقى الهيبة والاحترام فى نفوس مستقبليه ، أهمل نفسه أو كاد وبلغ به الاهمال حتى كان على حد قول بعض من أرخ له « كان زيه زريا منكرا زرى الخلقة ،

دنس الثياب ، وسخ البدن ، ولا يغسل له ثوبا ولا جسما ولا يدا ولا يقص ظفرا ولا شعرا » (النجوم الزاهرة) وزادوا على ذلك فقالوا « ان القمل كان يتناثر على وجهه ويسعى بين ثيابه وان كل من يراه يهرب منه » هذا ما وصفه به سامى الكيالى فى مجال التقدير والاعجاب ، فكيف بمن يراه غير ذلك ، ولا شك أن هذه الصورة التى يبدو بها السهروردى ، ليست اسلامية اســاسا ولا يقرها الاسلام الذى صنع نماذجه على الأخلاق والطهارة والعزة وكان رسوله يعرف قبل قدومه بريح المســك .

وقد وصف السهروردى تلميذ السهروردى استاذه فى كتابه « نزهة الأرواح » بأنه مهمل الثياب وقد اشارت كتب كثيرة الى قذارته منها كتاب « آثار البلاد وأخبار العباد للقزوينى » واعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ج ٤ . وجماع القول عنه انه قرأ فلسفة الاغريق والهند وفارس والفلسفة الاسلامية ، وانه اراد أن يبدع من هذا المزيج فلسفة جديدة رسم خيــوطها فى فلسفته الاشراقية .

وما ذهب اليه السهروردى فى تفسيرا الاشراق مخالف كل المخالفــة لحقائق الاسلام ولمفهومه فى التوحيد ، الذى يفصل بين الله والعالم والذى لا يقر الاتحاد على النحو الذى قالت به فلسفات الوثنية .

ولم يكن السهروردى متصوفا بمفهوم التصوف الاسلامى ، ولكنه كان فيلسوفا غاليا ذهب الى أبعد المدى فى التبعية لمدرسة افلوطين المسيحية الوثنية التى اعتبرت الاشراق أساس المعرفة الوحيد ، وهذا الانحراف عن مفاهيم الاسلام هو الذى أثار عليه خلاف الفقهاء والصوفية والعقــائديين المسلمين جميعا ، فقد خرج بآرائه من مفهوم الاسلام الصحيح وانحرف به ، وجمع بين الشك والايمان والكفر والشعوذة والتصوف والهرطقة حتى جــر عليه كل ذلك الاتهام بالزيغ وانحلال العقيدة هذا فضلا عن اشتغاله بالفلسفة والكيمياء والسحر وأبواب الزيبرجات ، بالاضافة الى التأويل وكلها صفات دعاة الباطنية .

ومع ذلك فان هذا الانحراف عن مفهوم الاســلام لم يكن ليقضى على السهروردى بالقتل ، لولا ثبوت الاتهام عليه بالاسفار مع خصوم المسلمين ابان الحروب الصليبية ، وكانت هذه الخيانة هى التى دفعت الملك الظاهر ابن صلاح الدين الى المطالبة بأهدار دمه .

ومن هنا تكذب كل التخرصات التى ساقها التغريبيون بأن السهروردى ذهب ضحية حرية الفكر ، فالسهروردى فى الحق لم يذهب ضحية معتقده ولا فكره ولم يكن ضحية أذى حاكم او نفوذ سلطان ولم يذهب ضحية التخويف بالله والاساءة الى نبوة الرسول ، فذلك كله فى الاسلام موكول الى امر الله ولكن السهروردى ذهب كما ذهب الحلاج ضحية خيانته الدولة الاسـلامية والاتصال بخصومها .

وكانت الباطنية حركة سياسية خطيرة تصارع الاسلام وتحاول ان تنفذ الى اعماقه بوساطة أمثال هؤلاء الغلاة

شبلى شميل

حمل شبلى شميل لواء الدعوة الى الفلسفة المادية وكان واحدا من دعاة التبشير والغزو الثقافى الذين خرجتهم معاهد الارساليات فى لبنـان وقدموا الى مصر من أجل العمل وكان منطلقه هو مذهب دارون وقد اختـار له تفسير بخنر وهو من غلاة الماديين ولم يقف شبلى شميل عند حدود المذهب العلمى بل ذهب يطبقه على المجتمعات من خلال نظرية التطور المادية التى تريد أن تفرض تفسيرا للفكر والمجتمع والحياة منطلقا من معارضة تامـة للاديان والقيم والمثل التى صاغت النفس العربية الاسلامية . وقد كان الى هذا الاتجاه نحو هدم كل المقدرات مواليا ولاء استعماريا للنفوذ البريطانى فى مصر والأجنبى فى البلاد العربية ولم يكن داعية الى الحرية والايمان بمقومات العرب أو ذاتيتهم ، وكان طامعا فى أن يضع هذه الأمة فى آتون العالميـة والأممية لتنصهر فيه مسخا غريبا لا هو عربى ولا هو غربى .

وقد كشف صديقه وزميله الدكتور صروف عن أخطاء شبلى شـميل فأشار الى أنه تعلم الطب ولم يدرس العلوم الطبيعية ولذلك فان رأيه فى هذا المجال غير علمى بالقدر الكافى ، وأن صروف نفسه الذى درس العلوم الطبيعية لا يرى رأى شميل فى مذهب دارون ولا فى نظرية النشوء والارتقاء التى اعتمد فيها شميل على الغلاة : هيكل وبخنر يقول : تناول مذهب النشوء وترجم كتابا مفصلا فيه هو شرح بخنر على مذهب دارون ثم توسع فى هذا الموضوع وطبقه على كل ما فى الكون حاسبا اياه وسيلة لاصلاح حال المجتمع الانسـانى .

وقال : ولم يكتف الدكتور شميل بمتابعة العلماء الذين لم يروا فى الكون غير المادة والقوة ، بل تابع العلماء الذين قالوا انه ليس فيه غير القوة وان المادة حالة من حالات القوة .

ولكن العلماء الطبيعيين الذين أثبتوا بالتجارب أن المادة قوة ، اكثرهم من المعتقدين بوجود الأرواح مستقلة عن المادة وجلهم من المعتقدين بصحة مذهب دارون ولكنهم لا ينفون وجود الخالق (اى كما ينفيه شبلى شميل) .

واشار صروف الى قول مطران كارليل : اذا عد صانع الساعة حكيما ماهرا فالذى يصنع ساعة تصنع ساعة أخرى احكم وامهر ، اى اذا كان الخالق أودع فى المادة أو فى القوة قوة تجعلها تولد العناصر والمركبـــات الكيماوية والنبات والحيوان حتى الانسان فذلك ادل على عظمته وحكمته وقدرته مما لو فرضنا أنه يعنى يوما بيوم يخلق كل نبات وكل حيوان وكل انســـان .

وقال أن بخنر خالف دارون ، وان دارون صرح بأن الخالق نفح نسمة الحياة فى الحى الأول الذى تولدت منه الأحياء وبخنر نفى ذلك (وتابعه شـــميل) .

وأشار صروف الى اندفاع شميل العاطفى وراء كل راى يراه دون حذر أو تقدير للامور ، وأن ذلك كان من أخطر مغامز شخصيته ، ومن الحق أن يقال أن شميل كان يعمل من خلال هدف تغريبى واضح ، وأن صروف كان يريد أن يخفف الصدمة ، ويعمل عن طريق ادخال نفس أفكار التغريب عن طريق المراحل ودون اثارة الضـــجيج .

ولقد أخذ المؤرخون على شبلى شميل خيانته الوطنية حين كانوا يدعو الى العالمية بينما كانت الحركة الوطنية هى السلاح الوحيد ازاء الاســـتعمار وأنه كان تحت دعوى العالمية يدافع عن مد امتياز قناة الســـويس ويوالى الانجليز وقد تكشف أخيرا عن أن الدعوة الى العالمية كانت من اكبر اهداف الصهيونية .

ابن رشـــد

اثيرت شبهات كثيرة حول موقف خليفة قرطبة مع ابن رشد وسجنه اياه وتحريق كتبه وحاول بعض دعاة التغريب وخصوم الاسلام أن يصوروا ما وقع له من اضطهاد ، على أنه مصادرة للفكر فى الاسلام ، وليس هذا صحيحا فى الواقع ولم يعرف فى تاريخ الاسلام أى نوع من اضطهاد المفكرين مهما كانوا يحملون من آراء ، اما ابن رشد فقد كانت خصومته مع الأمير خصومة تجمعت لها عدة عوامل اهمها :

(اولا) خصومة الفقهاء له مستغلين بعض تزايدات ابن رشد .

ومنها مخاطبته للخليفة ، حيث كان يقول له (يا أخى) وكان المنصور لا يضيق به فى أول الأمر فلما تردد كلام الفقهاء عنده بدأ يضيق به ، وأضيف الى ذلك ما أخطأ به ابن رشد حين قال فى كتابه عن الحيوان : ورأيت الزرافة عند ملك البربر مشيرا بذلك الى المنصور ، وقد غضب لذلك الأمير الذى كان يسمى نفسه خليفة للمسلمين أن يوصف بأنه ملك ، وأمر بنفى ابن رشد فأقصاه فى قرية بعيدة أقام بها ثلاثة أعوام ، غير أن الفيلسوف دافع عن نفسه ونفى تهمة العيب فى حق المنصور وقال أنه حين أراد أن يكتب (ملك البرين) فسبق القلم بها فجاءت ملك البربر أو أن ما وقع هو تحـــريف من الناســـخ .

ثم كان أن اقتنع الخليفة وعفا عنه وعاد مرة أخرى الى قرطبة .

ابن الراوندى

أولى المستشرقون وكتاب التغريب اهتمـــاما كبيرا بعدد من الزنادقة والمنحرفين من الخارجين عن الاسلام ونشر مؤلفاتهم ودراسة حياتهم ومن هؤلاء ابن الراوندى الذى قال الحافظ بن الجوزى أنه واحد من ثلاثة من زنادقة الاسلام . وابن الراوندى من أصل يهودى وكان أبوه يدين باليهودية ثم أسلم وروى أن بعض اليهود كان يقول لبعض المسلمين بشأن ابن الراوندى : « ليفسدن عليكم هذا كتابكم كما أفسد أبوه التوراة علينا » وكان أبوه قد انشق لأمر ما عن أهل طائفته فأخذ يثير عليهم عجاج الجدل والمشاغبة ،

كما كان ابنه يفعل فيما بعد ، فلما لم يتم له ما أراد انقلب مسـلما نكاية فى بنى دينه اليهـود .

قال البلخى عن ابن الراوندى : أنه كان فى أول أمره حسن السـيرة حميد المذهب ، ثم انسلخ عن الدين وأظهر الالحاد والزندقة وطردته المعتزلة فوضع من الكتب الكثير فى مخالفة الاسلام .

وقد دحض آراءه ورد عليه أبو الحسن الخياط المعتـزلى فى كتابه الانتصار ، وقد بلغ ابن الراوندى قمة الخصومة للاسلام فى معارضاته للقرآن الكريم فقد عارض نظم القرآن بنظم من وضعه ووضع التأليف للرافضة ضد اهل السنة ، والاعتزال ، وللسنة ضد الآخرين ، كما وضع لليهود كتابا يرد به على المسلمين ، ثم رام نقضه بنفسه ، ووضع كتاب (الامامة) للرافضة لقاء ثلاثين دينارا وكتب غيره للطعن على التوحيد واهله .

يعقوب أرتين

من الأسماء التى لمعت لمعانا خاطفا فى ظل الاستعمار البريطانى ، وفى دعم مخططاته فى التعليم ، وكان اليد القادرة من وراء دنلوب القس الايرلندى مستشار الوزارة ومن وراءه سعد زغلول ناظر المعارف وعين اللورد كرومر ، يعوب ارتين الأرمنى الذى عمل وكيلا لوزارة المعارف منذ عام ١٨٨٤ حتى توفى فى عام ١٩١٩ وكان تركيبه الاجتماعى والتاريخى عاملا اساسيا فى تأهيله للعمل الذى قام به بالاضافة الى تعليمه ، فهو من اسرة ارمينية تعلم فى باريس ومكث بها نحو سبع سنين وعين مربيا لأمراء البيت المالك واخصهم فؤاد الذى أصبح سلطانا على مصر فى عام ١٩١٧ فملكا ود وصفه المقتطف بعد وفاته بأنه (تولى عدة مناصب خطيرة مملوءة بالمعضلات لا يوى على تذليل صعابها الا من اتاه الله مقدرة فائقة وذكاء عظيما وفى جميعها فاز بالقدح المعلى) وله كتاب : القول التام فى التعليم العام ، وكان له دوره فى تغيير مناهج التعليم العربية الاسلامية التى كانت قائمة قبل الاحتلال وابدالها بمناهج زائفة خففت منها اللغة العربية والقرآن وتاريخ الاسلام .

وقد حرص يعقوب أرتين الأرمنى الأصل أن ينـفى عن المصريين كل عبقرية أو ذكاء فقال : فى رسالة عن الأقاصيص فى وادى النيل له أنكر فيها حتى الذكاء المصرى على ابتكار الأقاصيص الشائعة التى ترويها العجـائز

للصغار ممن رأى أرتين أن هذه الأقاصيص أما من مصدر تركى فارسى حيث يكثر فيها ذكر الجن والعفاريت والنساء وأما يونانية أوربية حيث يكثر فيها الاسلوب البيزنطى والخرافات الموضوعة على السنة الحيوانات وأما بربرية يغلب عليها الباعث الدينى والترنم بمحاسن بغداد ، وأما زنجية تدور على السحر والغيلان والرقى والتعاويذ . وقال العقاد معلقا : ان هذا الراى يدل على جهل بملكة معروفة عند المصريين .

عمر الخيـام

استطارت شهرة عمر الخيام فجأة ، بعد أن كان واحدا من العلمـاء المسلمين فى مجال الكشوف الجغرافية ورصد الكواكب فأصبح شاعرا خطيرا فى مجال الدعوة الى الانطلاق ، وذلك عندما نشر شاعر انجليزى مجموعة من الشعر عام ١٥٨٩ نسبها الى الخيام هو فيتزجرالد ، وقد نقلت هـذه القصائد الانجليزية مرة أخرى الى لغة العربية واذيعت وأوليت اهتماما بالغا فبلغ عدد من ترجموها الى العربية أكثر من سبعة من الأدباء منهم البستانى والزهاوى ورامى والصافى النجفى والسباعى وأبو شادى ومحمد الهاشمى .

وقد تبع ذلك اهتمام بالغ وتركيز أشد خطورة على اسم الخيام دفعـا لهذا التيار الجديد وتعميقا له فصدرت طوابع البريد فى مختلف انحاء أوربا باسمه وصورته ، وانشأت الأندية الليلية الصاخبة تحت لوائه ، وكتبوا اسمه على أطراف البطاقات (كارت بوستال) تعظيما وتكريما لقصائد التحلل والمجون المنسوبة اليه .

وقد كان لهذا التيار أثره فى التعريف بالخيام فى نظر الشرقيين (عربا ومسلمين) شاعرا ماجنا عربيدا يدعوا الى اللذة ، وقد استمر ذلك وقتا طويلا حتى كشفت الأبحاث العلمية والدراسات الخالصة البعيدة عن كل زيف عن أن هذه الموجة كاذبة فعلا وأن الخيام لم يكن هو قائل كل هذا الشعر الذى نسب اليه ولم يكن فى حياته انسانا خليعا ولا داعية الى اباحة .

والقول الصحيح أن من وراء رباعيات الخيام هدفا من اهداف التغريب والاستعمار — يقول السيد مبشر الطرازى الحسنى مؤلف كتاب كشف اللثـام عن رباعيات الخيام (ان الاستعمار وجد فى هذا العمل ولا سيما فى ايران والهند أهمية خاصة ، وكان فيتزجرالد الشاعر الانجليزى قد لبى الاشارة من

قبل بعض الانجليز فقدم للمستعمر خدمة تحت ستار الادب الغربى بترجمة تلك الرباعيات بصور خلابة وضعها فى كلمات انجليزية جذابة بحيث تخلب قلوب الشباب الناشىء فى الشرق ولا سيما الايرانيين والهنديين منهم من حيث طلاوتها ومماشاتها مع الشهوات والنزعات النفسية . ولما كانت هــذه الرباعيات (منسوبة) للحكيم الكبير صاحب المكانة الرفيعة فقد خدع بها كتاب العــرب وترجموها الى لغتهم وأمطروها بالثناء . والحقيقة أن (فيتز) قد خدع الشرق والشرقيين بهذه الخدعة السياسية الاستعمارية حيث تمكن من نشر هــذه السموم بين أبناء الشرق والهند وايران ودعاهم الى تناول الخمور وملازمة السرور والغناء ومجانبة السعى ، والعمل ضد العاملين والركون الى الجمود والسلوك مسلك الكسالى وحثهم على الاباحية والزندقة والحرية المطلقة، الأمر الذي دفع الشرق فيما دفعه الى التأخر وجعله مستعدا لقبول تدخل المستعمر فى مختلف شئونه) .

وقد بلغ الغربيون فى تعريف صاحب الرباعيات (عمر الخيام) على السنة خطبائهم وأقلام كتابهم ومقدمات تراجمهم الى حد أنهم شبهوه بأبيقور اليونانى وأبى العلاء المعرى ترويجا لسوق الرباعيات وتضليلا للشرقيين ولا سيما الجيل الناشىء وكان ذلك تنفيذا لخطتهم السياسية ضد المسلمين تأكيدا لأغراضهم العدائية .

ولا شك أن أدباء الغرب قد قاموا بترجمة هذه الرباعيات لأهداف سياسية وأغراض مذهبية وحرصوا على توسيع نشرها وتعميم تناولها بكل طريق ممكن حتى نشروها فى قطعات كارت بوستال .

والملاحظ أن المركز الثانى لنشر الرباعيات بعد لندن كان الهند ، حيث نشرت فى عواصم دلهى ولاهور وكلكتا وبومبى وقال لى طالب فى بعــض المدارس فى بومباى أن ها الكتاب يدرس فى مدرستنا الثانوية ككتاب ادب انجليزى ، وكان ذلك سنة ١٩٥٠ حينما مررت بالهند عضوا فى الوفــد الأفغانى الى المملكة السعودية وقال : ان ترجمــة فيتزجرالد الانجليــزية للرباعيات كات مدرجة فى برامج التدريس بجامعة بعليك اعظم جامعــات الهنــد .

ثم قال السيد مبشر الطرازى : انه ليس هناك من مصادر اكيدة تؤيد نسبة هذا الشعر الى عمر الخيام ولا جود لمصدرها الأصلى وانما اسندت

الى عالم عظيم شرقى وحكيم فلكى بارع ومنجم لامع فى نفس الوقت الذى اغمضوا ابصارهم فيه عما ثبت عن الحكيم النيسابورى من مقولاته وآثاره التى تدل على ديانته وتمسكه بتعاليم الشريعة الاسلامية وحرصه على تطبيقها فى كل شئون الحياة فى العالم الانسانى ، وقال : ان الغربيين لم يكرموا عمر الخيام بانشاء ناد باسمه أو كتابة اسمه على أطراف البطاقات لمكانته فى العلوم الرياضية وعلوم الفلك وانما من أجل الأهداف السياسية التى اشرنا اليها فى اذاعة قصائد التحلل والمجون المنسوبة اليه ، وانهم لم يفعلوا ذلك لابن سينا أو الفردوسى أو الغزالى أو الزمخشرى من أعلام الفكر الاسلامى ، لقد كان تعظيم الغربيين موجها فى الصحيح وفى الواقع الى تلك الرباعيات الخليعة التى مهدت لهم سبيل النيل من الاسلام وتعاليمه ودعوة اهل الشرق الى التحلل خلقى والحرية المطلقة والضعف والهوان » أ هـ .

ولقد اشار كثيرون الى خطأ نسبة الرباعيات الى عمر الخيام وفى مقدمتهم أرنست رينان الذى قال انها (أى الرباعيات) لا تتفق مع مفاهيمه واتجاهه العلمى ، واشار العلامة الطرازى الى أنه لم يثبت أصلا وجود نص حقيقى كتبه عمر الخيام للرباعيات ، ويتضح باجماع باحثين أنها رباعيات موضوعة لا اصل لها وضعها دعاة الشعوبية واستغلها التبشير والاستعمار .

ولى الدين يكن

ما من اسم وضع تحت اضواء التغريب والشعوبية الا كان ضالعا مع الاستعمار وما من كاتب احتضنته جريدة المقطم الا وكان خصما لأمته وفكر أمته ، ومن ابرز هذه الأسماء شبلى شميل وولى الدين يكن الذى وصف بأنه خصم مقاوم لظلم السلطان عبد الحميد بينما كانت خيانته التى سجن من اجلها بعيدة كل البعد عن أعمال الوطنية والحرية ، وقد سمعت من أحمد حلمى باشا رئيس حكومة فلسطين وامين الحسينى مفتى فلسطين فى ندوة كامل كيلانى أن تهمة ولى الدين يكن التى وضعته فى السجن لم تكن مشرفة وانها كانت تتعلق بالعمل الذى كان يليه فقد كان عضوا فى الجمعية الرسومية الجمركية واخذت عليه بعض الاتهامات بالاختلاس والرشوة فلما خرج من سجنه عام ١٩٠٨ بعفو عام ادعى أنه من الأحرار الذين اعتقلهم السلطان وقد جاء الى مصر فانطوى الى انصار بريطانيا اوخصوم العرب والاسلام ووالى الانجليز وكان من اتباع كرومر ومن محررى المقطم .

وقد كان ولاؤه للانجليز هو أهم ما دافع عنه بعض الكتاب اللبانيين ، يقول كرم ملحم كرم فى مجلة الرسالة : يقول الناقمون على الرجل أنهساير الانجليز فوقف عليهم حبه ورحب باحتلالهم لوادى النيل » وهو بذلك يعترف بموقف ولى الدين يكن ويستدرك فيقول « ان الانجليز ساعدوا على ترقية مصر » ولقد حاولت حركة التغريب والشعوبية أن تلقى الأضواء على هذا الرجل فرفعته الى مصاف كبـــار الكتاب ونشرت آثاره بين أيدى الطلبـــة والقـــراء .

ووضعه بعض كتاب لبنان فى صف كتاب الروائع ، وفى صف شوقى والمنفلوطى ، بل لقد بلغ الأمر بكاتب مثل سامى الكيالى (وهو تغريبى عتيق) أن يقول عنه أنه من الأدباء الذين نهجوا نهج الاصلاح كمحمد عبده . قاسم أمين . وامامنا قصيدته المؤسفة التى نشرها فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ فى جريدة المقطم وهو يوم بسط الحماية البريطانية على مصر مصدرا بها الصفحة الأولى وموجهة الى (ملك بريطانيا وامبراطور الهند) يبارك فيها الحماية ويقول موجها كلامه الى الملك :

مصر الوفيـــة لا تزال وفية   وكما عهدت النيـــل والأهرام
نالت حمايتك التى اعتزت بها   أمثالها واستمكن الاســـلام

وقد زين ولى الدين يكن كتبه بصورة كرومر كما فعل فى كتابه (المعلوم والمجهول) وقد كتب تحت صورته (مصلح مصر) .

وآية خيانته أنه هاجم عرابى والعرابيين وعبد الله نديم ، ونعى على نديم أنه اختفى بعد الثورة العرابية بينما لم يختلف هو صديق الاجليز ، ولاشك أنه ليس هناك أى وجه للمقارنة بيه وبين عبد الله نديم ، ولقد قذف بقلمه المأجور هذا المجاهد الصادق فقال (بقى مختبئا فى مكامن خوفه اختبـــاء الأفاعى فى جحورها) ولا بأس على عبد الله نديم ولا ضير فى أن يختفى وأنه لشرف له لا يستطيع أن يدعيه لص الجمارك .

وكذلك هاجم مصطفى كامل ورجال الحزب الوطنى واتهمهم بالنفـــاق والتهريج .

وتكشف كتابات ولى الدين عن نفسية ملحدة جريئة على القيم والمقومات فقد كان يتحدى شعور المسلمين بكتاباته وسخرياته عن شهر رمضان على

صفحات المقطم ومن ذلك قوله « دوى مدفع الظهر الذى افطر عليه » ومن اجل ذلك وصفه مندور بأنه من احرار الفكر وضمه الى قائمة فولتير وكان يكون منصفا لو وصفه بالزندقة . ومما يروى أن ولى الدين يكن يمد بأصل الى الدونمة اليهود الأتراك الذين كان لهم دورهم الخطير فى اقامة محافل الماسونية وضرب الخلافة والدولة العثمانية لحساب الصهيونية .

غانــــدى

لمع اسم المهــاتما غاندى فى الثلاثيات فى مصر لمعانا خاطفا وتحدثت الصحف عن وطنيته وجهاده فى مقاومة الانجليز فى الهند ، ومع أن الانجليز كانوا يحتلون مصر اذ ذاك فقد سمحوا لهذه الكتابات أن تتسع ولهذه النغمة أن تعــلو .

وقد وصفت الحركة الوطنية الهندية بأنها حركة قد أنشأها غاندى بعد عودته من جنوب أفريقيا وكات اليه قيادتها وبطولتها .

وكان هذا هو التحريف الخطير الذى لم ينتبه اليه الكتاب المسلمون والعرب اذ كيف يمكن أن يكون غاندى خصما لبريطانيا بينما بريطانيا تفسح له المجال لابراز بطولته وعظمته !

ولقد ظلت هذه الحلقة المفقودة خافية حتى سافر الى الهنــد وفد من علماء المسلمين ومن بينهم العلامة عبد العزيز الثعــالبى الذى طاف طوافا واسعا بالقارة الهندية وخلق كثيرا من المواقف التاريخية والسياسية وكان من أهم ما وصل اليه وكشف عنه النقاب ، تلك الحلقة المفقودة التى تؤكد أن الحركة الوطنية لتحرير الهند انما بدات أصلا فى احضان المسلمين وقد أزعجت الاستعمار البريطانى ازعاجا شديدا فالمسلمون هم حــكام الهنــد السابقون والذين يحملون مفهوما صريحا فى مقاومة المحتل والظالم والدخيل، والجهاد عندهم واحدة العقائد الكبرى .

ولذا فقد عمدت بريطانيا الى القضاء على هذه الحركة بأسلوب غاية فى البراعة والمكر ، قصدت به الى عزل المسلمين عن قيادة الحركة الوطنية وتنحيتهم واسلامها الى الهندوس الذين اجروها على الأسلوب الذى أرادته بريطانيا .

فالاستعمار البريطانى الذى سيطر على الهند بعد ثورة ١٨٥٧ التى قادها المسلمون كان حريصا على الا تتحقق السيطرة للمسلمين مرة اخـرى على الهند وكان المسلمون قد تقدموا الى العمل من أجل الدعوة الى تحـرير الهند ، والحصول على حقوقهم وتصدرت منهم جماعة كبيرة فكانت جمعيتهم الاسـلامية التى اطلق عليها جمعية انقاذ الخـلافة برئاسة غلام محمد عام ١٩٢٠ ودخل فى عضويتها الزعماء المسلمون وجمعت ما لا يقل عن سـبعة عشر مليون روبية من أجل مواجهة تآمر الدول الغربية على الدولة العثمانية .

الى هذا الوقت كان غاندى غير معروف فى الهيئات السياسية فى الهند وكان منزويا يعمل متطوعا فى فرقة تمريض الجنود ثم اتصل بجمعية الخلافة فاستقبله المسلمون احر استقبال ، رغم تحذير المولوى (خو جندى) ، وكان على صلة به من قبل ويعلم من أمره ما لا يعلمون وخاصة فيما يتعلق بتعصبه للهنادكة على المسلمين ، وتداشار غاندى باستئلاف الهنادكة فقبل المسلمون رغبته وندبوه للسعى الى ذلك فطاف الهند على حساب الجمعية يدعو الى الوفاق ويقول المطلعون أنه كان يتصل بالهنادكة ويتآمر معهم على شل الحركة الاسلامية ثم سعى لضم جمعية الخلافة الى المؤتمر الوطنى الهندى فانضـمت ثقة بغاندى ، وقد اقترح المسلمون فى أول اجتماع لهم تديل القاوون الأساسى وطالبوا بتعديل المادة التى تقول باصلاح حالة الهند الى عبارة (استقلال الهند) فوافق المؤتمر على ذلك ومنـذ ذلك يوم أخذت الأحـزاب تطالب بالاستقلال التام طبق رغبة المسلمين وكانوا قبل ذلك لا يطالبون الا باجراء اصلاحات فارتاعت الحكومة (البريطانية) لهذا التغيير وعدته فاجعـة فى سياسة البلاد وعلى أثره القت القبض على زعماء وزجتهم فى السجون . وطالب المسلمون باصدار قرار يتضمن اعلان الأمة الهندية وان الحـكومة الحاضرة غير مشروعة مع دعوة البلاد الى مقاطعتها ، وعارض غاندى وثبط الهمم ودعا الى عدم مقاومة الحكومة وقال له ممثل المسلمين : ان كان غاندى يتصور أن أعمال المسلمين فى الهند لا يقوم الا على مساعدة الهنادكة فقد آن له أن يخرج هذه الفكرة من دماغه وليعلم أن المسلمين لم يعتمدوا قط على احد الا على الله وعلى أنفسهم .

وشرعت الأمة الهندية على انهاء ذلك فى مقاطعة الحكومة والامتناع عن دفع الضرائب وحرق المسلمون كل ما فى مخازنهم من البضائع الانجليزية

وترك المسلمون الموظفون مناصبهم فى الحكومة فحل الهنادك محلهم واشتدت المقاطعة فى البنغال اشتدادا عظيما ليس له مثيل وهاجر عدد كبير من المسلمين الى الأفغان بعد أن تركوا املاكهم واراضيهم فى الهند ، وخطب اللورد ريدنج (الحاكم العام) فى كلكتا فقال : أننى شديد الحيرة من جراء هذه الحـــركة ولست أدرى ماذا أصنع فيها .

ومن هذا السياق نستطيع أن نتصور قوة المسلمين فى الحركة الوطنية وضعفها فى الهندوكية ومن هنا فقد عمدت بريطانيا الى ضربة خطيرة بتحويل الحركة من أيدى المسلمين الى أيدى الهنود .

فقد انتهزت فرصة اجتماع الزعماء واعلانهم عام ١٩٢١ استقلال الهند استقلالا فعليا وقاموا بتعيين ولاة الولايات وحكام المقاطعات وقضاة المحاكم فى جميع المدن ، هناك اجتمع اللورد ريدنج مع غاندى وطلب اليه حل الوفاق العونى بين المسلمين والهندوك ، وقال له أن مصدر الحركة الاستقلالية فى الهند هم المسلمون واهدافها بأيدى زعمائهم لو اجبنا مطالبكم وســلمنا لكم مقاليد الأحكام صارت البلاد للمسلمين وأن الطريق الصحيح هو أن تسعوا أولا لكسر شوكة المسلمين بالتعاون مع بريطانيا وحيئنذ لا تتمهل بريطانيا فى الاعتراف لكم بالاستقلال وتسليم مقاليد الحكم فى البلاد اليكم .

وهنا وقع الصدع ، فقد عمدت بريطانيا الى زعماء المسلمين فاعتقلتهم (شوكت على ، حسين احمد ، كثار أحمد ، بير غـــلام محمد ، الدكتــور سيف الدين كتشلو) وهنا تقدم غاندى الى هيئة المؤتمر بأن يفوض اليه أمور الحركة جميعا وقال أن الزعماء معتقلون ولابد من أعطائى الســلطة لمهلة وسرعان ما أعلن غاندى فى أول اجتماع برئاسته أن الوقت لم يحن بعـــد لاعلان استقلال الهند وبذلك خان امانة زملائه وحطم مشاريعهم ، وضربت بريطانيا بيد من حديد كل محاولات المسلمين ووضعتهم فى الســجن وبذلك سيطر غاندى على الحركة الوطنية حتى اذا خرج المسلمون من الســجن كان غاندى هو كل شىء .

هذا هو ملخص التحقيق الذى أجراه العلامة عبد العزيز الثعالبى أثناء زيارته للهند عام ١٩٣٧ وكشف به عن اسطورة غاندى :

ولقد كانت دعوة غاندى الى ما سماه اكتشاف الروح الهندى الصميم

والرجوع الى الحضارة الهندية هو بمثابة اعلان الحرب على الحضـــارة الاسلامية التى عاشت على أرض الهند أربعة عشر قرنا وغيرت كل مفاهيم الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بل انها قد غيرت مفاهيم الهندوكية نفســها .

سيارتر

ان وقائع حياة « سارتر » تستطيع وحدها أن تكشف عن طبيعة فكره وعن التحديات الخطيرة التى فرضت عليه هذا الاتجاه الفلسفى الذى أطلق عليه اسم (الوجودية الملحدة) تفريقا بينها وبين الوجودية التى دعا اليها من قبل (كيركجارد) .

ذلك ان التحديات والأخطار التى واجهها فى مطالع حياته بعد انفصال أمه عن ابيه ، وحياته فى ظل جده الذى كان قاسيا عليه ، وما يتصل ذلك بعدم اقتناعه بما كان يفرض عليه من اتجاه دينى وبالاضافة الى تحديات عصره ، والى الدم اليهودى الذى يثير فيه الاحساس بالحقد على المجتمعات المسيحية الغربية ، كل ذلك كان له أثره فى تشكيله وتركيبه وفى الآراء التى حملها ودعا اليها .

هذا بالاضافة الى شيء آخر ، ذلك هو التركيز على هذه الآراء بالدعاية لها ونشرها وتعميق ظهورها فى المجتمعات الغربية ، وهو ليس من عمـــل الكاتب أو الفيلسوف ولكنه من عمل القوى التى تروقها هذه الفلسفة وترى فيها خدمة لأهدافها ، ولا ريب أن هذه القوى هى التى حملت من قبل آراء فرويد ونظرية نيتشة وغيرها ، واذاعت بها وخلقت حولها هذا الجو الخطير ، وادخلتها فى قصص الأدباء وكتابات الباحثين ومناهج الدراسة فى الجامعات .

وواضح من كل كتابات سارتر ذلك التحدى الخطير الجرىء على كل الحقائق والقيم وفى مقدمتها وجود الله وطبيعة الخلق والمجتمعات والناس .

وقد أدت به هذه العوامل المختلفة (من تكوينه خاصة ومن أثار مجتمعه) الى تكوين نظرية مليئـــة بالقلق والسأم ، رافضـــة لكل القيم والمقـــدرات والأخلاق ، وتقوم نظرية سارتر اساسا على القول بأن الله غير موجود واذا كان الله ليس له وجود فكل شيء مباح . وهذا لا يعنى الحرية وانما يعنى

الفوضوية التى تنكرها كل الأديان والعقائد والقيم والتى تدمر الانسان تدميرا كامـــلا .

فآراء سارتر تحتقر العلم وتنكر قيمته » .

وسارتر يرى أنه قد صنع ذاته لانه لم يكن ابنا لأحد ، وأنه يعيش فى الهواء ويقول : اليوم كغد ، والغد كبعد الغد ، وأنه لا طعم لشىء ولا لذة ولا أمل فى شىء .

ولما كات المذاهب الفكرية والفلسفة هى رد فعـــل لنفسية صـــاحبها وعقليته ، فان نظرية سارتر تكشف تماما عن طبيعة تركيبه النفسى والعـــقلى وتفصح عن غموض مطالع حياته واضطرابها ، هذا الذى ساقه الى الكفـــر بكل القيم الانسانية ، ويجمع الباحثون على أن مذهب سارتر مســـتمد من تحديات حياته شخصيا ، فانه ولد وليس له اسرة ومات ابوه فى الشـــهر الثالث وكانت أمه ممسوخة الشخصية لم تشعره أبدا بحنان أمومتها (وهى يهودية الأصل) والأسرة التى عاش فيها لم تزد عن جدين عجـــوزين كانا يؤذيانه هو وأمه ويشعرانهما بالضياع .

وقد كشف سارتر عن نفسه خلال ترجمته الذاتية فأنكر الكنيسة وقال : كنت كاثوليكيا وفى نفس الوقت بروتستانتيا ومن هنا أراد أن يؤكد ذاته بأن له رســـالة ، وهو الطفل المنبـــوذ فى مجتمـــع يرعى الأطفـــــــال العـــاديين .

وقد تبين بعد وفاة سارتر أن أثره الاجتماعى والفكرى قد تلاشى تماما ولم يخلف شيئا ذا بال فقد كات دعوته بمثابة عود ثقاب أوقد فى ظلمة أزمة الحرب العالمية الثانية وسرعان ما انطفأ .

يقول جاك برك : ان سارتر عقل كبير ولكنه مع الأسف يفتقر الى الذكاء السياسى . ومن المؤسف أن سارتر الذى يبنى معظم فلسفته على فهم الاخر لا يفهم الاخر ، ولا يحس به ، وأخطر ما هنالك أن سارتر لم يستطع التغلب على ما احيط به من الدعاية والتضليل الصهيونى فاعتبر اسرائيـــل عدعى اليهـــا .

ابن خلدون

كانت الحملة التى قادها الدكتور طه حسين فى مطالع هذا القرن على ابن خلدون فى أطروحته الفرنسية التي نال بها الدكتوراه من جامعة السربون علامة على ذلك الخط الذى اختاره المستشرقون والمبشرون لكتابنا بالنسبة الى أعلام الفكر العربى الاسلامى والتاريخ الاسلامى ، وهو نفس الخط الذى مضى فيه زكى مبارك الى مهاجمة الغزالى ومضى فيه طه حسين من بعد الى مهاجمة المتنبى ومضى فيه كثيرون الى تدمير أعظم الشخصيات العربية الاسلامية التى هى فخر تاريخنا والمثل الأعلى الذى يتطلع إليه شبابنا .

وكان طه حسين قد أعد أطروحته تحت اشراف باحث يهودى هـــو « دور كايم » ومن هنا فقد حرص على نقل آرائه واصطفاء وجهة نظره ، وقد مضى فى ذلك شوطا طويلافى الظلم والاعنات حتى اعتبر أن اطلاق لقــب (اجتماعى) على ابن خلدون مبالغة كبيرة .

وكان هذا غاية فى الظلم والاعتساف ، وقد كشفت أبحاث الباحثين عن هذه التبعية الخطيرة التى دفعت طه حسين الى تبنى آراء دوركايم فى ابن خلدون واتخاذها أساسا لبحثه وهو يهودى من اتباع النظرية الماركسية ورأيه فى ابن خلدون مشوب بالتعصب .

ولقد وقف طه حسين هذا الموقف الظالم لابن خلدون بينما وقف أغلب كتاب الغرب المنصفين موقف التقدير لهذا العلامة ، وكشفوا عن سبقه وعن ريادته فى مجال : التاريخ والاجتماع والاقتصاد بالنسبة لمن جاءوا بعده من أمثال لآدم سميث وأوغست كونت وبينهم وبينه أكثر من أربعة قرون .

وقد أكد المنصفون من الباحثين أن نظريته فى المقدمة لم تكن مجـــرد جمع لمعارف منوعة ولكنها جاءت كعمل منظم ومرتب ينطبق عليه لفظ العلم فى معناه الدقيق .

وقد ردد هذه المعنى : شميدث ، وفيليب ، وايف لاكوست . روبرت فلينت وجو ميلوفيتس واستيفانوا كولوزيو .

وسجل أرنولد توينبى « أنّ ابن خلدون فى المقدمة التى كتبها للتاريخ والعلم قد أدرك وأنشأ (فلسفة التاريخ) وهى بلا شك أعظم عمل من نوعه أبدعه أى زمان ومكان ».

وفى مؤتمر ابن خلدون عام ١٩٦٢ بالقاهرة اجتمع اكثر من مائة عالم وقدموا اكثر من ثمانمائة صفحة عن ابن خلدون كلها تصفع آراء طه حسين الزائفة الوافدة التى تحمل طابع التبعية والجحود .

وقال الدكتور عمر فروخ فى هذا الموقف : انه لمن دواعى الأســف أن يعرف الغربيون فضل ابن خلدون قبل أن يعرفه الشرقيون أنفسهم ، ولكن الذى يؤسف له حقا أن يقوم بعض الشرقيين يحطون من قدر ابن خلدون بعد أن جهد الغربيون كل جهد فى نشر فضائله واظهارها .

ميكافيلى

أولى التغربيون اهتماما كبيرا بما كافيلى وكتابه الأمير ، لا على النحو الصحيح وهو ابراز الفوارق بين الفكر الاسلامى والفكر الغربى فى مجــال السياسة ودحض نظرية ميكافيلى واعلان ذاتية الفكر الاسلامى التى تؤمن بأخلاقية كل القيم والمفاهيم من سياسة واقتصاد واجتماع وتربية ، ولكن على أساس غزو الفكر الاسلامى بمفاهيم تختلف عن ذاتيته وأخلاقياته وقيمه الأساسية .

والحق ان ميكافيلى مطابق للفكر الغربى فى أسسه الرومانية واليونانية وهو اضافة حقيقة اليها ، وليس غريبا عنها ، ولكنه غريب بالنسبة للفــكر العربى الاسلامى ، حقيقة أن ميكافيلى يمثل أول انكسار فى الخــط الذى أشاعته تعاليم المسيحية ، ولكنه مطابق لذلك التحول الخطير الذى اتجه اليه الفكر الغربى حين حرر نفسه من قيم الأديان وانطلق الى نزعته الوثنيــة القديمة : نزعة الغاية التى تبرر الواسطة .

وقد كانت نظرية ميكافيلى هى منطلق جميع نظريات الديكتاتورية والفاشية والنازية والتسلط التى سادت الفكر الأوربى والمجتمع الغربى ، وهى نظرة غريبة على مجتمع العرب والمسلمين فى أصالته ، وان كان قد تأثر بها كما تأثر بالغزو الغربى الذى فرض عليه الفلسفة الليبرالية ، والأنظمة الديمقراطية الغربية بكل فسادها واضطرابها وتعارضها مع مفاهيم الفكر الاسلامى القائمة على الحرية والكرامة والعدالة والترابط بين الفرد والمجتمع وحرية المعتقد الدينى .

ولذلك فاننا يجب أن تنبه الى مدى عمق الفوارق بين الفكر الغـــربى

والفكر الاسلامى فى مجال السياسة وفى عرض الشخصيات المختلفة وفى مقدمتها ميكافيلى .

تولستوى

نزعة الغاندية والتولستوية فى الأدب العربى والفكر العربى الحديث نزعة دخيلة وافدة ، غريبة عن طبيعة هذا الأدب وهذا الفكر ، وهى محاولة لاخراج الفكر الاسلامى والثقافة العربية عن ذاتيتها القائمة على العدل والرحمة معا ، والتى تجعل (الجهاد) افقا عاليا من آفاق العقائد لا سبيل الى التخلى عنه أو المهادنة فيه أو التفريط فيه .

وتقوم الغاندية والتولستوية كالبهائية والقاديانية على فكرة مستمدة من المسيحية الغربية هى فكرة السلام والدعوة الى القاء السلاح والغاء الحروب والتقريب بين الأديان ، وهى جميعها دعاوى تكشف أن من ورائها الصهيونية العالمية والماسونية فى محاولة تخذيل كل القوى المدافعة عن ارضها ومحاولة تقبل ما يسمى بالثقافة العالمية أو الفكر العالمى أو الاخوة العالمية . وتبرز هذه الدعوات وتستشرى فى ظل ذلك الخطر الاسرائيلى الماثل المسيطر على الأرض العربية .

بينما لا تحمل اى دعوة ما يحمله الاسلام من سلام واخاء ومحبة وتقريب بين الناس ودعوة الى الانسانية والاخاء البشرى ، دون انتقاص لأحد أو احتلال لأرضه أو سيطرة عليه واذلاله .

ومن ها كان خطر التزيين بما دعا اليه تولستوى أو غاندى من سلام ، او ما يشار اليه من العصيان المدنى فى مواجهة الاستعمار أو الدعوة الى الرحمة المسيحية ، ذلك أن الاسلام يقوم على قاعدته الأصيلة سلاما كاملا عن طريق الجهاد ، الذى هو فى مفهومه الأصيل عملية دفاع وحذر واستعداد وليست عملية قتل أو قتال أو حرب : وهى تتمثل فى الآية الكريمة « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فهى استعداد وحذر وتحصين للثغور وتغطية فى مواجهة العدو ، تحمل السلام ، وتفرضه ، وتحول دون القتال والحرب الا اذا اعتدى على ارض المسلمين أو غزيت بلادهم فهنا يكون القتال من أجل استرداد الأرض وحماية الذمار .

يعقوب صنوع

هذا واحد من عمد دعاة الغزو الثقافي الغربي الذي يعمل التغريب على تزيينه واعلاء اسمه ووضعه في صفوف المجاهدين والمحررين والمقاومين للظلم والاستبداد ، حتى لقد أضيف اسمه الى قائمة تلاميذ جمال الدين الافغاني بينما كان هو خادما للاهداف الاستعمارية شأنه شأن جرجي زيدان وسليم سركيس وفرح أنطون وولي الدين يكن وغيرهم . فيعقوب صنوع يهودي أساسا وقد حمل الدعوة الى العامية وأنشأ الصحافة الساخرة للعبث بكل القيم والمقدرات وادخال عنصر فكاهة والسخرية بكل شيء ، من النكتة المكشوفة الى الكلمة الجريئة ، وهو الذي فتح هذا الباب في صحافتنا العربية والمصرية فمضى الكتاب فيه من بعد ، وكان من الأسلحة الخطيرة التي حملها المحترفون في سبيل العدوان على الأعراض والكرامات والبيوت .

ولم يكن يعقوب صنوع الا واحدا من هذه المدرسة التي عملت في صف القصر والاستعمار وخدمت اهدافها بالاستيلاء على قيادة الصحافة والمسرح، وقد حمل معه سموم القصص والمسرحيات الفرنسية المكشوفة فعربها ومصرها ، وساهم بجهد ضخم في انشاء المحافل الماسونية في مصر عام ١٨٦٥ . والواقع أن يعقوب صنوع كان صنيعة الخديو اساسا وكان يعلم أولاده اللغة الفرنسية وله قصائد عديدة في مديحه والاشادة به ، وتردد أنه كان استاذا في علم الرقص وأنه علمه في قصور الخديو والباشوات ، وكان أمراء عابدين قد أرسلوه الى باريس ليتعلم بها فهو ربيب لغتهم أصلا ، وليس خلافه مع الخديو اسماعيل مرتبطا بهدف أو ايمانا بفكرة كما حاول بعض التغريبيين أن يصوروه ، بل على العكس كان يجري مع التيارات الصهيونية والاستعمارية التي حملت على الخديو رغبة في اسقاطه .

واذا كان يعقوب صنوع قد ألف محفلا أو محفلين فان ذلك كان في خدمة الماسونية طليعة الصهيونية في هذا العهد . وقد كشف ابراهيم عبده هذا المعنى في كتابه عنه حين قال :

« كان في محفلة يتحدث عن تقدم الآداب والعلوم في أوربا . حاملا على تخفيف حدة كراهية النفوذ الأجنبي ومسالمته ، وكان المتحدثون في ندوته يدعون للحكمة والاخاء بين الشعوب وقد كانت جمعيات يحضرها اليهود والنصارى والمسلمون ويغري بها طلبة الأزهر وضباط الجيش « ليتعرفوا » على مبادىء الحرية الأوربية والفرنسية خاصة » .

ولا شك أن تعبير ابراهيم عبده انما هو محاولة لبقة لاخفاء صفة الماسونية التى كانت تسيطر على هذه الاجتماعات ، وكل ما اورده هو من دعواها الخطيرة التى ألت بالمخدوعين فيما الى أن يكونوا خدما معصوبى العينين للبنائين الأحرار الذين يدعون فى خفية الى اعادة بناء هيكل سليمان وهم طلائع الصهيونية .

لا ريب اذن فى أن يعقوب صنوع كان طرفا فى حركة الماسونية واداة من أدوات النفوذ الأجنبى . وآية خيانته أنه حين اتسع خلافه مع اسماعيل لجأ الى القصلية الايطالية فنال حمايتها واستند عليها فى مهاجمة اسماعيل كما لجأ الى حماية فرنسا .

وهكذا تنحسر الهالة الضخمة الكاذبة التى اخفاها هؤلاء التغريبيون عن يعقوب صنوع وينكشف فى ضوء الحقائق أنه عميل شعوبى ماسونى خائن لوطنه .

أديب اسحق

الى عهد قريب كانت كتب المطالعة فى المدارس الأميرية تحمل نصوصا من كتابات أديب اسحق الذى تصفه بأنه داعية من دعاة الحرية وتنسب اليه أنه كان تلميذا من تلاميذ جمال الدين الأفغانى ، وهو بذلك يعلو على الاتهام ويرتفع عن الشك فيه .ولكن الحقيقة لا يبحث عنها خلال اقامة جمال الدين فى مصر وقد غادرها ١٨٧٩ وانما يبحث عن هذه الأسماء التى دارت حول تلك جمال الدين بعد سفره ، أين ذهبوا وكيف عملوا ، فقد كانوا جماعة من الوصوليين الذين استغلوا دعوة هذا الداعى فى سبيل كسب لحساب الاستعمار والتغريب والماسونية ، ذلك أن أديب اسحق ما كاد يرى جمال الدين وهو يغادر مصر حتى أصبح وليا للقصر والاستعمار ، وأنه حين عاد الى مصر كرمته الدولة التى كان يعارضها فى ظل جمال الدين وعين وكيلا لقلم الانشاء والترجمة بديوان المعارف وأعاد جريدة مصر الى الوجود « وهكذا عاد أديب اسحق ليجد تكريما من الدولة المحتلة ثم يتصل بالخديو فينعم عليه برتبة البكوية ويصبح كاتما لأسرار مجلس النواب ومعنى هذا أنه تحول عن مذهبه الأول ثم أصبح من دعاة « الاعتدال » ابان الثورة العرابية مما اسخط عليه رجال هذه الثورة ومنع جريدته من ان تكون لسان حالها ، ولأديب اسحق شعر حمل فيه على الثورة العرابية وعرابى .

هذا فضلا عما عرف عن أديب اسـحق من تحلل فى الخلق والدين ، الصحافة عنده حرفة وليست فكرة ، كما عرف بسرعة الانفعال وهيـاج الأعصاب والتقلب كما وصفه عارفوه بأنه يؤمن بالجرى وراء هوى النفس ، كما وصف بالتساهل فى طرق معاشرته واطلاق هواه مما ساق اليه عنـف المزاج وحدته وقد كان هذا سببا من أسباب استفحال مرضه وتعجيل وفاته بداء الصدر ، وقد عرف أن هدفه كان هو النيل من وحدة العالم الاسلامى تعصبا ضد الدولة العثمانية التى كانت تجمع بين العالمين العربى والاسلامى .

ولعل اخطر ما وجه الى أديب اسحق من اتهام أنه كان يواجه الاستعمار البريطانى فى مصر ولا يهاجم الاستعمار الفرنسى فى بلاده سوريا ، بل كان يعطف على فرنسا الأم ويواليها ويصفها بأنها محررة الشعوب . وذلك موضع الاتهام فى أمانته ككاتب واخطر مغمز يوجه الى أدبه وشخصه .

ولقد كان متابعا بالطبع للماسوية ومن أولياء الدعوة الى ما دعت اليه من اكبار واجلال للثورة الفرنسية والفكر الغربى .

ومن العجب أن تظهر دراسات فى الأخير تحاول أن ترفع من قدر هذا الكاتب الافاق صنيع المحافل الماسونية وتصوره فى صورة المفكر الأصـيل وتضعه فى صف رفاعة الطهطاوى وخير الدين التونسى على بعد الفارق والهدف بينه وبينهما .

جرجى زيدان

ما زال دعاة التغريب يخدعون القارىء العربى والمسلم حول جرجى زيدان ويقدمون له روايات الهـلال المليئة بالسموم والاتهـامات الباطلة والشكوك والشبهات ، وذلك فى طريق حركة الغزو الثقافى التى تركز على التاريخ الاسلامى وتحاول افساده فى نظر الشباب ، ولقد ظهرت فى الفترة الأخيرة ترجم جديدة لجرجى زيدان وحدها كافية لتكشف عن حقيقته ، فقد اعتمدت عليه المخابرات الأجنبية ورافق الحملة النبيلة الى السودان ١٨٨٤ بوصفه مترجما فى قلب الاستخبارات ، فلما كشف عنه الاستعماريون ووجدوا فيه طلبتهم ارسلوه الى بريطانيا واعدوه اعدادا خاصا فلما عاد درس اللغتين العبرانية والسريانية وجاء الى مصر فألف أخطر كتاب فى تاريخ الماسونية وكان من دعاتها الأبرار وعضوا مؤسسا فى المحافل الماسونية ، ولم يقف أمره عند هذا بل أدخل الى افكاره وآرائه سموم الآراء الخطيرة التى تحملها هذه

الدعوى التى كانت مقدمة للصهيونية العالمية والتى استقطبت كثيرا من الغافلين فى العالم العربى .

وكان الهلال وروايات الهلال من الأدوات الخطيرة فى هذا المجال فى سبيل الدعوة لليهود وتزييف التاريخ القديم . ولقد ثبت اتصال جرجى زيدان بالاتحاديين الأتراك الذين كانوا أداة النفوذ الاستعمارى والصهونى فى تمزيق الدولة العثمانية ،وانهم أولوا اهتمامهم بالكتابة عن الانقلاب العثمانى وكان رايه فى السلطان عبد الحميد متابعة للصهيونية حتى انه عندما أشار الى موقفه الكريم فى رفض عرضهم ، لم يزد على ان قال كلمات غامضة لا تكشف الحقيقة تمويها وابقاء للشبهة حول الرجل الكريم . وكتابات جرجى زيدان تحمل لواء الخصومة لكل وطنى ومجاهد ومصلح : مصطفى كامل وعرابى والمهدى محمد أحمد وغيرهم .

نيتشه

عمد دعاة التغريب الى اعلاء شأن الفيلسوف نيتشه وابراز فكره وكانوا فى ذلك غير صادقين ، بل لقد استغلوا جانبا من نيتشه ولم يكشفوا عن حقيقته أو التحديات التى دفعته .

وما ردده الفيلسوف نيتشه لا يتصل بالفكر الاسلامى ولا بالاسلام ولا بالأدب العربى من قريب أو بعيد فقد كان نيتشه مسيحيا وكان هجومه كله على المسيحية الغربية ، وفىّ كل ما حاول أن يصورها به من قصور أو عجز من مواجهة العلم (كما فعل رينان) من بعده أو اثارة الاتهامات حول شخصية سيدنا عيسى وهل هو اله أم بشر (على نحو ما فعل لودفيج من بعد) كل هذا لا يطرح على الفكر الاسلامى ولا يمثل أدنى صلة به ، ذلك الى أن الفكر الاسلامى فى متابعة من القرآن والاسلام يختلف اختلافا بعيدا فى نظرته الى العلم والى النبوة والى التوحيد وفى مختلف مفاهيم الحياة وقيمها .

اما الذين طرحوا نيتشه وفكره فى محيط فكرنا العربى الاسلامى فانما أرادوا اثارة الشبهات وخلق جو من الشكوك والالحاد والاباحة جريا على التمويه الذى توجه اليه حملات التغريب والصهيونية وهو مهاجمة الدين بوصفه دينا ، أما الاسلام فليس دينا بالمعنى الذى يريده هؤلاء أو يقصدونه،

ذلك أنه ليس منهجا تعبديا لاهوتيا خالصا يقوم على العبادات أو الاتصال بالله وحده ولكنه نظام كامل للحياة والمجتمع والحضارة تترابط فيه الصلة بين الانسان والله والانسان والمجتمع جميعا . ومن هنا فان فكر نيتشه وصيحته ان الله قد مات لا تدخل مطلقا فى نطاق الفكر العربى الاسلامى الا من ناحية دراسة تطور الأديان وعلومها المقارنة .

ولكى يتأكد شبابنا المسلم من فساد المثل الأعلى لدى نيتشه نكشف هذه الصفحة التى ظل خصومنا يكتمونها زمنا وهو أن نيتشه قضى نحو عشرين عاما وهو فى جنون يكاد يكون مطبقا اذ كان فى الدور الأخير من مرض السلفس وكان ميتا منذ عام ١٨٨٥ ودفن عام ١٩٠٠ وهو مرض لم يقعد جسمه فقط بل أمات ذهنه ، ومات مغمورا لم ترثه جريدة ولم تذكره جامعة ولكنه بعد موته بعثه اليهود من جديد ليحقق أهدافهم واشادوا به فى البروتوكولات .

ماركس

ابرز مفاهيم ماركس نظرية التفسير المادى للتاريخ وهى نظرية ثبت أنها جزئية وليست صالحة للتطبيق لا من حيث المجتمعات ولا من حيث العصور ، وانها واحدة من نظريات التفسير الجغرافى للتاريخ ، والتفسير الطبيعى للتاريخ والتفسير الجنسى للتاريخ ، وكلها نظريات يقف أمامها الفكر العربى الاسلامى موقفا واضحا ، هو أن للفكر الاسلامى نظريته فى التفسير الاسلامى للتاريخ أو ما يمكن أن يطلق عليه « التفسير الانسانى للتاريخ » .

وماركس يدير التاريخ كله حول نظرية القيمة ويفسر بها كل الاحداث، وقد أصبح الرأى على أن العامل الاقتصادى ليس هو العامل الوحيد الذى يقرر الكيان الاجتماعى لأى أمة ، ذلك أن هناك عوامل كثيرة تؤثر على مجرى التاريخ من بينها العوامل السياسية والقانونية والأفكار الدينية ، وفى كثير من الأحيان تكون الغلبة لأحد هذه العوامل وليس للعامل الاقتصادى .

وقد اعتمد ماركس فى دعم نظريته ، وعلى كثير من الأحداث التاريخية الغامضة والتى وقعت قبل التاريخ كما حرف كثيرا من حقائق وتجاهل حوادث أخرى هامة لا تنطبق على نظريته ، ومما ذهب اليه ماركس ولم يتحقق نظريته القائلة بأن التقدم الاجتماعى من شأنه أن يحقق تقدما أخلاقيا ،

وقد اثبت تطورات الحضـــارة عكس ذلك ، ومصـــدر اخطـــاء ماركس انه اعتمد على الجوانب المـــادية وحدها ولم يحسب حساب العوامل الفـــكرية والروحيـــة .

فرويد

لقد أعطى فرويد تركيزا ضخما والقيت عليه اضواء كثيرة وطرحت آراؤه بقوة نفوذ الأعلام الصهيونى واليهودى حتى اصبحت من مقررات الجامعات ومصادر الكتابة لدى القصاصين والكتاب ، دون التفات الى ما هوجمت به آراؤه من زملائه وما كشف عنها من نقص . وخاصة فى نظـــرية فرويد الرئيسية القائمة على أساس الجنس والقائلة بأن غزائز الانسان هى التى تحكمه وتسيطر عليه ،وقد خالفه فى هذا الاحتمال اقرب اثنين اليه من زملائه : هما ادلر ويونج . وقد أجمع الباحثون على أن فرويد (متنبىء) أكثر منه عالما وأنه مخترع للفرضيات أكثر منه مناقش لها ،وأن فرويد قد اعتمد على كثير من الأساطير اليونانية القديمة فحولها الى نظريات ومن ذلك عقـــدة أوديب وعقدة الكترا .

وقد كشفت الأبحاث التى نشرت اخيرا عن علاقات خطيرة بين هرتزل وفرويد ، وأن هدف مذهب التحليل النفسى هو جزء من مخطط بروتوكولات صهيون الداعية الى تدمير النفس الانسانية وأن فرويد قد حقق ذلك عن طريق نظريته التى أذاعتها الصهيونية واعطتها قدرا كبيرا من الاهتمام بما وضع كل الظريات الأخرى والأقرب الى الصواب فى الظل .

وفرويد بطبيعته يهودى يحس بهذا الحقد البشع للمجتمعات الأوربية والانسانية وقد عاش فى النمسا فى مجتمع يكره اليهود ويضطهدهم ، ونقطة الضعف فى نظريات فرويد وفى مكانته كعـــالم هى أنه اتخـــذ من دراســـة نفسه وطفولته قاعدة للتعميم والوصول الى قوانين عامة ، كما اعتمد فرويد على نماذج كلها من المرضى الذين زاروه ، ولم يعتمد على نماذج من الأصحاء.

ولقد أشار كثير من مؤرخى فرويد الى أنه كان مجموعة من العقـــــد النفســـية وأنه كان مريضـــا وكان مرارة الطبـــع خلة ملازمة له فى علاقاته بغـــيره .

وكانت نقطة الخلاف الجوهرية بين فرويد وزملائه هى أنه يرى الجنس

هو اساس كل الدوافع الانسانية وقد خالفه زملاؤه فى ذلك وقالوا ان الجنس ما هو الا عامل من عدة عوامل كذلك اثبت يونج ومكدوجل أن العقــل الباطن ما هو الا خرافة وقد نوقش فرويد فى مسألة العقل الباطن وعقــدة أوديب فانكرهما . وكانت آراوه فى التحليل النفسى مثار اضــطرابات حتى فى نفســـه هو .

سعد زغلول

لمع اسم سعد زغلول فى تاريخ مصر فى العصر الحديث لمعانا خاطفا بما وصف به من أنه قائد ثورة ١٩١٩ — غير أن سعد زغلول من الشخصيات التى انقسم حولها الراى والتى لم تظفر بالطمأنينة الكاملة فى الحكم عليها من جميع الأطراف ، ذلك أن ســـعد زغلول قبل الحركة الوطنية كان له ولاء مشبوه مع النفوذ البريطانى تجلى فى اكثر من مظهر ، وكان ابرز مظـــاهره مصاهرته لمصطفى فهمى الرجل الذى فرضه الانجليز رئيسا للحكومة بعــد الاحتلال فأمضى ثلاثة عشر عاما حاكما مطلقا والرجل الذى كان موضع ثقـــة كرومر وموضع نقمة وكراهية المصريين جميعا .

وعن طريق هذه المصاهرة التى تمت فى حضانة كرومر ، وفى مجال الدعوة التى دعاها الى ظهور طبقة من الشباب المصريين المتفرنجين الذين يعاونون الأجنبى ويتولون حكم البلاد ، ظهر سعد زغلول لأول مرة ناظرا للمعارف عام ١٩٠٧ .

وكان شقيقه فتحى زغلول احد قضاة دنشواى ، وفى خلال نظـــارة سعد حدثت أحداث كان لها أكبر قدر من الولاء للنفوذ الأجنبى فقد صـــادر اللغة العربية بالرغم من الأصوات التى ارتفعت لجعلها لغة التعليم وفرض اللغـــة الانجليزية ، وأيد امتياز قناة الســـويس اربعين عاما فى الجمعيـــة العمومية ، وانه الرجل الوحيد الذى ذكره كرومر فى خطاب الوداع بعد أن حكم مصر ربع قرن ووصفه بالرجل العظيم صهر الرجل العظيم ، كل هـــذه الخلفية لصورة سعد زغلول على راس الحركة الوطنية تكشف بوضـــوح عن الدور الذى أعـــده الاحتلال البريطـــانى له ، والذى يتمثل فى احتـــلال شخصيات لها ولاء بريطانى محل شخصيات وطنية خالصة ، ومن هنا فقد كان سعد زغلول ولطفى السيد وعبد العزيز فهمى فى مقدمة الرجال الذين عملوا فى الحركة الوطنية السياسية من داخل دائرة النفوذ الاستعمارى

ووفق مفاهيمه وهى الدائرة التى حلت مكان دائرة اليقظة والاصـالة التى اسـقطها الانجليز من زعامة البـلاد واقصاها ونفاها قبل الحرب العالميـة الأولى .

لطفى السيد

ان الدعوة التى حمل لواءها لطفى السيد عام ١٩٠٧ على صـفحات الجريدة وهى مصر للمصريين .

وقد وجدت خلافا كثيرا فى تقديرها وفى اصالتها وفى مدى ارتباطها بحركة اليقظة العربية الاسلامية وكذلك مدى ارتباطها بمحاولة الاسـتعمار والنفوذ الأجنبى فى فصل مصر عن العروبة والعالم الاسلامى والاسـلام نفسه . فقد كان رأى لطفى السيد وهو مستمد من مفاهيم كرومر وفلسفته أن المصريين يجب أن يعيشوا داخل وطنهم دون ان يأبهوا بأن رابطة تربطهم بالعرب كامة أو بالعالم الاسلامى ، وعليهم ان يشـكلوا مجتمعهم على هـذا الوضع منعزلا عن العالم القريب الذى اتصلوا به قرونا عديدة ، ولكنه لا يرى بأسا ان يفتح المصريون طريقا بينهم وبين الغرب وأن يركزوا صلاتهم الفكرية والاجتماعية مع الليبرالية الغربية وما يتصل بها من مفاهيم فى السـياسة والاجتماع والتربية . ومن هنا فقد بدت دعوة لطفى السيد غريبة قلقـة ، لانها انفصلت عن قاعدة التاريخ والفكر والأمة ، وقد كشـفت الأحـداث والوقائع أنها لم كن دعوة خالصـة فقد كان وراءها حزب الأمة هو حـزب الالتقاء مع الاحتلال فى منتصف الطريق ورجاله هم خاصة السراة وصفوتهم ممن شكلهم الاحلال البريطانى ، وقد كانت هذه الدعوى محاولة للنيـل من الدعوة الوطنية الخالصة المرتبطة بمختلف قيم العروبة والاسلام ، غير ان الاستعمار استطاع أن يركز على دعوة لطفى السيد وأن يدفعها بقوة بعـد ان صفى مراكز الحركة الوطنية وهاجر زعماؤها الى الخـارج أو ذهبوا الى المنافى ، وبذلك اعد المسرح اعدادا كاملا لسيطرة هذه النظرية السياسية على مسرح الحياة المصرية بعد الحرب العالمية الأولى تحت اسـماء الأحزاب المختلفة التى كانت جميعا تدور فى فلك الولاء الفكرى الغربى ، وان كانت تدعو الى الاستقلال السياسى .

كـــرومر

ولى كرومر منصبه فى مصر ممثلا للدولة البريطانية فترة لا تقل عن ربع قرن (١٨٨٣ — ١٩٠٧) . ومما يؤثر عنه قوله : ان الساعين لارجاع مجـــد الاسلام يحاولون أن يحييوا فى القرن العشرين المبادىء التى تكونت قبل اكثـــر من الف سنة لقيادة أمة بدوية فى حالة الفطرة وان من تلك المبادىء ما يخالف الفكر العصرى ويناقضه من اباحة الاسترقاق وما جاء عن العـــلاقات بين الجنسين وقد دحض آراءه كثير من الباحثين ولكنه استطاع تكوين جيل يحمل هذه الآراء فقد كان ذا نفوذ بالغ مسيطر على كل اجهزة الحكم وعلى القصر جميعا ، حتى اطلق عليه صاحب السلطة الفعلية فيما اطلق على الخـــديو صاحب السلطة الشرعية .

واهم ما دعا اليه كرومر :

١ — القضاء على الاســـلام دينا ودولة .

٢ — القضاء على الوحدة الاسلامية .

وقد استطاع فى خلال هذه الفترة الطـــويلة أن يؤكد وجود النفـــوذ الغربى فى مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية والتعليمية والقانونية المصرية ، وتمثل تقاريره فلسفة كاملة للتعـــامل بين الفوذ الاســـتعمارى والمصريين ، وقد استطاع كرومر أن يعد ركيزين هامتين فى سبيل دعم الاحتلال البريطانى والنفوذ الاستعمارى كان لهما اثرهما البعيد بعد ذهاب كرومر والى وقت بعيد ، هاتان الركيزتان هما :

وضع لطفى السيد على رأس صحيفة الجريدة لسان حال حزب الامة منذ عام ١٩٠٧ الى عام ١٩١٤ ليبث يوميا فلسفة استعمارية اقليمية تمثـــل المنهج الغربى الاستعمارى الذى ورثناه خلال فترة الاحتلال البريطـــانى كله والذى ما تزال آثاره ممتـــدة الى اليوم بالرغم من كل محاولات التحـــرير والاصـــلاح .

ووضع سعد زغلول على رأس نظارة المعارف تأكيدا للمعانى التى حرص النفوذ البريطانى على تحقيقها من خلال التربية والتعليم وأهمها فرض اللغـــة الانجليزية على مختلف مناهج التعليم ورفع مناهج القرآن والتاريخ الاسلامى والمفاهيم الاخلاقية والاجتماعية والتربوية الاسلامية من المناهج وكان كرومر

حفيا بتكوين جيل يرث الاحتلال البريطاني ويكون من متفرنجة المصريين الذين يؤمنون بصداقة بريطانيا ويوالوان النظريات الغربية فى مختلف مجالات الاجتماع والسياسة وقد تحقق هذا فعلا وتحققت ثمرته بعد الحرب العالمية الأولى وفى فترة ما بين الحربين على أوسع نطاق .

دنلوب

كان اسم دنلوب من الأسماء الاستعمارية الضخمة فقد وكل اليه كرومر شئون التعليم فكان مستشار نظارة المعارف منذ وقت طويل وامتد نفـوذه الى قبيل الحرب العالمية الأولى .

وكان دوجلاس دنلوب قسيسا ارلنديا اختاره كرومر ليحقق به سيطرة النفوذ الغربى على مناهج التعليم والتربية فكان عمله أشد قسوة مما حققت مناهج مدارس الارساليات الأجنبية فقد استطاع اسقاط كل الجوانب التى من شأنها أن تبنى العقل العربى الاسلامى من مناهج التعليم وخاصة فيما يتعلق بالقرآن والتاريخ واللغة والأدب . وأضاف كثيرا من تراث الفكر الغـربى وخاصة الأدب الانجليزى بهدف خلق طاقة اعجاب وتقدير للمستعمر واعـلاء من شأن الحضارة الغربية والنفوذ الاستعمارى ، وعمد الى خلق ولاء أوربى فى النفس المصرية يستهدف احتقار القيم العربية والاسلامية والمصرية ويؤمن بأن المصرى كان طوال التاريخ مستعبدا بالفرس واليونان وبالعرب أيضـا فقد اعتبر دنلوب العرب مستعمرين للمصريين وجرى على هذا المنهج كثيرون من بعـد .

كما أعلى فى نفوس الشباب المصرى الاعجاب بالأوربى ، والنظر الى الاستعمار البريطانى على انه عملية تمدين للشعوب المتأخرة ، وحاول أن يجعل العلاقة بين المصريين والبريطانيين علاقة صداقة . غير أن هذه المناهج جميعا لم تلبث أن فشلت ولم تحقق الأهداف التى طمع اليها النفوذ الأجنبى .

وكانت سياسة دنلوب تهدف الى انهاء دور الأزهر الشريف حصـن اللغة والشريعة فكانت وزارة المعارف فى عهده بمثابة معهد يعد الطـلاب بعيدا عن البيئة الاسلامية الى أن يصير مفهوم التقدم والحضارة عندهم هو تقليد الغرب وقد لعب طه حسين ولطفى السيد فى مصر وساطع الحصرى فى العراق دورا مهما فى هذه المؤامرة كما لعب دورا خطيرا فى هذا الصدد أمثال اسماعيل القبانى وعبد العزيز القوصى وغيرهما .

ولفنجستون

حاولت كتب الجغرافيا فى المدارس العربية اسباغ صفة البطولة على قادة الحملات التبشيرية والاستعمارية من امثال : هنرى الملاح وولفنجستون وفاسكو دى جاما ووصفهم بأنهم طلائع الكشوف العلمية وكان ذلك نتيجة لسيطرة النفوذ الاستعمارى على مناهج التعليم فى العالم العـــربى كله ، والواقع أن هؤلاء لم يكونوا مكتشفين ، ذلك أن كل المناطق التى ارتادوها كانت مكتشفة فعلا ومعروفة للمؤرخين والرجال العرب من قبل ذلك بمئات الســنين .

وان ما ورد من أن ولفنجستون وصمويل بيكر قد اكتشفا أفريقيا هو محض ادعاء يكذبه ما أورده ابن بطوطة فى رحلته من وصـــوله الى أعالى نهر النيجر والى تمكتو وسكوتوا قبل أن يصل اليها هؤلاء الأوربيون بنحـــو ثلاثة قرون وكذلك ذكرها السائح الهروى ولقد كان العرب يعرفون هـــذه المناطق منذ وقت طويل قبل وصول هؤلاء المستمرين المبشرين ، وقد بقيت تمبكتو وهذه المناطق اعصرا طويلة جزءا من سلطة المغرب الأقصى ، وهذا ما يؤكد ان صمويل بيكر لم يكن مكتشفا لمنابع النيـــل الأبيض لأنها لم تكن مجهولة فى وقته عام ١٨٦١ .

ويتحتم هنا أن نقول أن العرب هم الذين قادوا ولفنجستون الى بحيرة تنجانيقا عن طريق زنجبار وكان ذلك بمساعدة السيد حامد بن محمد المعروف باسم (تيبو سيب) أشهر تاجر فى تلك الأصقاع ، ولما اقطعت أخباره وجاء (ستانلى) ليبحث عنه لم يستطع أن يصل اليه فى مدينة (أجيجة) الا بمساعدة السيد حامد كذلك . ولقد كتب ولفنجستون فى تقريره « أن نهاية الاكتشاف الجغرافى هى بداية العمل التبشيرى وأن هذه حقيقة كلية اذ أنه من المحال ان نكتشف أرضا جديدة دون ان ينبه ذلك فينا سوق دعوة أهلها الى الانجيل » وهكذا ينكشف المخطط الصريح الكامن وراء ذهاب هؤلاء الطلائع الى هـــذه المناطق كمقدمة للبعثات التبشيرية والارساليات .

ولدينا نص يؤكد هوية ولفنجستون أورده (رولاند اوليفر) فى كتابه : « العامل التبشيرى فى شرق أفريقيا » حين قال : لقد أعد ولفنجستون نفسه منذ سنوات حياته الأولى حين كان يعمل فى جمعية التبشير اللندنية للاضطلاع بمشاكل التبشير الخاصة بأفريقية الاستوائية وبالعمل بين شعوب فطرية فى بلاد لم يكن قد سكنها الأوربيون » .

وفى عام ١٩٤٩ كان ولفنجستون لا يزال يفكر بطبيعة الحال فى التجارة أكثر من الاستعمار .وبما أنه كان أولا وقبل كل شىء مبشرا فقد اختار كعضو فى هذه الحملة التبشيرية أن يبحث عن نهر تستطيع السفن أن تمخر فيه داخل البلاد ، ولقد أراد ولفنجستون أن يستكشف طريقا فى أفريقيا للمبشرين لا للمدنية ، وكان ولفجستون مبشرا قبل أن يكون رحالة ولم تكن رحلته المشهورة الا تمهيدا للبعثات التبشيرية (بدر الدين القاسم — مجلة العلم العربى — ١٩٦٠) .

هذه هى الحقائق التى غفل عنها مع الأسف أولئك الذين حاولوا تصوير هؤلاء بأنهم أبطال استكشاف جغرافى وخدعونا عنهم ، ولقد ذهب بعض الأدباء والكتاب الى مجاراة هذا الاتجاه فكتب أحدهم فى صحيفة كوكب الشرق عام ١٩٣٣ بحثا يمجد فيه ولفنجستون ويصفه بأنه من رجال الاصلاح والشخصية العظيمة .

وكان هذا جريا من التيار التغريبى الذى يريد أن يكسب رجاله طابع البطولة !

فاسكو دى جاما

كان أمثال هنرى الملاح فى آسيا وولفنجستون فى أفريقيا وفاسكو دى جاما فى الهند من طلائع التبشير والاستعمار بالرغم من كل ما أضفته عليهم بعض الكتابات التاريخية الزائفة . ولم يكن دورهم الذين تاهوا به الا من عصارة جهد المسلمين والعرب الذين رافقوهم فى هذه الرحلات ، وفاسكو دى جاما لم يستطع أن يصل الى الشواطىء الشرقية الا بمساعدة البحار المسلم العمانى (أحمد بن ماجد أسد البحر) الذى كتب أبحاثا كثيرة فى أمور البحر والرحلة فيه .

بل أن دى جاما قد خدعه حتى استطاع أن يحقق غرضه وذلك بعد أن أسكره بالنبيذ ودفعه بالتهديد الى أن يقود حملته الى الهند .وقد كانت كتب أحمد بن ماجد هى العون الأول لكل الغزوات التبشيرية فى اكتشاف الطرق البرية ومسالكها عن طريق العلامات التى أوردها لهداية البحار من نجوم ومسالك بحرية وعلامات الليل والنهار .

وقد اتصف فاسكو دى جاما بكرهه للمسلمين والعرب وقد ضرب

بمدافعه الثقيلة أثناء رحلته الى آسيا مركبا عزلاء تنقل الحجاج الى مكة فأحرقها بعد أن نقل أموال أهلها وأمتعتهم الى اسطوله وبعد أن حظر على رجاله انقاذ الغرقى منهم وفيهم النساء والأطفال حتى هلكوا جميعا الا عشرين طفلا بعث بهم الى البرتغال حيث حملوا على اعتناق النصرانية .

وقد كذبت الوقائع التاريخية ما حاولت الكتب العربية المؤلفة فى ظل النفوذ الاستعمارى أن تنسبه الى فاسكو دى جاما من أنه وصل الى كلكوتا . ذلك انه لم يذهب الى (كلكوتا) بل وصل الى مدينة أخرى تدعى (كاليكوت) تقع على ساحل كيرالا فى الجوب الشرقى من شبه جزيرة الهند وتبعد بأكثر من الف ميل عن (كلكوتا) التى تقع على مصب نهر الكونج فى الشمال الغربى من الهند .

الغزالى

لم يواجه مفكر مسلم بمثل ما ووجه به الامام الغزالى من شراسة الحملة عليه ومحاولة تدميره وكان مصدر الحملة عليه هو موقفه المشرف من الفلسفة الالهية اليونانية وهى الفلسفة الوثنية التى تعارض مفهوم التوحيد فى الاسلام معارضة واضحة صريحة ، أما موقف الغزالى من الفلسفة الطبيعية أو الفلسفة الرياضية فلم يكن موقف المعارض لها بحال .

ومن هنا نعرف مصدر الحملة وأسبابها ، فقد كانت حملة الداعين الى تدمير الفكر الاسلامى بالفلسفة اليونانية ومعارضة من يقف منها الموقف الواضح الصريح ، ومن خلال هذا المفهوم كانت حركة التغريب والتبشير والاستشراق وراء رسالة زكى مبارك (الأخلاق عند الغزالى) ووراء غيرها من بعد حتى ليقول أحدهم « ان كتاب تهافت الفلاسفة للغزالى كان بمثابة الرتاج الذى أغلق باب الفكر الفلسفى فظل مغلقا ما يزيد على سبعة قرون » ومن الحق أن يقال ان الفلسفة اليونانية قد فشلت فشلا ذريعا فى محاولتها الأولى ابان عصر العباسيين كما فشلت فى محاولتها الثانية فى العصر الحديث فى أن تخرج الفكر الاسلامى والثقافة العربية عن جذورهما بالرغم مما أتيح لها فى العصر من حرية واسعة فى نقل الوثنيات والمسرحيات والأساطير مما رفضه المسلمون الأول ، ومع ذلك فان المسلمين يعرفون أن فلسفتهم تنطلق من الفقه الاسلامى وأن منطقهم مستمد من القرآن كما حرره ابن تيمية وأن الفلسفة الاسلامية تقوم على التوحيد وتنبنى فى مجتمع

يختلف كل الاختلاف عن مجتمع اليونان العبــودى أو مجتمع الغرب الوثنى الاباحى .

ولقد كشف الامام الغزالى عن الفرق بين أسلوب القرآن وأســلوب المتكلمين فقال : « ان أدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل انســان وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ويستضربه الأكثرون . بل أن أدلة القرآن كالماء الذى ينتفع به الصبى الرضيع ، والرجل القوى ، وسائر الأدلة كالأطعمة التى ينتفع بها الأقوياء مرة ويمرضون بها أخرى » .

لقد انكر الغزالى النتائج التى توصل اليها فلاسفة ما وراء الطبيعة والالهيات واعترف بصحة آراء فلاسفة المنطق ورياضيات والطبيعيات .

اما رد ابن رشد على الغزالى فقد جاء بعد مائة عام حيــث لم يكن ابن رشد معاصرا للغزالى ولذلك فان المقارنة بينهما والقول بأن كتابه تهــافت التهافت هو رد على الغزالى ، هذا القول من الناحية العلمية يبدو عملا من اعمال التمويه التى يريد بها خصوم الغزالى أن يصوروه فى موقف الهزيمة بينما نرى ان كتاب ابن رشد يوافق الغزالى فى اكثر مسائله ويختلف معــه فى اقلها وبينهما قرن من الزمان .

وبالجملة فان الامام الغزالى خطأ الفلاسفة الذين ارادوا أن يزنوا كل شىء بميزان العقل فكان الدين فى ايديهم آلة خادمة للفلسفة ومن هنا كان خطرهم الخطير على الدين والاخلاق . خطرهم على الدين حين اعتقدوا فى انفسهم التميز على اقرانهم ونظراتهم فرفضوا وظائف الاسلام والعبــادات واحتقروا شعائر الدين واستعانوا بالشرع وحدوده ،وكان مصدر كفرهم انكارهم للشرائع والنحل وجحدهم فضل الأديان والملل .

أما خطر الفلاسفة على الأخلاق فيرجع الى أنهم اهملوا احكام الشريعة فشربوا الخمر واعرضوا عن الصلاة وقالوا مع ذلك أنهم ادركوا حقيقة النبوة واسوا قولهم ان الانسان اذا ارتفع عن طبقة العوام سقط عنه التكليف .

كارل مارتل

يحاول الاستعمار والتغريب أن يضفى على اسم (كارل مارتل) معنى البطولة وذلك لانتصاره على المسلمين فى معركة (تور أوبواتيه) التى يطلق

عليها اسم معركة بلاط الشهداء عام ٧٣٣ م ١١٤ هـ وهى المعركة التى توقف عندها التوسع الاسلامى فى أوربا ثمة ثم عاود حركته على أيدى الأغالبة فى تونس .

والحق أن هذه الموجة كانت قد وصلت الى غايتها منذ بدات عام ٩٣ هـ حتى توقفت عام ١١٤ ، وكان قوامها البربر والعرب معا وقد استنفذت قوتها وبعدت عن جبل طارق الذى هو نقطة بدئها نحو الف ميل . فكان بلوغ الزحف موقع (بلاط الشهداء) فى الحق هو اقصى ما يمكن أن تبلغه هذه الموجة .

غير أن ما وجه الى كارل مارتل من التشريف والتكريم لم يكن فى الحقيقة الا ممثلا لوجهة نظر المتعصبين الذين حاولوا بكل ما أوتوا من قوة أن يوقفوا زحف الاسلام على أوربا . ولكن المنصفين من المفكرين والباحثين والعلماء لم تفتهم الاشارة الى مدى الخطر الذى لحق أوربا نتيجة لتوقف التوسع الاسلامى مما اخر نمـــو الحضارة سبعة قرون كاملة وقد شهد بذلك « كلودفارير » أحد كتاب الغرب الذى قال بأن موقف كارل مارتل الهمجى أبقى على ظلمات أوربا سبعة قرون وحال بينها وبين أنوار الحضارة الاسلامية وهكذا شهد شاهد من أهـــله .

دوركايم

أبرز ما وصل اليه دوركايم هو انه الغى الفطرة ،وحاول عن طـــريق فلسفة عنيدة أن يقول بأن الدين ليس فطريا وان الزواج والأسرة ليســـا فطريين وأن القواعد الاخلاقية ليست فطرية .

وتقوم نظرية دوركايم فى نطاق النظرية المادية التى تجد قاعدتها فى دارون ومدرسته وهى شطر النظريتين : النفسية ونظرية التفسير المـــادى للتاريخ وتستهدف نفى القداسة والأصالة عن الاسرة والاخلاق والمجتمعات .

ودور كايم فيلسوف فرنسى يهودى ، كان على صلة بعيدة المـــدى بالدراسات التاريخية والاجتماعية التى اداها الدكتور طه حسين وكان مشرفا على رسالته عن ابن خلدون ، هذه الرسالة التى حملت كل أساليب التحقير والاستهانة بابن خلدون وفكره ومفاهيمه . وقد خضع الدكتور طه حسين فى ذلك الى نظرية دور كايم ولاء للفكر الغربى الجانح الى احتقار الفكر العربى الاسلامى وتقديرا لاستاذه ، ولقد ظل طه حسين فى مختلف دراساته التى

قدمها خاضعا للمذهب الاجتماعى الذى قرره دوركايم ، عندما درس المجتمع الاسلامى والفتنة الكبرى ومذاهب الأدب وتراجم الإعلام وغـيرها ، وعن مذهب دور كايم نقل الينا تلك الفكرة المادية الالحادية حين أعلن « أن الدين لم ينزل من السماء وانما خرج من الأرض كخروج الجماعة نفسها » .

وهذا بالنص من آراء دوركايم وقد واجه طه حسين وآراءه هـذه معارضة كبيرة فى ضوء مقاييس الفكر العربى الاسلامى الذى يؤمن بالفطرة والذى يعرف الأهداف الضخمة وراء دعوات أمثال دوركايم وهم من داخل مخطط الصهيونية العالمية الذى رسمته بروتوكولات صهيون حيث يقول : « لقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيتشه بالترويج لآرائهم وأن الأثر الهدام للاخلاق الى تنشه علومهم فى الفكر غير اليهودى واضح لنا بكل تأكيد » .

ودور كايم هو استاذ جاك الب وطه حسين قال عه العقاد :

« العالم الاسرائيلى رسول الماركسية فى ميدان العلم الاجتماعى نقـل آراء كارل ماركس من مباحث الاقتصاد والسياسة الى مباحث الاخـلاق ، مذهبه أن الفرد لا قيمة له ولا معنى لتنشئته بالحرية الفردية . انما القيمة كلها للمجتمع الذى يخلق الأديان والعقائد والاداب والقيم الروحية وكلها عبث لا قيمة له ما لم يكن نظاما من نظم الاجتماع » .

ويقول : لقد اخذ دور كايم يعمل بمعاول هدامة فى كل القيم والمفاهيم الدينية والاخلاقية واخذ تلميذه الأكبر اليهودى ليفى بريل ينهج نهجه ويسـير على طريقته : منهج التشكيك فى القيم والمثل والعقائد والاخـلاق والقاعدة التى يقوم عليها فكره هى أن كل الظواهر والمظاهر نسبية متغيرة متبدلة لا تثبت على حال ولا تستقر على وضع لأنها فى كل يوم يتبدل حال بحال ، وهم يهدفون من محاولة اعلاء شأن المتغيرات وحجب الثوابت التى تدور فى فلكها الى افساد المجتمعات وتحللها وقد جابهه كثيرون بدحض أفكاره فقالوا: اذا كانت الاخلاق نسبية فهل سيأتى الزمن الذى يعتقد فيه أن الصدق رزيلة وأن الشهامة شر او ان الشجاعة سوء أو ان العفة جريمة ؟ وفى مجـال العقائد قالوا له : هل سيأتى اليوم الذى لا نقول فيه بواحدانية الله أو لا نقول بارادته وعلمه : وهدف هذه الفلسفة اليهودية التلمودية هى تكملة رسالة ماركس وفرويد وخلق أجواء من الشك والانهيار للمجتمعات ، ومن أجل ذلك تكاتفوا واصبحت لهم الكلمة الأولى فى الجامعات وفى العلوم الانسانية .

دارون

اكتسب دارون شهرته الضخمة نتيجة لنظريته القائلة بالتطور ، وان الانسان تطور من الحيوان . وفى الحقيقة ان دارون لم ينكر وجود الله ولا أنكر قوة الخالق الذى خلق الخلية الأولى . وقد اشار صراحة الى أن الحياة فى الأصل بدأت بقدرة الخالق العظيم ، الخالق لأصل الأنواع ولم يقل دارون بالتولد الذاتى أو نفى الخالق وانما قال بذلك آخرون تلقفوا هذه النظـرية وارادوا أن يجعلوها قاعدة اساسية للفلسفة المادية التى انبنى عليها من بعد صرح ضخم من الفلسفة فيما يتعلق بعلاقة الإنسان بالحياة وعلم النفس ومنها انبثقت فلسفات الماركسية والفرويدية ونظريات دور كايم وغيره ، غير أن الطبقة الأولى التى حملت لواء الظرية وحولتها عن طبيعتها تتمثل فى لامارك وارنست هيكل وأوبارين ومن بعدهم جاء سبنسر ثم جاء كثير من الماديين الغـلاة .

ولا مارك قال بالتطور قبل دارون ولكن دارون كان اكثر اعتدالا منـه ولم يقل دارون بأن الانسان والقرد من اصل واحد أو أن القرد هو ابو الانسان الأول ، وانما قال بذلك الغلاة . ولم ينسب الحياة الى المصادفة ، وغيره هو الذى قال أن الحياة الأولى تولدت من المادة تولدا ذاتيا دونما اى تدبير من مدبر ، ولكن النظرية المادية كلها نسبت اليوم الى دارون وكل ما قاله دارون أن الانسان والمجموعة الشهيرة بالشمبازى منحدرن من أصل واحد ، وقـد وجدت نظرية دارون معارضة من كثير من العلماء فى مقدمتهم هكسلى تلميذ دارون الذى نفى أن الانسان قد انحدر من القرد ، كما أنكر وجود أى نوع من النبات أو الحيوان تشأ بالانتخـاب الطبيعى أو الانتخاب الصـناعى ، وكان اجاسيز فى مقدمة من عارضوا النظرية حينما قال أن النشوء لا يتم الا وفقـا لخطة الهية حكيمة ، وأن الاصطفاء الطبيعى اذا حل محل الخلق الالهى فان الاسان يكون قد جرد من روحه وعدآلة صماء وأن الفكرة التى يعتنقهـا الدارونيون عن تناسل نوع جديد بواسطة نوع سابق ليست الا افتراضـا اعتباطيا يتعارض والآراء الفسيولوجية الرصينة .

واكد العلامة « والاس » : أن يكون الانسان قد تم على طريقة التطور والارتقاء حيث قال : ان الارتقاء بالانتخاب الطبيعى لا يصـدق على الانسـان ولا بد من القول بخلقه رأسا .

وقال « فرخو » : انه قد بين لنا من الواقع أن بين الانسان والقرد فرقا بعيدا فلا يمكننا أن نحكم بأن الانسان سلالة قرد أو غيره .

وقد أشار فريد وجدى الى الاعتراضات الموجهة الى نظرية دارون فقال أنهـا :

(أولا) عدم مشاهدة أى ارتقاء من أى نوع كان فى الأحياء الأرضية من عهد الوف السنين .

(ثانيا) عدم وجود الصورة المتوسطة بين الأنواع اللازمة لمذهب التسلل ، كأن يوجد مثلا حيوان أرقى من القرد رتبة واحدة وادنى من الانسان رتبة واحدة .

(ثالثا) طول الزمان اللازم لحصول الترقى بين الاحياء فان عمر الأرض كما قالوا لا يكفى لاحداث كل ما يرى من هذه الأشكال المختلفة غاية الاختلاف .

وقال نديم الجسر : ان الحيوانات البحرية الدنيا باقية حتى اليوم على الحالة التى كانت عليها من ابتداء العالم ولم نجد انها تاثرت بناموس الارتقاء ولو كان ناموس الارتقاء أكيدا لوجب أن يكون الاعلى منها كذوات الفقرات قد وصل الى أعلى الطبقات .

وبعد : فان الخطر فى نظرية دارون لم يكن فى النظرية نفسها وانما كان فى محاولة تطبيقها على المجتمعات كما فعل سبنسر وبخنر ثم اتخذت بعد ذلك أداة هدم للاديان ، ولكل ما ليس ماديا من جوانب الغيب الخفية عن الحس والمشاهدة ، غير أن ما حققته كشوف الذرة فى الأعوام الأخيرة قد حطم هذه النظرية نهائيا .

هـ٠ج٠ لورنس

اذا كان فرويد هو مشىء مذهب التحليل النفسى على أساس الجنس وهو المذهب الذى عارضته كل المناهج الفلسفية والنفسية الأصيلة فان هـ.ج. لورنس هو أبرز من طبق هذا المذهب فى كتاباته ، أو كان هو بشخصيته وانتاجه رمزا على الانحراف الخطير فى الشخصية الانسانية حين يستعلى ويحاول أن يتصور أنه منطلق من منطلقات الحرية .

وقد عنى لورنس بتصوير أزمته النفسية تجاه العجز الجنسى الذى كان مصدره حب أمه له واسرافها فى احتضانه حتى فقد قدرته الحسية ، فكانت كتاباته ثورة على كل القيم . وقد كان أدب لورنس بالاضافة الى أوسكار وايلد فى انجلترا الى بودلير وبوست فى فرنسا ظاهرة من ظواهر الانحلال الخلقى التى عملت على تدمير المجتمع الأوربى بعد اشاعة الانحلال فيه ، وقد كان لدعوة لورنس الى تحبيذ الفوضى الجنسية أثرها البعيد فى المجتمع الانجليزى وشاعت قصة عشيق اللادى شارلى التى تصور امراة منحرفة متزوجة من رجل مريض ، وقد عكس لورنس آلام حياته واضطرابها فى قصصه ومات فى سن الخامسة والأربعين مريضا بالسل وكان خلاصة موفقة كما صوره أحد نقاده .

لقد ضحى لورنس بكل شىء حتى نفسه وبكل القيم الانسانية التى كان بغير شك يكتبها فى نفسه فكانت تسبب له فى حياته أشقى صراع وانقسام نفسانى ، وكان ذلك فى سبيل اشاعة الفوضى النفسية التى ارتدت اليه آخر الأمر وقتلته بعد أن جرعته غصص الشقاء فى حياته » .

نعم ، لقد خسر لورنس كل شىء وكسبت القوى التى حركت لورنس وأفادت من اثاره لتذيع دعواها الاباحية وتعمق هدفها من المفاهيم التى اعلنها فرويد وطبقها لورنس .

جبران خليل جبران

لمع اسم جبران خليل جبران لمعانا خاطفا فى الثلاثينات ثم لم يلبث أن انطفأ ، ذلك أن المذهب الادبى الذى حمل لواءه كان براقا مليئا بالظلال والاضواء استطاع أن ينفذ الى نفوس الشباب فى ظل اجواء غلبت فيها الوجدانية والمشاعر السائبة ، غير أن هذا التيار لم يستطع أن يثبت فقد اكتسحه تيار الأصالة العربية المستمدة من الجذور العميقة للبلاغة والبيان ، والمستمدة أساسا من القرآن ، فقد عمد جبران ومدرسة المهجر الشمالى الى اعلاء أسلوب التوراة . واتخاذ مزامير داود وكتابات العهد القديم نمطا من أنماط الكتابة العربية ، كخطوة تالية للخطوة التى حاول تحقيقها مترجمو الكتاب المقدس فى اللغة العربية حين رفضوا وضعه فى الأسلوب الفصيح

واصروا على بقائه فى اسلوب العامية ، ثم جاء جبران ونعيمة وغيرهم فحاولوا ان يتخذوا من هذا الأسلوب منهجا فى الكتابة وفتحوا كلماتهم بعبارات التوراة : « الحق أقول لكم ، فى البدء كان الكلمة » ثم اضافوا الى ذلك قدرا من العبارات المجنحة المضببة التى نقلوها من الشاعر الأمريكى ويتمن وظنوا أن زخرفة الورق وجمال الطباعة والاهتمام بالنشر بين شباب العرب سوف يفرض هذا اللون فرضا وستميل اليه الأذواق والأذهان ، غير أن صوت المنفلوطى فى اسلوبه العربى البليغ المستمد من القرآن لم يلبث أن غلب هذه الصيحات واقام معبرا يصل بين بلاغة الجاحظ وكتابات الزيات والرافعى وزكى مبارك وغيرهم مما اسقط اسلوب الظلال والأضواء ، الأسلوب الحالم الغريب الذى لا يتصل بالمزاج النفسى العربى ولا يستمد من اصالة اللغة والبيان العربى ، ولا يجرى مع طابع الأدب العربى وذاتيته التى ترفض كل دخيل ، وبذلك سقطت مدرسة جبران خليل جبران وما تزال تسقط بالرغم من محاولات احيائها من جديد .

أبو نواس

أعلن الدكتور طه حسين وجماعة التغريبيين من شأن عدد من الشعراء والكتاب محاولين اعتبارهم نماذج عليا فى الأدب العربى ، فى نفس الوقت الذى هاجموا وزيفوا فيه حياة آخرين ، وكانت المقابلة هى :تزييف المتنبى واعلاء أبى نواس .

ولقد اعتبر طه حسين (ابو نواس وبشار ومطيع وحماد عجرد والخليع) هم مثل لعصرهم بينما لم يكن هؤلاء فى الحقيقة الا ثلة من المنافقين الخلعاء الذين كانوا موضع كراهية المجتمع واحتقاره لسلوكهم الاجتماعى ، أما بالنسبة للادب العربى والفكر الاسلامى فقد كانوا مجموعة من الشعوبيين الذين لا يمثلون الروح العربية ولا المزاج الاسلامى ، وقد كانوا فى الأغلب من زنادقة الفرس المجوسيين فكريا بالرغم من التصاقهم بالمجتمع العربى الاسلامى .

وقد رد بعض الباحثين اضطراب حياة أبى نواس الى وضعه الاجتماعى وموقفه من أمه (جلبان) وقد اشار بعضهم الى أنه أدركته عقدة أوديب فأحب أمه وكلف بها كلفا بلغ الهيام ، مما أفسد عليه الحياة الاجتماعية من بعد فكلف بالخمر واتخذ منها غاية وافتتن بها ، وقد وصف الخمر وغلا فى وصفها وقال فيها ما لم يسبق اليه .

أما أم أبى نواس (جلبان) فقد ظلت سوء صفحتها تطارده وتفسد عليه حياته ، فقد تركها زوجها هانى (أحد جنود مروان) وتوفى فكانت تعـــانى وولدها شظف العيش حتى فارقت الأهواز واستقرت فى البصرة واصبح بيتها مباءة الغاوين والضالين ، فلما وعى ابو نواس وادرك أحاديث الناس عن أمه مال عنها والتحق بالغواة فعب من الخمر ما ينسيه تلك الأحاديث التى كانت تصيب منه مقتلا وتجرح كرامته ، ثم التحق بوالبة بن الحباب الذى بصره بقول الشعر وأغرقه فى بحار الملذات واللجوء الى الحانات فانتقـــل به الى الكوفة والبادية لتقويم لسانه واطلاعه على أقوال العرب . ثم كانت عودتهالى البصرة والتزامه خلف الأحمر الذى حفظه من شعر العرب الف قصيدة ثم أمره نسيانها . وانتقل الى بغداد فعب من اللذات ما شاء واحب من الجـــوارى العابثات (جنان) وتغزل بها وبعدها ثاب الى رشده » (طه حسين : خصام ونقـــد) .

وقد كان لاضطراب حياته بين موقفه من أمه وحبه لجنان ما انشـــأ فى نفسه مذهب النرجسية ، (ثم مضي اسرافا فى المجون واغراقا فى العبث وغلا فى الاعتداد بنفسه حتى لم ير غيرها ففتن بنفسه) .

ومما يصفه به خصومه واصدقائه على السواء أنه كان شعوبيا ، وأغرق فى التنكر للعرب والسخط عليهم ، ثم اتخذ (أبو نواس) رمزا للاســـتهتار والازدراء بكل شىء واهدار كل قيمة .

وكان لطه حسين اكبر الفضل فى اذاعة شعر ابى نواس وتقريره على طلبة وطالبا تكلية الآداب وامتحانهم فيه ، وهو شعر الغزل الحسى والغزل المذكر وقوله فى تبجح شديد « ان هذه الفنون من جد ابى نواس ودعابته ليست خطرا على الشباب ، لاتفسد أخلاقهم » وهذا ولا شك يفى للتدليل على أن طه حسين بعد أن بلغ هذه السن لا يزال مصرا على ما قاله عـــام ١٩٢٤ فى مطالع الشباب ولا يزال داعيا اليه ، وقد كنا ظننا أنه قد تاب وأناب عن اسرافه وخطئه .

هـــرتزل

كانت دعوة « هرتزل » الى الدولة الصهيونية التى أعلنها ١٨٩٧ بـــدء تاريخ جديد فى الفكر العربى الاسلامى المعاصر ، وقد حاولت الصـــــحافة

الأدبية والسياسة فى الثلاثينات من اعلاء شأن هرتزل وخليفته ماكس نوردو وحفلت الهلال والمقتطف والأهرام والعصور والمجلة الجديد باذاعة ما اسمته « السامية » وجرى ذلك كله داخل اطار المحافل الماسونية التى كانت قد انتشرت فى البلاد العربية باسم البنائين الأحرار الذين كانوا يعملون الصهيونية على النحو الذى نعرفه باسم اعادة بناء هيكل سليمان ، ولم تكن فى هذه الفترة قد توافرت أبعاد الحركة ، ولم تكن قد كشفت بعد العلاقة بين هرتزل وبين ماركس وفرويد ودوكايم ، وقد انكشفت هذه العلاقة فى السنوات الأخيرة واستعلنت الصلة بين دعوات التحلل الخلقى والاجتماعى وبين الصهيونية العالمية وكان من أبرز ما كشف عام ١٩٥١ تقريبا هو « بروتوكولات صهيون » التى عرفتها أوربا منذ عام ١٩٠٢ وظلت محجوزة عن الشرق الاسلامى حوالى خمسين عاما ، حتى لا يتعرف المسلمون والعرب على المخططات التى وضعت للقضاء عليهم وتدمير مقوماتهم والاستيلاء على فلسطين .

ولقد كان هناك زيف كثير وتمويه كبير للتغطية على موقف من أخطر المواقف التى واجهها هرتزل ذلك هو موقف السلطان عبد الحميد الذى عارض اغراءات وتهديدات الصهيونية العالمية التى حملها اليه هرتزل واعلن رفضه البات عن اتاحة اى فرصة لليهود لاقامة اى وضع لهم فى فلسطين وكان هو وملكه والدولة العثمانية ضحية هذا الموقف الشريف ، فى نفس الوقت الذى وجهت اليه الصهيونية العالمية حملة عاتية عن طريق الصحافة العربية تتهمه فيها بالاستبداد والظلم ، وقد سجل هرتزل فى مذكراته تلك العبارات النارية التى وجهها اليه السلطان عبد الحميد اباء وحفاظا على أرض الاسلام .

ابن المقفع

احتفل دعاة التغريب بابن المقفع واعلوا من شأنه حتى لقد بلغ بهم القول بأنه هو الذى ادخل النثر الفنى الى الأدب العربى ، وقد كان هذا فى الحق تمويها ومحاولة لانكار أثر القرآن الكريم فى الأدب العربى ونسبةالبلاغة العربية الى الفرس .

والواقع أن ابن المقفع لم يكن الا داعية من دعاة المجوسية أعلن اسلامه تقية وتخفيا حتى يحقق اغراضه ، وأن ما نقله الى الأدب العربى من الأدب

الفارسى كان واضحا فيه تعمد اذاعة الفكر الوثنى فقد قدم كتاب مزدك ثم كتاب برزويه وكان هدفه من هذا اذاعة الشبهة حول وحدة الأديان والقول بتناقضها وعندما كتب تاريخ الشعوبية والحملة الباطنية الحاقدة على الاسلام اعتبر ابن المقفع واسمه (روزبه) فى مقدمة العاملين فى هذا المجال ومن دعاته الأول ، وقد سجل ذلك الدكتور على سامى النشار فى كتابه (مقدمة مناهج البحث عند مفكرى الاسلام) وقال أن روزبه القديم عبد الله بن المقفع كان اكبر طاعن على الاسلام وأن كتابه : مرزدك وبزويه (الواقع فى مقدمة كليلة ودمنه وليس منها) انما قصد بهما اثبات تناقض الأديان وبخاصة الاسلام وعدم يمينها فضلا عن ان باب برزويه يحاول التشكيك فى القرآن بالخطأ والتناقض والدعوة الى أن الفلسفة هى طريق اليقين .

وكان الدكتور طه حسين هو مقدمة من أعلوا من شأن ابن المقفع جريا وراء ما ردده المستشرقون من أثره فى الأدب العربى نتيجة تأثره بالثقافة اليونانية وذلك متابعة للمذهب الغربى الوافد الذى ينسب كل شىء من عظمة الأدب العربى أو الفكر الاسلامى الى اليونان أو الفرس أو الفكر الوافد ، تجهيلا لأثر القرآن الذى هو المصدر الحقيقى والأساسى للفكر الاسلامى كله .

ولقد أسلم ابن المقفع اسلاما فيه ريبة ، وكتب فى الزندقة كتبا كثيرة رد عليها المسلمون ، وقد انتهى به أمره شر نهاية . ولقد شهد النقاد بأن أسلوب ابن المقفع لم تكن فيه اصالة العربية ولا روعتها ، وشهد بذلك طه حسين نفسه حين قال ان ابن المقفع عندما يتناول المعانى الضيقة التى تحتاج الى الدقة فى التعبير يضعف فيكلف نفسه مشقة ويكلف اللغة مشقة وأن الأصمعى لاحظ أنه يلحن وأخذ عليه الجاحظ انه لم يكن يحسن ما يحاول من الفنون .

ومن عجب ان يحاول لدعاة التغريب وضع هذا الرجل المجوسى على رأس النثر الفنى فى الأدب العربى بعد نزول القرآن بأكثر من مائة عام ، والقرآن لا شك هو المصدر الأول للنثر الفنى فى اللغة العربية والأدب العربى الذى لم يعرف هذا الفن من قبل ، قال السيد المرتضى فى أماليه قال جعفر بن سليمان روى عن المهدى أنه قال ما وجدت كتاب زندقة قط الا وأصله لابن المقفع ويروى البعض انه مر ببيت النار بعد اسلامه فتمثل بقول الأحوص :

يا دار عاتكة التى اتعـــزل حذر العدا وبك الفـــؤاد موكل
انى لأمنحك الصـــدود واننى قسما اليك مع الصدود لأميل

يقول الجاحظ : انه كان يجتمع على الشراب مع مطيع بن اياس ووالبة بن الحباب وبشار بن برد وأبان اللاحقى فيهجو بعضهم بعضا وكل منهم متهم فى دينـــه .

هذه هى حقيقة ابن المقفع ، أما ما أورده احمد أمين ، وبطرس البستانى وغيره ممن زخرفوا صورته فمردود والوقائع الصحيحة تنقضه .

هنرى الملاح

وصفت الكتب المدرسية العربية هنرى الملاح بأنه عالم جليل ومكتشف جرىء ، والحقيقة أن هنرى الملاح شأنه شأن البوكرك وولفنجستون وغيره هم من طلائع الاستعمار الذين كانوا مدفوعين الى الشواطىء العربية والاسلامية الافريقية بدافع الانتقام والحقد والتعصب الدينى بعد أن تعاهدت اســـبانيا والبرتغال على اثر سقوط دولة العرب والمسلمين فى الأندلس على اقتحـــام العالم الاسلامى واستعماره والسيطرة عليه .

وهنرى الملاح البرتغالى الذى ورد اسمه فى كتب التاريخ بالمتجيد هو واحد من غلاة الاستعمار المتعصبين وقد بدأ حياته بحملة حربية ضارية على مدينتى : سبتة وطنجة العربيتين الاسلاميتين ثم اسس مدرسة بحرية ضمت رجالا وجههم بالتعصب الى قتال المسلمين ثم خوله البابا نيقولا الخامس حق الفتح والاستيلاء فى جميع البلاد حتى الهند وقد وصفه البابا بأنه رافع لواء النصرانية فى البلاد النائية .

وكان مثلا مزريا فى الحقد على الاسلام والمسلمين والاندفاع وراء هدف الاستعمار المغلف بالتبشير شأنه شأن هذه الطلائع جميعا التى كانت من اعداء العرب ، ومع ذلك فقد حاولت الكتب التاريخية المدرسية أن تضعه فى صورة البطولة الخادعة .

أبو ذر الغفـــارى

حاول الكتاب فى العصر الحديث اضفاء هالة ضخمة من المجد حول شخصية ابو ذر الغفارى تخرج به فى الحقيقة عن نطاق الدور الذى قام به والتاريخ الصحيح الذى سجلته له كتب السيرة ولنا على موقــف أبى ذر ملاحظات :

(الأولى) الدور الذى قام به (عبد الله بن سبأ) وما القاه الى أبى ذر من راى فى المال كان مصدر الخلاف بينه وبين معاوية ومصدر متاعبه كلها . ذلك ان ابا ذر كان صادقا مخلصا يندفع وراء ما يرى انه الحق بينما كان عبد الله ابن سبأ يدبر مؤامرة كبرى للمسلمين .

(الثانية) أن ما يراه ابو ذر يختلف عما كان يراه النبى صلى الله عليه وسلم ، فالمعلوم المتواتر عن النبى انه كان يأخذ جزءا من المال ويترك الباقى لصاحبه وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم : « ليس فيما دون خمس أواق صدقة » (أى زكاة) .

وهذا يختلف مع دعوة ابى ذر الى عدم جواز ادخار الذهب أو الفضة بعد اداء زكاتهما : يقول العلامة الامام عبد الحميد بن باديس .

(اخذ ابو ذر بظاهر قوله تعالى « والذين يكنزون الذهب والفضــــة » وقد جاءت النصوص الصحيحة الصريحة بأن الأخذ انما يكون لبعض الأموال، فقوله تعالى « ولا ينفقونها » معناه : ولا ينفقونها كلها وهــؤلاء هم الذين لم يعطوا شيئا منها وهم مانعو الزكاة فلا تصدق الآية على الذين أنفقوا) .

وقال : لقد اصاب ابو ذر فيما اختاره لنفسه من الزهد وعدم الادخار ولكنه أخطأ فيما اراد من حمل الناس على حالة لم يوجبها الله عليهم ولن يستطيعوها ، وقد خالف ابو ذر اجماع الصحابة بنظريته السابقة مع قيـــام الدليل القطعى من النقل المتواتر ، والنصوص القرآنية الكثيرة المتضافرة على خلاف رأيه .

وكان خلافه هذا فى مسألة من كبريات المسائل ، ومع ذلك فقد تركوا له حرية النظر ولم يلق منهم من اجلها اذى ، وهم لم يتعرضوا له فى نظـــره أو اجتهاده الا عندما خشوا من بثه الفتنة فى الناس .

ويحاول المعاصرون أن يصوروا الموقف بالنسبة له كأنه النفى أو الاخراج ، ولكن النصوص والوثائق تغاير ذلك .

فقد عرض عليه الخليفة ما يراه أصلح له فاختار (الربذة) أو هو استأذن عثمان فى الخروج ،وعلى كلتا الروايتين لم يأمره عثمان بالخروج حتى يقال أنه قد نفاه .

وقد أرسل اليه عثمان : أن تعاهد المدينة حتى لا ترتد اعرابيا وقد نهى المسلمون عن التعرب بعد الهجرة لما فيه من الانقطاع عن الجماعة كما اقطعه عثمان صرمة من الابل .

السلطان جلال اكبر

أمضى السلطان جلال الدين محمد اكبر عشرين عاما متدينا وبعد وضعه أساس الدين الجديد لسنوات قليلة انقلب فجأة ولم يبق اى اثر لدين الاسلام فى قلبه بل أنه ابدى كل مظاهر العداوة للدين الاسلامى دين آبائه واجداده واصبح رجلا آخر يتبع زيف الدنيا ووضع أساسا لدين جديد هو دين (الهى) وقد انشأ اولا دارا خاصة فى فانجبور سكرى سماها (عابدة خانة) دعا اليها والعلماء من السنة والشيعة وذلك لتوحيد المذهبين وتعريب وجهات النظر لكن تلك اللقاءات جاءات بنتائج عكسية حيث وسعت شقة الخلاف مما دفع بعض العلماء اتهام بعضهم البعض بالكفر والالحاد والمروق عن الدين وخرج السلطان أكبر من تلك الاجتماعات وقد التمعت فى رؤسه فكرة أراد أن يحتقها مهما اعتورته من المصاعب الا وهى توحيد جميع الأديان فى الهند بدين جديد .

فى عام ١٥٨٢ م دعا (أكبر) كبار علماء الدين الاسلامى والمسيحى والزرادشتى ، والجافى ، والهندوسى ، وكبار قادة الجيش الى حضور اجتماع عام يعقده فى دار خانة وقد تحدث السلطان فى ذلك عن ضرورة توحيد الأديان فى دين واحد .

وذلك للحفاظ على وحدة الهند ونشر على المجتمع آنذاك مبادىء أساسية لدينه الجديد الذى سماه (دين الهى) وقد أشهر السلطان اكبر مبادىء دينه الجديد من الاسلام والمسيحية والهندوسية والزرادشتية واعتبر أن التوحيد أساس دينه جديد على أن يعتمد على الاسس الزرادشتية والهندوسية وأنه خليفة الله فى الأرض .

وسمح بوضع الخنازير فى العصر الامبراطورى واعتبر النظر اليهـا عملا يستحق التقدير ، وحرم تربية اللحى التى كانت شعار المسلمين فى الهند آنذاك ونفى اعدادا كبيرة من علماء المسلمين وشيوخهم سواء الذين عارضوه أو الذين التزموا موقف المتفرج ، واستبدل التقويم الهجرى بتقـويم جديد سماه (التقويم الالهى) يبدأ منذ جلوسه على العرش ومنع ايضا ختانة الأطفال قبل سن الثانية عشرة وزواج البنات قبل سن البلوغ وحارب دراسة اللغـة العربية ومنع الاذان فى المساجد واداء صلوات الجامعة فى المساجد وغيرها.

وأمر بتغيير الاسماء الاسلامية أمثال محمد ، احمد ، مصطفى وغيرها لأن تلك الأسماء سببت للسلطان اكبر القلق والضيق وأمر بايقاف الحج الى مكة المكرمة ومنع صيام شهر رمضان وحرم دراسة القرآن الكريم والحديث الشريف .

وحول المساجد والجوامع الى مخازن وجعل شعار اتباعه الله اكبر يعنى به أن اكبر هو الله .

ولم يقف عند هذا الحد بل سمح لزوجاته الهندوسـيات الاحتفـاظ بديانتهن والقيام بشائر دينهن داخل قصره وفى جميع معارضيه من علمـاء الاسـلام واضطهدهم وشردهم وسمح للارساليات البرتغالية بالتبشير فى دولته وسلم ولده سليم الى رجال الارساليات للتجربة وليرى اثر التعاليم المسيحية فى عقله .

وقد وقف أمام السلطان اكبر واقام بدعته البدء (بدعة دين الهى) جميع رجال الدين السنيين . وقد واجه كثير منهم عقوبة الموت وبعضهم ذاق الوانا من العذاب فى سبيل الدفاع عن دينهم دين الحق : دين الاسلام .

وقد ترأس دعوة محاربة الالحاد والزندقة آنذاك العالم الفضل الشيخ « احمد سرهندى » ١٥٦٤/١٦٢٥ حيث نظم حركة واسعة لمعارضة هـذه البدعة الكبرى تلك البدع الالحادية فاتصـل بكبار قواد الجيش وكبـار الموظفين يحذرهم عاقبة الفتنة العمياء التى اطلت برأسها والتى تريد تحطيم الدين من الداخل .

١٥٦٦ — ١٦٠٥ م

وبعد موت سلطان اكبر سجن السلطان جهانجيز العالم احمد سرهندى فى سجن العاصمة فبث الشيخ العالم روح الاسلام بين المساجين الذين آمنوا وادوا الصلوات فى أوقاتها وتحولوا من الكفر الى الاسلام فكتب مدير السجن الى السلطان يعلمه جلية الأمر مما دفع السلطان الى اطلاق سراح الشيخ ووقف معه فى مكافحة البدع والالحاد والمروق من الدين والغى تعاليم دين الهى الذى وضعه السلطان اكبر ، ورجع الاسلام الى نقاوته والمسلمون الى حريتهم الكاملة فى ممارسة فروض الدين علنا بعد أن أمضوا فى محفتهم اكثر من ثلاثين عاما .

« مرشد دبور »

المأمون

أن الصورة اللامعة التى رسمها الاستشراق والشعوبيون للمأمون ليست صحيحة على اطلاقها فقد كان النقل والترجمة من الفكر اليونانى قبل المأمون مشروطا بالعلوم والطب والفلك ولم يفتح باب ترجمة الفلسفات المسيحية والوثنية والغنوصية الا فى ايام المأمون الذى شجع هذه الوجهة وافسح لترجمة كتب العقائد والاخلاق اليونانية أو ما كان يسمى عندهم علم الأصنام واعطى جنين بن اسحق وزن ما يترجمه ذهبا فكان هـذا يبحث عن الرقاق الغلاظ والثقال ويفسح الحروف حتى يكثر من ثمن ما يترجم .

واخطر مقاتل المأمون فتنة خلق القرآن وحمل الناس عليه .

كان المسلمون يترجمون من الكتب قبل المأمون : كتب الطبيعة والفلك والاحياء وغيرها فى مجال الكون المادى ولكنهم كانوا لا يرون ذلك بالنسبة لعقائد الأمم ويعتقدون أن ما لدينا هو أصحها فنحن فى غنى عنها .

ان العقيدة الاسلامية مصدرها القرآن والقرآن كلام الله فكيف يتأتى لقوم أن يتركوا كتبا بالله الى كتب بشر فيها الخطأ والصواب فالمأمون هـو الذى فتح هذه الثغرة ودخلت تلك الترجمات الى الجو الاسلامى فأفسدته ، وأثارت الجدل ، وظهرت البدع والوثنيات والتأويل والجدل وأشراب الملاحدة فى عصره ، واحتضن فكرة خلق القرآن وحمل الناس عليها على النحو الذى كان بعيد الخطر على مفهوم السنة الجامعة .

كذلك يرى الباحثون أن كارثة النزوع الى الاستعجام وقعت فى أيـام المأمون حيث بدأ الدل بمفاخر ايران وكسرويتهم وعنجهية الفرس ، ولمـا زار المأمون دمشق قبل وفاته بسنوات تعمد رجل من عقلاء أهلها ان يواجهـه بخطئه هذا ولو كان فيه حتفه ، ولا سيما ودمشق حديثة العهد بالانقضاض على بنى العباس ، تعرض رجل للمأمون وقال له :

يا أمير المؤمنين : انظر العرب اهل الشـام كما نظرت العجم اهـل خراسان فكان المأمون يتصامم عن نداء الدمشقى فى المرات الأولى حتى اذا زور فى نفسه جوابا على ما احدث فى الدولة من بدعة استوقف الرجل فى المرة الأخيرة وقال لى : اكثرت على ايا اخا الشام ، والله ما انزلت قيسـا عن ظهور الخيل الا وانا ارى انه لم يسبق فى بيت مالى درهم واحد ، اما اليمن فوالله ما أحببتها ولا احبتنى قط ، أما قضاعة فسادتها تنتظر السفيانى وخروجه فتكون من أشياعه ، أما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مصر ، ولم يخرج اثنان الا خرج أحدهما شاريا (أى ثائرا) اغرب فعل الله بك .

وسوف لا ينسى التاريخ للمأمون موقفه الظالم من فتنة خلق القـرآن وايغاله فيها وحمل الناس عليها بعد ان خدعه بشر المريسى وحمـله على الاعتقاد بخلق القرآن . فقد أخطأ المأمون الواسع العقل العميق الثقافة فى تبنى مسألة فرعية كهذه ثم اعتباره اياها رأس المسائل وبذلك فتح الباب أمام أصحاب النحل والعقائد والملل المختلفة ان يتكلموا فى مجالسـه ، وكذلك الشعراء ، وقد ارتبط عصره بازدهار حركة النقـل والترجمة وخاصـة من اليونانية والفارسية فأرسل البعوث الى القسطنطينية وغيرها لاحضـار المصنفات التى تغافل عنها المسلمون منذ بدء عصر الترجمة ، وهى الفلسفة الالهية اليونانية المعروفة بعلم الأصنام ، وقد طلب هذه الكتب من امبراطور الروم وصاحب جزيرة قبرص وسارع أحد رجال الدين المسيحى باجابة الطلب قائلا : الرأى ان نعجل بانفاذ هذه الكتب الى الخليفة فان هذه العلـوم ما دخلت دولة شرعية الا افسدتها واوقعت بين علمائها وقد صدق رأى هـذا القسيس فان حنين بن اسحق أشهر المترجمين كان يدين بالنصرانية على المذهب النسطورى وقد تولى الترجمة من اليونانية الى العربية وأسند اليـه المأمون بيت الحكمة فأفسد الترجمة وادخل فيها مفاهيم المسيحية وجعلها وسيلة للدعاية لنحلته ومع ذلك فقد احرز عنها أعلى الأجور وأضخمها ، وكان

المطلوب ترجمة كتب العلوم فترجموا الفلسفة وادخلوا مفاهيمهم فيها ، وكان حنين بن اسحق يكتب على ورق ثقيل وسطور متباعدة ويزن له المأمون الأجر ذهبا وقد تحيز المأمون الى المعتزلة والاعتزال وقال له يحيى بن أكثم قاضى القضاة : الراى ان تدع الناس على ما هم عليه ولا تظهر لهم انك تميل الى فرقة من الفرق فان ذلك اصلح فى السياسة ،وقد عزله المأمون وولى احمد بن الى دؤاد الذى سار بالأمر الى مسيرة العنف وقد امتد الأمر فى خلافة المعتصم والواثق خلال سبعة عشر عاما والامام احمد بن حنبل يواجه الموقف فى صمود وعنف قائلا : ان القرآن كلام الله غير مخلوق . وبالرغم من أن رجلا جريئا مثل عبد العزيز بن يحيى الكنانى تلميذ الشافعى اندفع من مكة الى بغداد يناظر رجال المأمون ويهزمهم فان المأمون لم يرعو للحق .

(اقرأ قصته فى كتابنا : اضواء على التراث الاسلامى)

عبد الرحمن الكواكبى

ان الكتابة عن الكواكبى فى العصر الحديث غفلت عن جملة حقائق اساسية فى حياته ، ذلك انه حين جاء مصر كان الخديو عباس حلمى على خلاف مع الخليفة العثمانى وكانت جريدة المؤيد التى يصدرها على يوسف لسان حال الخديو قد اخذت تهاجم الدولة العثمانية وتدعو الى خلافة عربية . وقد تأثر الكواكبى بهذا الاتجاه وسار فيه وحمل على الخليفة حملات شديدة فى مقالاته التى جمعت من بعد تحت اسم طبائع الاستبداد ، وقيل أن كتابا ايطاليا يتضمن نفس المعانى تأثر به الكواكبى . ولكن الكواكبى على كل حال كان على خلاف شديد مع مفهوم الجامعة الاسلامية الذى دعا اليه السلطان عبد الحميد وكانت تغلب عليه روح القومية التى سرت اذ ذاك فكانت دعوته الى خلافة عربية موضع امل خصوم الاسلام من المارونيين والمستعمرين ، ولذاك فقد تلقفوا افكاره واذاعوا بها واعتبروها مصدرا يعتمدون عليه فى هدفهم غير المعلن لهدم الخلافة الاسلامية وقد صور هذا المعنى السيد رشيد رضا فى ترجمته للكواكبى حين قال :

لقد كانت افكار الكواكبى السياسية مبنية على قواعد فيها اليأس من الدولة العلية ولم يكن يريد أن يكون الخليفة القرشى الذى يخلف الخليفة التركى سلطانا حاكما سائسا للعرب او لغيرهم وانما كان رأيه أن يكون رئيسا دينيا ينظر فى مصالح الحالين الروحية والأدبية وترقيتها .

وبهذا المعنى يكون الكواكبى غير اصيل الانتماء الاسلامى وانما كان متأثرا بفكرة البابوية المسيحية ومن هذه الناحية فقد عنى به كتاب التغريب والشعوبيون والماركسيون فى السنوات الأخيرة واشادوا به وخدعه الخديو حين عاد الى الصلح مع الدولة العلية وفقد وجوده كلية لأنه تابع الحاكم ولم يرد بعمله وجه الله تعالى .

اخنــاتون

تردد كثيرا اسم اختاتون على انه أول الموحدين وهى دعوى باطلة فان الذين حملوا لواء التوحيد فى ظل الديانات السماوية كان هدفهم واضــحا ، وكانت وجهتهم خالصة الى الله تبارك وتعالى ، أما اخناتون فان توحيــده الذى يتشدقون به كان قاصر على أنه وحد عبادة الأصنام فى عبادة واحدة هى عبادة الشمس ، وقد أشار القرآن الى هذه العبادات حين قال « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ان كنتم اياه تعبدون » .

ان عمل اختاتون لم يتعد أكثر من أنه محا اسم الاله آمون من جميـــع الهياكل وأزيلت الاشارات الدالة عليه واستبدلت باسم الاله آتون واشاراته، وكان أتون فى نظره يمثل قرص الشمس كما يظهر عند الغروب مكتمل الشكل فى موكبه المحفوف بالمجد كما يقولون .

وقد وصفوا هذه الحركة التى قام بها اختاتون : انها ثورة على الدين مصحوبة بنزعة للتوحيد ، وثورة على الكهنة ورجا لالدين وتحكمهم فى جميع شئون الدولة اكثر مما كان الدين نفسه الذى كان يقول بالوهية الشمس .

وهكذا نجد أن دعوى القول بأن اختاتون هو أول داعية للتوحيد هى دعوى باطلة ، فقد كان غارقا فى الأصنام وعباد ةالكواكب بينما كانت الدعوة الى عبادة الله الواحد سائرة من قبله وبعده على لسان ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب ويوسف .

زويمــر

لماذا اختار قيادة حركة التبشير مدينة البحرين عام ١٨٩٣ مركزا لدعوتهم فى الخليج والبلاد العربية كلها فأوفدت اليها القس زويمر فأقام بها بضــعة

وعشرين عاما يتنقل خلالها فى مختلف العواصم الاسلامية ، ان الاستاذ مبارك الخاطر يحث على ذلك بأن هذه المنطقة كانت متقدمة تقدما فكريا واضحا ، وكانت ذات صلة بالنهضة الاسلامية التى قادها جمال الدين ومحمد عبـــده ورشيد رضا ، وكان لها مشاركة فى المنار والصحافة الاسلامية ، منذ ذلك الوقت البعيد وقد واجه القاضى المجاهد الشيخ قاسم بن مهزع هذه الحملة التبشيرية ، وقاومها مقاومة واضحة وكشف مخططها . فقد كانت البحرين بين بلاد الخليج العربية المشمولة بالحماية البريطانية منذ ١٨٢٠. وكانت عبر تاريخها فى تجارة اللؤلؤ مهبط الأغراب من جنسيات مختلفة ووصلتها طلائع التبشير البرتستانتى وبها الايرانى والهندى والافريقى والاوربى ، ومن ثم أصبحت مكانا مناسبا لاتخاذها قاعدة للتبشير البروتستانتى فى الخليج وعمان.

وقد كانت مدية المنامة هى مركز الارسالية فى البحرين وكان العمـــل التبشيرى فى جزر البحرين وسواء الاحساء وعمان يدار من مركز المنامة .

ولقد وصل القس صمويل زويمر الى المنامة ١٣١٠ هـ ١٨٩٤ م وبعض رفاقه واستأجروا بيتا ثم بدأ زويمر يتصل بالناس فى الأسواق ويناقش الشباب منهم فى أمور الدين باللغة العربية التى كان يجيدها .

ومنذ عرف القاضى قاسم بن مهزع بأمر وصوله وجماعته فقد قام ولم يقعد ، اذ حاول أول الأمر أن يخرجه من البلاد لولا تدخل المندوب البريطانى فى الخليج ، ومن هنا عمد ابن مهزع الى محاصرته وكشف زيفه والتضـــييق على جماعته وبث العيون لرصد حركاته وتوعية العامة عن طريق العلمـــاء والتجار بأغراض المبشرين مما أغلق الطريق أمامهم ، ولذلك فان زويمر قــد واجه نفورا شديدا من كل من لقيه وحاول التحدث اليه ، وكان زويمر يقول للشبا ب: انه جاء فى بلادهمضيفا عليهم واذا لم يقبلوه فهو ضيف الله وكانوا يقولون له : لست بضيفنا و لاضيف الله : أنت ضيف الشيطان . وظل هؤلاء الفتية يذكرونه حتى حين زارهم بعد فى جامعة عليكرة سنة ١٩١١ فلما دخـــل عليهم قالوا له : اهلا بضيف ابليس فقال لهم : الى الآن لم تنسوها .

وقد ضاقت أول الأمر أرض البحرين على القس زويمر ورفاقه فغادرها الى الاحساء ، وطرده الوالى التركى ثم عاد الى البحرين ثانية واستأجر فى المنامة بيتا وجعله مدرسة لتعليم اللغة الانجليزية ومكتبة عامة بها قسم لبيع كتب التوراة والانجيل ، وبدأ عمله بين طلاب المدرسة ورواد المكتبة وعده

فى ذلك ادواته من خرائط وكرة ارضية وفانوس سحرى والقى محاضرات على المسلمين اثناء تمثيل حوادث التوراة بالفانوس السحرى والخرائط الاحصائية عن ارتقاء ممالك النصرانية وانحطاط ممالك الاسلام .

واستعان زويمر بالمقيم السياسى البريطانى فى أن يكون مقره مركـــزا للتبشير واشترى قطعة الأرض التى بنى عليها مستشفى ماسون الامريكى ، وصمد أهل البحرين وخاصة الشباب أمام صمويل زويمر . ويذكر الفضـــل لأحمد بن مهزع وابراهيم من الخليفة وقاسم بن مهزع وفضـــل الذكر الذين قاوموا زويمر وحاربوا خططه فى البحرين وكانوا من تلاميذ مدرسة المنـــار والمؤيد .

وقد واجه أهل البلاد كما يقول مبارك الخاطر فى كتابه عن الشـــيخ قاسم بن مهزع مع قلة عددهم وصغر مساحة بلادهم خطة محكمة لتنصيرهم بأجمعهم ، واجهوها وهم قلة فى العدد لا يصلون الى ١٥٠ الف مجموعة عمل تبشيرى ابتدأت العمل فى تنصيرهم بثلاثة عشر مبشرا ومبشرة ، وبعضهم يجيد العربية اجادة مطلقة وست مؤسسات تبشير بالرغم من سلطة الحمـــاية البريطانية فى البحرين ممثلة منها الحماية بروتستانتية والتبشير بروتستانتى والتقى زويمر بابن مهزع وليس فى جعبته غير اجادته اللغة العربية اجادة تامة ، وغير وقوعه هو وأمثاله تحت تأثير تلك الدراسات اللاهوتية ، وامتد الصراع بينهما خلال ثلث قرن من الزمان ، وقد ركز هزاع على الشباب فى توعية شاملة بأغراض المبشرين البعيدة الأثر ، وكان يقرأ لهم العروة الوثقى، ودعا جماعة من تلاميذه لتعلم اللغة الانجليزية ، وقال لا بأس فنحن من خلفهم فتعلموا منهم اللغة وارفضوا اللاهوت ، بل وادخلوا فى مناقشات مع المبشرين وكان الشيخ يوجههم الى طريقة الجدل ، وكان زويمر يمر بمجلس الشـــيخ ويناقشه وكانوا يمارسون تبشيرهم بطرق خفية ومموهة بالكلام عن الحضارة الجديدة وانها من صنع المسيحيين ، بينما المسلمون لا يستطيعون أن يشاركوا فيها ، وقد شهد زويمر على نفسه بالفشل حين قال فى مؤتمر القدس عـــام ١٩٣٢ أن امله قد خاب فى تنصير العالم قاطبة فى مدة ٢٥ عاما ، وقال اننا لا ستطيع ادخال المسلمين فى حظيرة المسيحية فهم لا يفضلون ترك الاسلام الى غيره الا أننا قد نستطيع اخراجهم من الاسلام فقط بتشكيكهم فيه كنظام .

وكتب فى مجلة العالم الاسلامى الانجليزية يقول : ان لعمل ارساليات التبشير فى البلاد مزيتين : مزية تشييد ومزية هدم ، تحليل وتركيب ، أن خطر

المبشرين من التغيير الذى اخذ يدخل على عقائد الاسلام ومبادئه الخلقية فى البلاد العثمانية والقطر المصرى اكثر بكثير من خطر الحضارة الغربية فيه.

وقال شاتليه : لا شك أن ارساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الاسلامية فى نفوس معتنقيها ، ولا يتم ذلك الا ببث الأفكار التى تتيسرب مع اللغات الأوربية فبنشرها اللغات الانجليـزية والهولندية والألمانية يحتك الاسلام بصحف أوربا ويمتد السبيل لتقدم اسلامى ماضى ، وتقضى ارساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الاسـلامية التى لم تحفظ كيانها وقوتها الا بعزلها وانفرادها .

والمعروف أن زويمر جرب حظه مرة اخـرى فى مصر واقتحم الأزهر الشريف ووزع منشوراً عنوانه « لماذا لا ترجع الى القبلة القديمة » وتبين أن التبشير كان ولا يزال فى خدمة الصهيونية وقد فشلت هذه الجهود ولم تحقق أى ثمرات حقيقية .

أتاتورك

تضاربت الآراء حول مصطفى كمال اتاتورك وحو ل الدور الذى قام به فى تحويل تركيا الاسلامية الى تركيا العلمانية المتغربة .

(أولا) يقول هـ. ك. ارمسترونج فى كتابه الذئب الأغبر : أو الحياة الخاصة لطاغية ، يقول : ان كمال اتاتورك منشىء تركيا المدنية من أصـــل يهودى وأن اجداده اليهود نزحوا من اسبانيا الى مدينة سالونيك فراراً من محاكم التفتيش التى كانت تحكم باحراق اليهود احياء ، أجداده هؤلاء تظاهروا باعتناق الدين الاسلامى لكى يأمنو على انفسهم من اضطهاد سلاطين آل عثمان ويعلق محمد التابعى الذى نشر هذا الخبر فى أخبار اليوم (١٤/١٠/١٩٦١).

والواقع أن الطبقة الحاكمة فى تركيا وفى كل العهود هى من طائفـــة الدونما ، أى المسلمين الذين كانوا يهودا ،

(ثانيا) كانت الدعوى العريضة التى اكسبت مصطفى كمال البطولة هى معركة ازميز التى ادعى أنه قادها وكسبها وكل الوثائق تدل على أن شخصا آخر هو الذى كان بطل هذه المعركة ولكن اتاتورك أقصاه وأكله من فوق طاولة الشطرنج .

كان كاظم قرة بكير هو قائد الجبهة الشرقية فى حرب الاستقلال وهو الذى قضى علي الجيش الأرمنى وجرده من سلاحه ، وقد نشر عـــددا من الوثائق فى جريدة (مليت) فى مايو سنة ١٩٣٣ نقلتها جريدة البلاغ المصرية يفهم منها أنه هو صاحب الفكرة الأولى فى تأسيس حكومة قومية فى شرقى الأناضول ومقاومة الحلفاء بالسلاح ، وأنه أول من باشر العمل فى هـــذا السبيل حين كان الغازى مصطفى كمال لم يزل فى استانبول .

وقال كاظم قرة بكير أن أتاتورك لم يذهب الى الأناضول باختياره ورضائه بل أن خصومه السياسيين فى استانبول هم الذين أرسلوه بوظيفة مفتــش حبشى ابعادا له وان كاظم هو الذى لعب الدور الأهم والذى نتج عنه الظفر النهـــائى .

(ثالثا) أشارت كتابات عديدة الى الدور الذى قامت به بريطانيا لهدم الاسلام وكانت تعلم أن يهود الدونمة فى سالونيك هم المعدون للعمل للقضاء على الخلافة الاسلامية وبالتالى لقضاء على الاسلام ، وهو ما تم فعلا ، وكان توصيل مصطفى كمال الى الحكم هو اثمن الذى قدمه له الانجليز مقابل قضائه على دولة الخلافة واحكام الاسلام فى تركيا واستبدالها بالأنظمة والأحـــكام الغربية واستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية لابعاد الاتراك عن كل ما له صلة بالعرب اى لابعادهم عن الاسلام .

وقد كان أتاتورك آلة من آلات التدمير التى صنعها الغرب لحسابه ، وكان لعبة من تلك اللعب التى تجيد الجمعيات السرية تشغيلها لحســـاب الصليبية واليهودية وقد نشأ وعاش فى احضان جمعية الاتحاد والترقى التى لعبت أخطر الأدوار لتدمير دولة الخلافة .

(رابعا) صدرت فى السنوات الأخيرة رسائل ودراسات كشفت حقيقة هذا الرجل أهمها كتاب زميله الذى لم يذكر اسمه تحت عنـــوان (الرجل الصنم) الذى كشف حقيقة اتاتورك أمام أولئك الذين كانوا يحسنون الظن بالذئب الأغبر الذى لم يقرأوا تاريخه جيدا والذى يكتبون عنه لم يعـــرفوه كثـــيرا .

هل كان أصلا من طائفة الدونمة أم ماسونيا وقع فى حبائل اليهودية العالمية أم قوميا من غلاة الطورانية التركية وقد كانت أعماله شاهدة .

— الحروف اللاتينية حتى فى طبع المصحف الشريف .
— قوانين الأحوال الشخصية الى دائرة الخروج على القـــواعد الاسلامية .
— حرم تعدد الزوجات وجعل للقضاء وحده الفصل فى طلب الطلاق .
— عدل قوانين الميراث فسوى بن الابن والبنت .
— الغى الحجاب وأباح للمراة المسلمة ان تتزوج من تشاء من اى دين .
— الغى الأوقاف الاسلامية .
— شجع الخمر والاتصال بالنساء واخرج المراة بالقوة الى المراقص .
— حطم الأساس الدينى وغير وجهة الشعب التركى .

وقد اشار ولفرد كانتول سميث الى أن احقاد الصهيونية والصليبية كانت من وراء أتاتورك أكثر من خمسمائة سنة بعد أن رفض السـلطان عبد الحميد اقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين ثم راحت القوى الصليبية واليهـودية تشنع بمبادىء الخلافة العثمانيـة ومطالبها لتنتهى بهـدمها من قواعدها .

منـــدل

استطارت شهرة مندل منذ طرح نظريته عن المعادلة البشرية وقد ثبت من بعد أن قواعد مندل فى الوراثة غير محكمة ، وان مندل لم يكن على علم بالافاق الجديد للطاقة التى أوشكت البشرية أن تستشرقها من بعـد واهمها البترول الذى كان ظهوره عاملا هاما فى قلب نظرية مندل والاطاحة بها ، ولكن النفوذ التلمودى اليهودى مازال يستغل هذه النظرية تحت اسم الانفجار السكانى ليحافظ عن وجود القلة من ذوى الثراء والذين يشكلون امبراطورية الربا .

ولقد كانت صيحة أوربا الضالة هى فى محاولة انقاص البشرية بالقضاء على الضعفاء محاولة ضالة ، فقد جفت فيها ينابيع السخاء البشرى عندما دعا الغرب الى قتل العاجز أو تركه يموت دون أن تعمل على علاجه وشفائه وكان أقسى تلك الصيحات القول بالقضاء على الزنوج لحساب شعوب أرقى منهم ، وكان هذا تبريرا كاذبا للاسـتعمار والاسـتغلال لأن الأقـوياء هم الذين يستعمرون ويقتلون الضعفاء بالوراثة .

وكان نيتشه فى مقدمة الدعاة الى ابادة الضعفاء وقد تبين للباحثين ان راى دارون فى تنازع البقاء الذى اخذت به الفلسفات الاستعمارية هو خطأ محض وأن التعاون فى الطبيعة كان اكبر اثرا من التنازع .

فــريزر

يعد فريزر أحد الدعائم الخمسة الذين قامت عليهم الفلسفة المادية فى الفكر الغربى الحديث (دارون — فرويد — ماركس — دوركايم — فريزر) فهو الذى أحيا فى العصر الحديث دراسة الاساطير والخرافة فى بحــوث مستفيضة ضمنها كتابه الغصن الذهبى تناول فيها ركام الفكر البشرى القديم كله فى مجال الطقوس الدينية .

ظهر هذا الكتاب عام ١٨٩٠ ثم أضاف اليه اضافات كثيرة عام ١٩١٥ وما زال يعد الدعامة الأساسية للفلكلور ولما أطلق عليه علم الانثروبولوجيا .

وقد أستغل هذه الكتابات لمحاربة الوحى والدين الحق وتتابع الأديان الى غاياتها بظهور الاسلام ليكون الدين الخاتم الذى استوعب ما جاء فى الأديان السماوية .

ويعد فريزر المتوفى سنة ١٩٤٠ أحد أركان الفكر الغربى الحديث وقد استغلت كتاباته فى الدعوة الى احياء الفلكلور والأساطير والعاميات وما قبل الاسلام وفى محاولة هدم الاصالة الاسلامية والبلاغة الغربية وما يتصــل بمستوى البيان القرآنى .

ويجرى هدف هذا التيار الى القول بأن الفلكلور يقدم المشــــــاعر الشعبية وهى فى جملتها مشاعر ساذجة مختلطة بالوثنيات والخرافات تمثل عصر طفولة البشرية ومنها انطلقت كل الدعوات الى مهاجمة عامود الشعر العربى والفصاحة العربية والخطابة .

وقد درس فريزر فى كتابه طائفة من مظاهر عبادة الأرواح والاعتقاد فى خلودها عند قبائل استراليا وافريقيا وبعض الشعوب الشرقيـــة ، وهى دراسات لا قيمة لها بعد مجىء الاسلام الذى قرر مفهوم الانقطاع الحضارى عن ما قبل الاســـلام .

وقد استهدف فريزر تجديد الخرافة والاسطورة وتقديمها من جديد فى أساليب عصرية بهدف القضاء على الاصالة التى جاء بها الدين الحق .

يوحنا الدمشقي

اختلف الرأى فى أمر يوحنا الدمشقى وان لم يختلف فى انه اكبر علماء اللاهوت فى الكنيسة الارثوذكسية (٧٤٩/٦٨٠) وانه حاول ايقاف الدعوة الاسلامية فألف رسالتين على شكل محاورة بين مسيحى ومسلم فى شأن الوهية المسيح وحرية الارادة الانسانية الغرض منها تبرير النصرانية والاستناد الى افكارها فى مواجهة مفهوم التوحيد وقد طعن فى عقيدة المسلمين والف الكتب فى الرد عليهم وجادل علماءهم فى أمور كثيرة ، وكان قد برع فى المنطق والفلسفة اليونانية واتخذ من هذا المنطق سلاحا يدافع به عن الكنيسة ، وقد فلسف المعارف الاغريقية الوثنية واخضعها لمفاهيم المسيحية ، وجادل المسلمين عن طبيعة المسيح ووضع للمسيحين خطة للبحث والمناظرة استهلها بقوله : اذا سألك العربى ماذا يقول فى المسيح فقل انه كلمة الله ، ثم ليسأل النصرانى المسلم بعد ذلك ، بم سمى المسيح فى القرآن وليرفض أن يتكلم بشىء حتى يجد المسلم فانه سيضطر الى أن يقول : كلمة الله القاها الى مريم وروح منه ، فان أجاب بذلك فاسأله هل كلمة الله وروحه مخلوقة أم غير مخلوقة فان قال مخلوقة فليرد عليه بأن الله اذا كان ولم يكن له كلمة ولا روح فانقلت لك فسيفحم العربى لأن من يرى هذا الرأى زنديق فى نظر المسلمين . وقد استدرج يوحنا المسلمين الى خلق الأفعال وخلق القرآن ومشكلة صفات الله واضرابها ، وهى مسائل لم يكن المسلمون يخوضون فيها ، وكان المسلمون يتباحثون فى صفات الله اهى قديمة ازلية أم حادثة ، ومن جملة ذلك كلام الله والمعروف أن جعد بن أدهم الذى قتله خالد ابن عبد الله العشرى من القائلين بخلق القرآن ، وكان من زملائه غيلان الدمشقى ومعبد الجهنى .

ومن فتنة يوحنا الدمشقى ظهرت هذه الفئة الباغية التى وصفها المستشرقون والغربيون والشعوبيون العرب بأنهم أحرار الفكر وهم القائلون بالجبرية والخارجون عن مفهوم التوحيد الخالص .

يقول الاوزاعى : ان أول من نطق بالقدر رجل من أهل العراق يقال له سوسن كان نصرانيا فأسلم ثم تنصر فأخذ عنه معبد الجهنى وأخذ غيلان عن معبد ، ويكشف صاحب سرح العيون عن اسم ثالث هو طالوت بن أعظم اليهودى الذى أخذ عنه الجعد بن درهم وأبان بن سمعان القول بخلق القرآن

والواقع أن معبدا وغيلان والجعد لم يبتكروا هذا القول بالقدر وتعطيـــل الصفات وخلق القرآن من عندهم ولكنهم تأثروا فى هذه الأقوال بكتابات يوحنا الدمشقى والصابئة الحرانين والمانوية .

وقد قدم الشعوبيون غيلان الدمشقى على أنه من الثوار المسلمين وأنه المسيح المعتزلى الذى صلب فى حكم الأموين وقالوا أنه دفع حياته ثمنـــا لموقفه من خلافة هشام بن عبد الملك وقيل أنه مؤسس المدرسة القدرية التى انطلقت منها المعتزلة . وقيل أن الخليفة عمر بن عبد العزيز وكل اليه رد المظالم والأموال التى اغتصبها الامويون وحقيقة الأمر أن غيلان الدمشقى لم يقتل الا بتهمة واضحة صريحة هى خيانة الدولة الاسلامية وانه اتخـذ الكلام فى القدر وسيلة الى تزييف مفهوم العقيدة الاسلامية كمدخل الى اسقاط الدولة الاسلامية .

وقد أشار كثيرون الى أن يوحنا الدمشقى كان يبث فى المسلمين هذه الدعاوى الفاسدة فانخدع له كثيرون ومنهم ابن جرير الطبرى الذى ذكرها على انها رواية واغتر بها المفسرون جميعا كالزمخشرى والرازى حتى جاء ابن كثير فصحح الأمور وقال إن ما اعتمد عليـــه ابن جرير لا أثر له من الصـــحة .

وكذلك فقد استشهد يوحنا الدمشقى فى الفصـــول التى كتبها عن المسيحية التى كانت تحتضر في سورية ومصر وفلسطين بآيات من القـــرآن وبكثير من الأحاديث لاثبات وجهة نظره ولمناقشة المسلمين بســـلاح المنطق اليونانى .

ويؤكد المستشرقون أن يوحنا بكتاباته قد أثار مشاكل خطيرة منها خلـــق الأفعال وخلق القرآن وصفات الله واستدرج المسلمين الى أمور لم يكونوا يخوضون فيها .

والمعروف أن نظرية القدر دخلت عن طريق النصرانية وحـــدها الى الأسلام بدليل ظهور هذه المشكلة فى الشام والشام ملتـــقى النصرانية فى الجزيرة العربية . وكان المجوس يقولون بالجبر وتتصل هذه الآراء التى بثها يوحنا بجذور فى اليهودية والمجوسية وما حمل لواءه عبد الله بن سبأ .

نصير الدين الطوسى

تعلى كتابات الشوبيون من شأن نصير الدين الطوسى وتضعه فى قمم العلماء والأبطال « ونحن نفرق بين العلم والفلسفة فى مجموعة من الاعلام أمثال ابن سيناء والفارابى وغيرهم » فتقبل منهم علمهم ونرد عليهم مفاهيمهم الفلسفية لأنها باطنية منحرفة ، والأمر كذلك فى شأن نصير الدين الطوسى العالم الرياضى صاحب المائة وخمسة وأربعين مؤلفا فى علم الحساب والمثلثات والهيئة والجبر والطبيعيات ، والذى وصف بأنه حامى الثقافة الاسلامية وتراث العرب الفكرى ابان الغزو المغولى .

والمعروف أن نصير الدين الطوسى ولد بطوس ١٢٠١/٥٩٧ وقضى شطرا طويلا من حياته فى خراسان ، وانه كان بمدينة نيسابور عندما اجتاحها جنكيزخان ففر امام جحافل المغول ولم يجد ملجأ عند قلاع الاسماعيلية التى كانت تقاوم الزحف المغولى فسافر واستدعاه زعيم الاسماعيلية ليقيم معه وبقى فى قلعة الموت حتى سقطت فى يد هولاكو ٦٥٣ وعندها انضم الطوسى الى هولاكو ورافقه فى هجومه على بغداد الأمر الذى حمل بعض المؤرخين على اتهامه بأنه هو الذى أشار على هولاكو بقتل الخليفة المستعصم ورجال دولته وذلك عام ١٢٥٨/٦٥٦ .

وقد علت منزلة الطوسى عند هولاكو فكان يطيعه فيما يشير به عليه بل صار له وزيرا وناظرا على الأوقاف (الصفدى : الوافى بالوفيات) .

وتمكن من انشاء المرصد واستخدم ابن الفوطى البغدادى خازن المدرسة المستنصرية لمكتبه المرصد فجمع ٤٠٠ الف مجدا من الكتب التى نهبت من بغداد والشام والجزيرة أيام الغزو المغولى .

وهناك حول نصير الدين شبهتان : الاولى تقول انه نجح فى عام ٦٥٤ فى أن يوقع رئيس الحشاشين فى قبضة هولاكو الذى صحبه الى بغداد ، والأخرى شبهةاتهامه بقتل الخليفة المستعصم ورجال دولته والعلماء ، هذا بالاضافة الى شبهة اتهامه بالالحاد وقد أشار اليها ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » وصلته بالباطنية والحكماء معروفة وان كانت هناك محاولات لتبرئته من تهمة الاتصال بالاسماعليية ، ولكن تهمته فى التحريض على قتل الخليفة المستعصم مازالت قائمة وقد رددت هذه الاتهامات شذرات الذهب لابن العماد

واغاثة اللهفان لابن قيم الجوزية والصفدى فى الوافى بالوفيات ، وهو لدى المستشرقين فيلسوف باطنى اهتم به داود سميث الأمريكى . وركزوا على شرحه لاشارات ابن سينا وقد اهتمت به الدوائر الاسماعيلية والباطنية وعرفت بكتبه وآثاره ، ومؤلفاته كلها تدل على وجهته ومنها منطقيات والهيات اقليدس ومجسطى ، وله كتاب اخلاق فارسى جمع فيه نصوص ارسطو وافلاطون .

وقد اشار ابن القيم الجوزية فى كتابه اغاثة اللهفان الى ان الشهرستانى نقد ابن سينا وابطل قوله بقدم العالم وانكار المعاد ، ونفى علم الرب وقدرته وخلقه العالم قال فقام له نصير الالحاد : نصير الدين الطوسى ونقضه بكتاب سماه مصارعة المصارعة حاول فيه ان الادعاء بأن الله تعالى لم يخلق السموات والأرض فى ستة ايام وانه لا يعلم شيئا ولا يفعل شيئا بقدرته واجتيازه ولا يبعث من فى القبور .

ويقول ابن الجوزية : والفلسفة التى يقرؤها اتباع هؤلاء اليوم مأخوذة عنه (أى الطوسى) وعن امامة ابن سينا وبعضها عن ابى نصر الفارابى ، وشىء يسير منها من كلام ارسطو وهو مع قلته وغثاثته وركاكة الفاظه كثير التطويل لافائدة فيه ، وخيار ما عند هؤلاء فالذى عند مشركى العرب من كفار قريش وغيرهم اهون منه .

ابن عربى

يكشف ابن عربى فلسفته الملحدة الوثنية المستمدة من فرع الفلسفة اليونانية والغنوصية فى كتابه الفتوحات المكية ، ويحتاط لنفسه بمقدمات خادعة عن التوحيد يعارضها مضمون الكتاب نفسه . وابرز ما يحتويه الكتاب هو خطأ صاحبه فى فهم الأسماء الحسنى حيث يفهمها فهما مبتدعا يخرج بها عن صريح الاسلام من كيد وضلال يروج له وليضيف اليه عوامل البلبلة فى العقيدة بين اجيال المسلمين . وابرز ما يتسم به ابن عرى هو خروجه عن مدلول الألفاظ الدينية وخاصة التأويل .

ويعمد ابن عربى الى أسماء الله الحسنى فيتجاوز معناها وما توحى به من الكمال اللائق بذاته سبحانه الى تصوير كل اسم منها بصورة رب فاعل فيصرف فى مجموعة من حقائق المخلوقات ، وأن هذه الأسماء قد تختلف فيما بينها وأين منها الرئيس والمرءوس والرب والمربوب وأنها تحتكم الى من فوقها

من الأسماء حتى تصل فى النهاية الى الاسم الجامع وهو لفظ الجلالة ، وان الاسم بدوره يستأذن على المسمى وهو ذات الله تعالى حتى يتم الفصل بينهم فيما اختلفوا فيه . ويذكر هذا بما يقال فى الأساطير عن آلهة الاغريق التى تنبو فى عبثها ووثنيتها عن فطرة المسلم الذى يدين بالتوحيد الخالص لله الواحد الأحد رب العالمين .

وهو يذكر بعض الأسماء الحسنى يقول : هذه الأسماء هى أرباب الاسماء وما عداها فسدنة لها — اى خدم — كما ان بعض هذه الأرباب سدنة لبعضها الآخر . والكتاب يصور أسماء الله الحسنى — أو هذه الأرباب كما هى فى تسميته وكيف تتناقش وتختلف وكيف يدخل بعضها على حضرة بعض حتى يفصل بينها الاسم الجامع (الله) .

أو كما يقول —كمال احمد عوف — ان الكتاب يقطع بأن الاله الواحد الهه ويقلب التوحيد الخاص تعددا ووثنية وما أعنى المسلمين وما أبعد الاسلام الحق عن هذا الجنال .

وقد وصف التفسير المنسوب الى ابن عربى كما ذكر الدكتور محمد كركب بأنه ليس تفسيرا للقرآن الكريم حسب اصطلاح المفسرين المسلمين فهو تأويل باطنى بعيد عما يحمله اللفظ القرآنى من معانى الهداية الربانية الحقة ، فصاحبه يتعمد التحريف والتدليس باستغلاله للمعانى الواسعة للالفاظ يوجهها كيف يشاء فتارة يجعلها على الحقيقة وتارة على المجاز حسب غرضه من التأويل فيقتصر فى شرح آيات وفى تأويلها ويطيل فى أخرى ويضرب صفحا عن عدة آيات فلا يفسرها ولا يؤولها . ويحاول انكار القرآن الموصى به من عند الله بواسطة جبريل عليه السلام ، كما يحاول تفضيل الكتب السماوية الأخرى عليه ويفضل بيت المقدس على بيت الله الحرام ، ويعرض بالرسول وبصحابته وبأمته . وقد حدد الباحث فى دراسته أماكن التحريف به والتقصير فى التأويل والشرح والاعراض المقصود وتعمد الدس والتدليس باستغلال المعانى الواسعة للالفاظ مع ابراز ما فيه من التأثيرات الخارجة عن الاسلام وتعمده تشكيك عوام المسلمين فى عقيدتهم وشريعتهم .

وتبين الدراسة أن التفسير المنسوب لابن عربى ليس لابن عربى ولا هو تفسير بالمعنى الصحيح وانما أريد به بث التشكيك فى العقيدة والشريعة، وانه خطر يجب محاربته والوقوف فى وجهه .

خاتمة

كانت قضية تصحيح المفاهيم وتحرير القيم والكشف عن الشبهات والأخطاء الشائعة ودحضها رسالة قائمة مستمرة فى تاريخ الفكر الاسلامى كله وفى مقدمة من عنوا بها واولوها اهتمامهم :

الامام الغزالى فى الرد على الباطنية . وفلاسفة الالهيات .

الامام ابن تيمية فى الرد على المناطقة والصوفية والمحرفين .

الامام ابن حزم فى الرد على ابن النغريلة اليهودى وفى كتابه الفصل فى الملل والنحل .

الامام الشاطبى فى كتابيه الاعتصام والموافقات .

الحسن بن عثمان الخياط : فى كتابه الانتصار والرد على ابن الراوندى .

ومن أبرز المؤلفات التى أولت اهتمامها بالكشف عن الشبهات:

(العواصم من القواصم : للقاضى بن العربى)

ويعد القاضى بن العربى اذكى من فطن لدسائس الشعوبية والباطنية .

قال : لن يأمن من يطالع الشبهة من تعلق بفهمه ولا يلتفت الى الجواب ولا يفهم كنهه اذا انتشرت الشبهة فالجواب واجب ولا يمكن الجواب الا بعد عرض الشبهة ثم اظهار فسادها .

وحذر القاضى بن العربى من اهل الأدب وقال أنهم غلبت عليهم صناعة الأدب فمالوا الى كل غريب من الأخبار دون أن يتحروا الصدق أو يهتموا بالرواية والاسناد . وأشار الى كثير مما أورده الأدباء مما يتعارض مع التحقيق العلمى أو التوثيق التاريخى .

وقال : هذا كله كذب صراح فما جرى منه حرف قط وانما ذكرت هذا لتحذروا من الخلق ، وخاصة المفسرين والمؤرخين واهل الأدب فأنهم أهـــل جهالة بحرمات الدين أو على بدعة مصريين فلا تبالوا بما رووا ولا تقبلوا رواية الا عن أئمة الحديث .

ثم تعرض ابن العربى الى الفلاســـفة السوفسطائيين والطبـــائعيين والالهيين وناظر الباطنيين والحلوليين وأرباب الاشارات من غلاة الصوفية وظاهرية الأجكلم والفرق التى اظهرت بعضها باسم الاسلام . وأخذ على المحدثين ما لديهم من خرافات ورد عليهم واعلن عداءه لمن ارادوا ان يخضعوا الاسلام للفلسفة اليونانية .

(تلبيس ابليس : للإمام ابن الجوزى)

قال فى المقدمة أنه وضعه محذرا من فتنة مخوفا من محنة . والتلبيس هو اظهار الباطل فى صورة الحق ، وجمع فيه الشبهات المختلفة التى عرفها عصره وفى مقدمتها مذهب الدهرية القائم على انكار الخالق والبعث وجحد النبوات وهو مذهب يستمد أصوله من المجوسية ، ويتصل به من يقـــولون بالتناسخ وحرق الأجساد ورد على المقلدين الذين أبطلوا منفعة العقل الذى خلق للتأمل أو التدبر ، وهاجم مذاهب المعتزلة والخوارج والرافضة كما عارض أركان التصوف الفلسفى من وحدة الوجود الى الفناء فى الله ، وعرض للسفسطائية والدهرية والثنوية والفلاسفةالذين أنكروا بعثالأجساد وعارض الباطنية الذين يبطلون النبوة والعبادات والبعث ويدعون أن لظواهر القرآن والأحاديث بواطن تجرى مع الظواهر مجرى اللب من القشر ، وسفه هذه الآراء كلها وكشف عن انها خارجة عن السنة الصحيحة وعن أصول الاسلام المستمدة من القرآن الكريم .

أبواب الموسوعة

(٢٣٢ مادة)

صفحة

اولا : كشاف وفهرس ابجدى للموضوعات فى الأبواب

(من الأول حتى السابع)

(ولباقى الكتب والشخصيات فهرس مستقل)

(أ)

صفحة

صفحة

صفحة

(ث)

(ج)

(ح)

صفحة

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

صفحة

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

صفحة

(ق)

(ك)

صفحة

(ل)

(م)

(ن)

صفحة

X رسائل اخوان الصفا

ثانيا : الكتب والمؤلفات

ثالثاً : تراجم الأعلام

صفحة

صفحة

دار الإعتصام

رقم الايداع بدار الكتب ٣٠٨٢ /١٩٨١